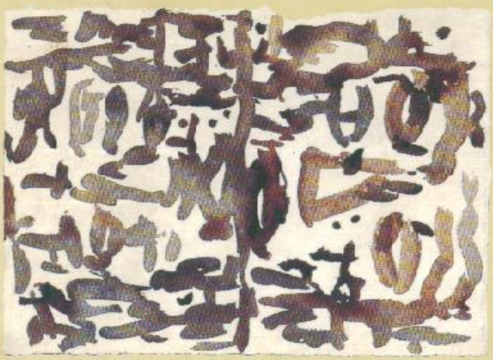


عبد الرحمن منيف

أرض السواد

I

الطبعة الثانية

* أرض السواد (رواية)
* تأليف : عبد الرحمن منيف
* الطبعة الثانية ، 2000

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ، ص . ب : 5460 ـ 11
تلفاكس : 807900/ 807901
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع :
عمّان ، ص . ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، فاكس : 5685501

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

المملكة المغربية .
الدار البيضاء : 42 الشارع الملكي (الأحباس) ص . ب : 4006 (سيدنا)
هاتف : 303339 ـ فاكس : 305726
لبنان
بيروت : شارع جاندارك ـ بناية المقدسي . ص . ب : 5158/ 113
هاتف/ فاكس : 343701/ 352826

عبد الرّحمن منيف

أرض السّواد

I

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

الإهـــداء

إلى نورة، أمي، التي أرضعتني مع الحليبِ حبَّ العراق.

إلى جبرا ابراهيم جبرا، إذ كان يُفترَض أن نكتب معاً هذه الرواية.

إلى فيصل حبيب الخيزران، نيابة عن أصدقاء كثر، كان لهم الفضل في معرفة العراق، الأرض والناس.

HAMDAN.B
17-11-2008

إشـارة

لهجة بغداد مليئة بالكثافة والظلال، وقد استعملتها في الحوار للضرورة، دون محاولة لاظهار براعة لغوية.أتمنى على القارئ أن يبذل جهداً من أجل التمتّع بجمال هذه اللهجة.

يقول شاعر إحدى الملاحم السومرية :

يا سومر، أيها البلد العظيم بين جميع بلدان العالم
أنت مغمورة بالنور الثابت الراسخ الذي ينشر
من مطلع الشمس إلى مغربها النواميس الإلهية بين جميع الناس
إن نواميسك المقدسة، نواميس سامية لا يمكن إدراكها
قلبك عميق لا يسبر غوره
المعرفة الصحيحة التي تأتين بها، كالسماء لا يمكن أن تمس
. . . .
فيا بيت سومر عسى أن تتكاثر حظائرك وتتضاعف أبقارك
عسى أن تكون حظائر أغنامك وفيرة، وماشيتك لا عد لها
عسى أن ترتفع معابدك، وترتفع الأيدي الثابتة نحو السماء.

وبعد سومر وآكاد جاء البابليون، وقال أحد شعرائهم بعد أن دهمت البلايا:

إني، يا إلٰهي، عبدك المنيب
أدعوك دعوة من أثقلته الذنوب
وقلبه يخفق أسى وحسرة
نظرة منك بها حياة المرء
فانظر إليّ وهبني منك عطفاً

واقبل دعواتي
وخذ بيد عبدك
من هذه الحمأة التي تورط فيها
وقرّبه منك
وأبدلني بالذنب رحمة
وسخِّر الرياح بأن تحمل عني
ما حملت أنا من إثم
وجرّدني من ذنوبي كلها
كما تجرَّد عني ثيابي
واصفح عني أنا الضارع الذليل
لكي يمتلىء قلبي غبطة
كتلك التي تملأ بها قلب الأم حين تضع
وقلب الأب بابنه .

وجاء الغرباء ودمَّروا أور، فقال أحد شعرائها :
أيها الرب، أنانا، لقد دمرت المدينة
كقطع الخزف المهشمة ملأ أهلوها جنباتها
هدمت أسوارها وناح الناس
ناحوا عند البوابات العالية، حيث كانوا يتنزهون،
وفي الشوارع، حيث أقاموا الأعياد، نثرت أجسادهم
في كل الدروب، حيث كانوا يتنزهون، تناثرت الأجساد
وفي ساحاتها، حيث احتفلوا، تراكمت أكوام القتلى
إيه يا أور . . . إن ضعفاءك وأقوياءك قد قضى عليهم الجوع
الأمهات والآباء الذين لم يغادروا منازلهم، التهمتهم النيران
الأطفال في أحضان الأمهات جرفتهم المياه كالأسماك
وفي المدينة، الزوجة تركت، والابن أُهمل، والممتلكات نهبت

إيه أنانا، إن أور قد خُرّبت وأهلوها قد شتّتوا.

أما نشيد نرجال عن المدينة حين تنهض من جديد فيقول:

ترتدي النور
وتحني رؤوس المتكبرين
قوية هي أياديك، ورحب هو صدرك
وما أن تشع عظمتك الرهيبة
فإن المسيء والشرير لا بد أن يرتميا
في أصداع الأرض

قال جوديا يبتهل لنانشي: «سأطرح هذه الكلمات، يا أمي، سأسرد لك حلمي، فهل ترغب مفسرة الأحلام أن تفسره لي؟»

حديث بعض ما جرى

لما حضرت سليمان الكبير الوفاة، بعد أن ظل والياً لبغداد اثنتين وعشرين سنة، جمع أولاده الثلاثة: سعيد وصالح وصادق، وجمع معهم أصهاره الأربعة: علي باشا وسليم آغا وداود آغا ونصيف آغا، واستدعى أيضاً محمد بك الشاوي، وزير باب العرب، ليكون شاهداً. كان الجو، حين اجتمعوا حوله، مشحوناً بالرهبة والحزن. نظر كل واحد منهم إلى الآخرين نظرة سريعة مضطربة، ثم تركزت العيون على سليمان باشا. بدا شاحباً مملوءاً بالأسى وهو ينقل نظراته في الوجوه. لم يتكلم أحد، خيَّم صمت واسع وقاس. في لحظة ما بدأ سليمان باشا كلامه، خرج صوته حزيناً مختنقاً «إن اللّه حق، والموت حق، ولا بد لكل إنسان أن يموت» أغمض عينيه، كأنه يستريح أو يحاول تذكر ما يريد أن يقوله، وتابع بعد فترة صمت ثقيلة: «لقد حانت نهايتي. سأترككم وأترك الأمانة بين أيديكم.»

صمت وطال صمته، حتى ظن الذين حوله أن لم يعد لديه ما يقوله. لكن فجأة استعاد أنفاسه، تحرك في سريره أكثر من مرة، وتكلم باضطراب. تكلم عن قوة الجماعة وضرورة ترابطها، ثم أوصاهم جميعاً، وهو ينقل نظراته بينهم، أن يولّوا بعده صهره علي باشا، الأكبر سنا والأكثر تمرُساً بالحكم. طلب منهم ذلك بطريقة تقع بين الأمر والرجاء. وألح عليهم ألا يختلفوا حوله، وحذرهم من مغبة التنازع فيما بينهم. وقال، كما روى حامل الأختام: «إذا كنتم قلباً واحداً، وبينكم محبة لا يتسلط الغريب

وتحوزوا الدولة التي اقتنيتها، وإلا متى تفخّذتم عن بعضكم يأتي الغرباء من الوزراء ويبدلون الدولة والعائلة».

لم يكد سليمان باشا يلفظ أنفاسه ـ وقيل أن ذلك تم قبل ساعة من الوفاة ـ حتى جمع رئيس الانكشارية، أحمد آغا، من استطاع جمعهم من الرعاع والسّوقة، واستولى على القلعة. تحصن داخلها وأخذ يضرب السراي بالقنابل. لما سمع الناس الدوي أسرعوا فأغلقوا دكاكينهم، وامتلأت شوارع بغداد بالمسلحين من الأهالي، وبقيت الحالة متقلقلة والأمور مضطربة.

كان رئيس الانكشارية، أحمد آغا، يريد الصهر الثاني، سليم آغا، والياً، في الوقت الذي وقف محمد بك الشاوي مع علي باشا.

أما داود آغا، الصهر الذي تزوج أصغر بنات سليمان باشا، فقد أدرك أن فرصته لم تحن بعد، لذلك حزم أمتعته وسافر إلى البصرة، وبعد أن قضى هناك فترة يدرّس ويتفقه بشؤون الدين، عاد إلى بغداد واستقر بجانب مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني، حيث يستطيع هناك أن يواصل تلقي الدروس، وأن يدرّس.

في اليوم الذي تلا وفاة سليمان الكبير نودي في بغداد باسم علي باشا والياً، فأعطى الباشا الجديد الأمان، وطلب من كل فرد أن يلزم حدّه في صناعته، لكن الانكشارية، ومعهم الرعاع، أخذوا يدورون في الشوارع وهم تحت السلاح، وأغلبهم سكارى، في الوقت الذي لم ير في شوارع بغداد سكران أيام سليمان. وتبع أحمد آغا أرباب النهب والسلب من محلتي الميدان والشورجة، وأسافل المحلات الأخرى. أما أهالي باب الشيخ ومحلة الباب الوسطاني فلم يتبعوه، إذ مضى هؤلاء بالآلاف إلى السراي، وأقاموا المتاريس هناك.

ونهار السبت أخرج أحمد آغا المنادين داعياً إلى قتل علي باشا ومحمد بك الشاوي. وعصر ذلك اليوم «بدأ الطوب يشتغل من القلعة على السراي» وبدأ نهب الدكاكين، «ولم يبق دكان في جميع أسواق المتاجر

والعطاطير والبقاقيل، التي لا عد لها، إلا وفتحوها ونهبوها، ونهبوا حتى الأقفال».

حين رأى محمد بك الشاوي الحال تسوء ساعة بعد أخرى، وكان مسيطراً في جانب الكرخ، أرسل يستدعي الوالي علي باشا، ليكون في مأمن من المخاطر والفوضى. وما أن عبر الباشا الشط إلى الضفة الثانية حتى هنأه الشاوي بسلامة الوصول، وطلب منه أن يتماسك وأن يتفاءل، لأن الأمور ستعود إلى طبيعتها، وستعود إليه السلطة بكل تأكيد.

ولم يتأخر محمد بك الشاوي لكي يأمر العقيل وعرب الجبور بالقضاء على الفتنة، فعبر هؤلاء النهر ليلاً وهم يصرخون: «لعينك يا علي باشا»، وهجموا على المتاريس، وأحرقوا جانباً من السوق المواجه للميدان، تحسباً من وجود الكمائن، وواصلوا الهجوم والنار مشتعلة، فهرب الذين كانوا في الكمائن من النار، والعقيل والجبور وراءهم، وهم يصيحون بالهاربين حتى قطعوا قلوبهم، فتبددت جموعهم، وعلى رأسهم الآغا إذ انهزم وتوارى.

وبعد الظهر قام المفتي ومعه العلماء، أخذوا سنجق الشيخ عبد القادر، ومضوا إلى القلعة وعسكروا هناك، وقالوا: كل من أعان الآغا على غيه فقد كفر، لأن الطاعة واجبة لولي الأمر، علي باشا.

وضرب العقيل والجبور باب القلعة، ضربوا الباب الصغير، فتحوا فيه ثغرة ودخلوا. فلما رأى المحاصرون ذلك رموا بأنفسهم من أعالي الأسوار إلى الأرض أو إلى الشط، ومن نجا وهرب منهم ذهب إلى نهب البيوت!

أما علي باشا فقد رجع من جانب الكرخ وجلس في السراي، وأمر أن يمضي رجاله لينهبوا بيت أحمد آغا. وفي ظرف ساعة صار ذلك البيت خراباً، وأُخرجت نساؤه سبايا، وضبط العسكر الكثير من الجواري ومعهن جملة من الأموال خرجن بها من البيت.

ونادى المنادي: كل من وجد الظالم، أحمد آغا، وجاء به أو أخبر عنه، له جائزة ألف ليرة ذهبية.

وفي اليوم التالي، والمنادي ينادي، قبض على مملوك لأحمد آغا، ولما ضُرب أقر أن سيده في بيت بمحلة رأس القريَّة، فجاءوا إلى البيت وأخرجوه، وفي ذلك اعتبار كاف لكل ظالم، لأنهم حملوه كأنه حمل: كان حافي الأرجل، مكشوف الرأس، وبهيئة الموت. وكان أمامه ووراءه خلق لا عد لهم. ولما وصلوا به إلى السراي ورآه علي باشا ضربه على رأسه بغدارته، وأمر بتقطيعه، فسحبوه إلى وسط الميدان، وكل يضربه ضربة. كانوا يضربونه بالسيوف والخناجر، وحلت نهايته، وكانت نهاية تعيسة. ثم صدر الأمر بالتفتيش على موجوداته وعلى كل من يمت له بصلة. وهكذا كانت نهاية من لا يحفظ وداً، وكل من يقوم في وجه الوالي، أو لا يطيع له أمراً!

ما كادت هذه الغمة تنقضي، وقبل أن يستقر الوضع لعلي باشا، حتى بدأ الغزو الوهابي، مرة أخرى، كما يروي التاريخ. وإذا كانت لكل حرب أسبابها وذرائعها، فقد اعتُبر الملا عثمان الذريعة. فهذا الرجل الذي قتلت زوجته وأولاده أمام عينيه في أثناء غزو كربلاء، قرر أن ينتقم. ذهب إلى الدرعية بزي درويش، واختلط بالناس هناك إلى أن ألفوه وأطمأنوا إليه، وكان يصلي في الجامع الذي يصلي فيه الأمير عبد العزيز. وفي يوم جمعة، انتهز الملا عثمان الفرصة أثناء الركوع، فألقى بنفسه على الأمير وطعنه بمدية اخترقت بطنه من الخلف، وطعن شقيقه، الذي كان يصلي إلى جانبه، لكن الأخير هوى على القاتل بسيفه وقتله.

وجاء بعد عبد العزيز ابنه سعود، وكان مصمماً على الانتقام من حاكم بغداد، إذ اعتبره مسؤولاً عن اغتيال أبيه، فتوجه على رأس قواته إلى البصرة وقتلوا فيها الكثيرين، ثم أغاروا على جماعة من المنتفق، كانوا قرب البصرة، برئاسة منصور بن تامر، فقتلوا عدداً منهم وأسروا رئيسهم. وذهبوا بعد ذلك إلى مشرب ماء الزبير فقتلوا عدداً كبيراً وهدموا مشرب الماء، ثم حاصروا المدينة. استمر الحصار اثني عشر يوماً، حصدوا خلالها المحاصيل الزراعية التي كانت ناضجة آنذاك، وهدموا القبور

والمشاهد الموجودة خارج السور، ثم عادوا من حيث أتوا.

وأشيع خلال تلك الفترة أن محمد بك الشاوي، وأخاه عبد العزيز، يميلان إلى العقيدة الوهابية، فأمر علي باشا بقتلهما، فقُتِلا.

وفي السنة التالية حاصر الوهابيون النجف، وكادت المدينة تسقط بأيديهم، لكن تجلت في اللحظة المناسبة المعجزات الظاهرة والكرامات الباهرة لأمير المؤمنين، فتصدى مع المدافعين للغزاة وكسرهم، وردهم خائبين.

أما مدد بك، وكان من المقربين لعلي باشا، فقد حمل في قلبه الحقد، وكان يضمر الشر للوالي. وأثناء صلاة الصبح في المسجد هجم مدد بك وأغمد خنجره في خاصرة علي باشا فقتله. وهرب من المسجد متوجهاً إلى دار سعيد بك ابن سليمان باشا، ولكن هذا طرده، فلجأ إلى بيت نصيف آغا، فاستقبله، واغتنم الفرصة ليطالب لنفسه بالولاية، إذ أرسل مدد بك ومن معه إلى دار النقيب، متولي أوقاف عبد القادر، ليقنعه بتولية نصيف آغا، لكن سليمان، ابن أخت علي باشا، كان أسرع منه، إذ حظي بمباركة الأعيان والعلماء، بمن فيهم النقيب، فقد سبقه إليهم، فبايعوه بدل الوالي القتيل، فوقف سليمان في وجه العصاة وطاردهم، فلجأ نصيف آغا إلى جانب الكرخ لعله يجد أنصاراً وحماة، لكن الناس هناك أنكروه ثم قتلوه، وشدوا في رجله حبلاً وسحلوه، وعبروا بجثته إلى جانب الرصافة.

كان سليمان الصغير ـ وقد سمي كذلك تمييزاً له عن سليمان الكبير ـ ويطلق عليه العامة كوچوك سليمان، حين تولى السلطة، حديث السن، مغروراً، وما كانت اسطنبول لتوافق على تعيينه والياً لولا تدخل فرنسا، إذ أصر سفير نابليون لدى السلطان على تثبيته «لأن أحوال بغداد في حالة الاختلال، وقوة سليمان باشا في غاية الكمال، فيكون من مصلحة الدولة توجيه الولاية إليه، ومن واجبه أن يبلغ هذا إلى الباب العالي بصورة ودية».

عينت إسطنبول سليمان الصغير والياً، لكن على مضض، وأخذت تتحين الفرص لعزله من ولاية بغداد. وحين جاءت الشكاوى ضده من

الموصل وماردين، تذكرت إسطنبول أيضاً أن سليمان الصغير لم يرسل الأموال المقررة عليه، فأوفدت إلى بغداد خالد أفندي، ثعلب الصحراء الأغبر، كما يطلق عليه محبّوه ومبغضوه في إسطنبول، والذي يعرف أحوال العراق كما يعرف باطن يده، كي يتولى أمر سليمان الصغير.

لما وصل خالد أفندي إلى بغداد خيّر سليمان باشا بين أمرين: إما أن يدفع ما عليه من الأموال ويستمر في الدفع مستقبلاً، أو أن يتخلى عن الولاية.

كان رد سليمان باشا: ابتسامة صغيرة ساخرة، وهزات رأس رافضة، ثم قال: لا هذا ولا ذاك.

رجع خالد أفندي إلى الموصل، ومن هناك بدأ يهيىء لمعركته مع سليمان. جهز حملة كبيرة، ثم زحف باتجاه بغداد، وعند خرنابات تقابل الجيشان. كان النصر، في البداية، لسليمان الصغير، لكن جاءت الأخبار من بغداد أن أحد الآغوات استولى على القلعة، فعاد سليمان مسرعاً ليقمع التمرد، ويسترد القلعة.

انتهز خالد أفندي الفرصة، بعد أن رمم جيشه، وواصل الزحف، وبالقرب من الأعظمية وقعت المعركة بين الجيشين. كانت النتيجة في نهاية اليوم الأول تميل لمصلحة سليمان باشا، وبات ليلته تلك وهو واثق من النصر النهائي، لكن لم يكد يستيقظ فجر اليوم التالي حتى وجد أن معظم جنوده قد تخلوا عنه، إذ رجعوا إلى بغداد، وكانت الحجة أنهم سمعوا بورود فرمان السلطان بعزل سليمان باشا!

لم يبق مع سليمان إلا ثلاثون من رجاله، ولما تراجع ليعبر نهر ديالى، تصدى له نفر من شمر وقتلوه، وجاءوا برأسه إلى خالد أفندي، فأكرمهم وأجزل لهم العطاء، كما أمر بسلخ الرأس وإرساله إلى إسطنبول، عن طريق الموصل، وكان ذلك يوماً مشهوداً.

أما الفرمان الذي حمله خالد أفندي معه فكان خالياً من اسم الوالي الذي سيعيَّن بدل سليمان الصغير، إذ ترك لثعلب الصحراء الأغبر أن يختار

من يراه مناسباً، فاختار من بين المتنافسين الكثيرين عبد الله التوتونجي.

لم يمض شهر على تسمية التوتونجي والياً حتى انفجر الوضع من جديد، وقد فجره ذاك الذي استولى على القلعة، إذ كان يطالب بثمنٍ لمشاركته في دحر سليمان الصغير. لكن التوتونجي رفض الإعتراف بفضل أحد، أو بأداء أي ثمن، ولذلك واجه التمرد بالقوة. بعد الصدام، وبعد أن تفوقت قوات التوتونجي انسحب ذلك الثائر وجماعته ولجأوا إلى الباليوز، لكن القنصل الإنكليزي لم يشأ حمايتهم، مما اضطرهم إلى الفرار من بغداد.

وطوال ولاية التوتونجي، وكانت قصيرة، ظلت الخشية، كل الخشية، من سعيد بن سليمان الكبير، إذ يعتبر وحده المنافس الخطر، وبدأ اسمه يتردد أكثر من قبل، وتجسدت خطورته جدياً حين غادر بغداد، وتحالف مع شيخ المنتفق حمود بن ثامر، الأمر الذي دفع الوالي إلى تجهيز حملة كبيرة، قادها بنفسه، وقد ألحقت تلك الحملة بالعشائر وبسعيد هزيمة كبيرة، لكن فجأة تغير الموقف، إذ تذكر معظم قادة التوتونجي أفضال وإنعامات والد سعيد، سليمان الكبير، عليهم، فأحسوا بتأنيب الضمير وضرورة رد الجميل، وهكذا تحولوا، واحداً بعد آخر، إلى تأييد سعيد، فقبضوا على التوتونجي، وساقوه مقيداً إلى سوق الشيوخ، وهناك قتل، وسمي سعيد والياً على العراق.

عندما سمع قاضي بغداد بهزيمة ومقتل التوتونجي أعلن باشوية سعيد، وقرر مع الأعيان والوجهاء إلتماس السلطان بتعيينه والياً، وألحوّا في الطلب والرجاء، فوصل الفرمان السلطاني أوائل حزيران بتسمية سعيد والياً، وبالإنعام عليه أيضاً بمنصب الوزارة.

كان سعيد في الثانية والعشرين عند توليه السلطة، كان غرّاً، بعيداً عن شؤون الحكم، أقرب إلى الترف والانغماس في الملذات، فترك للآخرين إدارة شؤون الولاية، فاستغل حمود بن ثامر الفرصة، وخص نفسه وعشيرته بالأرض والماء والخيرات.

يقول إبن سند: «كان سعيد كالدمية بيد حمود». ويقول رحالة إنكليزي زار بغداد في تلك الفترة: «إن الباشا مشغول بالمظاهر وبرياضته اليومية أكثر من أي شيء آخر».

تمردت العشائر التي حرمت من الأرض والخيرات والماء، والتي عانت أيضاً من تحكم حمود بن ثامر، فثارت وأصبحت تهدد بغداد، وعند ذاك لم يجد سعيد غير داود لكي يتعامل مع هذا الخطر المحدق، فانتزعه من عزلته، ووجهه نحو العشائر المتمردة. استطاع داود بالحزم والحنكة أن يقضي على هذا التمرد. وما أن هدأت الأمور حتى قامت ثورة من نوع آخر: ثورة نابي خاتون، زوجة سليمان الكبير ووالدة سعيد، إذ اعتبرت عودة داود تحدياً لها، فلقد رفضت، ومنذ البداية، أن تزوجه ابنتها، لكن لم تستطع الوقوف في وجه سليمان، فلجأت إلى معاملته بخشونة، وبعض الأحيان بازدراء، وكانت لا تخفي عداءها له. أما الآن، وبعد أن قضى على التمرد، وأصبح الجميع يلهجون باسمه، فقد أصبح رجلاً خطراً.

قالت نابي خاتون لابنها سعيد تؤنبه، عندما جاء لزيارتها: «كيف تتخذ داود نائباً لك وأنت تعرف حق المعرفة أنه وأشباهه أعدائي منذ وقت طويل؟ يجب أن تعزله حالاً، وإلا فوجهي حرام عليك، وحليبي غير محلل لك، فلست أنت ولدي ولست أنا أمك».

ولم يجد سعيد بداً من عزل داود.

لم تكتف نابي خاتون بعزل داود، بل بعثت وراء عبد الله ظاهري، الذي كان نائباً لزوجها وعينته نائباً لسعيد. رفض ظاهري، أول الأمر، ومما قاله لتبرير رفضه: «. . . . كان المرحوم سليمان باشا أفلاطون زمانه. كان معمر الأطراف والحواشي، وكان عنده رجال يخدمونه بالصدق، أدناهم كنت أنا، فكثر في أيام حكومته العلماء والشعراء وأهل الصنائع، وكثرت البضائع وتعمرت البلاد، كما قلّ الأوباش. أما اليوم فانتم تريدون أن أباشر الأمور، وأتعاطى سياسة الحكومة، وكل أمور أفندينا، سعيد باشا، وكل خصوصياته، بأيدي أوباش مجتمعين على رأسه، فكيف

أستطيع ذلك؟»

لم تقبل نابي خاتون أعذاره، وما زالت تصر عليه، وما زالت تلح إلحاحاً شديداً، حتى اضطر مكرهاً للقبول!

باشر عبد الله ظاهري أمور الدولة، وبذل كل جهده خلال أربعة شهور، ثم في لحظة لم يحس بها أحد هرب واختفى!

هرب بعد أن وقع سعيد باشا في غرام شاب اسمه حمادي العلوجي. كانت علاقته به في البداية إعجاباً، لكن لم يلبث هذا الإعجاب أن تحول إلى عشق، ثم أصبح العشق هياماً فاستلاباً لا فكاك منه، لما يتمتع به حمادي من حسن وإغراء، ومن رقة وسخاء، الأمر الذي حمل الناس على الاقتناع أن العلاقة بين الاثنين تفوق الحد وتتجاوز الوصف، خاصة بعد أن شاع الاسم الذي يطلقه عليه سعيد: حادي، وبعض الأحيان حداوي، وكان الناس يسمونه من قبل ابن أبو عقلين لخفته وسوء سلوكه، وقيل أيضاً لأنه جاء من بعقلين!

أصبح حمادي الآمر الناهي، إذ لا يمكن أن يرد له طلب عند سعيد، ولا يحصل أي أمر إلا بموافقته ورضاه، كما أصبح يرتقي في مناصب الدولة إلى أن وصل لرتبة نائب الوالي.

وغرق سعيد بعشقه وفسقه، فأهمل أمر الرعية وشؤون الحكم، فتدهورت الأحوال وضاق الناس وارتفعت الشكوى، ولم يتأخر داود لكي يلتقط الإشارة، ويدرك أن زمنه قد حان.

غادر بغداد مع مائتين من رجاله الأشداء، بحجة الصيد، لكنه صمم أن يقود المعارضة وأن ينقذ البلاد.

من بغداد إتجه إلى الشمال، حيث يتجمع أعداء سعيد. ومن هناك كاتَبَ إسطنبول، واتصل بخالد أفندي، فلقي الدعم والتأييد، خاصة وأن خالد أفندي أصبح معادياً وحاقداً على سعيد، بعد أن رفض له في وقت سابق طلب تعيين عزرا رئيساً للصرافين، بدلاً من ساسون، لأن نابي خاتون وحمادي لم يكونا راضيين عنه.

وأخذت الأحوال تسوء يوماً بعد يوم، ولو ترك الأمر لسعيد باشا لاختار أن ينسحب، لكن حمادي لم يوافق، وما زال يحرضه على الرفض والمقاومة حتى اضطره للإذعان. قال له حمادي حين وجده متردداً: «إذا خالفتني فقدتني، وإذا طاوعتني فأنا لك إلى الأبد». وهكذا وجد سعيد نفسه مضطراً لمواجهة داود.

تقدم داود بقواته نحو بغداد، ونشبت المعركة بين الطرفين، ومثلما هي الحال في العديد من المعارك، كان النصر في البداية إلى جانب سعيد، فانسحب داود، لكنه لجأ إلى الحصار، إذ منع وصول المؤن إلى بغداد، فارتفعت الأسعار، وضج الناس بالشكوى، وبدأت بوادر الثورة في محلة باب الشيخ، ثم امتدت إلى المحلات الأخرى، فخرجت المظاهرات يتقدمها حملة الأعلام والدفوف والطبول، فعمت الفوضى وكثر السلب والنهب، مما اضطر سعيد إلى الاعتصام في القلعة.

تواصلت المناوشات بين الجماهير وفلول قوات سعيد لمدة خمسة أيام، وقد جرح في إحدى المعارك حمادي العلوجي، الأمر الذي أخرج الوالي عن طوره، وجعله يترك كل شيء ويرابط إلى جانب حمادي لا يفارقه لحظة واحدة، يواسيه ويخفف عنه، وحينئذٍ اجتمع أعيان بغداد وعلماؤها فكتبوا إلى داود يحثونه على الإسراع لدخول بغداد.

1

وفي ليل الخميس، التاسع عشر من شباط، اختلى داود باشا بمحب الدين المرادي، كبير المنجمين، ليقرأ له الطالع، وليستشيره حول أنسب الأوقات لدخول بغداد. طلب محب الدين مهلة بضع ساعات، كي يرجع إلى أوراقه وأصفيائه من أجل أن يرد الجواب، «لأن الأمر جلل والنجوم في حالة اختلال».

وخلال تلك الساعات، بين الأوراق والبخور والأوراد، ثم الاجتماع برهط من أصحاب البركات، انكشف لمحب الدين المرادي الوقت والمجال. قال للباشا، وكان صوته عميقاً وفيه رنة خشوع: «السعد ممتزج والبروج ثلاثة، فإن حان القوس، وكان بمنزلة الإكليل، ففي ذلك الوقت تسير، لأنك تخرج من البروج الشمالية إلى البروج الجنوبية. وعند زيادة الميل تكون وقفة العز، وأنك مع الله تخرج من المرئي إلى جيب التمام، وحيث يلتقي الخطان يكون المجرى وفيه الأمان، ولا بد أن يكون ذلك بعد إشارة أو اثنتين، وإذا قدر الله وشاء يصير كل شيء إلى الرضا والمبتغى، خاصة وأن الغد جمعة الرحمان، وعند الفجر يبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، والخيرة ستحدد الوقت والأوان، فإلى أن تحين نم آمناً، وسنبلغك، بمشيئة العليم القدير، ما تقوله الطوالع والأقدار.».

وفي يوم الجمعة، العشرين من شباط، قال محب الدين المرادي للباشا همساً، وهو يستعد للتهليل والتكبير: «حان وقت السعد يا باشا، وبغداد

منذ اليوم لك، فإذا أصبحت الشمس في برج الزوال صَلِّ ولا تتأخر في الدخول، ادخل بغداد آمناً، ادخلها دون تأخير».

ولما كبَّر المؤذن معلناً منتصف النهار، وما أن انتهت الصلاة، وكانت قصراً، حتى دقت الطبول إيذاناً بالدخول. فامتطى الباشا حصانه وهمزه، فمد الحصان رجله اليمنى، كما أكد الكثيرون، واقتحم، وكان هذا من مطالع الخير والبركة. وبلمح البصر اجتاز الباب الشرقي، وبلمح البصر أصبح الباشا في بغداد.

الحصان الذي امتطاه داود باشا كان أقرب إلى البياض، وقد سماه، تيمناً، المبروك. كان الحصان، بنظر الذين رأوه عن قرب، أكثر ارتفاعاً من الخيول الأخرى، وكان أكثر رشاقة أيضاً. وكان يخالط بياضه قليل من الزرقة، يظهر ذلك من العرف المسترسل على الرقبة، ثم يمتد بلمعان باهر حتى الذيل. أما حين تسقط عليه الشمس فيبدو شديد البريق، أقرب إلى الوهج، وكأنه مغسول بالزيت والنور معاً.

أحاط بداود باشا، بعد أن اجتاز البوابة بمفرده، وعلى مسافات متفاوتة، لكن دون قدرة على ضبط خطوات الخيول: قادة الجند والمفتي والنقيب، ثم عدد كبير من الوجهاء وآغوات الكرد وشيوخ العرب، ثم عدد من العلماء والتجار، وأكبر من هذه الأعداد الحرس والجنود. وكان يحف الجميع، من كل ناحية، وعلى طول الطريق المؤدي إلى السراي، حاملو البنادق والسيوف. أما الموسيقيون، وضاربو الطبول بشكل خاص، فقد تقدم عدد منهم الموكب، واتخذ آخرون مواقع ثابتة على طرفي الطريق، خاصة عند المنعطفات أو في الميادين.

كانت الموسيقى وهي تتردد وتختلط تفقد إنسجامها ووحدتها، وكانت أصوات الطبول تطغى على كل ما عداها، وتلتحم بأصوات الذين يهتفون ويهللون. وعند كل زاوية، وفي كل ميدان، حين تضج أصوات الطبول الواقفة مع أصوات تلك التي تسير، يلتهب الجو ويرتفع الدوي ويزداد الصخب، كما تتوالى، بتدفق مجنون، موجات البشر. ويحاول الناس،

جاهدين، السير مع الموكب ومرافقته، وحين يعجزون، يتزايد التدافع وتتراكب الكتل لتكون كل واحدة أقرب إلى موكب الباشا، أو على الأقل أن تحافظ على موقعها. يتم كل ذلك مع الفرح الجامح، ومع التهليل والتكبير.

كان الناس في حالة من الهياج لم يُشاهَدوا في مثلها من قبل، إذ تمتزج عواطف الفرح بالانفعال، بالرغبة في عمل شيء ما. وكانت الشمس الدافئة تزيد هذه الرغبة وتذكيها. فالعيون لا تستقر في مكان، والأيدي تتحرك بعصبية وعنف تعبيراً عن التحية، والأجساد المتراصة بمقدار ما تولد الدفء اللذيذ فإنها تولد الضيق، وبعض الأحيان الشعور بالاختناق. لكن ما أن تزداد ضجة الطبول التي تتقدم الموكب، ويجاريها الذين يقفون في الأماكن الثابتة، وما إن تظهر طلائع الحرس الخاص حتى يزداد الانفعال وترتفع الأصوات والأيدي أكثر من قبل في محاولة لأن تقول شيئاً قوياً.

الناس يرفعون أكفهم أو يهزون قبضات الأيدي ويرددون بأصوات متداخلة أقرب إلى التنغيم: مرحباً يا حامي البلاد، مرحباً يا منقذ العباد، مرحباً وخير مقدم. والباشا الفرح، المنفعل، البادي القوة والنشاط، يرفع يده اليمنى بين لحظة وأخرى، والابتسامة الواسعة لا تفارق وجهه. كان يتلفت في كل الاتجاهات، وكانت نظراته كالريح تمسح الجموع، بحيث يصبح كل من يراه مقتنعاً أن الباشا يحييه، ينظر إليه بشكل خاص، وأنه يعنيه قبل أن يعني أي إنسان آخر.

بدا ذلك اليوم من شهر شباط أقل برودة من أيام أخرى، وهذا ما جعل الناس يشعرون أكثر بالفرح. حتى النسوة اللواتي خشين ألا تتاح لهن الفرصة لرؤية الوالي الجديد، بسبب نزق الآباء والأخوة والأزواج، إذ لا يسمحون لهن في العادة بالخروج إلا لزيارة الأهل والمقامات الدينية، أو الوفاء ببعض النذور، ويعللون ذلك بالخوف عليهن... تمنت النسوة من أعماق القلوب لو يتسامح الرجال في مثل هذا اليوم ويتركون لهن حرية

الحركة، وهذا ما حصل بالفعل، خاصة بعد الأيام الثقيلة المليئة بالرعب التي مرت.

لقد كان من جملة الحظوظ الحسنة، وتفاءل بذلك الكثيرون، أن الآباء والأزواج، وهم يسمعون النسوة يتهيأن للخروج، تظاهروا أنهم لم يروا. كما أن السماء وهي تصحو، والشمس وهي تنشر دفأها في الهواء، جعلت الرجال أكثر تسامحاً، وهذا ما يسَّر للنسوة تجاوز الشرفات وسطوح المنازل، كما كانت العادة في مرات سابقة، وأن يشهدن كل شيء بأنفسهن، ولا يعتمدن على ما ينقله الصبية أو بعض الرجال، بعد أن يُحَرَّف ويتغير بحيث يصبح شيئاً مختلفاً.

إن التعب الذي مازجه الخوف طوال الشهور الماضية جعل الكثيرين لا يصدقون أن الكابوس انتهى، إلا إذا شهدوا ذلك بأنفسهم ليتأكدوا، وهذا ما دفع الرجال والصبية، وكانوا أقرب إلى الانفعال، إلى الخروج من البيوت مبكرين، بعد أن تزايدت الإشاعات، وكانت هذه المرة تترافق مع الأيمان المغلظة والتأكيدات أن داود باشا سوف يصلي الجمعة في مقام سيدنا عبد القادر، وربما هذا ما جعلهم يتصورون أن النسوة إذا ذهبن إلى مكان فلن يتجاوزن مقاماً من مقامات الأولياء، ومن هناك سيرفعن الأدعية والابتهالات لكي يخلّص الله الناس من الضيق والهم، بعد أن ارتفعت الأسعار في الأسابيع الأخيرة بطريقة جنونية، لم يتصورها أو يصدقها أحد، واضطر الكثيرون إلى بيع أشياء عزيزة لم يفكروا يوماً ببيعها، بل أكثر من ذلك كانوا يعتزون بامتلاكها، لأنها تعني لهم ذكرى عزيزة أو قيمة خاصة، ويريدون أن يورثوها لأبنائهم.

لقد باع الكثيرون أشياء مثل هذه مرغمين. فعلوا ذلك وأمل شاحب يراودهم أن زمناً آخر سيأتي، وسوف يستطيعون استردادها، أو شراء ما يماثلها، رغم قناعة في داخلهم أن ذلك لن يحصل في وقت قريب، ومع هذا ظلوا يبيعون، وظلوا يؤملون ويكابرون.

اليوم وهم ذاهبون لاستقبال داود باشا، ليسوا معنيين كثيراً من يكون

الوالي الجديد، مقارنة بالذين سبقوه، ولكنهم لم يعودوا قادرين على مواجهة المصاعب التي تزداد يوماً بعد آخر، وافترضوا أن هذه المصاعب ستستمر، وربما تزيد، ما دام سعيد باشا ومعه حمادي العلوجي في السراي!

تمنى الكثيرون وصول داود باشا قبل هذا اليوم، لأن حالة الفوضى التي سيطرت، جعلت الحياة أشد كرباً وخوفاً وصعوبة، وجعلت الناس يتشاءمون أكثر حين سرت شائعات قوية أن سعيد باشا، بعد أن تحصن في القلعة، ينتظر وصول نجدات المنتفق بين ساعة وأخرى، وأن رجال حمود بن ثامر إذا وصلوا قبل دخول داود باشا إلى بغداد فسوف يجعلون الحياة في المدينة أشد عنتاً وإرهاقاً، وقد ينهبون كل شيء، كما حصل قبل بضعة شهور.

أما المظاهرات والمسيرات التي لم تتوقف خلال الأيام الأخيرة، إلا حين يخيم الظلام ويتعب الناس، وكان الخطباء والشعراء خلالها يؤكدون بثقة لا يمازجها أي شك أن داود سيدخل المدينة بين لحظة وأخرى. لكن والأيام تمر دون أن يتحقق ذلك، فقد بدأ يسري الخوف في النفوس، وزادت الأسعار أكثر من قبل، كما فُقدت بعض المواد.

كانت المظاهرات، في البداية، تنطلق، أول ما تنطلق، من محلة باب الشيخ، يتقدمها حاملو الأعلام، يليهم الذين يدقون الطبول، ثم بعدهم وجهاء المحلة والشعراء والخطباء، فالناس العاديون، وهم خليط من الفقراء ونزلاء المقام وأصحاب الدكاكين والحرف. وكان بين هؤلاء، وفي موقع مميز، شقاوات محلة باب الشيخ، ثم انضم إليهم شقاوات المحلات الأخرى، ومعهم أعداد كبيرة من الصبية والشباب، كانوا أول الأمر من المحلة ذاتها، ثم التحق بهم الصبية من كل أنحاء بغداد، وبقدر ما تُمكّنهم أقدامهم من الوصول.

كانت المظاهرات والمسيرات تبدأ رصينة مع احتشادها، وكان القادة يسيّرون الجموع ويسيطرون عليها، وكان الشعراء والخطباء يعتلون

المصاطب أو تهيَّأ لهم المنصات لكي يلقوا قصائدهم أو خطبهم، والجموع تنصت ثم تصفق وتستعيد، ويبلغ الانفعال بالناس حداً يتجاوز ما قدره الشعراء والخطباء أنفسهم. استمر ذلك خلال الأيام الأولى، لكن القادة تخلوا عن أدوارهم أو عن جزء منها بعد ذلك، تاركين لمساعديهم، أو لمن هم أصغر سناً، قيادة الجموع. والجموع ذاتها لم يعد يعرف من أين أتت أو كيف تلاقت. فهذه التي من باب الشيخ اختلطت بتلك الآتية من الفضل، من الشيخ عمر، من رأس القريّة. وجاءت جموع أيضاً من أطراف الكرخ، ومن الميدان والباب الوسطاني. والشعراء الذين ملأوا الأجواء بأصواتهم، وكانت تبرق تلك الأصوات قبل أن ترعد، كما قال الكثيرون، في الأيام الأولى، أصابها الذبول بعد أن بُحّت، وبعد أن قالوا معظم ما يحفظون!

في الأيام اللاحقة، ورغم محاولات الشباب والصبية، وهم يقودون المسيرات، الإبقاء على اللهب والحماس، بحيث كانوا يقفون عند مفارق الطرق، ويخترعون في اللحظة أهازيج ساخرة مليئة بالشتائم وبالكلمات البذيئة، كوسيلة للتحريض وزيادة هياج العامة، ومحاولاتهم أيضاً في حمل الشعراء على إنشاد قصائدهم مرة ثانية أو ثالثة، إلا أن الاستجابات أخذت تتراجع، وبدأت تظهر المشاحنات والتحديات.

لكن عصر الخميس، التاسع عشر من شباط أصبحت الدلائل ترجح أن داود سيدخل بغداد، وهكذا تغيرت الصورة، إذ دب الحماس من جديد، واستعاد الناس الحيوية والتفاؤل، كما تراجعت الشائعات عن احتمال وصول حمود بن ثامر وعشائره، لأن قوات داود توجهت إليه لتدحره في عقر داره، وأكد من هم أدرى من غيرهم ببواطن الأمور أن حمادي العلوجي وراء تلك الأخبار، عله يستطيع التسلل والهرب من القلعة دون أن يحس به أحد!

يوم الجمعة صدقت التقديرات، ودخل داود باشا. وطوال الطريق الذي سلكه، بدا واثقاً قوياً، ورغم الحزم الذي لمحه بعضهم في وجهه

ونظرته خلال لحظات معينة، فقد ظل يواصل الابتسام، خاصة حين تصله الأصوات: مرحباً وخير مقدم. وقد سار الكثيرون إلى جانب الموكب لبعض الوقت، أكثر من ذلك تمنى هؤلاء أن تطول المسيرة وأن تستمر الاحتفالات، لكن شيئاً ما جعلها تختصر، ثم تنتهي.

إذ بعد أن قُرىء الفرمان، وقد ساد خلال ذلك صمت مهيب، قدم القادة ورجال الدين والوجهاء التهنئة، وسمع صوت مؤذن السراي وهو يدعو بالتوفيق والصحة والعمر المديد للوالي الجديد، داود باشا، ثم بدأت الحركة بين الناس، إذ انقسمت الجموع إلى رتلين، الأول صغير، وقد دخل السراي، أما الرتل الآخر، ويمثل الجموع، فأُشعر أن كل شيء انتهى، وعلى كل إنسان أن يغادر، لأن لا جدوى من البقاء.

ولأن أيام شباط قصيرة، فقد حل الظلام مبكراً، وعجل ذلك بانفضاض الجموع. ومع أول المساء بقي الباشا مع ضيوفه، سواء الذين قدموا معه ودخلوا بغداد، أو أولئك الذين استقبلوه عند الباب الشرقي. وقد بدا الجميع في حالة من الرضى، وتبادل الكثيرون التعليقات والأخبار، وحتى بعض النكات، كما تذكروا الأيام الصعبة التي مرت بهم، وشكروا الله أن كل شيء انتهى بوصول داود باشا، وأكدوا لأنفسهم ولبعضهم أن أيام العز والرخاء قد أقبلت. والباشا الذي بدا محباً متواضعاً، وسأل الكثيرين، وبمعرفة، عن أحوالهم وصحتهم، وتبادل الكلمات مع معظم الموجودين، اختار وقتاً مناسباً ليشعر الجميع بالعناء الذي لاقاه المسافرون والمقيمون، الذين دخلوا بغداد هذا اليوم، والذين كانوا ينتظرون، الأمر الذي يشفع له بأن يقول:

ـ إن لأجسادنا، أيها الأخوة، علينا حقاً، فلنعط هذه الأجساد ما تتطلبه من الراحة استعداداً للأيام القادمة، والتي ستكون أيام خير للجميع!

وكان وقوفه إشارة إلى أن الاستقبال قد انتهى، وعلى الجميع الانصراف.

ما كاد الجمع ينفض، وقد أبدى رجال الباشا الكثير من الاهتمام لتأمين

راحة الضيوف، حتى انصرف الوالي مع عدد من خاصته، وكان باق عليه من مهمات ذلك اليوم اثنتان: إحراق الجسر الواصل بين ضفتي دجلة، لمنع وصول أية إمدادات للقلعة من الضفة الأخرى، ثم وضع خطة للوصول إلى سعيد وحمادي.

كان داود باشا على ثقة أكيدة أن كل شيء قد تمت السيطرة عليه، لكن، مع ذلك، يجب أن ينتهي من خصمه الأساسي المتحصن في القلعة: سعيد باشا، ابن سليمان الكبير، إذ وحده الذي يمكن أن يشكل خطراً عليه. أما مَنْ عداه من الخصوم، حمادي العلوجي ونابي خاتون، وحتى صادق أفندي، رغم الكراهية التي يكنها لكل واحد منهم، فإنهم لا يمثلون أي خطر إذا تم القضاء على سعيد.

صدرت الأوامر بسرعة لإنجاز المهمة الأولى: إحراق الجسر، وكلف من يقوم بهذا العمل. أما وهو يتداول وسيد عليوي عن كيفية التخلص من سعيد، فقد تراءى له وجه هذا الخصم الذي لا يعرف حقيقة مشاعره نحوه، إذ كانت هذه المشاعر خليطاً من الاحتقار والاشمئزاز والكراهية الممزوجة بالخوف، وهو بمقدار ما يزدريه يشفق عليه، بل يتمنى لو أنه لم يره أو لا يعرفه.

كان داود يقول، بعض الأحيان، أمام خاصته: «سعيد حقير ومغرور، لا يعرف صديقه من عدوه» وحين يتذكر بعض تصرفاته يضيف: «حاولت معه أكثر مما حاولت مع أي إنسان آخر، لكن لا حياة لمن تنادي، لا يسمع ولا يستجيب، وقد حان الوقت لكي يدفع الثمن ويجب أن يكون ثمناً غالياً».

أما الكلمات التي قالها همساً لكيخياه، يحيى بك، بعد أن سمع تكبير وتهليل محب الدين المرادي، إيذاناً بدخول بغداد:

ـ أذنت ساعة الحساب، إن الله حق والموت حق، ولا بد لكل مذنب أن ينال جزاءه، والقصاص من نوع العمل.

كان يعني الكثيرين، ولكنه كان يعني سعيد بشكل خاص، أو هذا ما

فهمه الكيخيا، إذ رد عليه:

ـ نشّف ريقنا هذا الخايب ابن الخايبة، وأنت، الله يسلمك، تحملت أكثر مما تتحمل الجبال!

رد الباشا، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ ما أحد تعب مثلنا، لكن دون نتيجة، واليوم إذا ردنا نشيّم الزمال ما عندنا له إلا قولة: هش.

في وقت سابق، حين جرت محاولات من قبل أهل الخير لمصالحته وسعيد باشا، كان يرد على الذين يحاولون:

ـ يا جماعة الخير: كل ما أريده منه أن يتركني، أن ينساني، وبغداد تسعنا نحن الاثنين وتسع الآلاف غيرنا.

فإذا ازداد الإلحاح، وكان من الذين يثق بهم، يرد على محاولات المصالحة:

ـ أنا غسلت إيدي منه، يا جماعة، لأن قلبي انشلع وأنا أحاول، لكن بليا نتيجة، بليا قبض...

يستريح قليلاً ثم يضيف فيأتي صوته مختلفاً:

ـ أسرحه ويّا الغزلان يرجع ويّا الثيران. أقول له خصي يسألني كم ولد عنده!

وتتغير لهجة داود:

ـ لو، الله يرحمه، سليمان باشا، بال بولة كان أحسن من أفندي الكاغد اللي خلّفه، لكنه هو جابه وراح، ونحن ابتلينا!

في اللقاءات التي تضم أناساً يتوقع داود أن ينقلوا كلامه، يركز على حمادي وحده:

ـ بمكان السبع صار الواوي يتمرغل؛ وهذا، ابن الحيض، ابن أبو عقلين، كان آخذ سعيد فلاحة. وسعيد، يا جماعة الخير، مثل الثور اللي يكرب، لكن الزمال هو اللي يأكل. وبينا وبين سعيد ماكو إلا ما حرم الله، بس خلوا چاكوچ إبليس يفارقه.

الآن، والباشا يتحدث مع سيد عليوي، فيريد منه أن يستعمل كل مكره وذكائه من أجل تثبيت الوضع الجديد، ومنع أي خصم من الحركة أو تشكيل أي خطر.

توصل عليوي، وبحس فطري، أن المشكلة التي يجب أن تحل، لكي يكتمل النصر، التخلص من سعيد. كان يعرِف، مثل داود، أن حمادي جريح يعاني سكرات الموت، وبالتالي لا يشكِّل أية خطورة. أما الخطر، كل الخطر، فهو سعيد.

قال داود باشا، وهو يغادر إلى الجانب الثاني من السراي:

ـ وتعرف، يا آغا، هذول الجماعة ما عاد تفيد بهم عصا موسى، وأنت عندك عصا فرعون.

قال سيد عليوي، وقد تهلل وجهه كله:

ـ أمرك، مولاي، ولعيونك كل شي يصير!

2

في اليوم الأول استراح سيد عليوي، وخلال هذه الاستراحة استعاد الماضي كله. تذوق، من جديد، طعم الإهانات التي تلقاها من سعيد: الاعتقال ثم إصدار حكم الإعدام، والتهديد بالتنفيذ كل يوم. ثم تدخُّل الباليوز لتخفيف حكم الإعدام، وكيف رفض سعيد أول مرة، ورفض في المرة الثانية، وأخيراً حين وافق مضطراً قال إنه يفعل ذلك إكراماً للقنصل، لأن الآغا يستحق الإعدام أكثر من مرة! أما حين أُرسل إلى البصرة ليقضي باقي أيام سجنه هناك، فقد ترافق ذلك مع الإهانات.

استعاد الآغا هذا الشريط من الذكريات فامتلأت نفسه بالمرارة والحقد، وقرر ألا ينتظر، وأن ينتقم بنفسه.

قبل أن ينتهي ذلك اليوم وَضَعَ خطة جريئة، أقرب إلى التهور، وقرر تنفيذها.

ما كاد الليل ينتصف حتى وصل إلى القلعة.

بدا لكل من رآه كأنه خائف وملاحق. أبلغ قائد حرس القلعة أن لديه أخباراً هامة لا بد من إبلاغها إلى سعيد باشا، وأن الأمر خطير ولا يحتمل أي تأخير. ارتبك قائد الحرس، إذ أن مجيء عليوي بنفسه، وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل، وإلحاحه في طلب مقابلة الوالي، سعيد باشا، لا بد أن يعتبر أمراً استثنائياً وربما خطيراً، وقد تترتب عليه نتائج لا يعرف إن كان قادراً على تحملها وحده.

خلال فترة قصيرة ارتبكت القلعة كلها واضطربت، وبعد مشاورات لم

تطل تقرر إدخال عليوي إلى القلعة.

بعد أن صعد الدرج، وهو يجتاز الدهليز الطويل، شعر أن خوفه يتحول إلى ما يشبه الفرح.

لقد وضع أقدامه على بداية الطريق، ولا بد أن ينجح. كان يمشي بثقة وبخطوات واسعة. كانت العيون جميعها منصبة عليه من الحرس والمرافقين، وكانت تسير معه تلك العيون، ثم تتبعه وهو يتوجه إلى غرفة عزمي أفندي، مرافق سعيد باشا.

كان المشوار طويلاً، أو هكذا تراءى له. فالدهاليز التي يعرفها جيداً، وقد مر بها سابقاً عشرات المرات، تبدو له الآن أكثر ضيقاً وأطول. أما الجو المخيم فهو بين الرطوبة والكثافة اللزجة. كان يريد أن يصل إلى غرفة عزمي بأسرع وقت ممكن. أما وهو يدخل الغرفة فعلاً فقد قابلته عينان حمراوان، وكأنها استيقظت تواً من النوم. بدا عزمي خائفاً مرتبكاً، إذ يمكن أن يتوقع أشياء كثيرة عدا هذه الزيارة. هل لدى عليوي أخبار لا تحتمل التأجيل حتى الصباح؟ هل جاء ليتفاوض؟ ليسلم؟ وهل من المعقول أن يأتي بنفسه لولا الاضطراب والانقسام في معسكر داود؟

بكلمات قليلة، لكن واضحة، أبلغ عليوي المرافق أنه يطلب مقابلة الباشا على الفور، فقد غادر السراي لتوه ولديه أخبار يريد إبلاغها سعيد باشا شخصياً، وأشار إلى أن كل دقيقة تأخير سيكون ثمنها غالياً، وقد تتحول الأمور بين لحظة وأخرى، خاصة إذا عرف داود.

حاول عزمي أفندي، وقد تحول ارتباكه إلى ما يشبه الهلع، إقناع عليوي أن الأمر متعذر في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وأن لا أحد يستطيع إيقاظ الباشا. وإذا كان لا بد من عمل شيء فإما الانتظار حتى الصباح، أو أن يبلغه بالرسالة وسيقوم هو بنقلها.

لا يمكن تحديد قسوة تلك اللحظات ومدى طولها، لأن شكل عليوي تغير مرات عديدة. لكن إصراره على لقاء الباشا، وبسرعة، لم يتراجع ولم يتزعزع لحظة واحدة.

وعزمي أفندي، المرتبك الخائف، والذي مضى على حصاره في القلعة أيام عديدة متواصلة، يزداد حيرة وارتباكاً وخوفاً مع كل لحظة تمر، خاصة في مواجهة الحزم المتزايد الذي يبديه عليوي. حتى دعوة الجلوس التي وجهها له، ريثما يفكر بطريقة مناسبة، وبهدوء، قابلها عليوي باعتذار أقرب إلى الرفض، مع إصرار يتعاظم أن الأمر لا يحتمل أي تأخير.

ثم جاءت كلمة قالها عليوي، وكأنه ندم لأنها أفلتت منه، ما لبث أن أصبحت مفتاحاً أو جسراً إلى غرفة سعيد باشا. قال له عليوي، وهو يهز رأسه بندم:

ـ ستكون كارثة إذا لم أر الوالي فوراً... كارثة عليه وعلي و...

غاب عزمي لحظات، بدت كأنها الدهر. كانت السكينة تخيم على القلعة، وبعض الأصوات التي تصدر عن فتح باب، أو خطوات تجتاز الممر، تخلف دوياً يولد الرهبة. وعليوي الذي نظر بسرعة إلى جدران الغرفة الداخلية، وإلى وجوه رجاله الأربعة الذين يرافقونه، كان يحمل في صدره أملاً يائساً بالوصول. أكثر من ذلك شعر أنه ارتكب حماقة سيدفع ثمنها فوراً. لام نفسه على هذا التهور بدخول القلعة، وتسليم نفسه بهذه السهولة، ولا يعرف الآن ما إذا كان قادراً على الخروج والإفلات من هذا الفخ، خاصة إذا رفض سعيد باشا استقباله، أو أمر جنوده بالقبض عليه.

لكن البصيرة، في أحيان كثيرة، تعمى، أو تفقد قدرتها على التمييز. كما أن اليائس يمكن أن يتحول إلى وحش، وقد تغريه أية بارقة أمل، وهذا ما حصل تماماً. إذ ما كاد عزمي يعود، وقد تهللت أساريره، حتى أدرك عليوي أن لحظته قد حانت، وأنه بمقدار تماسكه، بل وسيطرته، حتى على الهواء، ولو للحظات، يمكن أن يظفر، وإلا فإن الرائحة التي تملأ الفضاء المحيط، وهي رائحة دم شاخب وكثيف ستكون رائحة دمه، لا دم أحد سواه.

ما كاد يشير إليه عزمي كي يتبعه، حتى طلب من رجاله الأربعة، وبطريقة الأمر، أن يرافقوه. حين أبدى عزمي استغرابه من مرافقة الرجال،

رد عليوي بشكل واثق أن هؤلاء رأوا بأعينهم، ولا بد أن يسمع الباشا البشارة من أفواههم أيضاً. لم يقل عليوي كل هذا بكلمات واضحة، لكن هكذا فهمها، وتقبلها عزمي دون أن يفكر بها، ولم يتوقف عندها مرة أخرى.

قال خورشيد لعدد من أصدقائه بعد أيام، وكان واحداً من الأربعة الذين رافقوا الآغا:

ـ كان وجه سيد عليوي يتبدل كل لحظة. كان يتحول من لون الشوندر إلى لون الكركم، إلى لون التراب، ثم يصير بلون وجوه الموتى. كنت لا أصدق ما تراه عيني وما تسمعه أذني. كان عزمي يهز رأسه وكأن الآغا سحره، وفي الأخير وافق على كل طلباته...

تتغير لهجة خورشيد وهو يتابع:

ـ والله وحده، سبحانه، كتب لنا حياة ثانية، وأي مخبل لا يفعل ما فعله سيد عليوي!

يبتسم بحزن وهو يتذكر أشياء عديدة، ثم يضيف بلهجة لا تخلو من تهكم:

ـ يا جماعة، وما أكذب عليكم، صار قلبي يرفرف ووقع بين رجلي. كنا رايحين لموت مؤكد، وضحكة الآغا شبر! وما أدري صحت أو توهمت روحي أصيح: وين رايحين يا معودين؟ لكن لما الآغا باوع علينا وخنزر صارت سنطة وكأن الكل موتى. وطبّ وطبينا على سعيد، وبلمح البصر خلص كل شيء. قال: يا الله، لازم نمشي!

كل واحد من الرجال الأربعة الذين رافقوا سيد عليوي يروي القصة بطريقته الخاصة، وبشكل يختلف عن الآخرين. أما عليوي نفسه فلا يحب، أو لا يعرف، كيف يجب أن تروى القصة. وإذا صدف أن سمع أحداً يرويها، وكان يحب أن يسمع الآخرين وهم يتحدثون عن ذلك، فكان يكتفي، أغلب الأحيان، بأن يبتسم ويهز رأسه، مما يعني أن ذلك ليس صحيحاً أو ليس دقيقاً! وكان في لحظات التجلي يطلب من أحد رجاله

الأربعة أن يروي ما حدث، ولفرط ما فعل ذلك بعضهم أصبح أكثر مهارة في الرواية والحديث عن التفاصيل، لكن كل هذا لا يعجب الآغا، وبدل أن يصحح يكتفي بالشتائم أو بالسخرية من هؤلاء الذين رأوا كل شيء بأعينهم ولم يشاهدوا شيئاً! وكان يختم مثل هذا الحديث بأن يقول:

ـ البني آدم ما يشوف بعينه بس. القلب يعرف شلون يشوف، وبعدها شلون يحچي ويقول!

وحين يرى الإعجاب في عيون الذين يسمعون، يضيف بفخامة:

ـ ولازم تعرفون: الكلب اللي ينبح ما يعض!

أما كيف وقعت الأمور فأغلب الظن أن الموت إذا اقترب ينشر رائحة لا يمكن أن يفلت منها أحد، وهذه الرائحة تخدر الحواس، تخلق حالة يصبح معها الإنسان عاجزاً عن التدخل، أو منع ما يقع تحت عينيه.

خلال اللحظات التي غابها عزمي، حين دخل إلى جناح سعيد باشا، ترامى إلى سمع عليوي صوت نسائي يقول: بالعجل، خليهم يجون!

لم يتأخر عليوي ورجاله اندفعوا كالبرق.

كانت نابي خاتون نصف مستلقية، ويبدو أنها نهضت لتوها. فآثار النوم لا تزال تملأ عينيها ووجهها، ورائحة الغرفة مزيج من الرطوبة والهواء الساكن، وكأنها لم تفتح لأيام متواصلة. وكان يتمدد إلى جانبها، بشكل عرضاني، سعيد باشا. رأسه في حضنها وجسده يشغل الجانب البعيد من السرير.

لا يُعْرَف من أين انتزع عليوي البلطة، أو أين كان يخبّئها. فجأة التمعت في فضاء الغرفة وهو يرفعها بقوة وعصبية. كانت نابي، خلال اللحظات القصيرة التي مرت، تحاول إيقاظ سعيد. كانت تفعل ذلك بطريقة قاسية لكن مليئة بالحنان. طبطبت على خده، وربما قالت، وهي تحاول أن ترفع رأسه، لكي يتلقى البشارة معها: «قوم، عيني، قوم، ترى الدنيا مقلوبة، وهذول رجالك جوا حتى يبشروك.»

ما إن رأت نابي خاتون البلطة تلتمع في الهواء، حتى ماءت مثل قطة

مخنوقة. كانت تصدر عنها أصوات عمياء متداخلة، وهي بين الخوف والرجاء والتهديد، وربما احتضنت بقوة رأس سعيد، وكأنها تريد أن تحميه، لأن سعيد، وهو يتحرك، دفع يدها بنزق يريد أن يتخلص منها. فتح عينيه لحظة، لحظة خاطفة، لأنه عاد وأغلقهما بقوة، وكأنه يبعد النوم أو يعود إليه. لا يدرى إن رأى شيئاً خلال تلك اللحظة، لأن خطوات عليوي الواسعة، السريعة، لم تمكنه من استيعاب المشهد. هز رأسه أكثر من مرة وبسرعة، لكن يد عليوي كانت أسرع وهي تهوي. كانت الضربة عميقة، حتى بدا صوتها مثل خبطة في ماء عميق، أو في عجين لم يختمر. وهذه الضربة وحدها كانت كافية، لكن سيد عليوي اتبعها بأخرى، فانفصل الرأس وتدحرج، كر إلى الجهة الأخرى من السرير، ثم سقط بين رجلي عزمي، الذي بدا شاحباً وأخذ يرتجف.

للحظة فكر عليوي أن يقضي على نابي خاتون وعزمي، إذ التمعت عيناه وهو ينظر إليهما بسرعة، لكن وهو يعاود النظر إلى نابي، وبتأثير العينين المرعوبتين، وربما المخيفتين أيضاً، لم يستطع أن يواصل لعبته. توقف. استجمع نفسه ونظر إلى رجاله، كانت النظرات قاسية كالريح الشتائية. قال وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ لفوا الرأس.

وبعد قليل:

ـ ها.. اكو شي بعد؟

كان الدم يتدفق كنافورة ليملأ السرير، وكان الجسد ينتفض، يفرك، وكأنه يقاوم أو يحاول النهوض. كان الجسد يحاول شيئاً. وامتلأت الغرفة فجأة ببخار لزج، أو هكذا أحس الرجال، وبدت الأرض زلقة، لأن خطواتهم وهم يتحركون بحثاً عن شيء يلفون به الرأس، كانت حذرة، متباعدة، وكأنها لا تريد أن تطأ الدم. أما حركات الأيدي، وهي تشد بعض الأغطية فكانت خائفة مرتبكة. وأخيراً سحب أحد الرجال بساطاً أحمر له حواش سوداء وألقاه على الرأس، لكي يلفه به قبل أن يلتقطه!

كانت نابي، في هذه الأثناء، مصعوقة، مجنونة. خرجت العينان من المحجرين، وبدت نظراتها آلية بحركتها السريعة. أما يداها فكانت تنتقل بين ثقب الرقبة تحاول سده وإيقاف الدماء، وبين شعرها الذي أخذت تنتزعه خصلة بعد أخرى. كانت تفعل كل ذلك، وتصدر من الحنجرة أصوات مخنوقة كأنها المواء أو العواء.

حاولت أكثر من مرة أن تنهض، لكن ثقل الجسد، تدفق الدماء، يديها اللتين كانتا لا تكفان عن الانتقال من مكان إلى آخر، برتابة وقسوة، كل ذلك جعلها عاجزة، أو لا تدري ماذا تفعل، وقد يكون منظرها هذا، خاصة العينان، ما جعل عليوي يوقف لعبة الدم.

بقية الرحلة كانت سهلة بالنسبة لعليوي: قبل أن يعيد البلطة إلى مكان خفي داخل ملابسه، هزها في الهواء. بدت قطرات الدم التي لم تجف بعد، قاتمة، إذ فقدت لمعانها الأول، وقال لعزمي، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ شفت شلون انكسرت رقبته. . .

وبعد قليل، وبغضب:

ـ ترى الحبل يلحق الدلو، فإما توصلنا للباب سلامات، وترفع لنا تمني، وتقول عيني وآغاتي. . أو. . .

وتغيرت لهجة عليوي، صارت أمراً:

ـ صير آدمي وسبع وامش قدامنا.

كان عزمي أفندي يسير بخطوات متعثرة، وعليوي يشد سترته بين لحظة وأخرى لئلا يسهو عما هو مطلوب منه، أو يرتكب حماقة ويخالف تعليمات الآغا في آخر لحظة، لكن الرعب الذي ملأه تماماً جعله يسير في الدهليز كسفينة واتتها الريح، إذ سار باستقامة، بإيقاع لا يتغير.

بعد أن تم اجتياز الدهليز الأول، وبدأ هبوط الأدراج، وقبل الوصول إلى نقطة الحراسة، قال عليوي بهمس:

ـ خليك سبع وما راح ننساها لك.

ولم يتردد سيد عليوي في الرد على تحيات الحرس، مع ابتسامة، وكانت العيون مركزة عليه، وهو يخرج، أكثر مما كانت مركزة أثناء الدخول. ولم تر تلك العيون، وهي تتابع الآغا، عزمي أفندي!

عند الباب الخارجي، بدا عزمي أفندي متهالكاً على وشك السقوط، لكن عليوي مد إليه يدا صلبة ليجعله قادراً على التماسك في اللحظات الأخيرة. شد على يده، وقال له وهو يبتسم بغل:

ـ ترى.. رجع الهوا غربي.. فاحترس وراجعني!

3

بدل أن يتوجه سيد عليوي إلى السراي مباشرة، ليزف البشارة إلى داود باشا، أخذ طريقه إلى ثكنة الفرسان.

كان هواء آخر الليل بارداً، أقرب إلى اللسع، لكن الوهج الذي كان يحسه في داخله، بعد أن أنجز المهمة بنجاح، جعله يشعر بالدفء، بلهب الغبطة، إذ لم يقدّر أبداً أن تنتهي الأمور بهذا الشكل وبهذه السرعة.

بغداد لا تزال تغط في نوم ثقيل، بعد ليال لم تنم خلالها بسبب التعب والخوف. العربة التي تقله، ثم العربة التي ترافقه، وفيها عدا الأربعة الذين دخلوا معه، اثنان للحراسة ولإبلاغ السراي فيما لو سمعا آذان الصبح ولم يعد، إشارة إلى أنه اعتُقل، ولا بد من إجراء ما. الظلمة والصمت يملأان الكون ما عدا الوقع الرتيب والكامد لحوافر الخيل.

كان سيد عليوي يريد أن يتحدث، أن يسأل، لكن وجد أن الذين يرافقونه غير جديرين بالحديث، ولا يعرفون كيف يجيبون على أسئلته فيما لو سأل. قال لنفسه، وهو يخرج رأسه ويعرضه للهواء البارد: «حظك، آغا، من السما، لأنك سويت كل شيء وحدك وبدون ما يدري أحد» ابتسم وقد شعر بفخر مضاعف، إذ لا يمكن لإنسان أن يدّعي لنفسه دوراً، مهما كان ضئيلاً، كما هي العادة حين تنجز المهمات الكبيرة ويتحقق النصر!

شعر أن ثكنة الفرسان، رغم قربها، بعيدة، وأن الضباط، في مثل هذه الساعة، غارقون في النوم. كان يريد أن يفاجئهم، أن يقول لهم، دون كلمات، كيف تنفذ المهمات، كيف تُبتدع الخطط التي لا يمكن للأبالسة

أن يكتشفوها. فحين يتدحرج رأس الباشا على الأرض، وحين يرونه بأعينهم سوف يصابون بالدهشة والخوف: «هل يعقل أن تفعل ذلك وحدك؟» «هل ما نراه حقيقة أم منام؟». «أيمكن تحقيق كل هذا دون إطلاق رصاصة واحدة؟».

لقد عزم على العودة إلى ثكنة الفرسان لأن داود باشا نائم الآن. ثم أن يلتقيه بملابس الاستعراض أكثر لياقة وتأثيراً من هذه الملابس الملطخة بالدماء. ولا بد أن يعطي نفسه مقداراً من الوقت يستطيع خلاله أن يستجمع قواه وأعصابه، إذ يكون الانفعال قد زال، لكي يقول للباشا من هو سيد عليوي، وماذا يستطيع أن يفعل!

تعمد سائقا العربتين إحداث ضجة زائدة حين توقفا قليلاً عند بوابة الثكنة، ثم أثناء الدخول، للإعلان عن وصول الآغا، وللإعلان عن النصر بإنجاز مهمة لا يستطيعها غيرهم.

قال الآغا للذي يحمل الرأس، وكان يتجه إلى الغرفة الملحقة بمكتبه:

ـ بالعجل... ناوشني رأس ابن التي...

ما كاد حامل الرأس يفك البساط، ويظهر ما بداخله، وقد اختلطت الملامح والشعر بالدماء، حتى ليصعب تمييز الوجه، وبعد أن ألقى عليه الآغا والذين جاءوا مهرولين نظرة سريعة، حتى قال، وخرج صوته مخدشاً:

ـ شوفتك حزن وفراقك عيد، لكن اليوم خلصنا منك!

لما خيّم الصمت، لا أحد يقوى على أن يعلق أو يسأل، تابع الآغا، وقد شعر بلذة النصر:

ـ كان ابن المقرودة يناطح بقرون من طين، وما يعرف الآغا منو!

وتذكر في تلك اللحظة حمادي الذي كان ينام في إحدى غرف القلعة جريحاً. قال يخاطب نفسه، ويريد لرجاله أن يسمعوا:

ـ صدق... هذا القواد، حمادي، ليش ما خلّصنا عليه بدربنا؟

وبعد قليل وقد تغير صوته:

ـ لا. لا العجلة من الشيطان . . .

وتغيرت اللهجة من جديد، أصبحت مرحة:

ـ ما يخالف، وين يروح؟

هز رأسه عدة مرات:

ـ اللي تأكله العنز يطلعه الدباغ، وابن الدهاليز، حمادي، راح أخليه يقول: فدوة لعينك آغا بس اقتلني، خليني أخلص، أبوس إيدك!

تطلَّع إلى الرجال الصامتين. كان يبتسم ويهز رأسه. قال بصوت خفيض، كأنه يخاطب حمادي:

ـ حساب ناكر ونكير راح تشوف، يا ابن الزفرة، وهذا اللي يوّنس. رَاح أشوي على إذنك بصل، وأخليك تصيح: دخيلك يا سيد إدريس، دخيلك يا آغا.

والتفت من جديد إلى الرجال حوله، وكأنه تذكر شيئاً:

ـ إذبحوا لنا طلي . . .

وقبل أن يتحرك أحد لتنفيذ المهمة، تابع:

ـ لكن قبل ما تذبحوه خلوني أشوفه؛ أريد أشوف شلون يباوع، وأسمع صوته وهو يماعي، حتى أعرف منو أسبع: الطلي أو أبو الخرق، حمادي!

تحرك الرجال لتنفيذ المهمة. غادر أغلبهم. غادروا خوفاً أو قرفاً، وكل واحد لا يريد، أو لا يقوى على رؤية الرأس الذي يبست دماؤه على الملامح، على الشعر، وبدا، بالعيون المطفأة، بالشفة السفلى المرتخية وكأنها على وشك الكلام، وربما من الرائحة، بدا الرأس بهذه الملامح مثل لعبة منفرة أو لم يحسن صنعها.

ولئلا يبقى الآغا صامتاً، وكأنه يحارب خوفاً غامضاً انتشر فجأة، أو شعر أن عواطفه على سعيد لم تبرد بعد، فقد اندفع يخاطب الرأس بانفعال:

ـ الدنيا كلها ما چانت توسعك. چنت شايخ بيها. أنا ربكم الأعلى فاعبدون. كان خشمك بالسما، لا تشوف أحد ولا أحد يشوفك. لكن إنت

أثول، زمال، وحتى الونسة ما تعرف شلون تتونس. تارك كل الدنيا وعابد أبو الطيز الجايفة، حمادي الخايس! لك البنات القمريات، بنات الستطعشر والسبطعش، الكرجيات وبنات إسطنبول، البيضا والشقرا، وحتى اللي لونها بلون الليل، تارك نعمة الله هذي كلها ولاحق ابن الزفرة حمادي. . . تفو وتستاهل مو موتة واحدة تستاهل ألف موتة يا ابن الخايبة.

استراح قليلاً، وقد شعر بالرضا، وأضاف وهو يتلمظ:

ـ تسلم إيدك يا آغا، لأنك خلصت العباد من البلاء الأعظم!

وتغيرت لهجته، أصبحت أمراً لذاك المسكين الذي لا يعرف إن كان أخطأ حين ظل واقفاً، أو كان يجب أن يبقى هكذا، قال له الآغا بحقد:

ـ حط راس ابن الخايبة على صفحة حتى نعرف شلون ناكل فد لقمة قبل ما نشوف الباشا!

جيء بثلاثة خراف متفاوتة الهيئة والأعمار، ليختار الآغا واحداً منها. نزع قسماً من ملابسه، ووضع البلطة التي كان يخفيها على منضدة قريبة. كان الدم قد جفّ وتيبّس على حواف شفرتها، ولم تبق منه إلا خطوط غير منتظمة وكانت شديدة القتامة. لما مُررت الخراف، أشار إلى الأول منها، وهو يحرك إليته بقدمه:

ـ هذا للفطور. . .

وضحك بصخب وهو يضيف:

ـ واللي بعده للغدا، وما يندرى عشانا يكون وين!

شاركه الرجال بالضحك، وقد انضم آخرون كثيرون، نتيجة الحركة والضجة، وأيضاً نتيجة الهمس الذي سرى أن شيئاً خطيراً قد حدث، والآغا هو البطل، وما تخلف بسبب ذلك من رضى وحبور، خاصة وقد بدا الآغا متبسطاً مرحاً بالهيئة والتصرفات.

عبقت الغرفة بروائح الأغنام وبحركتها العمياء، في هذه المساحة الضيقة، وتناثرت كلمات الآغا وأسئلته، وهي توجه للأغنام لأن ترفع رؤوسها، أن تتطلع إليه، وقد استغل مراد الجو ليزيد المرح، إذ لمح البلطة

الموضوعة على المنضدة، قال بطريقة راجية، ليشعر من لا يعرف بعد:
ـ سيدي . . . ضربة من يدك الكريمة، مثل ذيك، تخلي رأس الخروف يطير بالهوا!

وتقدم نحو البلطة ليتناولها، تمهيداً ليسلمها إلى الآغا، لكن صرخة مفاجئة جمدت اليد قبل أن تصل إلى البلطة:
ـ بهذي . . . يا ابن الحرام، ما تنضرب غير النخلة اللي بيها تمر . . .

ثم بسخرية:
ـ مش بوزك، لأن هذي للروس الچبيرة، مو لكل مصخم وجهه وقال أنا حداد!

وبطريقة لا تخلو من مكر، ولئلا يزداد الآغا عتواً، صرخ أحد مرافقيه، وهو يجر الخروف بعيداً، وقد استل خنجراً ليتولى ذبحه:
ـ لعيونك، سيدي!

وكانت عادة الآغا أن يتراوح بين حدين متباعدين في تعامله مع رجاله، فمرة يتبسط إلى درجة تجعلهم يتكلمون في حضرته بجرأة، وقد يمزحون؛ ومرة يمتنع عن استقبال أحد، فارضاً جواً من القسوة أقرب إلى الذعر، وقد يصدر أوامر أو تعليمات تنال بعضاً من ضباطه، ولا يكون مستعداً لمناقشتها، وقد يتعمد نسيانها، ولا يستطيع أحد تجاوزها، دون أن «يأتيه عقل الرحمان» كما يقول مرافقه حامد في تبرير عدم إمكانية المخالفة.

في هذا الوقت المتأخر من الليل، عند تخوم الفجر، وبانتظار الساعة المناسبة من أجل التوجه إلى السراي، كان الآغا في حالة من الإشراق، أو هكذا يبدو لمن يراه. ربما للغبطة الفياضة بعد أن أنجز مهمته الكبرى، وقد يكون بدافع مقاومة الخوف الذي يحاصره بعد أن انصبت عليه عينا نابي خاتون، ولعل الرأس القريب تتدفق منه صرخات مكتومة، لكنها قادرة على اختراق الهواء، وتجعله لا يحس بالطمأنينة.

قال أحد الأربعة لأصدقائه، وقد انتحى جانباً، أثناء ذبح الخروف:
ـ نظرة عيونها تموّت. تخلي البني آدم يتشاهد ويقول: يا ربي أخافك

وأخاف من اللي ما يخافك، وهذا الآغا ما يخاف الله!

وحين تنظر إليه العيون تطلب منه أن يواصل، يضيف، كأنه يشجع نفسه:

ـ ظني أن بعد هذي الليلة عيني ما راح تشوف النوم، إلا بشفاعة الخضر وزيارة العباس.

فإذا توالت الأسئلة همساً ليقول لهم ما حصل، يرفع يديه بيأس، وتخرج الكلمات مبعثرة:

ـ شوفة الليلة، يا جماعة، ما راح تروح من البال والخاطر العمر كله.

يمكن لرجال عليوي أن يفكروا بالطريقة التي تروق لهم، ويمكن لمشاعرهم أن تسلك دروباً لا حصر لها. أما هو، فكان يفكر بشيء واحد: كيف يحسن به عرض الموضوع على الباشا؟ لا يريد أن يبلغه الأمر فوراً، ولا يريد أن يتأخر عليه كثيراً. لا بد أن يذكر التفاصيل، لأنه حين يسمع الذين يتحدثون، ويجودون في الحديث، فأكثر ما كان يسترعي انتباهه الطريقة التي كانوا يتحدثون بها، وهذه الطريقة إذا أراد أن يلخصها لنفسه هي التفاصيل الصغيرة: كيف بدأ؛ من كان معه؛ كيف وصل؛ كيف كان حال الذين التقى بهم وكيف استقبلوه. وتاه في أفكار بعيدة، شعر بأهمية العمل الذي أنجزه، والذي لا يمكن لغيره أن يفعله بالسرعة، بالنجاح، وبالنتائج التي لا تقدر بثمن: بضربة واحدة... لا بضربة ونصف، أنهى عصر بكامله، وأزال خطراً كان يمكن أن يبقى لسنين وسنين، وقد يقلب كل شيء.

إنه الآن أسعد إنسان، لكن بعد ساعة سيكون هناك من هو أسعد منه: الباشا، خاصة عند ما يرى الرأس وحده وقد انطفأت فيه العينان وصمت الفم إلى الأبد.

هكذا مرت الأفكار والصور والمشاعر في رأس سيد عليوي وفي صدره. ولئلا يفوته الوقت، وتتسرب أخبار القلعة قبل أن يزفها بنفسه إلى داود باشا، طلب أن يُنتزع من الخروف الذي ذبح لتوه المعلاق، يكفي هذ للفطور، وعليه بعد ذلك أن يلبس حلة تليق بهذه المناسبة ويذهب.

أصدر بسرعة أوامره بأن يُشوى المعلاق، وأن تشوى معه قطع من الية الخروف، وأن تذبح خراف أخرى من أجل إعداد وليمة كبيرة لضباط الثكنة وجنودها، وسوف يبلّغ لاحقاً ما إذا ستكون الوليمة غداء أو عشاء، تبعاً لانشغاله في السراي، وأنه سيكون حاضراً مع ضباط الثكنة والجنود، وقد يحضر آخرون! هكذا أبلغ حامد، وطلب منه البقاء في الثكنة للإعداد والإشراف على كل شيء، وأيضاً انتظار أخبار أخرى سيبلغه بها لاحقاً.

كانت الشمس قد ارتفعت مقدار رمح عندما امتطى عليوي آغا حصانه متوجهاً إلى السراي.

الباشا الذي تعود أن يستيقظ مبكراً، أفاق قبل موعده بساعة أو تزيد. كان نومه في تلك الليلة قلقاً متقطعاً، فقد بلغه أن الآغا اختار اليوم عدداً من الجنود، اثنين منهم من حرس السراي، ولا بد أن يكون هذا الماكر قد دبر أمراً، وستظهر نتائجه سريعاً. فالباشا يعرف كيف يصبح الآغا أمكر من ثعلب حين يريد الوصول إلى شيء. إنه يعمل بغريزته، مثل بعض الحيوانات، إذ تتركز حواسه في نقطة واحدة: كيف يتغلب على المصاعب لكي يصل!

الباشا حين تحدث معه في الليلة الأولى، كان حديثه عاماً، لم يقل ماذا يجب عليه أن يفعل، ولم يسأله عما ينوي فعله، فقط ذكّره بالخطورة التي يشكلها سعيد، وأن الانتصار لا يعتبر كاملاً إذا بقي متحصناً في القلعة. وفهم الآغا ما هو مطلوب منه، وقد تأكد الباشا حين لمعت عينا الآغا، وكأنه اتخذ قراراً، وسوف يلجأ إلى كل الوسائل من أجل تنفيذه.

وتذكر الباشا مهمات سابقة كلف الآغا بتنفيذها. كان لا يحب أن يسأله أحد عن الخطة التي سيتبعها. بل أكثر من ذلك، كان يرد على الذين يسألونه بطريقة ساخرة:

- من ساعة لساعة فرج.

فإذا ألح عليه أحد لمعرفة ما سيفعله يرد بنزق:

- الشهر المالك بيه لا تعد أيامه، فخلها علي وأنا كفيلها!

هكذا مرت الصور في ذهن الوالي. صلّى الفجر وقرأ جزءاً من البيضاوي لكي يصبح أكثر اطمئناناً، ثم أمر بأن يؤتى له بالقهوة إلى الغرف الجنوبية المطلة على دجلة. كانت مياه النهر عكرة، لكن لا توحي، بعد، بفيضان قريب. رأى أسراباً من الطيور تسف وتعلو قليلاً عن سطح الماء. سمع هديل الحمام الذي أخذ ينتقل بين أشجار النخيل.

لم يتأخر سيد عليوي، إذ مع فنجان القهوة الثاني وصل. لم يكن هذ مألوفاً أو من عادته، ولكنه وصل. أُبلغ الباشا بوصوله، فأمر أن يوافيه على الفور.

قال للباشا، وهو يتوجه نحوه، وقبل أن يصل:

ـ طلعنا من حلق السبع، يا باشا، والله وفقنا.

لم يكن يريد أن يبدأ هكذا، لكن هكذا وجد نفسه يفعل. قال الباشا في محاولة لأن يبقى حازماً وصبوراً:

ـ الله يصبحك بالخير يا آغا، أو نسيت أن الدنيا الصبح؟

ورغم أن الآغا حاول أن يستدرك، إلا أن حشد الصور والكلمات التي يريد أن ينقلها كان كبيراً متدفقاً إلى درجة أن رد على الباشا بارتباك، وجلس متهالكاً على الكرسي المقابل له.

لم يكن الباشا بحاجة إلى الكثير من الكلمات لكي يعرف أو يستنتج أن لدى الآغا الكثير، وربما الخطير، ليبلغه به. سأله بنعومة وبصوت دافئ عله يمتص انفعاله:

ـ ها آغا... أشوفك جاي من غبشة، وبوجهك سوالف هوايه؟

وأخذ الآغا يروي، لكن بعد أن تذكر أهمية التفاصيل، ما حصل منذ لحظة وصوله إلى القلعة. كيف كان حال الحراس والحراسات، وكيف استدعى آمر الحرس. ماذا قال له وكيف رد عليه. كيف أصر على أن يرى سعيد بنفسه، وكيف...

قال الباشا بنفاذ صبر:

ـ والنتيجة، المهم النتيجة يا آغا.

ابتسم الآغا ابتسامة واسعة، أكثر مما تعود أن يفعل أمام الباشا. لم يجب، بل صفق بيديه. خلال ثوان دخل الذين كانوا يرافقون الآغا. كان اثنان منهم يحملان البساط، كل من جهة، والرأس يلقّ صعوداً وهبوطاً تبعاً للخطوات السريعة، غير المنتظمة، وما أن وصلا قريباً منهما، حتى قال الآغا بطريقة آمرة:

ـ خلوا الباشا يشوف صيدنا!

ورفع الاثنان البساط من جانب وخفضاه من جانب، فتدحرج الرأس، تدحرج حتى وصل بالقرب من الاثنين.

انتفض الباشا قبل أن يعرف رأس من الذي تدحرج. وقف. تلفت حواليه، كأنه يريد مساعدة أحد. لم يمعن بالرأس إلا بعد أن مرت لحظات. تطلع إليه بنظرة سريعة. من تلك النظرة قدر، أو تأكد، أنه رأس سعيد.

صرخ، وكان صوته أقرب إلى الشهيق:

ـ أعوذ بالله من هذا الصباح!

سحب نفساً عميقاً، ونظر إلى عليوي وكأنه يؤنبه:

ـ من هذا وماذا فعلت؟

ـ ولكنها أوامرك يا سيدي!

ـ قتلتني...

ثم وهو يشيح بنظره ويرفع يديه بيأس:

ـ هذا خدني وابن عمي...

وتهدج صوته:

ـ كنت أريده حياً.

وبعد قليل صرخ، وكان وجهه نحو النهر:

ـ خذوه. أبعدوه عني. خذوه بسرعة.

والتفت إلى عليوي:

ـ كنت أريد ابن الزانية، حمادي، والآن لا أعرف ماذا يجب أن أفعل!

وجلس على كرسيه متهالكاً، في حين لمّ المرافقون الرأس من جديد وضعوه في البساط مرة أخرى. أما عليوي، الذي افترض أنه أنجز مهمة لا يمكن أن ينجزها غيره، وأن الباشا سيكون في منتهى السعادة، فقد أسقط بيده. ماذا يعني حمادي، هذا المأبون التافه، لولا سعيد؟ سعيد هو الصيد، وهذا ما يريده الباشا، أما حمادي فلا يعدو أن يكون مجرد خادم ماذا حصل للباشا؟

كان لدى عليوي الكثير من التفاصيل ليبلّغها، لكن رد فعل الباشا ونظراته ألجمته. لأول مرة يحس أنه لم يفهم ما قيل في الليلة قبل الماضية. كان الباشا يعتبر أن الخصم الحقيقي سعيد، ووحده الذي يريد الآن، وقد أصبح الرأس تحت قدميه، يبدي أسفه، ولكن، أليس هذا الذي طلبه أو تمناه؟ ماذا حصل في هذه الدنيا؟ أين هو الخطأ؟

قال عليوي بصوت يشوبه الحرج:

ـ فهمت منك، يا باشا، أنك تريد رأس سعيد، وأن سعيد هو الخصم. فماذا تغير؟

ـ سعيد، يا عليوي، من لحمي ودمي. سعيد مثل ابني يوسف. سعيد ما كان يحل رِجل دجاجة، وهذا كان سبب غضبي عليه.

زفر، وهو يضرب مسند المقعد:

ـ العلة والمصيبة، يا عليوي، هو حمادي. كان يقوده كما يقود الراعي الغنم. كان يقول له من هنا القِبلة، فيرد عليه سعيد أي نعم. كان حمادي ساحره وآسره، وكان حمادي الفاعل الناهي، ولولاه لما كانت مشكلة بين أولاد العم...

كاد يضيف أشياء أخرى لكن مقاطعة عليوي غيَّرت الموضوع. قال له:

ـ حرام نجس أيدينا بابن الخايبة، حمادي، يا باشا!

ـ ذاك راس الشليلة يا عليوي، لأنه أصل البلاء.

وبعد قليل، وبلهجة جديدة:

ـ والخاتون، أمه، شنو اللي صار بيها؟

رد عليوي، وقد شعر بخيبة أمل:

ـ لخاطرك، يا باشا، قلت حريمة وما يجوز نمد أيدينا عليها، تركناها تنوح وتلطم ومشينا!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

وبعد قليل، كأنه يقنع نفسه:

ـ وإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون!

وتوجه إلى الرجال الأربعة الذين لا يعرفون ما ينبغي أن يفعلوه بالرأس بعد أن أعادوا وضعه داخل البساط:

ـ ليش بعدكم واقفين بخلقتنا؟ يا الله خذوه وامشوا.

والتفت إلى عليوي الذي بدا مذهولاً:

ـ كل شيء بهذي الدنيا، يا آغا، قسمة ونصيب، والبني آدم ما يقدر يغير اللي كاتبه الله!

وبعد قليل، وبطريقة أبوية:

ـ باقي علينا مسائل كثيرة نسويها، يا آغا، وأنت تعرف معزتك عندي، وشقد اعتمد عليك...

أخذ نفساً عميقاً. هز رأسه عدة مرات وأضاف:

ـ الله يرحمنا برحمته ويعطينا القوة ويسدد خطانا، إنه السميع المجيب.

رد عليوي بطريقة رتيبة:

ـ اللهم آمين!

4

كان يمكن لداود باشا أن يعجل بدخول بغداد أو أن يتأخر، تبعاً لتقديرات عديدة. لكن ما كاد يعرف بخبر إصابة حمادي ونقله إلى القلعة، حتى تغيرت الأمور، ثم أخذت تتسارع.

فحين انصرف سعيد باشا للعناية بحمادي، أخذ أكثر جنود القلعة يفكرون ويخططون للنجاة بأرواحهم. بدأ الأمر بشكل فردي وسري، ثم اتسع. أما حين بدأت تنتشر الأخبار، وأول من نقل ذلك مورّد الخضار، إذ أكد أنه سمع بأذنيه كيف يتناوب صوت بكاء الباشا، وكان أقرب إلى النواح، مع أنين حمادي، فقد أصبح الذين يغادرون القلعة يفعلون ذلك على شكل مجموعات وعلناً، وببعض التحدي أحياناً. وقد تمكن عدد من الهاربين من الالتحاق بالقوات خارج السور ونقلوا ما حصل، وكان هذا ما دعا داود باشا لأن يتخذ قراره بدخول بغداد.

أما ما وقع في القلعة بعد ذلك، خاصة في الليلة التي وصل إليها سيد عليوي، فإن الناس يختلفون، ويصل الخلاف، بعض الأحيان، إلى درجة التناقض.

ولم يقتصر اختلاف الروايات وتغيرها على الذين لهم صلة بالقلعة مباشرة، بل امتد الاختلاف وانتقل إلى خارج بغداد عن طريق المسافرين.

أما في بغداد ذاتها بمحلاتها وشوارعها وأزقتها الضيقة، بمناطق التجارة والأسواق الصغيرة في الأطراف، بالمساجد ومقامات الأولياء ومعابد النصارى واليهود، وفي البيوت وعند زوايا الشوارع، وفي المقاهي بشكل

خاص، فكان الحديث الوحيد الذي يجري ويتكرر مع كل قادم جديد، مع ما يحمله من إضافات، يتناول ما حصل في الأيام الأخيرة، خاصة في القلعة، وماذا حل بسعيد على وجه التحديد.

حتى الروايات التي أكّدت أن مكروهاً لحق بالباشا سعيد، وربما يكون قد أصيب، تضمنت الكثير من التفاصيل المتناقضة، بحيث تنتهي كل رواية تبعاً لرغبة راويها وتبعاً لمن يسمع.

مختار باب الشيخ، عبود الحاج قادر، وهو، في الأحوال العادية، رجل متزن بسلوكه وكلامه، نقل عن بعض جنود القلعة، وقد غادروها إلى محلة باب الشيخ في اليوم الثالث لدخول داود باشا إلى بغداد، أن سعيد باشا تعرض لإطلاق النار، في محاولة لقتله، وأن حمادي هو الجاني، فقد أراد من الباشا أن يتنازل له، لكن سعيد أبى. ويضيف هؤلاء الجنود، لتأكيد صحة الرواية، أن سعيد باشا بصق على حمادي ووصفه بالخائن، وزاد على ذلك بأن وجّه إليه شتائم بذيئة رافقتها حركات بالإصبع الوسطى!

رفض الكثيرون تصديق هذه الرواية، نظراً للعلاقة المتينة بين الاثنين. قالوا ذلك وأرفقوا كلماتهم بابتسامات لكي يشيروا إلى تلك العلاقة! وأخذوا يؤكدون أن خلافاً مثل هذا لو وقع، فإن أبو عقلين لا يقوى على فتح عينيه بعد أن جرح فكيف يستطيع إطلاق النار وقتل من يحب؟

حين أكد عبود الحاج قادر أنه سمع القصة بنفسه من الجنود، رد عليه رزوقي الأعرج، أو رزوقي مفتاح، كما أصبح يطلق عليه، لكونه مساعد حامل مفاتيح مرقد الشيخ عبدالقادر، رد عليه بسخرية:

ـ خليك من هذه السوالف، مولانا، لأن الوالي وحمادي ما يتفارقون، طيزين بفد لباس، ومثل ما عاشوا سوا يموتون سوا، فإذا انقتل ابن سليمان فدور على واحد غير حمادي، لأن ذاك هو القاتل، هذي قضية لازم تفهمها زين!

رد عبود بنزق غير مألوف:

ـ أنت منو، حتى تخوض بالسياسة، وباللي يصير وما يصير؟

ـ آني منو؟ ما عاجبك؟ ما مالي عينك؟

ـ أي . . . ما عاجبني . . .

وابتسم عبود، ثم تحولت ابتسامته إلى ضحكة ساخرة وهو يضيف:

ـ طول النهار تطرقع بالقبقاب: تطرقْ . . تطرقْ، تفتح باب وتسد الثاني، وبعدها تريد على روسنا تقرا دروس، مو بالدين، بالسياسة؟ هاي وين صارت . . مولانا؟

ـ اسمعوا . . اسمعوا يا ناس: علمته الرمي رماني!

تغيرت نبرة رزوقي:

ـ كل يوم والثاني، وعبود بوجهي، يا جماعة الخير: ها . . شتقول أبو مولود، منو راح ينتصر ومنو راح ينهزم . . هذا الباشا أو ذاك؟ وآني أقول له: طوّل بالك مختارنا. إلزم القاع ولا تخبصنا يا أبو سندس، لأن كل واحد منهم أنجس من اللاخ، وكل شي ما راح يتغير؛ فيرد ويقول: أريد أفتهم وأعرف دربي، أريد أعرف أيا ختم يفيد هذا الباشا أو ذاك، فأقول له: على كيفك مولانا، وأختامك لكل باشا تصلح!

وترك الذين يسمعون الاثنين يواصلان النقاش الحاد، وذهب أغلبهم إلى السوق، إلى المقاهي المجاورة، علهم يعرفون ما حصل في القلعة، وماذا حل بسعيد.

في الكرخ، في قهوة أبو الخيل، حيث يتجمع عدد من رجال سليمان الغنام، فإن كل واحد من هؤلاء الرجال، حين يسأل عما حصل في القلعة، تكون إجابته مطابقة أو مقاربة لإجابة الآخرين! يقول هؤلاء الرجال أنهم تركوا القلعة في وقت مبكر، تركوها قبل أن يدخل داود باشا بغداد بأيام، لأنهم لم يعودوا يعرفون من هو الوالي، ومن له حق إصدار الأوامر. ليس ذلك فقط، كانت الأوامر تتغير بين لحظة وأخرى، إذ ما تكاد تُبلّغ حتى تُنقض، ولم يعودوا يعرفون لحساب من يحاربون أو من أجل أي شيء.

ويتبرع واحد من الجالسين لكي يقول إن الرواتب لم تدفع لهم منذ شهور وحاروا كيف يؤمنون رزقهم، وهكذا تركوا القلعة دون أسف، ولم

يعرفوا ما حصل!

ويؤمن آخرون على صحة ما يقال، كي لا يُظنّ أن لهم علاقة أو يتحملون أية مسؤولية. بل وقد يضيفون تفاصيل أخرى، خاصة إذا جاء من يؤكد وقوع اضطرابات خطيرة في القلعة، وإن هذه الاضطرابات ربما أودت بحياة سعيد باشا وآخرين، الأمر الذي ما كان ليحصل لو أن رجال الغنام هم حراس القلعة والمسؤولون عن حماية الوالي.

يقول رجال الغنام بانفعال أن لا أحد يستطيع أن يدافع وأن يحمي مثلهم. كانوا لا يسمحون حتى للطير أن يعبر فوق القلعة حين كانوا فيها؛ وكانوا يميزون العدو من الصديق بمجرد نظرة، وهذه النظرة لا تخيب أبداً. أما أن يكون الحراس نياماً أو متساهلين، وأن تقع مثل هذه الأحداث الخطيرة، ولا يستطيعون منعها أو مقاومتها، فهذا يؤكد صحة الموقف الذي اتخذوه بالانسحاب في وقت مبكر.

وفي المحلات الأخرى بصوب الكرخ تتردد القصة ذاتها، أو ما يشابهها، باختلاف بسيط في بعض التفاصيل.

تقول القصة إن حراس القلعة كانوا نياماً لما تسلل عدد من رجال داود، واستطاعوا الوصول إلى الجناح الذي يقيم فيه سعيد باشا. ودون صوت، دون أن يحس بهم أحد، اقتحموا غرفته، وهناك حدث الاشتباك، ولا يعرف ما إذا قتلوا سعيد أو أسروه.

الذين يؤكدون أن حصيلة الاشتباك مقتل سعيد، يشيرون إلى أن المهاجمين لم يكتفوا بقتله، بل وأخذوا رأسه أيضاً وحملوه معهم، وكادوا يغادرون القلعة كما دخلوا، لكن عند البوابة الخارجية سقط منهم الرأس، فأحدث دوياً هائلاً، مما أيقظ الحرس، فاضطر المهاجمون إلى ترك الرأس والهرب، وتبين فيما بعد أن الرأس الذي بقي بين أيدي الحرس لم يكن لسعيد وإنما لطباخه، كريم أبو كيف!

حين تروى القصة بهذا الشكل، تترك احتمالاً أن سعيد لم يقتل، ولا يعرف ما إذا سيسلم نفسه، أم سيقاوم؛ ولا يعرف أيضاً ما إذا بقي في القلعة

أم غادرها إلى مكان آخر!

سكان محلة الميدان يؤكدون أنهم دفنوا رأسين كانا بالقرب من القلعة، لكن ليس أي منهما لسعيد باشا. وهذا ما أقسم على صحته منعم الأسود، أحد الذين عملوا في السراي في فترة سابقة، وقد رأى بنفسه، ومن قرب، سعيد باشا، وبالتالي له القدرة على التمييز بين هذين الرأسين ورأس الباشا!

كان يتم تداول هذه الروايات وسط المدينة، أما سكان الأطراف، القريبون من السور، فيرددون قصصاً من نوع آخر، وكلها تؤكد أن سعيد باشا لا يزال حياً، وقد نجا من الحصار الذي فرضه داود، وغادر بغداد، مع عدد من رجاله نحو الجنوب، وربما وصل إلى منطقة حمود بن ثامر، وقد يعود في أية لحظة، لينتزع السلطة من أيدي غاصبيها ويصبح والياً من جديد.

روى بعض الذين يسكنون بالقرب من باب المعظم أن عدة مجموعات من الفرسان عبرت، وأن أولى هذه المجموعات استوقفت بعض الفلاحين وسألتهم عن الطريق المؤدي إلى الجنوب.

وما يعطي هذه الرواية مصداقية كبيرة أن ثلاثة من هؤلاء الفرسان استوقفوا رجلاً كان في طريقه، عند الفجر، إلى المطحنة وطلبوا منه ناراً، وحين ورث هذا الرجل الزناد وقربه نحو الفارس الأوسط تأكد أن من يراه هو سعيد باشا، استنتج ذلك من طريقة التصرف، ثم من الرائحة الزكية التي كانت تفوح منه. كما أن ذلك الفارس سأله عن اسمه، وما إذا كان راضياً عن الوالي، سعيد باشا، وقبل أن يمضي منحه ليرة ذهبية.

هذا الرجل ما كان ليصدق لولا أنه لم يواصل طريقه إلى المطحنة، إذ عاد أدراجه إلى بيته ليصطحب زوجته وولديه الكبيرين من أجل أن يساعدوه في البحث عن الليرة الذهبية التي سقطت منه في ذات الموضع، ربما نتيجة الخوف أو الفرح. ولقد رآه عدد من معارفه يبحث عن تلك الليرة، فشاركوا في البحث معه، لكن لم يعثروا على شيء. وأكّد الجميع أن لا أحد يمكن أن يمنح مثل هذه المكافأة إلا الوالي أو من كان في مصافه من

المنعمين، وهم قليلون أو نادرون في سنوات الجوع!

والذين يسكنون عند الباب الشرقي سمعوا طلقات نارية في ليلتين متواليتين، وقيل إن عدداً من الفرسان حاولوا اختراق الطوق ومغادرة المدينة، من هذه الناحية، لكن رُدّوا. أكد ذلك أحد الحراس الليليين، وقد توارى في الوقت الذي مر فيه الفرسان، لكنه سمع صيحات تحذير ترددت عدة مرات، وقد ميّز بوضوح كلمة بالذات، «يا باشا.. يا باشا» ثم عاد الفرسان من حيث أتوا!

أما قهوة الشط، في جانب الكرخ، والعادة أن يأتي إليها كثيرون من صوب الرصافة حين تلتبس الأمور، فقد وصل إليها عبود الحاج قادر، مختار محلة باب الشيخ، في الصباح الباكر. جاء بعد أن شعر بالمرارة، وأيضاً بالحنق في اليوم السابق، نتيجة الكلمات التي سمعها من رزوقي مفتاح. لم تكن الكلمات وحدها التي آلمته، بل والسخرية التي طفحت بها، خاصة وأنها قيلت أمام الآخرين. جاء ليعرف لماذا قال وتصرف رزوقي بهذه الطريقة، دون خوف من العزل أو من انتقام أهل المحلة.

حين رآه الأسطة عواد، صاحب قهوة الشط، وكان حوله عدة أشخاص لم يميز المختار منهم سوى الحاج صالح العلو، بادأه الأسطة قبل أن يصل، وكانت الابتسامة تملأ وجهه.

- هالجية، يا مختارنا، ما هي لله!

وبعد أن تم تبادل التحيات بين الجميع، تابع الأسطة بنفس المرح:

- اللي يطول الغيبات يرجع بالغنايم، صدق لو آني غلطان، مختارنا؟

- حاشاك من الغلط، مولانا...

توقف قليلاً، أجال النظر في الوجوه التي تتابعه، وأضاف، فبدا صوته حاداً:

- ذاك الصوب، يا أبو نجم، مقلوب، والناس هناك ما تعرف رأسها من ساسها، فقلت لروحي: عند جهينة الخبر اليقين...

تطلّع إلى الأسطة عواد وهز رأسه عدة مرات وتابع:

ـ هذا اللي خلاني أسري عليكم سروة.

رد الأسطة عواد، وقد حمل كلامه مقداراً من السخرية:

ـ لما شفتك، يا مختارنا، قلت لروحي: عرس أو عزاء، لأن ماكو أحد يعبر الشط غبشة إلا إذا كان متوازي!

قال الحاج صالح، في محاولة لبناء جسر من التفاهم بين الاثنين:

ـ الأعراس بمثل هذي الأيام، يا أبو نجم، إذا صارت تصير بوقة، لأن أولاد الحلال بذاك الصوب ما خلوا لأحد درب حتى يقول يا ليل يا عين، ومن حقه المختار يحير مثل ما كلنا حايرين!

ـ يا أبو قدوري، بصوب الكرخ كله، ماكو قلعة وسرايات، ومثل ما تعرف: بذيك المكانات وحدها يصير الاكو والماكو، وعند جماعة ذاك الصوب الأخبار، أما إذا جوا لهذا الصوب حتى يعرفوا شنوا صاير بالدنيا، فلا بالله حصلنا!

رد الأسطة عواد، وأضاف موجهاً الكلام للمختار:

ـ إذا تقدر، يا مختارنا، تقنع الجماعة بذاك الصوب أن يخلصونا من القتل والمقتول، ويخلونا نعيش فد چم يوم مثل ما نريد، فالله يخلف عليك وعليهم!

ـ آني منو يا معود حتى أشوف الاكابرية أو أقنعهم!

ـ أنت مختار باب الشيخ، مولانا، ومفتاح المرقد بحزامك، وإذا مو اليوم ثاني يوم راح يجيك والينا داود؛ واللي ما نقدر نقوله، أنت نوب عنا وقول باسمنا: قتلة سعيد آخر ما نريد نسمع وآخر ما نريد نشوف!

سأل المختار بدهشة وانفعال:

ـ يعني هسه سعيد انقتل؟ خلصوا عليه؟ هذا رأيك، أبو نجم؟

ـ أنت وين عايش، مولانا، بهذي الدنيا، أو بغير دنيا؟

هكذا رد الحاج صالح العلو بتساؤل استنكاري، وكأنه يدين هذا الجهل أو التجاهل، فأجابه المختار بسرعة، ليقطع عليه طريق السخرية:

ـ بذاك الصوب، حجي، الناس دايخة، تضرب أخماس بأسداس،

وماكو أحد متأكد: سعيد عايش؟ ميت؟ بهذي الدنيا لو بغير دنيا؟

قال الأسطة عواد ببطء، كأنه يكلم نفسه:

ـ ما أسرع روجك يا شط بغداد، لأنك توصل الأخبار بالعجل، ولهذا الصوب قبل ذاك الصوب!

وتبرع أكثر من واحد ليؤكد أن سعيد باشا قتل، وأنه مات وشبع موتاً.

كان كل من يتكلم يقول ذلك بثقة راسخة، خلافاً للأماكن الأخرى، ولأشخاص آخرين. فإذا سئل كيف عرف، ولِمَ هو واثق هكذا، كانت الإجابات تتراوح بين الابتسامات يتبادلها مع الآخرين أو مع الذين يسألون. وتترافق الابتسامات عادة مع هزات من الرأس وكلمات بعينها تتردد: إن غداً لناظره قريب. والذين يسألون لا يعرفون كيف اقتنعوا، خاصة حين يريدون إقناع غيرهم، وهم يروون لهم ما سمعوا في قهوة الشط!

كاد الحديث يسترسل لولا وصول الحاج شبلي أبو الهيب.

صحيح أن الحاج شبلي من سكنة الميدان، ويملك تجارة في الشورجة، إلا أن تردده على الكرخ، وعلى قهوة الشط لم ينقطع، خاصة في الفترة الأخيرة، خلافاً لسيد عبود، الذي قد تمر سنة كاملة ولا يراه أحد في القهوة، وقد لا يعبر النهر، رغم أنه من مواليد الكرخ، ومن محلة الفحامة بالذات، وهذا ما جعل الأسطة عواد يواجهه بالعتاب وببعض السخرية.

الآن، بوصول الحاج شبلي، تغير الجو، وفي محاولة انتقاد ضمنية لسيد عبود، كان الأسطة عواد حفياً بالقادم الجديد. قال له بفخامة:

ـ الواحد ما ياكل إلا خبزته، حجي، وصلة الرحم بين الناس ماكو مثلها!

ـ الحمد لله، وما أدري نشكره أم لا!

هكذا رد وهو يتوجه إلى المكان الذي أفسحه له الحاج صالح العلو، وتابع بمرح:

ـ القعدة بالقهوة، هذي الأيام، والسوالف، وشوفة الوجوه الحلوة،

أحسن ألف مرة من أكل لحم الناس.

ولأن الكلام بدا غامضاً، أو كأنه استمرار لحديث سابق، فقد تولى الحاج صالح المتابعة:

ـ بهذي الأيام، حجي، التجارة ما تنراد، لأنها مو ربح حلال، ولا هي بيع وشرا مثل أيام قبل؛ التجارة هذي الأيام شلون الواحد ينهب الناس، شلون يجمع فلوس!

ـ شنو قيمة التجارة، مولانا، إذا ربح الواحد من لحم قرايبه، من دم جماعته؟

ردد الأسطة عواد. كأنه يكلم نفسه:

ـ لولا الحنية بقلوب بعضنا، چان الناس ماتت، يا جماعة الخير، وإذا الأحوال اليوم هالشكل، ما يندرى بالأيام والسنين اللي راح تجي شلون راح تصير!

قال الحاج شبلي وكأنه يبرر تردده الزائد على القهوة، وإهمال تجارته:

ـ من يوم ما صار القتل والمقتول قلت لروحي القرش المنفوس اللي ما يطلع إلا بشلعان الروح ما ينراد، لأنه بالعجل يحترق ويصير رماد. وهذا اللي يخليني ما اطبّ العلوة إلا نوبة بالأسبوع..

تغيرت اللهجة، أصبحت حزينة:

ـ طلعة القرش من الجيب تشيغ الروح، يا جماعة الخير، لأن ما يجي غيره إذا راح!

ولئلا يبقى الحديث بين اثنين، أو حول الربح والتجارة، فقد تدخل الأسطة عواد:

ـ نريدك كل يوم هنا، حجي...

ضحك وهو يهز رأسه، وأضاف بمرح:

ـ نريدك هنا، لكن ما نريد نقطع رزق القهاوي الثانية!

قال الحاج صالح العلو، وخرج صوته عميقاً:

ـ أصلاً بهذي الأيام ماكو بيع وشرا، ولولا رحمة الله الناس ماتت،

لكن الناس لبعضها!

أما الأسطة عواد فقد قال وهو ينقل نظراته في وجوه الذين حوله:

ـ بغداد ماكو بالدنيا مثلها ولاية، وبالدنيا مثل ناسها ما تلقى: قلب الواحد على أخوه، والرغيف اللي يشبع اثنين يشبع ثلاثة!

قال أحد رواد القهوة، وكان جالساً غير بعيد عن هذه المجموعة، ويتابع ما يجري من أحاديث:

ـ الدم ما يصير ماي، وهذي ولايتنا ونعرفها كلش زين يا جماعة الخير!

إلتفتت إليه الوجوه، وتوالت هزات الرؤوس، وغرق الجميع في صمت واسع وقد عاودتهم ذكريات الأيام التي مضت، ومخاوف الأيام التي ستأتي.

5

بعد أن أصبحت نهاية سعيد باشا أقرب إلى اليقين، وإن كان لا أحد يعرف كيف انتهى، انشغل الناس بلملمة مشاعرهم، وإعادة ترتيب حياتهم اليومية، وإن ظلت التساؤلات تعاودهم، بين فترة وأخرى، حول ما حصل. ومع التساؤلات المخاوف، خاصة إذا ترافقت هذه مع الإشاعات أو كانت بسببها، إذ إن إشاعة تنطلق، لا أحد يعرف من أين، يمكن أن تغير المزاج وتجعل الناس يتناوبون القلق والرجاء، «لأن بغداد، كما تعود أن يردد الكثيرون، ما ينحزر عليها».

ومع أن هاجس الفيضان أصبح الهاجس الأقوى خلال هذه الفترة، خاصة للذين يسكنون على الضفة اليسرى من النهر، إلا أن الخوف الكامن في القلوب، والذي يتكرر كل سنة، امتد إلى الآخرين هذه المرة وبسرعة، وكأنه يغلف مشاعر أخرى كثيرة يحسها الناس دون أن يعرفوا لها سبباً واضحاً أو محدداً.

صحيح أن الفيضان يتعاقب سنة بعد أخرى، كما تتعاقب الفصول، ويتحسب له الجميع ويخافونه، لأنه إذا جاء قوياً يقضي على البشر والحيوانات، ويترك آثاره على الزرع والبيوت، إلا أن أملاً يظل يخامر الكثيرين، ويتحول الأمل إلى صلاة وتضرّع، أن يكون فيضان هذه السنة رحيماً، بحيث يصل إلى حد معين ثم يتراجع، دون أن يجتاح ويدمر، كما يفعل في بعض السنين.

هذا الأمل يبقى ملاذ الناس، مع احتياطات قليلة يلجأون إليها، لأن لا

شيء يمكن أن يقف في وجه الفيضان إذا تجاوز حداً معيناً، مع أن الذين يسكنون على ضفاف النهر لا يكفون عن وضع الحواجز وتقوية السدود، ويزيدون في متانة أسوار البساتين، إلا أن زيادة المياه إذا توالت بسرعة، وإذا ترافقت مع أمطار غزيرة هنا أو هناك، فلا شيء ولا أحد يستطيع مقاومة الماء.

ومع أن فيضان النهر يأتي عادة أوائل الربيع، بعد أن يدب الدفء في الأرض، وبعد أن تكون خضرة الزرع قد بدأت تملأ العيون والقلوب، فقد يتقدم موعد الفيضان، لكنه لا يتأخر كثيراً. حين يتقدم يتشاءم الناس وتستبد بهم المخاوف، لأن معنى ذلك أن أمطاراً غزيرة هي التي عجلت بقدومه، أما الثلوج في أعلى منابع النهر، فلا تزال تنتظر دورها لتذوب، وتنقذف إلى المجرى مع الوحول وأغصان الأشجار، وكل ما تصادفه المياه في طريقها الطويل.

هذه السنة، وبعد أن مرت أكثر أيام شهر آذار ولم يأت الفيضان، قال الناس: قد تكون هذه السنة من سنوات الخير، وقد يأتي الفيضان في نيسان رحيماً، فيغسل التربة بدل أن يقضي على الزرع، وربما يكون قصيراً فلا يمنع الناس من الحركة، ولا يؤخر وصول القوافل إلى بغداد.

قال الناس ذلك، وافترضوا أن مجيء داود باشا، ودخوله إلى بغداد في هذه الفترة، فأل حسن ورضى من الله، خلافاً لما كان عليه فيضان السنة الماضية الذي أتى على الزرع والضرع، وفسَّره الكثيرون أنه عقاب من الله لما ارتكبه سعيد باشا من موبقات.

من خلال هذا الربط الذي افترضه محبو وأنصار الوالي الجديد، وردده أئمة المساجد أيضاً، تجدد الحديث عن سعيد وداود، عن الأيام السوداء التي كانت، والأيام البيضاء التي ستأتي.

وإذا كان الحديث هكذا يبدأ، فإنه لا يلبث أن يمتد ويتشعب في كل الاتجاهات. فحمادي الذي نسيه الكثيرون في غمرة الاهتمام بسعيد، يصبح حديث الكبار والصغار في المقاهي والأزقة، وقد يصبح حديث

النساء أيضاً، مع كلمات بذيئة وتوريات لا تخفى دلالاتها حتى على البنات الصغيرات!

وكالفراشات التي تنتقل من زهرة إلى أخرى، ينتقل الحديث من حمادي إلى نابي خاتون، ماذا حصل لها وأين هي الآن. وينتقل الحديث إلى من بقي من أولاد سليمان الكبير وبناته، وكيف أن الدنيا كالدولاب لا تكف يوماً عن الدوران، وكيف تنتقل الولاية من يد إلى يد، كما تنتقل الأموال، كما تنتقل الأمراض. وتستعمل في مثل هذه الأحاديث الحكم والأمثال وتجارب الأيام، ويحاول الكبار أن ينقلوا للصغار، كوسيلة من أجل تعليمهم الدروس، ليكونوا أكثر دراية في التعامل مع الأحداث.

وإذا كان حديث الباليوز لا يروق للنساء، ولا يقتربن منه إلا كما يقترب الطفل من النار، فإن الرجال في المقاهي، وفي محلات البيع والشراء، وحتى في البساتين أو عند أطراف النهر، يغريهم، ويعتبرون ذلك شيئاً ضرورياً وهاماً، مما يجعلهم يصلون إلى الباليوز، وإلى ذلك الأشيقر، الذي لا يُعرف هل هو مع الوالي الجديد أم الوالي القديم، وما إذا ساند سعيد أم ناصبه العداء في الأيام الأخيرة، وهل كان راغباً بداود أم وقف ضده. ولماذا طلب من الذين التجأوا إلى الباليوز أن يخرج بعضهم وأن يبقى آخرون؟

إن الحديث إذا بدأ عن قنصل إنكلترا، لا بد أن ينتقل بالضرورة إلى قنصل فرنسا، وإلى قنصل إيران، لأن ما يفعله أحدهم ينتقل إلى الآخرين، وينتقل إلى المقاهي وإلى السوق التجاري.

وأكثر التجار في السوق لا يروق لهم القسم الأكبر من الأحاديث التي تدور في قهاوي الأطراف، إذ يعتبرونها لغواً، ولا يخوض فيها إلا العاطلون عن العمل والشقاوات والشعراء، أما ما ينفع الناس، وما يؤثر في حياتهم ورزقهم، فلا يقتربون منه، ربما كوسيلة للهروب أو النسيان. وهذا ما جعل الحديث في قهاوي السوق يتركز، خاصة بعد الأيام الأولى لدخول داود باشا إلى بغداد، حول عزرا وساسون، وما هو متوقع أن يطرأ على

الأسعار من ارتفاع أو هبوط، وما يجب أن يحتاطوا له في البيع والشراء.

هكذا كانت تجري الأحاديث، ومعها الأسئلة والمخاوف والإشاعات، ربما كمحاولة لنسيان الفيضان أو لتأجيل وقوعه، لأن الناس لا يحتملون أن تتوالى المصاعب ومعها المصائب بهذا القدر أو بهذه السرعة.

ولأن بوادر الفيضان بدأت في الأسبوع الثاني من نيسان، ولأن زينب لا تخاف على نفسها من الغرق، وإنما تخاف على أوراقها والمستندات أن تخطفها المياه، إذا مال الزورق لهذه الناحية أو لتلك، فقد توقفت عن عبور النهر منذ أن بدأت المياه ترتفع.

زينب تعرفها بغداد كلها، بالصوبين. لكن من أجل تمييزها عن أخريات يشاركنها بنفس الاسم، ولتمييزها بشكل خاص عن زينب العرجاء، وتلك التي تبيع القيمر في باب الآغا، فقد أصبح اسمها زينب كوشان، بعد أن غابت كنيتها الأصلية!

أما كيف اكتسبت الكنية الجديدة، كوشان، فنتيجة الأوراق التي تحملها دائماً، والمليئة بالتواقيع والأختام، لتأكيد ملكيتها لمحلة الشيخ بشار. وهذه الأوراق تجمعت بمرور الأيام، وإن كانت بدايتها، كما يقال، في صحن مقام موسى الكاظم، إذ شرحت في إحدى زياراتها للكاظم ما تلاقيه من عنت وإنكار لملكيتها محلة الشيخ بشار، شرحت ذلك لإمام أعمى، وأقسمت على صحة ما تدعي، فما كان من الإمام إلا أن أملى على مساعده، وهو شاب أمرد يقع صوته بين المرأة والصبي، وثيقة تثبت هذه الملكية، أو كوشان القدرة، كما أطلق على تلك الوثيقة! وما كادت تمر أيام على زينب وهي تدور على بيوت المحلة لإطلاع الجميع على الوثيقة، حتى تحول اسمها من زينب ملا ضيف إلى زينب كوشان، ولأن عدداً من الخبثاء في صوب الكرخ سايروها وأيدوها، فقد أضافوا على الكوشان تواقيع وأختاماً كثيرة، مما استدعى إضافة ورقة بعد أخرى، إلى أن أصبحت الأوراق كومة، حملتها زينب مرات عديدة للسراي كي تحصل على حقها، وفي كل مرة يطلب منها أن تنتظر، وأن تحتفظ بالأوراق لكي

تعرض على الباشا!

ولأن قصة زينب تبدأ لكن لا تنتهي، وهي تتوالد وتتغير بين فترة وأخرى، فقد جاء من أكّد لها أن الوالي سعيد باشا عرف بالتعدي الذي حصل على ملكيتها لأراضي محلة الشيخ بشار، وقد استاء كثيراً، وأنه بصدد إعادة الأمور إلى نصابها والأملاك إلى أصحابها، وما دامت انتظرت طويلاً، «فيمكن أن تنتظر إلى وقت ولادة حملان الربيع، وقبل أن يصفر شعير جلولاء، وسيعود إليها حقها».

حمودي أبو الليل، الذي يرابط في قهوة سبع، بالقرب من الشريعة، قال أمام كثيرين، إن من يتعدى على زينب كوشان فكأنه تعدى عليه، ولذلك فإن ممازحة زينب لها حد لا يتعداه أحد، خشية أن يتعرض من يتجاوز ذلك إلى عقوبة حمودي الذي يخشاه الصغار، ويحسب حسابه الكبار.

ومثلما تحظى زينب برعاية حمودي، فإن هوبي الأكحل، الملاَّح، بين شريعة سبع والكمرك، يعطف على زينب ويعتبرها فألا حسناً كلما صبّحه وجهها وهي تتوجه إلى مركبه لتعبر إلى ذاك الصوب، في طريقها إلى السراي، في الصباح الباكر، من أجل ملاحقة قضيتها، رافضاً أن يتقاضى منها أجراً. وكي لا يشعرها بفقرها يؤكد لها أنه سيستوفي كل ما يستحق له بعد أن تكسب القضية!

يقول الذين يشفقون على زينب، باعتبارها امرأة فقيرة ووحيدة، وقد بلغت هذا العمر المتقدم، إنها يمكن أن تموت في ذات اليوم، أو في اليوم الذي يليه، لولا أن هذه القضية تشغلها، وبالتالي تؤخر موتها.

ويقول الذين لا يكرهون زينب، وليس لديهم تجاهها ود خاص، إنها هكذا منذ عرفوها، وربما منذ اللحظة التي رأت فيها النور! لم تكن صغيرة يوماً، لم تعرف الطفولة أو الشباب، فجأة من رحم الأم إلى الشيخوخة! وهذا ما يفسر قسوة الملامح وغياب الأثداء وضمور الساقين. ولأن في داخلها غريزة الأنثى ولم تتزوج، ولم تعرف الأطفال، فقد استعاضت عنهم بعدد يزيد كل يوم من القطط، إذ تعتني بها، تطعمها، تعطيها أسماء،

وبعض الأحيان تعتمد القسوة في تربيتها!

الآن، بعد الأحداث التي وقعت، ترفض زينب كل ما يقال، وترفض التسليم أيضاً. ورغم أن الحراس الجدد للسراي طردوها، وطلبوا منها أن تبتعد عن البوابة، فقد استمرت تذهب إلى هناك كل صباح، وبدأ الحراس يتظاهرون أنهم لم يروها، أو لا تعني لهم شيئاً أو خطراً.

أما بعد أن ارتفعت مياه النهر، ولخشيتها أن تغرق الكواشين، فقد توقفت، مؤقتاً، عن الذهاب إلى السراي. ولأن هوبي الأكحل تغيرت مهنته خلال هذه الفترة من ملاّح إلى ملقح لأشجار النخيل، وتوقف عن الانتقال بين ضفتي النهر، وإلى أن ينتهي الفيضان، فقد أصبحت زينت كوشان تجوب محلات الكرخ وأزقتها، وكانت تتوقف، أو تُستوقف، في الكثير من الأماكن ليسمع الناس، خاصة النسوة والأطفال، ما تقول.

كانت ترد، حين تُسأل عن سعيد باشا، ما إذا قتل أم لم يقتل، كانت ترد بسخرية وهي تضحك:

ـ سعيد، باشا وابن باشا، هو مو مثلي ومثلكم، فإذا مات تنخبص الدنيا..

تتوقف لحظة، تغير نبرة صوتها، وهي تتلفت:

ـ أحد منكم شاف جنازته؟ أحد منكم سمع الطوب؟

فإذا قيل لها أن سعيد عزل قبل أن يقتل، والوالي المعزول حين يموت، يموت مثل الكلب، لا تجري له جنازة، ولا تقام له فاتحة. حين يقال لها هذا تجيب بحزن:

ـ صحيح آني بعدني فقيرة، لكن عقلي براسي. فإذا الناس خافوا فأهله ما يخافون، ولازم: فاتحة وقراية وذبيحة عن روحه، وهذي كلها ماكو!

ويقولون لها إن داود باشا منع ذلك كله، وأهله بين هارب وسجين، ويضيفون تفاصيل أخرى كثيرة. تسمع زينب، تهز رأسها دلالة أنها استوعبت كل ما قالوه، وبعد أن ينتهوا ترد هازئة ومتحدية:

ـ قولوا اللي بكيفكم، لكن باچر أو اللي عقبه بعيونكم راح تشوفون!

فإذا أكد لها الذين يتحدثون أو يسألون أن سعيد انتهى، تجيبهم بحدة:

ـ شحده يموت قبل ما يخلّص شغلتي؟ يقبلها الله؟ يقبلها العبد؟

وحين تلمح الابتسامات على وجوههم، تنهض، لكن قبل أن تغادرهم تقول:

ـ قابل نبدا من جديد...؟

وهي تسير:

ـ طقّت مرارتنا وزهقت أرواحنا حتى قنعنا ذاك الثور، هسه شلون؟

وقبل أن تغيب:

ـ بابا... سعيد باشا بعده حي وقوي مثل الصل!

وحين تسمع ضحكات الأطفال تضيف وكأنها تخاطب نفسها:

ـ ولو ما انشاف فمثل غيبة المهدي له رجعة وبعيونهم راح يشوفون!

إذا انتهت الأسواق والمقاهي، وحتى الحمامات، من سعيد، فإن المساجد والأئمة الذين فيها لا يوافقون بسهولة على ما يقوله الآخرون؛ أكثر من ذلك يتبارى هؤلاء الأئمة في مخالفة الآخرين، ويتباهون!

خادم جامع أبي حنيفة، بكري الدده، يعرف، مثل الكثيرين، علاقة داود باشا بمقام عبدالقادر الكيلاني، فيتخيل الهدايا والهبات التي ستذهب إلى هناك، ولن يطال منها شيئاً، فيُحمّ ليلة وثانية، ويقول للناس في اليوم الثالث، إن ثلاثة رجال، لثلاث ليال متوالية، جاءوا إلى جامع الإمام الأعظم قبل الفجر. كانوا يلبسون ثياباً بيضاء كأنها الأكفان، وجوههم منيرة كأنها الأقمار، وروائحتهم المسك والعنبر. كانوا يدخلون إلى الجامع لا يعرف من أين، فقد كانت البوابات مغلقة، ويبدأون بالدوران حول الضريح، وهم يبكون ويرددون الأدعية طالبين من الإمام الأعظم أن يفك أسر الغائب... سعيد.

لقد رآهم ابن الدده في تلك الليالي رؤية العين، وسمعهم يرددون هذا الدعاء، لكن خاف أن يقترب أو يسأل، وقد ميّز بينهم واحداً تعود أن يراه في صلاة كل فجر، وقد صمم أن يستوقفه أو ينادي عليه، لكن رجليه لم

تسعفاه وصوته لم يطاوعه، رغم محاولة الحركة والصراخ، وشعر أن العرق يغسله من رأسه حتى قدميه.

ورغم أنه تشجع في الليلة الرابعة، وحمل حجاب القوة الذي صنعه له شيخ ضرير حين أصيب بالجدري، وكان مصمماً على أن يستوقف الرجال أو واحداً منهم، ولو بالقوة، إلا أن الرجال لم يظهروا في تلك الليلة، ولم يظهروا في الليالي التالية!

بعد أن انتشرت هذه القصة في طول بغداد وعرضها، قيل إن سيد عليوي أرسل عدداً من الخيالة للمرابطة حول الجامع، والقبض على الذين يأتون عند الفجر، إلا أن هؤلاء لم يظهروا مرة أخرى!

لم يتأخر رزوقي الأعرج، أو رزوقي مفتاح، في الرد على هذه القصة، إذ قال أمام كثيرين، إن زواراً مثل هؤلاء، وقبل صلاة الصبح أيضاً، طلبوا منه في اليوم الأول أن يعجل بفتح باب مرقد الشيخ عبدالقادر، ففتحه وكان شديد الخوف، الأمر الذي جعله ينسى المفتاح في القفل، ورغم أنه بحث عن المفتاح في كل مكان فلم يجده إلا بعد عدة أيام، وقد وضع زوار النور شموعاً عند المرقد، لأن الله، بشفاعة الشيخ عبدالقادر، استجاب لدعائهم بنصر داود على القوم الظالمين.

ولتأكيد قصته يورد رزوقي مفتاح الكثير من التفاصيل، فملابس الزوار كانت من نور، ولهم أجنحة من غمام، أصواتهم كالهديل وعيونهم كالقناديل، وكان كل واحد منهم يحمل ديكاً. ديك الأول أسود، وديك الثاني أبيض، أما ديك الثالث فلا يتذكر رزوقي لونه، وقد دار الزوار الثلاثة، وهم يرفعون الديوك إلى الأعلى، حول الضريح سبع مرات، ثم فجأة اختفوا.

عبود الحاج قادر، مختار باب الشيخ، الذي كان يسمع رواية رزوقي لأول مرة، ولم يشر إليها قبل أن يسمع الناس يرددون ما حصل في جامع الإمام الأعظم، قال تعليقاً على القصة، وكأنه لا يوجه الكلام إلى رزوقي مفتاح:

ـ ابن الدده أكذب من دلاّل بسوق الهرج . . . .

والتفت إلى رزوقي وسأله بمكر :

ـ بس ما قلت لنا، مولانا، شنو لون الشموع : سودا لو بيضا؟

وحين قهقه الذين يسمعون، سمع من يقول :

ـ لونها بلون الديج الثالث!

رد رزوقي مفتاح بغضب وانفعال، موجهاً كلامه للمختار :

ـ إنت منين طالع لي سچينة خاصرة؟ منو دازك علي؟

ـ يا أبو مولود، يرحم والديك، نحن أولاد محلة، وبينا خبز وملح، بس سالفتك ما تنبلع، ومثل ما قالوا، حاشاك، مخبل يحچي عاقل يفهم . . .

وضحك المختار وهو ينظر إلى الآخرين، ويتحاشى نظرات الحاج رزوقي .

رد عليه رزوقي بغيظ :

ـ اللهم جيبك يا طولة الروح!

ـ اشو ما تذكرت هذي الرؤيا إلا بعد ما سمعت سالفة ابن الدده، شنو غيرة أو المسائل بالتفاطين؟

ـ مولانا . . . المصايب التي تدردب فوق روسنا صبح وعشية تخلي الواحد ينسى اسمه، فشنو تريدني أصير؟

ـ صلوات على محمد وعلى آل محمد، ويا رب، يا أرحم الراحمين، إلهم عبيدك الرشاد والكلام الصدق!

ـ يعني آني ما أقول الصدق، هذا قصدك؟

ـ آني ما قلت هالشكل، أنت اللي تقول!

ـ يحرم علي من اليوم أقول لك مرحبا!

ـ على كيفك، مولانا، سبحانه وتعالى قال ووصى بالكلام والسلام بين المتقين، والبني آدم إذا قال لك مرحبا لازم تقول له مرحبتين!

رد الحاج رزوقي بألم :

ـ كلام الله على عيني وراسي، بس أنت تريد تغشني، تريد تسوّد عيشتي. هذا كل قصدك.

ـ بالمختصر المفيد تريد تقول: سعيد انقتل، قولها، مولانا، وخلصنا!

ـ تريدني أقول سعيد انقتل؟ أي نعم مولانا، انقتل واشتعلت صفاحه، وألف لعنة...

رد واحد من بعيد:

ـ مولانا... لا تجوز على الميت غير الرحمة، وين أنت رايح؟

قال الحاج عزيز، الذي كان يتابع النقاش باهتمام:

ـ إذا أبو مفتاح هالشكل، شلون غيره؟

وخفض صوته إلى أقصى حد وهو يضيف، لكن بعض الذين حوله سمعوه يقول، وكان يهز رأسه أسفاً:

ـ ضرط الوزان وتاه علينا الحساب!

واستمر النقاش، لكن بتقطع وحزن، عن سعيد، لكن عيون الناس كانت على مياه النهر، تخاف أن ترتفع وتغرق كل شيء، كما حصل في السنة الفائتة. أما حين وصلت إلى حد لم تتجاوزه، ثم بدأت تنخفض بعد ذلك، فقد تنفس الكثيرون الصعداء، وقالوا: اللهم اجعل الأيام الآتية أحسن من الأيام الماضية...

6

إلى جانب داود باشا، غير بعيد عنه، وهو يدخل إلى بغداد منتصراً، بعد ظهر ذلك اليوم من شباط، كان عزرا بن سليم روفه.

لقد عاد عزرا، عاد أخيراً ظافراً، وها هو يحتل موقعاً متقدماً على كثيرين في الموكب، وقد حرص، وبذل جهداً، لكي يبقى متقدماً، وأن يراه الناس في ذلك الموقع.

بدا لكل من رآه في ذلك اليوم الشتائي الدافىء متألقاً يضج بالغبطة والمباهاة. كان لا يصدق ما يرى وما يسمع، مثل فتاة اكتشفت فجأة جسدها وقد اشرأب، ورأت جمالها في عيون الآخرين الذين لم يكونوا قادرين على إخفاء دهشتهم وإعجابهم وهم ينظرون!

وبقدر ما كان عزرا جزءاً من الموكب المنتصر، كان منفرداً وملهوفاً وهو ينظر إلى الوجوه بإمعان، ليتعرف على الأقرباء والأصدقاء، وليكتشف بشكل خاص ما إذا بقي شيء أو أثر من خصمه اللدود: ساسون. سوف يعرف ذلك بكل تأكيد من خلال وجوه الناس، وجوه الذين تعاطف معهم أو عاداهم. لقد عاهد نفسه أن يعرف كل شيء قبل أن يصل إلى حيّه، إلى بيته، وقبل أن يسمع بأذنيه الأخبار الكثيرة التي لا بد أن تكون بانتظاره، والتي حصلت أثناء غيابه خلال الشهور الماضية.

لن يغفر لساسون، ولن ينساه أبداً. لقد كان السبب الذي اضطره لأن يغامر بحياته، لأن يواجه المصاعب والأخطار، وأن يبقى شهوراً طويلة بعيداً عن بيته وأهله.

كانت رحلته إلى الشمال محفوفة بالأخطار، منذ اللحظة التي غادر فيها بغداد. كادت تقبض عليه إحدى الدوريات، لولا الرشوة التي دفعها لينقذ نفسه، أو كما قال له داود باشا بعد أن التقيا بالقرب من أربيل، وبعد أن سمع ما وقع له عند أسوار بغداد:

ـ بهذي الفليسات اشتريت روحك، وانكتب لك عمر جديد، يا عزرا أفندي!

أما وهو يجتاز أحد الجبال فقد تعرض لعاصفة ثلجية كادت تودي به. كما واجه في ليالي البرد والانتظار أخطاراً كبيرة، وكاد يقع أسيراً قرب كركوك. كيف يمكن أن ينسى هذه المصاعب والأخطار، ويغفر لساسون؟ لقد جاء وقت الحساب، وسيدفع ساسون الثمن مضاعفاً الآن.

كان، وهو يقلب نظراته في الوجوه، يشعر بالغبطة والقوة معاً. لقد انتصر أخيراً. صحيح أن النصر ليس له وحده، ولكن ما كان هذا النصر ليتم بدونه، وبدون تلك المغامرة التي لم تأت وحدها، أو بالصدفة، وإنما هيأ لها بكثير من الذكاء، ودفع الأمور لكي تأخذ هذا المسار.

حين يستعرض عزرا كيف حصلت الأحداث يشعر أن المال وحده لا يستطيع أن يفعل شيئاً إذا لم يقده عقل وهَّاج، عقل يعرف ما يجب أن يفعل ومتى يفعله، وهذا ما صنعه تماماً في الشهور الأخيرة. تصرف بهدوء ومرونة حين تطلب الأمر ذلك، واتخذ القرار الجريء في الوقت المناسب.

الآن، وهو يسمع الهتافات كيف تدوي في استقبال داود باشا، يقول لنفسه: «يمكن للإنسان أن يكسب المال إذا كان بارعاً وواتاه الحظ، كما يمكن أن يكسب بالصدفة أو بالقوة، ولكن الأكثر أهمية أن يجعل هذا المال وسيلة لمال أكثر، لقوة أكبر، من أجل السيطرة» وتخيَّل نفسه كيف سيكون قوياً، وصاحب الكلمة الأولى، بعد أن أصبح صراف باشي.

حين يتذكر الخطوات التي اتخذها من أجل أن ينتصر، يعتبر أن أمرين كانا الأكثر أهمية: العقل والجرأة. كان عاقلاً بالمقدار الضروري، فقد كتم

عواطفه بعد أن رُفض تعيينه صراف باشي. لم يرفع صوته احتجاجاً. لم يعلن الحرب مباشرة على سعيد باشا. ترك رفض التعيين يمضي وكأنه لا يعني له شيئاً، وبعد أن هدأت العاصفة بدأ العمل الحقيقي.

بعد العقل، أو معه، كانت الجرأة.

لو أن واحداً غيره كان مرشحاً لمركز صراف باشي ورُفض، لبدأ الحرب فوراً، لكنه لم يفعل. حتى لما أراد ساسون أن يستدرجه إلى الحرب كان عاقلاً ولم يُستدرج. قابل محاولات ساسون بأعصاب باردة وكأن الأمر لا يعنيه، إذ كان يصدر عن قناعة أساسية: الحرب التي يؤقتها الآخرون، ويدعونك لخوضها، ستكون فيها مدافعاً، والدفاع، أغلب الأحيان، نصف خسارة أو خسارة مؤجلة.

أما عن جرأته فيكفي، لكي يرضى عن نفسه، أنه رفض مصالحة ساسون، لكنه لم يعاد الآخرين في البداية، حين أراد ساسون. عاداهم حين أراد هو، وبعد أن أنجز المهمة التي لا يمكن لغيره أن ينجزها. وكانت هذه الخطوة الطلقة قبل الأخيرة التي توجه لسعيد باشا ولحمادي، والتي جعلتهم يترنحون، ومعهم أيضاً نابي خاتون وكل رجال سعيد، وها هم الآن يسقطون. وأخذت تتبدى له صورة ساسون: طويل، متين الجسد، لكن أبرز ما يميزه عن الآخرين تلك الابتسامة الرخوة، والتي سرعان ما تتحول إلى ضحك صاخب. حتى رأسه، وهو يتحرك كبندول الساعة، فكأنه يريد أن يجعل الآخرين يرون فرحه! أما طوله فقد رسم لنظراته مساقط عالية، بحيث يبدو كأنه ينظر إلى البعيد، مما يترك انطباعاً أنه قادر على تحقيق كل شيء، خاصة حين يشرب كأساً أو اثنين مع الوالي سعيد، أو حين يكون مع رجاله المقربين.

الآن جاء وقت الحساب. سوف يلقنه درساً لن ينساه أبداً، وسوف يثبت له أن الشيء الذي يتعذر كسبه عن طريق المال هو العقل. فالعقل ميزة يختص بها بعض الناس، قلة من الناس، كي يكونوا أقدر من غيرهم وأقوى، وهذا ما لم يستوعبه ساسون جيداً. لقد افترض أن للجنة بابا

واحداً، وكان مطمئناً حين وقف حمادي عند ذاك الباب، وكان وحده يسمح ويمنع، ولم يتصور أن يكون للجنة أبواب أخرى، أو يمكن اختراعها عند الضرورة!

كان يحس منذ وقت مبكر أنه أولى من ساسون بمنصب صراف باشي. لم يقل ذلك لسعيد باشا أو لحمادي مباشرة، ولكن جعلهم يتأكدون أنهم بحاجة ماسة إليه ولخدماته، فهو يعرف كيف يكون موجوداً ومفيداً في الوقت المناسب، ولا يتردد في اتخاذ قرارات قد تكلفه مالاً لا يستعاد، ومع ذلك لا يتأخر في أن يقوم بها.

ليس هذا فقط، فأخوه حسقيل الذي ترك بغداد مبكراً واستقر في اسطنبول، كان يريده إلى جانبه، وقد حاول أن يستقدمه إلى هناك، لكن عزرا كان يؤجل تلبية هذه الرغبة مرة بعد أخرى، كطريقة غير مباشرة للرفض، لأنه يحب بغداد، ولا يقوى على فراقها، كما كتب مرة لحسقيل، وكان في الحقيقة يعبر عن مشاعر وردة، زوجته، أكثر مما يعبر عن مشاعره.

أما عواطفه هو، فمن جملة أسباب تعلقه بهذه المدينة شعوره أنه فيها أقوى من أي مكان آخر، لأنه يعرف كل شيء: الناس والأماكن وحتى الطقس، الأمر الذي لن يتاح له في مدينة أخرى، خاصة اسطنبول، حيث يذهب الكثيرون إلى هناك، لكن الذين يستمرون قلة، وهذه القلة تظل خاضعة للرياح التي لا تتوقف عن العصف طوال أيام السنة، ومهما بلغ الواحد من القوة يمكن أن ينتهي في لحظة.

بعد أن تعذر على حسقيل إقناعه، ومن أجل أن تكون العائلة قوية في اسطنبول وبغداد معاً، ويسند كل جناح الآخر، لا بد أن يكون عزرا صراف باشي، وهذا ما حاوله حسقيل عن طريق خالد أفندي، ثعلب الصحراء الأغبر.

لما فشلت المحاولة، كان وقع الفشل على الذين حاولوا أقوى مما ظهرت على عزرا أفندي. لقد تظاهر، أول الأمر، أنه لا يدري، وأنه

فوجىء بالموضوع. ثم قال إن المنصب، لو أسند إليه، سوف يشغله عن متابعة مصالحه الكثيرة، مما سيلحق به خسارات لا يحتملها، خاصة وأن عليه ديوناً واجبة التسديد، ولا تحتمل أي تأخير أو تأجيل، وشكر الله أن مثل هذه الرغبة لم تلق استحساناً لدى الوالي، لأنه يستطيع أن يفيده في مجالات أخرى!

كان الغيظ بالغاً أقصاه في قلب عزرا، لما عرف برفض اقتراح خالد أفندي أن يعين صراف باشي، لكن لم يترك لهذا الغيظ أن يبلغ عقله أو يؤثر على مظهره وسلوكه. كتب لحسقيل عن الليالي الثقيلة التي لم ينم خلالها نتيجة الرفض الفظ الذي صدر عن حمادي، قبل أن يصدر عن أي إنسان آخر. ولأن الرفض اقترن بكلمات نابية مليئة بالسخرية وبالحركات البذيئة، وبالتهديد أيضاً! وكان يريد من هذه الرسالة أن يبلغ خالد أفندي الموقف تجاهه، وماذا يعني للسلطان وللرجال الذين حوله، أكثر مما كان يلوم حسقيل أو يؤنبه. ولم يتأخر حسقيل في إطلاع خالد أفندي على مضمون الرسالة، وأن يزيد عليها الكثير، كوسيلة إضافية للتحريض، مع أن خالد أفندي لم يكن بحاجة إلى ذلك، لأن رجاله في بغداد لا يبخلون عليه بالمعلومات والأخبار!

وكتب حسقيل إلى عزرا رسالة طويلة، ليس فقط رداً على رسالته، وما ورد فيها من نقاط، بل وما يفكر فيه أيضاً. جاء في مقطع من هذه الرسالة... «... ولدينا من الأخبار، وحتى من المعلومات، عن الوالي والذين حوله الكثير، لكن نحتاج إلى أدلة ملموسة، أدلة دامغة، لحمل الكبار هنا على اتخاذ القرار. يجب أن لا تبالغ في تصور قوتنا أو قدرتنا على تحقيق كل شيء، ولعل في محاولات خالد أفندي دليلاً يكفي. أطلب منك أن تكون معتدلاً، كي نستطيع أن نحقق ما نقوى على تحقيقه الآن... وإلا فإن أمورنا كلها ستضطرب في اسنطبول، وكذلك في بغداد، فانتبه يا عزرا. احمِ نفسك وأسرتك، واحمِ أكبر عدد من الأقرباء والأصدقاء، لأن الشجاعة، في أحيان كثيرة، أن يبقى الإنسان حياً، فالحياة

لا تتوقف عند هذه المحاولة فقط».

وهنا بدأ العقل، ليس لحماية صاحبه وحده، بل ولتوظيف كل ما فيه من إمكانيات ومواد من أجل خوض المعركة الحقيقية، خاصة وأن الطرف الآخر، سعيد والذين حوله، أصبحوا شديدي السخاء في تقديم ما يساعد من أجل هذه المعركة!

ومن يلبد عند المنعطف، بانتظار الفرصة المناسبة لا بد أن تواتيه، وعليه أن يعرف كيف يلتقطها، ثم كيف يحولها إلى قوة لا يمكن أن تُقاوم، وهذا ما فعله عزرا. إذ ما كادت تطلب اسطنبول ما يستحق لها، وأكدت على ضرورة تسديده، حتى التفت سعيد إلى الذين حوله، خاصة صراف باشي ساسون، والتفت ساسون إلى الآخرين. أمكن تأمين جزء مما هو مستحق، لكنه لم يكن ليكفي، أما عزرا فدفع قليلاً، بحجة الديون وضرورة تأديتها في أوقات لا يمكن أن تتأخر. تبرعت نابي خاتون بمبالغ «لكي يبقى راس والينا مرفوع» وتنازل حمادي عن أراضي المسيب للدائنين، بعد أن تعهدوا بدفع ما يستحق على هذه الأراضي خلال السنين الثلاث الأخيرة، وأن يدفعوا له مبلغاً من المال!

وأبلغهم خالد أفندي أن هذا لا يكفي، وعليهم دفع كل ما هو مستحق. . . وإلا.

فُهم هذا التهديد ولم يفهم، لكن الذين يحبون داود، وكان بعضهم في السراي، وآخرون قريبين من حمادي، نقلوا إليه ما تقول اسطنبول، وفهم داود الرسالة، وبدأ يستعد.

ولأن عزرا عند المنعطف لا يغادره، بانتظار لحظة الإشراق، «وإلى أن يخرج المرئي إلى جيب التمام، حيث يلتقي الخطان، ويكون المجرى وفيه الأمان» كما تعود أن يقول محب الدين المرادي، فقد التقط الخيط، وكان قبل ذلك قد فهم الرسالة. ويتذكر آخر لقاء له بداود، قبل أن يرحل هذا الأخير إلى الشمال، فقد ردد ما قاله محب الدين:

ـ السعد ممتزج والبروج بمنزلة الإكليل، ولا بد أن أسير، فإذا لم نلتق

هناك نلتقي هنا، والله هو المدبر، وهو الميسر، وعليه التوكيل!

ولم يتأخر عزرا في تنفيذ ما كلفه به سعيد باشا.

فهذه البارات التي تحملها البغال من والي اسطنبول، ذهاباً وإياباً، لا تساوي قيمة علف الحيوانات التي تنقلها، ولا تعني شيئاً في الذهاب والعودة، فلماذا تصر بغداد، أو صراف باشي على وجه التحديد، على أن يجعلها في رحلة دائمة؟ وإلى متى تظل اسطنبول تدفع رواتب الذين يحسبون هذه البارات في الذهاب والعودة؟

لم تتأخر المراسلات ولم تطل: «ابقوا عندكم البارات، لا ترسلوها فيما يستحق لدار الخلافة، وإذا احتجتم إلى مزيد منها، فسكوها عندكم، ولا حاجة إلى المزيد من المكاتبات».

ولئلا يظن عزرا أن رفض تعيينه كصراف باشي غضب كلي من الوالي، فقد كلفه سعيد باشا بسك هذه العملة، «حتىٰ يفرح الفقراء وان زعل أصحاب البغال». وأضاف بنوع من النشوة:

ـ اليوم بارة، ويجي اليوم اللي ندق به ليرة الذهب، يا عزرا أفندي!

ولم يتأخر عزرا في الاستجابة لما طلبه الباشا.

اندفع إلى العمل بهمة وحماس، وبطريقة تبدو شديدة البراءة طلب من الأسطة محي الدين أن يُوضع اسم الوالي سعيد على القطع النقدية، كي تُميّز ويُعرف أنها سكت في بغداد. والأسطة الذي أبدى استغرابه أن لا تحمل هذه القطع الطغراء واسم السلطان، كما هي العادة، رد عزرا أفندي على هذا الاستغراب بابتسامة واسعة وبكلمات شديدة الوثوق:

ـ لَهْ. . لَهْ يا أبو زكي. . هذه البارات ما تسوى ويكلف سكها أكثر من قيمتها، وصار الاتفاق أن يكون عليها اسم الوالي بدل اسم السلطان.

ـ متأكد. . عزرا أفندي؟

ـ على بختك يا أبو زكي. . قابل آني أسوي فد شي بدون أمر أفندينا!

ـ عفواً. . عزرا أفندي، بس.

ـ على مسؤوليتي، أسطة، أنت مالك لازم، دق وامش!

ـ عليه توكلنا.

ولم يتردد عزرا في أن يخص نفسه بالكيس الأول الذي خرج من دار السك، وكان مملوءاً بالبارات. حمله إلى البيت، دفن مقدار النصف في أرض الحديقة، بالقرب من شجرة برتقال، وطلب من ابن أخته، فكري، أن يملأ جيبين داخليين بهذه القطع النقدية، وأن يسلمها لخاله، والذي بعث يستدعيه إلى اسطنبول «لأن مركزاً هاماً ينتظرك، وستفرح به كثيراً، ووصولك اليوم أفضل من الغد». وحين بدأت القافلة رحلتها إلى اسطنبول، قال عزرا لفكري يوصيه:

ـ . . . وتسلم عليه، وتسلمه الصوغة، وتقول له: رطب بغداد لحق، والدبس هذي السنة أكثر وأحلى من السنين اللي فاتت، وعليكم الباقي.

أما وردة، زوجة عزرا، حين رأته يحفر إلى جانب شجرة البرتقال، فقد أدركت أن التهديدات التي كان يطلقها بدأت تتنفذ، وأن مغادرته أصبحت وشيكة، إذا لم يكن اليوم، ففي الغد بكل تأكيد.

كانت وردة أماً كبيرة حتى لعزرا نفسه. كانت تلومه، بعض الأحيان، لتهوره، وتعتب أنه لا يشاورها، لا يأخذ رأيها. لكنها مثل أي أم تغضب، تذهب إلى مسافة معينة، ثم ترجع أو تتراجع. تفعل ذلك دون أن تعلن هزيمتها، إذ تعتبر الرجال، مهما بلغوا من العمر، أطفالاً بحاجة دائمة إلى النصح والرعاية، وأنهم أصبحوا هكذا لأنه لم تُحسَن تربيتهم!

في الليل المتأخر، وبعد أن أعاد عليها توصياته كلها، ما يجب أن تفعل، ولا تفعل، وأبلغها عن الأموال التي له، وبسرعة عن الأموال التي عليه، وضع في يدها، وظل يحرك، المفتاح الخاص بالخزنة الكبيرة، والموجودة في مستودع الطحين، وقد وعت وردة كل التفاصيل من المرة الأولى، ومع ذلك أعادها عليها، لئلا تنسى، كما أكد أكثر من مرة. ومع أول أنوار اليوم الجديد، وقد استعد لمغادرة بغداد متوجهاً إلى بعقوبة، «من أجل المطالبة بدين» فيما لو سئل، أو سئلت وردة، بعد أن يكون قد تجاوز الأسوار وأصبح بعيداً. في ذلك الصباح الباكر قالت له وردة، وقد

خنقتها الدموع:

ـ أينما ذهبت، وإلى أي مكان تصل إليه، اكتب لنا وسوف نأتيك، سوف نتبعك!

رد وبدا متلعثماً:

ـ لن أتأخر، سوف أعود، خاصة إذا رافقتني دعواتكم والصلوات!

ـ ولا تنسى أن تتذكرنا!

ـ كيف أنسى، كيف أغفل، وأنا الذي لا يقوى على الفراق، ولكنها مشيئة الله!

وغادر بغداد باتجاه الشمال ليلتحق بداود.

قبل أن ينقضي يومان على مغادرته، عرضت القطع التي تم سكها على السراي، لما رآها حمادي صرخ والشرر يتطاير من عينيه:

ـ سواها بينا ابن اليهودية؟

وتراكض رجال السراي لجمع القطع النقدية، والقبض على عزرا. جُمع القسم الأكبر من هذه القطع، أما عزرا نفسه فكان قد اختفى. جرى البحث عنه في كل مكان، لكن لا أحد رآه أو سمع عنه شيئاً. أما حين سئلت وردة فردت وهي تداري خوفها:

ـ راح على الحلة حتى يحصل ديونه اللي أكلها الناس، شنو تريدون نعيش من الهوا؟ ممنوع نحصِّل فلوسنا؟

وبعد قليل، وكأنها تخاطب نفسها، لكن تريد للذين جاءوا للسؤال أن يسمعوا:

ـ فوق الزينة والمعروف، والصبر على الدين سنين، صار طلب الدين، شعرة منه، حرام؟ هاي وين صارت؟ منو يقبلها؟

ولم يتأخر صدور فرمان السلطان بعزل سعيد، والطلب إليه أن يذهب إلى حلب، وأن يضع نفسه بتصرف واليها.

كتب إليه حسقيل، وقد حمل التتار الرسالة إلى أربيل مع فرمان عزل سعيد وتعيين داود والياً على بغداد. كتب في الرسالة يقول: «... سوف

تعرف أن البارات التي بعثتها أصبح الواحد منها يعادل الآلاف، بل وأؤكد لك أن كبار الوزراء ورجال الحاشية يتمنون مجرد رؤيتها. أتوقع أن تكون قد احتفظت بعدد منها، لأنها ستكون ذات قيمة كبيرة في المستقبل، ولا بد أن تباع بأثمان خيالية، وسوف يتوارث هذه القطع النقدية جيل عن آخر، وسيكتب التاريخ في قادم الأيام، كيف أصبحت البارة أثمن من ليرة الذهب. ليس ذلك فقط، سوف يقال إن بارة قضت على أكبر الولاة في العراق».

وقرر عزرا أن يكتب رسالة أقرب إلى الوصية، حين ارتدت قوات داود باشا عن أسوار بغداد، وكادت تلحق بها هزيمة ساحقة. كتب عزرا تلك الرسالة في لحظة حزن، لكن يشكر الله أنه لم يرسلها وتركها بين أوراقه، حتى إذا مات، وسلمت تلك الأوراق إلى أسرته لا بد أن تقرأ وتنفذ في يوم من الأيام. كتب في تلك الرسالة: «. . . وتركت لكم ثلاثة أنواع من الثروة: مالاً إذا عرفتم كيف تتصرفون به سوف يتضاعف من جيل إلى جيل؛ وتركت لكم علاقات تحميكم من غدر الزمان وتقلب الأيام؛ وتركت لكم سمعة تحول التراب إلى ذهب، وتجعل كل حاكم يتلمس رأسه قبل أن يعاديكم، فاعرفوا أين يجب أن تضعوا أقدامكم، ومن تصادقون ومن تعادون». أما خالد أفندي، ذئب الصحراء الأغبر، فقد قال لحسقيل، وكان لا يعرف كيف يداري فرحه:

ـ هذه البارة ستكون مثل شفرة المقصلة. . . وستقطع!

وبعد أن هز رأسه مرات عديدة دلالة الاقتناع، تابع كأنه يخاطب نفسه:

ـ لدينا الآن الورقة الرابحة، إذ بعد أن تصور سعيد نفسه أكبر من السلطان، وتجرأ على وضع اسمه على النقود بدل اسم مولانا، فلا أحد يعرف ماذا يمكن أن يفعل غداً. . .

والتفت إلى حسقيل:

ـ يجب أن يُحمل رأس هذا المغرور إلى اسطنبول، ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه أنه أصبح أكبر من مولانا السلطان!

مرت هذه الذكريات والأحداث في ذهن عزرا، وهو يضبط حركة حصانه ليكون في طليعة الموكب، أقرب المرافقين إلى الوالي داود باشا. ورغم حرصه الذي لم يفتر في أن يبقى هكذا، كان يتحقق من الوجوه عله يقرأ في قسماتها بعضاً من أخبار الشهور الماضية، وأخبار ساسون بشكل خاص.

قال لنفسه، وقد أصبح الموكب عند مشارف السراي: «إذا كان الكبار، سعيد وحمادي ونابي خاتون، انهزموا، وتساقطوا، فكيف يمكن أن يفلت ساسون؟».

ولا يُعرَف إن سمعه أحد، وهو يلكز حصانه، يقول:

ـ درابين بغداد ضيقة، وإذا ما تنشاف أول يوم تنشاف تاني يوم. . . وين راح تروح يا ساسون!

وإذا فات من حوله سماع صوته، فقد لاحظ عدد من المرافقين أن حصان عزرا جمح قليلاً وتغيرت خطواته، لكن سرعان ما امتثل بعد أن شد اللجام!

7

قد تنقضي أعوام، عشرات الأعوام، ولا يأتي إلى العراق مثل كلوديوس جيمس ريتش. شخصية نادرة، تراث تراكم عبر الأيام والسنين. حالة من الغواية الآسرة للسيطرة على الآخرين، فهو في نظرته للناس والبلاد مزيج من الكراهية ورغبة السيطرة، وقد انصهرا معاً، بحيث لم يعد يعرف كيف التحما ثم اتحدا ليصبحا واحداً.

هل حلمت أمه ذات ليلة، وكان جنيناً في شهره السابع، ان الشرق البعيد، موطن ألف ليلة وليلة، هو الذي ينادي ابنها ليكون نبياً جديداً ويبدأ مسيرته من هناك؟ وأبوه هل قابل تجاراً أتوا من أماكن قصية، وكانوا يلبسون الحرير، وتفوح منهم رائحة الزعفران والصندل والقرفة، فأسكرته تلك الرائحة، وقرر أن يبعث بابنه إلى المستعمرة الجديدة، الهند، ليصطاد النمور، ويعود من هناك حاملاً على صدره الأوسمة، ومالئاً صناديقه بالذهب؟

إن حلماً أقوى من النبوءة، ونشوة أشد فتكاً من الخمرة المعتقة، ورغبة كالشبق، ما دفع ريتش ليتعلم العربية والتركية والفارسية، ثم لأن يسلك طريق الشرق، نحو الهند. لكن محطة بذاتها، هي العراق، استوقفته، ولم يعد بعدها قادراً أن يرى أهم أو أشد فتنة منها، وقرر أن يربط مصيره بها، تماماً كما تصبح فتاة بذاتها هي الآسرة، بعد أن تم لقاؤها صدفة في حديقة أو في أحد منعطفات الطريق، وربما في ميناء صغير، فتغيِّر في اتجاه ومصير من تلتقيه، ثم يصبح الذي التقاها غير قادر على استبدالها بأخرى أو

الرضى بغيرها.

فإذا كانت اللغة مفتاحاً، ومشرق الشمس اتجاهاً، ورفاق السفر والمضيفون في المحطات ناصحين ومساعدين، فإن المصائر ترسمها الأقدار والنساء.

إذ ما كاد كلوديوس. ج. ريتش يتوقف في اسطنبول، وكان في طريقه إلى الهند، ويقدم كتاب التوصية الذي حمله معه من لندن إلى سفير بريطانيا لدى السلطنة، وما كاد يرى تلك الفتاة التي كانت في ضيافة عمتها، زوجة السفير، حتى قرر أن يختصر الطريق وأن يختصر البحث، إذ اختار العراق بدلاً من الهند، ولم يعد بحاجة لأن يبحث عن زوجة، لأنه تأكد أن هذه الفتاة وحدها التي تليق أن تكون زوجة له.

حين وصل ريتش إلى بغداد قنصلاً عاماً مفوضاً لبريطانيا العظمى، كان في أوائل العشرينات من عمره.

صحيح أنه جاء من بريطانيا، تلك الجزيرة الباردة، المحافظة، المعزولة، لكن جاء ليقول شيئاً مختلفاً، وليثبت للذين لديهم فكرة معينة عن الإنكليز، وليثبت للفرنسيين بشكل خاص، ولقنصل فرنسا في بغداد تحديداً، أن أفكارهم خاطئة، أو لا يعرفون الإنكليز بالمقدار الكافي!

فمع أنه أصغر موظفي القنصلية سناً صار رئيساً للبعثة، أي القنصل العام. أما ما يقال إنه من بلد محافظ، فقد كان أكثر ثورية وتحرراً من الذين ساهموا بإسقاط لويس الرابع عشر! إذ ما كادت تمر شهور على استلامه العمل حتى أصبحت القنصلية البريطانية، أو الباليوز كما أطلق عليها الناس في بغداد، تضاهي السراي، بل وتتفوق عليها في كل شيء: التأثير، العلاقات، الأهمية، ومعرفة كل ما يدور في المدينة.

وقبل أن تنقضي سنة على إقامته تحولت القنصلية إلى المكان الأكبر والأجمل في بغداد، وأصبح الناس بدل أن يراجعوا السراي، أو قبل أن يراجعوها، يذهبون إلى الباليوز علهم يحظون بمساعدته. كما أصبح ديوان القنصل المكان الذي يبدأ منه كبار الموظفين ممارسة أعمالهم، وفيه

يتبادلون الأخبار والأسرار، وأيضاً ما يجب أن يكون اليوم وغداً.

وإذا كان سفير فرنسا لدى السلطان استطاع في وقت سابق اقتراح وال واعتباره الأكثر جدارة لمواجهة مصاعب أو ظروف طارئة، فقد أصبح ريتش، وقبل أن تمضي سنوات على إقامته في العراق، هو الذي يهيىء الولاة ثم يفرضهم، وكان لديه باستمرار عدد من الولاة ينتظرون!

وحين عجز قنصل فرنسا عن شراء عصاً لها مقبض من الفضة لمترجمه، وقد بدا المترجم ذليلاً كسير الجناح أثناء زيارته إلى السراي، استطاع ريتش أن يستقدم باخرة حربية للمرابطة في النهر بصورة دائمة، وكان على الباخرة عدد من البحارة يكفي لخوض حرب.

أما حين زيد عدد العاملين في الباليوز إلى عدة أضعاف، وكان لدى كل واحد منهم ما يفعله طوال اليوم، فقد بكى قنصل فرنسا غيظاً وهو يقرأ رد سفارته في اسطنبول، والذي تعتذر فيه عن تعيين حارس ليلي، لضيق ذات اليد، «. . . وأنت تدرك ذلك يا مسيو ريمون، مع رجاء الكف مستقبلاً عن تقديم اقتراحات ترتب التزامات مالية».

ولأن القنصلية كانت تقيم احتفالات عديدة في السنة، وتدعو إليها الكثيرين، فإن الاحتفال الذي أقيم بزواج ريتش لم تشهد له بغداد مثيلاً، رغم أن الزواج تم في أوروبا، وقبل بضعة شهور، لكن وصول القنصل وبصحبته الزوجة اعتبر فرصة لإقامة هذا الاحتفال، الذي لم يتردد ريتش في الموافقة على إقامته، من أجل أن يدخل الفرح إلى قلب ماري، «ولكي يقول للناس ماذا يعني زواج قنصل ملك بريطانيا!»

وقبل أن تنقضي ثلاثة شهور أقيم احتفال ثان، لا يقل روعة وحجماً عن احتفال الزواج، لكن هذه المرة لعيد ميلاد ماري، وقد استغرب الكثيرون «كيف أن الإنكليز لا يتذكرون فقط السنة التي ولدوا فيها، بل ويتذكرون اليوم»!

لقد استعاد الناس هذه القصص، وأخرى غيرها، حين بدأ النزاع بين داود وسعيد، وكانوا يريدون أن يعرفوا: «الأشيقر، ريتش، أبو الباليوز،

يؤيد سعيد أو داود أم عنده واحد ضامه تحت الإبط؟».

هكذا تساءل الناس، لأن موقف القنصل هذه المرة يختلف عن مرات سابقة: كان قليل الاهتمام بالصراع الذي يدور، كأنه لا يعنيه، أو لا يعني له شيئاً، إذ لزم موقف المراقب، تماماً مثل موقف الذي يراقب صراع الديوك دون أن يكون مراهناً!

وموقف رجال الباليوز هذه المرة كان خلافاً لمرات سابقة أيضاً: لا يتحركون إلا بمقدار؛ يجيبون عن الأسئلة أكثر مما يسألون، والإجابات ذاتها لا تحمل تعاطفاً أو حتى ميلاً، فالكلمات تقال مع هزات الأكتاف، وكأنهم لا يقصدونها، أو لا تعني لهم شيئاً. وهذه الطريقة بمقدار ما لفتت نظر الكثيرين، فقد أفزعتهم.

حتى الذين كانوا «ضيوفاً» في الباليوز، وقضوا هناك أسابيع عديدة، ريثما ينجلي الصراع بين سعيد وداود، فقد خرج بعضهم في الأيام الأخيرة، وفضّل الآخرون الانتظار وتمديد فترة الضيافة، أو ربما طلب منهم القنصل البقاء!

لما حصل ذلك، وكانت بغداد خائفة مترقبة، قال الأسطة عواد لحسون الذي لا يكاد يفارق قهوة الشط بعد أن تهبط الشمس نحو المغيب، قال له بحرص ومودة أن يذهب إلى زاوية القهوة، ناحية الغرب، ليراقب إن ظهر هلال الشهر الجديد أم لا، وفي محاولة لترغيبه أن يفعل ذلك، أضاف بمداعبة:

ـ وإذا جبت البشارة، لك مني، فوق البوسة بين العيون، طاسة لبلبي وكمشة من راحة الحلقوم!

لم يكن حسون بحاجة لمثل هذه الإغراءات، إذ يمكن أن ينفذ ما يطلبه منه الأسطة عواد دون أي مقابل، لكن الكلمة التي أضافها، وحسون يتجه إلى الزاوية الغربية، لفتت نظر الذين حوله، إذ قال بنبرة موشحة بالحزن:

ـ لاني مبيت خيرة، وأريد أشوف الهلال على قُصة هذا المسكين!

سأله الحاج شبلي باهتمام:

ـ خير أبو نجم. . حج لو عمرة؟

ـ رحت هوايه زايد، حجي. . .

وبعد قليل:

ـ قبل هذي أو ذيك، أن نخلص من الطربقة اللي فوق روسنا، حجي!

ـ الحق تقوله، يا أبو نجم. . .

وتغيرت لهجة الحاج شبلي:

ـ ابن الخايبة، سعيد، خلصان، أسطة، هذا شيء مؤكد، وداود مصبح مسي، هذي ما ينراد لها قراية كف، بس ما ينعرف إذا ذاك الأشيقر، أبو الباليوز، ذاب له لقط أم لا. . هذي هي المسألة، وهنا بيت القصيد، مثل ما يقولون!

كان الحاج صالح العلو يسمع ويهز رأسه، وحين خيم الصمت قال كأنه يكلم نفسه:

ـ رأينا مو كل شي، يا جماعة الخير، المهم رأي الباليوز وأهل التفك.

وحين يتبرع أحد الذين كانوا في جانب الرصافة ذلك اليوم في وصف ما رأى من تأييد الناس لداود، وأن أقرب الناس لسعيد تخلوا عنه، يقول الحاج شبلي، ويخرج صوته مبحوحاً:

ـ هاي بغدادنا ونحن أعرف الناس بيها: تنام على شبوط تصبّح على جريّة!

ابتسم. هز رأسه عدة مرات وأضاف:

ـ وحوادث زماننا كثيرة، يا أولاد الحلال. . .

يغير الحاج شبلي أبو الهيب جلسته قليلاً، ويتابع بصوت عميق:

ـ قالوا: سليمان بخرنابات انتصر، ولما جاء الخبر لبغداد انخبصت: هلاهل وشربات، ذبايح وطبول، مَنّ السما ومصقول. . . وراح يوم وجا الثاني وإذا سليمان مقتول!

ابتسم أكثر، وهو يتطلع للذين حوله، وهزات رأسه تتوالى موافقة:

ـ وعبدالله باشا طار ورا سعيد، وصل لسوق الشيوخ وهو يقول: بيدي

لا بيد غيري، وفعلاً انهزم سعيد، ونام عبدالله باشا ذيك الليلة، وهو يحلم: «شلون تحب تموت يا سعيد، يا ابن سليمان؟» ولما صبّح لقى إيده والحصير، جماعته كلهم انهزموا، صاروا ويّا سعيد، وقبل ما ترتفع الشمس ذراع أو ذراعين جزّوا عبدالله جرة سخل وبساحة سوق الشيوخ علقوه!

وحين خيَّم الصمت من جديد، وتذكر الكثيرون الأحداث التي مرت، قال الحاج صالح العلو بطريقة حكيمة:

ـ أبو الباليوز، الأشيقر، ما يندرى شنو اللي ضامه جوا إبطه، وشنهو اللي يريده، لكن تاليها تصفى ونشوف.

عبدالله غبيشان، صاحب اسطبل الخيل، الذي انتزع منه حمادي وزبانيته عدداً من خيوله، قبل أن يهرّب ما بقي منها إلى الخالص، قال، وخرج صوته مبحوحاً، حتى ظن الذين يسمعونه أنه يقلد الحاج شبلي:

ـ أصواتنا انبحّت واحنا نصيح داود، لكن لا حياة لمن تنادي...

انجلت البحة قليلاً وهو يضيف:

ـ أرواحنا وصلت للزردوم، حاج شبلي، من المخانيث، لأنهم ما خلوا لنا درب أو سكة، سدوها بوجوهنا، وما بقي إلا يجي داود، وإلا انلاصت علينا!

وأضاف همساً، كأنه يخاطب نفسه:

ـ أما إذا ولانا حمادي من جديد، فالله وأكبر، راح تكون ولية مخانيث، مو بس تعوّر، تذل!

ـ يا معود، قال الأسطة عواد، ما راح تتطربق على سعيد ومسعود، راح تتطربق فوق روسنا كلنا، شنو عبالك؟

رد عبدالله غبيشان وهو يضحك:

ـ وراح الواحد منا يصيح باللاخ: إلزم لحيتك يا أبو فلان.. خاف يطيرها الهوا!

وضحك الذين يسمعون، لكن ما كاد يخيم الصمت من جديد، حتى

قال الحاج شبلي، وكان صوته أقرب إلى الصرامة:

ـ اللي تقولوه صحيح، يا جماعة الخير، لكن مو هذا موضوعنا، موضوعنا الأشيقر، هذا راس الحية!

قال الأسطة عواد:

ـ هذا مثل البومة، ساد حلقه ومفنجر عيونه، وما يندرى هو مع سيدي أو مع ستي!

ـ غداً إذا انجلى الغبار. . .

هكذا رد عبدالله الغبيشان، وشاركه بعض الآخرين في إكمال البيت.

أما الحاج صالح فقال، وشابت صوته رنة حزن:

ـ الباليوز يغزل وما ينعرف منو راح يلبس، فصبراً جميلاً.

رد عبدالله بتحد واستهتار:

ـ ماكو بعد الصبر إلا القبر، أبو قدوري، شنو عبالك؟

ـ ما يندرى، والعلم عند علام الغيوب.

في هذه الأثناء، وكالعاصفة، جاء حسون وهو يصيح:

ـ شفته، عمي، بعيني شفته، رفيع مثل الخيط، وإذا ما تصدق قوم وياي حتى أراويك!

قال الأسطة، وقد انفرجت أساريره:

ـ كلمتك ما تصير ثنتين، حسون، صدّقتك، وهسه راح تاخذ نص الحلوان، طاسة لبلبي، والنص الثاني. . إما تاخذ فلوس وتشتري راحة الحلقوم بنفسك، أو تنتظر لباچر حتى يفتّح عبود الشكرجي!

وحين سئل الأسطة عواد عن الخيرة التي بيتها، قال وهو يهز رأسه هزات متوالية وواثقة:

ـ نحن اليوم بيوم الاثنين، والهلال، مثل ما قال حسون، بيومه الأول، أو الثاني، هذي ما ينحزر عليها، ورهاني ويا اللي يريد يراهن: قبل ما يصير القمر بدر، بغداد تشوف والي جديد وولاية غير شكل!

قال عبدالله غبيشان بنزق:

ـ يا أبو نجم نريد داود، وغيره ما نريد!

رد الحاج شبلي أبو الهيب:

ـ لو المسألة يمنا من زمان خلصت، لكن المسألة يم غيرنا، يا أولاد الحلال، اندعوا ربكم تخلص على خير.

قال الحج صالح وهو ينهض:

ـ اتنصتوا زين على الباليوز، يا جماعة. . .

وكاد يضيف كلمات أخرى، لكن عبدالله غبيشان قال بصوت حاد، دون أن يوجه الكلام لأحد:

ـ لا الباليوز ولا غيره، اللي يحل المسألة، اللي يحلها من الأول للتالي، هم أصحاب التفك، واللي يصوبون زين.

وانقسم رواد قهوة الشط: فريق يتنصت لما يقوله أو يفعله الباليوز؛ فريق يرهق نفسه في تقدير قوات داود وما تبقى من قوات سعيد؛ وفريق يرقب الهلال وينتظره ليكبر في قبة السماء.

وفي تلك الليلة، وبعد أن انفض أغلب رواد قهوة الشط، قال حسون للأسطة عواد:

ـ عمي. . . بعد ما أريد راحة الحلقوم، ولا أريد فلوسها، طاسة اللبلبي كفتني وزادت!

رد الأسطة عواد وهو يضحك:

ـ ما عليك هذي دين برقبتي، حسون، وإذا صار اللي ببالي، أهل قهوة الشط كلهم، مو بس إنت، راح ياكلون راحة الحلقوم و. . .

وترك الأسطة عواد الصمت ليكون نهاية لهذا الكلام ولهذا اليوم.

8

إذا كان الباشا قد بدا مشغولاً في الأسابيع الأولى باستقبال قادة الجند وكبار العلماء والتجار، ثم بالتعيينات الضرورية للمراكز الهامة، فإن الهدوء الذي أعقب الأيام الأولى، بعد دخوله إلى بغداد، بدا خادعاً، أو على الأقل لم يكن بالمتانة التي رغبها وتوقعها الكثيرون. فرجال سعيد، أو من بقي منهم، بعد أن عجزوا عن المقاومة وجهاً لوجه، أخذوا يثيرون المتاعب والقلق، من مهاجمة بعض المواقع العسكرية ليلاً، إلى إطلاق الرصاص بالقرب من أسوار بغداد وبواباتها، إلى افتعال مشاكل وخلافات في السوق التجاري وفي عدد من المقاهي القريبة. كانوا يفعلون ذلك بهدف الإثارة والتحريض دون أن يذكروا أنهم من رجال سعيد أو من أنصاره.

هذه الأمور، أو بعضها، مع أن داود باشا قد توقعها، واحتاط لها قدر ما يمكّنه وضعه ورجاله، فإن الإشاعات التي بدأت تملأ بغداد عن قرب وصول البدو، رجال حمود بن ثامر، وآخرين، جعلت الناس يخافون ويتحسبون، خاصة وأن الأسعار التي ارتفعت خلال الفترة الأخيرة من الحصار، والتي كان يتوقع أن تنخفض بعد دخول داود باشا إلى بغداد، وبعد أن استلم عزرا أفندي منصب صراف باشي، ولقائه مرات عديدة بالتجار، بقيت هذه الأسعار على حالها، إن لم تزد في بعض المناسبات.

ترافقت هذه الحالة مع إشاعات تتزايد كل يوم، ولا يعرف من ينشرها أو كيف تستقر في القلوب والعقول، إن قاسم الشاوي الذي كان يقود

المقاومة، واختفى في الساعات الأخيرة قبل دخول داود، لا يزال في بغداد لم يغادرها، ولا بد أن يفجر الوضع من جديد، وسيتم ذلك مع دخول قوات البدو، أو مع وصول طلائعها. وداود باشا الذي يعرف خصومه مثلما يعرف راحة يده، كان يتحسب من هذا البدوي، ويعتبره الخصم الحقيقي، وبالتالي سيكون خطره كبيراً إن بقي طليقاً في بغداد، خاصة وأن جميع المعلومات والتحريات لم تشر إلى وجوده في مكان آخر.

هذا الجو، إضافة إلى الخوف الغريزي الذي سيطر على الناس، بسبب الحصار والصراع في الشهور الأخيرة، أديا إلى تراجع المعنويات، وزيادة الخشية، فأصبح الكثيرون أقرب إلى الحذر، وإلى الكتمان أيضاً. حتى الأحاديث التي كانت تجري بصوت عالٍ في المقاهي والأسواق في الأيام الأخيرة من الحصار، وقبل دخول داود باشا إلى بغداد، أصبحت تجري همساً وتورية، بعد أن ظلت الأسعار على حالها، ولم يتغير شيء مما توقعه الناس.

كان من الممكن أن تجد هذه الأمور تفسيراً أو تبريراً، طالما أن الوضع لم يستقر بعد، ويحتاج إلى المزيد من الوقت، كما هو حال أي وضع جديد، لكن ما أثار مخاوف الناس أكثر، وجعلهم يتحسبون وينتظرون: الباليوز. إذ بعد موقف اللامبالاة الذي اتخذه إزاء الصراع الذي كان يدور بين سعيد وداود، فقد استمر في الصمت والغياب، ثم بدا وكأن القنصل انشغل بقضايا أخرى.

إذا لم يكن الأمر هكذا، فما هو إذن سبب تأخر زيارة القنصل للسراي، أو عدم استقبال الباشا للقنصل؟

كان هذا السؤال يتردد على كل شفة ولسان، وكان به يبدأ أي حديث، ثم يتشعب الحديث ولا ينتهي.

الذين يبغضون القنصل، ويتخوفون منه، يقولون بعبارات جازمة إن القنصل، ومنذ اليوم الأول، طلب مقابلة الباشا، لكن الباشا رد بصوت عالٍ: لدينا الآن أمور كثيرة هامة، لا تحتمل التأجيل، وبعد أن تنتهي

سيأتي وقت القناصل!

الذين يميلون إلى تصديق مثل هذا الكلام يضيفون تفاصيل أخرى، ويؤكدون أن داود باشا يختلف كثيراً عن الولاة الذين سبقوه، ولا بد أن يُشْعِر القناصل بذلك، ولعل أول إشارة أن يؤخر استقبالهم!

أما الذين يحسبون كل حركة ويقدرون كل تصرف، فيقولون إن الباشا مستاء من القنصل لأنه آوى كل أعدائه في الباليوز، وقدم السلاح والعون إلى سعيد ورجاله، وحين أدرك أن لا جدوى، وأن داود باشا هو الأقوى، ولا بد أن ينتصر، فقد تراجع وشعر بالخيبة، لذلك لا يقوى على مقابلة الباشا قبل أن تمر فترة طويلة، وإلى أن يهدأ غضب الباشا أو حين ينسى.

لا يتوقف الذين يقولون مثل هذا الكلام عند هذا الحد، إذ يرددون الأسماء والوقائع، وكلها تؤكد أن العداء بين الطرفين وصل إلى حد كبير، ولا يمكن أن يسوَّى إلا بمرور الزمن، أو بأن يطلب داود باشا من اسطنبول، وتطلب اسطنبول من لندره، تغيير هذا القنصل اللئيم الذي لم تر بغداد مثيلاً له من قبل.

الذين لا يعتبرون أن الأمور وصلت إلى هذا الحد، يقولون إن مشاغل الباشا وحدها هي التي تمنع استقبال القنصل.

وهناك من يقولون، وهؤلاء تسيطر عليهم مشاعر الخوف، إن القنصل ذاته هو الذي يؤجل زيارة الباشا في السراي، فقد كان عليه أن يبادر، وخلال الأيام الأولى، إلى القيام بهذه الزيارة، على الأقل للتهنئة، خاصة وأنه تغيَّب تماماً عن الاستقبال، لكنه لم يفعل، وهذا شيء مقصود وله ما بعده.

ظلت الأحاديث التي تتناول هذا الموضوع بالذات لا تتوقف. أما حين انشغل القنصل، أو شغل نفسه، بترميمات وإضافات في بناء الباليوز، والسور الذي تقف بموازاته الباخرة الحربية، فقد تطير الكثيرون، واعتبروا أن الخلاف واقع لا محالة بين السراي والباليوز، ومما أكد ذلك أكثر، وجعله يقيناً غير قابل للدحض، أن عدداً من الذين كانوا «ضيوفاً» لدى

القنصل خلال فترة الصراع اعتقلهم داود، تمهيداً لمحاكمتهم.

القسم الأكبر من الأحاديث التي تدور على ألسنة الناس يصل إلى السراي وإلى الباليوز، إلى الوالي وإلى القنصل. وإذا كانت أوساط أي من الاثنين لا تجيب، مباشرة أو بشكل واضح، على الأسئلة التي تشغل الناس وتقلقهم، فإن طريقة رجال الطرفين في الحديث أو الإجابة تزيد الأمور غموضاً وتعقيداً، وأكثر من ذلك تجعل الناس في حيرة أكبر.

وجاء الفيضان. كان هذه السنة أكثر رحمة من سنين أخرى، إذ بلغ حداً معيناً، خاصة في الثلث الأول من نيسان، ثم أخذ ينحسر. وما قاله رجال القنصل إن تقوية أسوار الباليوز ورفعها كانت لدرء أخطار الفيضان فيما لو جاء قوياً جامحاً هذه السنة، كما حصل في السنة الفائتة، حين طغت مياه الفيضان على الحديقة المطلة على النهر وتجاوزتها حتى لامست جدران مستودعات الأعلاف، الأمر الذي اقتضى أخذ الحيطة. أما أن تقوية الأسوار ورفعها لاعتبارات عسكرية، فإن الإجابة على مثل هذه التخرصات مضيعة للوقت، «لأن لا أحد يعرف مدى عمق العلاقة ومقدار المحبة بين الاثنين». يقولون ذلك دون تسمية، دون تحديد، للبرهنة على أن العلاقة بين الباشا والقنصل تختلف عما يفترضون، أو عما تظهر من بعيد!

هذا الكلام بقدر ما يريح القلقين وبعض الخائفين، يفزع الذين افترضوا أن داود باشا يختلف عن غيره من الولاة. وكل من يريد أن يدقق يجد في الكلام الذي يسمعه حجة وسبباً للراحة أو للفزع.

أما إذا تذكر الناس فيضان هذه السنة، وقارنوه بفيضان السنة التي سبقته، أو سنين أخرى، فإنهم يجدون فيما يقوله رجال القنصل وجاهة وأسباباً معقولة، خاصة وأن زوجة القنصل ذاتها اشتركت بالعمل أو التوجيه أثناء البناء، كما ذكر عدد من عمال محلة الشيخ عمر، الذين ساهموا بإنجاز أكثر الأعمال.

فإذا كانت زوجة القنصل ذاتها ساهمت في العمل، فإن هذا العمل بكل تأكيد شغل القنصل عن كل ما عداه، مما اضطره لتأخير زيارة الباشا،

والباشا نفسه أبدى تفهماً ووافق على هذا التأخير!

رجال الباشا لا يجدون أنفسهم مضطرين لتفسير تأخر زيارة القنصل، فالمهمات التي تواجه الباشا، خاصة في هذه المرحلة، من الكثرة والتنوع بحيث تجبره على مواصلة الليل بالنهار، حتى أنه لا يقوى على رؤية أفراد أسرته، فكيف بالأجانب؟ يقولون الكلمة الأخيرة دون تحديد، معتبرين القنصل كأي واحد آخر من الأجانب المقيمين في بغداد. أما إذا جرت الإشارة إلى تعزيز أسوار القنصلية، فالأمر لا يستوجب من رجال الباشا إلا تعليقاً بسيطاً، يقولون بنوع من التبخيس: من يرد أن يصبح جمّالاً عليه أن يعلي باب بيته؛ والذين يسكنون على طرف الماء إما أن يهربوا وقت الفيضان أو أن يرفعوا أسوار بيوتهم!

ودائماً كانت لدى كل طرف أسبابه وحججه إذا جرت الأحاديث هكذا، دون تحدٍ، وبلا استفزاز. أما حين حل شهر رمضان، تلك السنة، عقب الفيضان مباشرة، فقد أصبحت لدى رجال الباشا حجج أقوى لتأخير استقبال القنصل، خاصة بعد أن ذاع خبر الزيارة التي قام بها مترجم القنصلية، بطرس يعقوب، إلى السراي، ولقائه بصفوت قرداغ.

يروي رجال الباشا، ويسرفون في إيراد التفاصيل، والتي تتغير ليلة بعد ليلة، وتختلف من مكان إلى آخر، أن بطرس يعقوب وصل إلى السراي ضحى، وقد استوقفه الحرس وقتاً غير قصير، وبعد أن تأكدوا من صفته وموجبات الزيارة، أخذوه، مشياً على الأقدام، بعد أن استوقفوا حصانه مع الحارس عند البوابة الخارجية، إلى مكتب صفوت قرداغ، مدير التشريفات. واستمهلوه أيضاً وقتاً غير قصير في المكتب قبل أن يستقبله صفوت نفسه.

وهنا تتشعب الروايات وتتناقض إلى أقصى حد. تقول واحدة من الروايات إن بطرس يعقوب رفض الخوض في داعي الزيارة قبل أن يُقدّم له اعتذار رسمي للتأخير في استقباله، ولأنه قطع المسافة بين البوابة والمكتب على أقدامه، الأمر الذي لم يحصل من قبل، ولن يرضي القنصل بكل

تأكيد فيما لو عرف، خاصة وأن الشمس كانت شديدة الحرارة في ذلك اليوم!

تقول هذه الرواية، أو ربما غيرها، إن الأمر سوي خلال لحظات، ليس عن طريق الاعتذار الرسمي، وإنما نتيجة لباقة صفوت أفندي وأريحيته، إذ أضفى على بداية اللقاء جواً مرحاً، بعد أن لام الحرس الجاهلين بالأصول، والذين تسببوا، دون قصد، بهذا الخطأ، والذي يقع مثله يومياً حتى مع كبار موظفي السراي، ولقد تفهم الترجمان الموقف وتجاوز الموضوع!

وهناك تفاصيل كثيرة تروى، لكن الذين يسمعونها لا يتوقفون عندها. أما حين طلب تحديد موعد لاستقبال القنصل، فكان الجواب سريعاً، لأنه جاهز «في الأسبوع الأول الذي يلي شهر رمضان المبارك» ولما ظهر الاستغراب على وجه بطرس يعقوب، أوضح صفوت أفندي الأمر بسرعة:

ـ سيكون الباشا كثير الانشغال مع العلماء والفقهاء خلال هذا الشهر..

وبعد توقف قصير:

ـ ثم إن الباشا يريد أن يستقبل سعادة القنصل بطريقة تليق بمقامه!

حاول الترجمان، بطريقة ماكرة، أن يشعر رئيس التشريفات أن الموعد المقترح بعيد، «وأن سعادة القنصل يرغب بلقاء الباشا في وقت مبكر لكي يقدم تهانيه بمناسبات عديدة: تسلم ولاية بغداد، ثم التهنئة برمضان المبارك وأيضاً بعيد الفطر السعيد» لكن صفوت أفندي اعتذر بمكر لا يقل عن مكر الترجمان، وكان يقلب دفتراً كبيراً أمامه. وكي يحسم الأمر بصورة كاملة، قال بطريقة فخمة:

ـ ليكن يوم الخميس الذي يلي عيد الفطر، ساعة الزوال.

ولما وجد بطرس مطرقاً صامتاً، تغيرت نبرة الصوت، أصبحت ودية:

ـ وتعرف أن الباشا خلال هذا الشهر الفضيل يستقبل الفقهاء والأعيان، ويقيم حفلات الافطار للأيتام ورجال الدين...

وعاد إلى اللهجة الفخمة:

ـ وفي هذا الشهر يؤجل المؤمن كل شيء ويتفرغ لله عز وجل. . .

قال هذه الكلمات ليشعر الترجمان أن هذا الشهر له طابع يعني المسلمين وحدهم، وأضاف كأنه يتذكر:

ـ لا تنسى الدروس التي يلقيها الباشا. . . يا بطرس أفندي.

وزم شفتيه فبان وجهه حازماً:

ـ لقد طلب منه العلماء أن لا يبخل عليهم بدروس إضافية خلال هذا الشهر، وقد وافق أفندينا، مع أن هذه الدروس تكلفه مشقة كبيرة.

توقف صفوت أفندي لحظات، حرك خلالها جسده كأنه يقاوم خدراً في الساق اليمنى، إذ دقها عدة مرات بالأرض، وتابع:

ـ لا أخفي عليك، يا بطرس أفندي: الصوم يفيد الجسم، هذا ما لمسته بنفسي، فآلام الساق التي كانت ترهقني قبل الصيام، قلّت عن السابق. . .

وعاد إلى الموضوع الأول:

ـ وأنت، يا بطرس أفندي، ابن هذه البلاد، وتدرك معنى التزام الباشا بإلقاء درسين كل أسبوع، فكيف إذا تضاعفت الدروس خلال هذا الشهر؟

ومع أنه كان يوجه إليه السؤال، فلم يكن ينتظر منه جواباً، إذ تابع بحزن:

ـ عند الناس أسئلة لا تنتهي، والساعة المخصصة للدرس تصبح ساعتين أو ثلاث ساعات، وتعال. . . واحسب!

لم يكن النقاش متكافئاً، أو يعني شيئاً هاماً للإثنين، ولكنه جزء من واجب الوظيفة، كما أنه اختبار لما ستكون عليه العلاقات في المرحلة القادمة، إذ ما لبث ان انصرف الإثنان إلى أمور أخرى. تحدثا عن الفيضان، عن موجة الحر المفاجئة، عن وجود علاجات إضافية لأمراض المفاصل. كما تبادلا أخبار بعض المعارف. وانتهى اللقاء بنكتة رواها صفوت أفندي، وضحك لها بطرس يعقوب أكثر مما تتحمل نكتة من هذا النوع!

هكذا تحدد موعد استقبال قنصل الملك.

كان يمكن أن يتحدد موعد أبكر من ذلك، لو أراد أحد الطرفين وألحّ، لكن كل طرف أعطى لنفسه فترة إضافية، لعله يستطيع خلالها أن يكسب نقطة على الآخر، أو أن يجعله في موقع يضطره لتقديم تنازل من نوع ما.

يقول بعض من يعرفون، إن الباشا كان يريد أن يشعر القنصل، ومنذ البداية، أنه غير مدين له بأي شيء. لا بل القنصل هو المدين، وقد حان الوقت لمعاقبته، من خلال التجاهل، بعد أن جعل الباليوز وكراً لكل الذين يعادون الباشا، وليس أقسى من إهماله وتأخير استقباله!

ويضيف هؤلاء، أن الباشا لن يسرف كثيراً، ولن يصل إلى حد العداء، لأنه يعرف ما يمثل هذا القنصل، ومدى قوة دولته وتأثيرها عليه وعلى ولايته، الآن وفي المستقبل.

صحيح أن في ذهن الباشا صورة سلبية عن هذا الغرّ، لكنه يبقى، مع ذلك، ممثلاً لدولة قوية، والدولة القوية تضفي على من يمثلها قوة، حتى لو كان مصنوعاً من القش.

وإذا كان الذين يعرفون لا يقولون كل ما يعرفون، فإن واحداً من هؤلاء، وكان مع داود باشا في الشمال، قال لأصدقاء له في قهوة الكمرك، إنه سمع من الباشا في إحدى المرات كلمة لا ينساها:

- منو هذا الزعطوط، سعيد، لولا أنه ابن سليمان باشا وملتزمه الباليوز؟

ويضيف هذا الشخص، الذي يستحلف أصدقاءه ألا يذكروا اسمه إذا نقلوا عنه، أن الباشا تحدث وأفاض في الحديث عن هذا الذي ورث، بالصدفة، إسماً وموقعاً دون استحقاق، في الوقت الذي صنع غيره حياتهم ومواقعهم تبعاً لما يملكون من مؤهلات ولما قدموه من تضحيات.

ويؤكد الشخص ذاته أن الباشا ذكر لو أن ابنه سليمان ما زال حياً لكان الآن أكبر من سعيد ومن القنصل، وذكر أن الحياة خير معلم وهي التي تخلق الرجال.

إذا كان هذا ما دفع الباشا إلى تأخير استقبال القنصل، فإن القنصل،

كما يروي رجاله لم يكن في عجلة من أمره. قال لترجمانه، بطرس يعقوب، وهو يرسله إلى السراي:

ـ لا تلح أبداً، لا تلح ولا تعتبر الأمر مهما: سعادة القنصل يريد مقابلة الباشا للتهنئة، فأي الأوقات تناسب فخامته؟

ابتسم، وهو ينظر إلى عيني ترجمانه وتابع:

ـ هؤلاء الشرقيون يتصورون أن أهميتهم تستمد من قدرتهم على أن يقولوا غداً، وغدهم هو المجهول بعينه، فلا تناقش كثيراً، المهم أن تقول لهم: ممثل جلالة الملك موجود في بغداد، ومن واجبه أن يقدم التهنئة، ثم أترك لهم أن يقولوا متى يناسبهم ذلك!

ولما كان الكبار، كالباشا والقنصل، يتناقشون ويتصرفون بطريقة معينة، فإن الموظفين يمتلكون من الوقت، ومن الرغبة، ما يجعلهم يعتبرون بعض الأمور هامة جداً، مع أن لا حاجة لها البتة، وأغلب الأحيان يتجاوزها الكبار، أو لا تعني لهم شيئاً، ولكن ماذا يفعل الموظفون إذا لم يفعلوا ذلك كي يبرهنوا على الدقة ومدى الحرص في أدائهم لواجبات وظائفهم؟

قال الترجمان في نهاية لقائه مع رئيس التشريفات

ـ لا مانع لدى قنصلية جلالة الملك على الموعد...

ابتسم بوقاحة وهو يضيف:

ـ شرط أن لا يسبق قنصل الملك لقاء أي من القناصل!

رد صفوت قرداغ وكأنه ينفي عن نفسه أي تهمة:

ـ لم تعط، بعد، مواعيد لأي من القناصل.

ـ وسيكون، بالتأكيد، قنصل جلالته أول من سيستقبل؟

رد صفوت أفندي بانفعال:

ـ أرجو ذلك!

عندما أبلغ الترجمان ريتش بالموعد، هز الأخير رأسه وكان يبتسم ابتسامة تحمل أكثر من معنى. وقال:

ـ نحن هنا مثل الهواء، قد لا يرانا من يتطلع حواليه، لكن كل إنسان يحس أننا موجودون وضروريون... ولعل الباشا أكثر الجميع إحساساً بهذا الأمر.

وبعد الاستفسار عما دار مع رئيس التشريفات، عقب ريتش:

ـ الجديد سيتعلم من القديم، وداود باشا رجل ذكي، يعرف ماذا تعني بريطانيا العظمى الآن وفي المستقبل، لهذا البلد وللبلدان الأخرى...

وأضاف، كأنه يخاطب نفسه:

ـ ليت هؤلاء الشرقيون يدركون أن الأمور تتجاوز المظاهر، وتتجاوز رغباتهم وما يفكرون فيه...

وبعد قليل:

ـ أثناء زيارتي الأخيرة للمملكة المتحدة، ولبعض الدول الأوروبية، أدركت أن ما يفصل الشرق عن أوروبا ليس الجغرافيا أو الزمن بل ونوع العقلية أيضاً!

وكاد ريتش يستطرد، لكنه فجأة أدرك أن ترجمانه واحد من الشرق، ولا يحسن أن يقول أمامه كل شيء أو ما يفكر ويحس به. فتابع وقد تغيرت اللهجة:

ـ سجل الموعد، لكي لا ننسى، ولا بد أن تذكرني به قبل يوم أو يومين من ذلك!

ومع أن الموعد تحدد بشكل ثابت ونهائي، إلا أن بطرس يعقوب أصر أن يكون استقبال قنصل بريطانيا أول من يتم استقباله من القناصل، وكان يعني تحديداً قنصل فرنسا، لأن الوسواس تملك ريتش من أن تعود الأمور كما في السابق، أيام سليمان الصغير، حين كان القنصل الفرنسي لا يختار الوالي فقط، بل وكان يملي عليه السياسة والعلاقات، وأي شيء يجب أن يقبل أو يرفض.

تحفظ ريتش كان من قبيل الاحتياط، لأنه لا يعرف كيف انتشرت الأخبار عن فرار نابليون من منفاه، واحتمال عودته إلى السلطة مجدداً، وما

يعنيه ذلك من متاعب ليس لأوروبا وحدها، وإنما للعالم بأسره. هذه الأخبار بدأ تداولها بعد وصول عدد من التجار الأوروبيين، كان ضمنهم بعض الفرنسيين، لبحث إمكانية شراء منتجات زراعية من العراق وإيران، وأيضاً لشراء الجلود والسجاد والصوف، ولإقامة عدد من المنشآت خاصة في الشمال لصناعة الحرير الطبيعي.

ليس ذلك فقط، إذ كان لدى ريتش قناعة أكيدة أن لفرنسا جواسيسها أيضاً، وهؤلاء، وان كانوا غير ظاهرين، لا يكفون عن تحريض الناس ضد الإنكليز، وشتمهم واختراع القصص عما يفعلون، وما يدبرون من مؤامرات. ورغم تحريات ريتش لمعرفة هؤلاء الجواسيس، لم يصل إلى نتيجة واضحة أو مؤكدة، الأمر الذي زاد من مخاوفه، وجعله دائم القلق.

حتى إشاعة هرب نابليون في هذا الوقت تدل أن شيئاً ما يُدبر، وقد تكون الإشاعة بداية متاعب، خاصة وأنها ترافقت مع أخبار عن قرب عودة قنصل فرنسا من اسطنبول. وهذا ما جعل ريتش يحتاط حين أرسل ترجمانه إلى السراي وما جعله يتشاءم أيضاً، لأن تبدل الولاة في العراق يحمل معه تبدل السياسة، واختلاف النظرة إلى الأجانب وطريقة التعامل معهم.

لقد واجه ريتش في بداية عمله أوقاتاً صعبة، لأن المسيو دانييل، قنصل فرنسا، كان من البراعة وسعة العلاقات والتأثير إلى درجة أن جزءاً من طموحات وأحلام قنصل الملك باتت أقرب إلى الخيال، أو غير قابلة للتحقيق، لكن من حسن حظ ريتش أن إقامة المسيو دانييل في بغداد لم تطل، إذ نقل إلى مكان آخر، وجاء بديلاً عنه المسيو ريمون. ورغم ما يتميز به القنصل الجديد من حيوية وكبرياء أقرب إلى التحدي، وبعض الأحيان نعومة تختلط بالمكر، خاصة حين تتغلف بالدعابة، فقد اعتبر ريتش أنه يواجه خصماً سهلاً، أو على الأقل ليس بقوة دانييل أو بعلاقاته، نظراً لأنه أقدم منه في هذه المدينة، ثم لأنه يمثل دولة صاعدة، في الوقت الذي تتراجع فرنسا وتلاحقها الهزائم، بعد هزيمة نابليون. ثم هناك سبب شخصي، فالمسيو ريمون الذي يدّعي معرفة بالعربية، كان يتكلمها بطريقة

تثير السخرية والشفقة معاً، فقد تعلمها حين كان ممثلاً لشركة ملاحية في مالطا، ثم استدرك ما فاته لما انتقل إلى طنجة، بحيث أصبح من الصعب فهم ما يقول، رغم الإشارات! وقد بدأت أولى المعارك بين الرجلين من خلال اللغة، فقد صادف وجودهما معاً في مناسبات مشتركة، وبعد أن يبدأ المسيو ريمون الحديث، وبلغته العربية، كان يطلب من ريتش أن يترجم ما يقوله زميله الفرنسي!

وإذا كان المستر ريتش قد نوى أن يلحق هزيمة ساحقة بخصمه، فليس من قبيل الانتقام الشخصي، إذ ليس بين الاثنين ما يستوجب ذلك، وإنما هو صراع بين دول، ولا بد أن يُظهِر تفوقاً مزدوجاً، إذ حين يهزمه هنا فمعنى ذلك أنه الأقوى، وأن دولته هي الأقوى هناك، الأمر الذي يجعل الناس يقتنعون دون مشقة.

لكن الهزيمة الساحقة التي أرادها ريتش لم تتحقق، لأن المسيو ريمون بعد شهور من المراسلات المضنية مع سفارته في اسطنبول، ومع وزارة الخارجية في باريس، دون أن يصل إلى أية نتيجة مرضية بخصوص تلبية طلبات قنصليته، قرر أن يذهب بنفسه لمتابعة هذه الطلبات.

قال لريتش في اللحظة الأخيرة، وهو يودعه، إنه ذاهب إلى اسطنبول، ولن يغيب إلا بضعة أسابيع، وسأله ما إذا كان بحاجة لأي شيء يمكن أن يخدمه به، فرد ريتش بطريقة أشد مكراً، لأن ريمون لم يبلغه إلا في اللحظة الأخيرة، قال:

ـ ظننت أنك مسافر إلى باريس؛ لو كان الأمر كذلك لأوصيتك على كتابين صدرا أخيراً في فرنسا، وهذان الكتابان: الأول عن الهند والثاني عن الامبراطورية العثمانية، وأظن ان فيهما شيئاً مفيداً. . . إذا لم أقل هاماً.

كان يريد أن يشعره بمدى جهل الفرنسيين أولاً، وها هو يقول له الآن إنه لا يعرف هذين الكتابين؛ وأن يؤكد أيضاً أن الإنكليز، وأنه هو شخصياً على وجه التحديد، يعرفون ويتابعون ما يُكتب وما ينشر!

أما بعد أن سافر المسيو ريمون، وتتابعت الشهور، وليس الأسابيع،

دون أن يعود، فقد شعر ريتش بالراحة، واعتبر ان معركته مع قنصل فرنسا تراجعت، ولا حاجة لأن يشغل نفسه بأمر لم يعد ملحاً.

ومع أن قنصلية فرنسا بقيت مكانها، في محلة الميدان، وغير بعيد عن السراي، إلا أن الصمت الذي لفها، بعد أن توقف دفع رواتب الموظفين المحليين، بمن فيهم الترجمان، جعلها غائبة أو أقرب إلى الغياب.

الآن من خلال هؤلاء التجار الذين لا يكتفون بالأرباح التي يبحثون عنها في كل مكان، فقد جاءت الأخبار المثيرة للتساؤل أو ربما للقلق، خاصة أن الأخبار من انكلترا قليلة، ومن اسطنبول لا تصل إلا بأوقات متباعدة، كما لا تشفي الغليل إن وصلت. وفكر ريتش بضرورة ترتيب البريد من جديد، لكي لا ينتظر طويلاً، أو أن تأتيه الأخبار، وربما المفاجآت، عن طريق التجار والمسافرين! وقرر أن يحسم هذا الأمر أثناء زيارته القادمة إلى اسطنبول ثم إلى لندن، وأيضاً أن يقضي في زيارته هذه بضع أسابيع في باريس، ولا بد أن يشتري الكتابين اللذين لم يكلف مسيو ريمون نفسه عبء السؤال عن أسماء المؤلفين!

9

لـم يكـن داود باشـا بـحـاجـة إلـى أن يـهـمـس بـأذنـه أحـد لـيـقـول لـه دلالـة أحداث حصلت وأخرى لم تحصل. فإطلاق النار ليلاً على بعض الثكنات العسكرية، أو عند بوابات بغداد؛ وتلك الإشاعات التي تملأ المقاهي والأسواق عن قرب وصول قوات البدو، وأن ذلك سيتم حالما ينحسر الفيضان؛ ثم تأخر وصول كبار شيوخ البدو، حتى القريبين إلى بغداد، للتهنئة وإعلان الولاء؛ وأيضاً تزايد الأخبار بأن رجال قاسم الشاوي يشترون البنادق والخيول. . . هذه الأحداث، وأخرى أيضاً، لم تترك شكاً لدى داود باشا أن أمراً ما يهيؤه الخصوم، فإذا لم يبادر قد تنقلب عليه الأحوال.

وإذا كان من الضروري ملاحقة بعض الخصوم قبل أن يستفحل خطرهم، فإن خصوماً آخرين من الخطأ أن يُلاحقوا، أو أن يُلتفت إليهم.

كما أن اللجوء إلى القسوة تجاه الخصوم يجب أن يكون له وقت، وأن يكون له حد، وأي خطأ في اختيار الوقت أو الحد ينقلب إلى عكسه.

تعلّم داود هذه الدروس في وقت مبكر، إذ علمته الحياة، وجعلته التجارب دقيقاً حريصاً إلى حد الوسواس، خاصة تجاه البدو، الذين يتقنون الحقد أكثر من أي شيء آخر.

ورغم أنه لم يحب يوماً قاسم الشاوي، ولا وثق به، إلا أنه لم يخطىء يوماً في تقدير قوته، وما يمكن أن يضيفه لمن يكون إلى جانبه، هذا ما جعل داود يحاول، ويبذل جهداً، لكي يكون هذا الرجل معه. فقاسم من

الجرأة وسعة الحيلة والسرعة، بحيث يشكل قوة تغيّر الموازين. وهذا ما دفعه لأن يبعث إليه عدة رسل. حاول في البداية أن يغريه، وحاول في فترة لاحقة أن يهدده، لكن قاسم لم يستجب للإغراء، ولم يخف من التهديد.

قال له داود مع واحد من الرسل: «سعيد ما هو ابن عيشة، يا قاسم، وأن تكون مع السلطان خير لك وأنفع من أن تكون مع الشيطان، مع سعيد وحمادي وما يشابه من الأضراب، فكّر أول يوم، وفكر في اليوم الثاني، وفي اليوم الثالث ابعث مع الرسول الجواب».

ولم يتأخر الرسول إلى اليوم الثالث. أعاده قاسم قبل أن ينقضي اليوم الأول، مع كلمات شديدة الوضوح: «ما تعودنا، يا داود، أن نرمي ببير شربنا منه حجارة، وإلى اليوم نتذكر أفضال سليمان باشا علينا، ويلزم غيرنا، الذين آواهم سليمان باشا من خوف وأطعمهم بعد جوع أن يتذكروه ويتذكروا أولاده» ويضيف رسول داود، أنه بعد مغادرته لمضارب الجبور، تبعه فارس، وطلب منه أن يبلغ داود أيضاً كلمة نسي قاسم أن يقولها. . . «وتقول لداود: الدنيا ما تخلص بيوم أو اثنين، والواحد إذا ما كان له أول ما راح يصير له تالي».

ورغم أن داود باشا استعاد الرسول ما قاله قاسم أكثر من مرة، وطلب منه أن يتذكر جيداً كل كلمة قالها، فقد أمر أحد كتَّابه، رسمي جناوي، أن يدوّن جواب قاسم، لكي لا يُنسى شيء في المستقبل.

وبعث داود رسولاً ثانياً وثالثاً، ثم رسولاً أخيراً، وكان الوقت الذي يفصل بين واحد وآخر لا يزيد على الشهر، وفي هذه المرات تلقى الرسل أجوبة واحدة أو متماثلة. وبلغ الأمر بقاسم أن أبلغ الرسول الأخير رسالة قصيرة، لكنها واضحة، بعد أن ضاق من الإلحاح: «. . . وتقول لداود: أي طارش جديد راح يكون له درب واحد، جية بليّا ردة، فإذا عنده رجال واجد خلّي يطرّش كل يوم مو واحد. . . مية».

الآن، وبعد أن استولى داود على بغداد، كان بالإمكان أن يؤجل معركته مع قاسم، وقد ينساه، رغم الكثير الذي فعله، لكن توالي

الحوادث، وحتى التهديدات التي تنقل عن رجاله، وكان يلتقطها عيون داود بسرعة، ولتأكده أن قاسم لا يزال في بغداد لم يغادرها، فلا بد أن يظفر به. يمكن أن يختفي في بيت من بيوت الأصدقاء، لكن إلى متى يستطيع ذلك؟ وإذا لم يصله اليوم ألا يستطيع الوصول إليه غداً أو بعد غد؟ وهل يقوى قاسم، أو يجرؤ، على اجتياز أبواب بغداد بعد أن أمر داود بتعزيز الحراسات عليها، ووضع عند كل بوابة من يعرف قاسم معرفة جيدة؟ وإذا قدر له أن يفلت فإلى متى وإلى أين؟

لا يمكن لداود أن ينسى وجه قاسم الوسيم والمليء بالحيوية والقسوة معاً؛ كما لا يمكن أن ينسى إجاباته للرسل الذين بعث بهم إليه، خاصة إجابته الأولى ثم إجابته الأخيرة. لا بد أن يقبض عليه، أن ينظر إلى عينيه وهو مغلول اليدين ذليلاً. وسوف يذكّره بكل كلمة قالها، وسوف يرى كيف تكون إجاباته الآن بالمقارنة مع إجاباته للرسل، الذين لا بد أن يحضروا مثل هذا اللقاء!

وأكد داود، وزاد في التأكيد، انه يريد قاسم الأسير لا قاسم القتيل، وعلى الذين يقبضون عليه بذل أقصى جهدهم كي يأتوا به حياً، «لأن قاسم الحي، كما قال الباشا لنفسه، أثمن ألف مرة من قاسم الميت!». وهذا الذي اقتضى زيادة عدد الذين يتحرون عن مكانه، وخصصت جوائز كبيرة لمن يقبض عليه أو يبلّغ عن تحركاته، فانتشر العيون في أنحاء بغداد، وغادرها آخرون إلى حيث يحتمل أن يلجأ قاسم، أو ربما يكون هناك منذ أن دخل داود المدينة.

ولم تتأخر الأحداث، ولم تتأخر بعدها الأخبار: لقد أفلت قاسم، غادر نحو الجنوب. قال ذلك أناس كثيرون رأوه في الحلة، وتأكد ذلك بعد أيام، وقد شوهد في طريقه إلى سوق الشيوخ. وجاء من سمع منه تهديدات مباشرة، حين كان يغادر سوق الشيوخ إلى مكان آخر.

وعادت الذكريات لداود باشا حين استلم فرمان تعيينه والياً لبغداد، وكان مع الفرمان خلعة ثمينة من جلد السمور، قال لنفسه، وهو يقلب

الخلعة: «الصبر مفتاح الفرج، ومن صبر ظفر».

لم يتأخر في إعلان الفرمان، وفي إبلاغ كل من يلزم، أنه أصبح الوالي، وإذا كان يهمه أن يعرف سعيد بهذا التعيين، فقد كان يهمه أكثر أن يتبلغ حمود بن ثامر «فهذا البدوي الجلف وحده الذي يستطيع، بتخليه عن سعيد، أن يسقطه، فقط إذا لم يستجب لنداءاته أو لعويل أمه».

وحمود الذي سمع من رسول داود بفرمان السلطان وخلع سعيد، لم يتكلم كثيراً، ولم يتكلم بوضوح. قال: «كلام السلطان على الراس والعين»، وقال «إن أهل مكة أدرى بشعابها، وإنشاءالله يصير خير».

ولم يستطع داود أن يتأكد ما إذا كان حمود بن ثامر سيبقى مع سعيد أم سيتخلى عنه. «فالله سبحانه وتعالى لا يعرف ما يدور في رؤوس هؤلاء البدو. إنهم مخلوقات غامضة مليئة بالشر والقسوة، وهم كالشياطين لهم ألف وجه، لذلك يجب الاحتراس منهم دائماً» هكذا كان يقول داود لنفسه، خاصة وأنه اختبر العديدين منهم، وعرفهم عن قرب. «إنهم يعرفون السخرية إلى درجة الأذى، دون أن تظهر على وجوههم علامات السخرية! حتى الكلمات التي يرددونها تحمل معاني لا حدود لها، والغريب أن الواحد منهم يفهم ما يعنيه الآخر من نبرة الصوت، من رفة العين، حتى لتبدو الكلمة داخل كلمة، داخل كلمة، ومظهرها لا يدل عليها! أين تعلموا هذا المكر كله؟ وكيف استطاعوا أن يحمّلوا الكلمات هذا المقدار من الثقل والكثافة دون أن تسقط، ودون أن تتغير؟».

ولأن داود باشا يعرف أعداءه معرفة جيدة، فإنه يعرف نقاط قوتهم ونقاط ضعفهم، لذلك فهو دائم الشك، كثير الارتياب بما يقولون أو بالوعود التي يعطونها. مع هذا يتظاهر أنه لم يسمع ولم ير، لكنه أبداً لا ينسى. وزيادة في الحيطة كان يطلب من كاتبه، جناوي، أن يدون الأقوال والأوقات والشهود. أكثر من ذلك، لا يعطي ثقة كاملة لأحد ودفعة واحدة، يعطيها بمقدار، وعلى فترات. أما إذا بدر ممن محضه الثقة خطأ أو تقصير، أو إذا أظهر طموحاً ليس له ما يبرره، فعندئذ يسحب ثقته، وقد

يبالغ في العقاب «كي تزول من عقول الآخرين أية فكرة، ولو على شكل احتمال أو حلم، للتآمر أو الخيانة» يلجأ إلى هذه الوسيلة إلى حين، وبعد أن يتأكد من وصول الرسالة يعرف كيف يداوي. يستعيد من عاقبه، بعد أن أصبح مطواعاً، كي يعهد إليه بمنصب أقل من منصبه السابق، ويجعله تحت رقابة خصم له!

لم يكن داود يتحدث عن ذلك أبداً، لأن الحاكم إذا تكلم كثيراً فقد هيبته، ثم إن ما يهم الناس ما يرونه بأعينهم، لا ما يسمعونه من أقوال ووعود.

ولأنه الوالي الآن، يجب أن يكون مختلفاً عن السابق، بالسلوك، بالتصرف، ومتى يجب أن يتكلم ومتى عليه أن يصمت. لقد انتهى دور التعبئة والتحريض، وحسمت معركة الكلام منذ اللحظة التي دخل فيها بغداد. صحيح أن الدماء هي التي تحسم المعركة في النهاية، لكن الكلام.. وبعض المال، ما يؤدي إلى المعارك التي يبذل فيها الناس دماءهم، وكثيراً ما خُسرت معارك أو تبددت لأن الكلام الذي قيل لتبريرها أقل من مستوى كلام الخصم.

حتى الأصدقاء الذين تعودوا عليه قبل أن يصبح والياً، يجب أن يتعودوا عليه بعد أن صاره، معنى ذلك أن يتغيروا عن السابق، لأنه هو ذاته تغير. لم يعد داود المطارد أو الهائم في الجبال، إنه الآن الباشا، والمنصب ذاته يفرض طريقة جديدة في التعامل. هذا ما يجب أن يدركه القريب والبعيد، وأن يلتزم به الجميع.

عليوي لاحظ تغير الباشا، لكنه عزا ذلك إلى قلة النوم، وإلى اختلاف المناخ! ولأنه كان مشغولاً باستقبال الوفود، وبتقصي أخبار خصومه السابقين، لم يحفل كثيراً بصمت الوالي، وذلك الحذر الذي أخذ يميز تصرفاته. قال لنفسه في محاولة لتجنب الوساوس: «مية بغداد غير مية الجبل، والهوا هنا ثقيل، حتى الواحد لما يقوم من نومه يكون مضعضع، فشلون إذا ما نام؟».

والباشا يسمع كثيراً، لكنه لا يتكلم إلا قليلاً، وما هو ضروري. أما الرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم في المرحلة الجديدة، فلن يكونوا، بالضرورة، نفس الرجال الذين كسبوا المعارك، إذ من يصلح للمعارك، لا يصلح لمهام يفرضها زمن السلم. لا يعني ذلك أن يُبعدوا، أو أن يهملوا، فالحاجة إليهم لا تزال ماسة، ولكن عليهم أن يستريحوا، مع حفظ الألقاب والمظاهر، وأن يجزل لهم العطاء أيضاً، دون أن تسند إليهم أعمال أو مهمات جديدة.

وأولئك الذين ظلوا يرقبون المعركة من بعيد، دون أن يتدخلوا، يمكن الآن استمالتهم، وقد يكونون مفيدين، شريطة أن يذكروا أن الوالي هو الذي أنعم عليهم، في الوقت الذي يمكن أن يحصل العكس.

قال الباشا لكيخياه، يحيى بك، وكان الحديث يدور حول تعيين كبار الموظفين:

ـ حتى الذين كانوا مع سعيد، فإنهم قبل أن يكونوا معه كانوا مع السلطان.

ولما أبدى يحيى بك استغرابه بعد أن ذكر أحد الأسماء، تابع الباشا:

ـ يجب أن يبقى مأمور الدولة مأمور دولة، أن يطيع رؤساءه، وأن ينفذ ما يأمرونه به دون اعتراض. أما إذا تركنا لهم أن يقرروا ما يجب تنفيذه، وما يجب أن يمتنعوا عنه، تبعاً لأهوائهم، فلن تنتظم أمور الولاية، وسوف يضيع كل شيء.

ولأن مشكلة البدو هي التي تثير مخاوف الباشا، وقد تقلب الأمور رأساً على عقب، فكثيراً ما وجد نفسه يركز عليها، ويتناول الأمثلة التي تخصها.

قال لسيد عليوي، بعد أن تأخر كبار شيوخ البدو في تقديم التهنئة، وربما يكون بعضهم يستعد للتمرد:

ـ تندفع غزوات البدو في أيامها الأولى بقوة، وربما تصبح خطرة، لأن كل فرد منهم يكون قد استوعب ما طُلب منه، وينفذ ما أُمر به. لكن ما أن ترتفع ضجة الهوسات، وتدب في عروقهم الشجاعة الفردية، حتى ينسوا

كل شيء، ويفعل كل واحد ما يحلو له. يندفع أكثر من اللازم، يحلم بالوصول قبل غيره، لكي تكون له الحصة الأكبر في الغزو، وفي الشهرة أيضاً. فإذا تركتهم يوماً أو يومين يفعلون ذلك فيمكن بعدها ان تتصيدهم كالأرانب.

لم يكن هدف الباشا إقناع الآغا، بل كان يلقي عليه درساً، ليعلمه كيف يجب أن يتصرف عند الضرورة حين يواجه حالات من هذا النوع.

حتى التجار الذين وقفوا إلى جانب سعيد، أو امتثلوا لما أراد، لم ينظر إليهم الباشا نظرته إلى البدو، لأن التجار، كما قال لنفسه، يخافون من شيئين: الخسارة والموت. فإذا جنّبتهم الخسارة، ولم تذكر أمامهم الموت، فإنهم لا يبالون بأي شيء آخر. وخطيئة سعيد أنه أتاح لهم ربحاً كبيراً في البداية، ثم سلبهم في النهاية كل الأموال، بحجة أنها مجرد دين، وهذا جعلهم يحسون بخسارة مضاعفة، خسارة الأرباح ورأس المال، ووضعهم، وهم عزل، في مواجهة الموت الفعلي، وهذا ما جعل الكثيرين لا ينفرون من سعيد فقط، وإنما يعادونه، وعلينا أن نستفيد من أخطاء الحمقى.

هكذا فكر داود باشا وهو يستقبل التجار الذين جاؤوا للتهنئة، وأيضاً ليفسروا المصاعب التي تجعلهم مضطربين وحائرين، إذ يريدون أن يساعدوا، لكنهم لا يعرفون كيف. كانوا يسترسلون في مواضيع كثيرة، ويقاطع بعضهم بعضاً. والباشا الذي يستمع بصبر، لم يتمالك نفسه أكثر من مرة من الابتسام.

قال لنفسه، بعد أن ودعهم: «تجار بغداد مثل ذكور بعض الحيوانات، ما توفره الإناث يسرقه الذكور. يحبون المساومة، والمماطلة، حتى لو باع الأب لأبنائه، وكأنه يريد أن يعلمهم درساً يجب أن لا ينسوه! أما إذا تأمن الربح للتاجر فيصبح أكثر وداعة من الخروف، يطيع الراعي الذي يسمنه، ولا يفكر أنه يهيئه للسلخ»!

هكذا فكر داود، وهكذا قال لنفسه، وقرر أن يأخذ فسحة من الوقت

كي يتعامل مع التجار، لأنه لا يعرف متى تستيقظ لديهم غريزة الذكر الذي يأكل أبناءه، أو ينتزع الحَب من أمام إناثه.

قال لفيروز بصوت عال ومرح، وكانا في الحديقة الجنوبية للسراي:

ـ إنهم يشبهون ديوك مرو...

ولما نظر فيروز إلى سيده متسائلاً، لمح على وجهه ابتسامة، لكن لم يفهم شيئاً، ابتسم دون أن يقول كلمة واحدة.

سأله الباشا:

ـ أتعرف عادات الديوك في مرو؟

هز فيروز رأسه بالنفي، قال الباشا بمرح:

ـ ذكّرني لأحدثك عن هذه الديوك في ساعة صفاء!

ابتسم فيروز مع هزات من رأسه ولم يقل كلمة واحدة.

10

تمنى داود لو أن قاسم بقي في بغداد، إذ مهما طال الوقت لا بد أن يقبض عليه. يمكن أن يخصص عدداً إضافياً للبحث عنه، وإذا فشل الرجال في الوصول إليه يمكن أن يستعان بالنساء، خاصة وقد بدأ يظهر طرف خيط عن طريق إحدى المنجمات، وكانت تتردد على قسم الحريم في السراي، إذ وعدت أن تأتي بالخبر اليقين بعد إشارة أو اثنتين!

الآن صار قاسم بعيداً، ولا يعرف متى تتهيأ الظروف للوصول إليه، وبأي ثمن.

قال داود لنفسه بعد أن توالت الأخبار عن قاسم، ثم تأكدت: «هؤلاء البدو يعرفون شيئاً واحداً، وقد أتقنوه لفرط ما أدمنوا عليه: إشغال الدولة. انهم لا يعرفون الحرب، صحيح أنهم يقاتلون، لكنهم لا يستطيعون التمييز بين النصر والهزيمة، وربما لا تعنيهم هذه القضية. فقط يريدون خصماً، حتى لو كان وهماً، كي يحاربوه. وبهذه الطريقة يشعرون بوجودهم وأهميتهم. أما إذا غاب الخصم فعندئذ يأكلون أنفسهم إلى أن يتلاشوا، ويبدو أنهم لا يريدون التلاشي، على الأقل الآن!»

هكذا مرت الصور في ذهن داود باشا، وهو يستعيد علاقاته وحروبه معهم، وتذكر أيضاً كيف يتغيرون بين يوم وآخر، يصبحون مخلوقات جديدة، مختلفة تماماً عما كانته في الأمس، وما يمكن أن تكونه غداً. فقط إذا شعروا بالضعف أو بالقوة، بوجود المال بين أيديهم أم لا، بعجز الآخر عن الوصول إليهم أو قدرته على ملاحقتهم. ويتذكر داود باشا كيف

يتكلمون ويتصرفون حين يشعرون بالخسارة، ثم كيف تنقلب الأوضاع حين يغلبون: «نحن رجالك وعبيدك يا آغا، يا بك. جربنا نوبة ثانية وشوف، بس هالمرة يا آغا، يا بك، وسبحان من لا يخطي». وفي اليوم التالي، إذا انتصروا في معركة حتى لو كانت صغيرة: «باشا الكاغد ما نبيه، ما ورا الحكومة إلا العسكرية والخوات وتكسير الراس؛ حنا بديرتنا واللي بيه مرجلة ينوشنا».

لا يريد داود باشا، بعد أن أفلت قاسم الشاوي، أن يأكله الندم أو أن يستسلم لليأس. يمكن أن ينتظر، يمكن أن يلتفت حواليه، خاصة وأن الدفء الذي سرى في الطبيعة، وأخرج الثعابين من سباتها الشتوي، أخرج أيضاً الخشب المسندة التي أقامت فترة طويلة في الباليوز، وبعد أن حقق وحده النصر على سعيد، رفعت هذه الثعابين الربيعية رؤوسها تطالب بحصة، وتريد أن تكون شريكة.

كان من السهل على داود أن ينسى عدداً غير قليل من هؤلاء الخصوم، أو أن يؤجلهم على الأقل. أما الآن، وقد أفلت الطير الثمين، قاسم، فلا يمكن العودة من الصيد دون صيد، خاصة وأن أهل العراق، كما كان يقول داود لنفسه، يعتمدون على أعينهم ويصدقونها أكثر من اعتمادهم على آذانهم أو عقولهم، ولا بد للناس أن يروا ماذا يعني الوالي الجديد، وكيف يستطيع أن يعاقب أي شخص، خاصة من الكبار الذين أساءوا في الماضي ووقفوا في وجهه، ليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه أن يفعل شيئاً الآن أو في المستقبل.

ورغم المشاغل الكثيرة، وقد تصل إلى حد الهموم، التي تثقل كتفي داود باشا ليل نهار، ولكي يبدأ رحلته التي طالما فكر فيها، ومنذ وقت طويل، وكان يريدها مختلفة عن أية رحلة سابقة، وأحد شروطها أن يخلق استقراراً يشابه الرصاص بثقله، فقد التفت حواليه، وأخرج عدداً من الفرمانات المؤجلة.

إذ بالإضافة إلى حمادي، الذي كلف سيد عليوي أن يتولى أمره، بدأت

تصله أخبار الآغا درويش ثم عبدالله بك. كانا يقولان، في الأيام الأولى، همساً، أن حمادي وحده السيىء والمسيء، أما سعيد فإنه، مهما أخطأ أو ضُلل، يبقى ابن سليمان الكبير، وكان جديراً بداود أن يقف إلى جانبه، لا أن يعاديه. أما بعد أن ابتعد عنه وتركه، فقد سقط في أحضان حمادي، وهذا ما كان يريده حمادي ويتمناه. وينتهي مثل هذا الهمس إلى اقتراح يجب أن يرفع إلى السلطان: كل من يمت بصلة قرابة أو مصاهرة لسليمان باشا يجب ألا يولّى على العراق، لأن الخلاف بين هؤلاء وصل إلى درجة يمكن أن يؤدي إلى الفتنة، ومثل هذا الخلاف يشابه ذاك الذي وقع بين علي ومعاوية، وكان أصل الانقسام بين المسلمين، فإذا أراد السلطان أن يمنع فتنة جديدة فعليه أن يستبعد أطراف الخلاف!

وداود الذي لا يلتفت كثيراً إلى ما يقال إلا بمقدار ما يتحول القول إلى فعل، فقد أخذ يتحسب حين تحول همس الدواوين إلى اتصالات مع رجال الدين والتجار والأعيان. وكان رأس سعيد الذي تأكد أن بلطة قصّته كما تقص الشجرة، ثم سلخ وأرسل إلى اسطنبول، هو الذي يدور حوله الحديث. وكان ما ينساه عبدالله بك، من قصص سعيد باشا: الطيبة والكرم وحب الخير ومساعدة الفقراء، لا بد أن يستدركه درويش آغا.

شعر داود بضرورة أن يبادر، خاصة وقد قيل إن أحد رجال خالد أفندي، ثعلب الصحراء الأغبر، وصل إلى بغداد لكي ينقل، بعد أن يرىٰ بعينيه الاثنتين، فرح الناس إلى سيده خالد، لينقله هذا إلى مقام السلطان! لكن الرجل الذي جاء إلى بغداد، في إطار هذه المهمة، زار أيضاً ديوان عبدالله بك، وبعد أن سمع كلاماً لم يصدقه، وقد بدا هذا الكلام مستغرباً، وظهر عدم التصديق على وجه الرجل، طلب منه أن يلتقي بدرويش آغا الذي يتذكر أكثر منه!

بعد أن نقل العيون لداود ما قيل في ديوان عبدالله بك، وقبل أن ينقلوا إليه ما قيل في ديوان درويش آغا، قرر أن يتحرك.

صحيح أنه لا يحب أياً من الاثنين، وهذه الكراهية ترجع إلى زمن بعيد،

لكن كما أصبح يردد على نفسه، منذ أن دخل إلى بغداد منتصراً: «السلطة لا تعتمد على الحب والكراهية، السلطة تعتمد على ما ينفع، على ما يجعلها أقوى وأكثر قدرة، بغض النظر عن الجهة التي منها يجيء هذا النفع». لكن فجأة استيقظ الخوف داخله، وأصبح مضطراً أن يفكر بطريقة مختلفة.

وأخذت الصور تعاود الظهور في ذاكرته من جديد، إذ بعد أن أصبح عبدالله ودرويش نواباً لسعيد، على التعاقب، ثم كيف هرب الواحد بعد الآخر، والتجأ إلى الباليوز، قال داود لنفسه بغيظ: «عبدالله ثور الله ببرسيمه، ما يعرف كوعه من بوعه. وإذا كان هناك من يسكر من الخمر، وهناك من يسكر من ذكر الله، فعبدالله يدوخ من دبس باب الشيخ، ويسكر من طرشي حنانش، والطوب ما يقعده. أما إذا اشتّم ريحة تشريب الطماطة ويّا العكوس فيفز مثل المرعوص» وتذكر وجه هذا البهلول، إنه يشبه وجوه الأطفال؛ حتى صوته لا يخلو من الجرس الذي لا يستطيع الإنسان أن يصنفه: هل هو صوت صبي أم امرأة أم صوت رجل؟ قال الباشا لنفسه بحقد: «ما ينعرف، ابن الحرام، إنه رجال إلا إذا بدا يشتم، والواحد، إذا سمعه، يقول: قحبة عتيقة أو دلاّل هوش».

أما حين تراءت له صورة درويش آغا، الذي ظل نائباً لسعيد فترة طويلة، وظل موضع رضاه إلى أن جاء حمادي، وبدأ يرتقي المناصب، وأخذ يعادي ويضطهد جميع المنافسين، فقد هرب درويش آغا، ولجأ إلى الباليوز. وريتش الذي ألجأه إلى دار المقيمية، كان يريد أن يبقي تحت تصرفه أكثر من والٍ احتياط، إذ يمكن أن يخرج واحداً أو آخر، كما يفعل الساحر للمزيد من إفراح الناس وإدهاشهم، كما يجعل المتنافسين يتسابقون لخدمته!

ولما تذكر داود باشا سيرة هذا الرجل، قال لنفسه وهو يبتسم بحزن: «درويش آغا يحب الدنيا والآخرة، وبقدر ما خدع الناس ونهب أموالهم، يريد أن يلعب اللعبة مع رب العالمين، لكن ربنا يمهل ولا يهمل» قال ذلك وهو يقدر المبالغ التي يمكن أن يفرضها عليه ليفتدي بها نفسه، خاصة بعد

أن بلغه ما بذله ريتش ورجاله معه من محاولات أثناء إقامته في الباليوز، إذ رغم العناية التي أحيط بها، في محاولة لإعداده وجعله منافساً محتملاً، إلا أن هذه المحاولات لم تجدِ، لأن درويش آغا، كما يقول الذين يعرفونه، دخل في حالة من الذهول بعد وصوله إلى الباليوز بأيام قليلة. كان يفضل العزلة والصمت، وقد شوهد مرات عديدة يغرق في نوبات من البكاء المتواصل، وهو يهلل ويكبر ويردد بعض الأدعية، كما أصبحت صلواته تستغرق وقتاً طويلاً، بحيث لا يفطن للوقت أو للذين حوله. أكثر من ذلك أخذ يطيل سبحته أسبوعاً بعد آخر، وبها يبدأ لكن لا يعرف متى ينتهي!

لما بلغ درويش آغا هذا الحد من الذهول والاستغراق، تحول إلى عبء على الباليوز. حتى المعلومات التي كان ريتش يريد الحصول عليها منه، وكلّف مدير شؤون المقيمية، ميناس، ان يحاوره وان يداوره لينتزعها منه، فقد تعذر الامر عليه حين دخل درويش آغا في تلك الحالة. وكدليل على ذلك نسي دوريش آغا أسماء أولاده، ونسي أيام الأسبوع، وقيل أنه رشا أحد حراس المقيمية، فقط ليذكره بيوم الجمعة، ولكي يصلي معه هو وأحد العاملين في الحديقة، لتكون الصلاة جماعة!

قال داود باشا لنفسه، بعد أن وصلته أخبار درويش آغا: «سبحة المية قليلة، وحتى سبحة الألف ما عادت تكفيه، يلزم له بعد اليوم زنجيل جهنم».

وخلال الأسابيع الأولى، بعد دخوله إلى بغداد، كلف داود باشا مشهور أبو الهيل أن يتكفل به، وأن يرافقه مثل ظله، «لأن إذا خوّضنا بدمه راح يصير شهيد، وهذا ما راح يفرح به، وإذا تركناه يحكي ويفتي بكيفه، دون رقيب أو حسيب، راح يلوّص، وهذا ما نريده».

ولم يفت داود أن يتذكر عدداً آخر من الذين كانوا مع سعيد، وقدموا له الفتاوى أو أمدوه بالمال. ولأن الفرمانات والتخويل بين يديه، وترك له أن يتصرف، فقد حان الوقت لكي يعطي درساً، وليقول للقريب والبعيد من هو داود باشا.

11

لم يكن قد مضى يومان على التخلص من سعيد، حتى نقل حمادي إلى ثكنة الفرسان.

قال الباشا لعليوي يوصيه:

ـ ترى ابن الزنا، حمادي، أظافره متروسة طحين، فأريد قبل ما يفارقنا يزوّع آخر باره، وأريد أعرف ممن أخذ وإلى من أعطى. . .

وحين اهتز رأس الآغا، دلالة الموافقة والفهم، وأن لديه أشياء أخرى أيضاً يريدها من حمادي، تابع الباشا بنبرة جديدة:

ـ هه. . . الدولة ينراد لها فلوس ما تاكلها النيران، يا آغا، وهذا، ابن الزفرة، أكل الأخضر واليابس، فأريدك تبوق لسانه، أريدك تحوفه من هنا لهنا حتى نحصل على الذهب اللي نهبه هو وسعيد.

وحين تتابعت هزات رأس الآغا، مع ابتسامة أقرب إلى الوعيد، تابع داود باشا، كأنه يكلم نفسه، ويريد من سيد عليوي أن يسمع كل كلمة:

ـ أريده يموت ألف موتة قبل ما تطلع روحه، لأنه ابن الحرام هتك عرضنا وسوانا سالوفة بحلوق الناس. أريد منه الأموال، أمواله وأموال غيره، وما لازم يبقى أي سر مغطى، حتى لو وصل لأكبر راس. . .

صمت الباشا وطال صمته، ولم يكن الاثنان بحاجة إلى المزيد من الكلام، ولئلا يظن سيد عليوي أنه مقيد بأي قيد، قال له الباشا وهو يودعه:

ـ وعليك الباقي يا آغا، وما أريد أوصيك!

لم يكن الآغا بحاجة إلى مثل هذه التوصيات، وقد اعتبرها زائدة، أو لا تعني شيئاً، لأن الغبطة التي شعر بها وهو يقتل سعيد بتلك الطريقة، ما لبثت أن تحولت إلى ما يشبه الندم، ليس نتيجة ما قاله الباشا، أو نتيجة التفجع الكاذب الذي ظهر عليه بعد أن تدحرج رأس سعيد بين رجليه، وإنما لأن كل شيء جرى بسرعة، بسرعة خارقة، بحيث لم يستطع أن يشفي غلّه، أن ينظر إلى عينيه ويرى فيهما الخوف، كما لم يسمع خلال تلك الثواني الخاطفة كلمة توسّل أو حتى كلمة احتجاج، ولو كانت شتيمة.

الآن، ومع حمادي، يريد أن يستدرك ما فاته، أن يتشرب اللذة من خوفه وتوسلاته، من خلال ذلك الهوان الذي يصل إلى حدود الامحاء الكلي، وهو يطلب العفو الذي لن يحصل عليه. أما حين يسأل حمادي، حتى عن أصغر التفاصيل، بما في ذلك علاقته «الحميمة» مع سعيد، وحين يبصق على جبهته لتنزلق البصقة على العين ثم تهبط نحو الشفة العليا، وهناك تستقر، فعنذاك سيشعر أنه انتصر فعلاً. أما وهو يسمع إجابات حمادي، وكيف يحاول التبرير أو الإنكار، وتأتيه الصفعات من كل ناحية لكي يعترف، ليقول الصدق، فلا بد أن تتملكه الغبطة ويتأكد كم هو قوي وقادر على فعل كل ما يريد.

الكلمة، قال لنفسه، في أحيان كثيرة أقوى من الرصاصة. الرصاصة تذهب بسرعة خارقة لتقتل وتنتهي، أما الكلمة فتظل تقتل طالما ظلت تتردد، تفعل ذلك بهدوء، لكن بشكل قوي، تماماً مثل السكين التي تهبط، دون صوت، في اللحم الحي لتقسمه إلى نصفين، لتجعله يحس، وهو ينحزّ، كم من الآلام ترافق ضغطة اليد، نظرة العين.

ومع أن سيد عليوي، رغم مشاغله الكثيرة، كان متلهفاً ليبدأ رحلة المتعة مع حمادي، إلا أن الجروح كانت تؤجل انطلاق هذه الرحلة. بل أكثر من ذلك راودت الآغا مخاوف حقيقية أن يقضي حمادي وتغرق معه الأموال والأسرار في ركام قبر مجهول، وقد أصبحت هذه المخاوف

كابوساً حين والت حرارته الارتفاع، الأمر الذي اضطر الآغا للاستعانة بطبيب هندي من أجل معالجته، وفكر فيما لو ساءت حالته أكثر أن يلجأ إلى طبيب الباليوز، علّه يستطيع شيئاً، لكن ما كاد خبر مثل هذا يصل إلى الباشا حتى أوفد إليه أحد رجاله مع كلمات قليلة: «إياك ثم إياك، لأن هذا الذي يتمناه الباليوز، ونكون في هذه الحالة، كما يقول أهل بغداد، مثل اللي يؤمن البزون شحمة!»

معالجة الطبيب الهندي أثمرت، وبدأ حمادي يستعيد قوته ووعيه، لكن ببطء بالغ، وبانتكاسات تعاوده بين فترة وأخرى.

ولأن سيد عليوي يريد كل شيء، وهذا لن يتأتى إلا إذا تعافى حمادي تماماً، ورأى بعينيه، وهو في حالة من الصحو الكامل، أن سعيد باشا وعهده قد أصبحا من الماضي، ثم بعد أن يتشرب الكأس المرّ، حتى الثمالة، يمكن بعد ذلك استخلاص كل شيء منه قبل أن يدفن. معنى هذا أن الزمن أخذ يتحول ضده، فإذا لم يعترف اليوم سيعترف غداً، والوسائل التي تجبره على ذلك كثيرة، ومن الممكن اختراع وسيلة جديدة لكل يوم جديد!

حين أوشك الفيضان على الانتهاء، بدأ التحقيق مع حمادي.

قال الآغا للذين يحققون معه:

ـ قبل ما تندفن العظام أريد اطلّع الذهب المتروس جواها!

ولما بدت كلماته غير مفهومة، إذ تبادل المحققون نظرات متسائلة أقرب إلى البلاهة، تابع الآغا، وكان يبتسم.

ـ الأيام الأولى: عيني وآغاتي، ومثل ما يتدلل الزغيّر دللوه، يمكن الله...

ثم بلهجة حازمة:

ـ نحن نريد، أول نوبة، الفلوس، وبعدها الأخبار والأسرار، منو وشنو وشلون، فإذا الله أعطاه عقل الرحمان، وحلب معنا صافي، فهذا اللي نريده هسه، وبعدين الله كريم!

ولئلا يسرف المحققون، كان يسألهم أكثر من مرة في اليوم الواحد ما إذا وصلوا إلى اعتراف أو نتيجة. ولأن الصمت ظل مسيطراً، أو يترافق مع بعض الكلمات فقط، مثل: ما أدري، ما أعرف، وأحياناً وحدها هزات من الرأس لنفي أية علاقة أو معرفة، وقد استمر ذلك الأيام الثلاثة الأولى، فقد قال الآغا في اليوم الرابع:

ـ مثل هذول الأوادم ما تفيد وياهم الكلمة الزينة والمرحبا، ما يفيد وياهم إلا الكندرة والدق.

وحين تساءلت عيونهم عن مدى القسوة التي يخولهم استعمالها لانتزاع الاعتراف منه، رد بسخرية:

ـ يحَسُب روحه، ابن القحبة، أنه بعده بأيام سعيد، وأنه الحاكم الناهي...

ضحك ثم تابع:

ـ ويجوز حسْب إنّا خايفين منه، وإن المرحبا الزايدة، وعيني وآغاتي بالأيام اللي مضت، خلته يطمع، وظنه أن ماكو إيد تنرفع عليه.

ولما تبادلت عيون المحققين النظرات فيما بينهم، قال بحقد:

ـ خلوا رحمة الله تشتغل عليه...

وقبل أن يتساءلوا عن الحد أو المدى المسموح به، قال بحدة:

ـ ابلشوا الدق من هذي الساعة وبالليل أجيكم، والله كريم.

ولأيام عديدة متواصلة لم يتوقف تعذيب حمادي. كان يعذب في الليل والنهار. مرة بالضرب ومرة بمنعه من النوم. مرة بالحديد الساخن ومرة بالماء البارد. كان يجري كل ذلك بمقدار، إذ المهم ألا ينتهي بسرعة، لأن ما عنده أهم منه، وهذا ما يراد الوصول اليه.

كان التعذيب لا يتوقف إلا حين يتعب المعذبون، أو حين يغيب حمادي في واحدة من الإغماءات الطويلة. عذبوه بالضرب، بالوعود، وأكدوا له أنه يمكن أن يعود كما كان أيام سعيد، فقط إن تكلم، لكنه ظل صامتاً لا يقر ولا يعترف. كان أهم ما يعنيهم المال، ماله ومال سعيد، أين

هي المخابىء، عند من يمكن أن يكون. من استلم ومن دفع، والمقدار. وحمادي لا يجيب. وإذا فتح فمه فلكي تخرج صرخات أقرب إلى أصوات الحيوانات.

تكلم مرة أو مرتين. وردد العبارة ذاتها، وكان الآغا موجوداً:

ـ أبوس إيديكم. . بس اقتلوني، أريد أخلص.

كان يائساً إلى درجة القتام، عنيداً إلى حد الجنون، وكان مملوءاً برفض لا يستطاع معه انتزاع كلمة واحدة منه.

خلال ليال عديدة، وبعد أن تكون بغداد قد غرقت في نوم عميق، كان يأتي سيد عليوي ليشرف بنفسه على التحقيق. كانت عيناه، أغلب هذه الليالي، محمرة، وشفتاه رطبتين، السفلى متدلية، والعليا تنزم قليلاً. قميصه مفتوحاً والأكمام مشمورة حتى الأكواع. كان يندفع نحو حمادي وينهال عليه بيديه ورجليه. كان يضربه على رأسه، على بطنه، على كتفيه والرقبة. يفعل ذلك دون توقف، دون رحمة. ومع الضربات يتعالى صوت أقرب إلى العربدة:

ـ ما أريد منك أي اعتراف، يا ابن القحبة، أريد أبرّد فوادي!

لم يكن سيد عليوي يتوقف إلى أن يتعب. حين يغسله العرق وتحمر الوجنتان، يرتمي على مقعد كبير وهو يلهث. كان حمادي يعرف من يضربه في بعض الأحيان، ولا يعرف في أغلب الأحيان. وسيد عليوي الذي تصله معلومات كاملة من المحققين عدة مرات في اليوم الواحد، كان على يقين أن حمادي سيعترف. يمكن أن يصمد يوماً، اثنين، ثلاثة أيام، لكنه سيسقط، ولا بد أن يعترف في النهاية. وحمادي بين الرفض والعناد واليأس وصل إلى نتيجة مؤكدة: سيُقتل، اعترف أو لم يعترف، فقرر أن يَقتل قبل أن يُقتل.

في ليلة، بعد أيام متواصلة من التعذيب، وحين كان سيد عليوي يرتمي على المقعد الطويل، في استراحة قصيرة ليعاود بعدها الضرب من جديد، أو لكي يتمتع برؤية الجلادين وهم يعذبون حمادي، في لحظة صحو

نادرة، فتح حمادي عينيه، فتحهما بصعوبة وما إن استقرت نظراته على عليوي حتى خرجت كلمات لاهثة، متعبة، متقطعة:

ـ راح أموت وآخذ كل شيء ويّاي. . يا عليوي.

استراح. تنفس بعمق، وجاء صوته متقطعاً:

ـ الحق مو عليك، الحق عليّ يا عليوي، لأني خلصتك من الحبل!

أغمض عينيه. غاب فترة غير قصيرة. كان الصمت مديداً ثقيلاً، إلى أن جاء صوته من جديد، وما كان ليفهم بسهولة:

ـ راح أموت وما تعرف الذهب وين!

ربما ضحك حمادي، في تلك اللحظة، أو ربما ابتسم، لا يمكن لأحد أن يؤكد، فتضاريس وجهه أصبحت مثل حقل سيىء الفلاحة، بعد أن تورم وتخدّد وازرقّ، لكن الصوت، رغم وهنه، كان حافلاً بالوجع، حتى لمن يسمعه. إستاء عليوي في تلك اللحظات أو أهين، لأنه صرخ كالمجنون:

ـ راح تعترف يا ابن ستين قحبة!

الفصول التي تلت ذلك تروى بأشكال عديدة، وأغلب الأحيان متعارضة.

قيل إن سيد عليوي لم يحتمل الكلمات التي قالها حمادي، فقد أخرج مسدسه على الفور وأفرغ رصاصاته كلها في رأسه وصدره، وهكذا انتهى. وقيل إن حمادي لم يقتل بالرصاص، أو في تلك الليلة، إذ تركه عليوي بضعة أيام ورجع إليه في إحدى الليالي، وأخذ يتفنن في تعذيبه. قيل إنه استعمل سكيناً صغيرة كان يقلّم بها أظافره عادة، إذ أخذ يقطع أجزاء من جسد حمادي، بدأ بالأشياء البارزة، قطع الأذن اليمنى، قطع جزءاً من الأنف، قص إصبعين، الإبهام والوسطى من يده اليسرى واستمر يقطع.

كان يلعب بالقطع المقصوصة، يرميها في الهواء، يحاول أن يدخلها في فوهات الجسد، يدوس عليها. وكان الرجال حوله ينظرون، وكان الصمت.

حين بلغ حمادي مرحلة قاربت النهاية أهوى على رأسه بالبلطة ذاتها،

فشق الرأس إلى نصفين.

وقيل إن سيد عليوي لم يقتله بيده. صحيح أنه كان موجوداً أثناء قتله، لكنه لم يشارك في القتل.

وقيل إن مائدة أعدت لسيد عليوي في صدر الغرفة، وكان يشرب ويتابع التعذيب، وقبل أن يصدر أوامره بالقتل، قال لحمادي:

ـ حصلنا على كل شي نريده، وغيرك اعترف عليك!

وبعد قليل، وهو يرفع كأسه:

ـ كنت تتمنى أن أقتلك لكن ما راح انجّس إيدي بدمك!

ويبدو أنه كان متفقاً مع رجاله، فما أن وضع الكأس حتى توالت ضربات قضبان حديدية على رأس حمادي، وهكذا انتهى.

وهناك روايات ترجِّح أن القتل جرى بعد فترة طويلة، إذ بعد أن تعب سيد عليوي ومحققوه، ولم يتوصلوا إلى أية نتيجة، تقرر إيقاف التحقيق، واعتماد خطة جديدة، علهم يستطيعون بالوسائل الأخرى الوصول إلى نتائج أفضل، إذ تم استبدال المحققين بآخرين، وجرت عدة محاولات لحمل حمادي على الاعتراف، لكن بعد أن عجز المحققون الجدد أيضاً، ولإنهاء هذه القضية المضجرة، تمّ قتله ببرود إذ كلف آمر سجن ثكنة الفرسان بقتله فقتله.

وهناك رواية روّج لها واحد من رجال الباليوز، تؤكد أن حمادي لم يقتل رمياً بالرصاص أو نتيجة التعذيب، إذ بعد أن تُرك في السجن، وقيل إنه أخذ يتعافى، وذات صباح فُتح باب الزنزانة ليقدم إليه طعام الإفطار، فعثر عليه ميتاً!

في وقت متأخر، وحين جرى الحديث عن حمادي، قال سيد عليوي:

ـ اتركونا من ابن هالقحبة، واحكوا عن ناس تسوى...

وبعد قليل، وباستنكار:

ـ منو هذا حمادي حتى تخبصونا بيه!

12

لما أبلغ داود باشا أن حمادي انتهى دون اعتراف، دون أن يدل على الأموال أين وُضعت، ودون أن يحدد أدوار الرجال الذين كانوا حول سعيد، وما فعلوه في الشهور الأخيرة، ومدى علاقتهم بالباليوز... حين أُبلغ بذلك صمت، وطال صمته، حتى بدا وكأنه لم يسمع أو لم يستوعب ما نقل إليه، أو ربما لم يفاجأ بهذه النهاية التي كان يتوقعها.

لكن بعد الصمت الطويل قال، وجاء صوته حزيناً:

ـ حرامات... راح الخيط والعصفور!

لم يكن يريد أن يسمع خبر حمادي في هذا الوقت، خاصة بعد أن فر قاسم الشاوي. إنه الآن يواجه خسارتين، إذ يعرف ماذا يمكن أن يسبب ابن الشاوي من اضطرابات، قد تؤدي إلى انقطاع القوافل، وبالتالي استمرار ارتفاع الأسعار. ثم هذه هي الخسارة الثانية بموت حمادي، وقد أخذ معه ذهبه وأسراره، في الوقت الذي كان الوالي بحاجة ماسة لهذه الأموال، لكي لا يضطر لفرض ضرائب جديدة، خاصة في هذه الفترة، لتأمين مصاريف الدولة المتزايدة، ولدفع جزء مما يستحق على ولاية بغداد إلى اسطنبول.

ولأن أكثرية الناس تسمع وتفهم بما تشاهده، فقد أخذ رجال الباشا ينقلون أخباراً مقلقة. فالهمس الذي كان يدور في بعض المقاهي، تحول إلى كلام واضح وبصوت عال، وهذا الكلام أقرب إلى الشكوى، وقسم كبير منه احتجاج على الغلاء. أكثر من ذلك تجرأ الكثيرون وقالوا إن داود

لا يختلف عن غيره من الولاة الذين سبقوه. أما الوعود التي أعطاها رجاله قبل أن يدخل بغداد، والتي كرروها بعد أن دخل، فهي مجرد أوهام، إذ لم يتحقق منها أي شيء.

وزاد آخرون، إذ قالوا دون خوف، إن داود يتحمل مسؤولية ارتفاع الأسعار منذ البداية، إذ لولا الحصار الذي فرضه على بغداد، والذي أدى إلى انقطاع القوافل، لما قلّت المؤن، ولما حصل كل هذا الغلاء.

وانصرف عدد كبير من الناس رجالاً ونساء، وكانوا يتزايدون كل يوم، إلى مقارنات لا تنتهي بين الأسعار التي كانت قبل الحصار، وكيف وصلت الآن إلى حد لم يعد بمقدورهم أن يطيقوه أو أن يسكتوا عليه.

وبدأت الحسابات الطويلة والمعقدة، والتي لا تخلو من الطرافة في أحيان كثيرة، بين سعر سلعة ما اليوم وسعرها قبل حصار داود لبغداد، وما يمكن شراؤه بهذا الثمن أو بذاك في السابق والآن. ومع المقارنات الشتائم المليئة بالغيظ، وكلمات الاحتجاج. وما ينساه أحدهم يتذكره الآخرون، وما يبدو غريباً للحظة يأتي بعده ما هو أغرب منه، وهكذا أصبحت هذه «التسلية» تثير الكثيرين في المقاهي والأسواق، ووصلت إلى الأزقة ودخلت البيوت، مع ما يصحبها من مراهنات واختلاف، وتحديات في بعض الأحيان، الأمر الذي يتطلب «الورقة والقلم» كما يقولون، أو الاستعانة بنوى التمر أو الحصى للتأكد من كل شيء، «وضبط الأمور» كما أصبح يردد عدد من المهووسين، وقد حفظوا أمثلة كثيرة، لكي «نعرف بيا دنيا نحن عايشين»!

ولأنه لا يمكن «ضبط الأمور» على أرصفة الشوارع والأزقة، فكثيراً ما تتحول المداعبات إلى خشونة ثم إلى قسوة، وقد لا تخلو من التعديات، وجاء من قال إن رجال سعيد هم الذين يدفعون الأمور لأن تأخذ هذا المسار.

كان كل هذا يصل بسرعة إلى ديوان الباشا، وكانت عادة الباشا، قبل أن يأوي إلى فراشه، أن يقرأ ما يقدمه اليه الديوان، وكان يخط على أطراف

الأوراق ما يجب أن يُعمل ومن يجب أن يعمله. وفي الأيام التالية يستدعي المسؤولين ليبحث معهم كل هذه الأمور. لكن الأمور لا تحل كما يرغب، فتتوالى احتجاجات الناس ويزداد تذمرهم، وتبقى الأحوال دون تغيير.

ويبذل عزرا أفندي جهوداً كبيرة من أجل إقناع التجار، لكن التجار لا يستجيبون، ليس نتيجة العناد والتحدي، وإنما بسبب تأخر القوافل وانقطاع بعض المواد، هكذا يقولون. ولأن الذين يخاطبهم عزرا تجار مثله، فإن أعداداً متزايدة من الكلمات التي يتبادلونها فيما بينهم، وتكون متداولة ومفهومة، ما تلبث، وهي تصل إلى المقاهي والأزقة، أن تتحول وتتغير لتصبح مادة للسخرية، نظراً لغرابتها، ولأنها لا تغير في الأسعار! وهكذا يصبح عدد من هذه الكلمات أهازيج يرددها الصبية في الأزقة، وتتحول بعض الكلمات إلى شتائم بذيئة، وأغلبها يتردد بعد أن تهبط الظلمة، لئلا تميز أصوات الأطفال من ذويهم أو تكون موضع تقريع النساء المسنات، واللواتي يستعملن كلمات أكثر بذاءة في شتم أولاد الدرابين وهم يهزجون!

وأخذت الحسرة، مرة أخرى، على سعيد تكبر وتتسع. ومع الحسرة الذكريات عن الأيام القديمة، كيف كانت مليئة بالخيرات وبالمحبة؛ وكيف كانت النقود، رغم قلتها، تكفي لشراء حاجات كثيرة، خلافاً لهذه الأيام، إذ أصبح الناس يكتفون بأقل الأشياء، بعد أن باعوا من أجل شرائها أعز ما يملكون، ولا يعرفون ماذا سيحصل غداً أو ما يليه من الأيام.

«. . . والناس، يا سيدي، إذا خلصوا من شلون كانوا وشلون صاروا، وإذا خلصوا من السوالف العتيقة أو جازوا منها، وإذا النوم ما جاهم من خوف الأيام اللي راح تجي، فلازم البني آدم يحسب ويخاف» هكذا قال فيروز، أقرب الرجال إلى قلب الوالي، والوالي الذي كان يحس بذلك لا يقوى على أن يبوح بما يحس لأحد، أو أن يقوله الآن.

لكن بعد هاتين المصيبتين، ولتوقع الوالي أن يبدأ ابن الشاوي غاراته، وما يمكن أن تؤدي إليه من خوف وقطع للطرق، ولأن خبر مقتل، أو موت، حمادي، انتشر بسرعة عن طريق رجال الباشا، علّه يفرح الناس،

لكن لم يلق أي صدى أو أي اهتمام، لفرط ما هو مكروه، ولأن حياته أو موته الآن لم يعد يعني شيئاً أو أحداً، لذلك أصبح المطلوب من الباشا أن يفعل شيئاً غير عادي، وإلا ستفلت منه الأمور.

لم يتأخر داود باشا، ولم يتردد، حول ما يجب أن يفعله. فالفرمانات التي وصلته من اسطنبول، حين كان في الشمال، وكانت جميعها ممهورة وموقعة، بعضها بأسماء بعد أن سقطت عنها الألقاب، وأخرى تنتظر ما يناسبها من أسماء، أخرج الباشا هذه الفرمانات، بعد أن كان قد وضعها جانباً منذ أن وصل إلى بغداد. وضعها في الخزانة الحديدية في غرفة نومه، وردد بغمغمة:

ـ يجي وقتها!

الآن، وهو يستخرج الفرمانات، رتبها بطريقة جديدة: طوى فرمان إعدام سعيد سليمان، وهو يقول لنفسه: «هذا خلصنا منه»، وطوى، بأسف، وهو يهز رأسه، فرمان إعدام حمادي العلوجي، وهو يقول «وهذا، همين، خلصنا منه». أما فرمان إعدام قاسم الشاوي، فقد وضعه جانباً وهو يدق عليه ثلاث دقات ويقول بصوت عال:

ـ وين تروح، يا قاسم؟ أنا وأنت والزمن طويل!

وتتابعت تحت ناظريه أسماء: عبدالله بك، درويش آغا، عمر آغا الملا، محمد سعيد الدفتري ونعمان الباجه جي، ثم أربعة فرمانات أخرى بالإعدام، ممهورة وموقعة، ولا تحتاج سوى أن توضع عليها الأسماء المناسبة!

وإذا كانت قناعة داود باشا، وهو يدخل بغداد، أنه يفترض بالوالي الجديد، لكي يدوم حكمه وقتاً طويلاً، أن يعطي وأن يمنع، لأن هذا هو منطق السلطة، فقد صمم أن يكون للعطاء وقت، وأن يكون للحزم، حتى لو بلغ القتل، وقت آخر. لذلك أراد أن يعطي قبل أن يقتل، لكن الأمور تسير، كما يبدو، خلافاً لما يريد أو يتمنى، وأبرز اثنين وقفا في وجه هذه الرغبة: ابن الشاوي وحمادي العلوجي. فإذا أمّل ألا يستطيع الأول منع

القوافل من الوصول لتنخفض الأسعار، إلا أن فراره، ثم الأخبار التي أخذت تتردد عما ينتويه، وما يرافقها من التهديد والوعيد، تشير إلى أيامٍ صعبة تنتظر الناس، ولا يملك الآن ما يمكنه من وقفها أو منعها.

كان يريد الباشا أن يعطي الناس من خلال انخفاض الأسعار، إذا لم يستطع أن يعطيهم مباشرة، وستكون هذه أول هدية، لكن. . .

«أما حمادي، كما قال الباشا لنفسه، فأمه زانية وأبوه أكبر القواويد، لكن هذا النغل تفوق على الاثنين معاً، إذ أخذ ما سرقه وما جمعه الناس وذهب به كله إلى جهنم، ولو ترك مال الناس للناس لانفرج الكثيرون، لكن أولاد القحاب أبداً لا يتأمنون، فإذا كان هذا النغل من هذين الأبوين، فشنو نترجى منه؟».

قال الباشا، وقد تراءت له صورة حمادي حين لقيه آخر مرة قبل شهور طويلة:

ـ في اللعنة عشت، وإلى اللعنة تمضي يا مرتكب أكبر المعاصي، ولأن لا أحد يذكر لك خيراً، حتى لو بمقدار ذرة، فلم يأسف لموتك أحد، لكن بهذا الموت الفاجر تركت في القلب حسرة: أخذت أموال المسلمين وغبت، ولو كان هذا المال بين يدي لفككت الكرب وجنبت الناس السؤال.

ولان داود لم يجد شيئاً يعطيه الآن، فقد أجل العطاء؛ ولكي تدوم السلطة لا بد من الحزم إلى حد القتل، وهذا ما دعاه لأن يستخرج من خزانته الفرمانات النائمة، وأن يكون رؤوفاً بقدر ما يستطيع!

ولأنه كان يتوقع أن يعتبر الناس من مقتل حمادي، لكن هذا القتل لم يترك أي أثر، فقد قرر أن يكون القتل الآن علنياً، ويطال رؤوساً كبيرة، «لأن الموت السري، كما قال لنفسه، لا يترك أثراً، ولأن الموت الصغير لا يعني أحداً».

وهكذا بدأ.

إذ بعد استوثاقٍ لم يَطُلْ، ولكي يرضي الله في السماء، وليقنع الناس

في بغداد، ولتصل الأخبار إلى الحواضر والبوادي، فقد أحال الباشا «أعوان سعيد» إلى محكمة السؤال واليقين. سأل القضاة المجلوبين أمامهم أسئلة محددة، وطلبوا منهم الإجابة المفيدة المختصرة، فأجابوا. كانت الإجابات واضحة، أنهم يعرفون سعيد باشا، وأنهم تعاونوا معه أو دفعوا له المال الذي طلبه. ومثلما كانت الإجابات واضحة كان تصديق الأحكام بنفس الوضوح أو يزيد. ولأن باشا بغداد، أفندينا داود، عرف منذ البداية، وتوثق أن هؤلاء أعداء السلطان، وعرف السلطان بما كان يجري في بغداد، ولأن ما فعله هؤلاء فتنة، والفتنة أشد من الكفر، فقد أصدر السلطان ما يلزم من الفرمانات، وطلب الحيطة، كي تبرأ ذمته، أن توثق أقوالهم لدى قاض قبل أن تنفذ الأحكام!

ما كاد ينقضي النصف من رمضان، حتى خرج المنادون، ومعهم قارعو الطبول، لإبلاغ الناس أن مولانا السلطان أصدر الأمر بإعدام أهل الفتنة، رجال العاصي سعيد، وأن حكم السلطان سينفذ في أقرب أوان.

أصيب الناس بحالة من الذهول مازجها الخوف. نظر بعضهم إلى البعض الآخر غير مصدقين! ومع الذهول وعدم التصديق، انتشرت الأخبار أن البدو يتجهون إلى بغداد، وأن القنصل اختفى عن الأنظار.

قال عدد من الناس في الشورجة: «لولا أن الوالي خائف من شيء لما أصدر هذه الأحكام الآن» وحين يُردَّ على هؤلاء أن هذه أحكام السلطان، ولا علاقة للوالي بها، تهتز الرؤوس مع ابتسامات، وهي كافية دون كلمات، لتؤكد ان شيئاً مثل هذا ما كان ليحصل لولا أن الوالي داود يريد ذلك! وحين يخيم صمت قصير يسمع من يقول: «داود مثل الجمل، يصبر، يتحمل، لكنه أبداً لا ينسى» ولتأكيد مثل هذا الكلام يضيف آخرون: «لو لم تكن هذه رغبة والينا لما تذكر السلطان».

في الأزقة وزوايا الشوارع قال الكثيرون: «داود مثله مثل غيره من الولاة، لا يشبع من الانتقام، ولا يغركم سن الذهب، لأن وراه لدغة حية، فالله يسلم ويستر».

قال بعض المصلين في جامع أبي حنيفة: «إذا كان داود بدأ بصلب الباشاوات والبكوات، وكل واحد منهم يحكم ديرة أو عشيرة، فالله يساعد الناس الفقرا، لأن راح يقتلهم دون أن يحس أحد».

وفي كل مكان من بغداد، بالصوبين، أصبح ما ردده المنادون حديث جميع الناس، فالسؤال يفضي إلى سؤال آخر، ونفي إمكانية أن يحدث هذا يتحول إلى يقين ثابت للحظة أو عند بعض الناس. وما يقوله أحدهم يؤكده ثان وينفيه ثالث. والأسئلة تكبر وتتوالد، وحيرة الجميع تزداد. وقهوة الشط، ذلك اليوم، يرتادها عدد أكبر من المعتاد. ورغم أن الحديث يدور همساً، ولا يخلو من تورية، خلافاً للأيام السابقة، إلا أن قدرة الناس على تبادل الأحاديث والتفاهم أكثر من الأيام الأخرى.

قال الحاج شبلي، وهو يتوجه نحو مجموعته في ركن القهوة القبلي، وقد بدا منفعلاً:

- جنهم وخبز شعير، يا جماعة الخير، ما يصير!

وبعد أن استفسر من الحاضرين عما سمعوه، وأبلغهم بما سمع، سأل أسطة إسماعيل، حلاق المحلة، عما يتوقعه. ولأن الأسطة إسماعيل يميل إلى الدعابة، ويرى من الحياة الجانب المرضي أكثر من الجوانب الاخرىٰ، فقد رد، وكان صوته هادئاً، عله يدخل الطمأنينة إلى قلوب سامعيه:

- نحن برمضان، حجي، وهذي الأحكام ما راح تتنفذ، على الأقل بهاي الأيام...

تطلع بإمعان إلى الذين يسمعون، فلما وجدهم يصغون إليه باهتمام، تابع بنفس النبرة:

- أي نعم، راح تتأجل، وإذا تأجلت أول نوبة تتأجل نوبة ثانية، إلى أن تنسى، وبعدها والينا يصدر عفو... وتعود الدنيا مثل ما چانت من قبل!

رد الحاج صالح العلو، وكان صوته غاضباً:

- هذا كلام بطرانين يا معوّد، لأن الوالي متوازي: قاسم انهزم؛ السوق واقف؛ حمادي راح بول بشط هو وكومات الفلوس، فإذا ما راوى الباشا

العين الحمرا خاف تنلاص عليه.

ـ على كيفك، حجي، رد الأسطة إسماعيل، ولازم تعرف: والينا عاقل ومجرب، وما دام راح وقت القتل والمقتول، فالله أعلم أن هذه الأحكام تتأجل، وبعدها تتخفف، وقبل ما يحول الحول يقول لهم الوالي: ارجعوا لبيوتكم، وصيروا أوادم، وأبوك الله يرحمه!

قال الحاج شبلي، وهو يهز رأسه بسخرية:

ـ الرحمة على كل أمواتنا، لكن يبين أن هذا الباشا شايف حاله أكثر من اللزوم، وكأنه يريد يحرق الأخضر واليابس.

ـ إذا ما شفع لقرايبه، لسعيد وأمثاله، تريده يشفع للغربتلية، للي رفعوا السلاح بوجهه؟

هكذا سأل الحاج صالح العلو رداً على الأسطة إسماعيل، وأضاف بحزن:

ـ ماكو أحد يدافع عن هذول السرسرية، لأن هم أصل القضية وهم السبب، لكن أرواحنا تعبت من القتل.

قال الأسطة عواد الذي جاء ووقف يستمع إلى الحديث الذي يدور:

ـ لو راد الباشا ينتقم، لو راد يعاقب كل واحد حمل السلاح بوجهه، چان بغداد انترست مشانق!

قال جاسم مهدي، وهو من ملاكي سوق حمادة:

ـ أصلاً... أكثر الموجودين هنا، اللي تشوفهم عيونكم، وكل اللي بقهوة أبو الخيل، وهناك... وهناك كانوا رجال سعيد، فشنو قابل داود باشا يريد يصلب كل الناس؟

رد الحاج شبلي:

ـ الناس، مولانا، مع الحاكم، والحاكم همين يريد رضى الناس، إلا إذا راد يجن أو يعنفص، فيعادي الناس، يصلب وينهب، وكل شيء يسوي...

وكاد الحاج شبلي يواصل، إلا أن الأسطة إسماعيل أراد أن يجعل

الذين حوله يتفاءلون، قال موجهاً الكلام للحاج صالح:

- لو فرضنا، يا أبو قدوري، ان والينا سنكر، راح منه عقل الرحمان وجاه عقل الشيطان، فلازم تعرف: نحن بشهر رمضان، وماكو عاقل، ماكو أحد بقلبه حنّية أو ذرة رحمة، يصلب ويعدم برمضان.

تابع الأسطة عواد بالاتجاه ذاته:

- وبعد رمضان العيد، وبعد العيد بين العيدين، وبعدهم محرم، فإذا مرت هذه الشهور يبرد الدم، والدم إذا برد البني آدم يحسب ألف حساب قبل ما يضرب ويقتل. . .

وقاطعه الأسطة إسماعيل:

- يسلم حلقك يا أبو نجم، لأن هذا الكلام اللي ينصرف، وهذا اللي يسويه كل عاقل!

قال الحاج شبلي، كأنه يخاطب نفسه:

- اللي تقولوه يا جماعة الخير، على العين والراس، بس لازم تعرفون: حساب الحاكم غير حساب المحكوم، حساب الوالي غير حساب النفرات، البيادا، مثلنا، فخذوا بالكم، وبعدها قولوا إن الحاج شبلي قال.

قال جاسم مهدي ليمتص مخاوف الحاج صالح:

- اتفقنا، حجي، ومثل ما قال أبو حقي، الأسطة إسماعيل، برمضان ماكو شي، وبعدها الله كريم، فخلنا ننتظر ونشوف!

- غصب عنا راح ننتظر، وشكو عدنا غير الانتظار. . . ؟

وخفض الحاج صالح صوته، حياء، وهو يضيف:

- ماكو عندنا غير فليساتنا وخصاوينا وقهوة الشط، ولازم ننتظر ونشوف!

قال الحاج شبلي، وهو ينهض، وكأنه لم يقتنع بأكثر ما قيل:

- سوء الظن من حسن الفطن، يا جماعة الخير، وآني راح أتمشى لقهوة الكمرك، وأشوف الناس هناك شكو عندهم سوالف وأخبار.

قال جاسم، في محاولة لأن يبقي التفاؤل:

ـ تفاءلوا بالخير تجدوه!

ونهض الحاج صالح العلو أيضاً، وحين طلبوا منه، وألحوا، أن يبقى، رد وهزات رأسه تتوالى:

ـ إذا أبو رحيم توجه لقهوة الكمرك، فآني أريد آخذ لي غفوة قبل ما يضرب الطوب، لأن قلوبنا من التعب والهم سافت.

وهو في طريقه الى البيت، لا يعرف الحاج صالح، أبو قدوري، كيف استوقف زينب كوشان وسألها ما إذا سمعت الطبل والمنادي، وحين ردت بالنفي، أو إنها لا تتذكر، قال وهو يواصل خطواته الثقيلة.

ـ شر أيام الديچ يوم يغسلون رجليه!

13

منذ الأيام الأولى لحصار بغداد، وإسم هوبي يتردد على كل شفة ولسان. رجال سعيد باشا يجدّون في طلبه، بعد أن وضع حمادي جائزة لمن يقبض عليه، والفقراء والضعفاء محتمون به، ومحلة الشيخ عمر تنام بعمق حين تعرف أن هوبي يدافع عنها، ولا تتردد محلات أخرى في جانب الرصافة أن تطلب مساعدته فيلبيها. الجميع يخافونه، وهو لا يخاف أحداً. حتى رجال الوالي يحاولون تجنبه، إذ كان يصادف أن يروه بعض الأحيان، لكنهم يؤكدون لأنفسهم أنه ليس هو، بل وأصبحوا في الأسابيع الأخيرة من أيام الحصار يبعثون إليه من يخبره بضرورة مغادرة المكان الذي هو فيه، لأن وشاية وصلت إلى السراي، وسوف يُدَاهم.

كانت تطلق على هوبي قبل الحصار ألقاب عديدة: هوبي الأعور، أبو القراقيع، هوبي ورور، وأطلق عليه أيضاً هوبي عكس، لأن ضربة من كوعه يمكن أن تخلّف إصابة دائمة، وقد تقتل!

لكن فجأة غابت الألقاب جميعها أثناء الحصار، وأصبح اسمه هوبي كريّم، وقد برر رجاله هذه التسمية «ان عينه راحت فدوى للفقرا». أما بعض الذين أصروا على تسميته بالأعور، تحدياً أو للإساءة، فقد نالوا عقابهم. قيل إن رجال هوبي قتلوا واحداً في قهوة الكمرك، وآخر في محلة راس القريّة، وسبب القتل كما قيل مناداة هوبي بالأعور، وقيل إن وشايات منهما وصلت إلى حمادي عن مكان وجوده.

ولد هوبي في محلة الشيخ عمر، وهناك نما وترعرع. عرف الفقر

والحرمان منذ الصغر، لأن أباه توفي باكراً. ومنذ الصغر سيطرت عليه رغبة أن يدافع عن الفقراء، وتمنى لو يستطيع أن يؤمن لكل واحد منهم ما يكفيه من الثياب والطعام، كي يجنّبه استجداء أو توسل الأغنياء الذين كانوا يملكون الكثير، ولا يكتفون بما يملكون، إذ يزاحمون الفقراء على لقمتهم، وهذا ما دعاه للحقد على هؤلاء الأغنياء.

أما كيف تحول من عامل دباغة إلى شقي، فإن موت صالح الدباغ هو المسؤول عن ذلك. مات صالح خطأ، أو ربما نتيجة طعنة السكين، لكن موته في كل الأحوال كان سخيفاً، خاصة وأنه جرى بسرعة خارقة، حتى أن الذين شهدوا هذا الموت لم يصدقوا.

كانت القضية، في البداية، بالغة البساطة. لو أن صالح لم يتفوه بهذه الكلمات، أو لم يقلها بتلك السخرية، وأمام الآخرين، لأخذت الأمور مساراً آخر، لكن كلمات صالح عجلت بكل شيء.

كان بمقدور صالح أن يرفض، أن يوافق، أن يفعل أي شيء غير أن يقول تلك الكلمات. لكنه قالها، ثم مات بعد ذلك!

إذ ما كاد هوبي يطلب إذناً لكي يذهب إلى حمّام السوق في اليوم التالي، وذكر أنه اتفق مع أصدقاء على ذلك، حتى هز صالح الدباغ رأسه وصمت. لم يرفض، لكنه لم يعلن موافقته. هوبي لم يستطع أن يفسر هزات رأس صالح، هل كانت موافقة أم رفضاً. أما في اليوم التالي، حين جاء الأصدقاء لاصطحابه، فقد سأله صالح، وهو يوزع نظراته بينه وبين الأصدقاء:

ـ صدق تريد تغسل... هوبي؟

ـ نعم أستاذي

ـ قبل شهر أخذت رخصة ورحت للحمّام!

ـ لو بإيدي، وأقدر، أروح كل يوم!

ـ شكو بيها... يطلع لك!

وتوجه المعلم صالح إلى الأصدقاء الذين جاءوا. هز رأسه مرات

عديدة، وتابع بسخرية:

- يريد يصير نازوكي . . . يلوق له!

- إلزم حدك، أستاذي، أحسن ما تخرب بينا!

لم يمهله معلمه، تابع وبسخرية أشد:

- بعد ما لميتك من الدرابين وشبّعتك صرت فسقان، مو هالشكل، هوبي؟

- إلزم حدك، أستاذي، قلت لك!

رد المعلم ببطء وهو يباعد بين الكلمات:

- روح، ابني، روح اسبح وتونس، بس لازم تعرف: الدباغة تحوج خرا چلاب!

وجرت الأحداث، بعد ذلك، بسرعة لم يصدقها أحد، ولم تمكّن أحداً من التدخل. فضربة السكين، وقد أرادها هوبي أن تعلّم لا أن تقتل، انزلقت رغماً عنه، ومقاومة صالح الفجة هي التي جعلت السكين تنزلق. أكثر من ذلك يقول أصدقاء هوبي إن صالح مات خوفاً وليس نتيجة الضربة المباشرة، لأنه سقط قبل أن تمسه السكين. وقيل إنه بسقوطه هوى فوق السكين فقتلته. موت صالح اذن اضطر هوبي للهرب ثم للاختفاء.

يقول الذين يخافون هوبي أكثر مما يودونه، إن موت صالح كان مجرد ذريعة، لأن هوبي لم يكن مقتنعاً، ومنذ البداية، بهذا العمل، أو أي عمل يشابهه. كان يكره البقاء في مكان واحد من الصباح إلى المساء، ويكره أكثر من ذلك المساومات والبيع والشراء. ولتأكيد صحة ما يقولون يشيرون إلى حوادث وقعت، وإلى أعمال تنسب إليه، وإلا من أين له كل تلك الألقاب، وتلك الهالة التي ترافقه أينما ذهب؟

القصص التي تروى عن هوبي مزيج من الخوف والإعجاب والكراهية، كما أن للخيال دوراً كبيراً في الإضافة أو التغيير، تبعاً لما يراد من القصة التي تروى، والموقف من صاحبها.

وإذا كان لمثل هذه القصص أن تغيب أو تظهر تبعاً لمزاج الناس

والظروف التي تحيط بهم، فإن كل يوم من أيام الحصار كان يحمل أخباراً تتعلق بهوبي: أكياس الطحين التي كانت تُحمل ليلاً، وكان هوبي ورجاله يحملونها، لتوزع على الفقراء، وفقاً لعدد أفراد الأسرة ومدى حاجتها؛ أكياس الرز التي كانت تودع في مكان، ويطلب من الفقراء أن يذهبوا لاستلام ما يستحق لهم من حصص؛ السكر، الدهن، وحين شدَّد حمادي في ملاحقة هوبي، أصبح توزيع المال أكثر أمنا وأكثر جدوى.

أما الرد على حمادي، وعدد آخر من رجالات سعيد، فيبدأ بالرسائل توجه للتحذير، وصولاً إلى القتل. وبين الاثنين هناك قصص كثيرة يرويها أهل بغداد عن بطولات هوبي: كيف اقتحم؛ كيف قاوم حين أتوا للقبض عليه؛ عدد الذين قتلوا هنا... وهناك لما وقعت معارك بينه وبين رجال حمادي؛ كيف ضلل الذين قبضوا عليه ذات مرة حين أكد لهم أنه ليس الشخص المطلوب، لكنه سيدلّهم على مخبأ هوبي! وعشرات القصص الأخرى، وكلها تروى بتفاصيل تزداد وتتغير يوماً بعد آخر.

حين يتساءل الناس، لا بقصد الاستفهام أو التعرف، وإنما بهدف التأكيد الذي لا يمازجه أي شك حول الشخص الذي جرح حمادي، فكل الروايات تجزم أن هوبي وراء ذلك، لا بل هو نفسه الذي جرحه، وكان بإمكانه أن يقضي عليه، لكنه لم يفعل لسبب ما، وحول ذلك سلسلة لا تنتهي من الاجتهادات والتفسيرات!

أما كيف عبَّأ هوبي الناس، خاصة في الأيام الأخيرة للحصار وكيف كان موجوداً وقوياً إلى درجة لا يعرف ماذا يمكن أن يحصل لو أن حمادي استطاع الوصول إليه وقتله، فإن هذا السؤال تبادر إلى أذهان الكثيرين، لكن خافوا من طرحه على أنفسهم أثناء الحصار، ولم يتجرأوا على ذلك إلا بعد أن دخل داود إلى بغداد، وحمدوا الله أن الأمور أخذت هذا الاتجاه، وانتهت إلى تلك النتيجة.

بعد أن دخل داود باشا بغداد، غاب هوبي. قال أصدقاء له مقربون، إنه بدأ النوم حين سمع مؤذن جامع السراي يدعو لداود بالنصر والتوفيق،

ويقول هؤلاء إنه نام لثلاثة أيام بلياليها بشكل متواصل، نتيجة التعب الذي حل به في الأيام السابقة. ويقول أصدقاء آخرون إنه نام فترة أطول. حتى لما طلب داود باشا أن يراه، بعد أن سمع عنه الكثير، وما فعله خاصة في الأيام الأخيرة، قيل له إنه نائم. ويضيف من يروي القصة أن داود باشا ابتسم، وطلب أن يُترك هوبي نائماً وأن لا يزعجه أحد، ثم نسي الموضوع، ولم يلتق الرجلان!

وقيل إن هوبي، بعد أن أفاق من نومه الطويل، كان لديه ما يفعله، إذ تفقد عدداً غير قليل من الأسر والأصدقاء، خاصة الذين فقدوا بعض الأقرباء أيام الحصار وخلال الصدامات التي وقعت. أما الدعوات التي وجهت إليه فقد اعتذر عنها جميعاً، وكان يقول مداعباً، ليخلص من الإلحاح:

ـ إذا جا ربيع هذي السنة زين، والله سلّم، ما تشوفوني إلا طابّ عليكم!

ويغيب هوبي مرة أخرى، لا يعود أحد يراه أو يسمع عنه شيئاً. فإذا توالت الأسئلة، وزادت عن حد معين، يتبرع واحد من الأصدقاء ليقول إن هوبي في أحد بساتين الخس، بالقرب من الباب الشرقي.

داود باشا، بعد أن أنجز المهمات الضرورية والعاجلة، أراد أن يعرف التفاصيل الدقيقة لما حدث أثناء الحصار، بعد أن لفت نظره ما فعله هوبي. قال لعليوي آغا، بعد أسابيع عديدة من دخوله بغداد:

ـ الشارع، يا آغا، آفة، وأبد ما يتأمن.

كان يقول ذلك وبذهنه زعماء الأحياء والشقاوات، خاصة بعد أن خاب أمل هؤلاء نتيجة استمرار ارتفاع الاسعار وبعض القسوة، والتعديات من رجال الوالي، تحديداً بعد هرب قاسم الشاوي.

سيد عليوي لم يدرك بوضوح عما يتحدث الباشا أو ماذا يريد، لكنه هز رأسه بنوع من الموافقة. تابع الباشا:

ـ أولاد الدرابين، يا آغا تاخذهم كلمة وكلمة تردهم، وما يندرى شنو

يطلع بروسهم إذا مو اليوم . . . عقبه!
رد الآغا بانفعال:
ـ إذا تريد شي، باشا، بس أؤمر، آني ما عندي لحية مشطة، واللي تريده يصير!
ـ ما وصلت الأمور لهذا الحد، لكن لازم نفتح عيونّا كلش زين . .
وبعد قليل، كأنه يخاطب نفسه:
ـ وأهل بغداد ما ينراد لهم إلا من يدق إصبعتين حتى يرقصوا!
ـ إنت بس قل لي: منو . . . والباقي علي يا باشا.
قال الباشا ونظراته مركزة في عيني الآغا:
ـ قالوا لي: الأعيور صار لسانه ما يخش حلقه ويقول يصير وما يصير!
رد الآغا، وقد فوجىء:
ـ هوبي، يا باشا، هو اللي ثوّر الدنيا ضد سعيد، وهو اللي فتح لنا أبواب بغداد، ولولاه چانت الدنيا غير شكل.
ـ اللي ثوّر الدنيا ضد سعيد، يقدر يثورها ضد غيره، قال الباشا.
ـ يا باشا، يا محفوظ السلامة، هوبي ما يحلف إلا براس داود باشا، ويقول قدام الزغيّر والچبير: أروح للوحة فدوة لعيون داود!
ابتسم داود باشا، هز رأسه عدة مرات، تابع سيد عليوي:
ـ أخاف أن ما سمعته يا باشا قيل عن قال، وهوبي له عداوات هوايه!
غيّر الباشا جلسته، استعداداً لكلام طويل، نظر إلى الآغا، ثم سحب نظراته بعيداً، وخرج صوته من أعماق الصدر:
ـ هذول اللي هوّسوا لما دخلنا بغداد، يا آغا، روسهم متروسة بالأحلام. فإذا ظلوا للبارحة يقولون عيني وآغاتي، ما تعرف باچر بأي شي يحلمون، لأن الحلم يجر غيره، وهذول الشقاوات يغزلون أحلامهم على كاس وطاس بالليل، وبالنهار يسوون ألف طرقاعة!
ـ شلون نقدر نمنع الأحلام، يا باشا؟
ـ نريدهم يحلمون مثل ما نريد، مو مثل ما يريدون!

قلب الآغا شفته السفلى استغراباً، وبعد أن فكر تساءل بمكر:
ـ وشلون نقدر، يا باشا، نتحكم بشياطين الليل، ونخلي الناس تحلم مثل ما نريد؟

رد الباشا، وخرج صوته حزيناً:
ـ الأحلام، يا آغا، مثل الطاعون، إذا بدت ما تعرف وين تصير. الأحلام تفقس وتكبر، خاصة بروس المفاليس واللي ما عندهم شغل، وتعال، بعدها، اخلص!

وقدر الباشا، من خلال هذا الحوار، أن الوقت لم يحن بعد. قال لعليوي، وهو يضفي جرساً ودياً على صوته:
ـ نسيت أسألك، يا آغا، إنت... تحلم هوايه؟
فوجىء الآغا بالسؤال. تطلع إلى الباشا بإمعان ليعرف ما إذا كان جاداً بسؤاله، لما وجده ينتظر الجواب، رد بارتباك:
ـ هوايه أحلم، يا باشا، لكن الغريب أني لا أتذكر الأحلام، أنساها كلها!

ـ تنساها كلها أو قسم منها؟
ـ أتذكر أني حلمت، وأتذكر أن الأحلام كانت هوايه واضحة، لكن في اليوم التالي تغيب، تنطمس، وتصير مثل الغمامة السودا، شليلة وضايع رأسها.

ـ دائماً هالشكل؟
ـ إلا إذا صار فد شي خلال النهار وذكّرني!
وأراد أن يضيف أشياء أخرى، لكن الباشا قاطعه:
ـ أو إذا جا أحد وذكّرك.
ضحك عليوي بطريقة أقرب إلى القهقهة، وقال:
ـ منو يقدر يخش براس عليوي...
ـ عفية، آغا، خليك هالشكل!

14

في أحد بساتين الخس، شرقي المدينة، وراء أسوار بغداد، تعوّد هوبي وجماعته أن يلتقوا كل ليلة. كان يزيد العدد أو ينقص، لكن الزيادة أو النقصان لا يتعدى الاثنين أو الثلاثة، والغياب لا يتعدى اليومين أو الثلاثة أيام. فإذا تجاوز الغياب هذا الحد لا بد أن يكون قد حصل شيء غير عادي، الأمر الذي يدفع هوبي لإرسال من يتفقد الغائب، كي يعرف ما وراء هذا الغياب.

ما إن حل رمضان هذه السنة حتى قال هوبي لأفراد الجماعة: «هذا الشهر فرارية. كل واحد ينجاز ويّا نفسه، ويّا ربه»، معنى ذلك إجازة طويلة.

ولما كان رمضان يغير المواعيد والعادات، فإن الذين مع هوبي لا يقلون عنه صرامة في التقيُّد بالأعراف، وبعض الأحيان المبالغة في ذلك.

فالذين تعودوا الشرب أغلب الليالي، وطوال أيام السنة، ما إن يحل رمضان حتى يصبح بعضهم نمطاً آخر من الرجال. يصبحون نسَّاكاً متعبدين أقرب إلى الدروشة. يصومون النهار ويتهجدون في الليل، وكأنهم يريدون التكفير خلال هذا الشهر عن جميع الذنوب التي اقترفوها، وتلك التي ستأتي! وإذا صادف أن جاء بعض هؤلاء إلى بستان الخس، بعد صلاة التراويح، لإظهار تمسكهم بالجماعة، فإنهم يعتبرون هداية الآخرين واجباً أكثر أهمية مما عداه، لذلك يسرفون في الحديث عن أهمية الصيام، وما يولده من غبطة في الروح والجسد، وأنهم لمسوا النتائج بأنفسهم، وهم

يتحدثون عن تجربة، لا كما يفعل أصحاب العمائم وهم يتحدثون!

وإذا كان هوبي حازماً قاسياً أغلب الأحيان، فإنه في هذا الشهر يصبح شخصاً آخر: متسامحاً إلى درجة الإفراط، متفهماً إلى حد يوافق على الكثير مما يقال، ولا يمانع بقبول «التوبة» إذا جاء أحد رجاله وطلب أن يترك «الجماعة». شرط هوبي في هذه الحالة: «إذا كان هذا رأيك، وقلت بشرفي وناموسي ما أغدر ولا أخون، ولا شفت وما أعرف، فالله وياك، لأن ماكو أحد يجبر غيره. لكن تذكر: كان بينا خبز وملح، واللي يغدر أو يخون يقتل نفسه قبل ما يقتله غيره».

لقد حدث هذا أكثر من مرة، ليس في هذا الشهر وحده، بل وحدث أيضاً في منتصف شعبان وفي محرم الحرام، وأيام صوم زكريا، ويوم مَرَدَ الراس. كما حدث في حالات أخرى، عندما تهجم المنامات الكبيرة. إذ ما أن تتوالى الكوابيس، أو زيارات الملائكة، كما يقولون، وتتكرر الأحلام ذاتها ليلة بعد الأخرى، مسببة الكآبة وتأنيب الضمير، وقد يصل الأمر إلى البكاء أو الخوف من الظلمة، والامتناع عن المضاجعة. كان من يصاب بمثل هذه الحالات يكاشف هوبي، طالباً النصح أو المساعدة، وهوبي لا يتردد في أن يخيّر الشخص بين البقاء مع «الجماعة» أو تركها. طالباً منه أن يتخذ القرار الذي يلائمه، وله العودة، لاحقاً، إن هو أراد.

أكثر من ذلك يصبح هوبي خلال هذا الشهر عرضة للقلق والتساؤل. ورغم أنه يمتنع عن الشراب، لكنه لا يصوم، كما يصبح أكثر استعداداً للحديث، وأن يشرك الآخرين بما يفكر، وما يعتزم أن يقوم به من أعمال، وقد يعترف بأخطاء ارتكبها في السابق.

أما الذين يريدون أن يبقوا كما كانوا قبل رمضان، أو كما يقول بعضهم: «رمضان شهر من الشهور، مثل شعبان وشوال، مثل ربيع وربيع، والمؤمن الصدق من يشعر في داخله بالحنّية، والعطف في كل الشهور. أما أن يكون الواحد زنديقاً كافراً، يظلم الناس ويسلبهم في كل شهور السنة، حتى إذا جاء شهر رمضان تحول وتغير، فكأنه يضحك على نفسه وعلى

غيره، ولا نريد نقول أكثر من ذلك، حتى رب العالمين ما يحرقنا بنار جهنم».

أولئك الذين يريدون أن يبقوا كما كانوا قبل رمضان، لا يحاول هوبي إرغامهم على أن يكونوا شيئاً آخر، كل ما يطلبه، كما يقول، «الستر يا جماعة، وما لازم نكسر خاطر الناس» فإذا ألحَّ عليه أحد المؤمنين الجدد أن يقف معه، أن يسانده، أو أن يكون حكماً في الجدال الذي يدور حول الصيام وفوائده، يقول هوبي وابتسامته لا تفارق وجهه:

- باوعوا الطيور اللي تطير بالسما، كل طير يختار الطريق اللي يريد!

وحين يجد أن هذه الحجة غير كافية، يضيف، وقد تغير وجهه:

- ماكو أحد ينزل بقبر غيره، وماكو أحد ينوب عن الثاني يوم الحساب، فخلوا الله وحده هو اللي يحاسب!

كان كلامه يغضب بعض المتدينين، أو الذين أصبحوا كذلك خلال شهر رمضان، إذ يعتبرون موقفه مؤيداً للعصاة، لكنه يرد:

- يا جماعة، نحن أولاد اليوم، وما نريد يتأجل الحساب إلى يوم القيامة إذا نقدر نحاسب اليوم!

ويضيف، وقد عاود وجهه الابتسام:

- إذا رب العالمين باله طويل، وينتظر سنة وألف، فالبني آدم خلقه ضيق، إما بحياته يحصل أو ضاع عليه كل شي.

فإذا وجد أن كلامه غير مقنع، تكتسب كلماته حزماً أكبر:

- المسألة، يا جماعة، ما هي مسألة صوم وصلاة، ومثل ما قلنا: رب العالمين هو اللي يحاسب، لكن أريد أسألكم فد سؤال: بربكم، بدينكم، بصلاتكم وصيامكم، شقد اكو بشر ما يقطعون لا صلاة ولا صوم، لكن قلوبهم أسود من الفحم: يظلمون الفقرا، يسلبون اليتامى، وما يخلون مكسورة إلا ويسووها. وشقد اكو بشر لا يصلون ولا يصومون، لكن الحرام أبد ما ياكلون. مو بس هالشكل: ماكو أحد محتاج، ماكو طير أو حيوان، وبليّا ما يحس أحد إلاّ ويفتحون جيوبهم وبيوتهم ويقولون: ألف

هلا ومية مرحبا، وعليك الله تاخذ!

وغالباً ينتهي مثل هذا النقاش دون نتائج.

ولأن رمضان هذه السنة كان مختلفاً عن السنين السابقة، من حيث الأسعار، وصعوبات الحياة، ونتيجة الأحداث التي مرت، إذ لا تزال ذكرياتها طرية في قلوب الناس وعقولهم، فقد أصبحت المجادلات بين رجال هوبي أكثر من السابق، وتزيد عن الحد الذي يبقي الود بين هؤلاء الرجال، ولئلا تستفحل الأمور، كثيراً ما تدخل هوبي ليضع حداً، أو ليعطي الجدال مسارات أخرى.

كان يقول، للحد من الخلافات:

ـ ترى إذا ظلينا بقصة الجنة والنار، الثواب والعقاب، ضاعت علينا الدنيا والآخرة...

ويهتز رأسه بحزن، ويتابع:

ـ جوامع بغداد ماكو أكثر منها؛ وأصحاب العمايم يدورون على الناس بالدرابين حتى يحصّلوا منهم الزكاة والخُمس، فخلونا بهمّنا وخلونا نشوف دربنا.

وحين يخيِّم الصمت، والعيون تتابع، يضيف:

ـ اللي يريد يصلي الله وياه، واللي ما يريد يصوم... كل ما نقدر نقوله: الله يهديه، وانتم تعرفون: ماكو أكرم من الله، وهو أرحم الراحمين.

بعد أسابيع، وفي محاولة جديدة من الباشا لإقناع عليوي أن شقاوات بغداد، مثلهم مثل البدو، يعشقون الفوضى إلى حد الجنون، وليس لهم من عمل إلا تحريض الناس والتطاول على الحكومة.

أما عن دورهم في محاربة سعيد، وتسهيل دخول بغداد فلا يتعدى الرغبة في النهب وفرض الخوة على الأغنياء. وإذا كان لديه أي شك، عليه أن يختبرهم في مواجهة الإعدامات التي ستجري، وما إذا كانوا سيؤيدون الحكومة أم لا.

شعر سيد عليوي بالتحدي، كأن دفاعه السابق عن هوبي ورجاله لم يرق للباشا، وعليه أن يختبر الأمور بنفسه ليتأكد!

كان هوبي وعدد محدود من رجاله حين وصل الآغا فجأة بزيارة إلى بستان الخس. شعر هوبي والرجال الذين حوله بالحرج، وبالاستغراب أيضاً، إذ لا يعرفون كيف يجب أن يكرم الآغا في هذه الليلة الرمضانية. هل يسألونه ما إذا كان صائماً كي يهيئوا له السحور؟ هل يحسن أو يليق أن يتحدث أحد عن الخمر في مثل هذه الليلة؟

قال هوبي، في محاولة لخلق جو من الألفة، وليكسر الاعتبارات التي تسود في مثل هذه الليالي:

ـ ترى بينا، يا آغا، من هو مريض أو على سفر. فاللي تؤمره يصير!

ـ جيتك من آخر تلفات الدنيا، يا أبو راجي، حتى أبلل زردومي بعرق هبهب، لأن هذا الزردوم صار كم يوم يابس، طقطق من العطش. . .

وبعد قليل، وهو ينزع حذاءه، ويفك أزرار قميصه:

ـ ترى سوالف السراي أبد ما تخلص، يا أبو راجي، والواحد إذا غرق بيها وحدها يصير أثول، وبعدها ما يعرف كوعه من بوعه، فهات الكاس والطاس حتى ترتاح أعصابنا شوية.

وبسرعة فائقة، وكأن هذه الليلة مثل غيرها من الليالي، هيء كل شيء من أجل الشراب. وهوبي الذي بدا أحد المشاركين، وهيأ كأسه أيضاً، قال للآغا قبل أن يرفع الكأس:

ـ قول على اللي تريده، يا آغا، آني وياك بالطاس والكاس، بس، سبحان الله، برمضان يصير العرق بحلقي سم، وأزود من السم، فأريد أترخص منك، أرفع وياك كاس، وأقول لك عوافي، بس لا تلوموني إذا ما قدرت أشرب!

حين بدا الاستغراب على وجه الآغا، وتطلع إلى الآخرين، أضاف هوبي بنوع من التبرير:

ـ الاخوان راح يشربون، وآني وياكم، وإذا تريدني أكون مرتاح،

وأقندل، فخليني بكيفي!

وبعد قليل، ولئلا يترك مجالاً لنقاش إضافي، رفع الكأس:

ـ كاس الآغا، يا جماعة، صحة وعوافي!

بدا الآغا مختلفاً هذه الليلة عن مرات سابقة، ربما جاء ليستريح من أعباء السراي، من الأشغال التي بدأت مع دخوله إلى بغداد، ويبدو أنها لن تنتهي. وربما لديه شيء يريد أن يفضي به لهوبي، لكن أحداً لم يكن في عجلة من أمره.

أضفى هوبي جواً من المرح على الجلسة، إذ طلب من أحد رجاله، وكان معروفاً بخفة الدم، أن يروي بعض النكات. ولم يتأخر هذا، إذ روى نكاتاً قديمة وأخرى جديدة. ورغم أن هوبي ورجاله سمعوا أغلب هذه النكات من قبل، لكن طريقة روايتها هذه المرة، وما أضيف إليها من حركات، أضحكتهم أكثر من السابق. أما سيد عليوي الذي ضحك، وبالغ بعض المرات، فقد كان في عالم آخر، لاحظ الرجال ذلك من سهومه، من حركاته العصبية.

في لحظة معينة، قال عليوي، وكان كلامه أقرب إلى الأمر:

ـ أكو كلمة بيني وبينك، أبو راجي.

وقبل أن يقول هوبي كلمة، ويطلب من رجاله ان يخلوا المكان، انسحبوا.

قال سيد عليوي، وهو ينظر إلى عيني هوبي:

ـ أريدك تتحضر..

واقترب منه أكثر:

ـ بالأيام اللي تجي راح نعلق كم واحد من جماعة سعيد، هذول اللي دوخونا، وشلعوا قلوبنا. فأريدك أنت والجماعة تكونون موجودين وحاضرين، حتى ما يرفع أي ابن قحبة صوته ويقول: يصير وما يصير.

تراجع هوبي قليلاً، كي ينظر إلى عيني الآغا، ليقرأ فيهما ويتأكد ما إذا يعني بالكلمات التي قالها. لما وجد الوجه صلباً، والعينين تؤكدان

الكلمات، سأل، وقد حمّل صوته صلابة مماثلة:
ـ منو . . . ؟ وشنو صاير بالدنيا؟
ـ عقب أيام راح تشوف بعيونك . . .
وتغيرت نبرة عليوي:
ـ هذوله القواويد، اللي أكلوا الأخضر واليابس، اللي قالوا لسعيد نحن وياك للموت، إضرب ولا تخاف، وشقد ما تريد فلوس نحن حاضرين . . .
وعاد إلى لهجته الأولى:
ـ ترى الناس كلها ويا الوالي، بس تعرف، يا أبو راجي، أهل بغداد يريدون دف حتى يرقصوا، يريدون عزا حتى يلطموا، وخاف أولاد الحرام، جماعة سعيد، يتوهمون، فأريدكم حاضرين حتى ما أحد يفك حلقه.
رد هوبي بطريقة لا ترتب أي التزام:
ـ الجماعة فيدوس يا آغا، كل واحد يم أهله، وجماعة الوالي بيهم الخير والبركة، يكفون ويوفون!
ـ اللي تقوله صحيح، يا أبو راجي، بس وجودكم ضروري.
ـ منو نحن، يا آغا، إذا الحكومة موجودة؟
ـ نريد جماعة مثلكم يقدرون يقولوا للناس: باوعوا، شوفوا هذوله اللي ظلموكم تعلقوا، وإذا واحد قال: شنو . . . منو أو شلون، يقولون له: تنشب وتاكل هوا . . .
وبعد قليل، لكي يبدو الموضوع عادياً:
ـ هذا كل ما نريده منكم، يا أبو راجي!
رد هوبي، بعد أن ساد الصمت، وبعد أن أخذ نفساً عميقاً:
ـ والله نحن قولنا من راسنا، يا آغا، واللي علينا سويناه، وما كلف الله نفساً إلا وسعها.
وحين تطلّع إليه سيد عليوي باستغراب، أضاف ليعفي نفسه من أية مسؤولية:

ـ بعدين . . . الجماعة تطشروا، يا آغا، صار كل واحد منهم بديرة.

حاول أن يبدو عادياً وهو يضيف :

ـ وتعرف . . نحن بشهر رمضان، فلو كان الوقت غير وقت، لقلنا لهم تعالوا، لكن مثل ما تشوف عينك . . . حتى الجماعة اللي شفتهم هسه، محملين، وباچر أو عقبه كل واحد منهم عند أهله!

رد عليوي بطريقة لا يريد أن يبدو مهزوماً :

ـ اللي الله يقدركم عليه، يا أبو راجي، وأعرفك نشامة وما تقصّر!

15

مثلما وضع داود باشا الفرمان الخاص بإعدام قاسم الشاوي جانباً، جهة اليمين، ودق عليه ثلاث مرات وأقسم أن ينتقم، فإنه وضع فرمانات عبدالله بك والآغا درويش، وذاك الخاص بالباجه جي، جانباً، لكن هذه المرة جهة اليسار وقال يخاطب نفسه: «الفلوس بهذا الوقت أهم من الرؤوس، وكل واحد من الثلاثة يقدر، بالأموال المضمومة تحت مخدته، يشتري ولاية ويسيّر قوافل، فإذا أرادوا افتداء أرواحهم عليهم أن يدفعوا كفّارة، ومثلما أوقف عمر، رضي الله عنه، الحد أيام المجاعة، يمكن أن نرفع عنهم الحد».

ولأن هؤلاء، وآخرين، كانوا قد اعتقلوا بعد أيام من سفر موفد خالد أفندي، بسبب ما قيل عن «المضبطة» التي يفكرون برفعها إلى السلطان لمطالبته بتنحية كل من له صلة قرابة أو مصاهرة بسليمان باشا الكبير، منعاً للفتنة، فقد قرر داود باشا أن يسد بعض الأبواب التي قد تأتي منها الرياح، لأن لديه الكثير الذي يجب أن يفعله في هذه الفترة، ولا يحتمل التشويش والتحديات. فكر أن يبقيهم بضعة شهور «ضيوفاً» عنده، إن لم يكن في سجن القلعة تماماً، ففي جناح لا يختلف كثيراً عن السجن: حار أو شديد الحرارة في الصيف، وشديد البرودة في الشتاء، وأن يكون بالغ الضجيج ليل نهار، من داخل القلعة ومن خارجها، دون أن يتمكنوا من رؤية الناس، لكي تتاح لهم المقارنة بين ضيافة الوالي الجديد وضيافة الباليوز!

هكذا فكر داود، وكان يردد لنفسه، وهو يبتسم، عندما تتراءى له وجوههم: سطرة وجرة إذن. . . وبعدها: يا غريب دَوّر أهلك.

لكن هذه الخطة التي قرر اتباعها، في محاولة لترويض خصومه ومن يفكرون بمعارضته، ما لبثت أن تغيرت بعد فرار ابن الشاوي وموت حمادي.

كان لا بد من الحزم، حتى لو اقتضى الأمر التخلص من المعارضين الخطرين، وكان لا بد من تدبير الأموال اللازمة، وبسرعة، لمواجهة الأعباء المتزايدة.

لم يتأخر الباشا في التحضير لتنفيذ الأحكام، وعلناً، بأولئك الذين لا يمكن أن يغفر لهم، خاصة وأن لأغلبهم صفة أنهم تعودوا على الأخذ دون العطاء، إذ بالإضافة إلى الفتاوى التي كانوا يصدرونها لسعيد ونابي خاتون، فقد كانت ألسنتهم طويلة، قذرة، وطافحة بالسخرية، حين يمتنع العطاء وحين يقل، إذ يتحولون إلى خصوم، وهذا ما جعلهم لا يتوقفون لحظة واحدة عن تأييد سعيد والنيل من خصومه، وقد لحق داود، منذ أن غادر إلى الشمال وإلى أن دق أبواب بغداد عائداً إليها، من ألسنتهم الكثير. كانت نابي خاتون تملأ جيوبهم بالنقود، وتنشر عن طريقهم قصصاً حول داود لها بداية لكن لا تنتهي. ورغم أنه لم يكن يخاف تلك القصص، إلا أنه لم يكن يحبها، إذ تتناول طفولته وفقره وأسرته، في الوقت الذي كان يبذل أقصى الجهود من أجل أن يراه الناس كما يحب: ذكياً، لامعاً في السياسة والحرب، شجاعاً ومنتصراً في كل المعارك.

الآن جاء الوقت ليصفي حسابه معهم، وعليهم أن يدفعوا ثمن الأخطاء الماضية، كما لا يريد توبتهم، لأن الكثيرين أخذوا يتسابقون إليه ليمدحوه ويشيدوا بمزاياه.

ومع التصميم على التخلص من هؤلاء، ليكونوا عبرة لمن يفكر بالتطاول، فقد أرسل إلى الذين يملكون المال: عبدالله بك، ودرويش آغا والباچه چي من يفاوضهم لافتداء أرواحهم.

لما عرض الذين أرسلوا لعبدالله بك اقتراحهم أن يدفع ليفتدي نفسه، لجأ رأساً إلى الشتيمة. شتم سعيد ونابي وحمادي، لأنهم السبب في المذلة التي يواجهها الآن. وشتم القدر الذي جعله يتعامل مع هؤلاء الأوباش. وشتم نفسه لأنه ترك العزيزية وجاء ليصبح عبداً عند نابي خاتون.

فوجىء الذين جاؤوا يفاوضونه، وكانوا يلتقونه أول مرة، من هذه القابلية الخارقة على ابتداع الشتائم، والتي لا تخلو من طرافة. وقد حاول أن يستغل ذلك من خلال إدهاشهم وإضحاكهم، وفي جو من المرح، والذي سرعان ما تحول إلى ابتسامات فقهقهات، أراد أن ينسيهم الغرض الذي جاؤوا من أجله! لكن ما أن يهدأ الجو قليلاً ويسألونه عن المبلغ الذي يدفعه ليخلص من «الرزالة التي يعيشها الآن»، حتى يعود من جديد:

ـ آني أبو فلوس؟ آني عندي فلوس؟

ويلتفت بحذر خشية أن يسمعه غيرهم، ويتابع:

ـ شنو. . . مخابيل انتو؟ ما تشوفوني مصلخ، منتوف، وما عندي غير طرق خصاوي؟

وحين يطلبون منه أن يترك الهزل، وأن يحدد ما يستطيع دفعه، يرد بحدة:

ـ بابا. . . قلت لكم مفلس، بارة سز، حتى أفندينا السلطان، أطال الله عمره، نوى يتكرم علي بنيشان برنجي لأني أكبر مفاليس السلطنة!

يهزون رؤوسهم أنهم لا يصدقون، وعليه أن يبحث عن حجة أخرى، فيهدر صوته:

ـ حتى داود، الله يخلف عليه، لقفها وهي طايرة. . .

ولأنهم لم يفهموا ما يعنيه يتابع:

ـ ليش أكو دور للأيتام والعجز؟ ليش الله، بسماه العالية، قال: لا تكسروا خاطر الفقير؟ ليش الديانات كلها وصت بالمسكين؟

وحين لا يجيب أحد، يتولى الجواب:

ـ ربنا من فوق شايف حالي، فقال لمحروس السلامة داود: هذا العبد

الفقير، الميت من الجوع، عبدالله بك، توقف قليلاً، وقد رنت «بك» بأذنه، كما رنت بآذان الذين يتابعونه. ابتسم قليلاً ثم قهقه، وخرجت كلماته حادة، مع حركات من يده ووجهه:

- هذي البك قشمرة، لا تغركم. . .

ثم يعود إلى نبرة الصوت السابقة.

- قالوا لوالينا داود: دير بالك عليه، لأن الرجَّال ما محصل خبزته، مهتوك، كل شيء ما عنده، وداود ما قصّر، قال: تعال، أُكُل واشبع.

وبعد قليل وبسخرية:

- عرفتوا ليش آني هنا. . . لو بعد؟

وتكون ابتساماتهم دلالة للإنكار وعدم الإقتناع، فيندفع أكثر:

- بابا انتو غلطانين، ويجوز الباشا دازكم على واحد غيري. قلّبوا دفاتركم زين، وبعدها راح تقولون: هذا العبد الفقير لله يستحق الصدقة!

بين الحيرة والاستغراب، ولأنهم لم يعرفوا كيف يتعاملون معه، انسحب الرجال الذين أرسلهم داود، استعداداً لجولة ثانية، بعد أن يستشيروا رؤساءهم فيما ينبغي عمله.

في المرة الثانية، ما إن فتح الباب عليه ورآهم، حتى استقبلهم صوته الحاد:

- العن أبو اليوم اللي تركت العزيزية وداست رجلي بغداد، لأنه يوم اگشر. لو انكسرت رجلي وما طبيت بغداد. لو صاب طيزي دوحاس وما شالني بغل أعور. لو عجاجة گشرة أخذتني لمكان ماكو بيه أحد، حتى لا أشوف هذه الولاية ولا أقابل چهرة نابي خاتون. لكن حظي نجس، حظي خرا، ومن دعاوي أمي علي وآني زغير، ولأني بقت خبز العباس وكلاش المومن، وما خليت مكسورة إلا وسويتها، صار بي اللي صار. . . وهمين جايين علي تريدون فلوس، وتقولون هات؟

توقف لحظة كي ينشف العرق الذي أخذ يسح من جبينه وخديه. نظر خلسة إلى الوجوه التي تتابعه ليكتشف النوايا، وما إذا اختلفت عن المرة

السابقة، فلما وجد أن الرجال يتابعون بصبر، لكن لديهم ما يقولونه، سأل بلهجة حمّلها مقداراً من الحزم:

ـ ها... شلون، تأكدتم أن اللي تريدونه واحد غيري؟

لم يجيبوا، لكن نظراتهم أشعرته أن الطريقة التي يتبعها لا تجدي، قال بمسكنة:

ـ لو آني بغير هذا المكان، والدنيا مو رمضان، چان صحت لكم ماي بارد، حامض، طاسة باقلاء أو لبلبي.. لكن مثل ما تشوف عيونكم...

وبعد قليل، بلهجة مختلفة:

ـ ما يخالف، تهون، تنقضي أيام القهر، تصير سوالف وأخبار، وعندها مو راح أعزمكم نوبة، مية نوبة.

ولما طالبوه أن يحدد المبلغ الذي يستطيع دفعه، ليطلق سراحه، سألهم من جديد:

ـ بابا... إنتو متأكدين أن ماكو غلط بالموضوع؟

وقالوا له إن الأمر لا يحتمل نقاشاً طويلاً، وعليه أن يختار.

بعد أن صمت وقتاً غير قصير، جاء صوته وكان متحدياً:

ـ زين ما يخالف، راح أبيع اللي فوقاي واللي جواي، بس قولوا شقد يريد افندنيا داود؟

وحين أبلغوه أن المقدار المطلوب عشرة آلاف كيس، رفت عيناه عدة مرات، وبدا الخوف قوياً على وجهه، قال وهو يلهث:

ـ إلزموا الباب، يا معودين، والله وياكم، وأبد لا تخلوني أشوف وجوهكم؛ وبعدها اللي تشمره السما تتلقاه القاع؛ هذا هو، وألف جهنم!

قالوا له قبل أن يغادروا إنهم مستعدون لِلتنازل قليلاً، فسألهم بعصبية عن حجم التنازل، ولما ذكروا أن المبلغ قد ينزل ألفاً، رد، وهو يدير وجهه نحو الحائط:

ـ بابا... شنو إنتو عقال لو مجانين؟ منين أجيب؟

وبعد قليل، كأنه يخاطب نفسه:

ـ لو باعوني بسوق هرج أكثر من ألف ما يتحصل!

وهم يخرجون، وقد كانت خطواتهم ثقيلة، عله يتراجع في آخر لحظة، استدار من جديد، ولم يتخلَ عن صوته الغاضب:

ـ والمخلص؟ نهايتها شقد؟

ولما استدار آخرهم، وقال إنهم مفوضون بالتسعة، رد بسخرية:

ـ بابا . . . . سيروا على بركة الله. سلموا هوايه على الوالي، وقولوا له: عبدالله مات، مات مو من اليوم، من يوم ما طبّ بغداد، وما تجوز على الميت غير الرحمة!

ولئلا تصل المفاوضات مع درويش آغا إلى ما يشبه هذه النتيجة، أُرسل إليه مشهور أبو الهيل. جاء مشهور كصديق للزيارة والاطمئنان عليه، وقد أبلغه أثناء الحديث، إذا كان يوافق، إن بالإمكان أن يفتدي حياته وحريته بمبلغ من المال، وزيّن هذا الحل، رغم صعوبة أن يُوَافق عليه، لكن سيبذل أقصى ما يستطيع من أجل ذلك. ودرويش آغا، الذي لم يرفض هذا الاقتراح، تساءل عن الوقت الذي يمكن أن يقضيه في هذا المكان، الذي ما أن تخيم الظلمة حتى يمتلىء بالعفاريت، وتأخذ هذه العفاريت تتراكض حوله وتصيح، فتصطدم به وتنام فوقه وتدغدغه، وبلغ الأمر أن سرقت مسبحته، ولم تعدها إلا بعد أن أوجعها بكاؤه!

روى درويش آغا هذه القصة كوسيلة إضافية ليعجّل مشهور بإخراجه من هنا. فلما لاحظ هماً على قسمات وجهه، قال له بانفعال:

ـ الفلوس، يا أبو مثقال، وسخ دنيا تروح وتجي، أما روح البني آدم إذا طلعت، أبد ما تنرد!

وبعد أن وافقه مشهور بهزات من رأسه تابع درويش آغا بحزن:

ـ شلون بلوى ابتلينا، وما يندرى همين شوَكت تخلص!

قال مشهور بحزن لا يقل عن حزن الآغا:

ـ الحبس، آغا، وإن طالت أيامه، يخلص؛ بس الواحد يخاف يصير غير شي، وهناك الطامة الكبرى!

ـ يعني شنو. . . قول بالقلم العريض، خاف تكون سامع فد شي!
ـ والله ما جيت، يا آغا، إلا على مود هذا الشي!
ـ يعني شنو؟
ـ الناس بالسوق تسولف وتقول: داود ما يتأمن، مثل الدنيا ما تتأمن، ولازم عرفت: قاسم فرّ. عصفور وطار، ومن ذاك اليوم ووالينا نار الله الكبرى، محموق، وبس يريد ينتقم، فقلت لروحي. . .
توقف لحظات، أخذ نفساً ملء رئتيه، وتابع:
ـ وخاف يتسودن وتجي براسه ويسويها. . .
واهتز الآغا بعصبية، لكن مشهور أضاف بلهجة مريرة:
ـ الفلوس بألف جهنم، المهم إنك تبقى حي، يا آغا!
واتفقا أن تُبذل أقصى الجهود، وبسرعة، بغض النظر عن المبلغ الذي سيدفع من أجل أن تنجز هذه المهمة.
قال درويش آغا لمشهور، وهو يودعه:
ـ واليوم أحسن من اللي عقبه، يا مشهور، لأن روحي شاغت، وما يندرى شنو اللي يصير.
ورغم أن مشهور أكد له، وأقسم، أن يبذل كل ما يستطيع، فقد سأله الآغا بخوف:
ـ وشوَكت ترد الجواب؟
ـ خليها على التيسير، درويش آغا، ومن جهتي أبد ما راح أقصر، وما يلزم توصيني، بس المسألة أن نلاقي درب على الجماعة.
وبعد قليل، وهو يبتسم:
ـ وأنت، آغا، إذا بيّتت خيرة ودعيت لنا بالتوفيق فرب العالمين يهوّن ويفك ألف باب!
قال درويش، وبدا متعباً وحزينا:
ـ إذا قلنا: اليوم الثلاثاء، فشوَكت أنتظرك، ومعك الجواب؟
ـ لو المسألة يمي، آغا، چان اليوم قبل باچر، لكن ينراد نشوف درب

على الجماعة، نريد فد واحد يعرفهم زين، ويمون.

ويهتز رأس الآغا ببطء موافقاً ومؤكداً على كل كلمة يقولها مشهور أبو الهيل، ويريد منه أن يتابع أيضاً، ولا يتأخر مشهور:

ـ وإذا لقينا اللي يساعد ويوصلنا راح يكون حظنا من السما.

ـ يا معود، يا أبو مثقال، أنت معارفك هوايه، والدنيا ما تخلى، من هنا، من هنا، ولازم نلقى.

ـ وكِّل الله، آغا، اللي يسأل ما يضيع، واللي يدور يلقى.

ـ راح إعتمد عليك، يا أخوي مشهور، ولازم تدبر!

هز مشهور رأسه مرات عديدة دلالة الهم والتفكير، وقال، وخرج صوته من أعماق الصدر:

ـ وكِّل الله، آغا.

ـ عليه توكلنا، وإليه ننيب.

ولم يتأخر مشهور في الزيارة الثانية، جاء يوم السبت، بدا ملهوفاً، وهو يضج بالفرح:

ـ أبشرك مولانا!

ـ الله يبشرك بالخير!

وتعمد مشهور أن ينتظر بعض الوقت. مسح حبات العرق التي تساقطت من الجبهة. نظر حواليه، وكأنه يضع المسؤولية على هذا المكان الحار... قال وهو يظهر تأففه:

ـ حارة... آغا... جهنم!

كانت ردة فعل الآغا سريعة:

ـ متنا، احترقنا، ومو بس بالنهار، الليل أنجس...

ولما تأكد الآغا أن مشهور ليس مستعداً، بعد، للحديث، تابع بحرقة:

ـ والماي.. الماي عبالك بول بعران، والبق الله لا يراويك؛ وكل جريدي ولا بزون قصاب، وما أدري بعد شنو...

وصمت الآغا متعمداً ليمهد لحديث من نوع آخر، وبعد أن مرت

ثوان، بدت طويلة وثقيلة، قال الآغا بكثير من الود:

ـ أي، أبو مثقال، قلت لي إنه الأمور تيسرت؟

ـ خليها على الله، آغا!

تراجع الآغا بخوف، وكأنه لا يتحمل مثل هذه الإجابة الرجراجة، خاصة وأن مشهور تعمد أن يرد ببطء، وقد شابت صوته رنة شجية. سأل الآغا بحرقة:

ـ أريدك تسولف لي، وبالتفصيل، من ساعة تفارقنا حتى اليوم!

رد مشهور بتثاقل، وكان يهز رأسه:

ـ شاقدر احچي شاقدر أقول، آغا. . .

وبعد قليل، وبنبرة جديدة:

ـ انشلع قلبي وآني أركض من مكان لمكان، أريد فد واحد أفهم عليه ويفهم علي؛ يوم، اثنين، إلى أن لقينا فد خوش ولد، وبعد ما افتهم السالفة، دق على صدره، وحط إيده على الشارب، وقال: هذي، يا بو مثقال، عليّ، خدها من هذا الشارب!

ـ الله يبشرك بالخير، يا أبو مثقال. .

أخذ نفساً، وأضاف:

ـ الدنيا، بعد، بيها خير، يا أبو مثقال، والناس للناس، شنو عبالك خلصت؟

ولما هز مشهور رأسه موافقاً مع ابتسامة جذلى، تابع الآغا بحماس:

ـ أي نعم، مولانا، الناس للناس، لأنها إذا خليت خربت، مثل ما قالوا، الله يرحمهم، جماعة قبل، إنت معي، أبو مثقال، لو لا؟

ـ شلون لعاد، آغا، وياك مية بالمية!

وترك الاثنان لبعض الوقت أن يمر، لكي يبدأ بالحديث الجدي.

قال مشهور أبو الهيل، ليقطع الطريق على أية إمكانية للاعتراض:

ـ والجماعة اللي عاونونا، مو بس نشامة وأهل مروة، آغا، وهمين اعتبروها قضيتهم، وقالوا فدوى لعيون الآغا!

ـ بارك الله بيهم، ونحن شلنا على الناس غير مروتهم، ما تقول لي، يا أبو مثقال؟

ـ مو بس هالشكل، آغا، الدنيا مخبوصة، والله العليم أن الباشا ناوي على شر، ومثل ما قال الجماعة: نخلّص القضية اليوم، هالساعة، أحسن، لأن الواحد ما يدري شنو اللي يصير باچر!

ـ يخلف عليهم، مولانا، والله يكثر من أمثالهم!

وساد الصمت من جديد. ابتسم مشهور أكثر من مرة. فرك يديه بحيوية، وتابع:

ـ المهم خلصنا، إذا سارت الأمور على خير!

ـ اي، أبو مثقال، شلون اتفقتم؟ على شنو؟

ـ قلت لهم: المهم بالنسبة إلنا: روح الآغا، صحته وكرامته، وبعدها كل شي رخيص، ما له قيمة. . .

ـ اي. . . مولانا، وبعد؟

ـ تصور، آغا، قالوا لي: لا تروح زايد. صحيح، ونحن معك، روح الآغا بالدنيا، ونريده بصحة زينة، ونريده يقعد ببيته على الشط بالنهار، وينام فوق السطح بالليل وهو أمير، لكن ما نريد جماعة الباشا يطمعون بينا!

رد الآغا بحمية وانفعال:

ـ يخلف عليهم ولازم نقول: الواحد ما يرده إلا حليبه، ولولا أن الجماعة أولاد حلال، أولاد أصل، يجوز تنلاص، يجوز يطالبون بالآلاف!

قال مشهور، وخرجت كلماته بطيئة، لكن موزونة:

ـ لا . . آغا، من هذي الناحية طمّن روحك. الجماعة قالوا: نحن ما نريد، ولو بارة، المهم تخلص القضية على خير!

ـ يا أبو مثقال، آني قلت لك ألف مرة: الدنيا بعد بيها خير، وهذا رأيك، مولانا، مو هالشكل؟

ـ تماماً، آغا، وحمدت ربي ألف مرة، أن القضية راح تخلص هالشكل.

بعد هذه الجولة الطويلة، وبعد الصمت الذي داخله التأمل والفرح وانتهاء الفترة الصعبة، سأل الآغا:

ـ اي... مولانا، شلون اتفقتم؟

ـ الجماعة... قالوا: المسألة تحتاج عشرين.. أقل شوي.. أكثر شوي!

ـ عشرين شنو؟

ـ عشرين ألف.. آغا.

ـ هاي منين نجيبها؟

وبعد قليل، وكأنه يحدث نفسه:

ـ هاي بلوة، هاي منين تنجاب؟

رد مشهور بسرعة وبحسم:

ـ قلت لهم هذا كفر، وهاي فوق طاقة الإنسان، فوق طاقة الآغا، ولازم الواحد يكون بقلبه رحمة، وعنده إنصاف، ويطالب بالممكن، أما إذا راحت الرحمة من القلب، وصارت الفلوس كل شي، فالواحد ينفض إيده..

ـ اي.. وبعد؟

ـ قلت لهم: الآغا ما يدفع إلا عشرة، ولو طلعت بروسكم نخلة ما يدفع أكثر، شنو الدنيا قوترة؟ الدنيا فالتون؟

استراح مشهور قليلاً، ثم أضاف بحزن:

ـ قلت لهم: خلوا الله بقلوبهم، يا جماعة الخير. والآغا لو يقدر كان فتح كيسه وقال لكل محتاج: تعال... أكرف، لكن الرجال على باب الله، وإذا حصّل فد يوم فلسين، فنصها للأيتام والفقرا والمحتاجين، والنص الثاني حتى يعيش بيه الرجّال هو وأهله.

ـ اي، وشلون اتفقت وياهم؟

ـ قلت لهم: حدنا العشرة، فإذا أنتم جاهزين، الآغا جاهز!

ـ اي... وشنو اللي قالوه؟

ـ قالوا: إذا هاي طاقته يمكن نقنع الجماعة!

ـ اي.. وبعد؟

قال مشهور، وهو يبتسم:

ـ قلت لروحي: قبل ما أروح زايد لازم أشاورك، لازم آخذ رأيك وموافقتك!

ـ اي.. وشنو اللي قالوه؟

ـ قالوا: معك ثلاثة أيام، إذا وافق، على خيرة الله، أما إذا قال فلاني وتركاني ترى نحن ما علينا...

وبعد أن مسح مشهور حبات العرق، واضطر أن يخرج منديله من لباسه، أو ربما مسح باللباس، قال، وكان متعباً:

ـ هذا اللي توصلنا له مولانا، وهسه ظلت موافقتكم، رأيكم، حتى نرد الجواب للجماعة!

سقطت دموع غزيرة على وجنتي الآغا درويش، لم تظهر أول الأمر، إذ انسربت إلى لحيته، لكن توالي الدموع، ثم إخراج منديل من الحزام، وكان كبيراً إلى درجة يبدو وكأنه غطاء، وما رافق من طريقة تنفس، أكدت أن الآغا حزين ويشعر بالغبن، وربما القسوة، لكن بعد أن نشف نفسه من الدموع والحزن، قال لمشهور:

ـ انت تمون، يا أبو مثقال.

وبعد قليل:

ـ ولكن ينراد لي كم يوم حتى أدبر المبلغ.

ـ هذا كان شرطي، آغا، قلت لهم: حتى لو وافقنا، لا تأخذونا كراخة، لا تلحوا زايد، لأن الرجّال ينراد له وقت حتى يجمع الفلوس!

ـ اي، وشنو اللي قالوه؟

ـ قالوا: ما يخالف؛ والدنيا ما تخلص بيوم أو اثنين، وبعدين، أولها وتاليها القضية قضية ثقة.

هكذا انتهى الأمر، مع الآغا درويش.

أما الباچه چي، وحين طلب منه المبلغ الذي حدده الباشا، فقد وافق، وافق من المرة الأولى ودون نقاش طويل، فقط طلب أسبوعين لكي يسدد ما طلب منه، خاصة بعد أن رفض عزرا أفندي الموافقة على كمبيالات تدفع كل شهر.

وتم الافراج عن الآغا درويش والباچه چي بضجة كبيرة متعمدة، ليسمع عبدالله بك وليتأكد أن الفدية دفعت.

مر يوم، وعند ضحى اليوم التالي، تناهى لسمع عبدالله بك وقع طبل يقترب. انشدت أعصابه تماماً. اقترب الطبل ورافقه صوت. لم يكن الصوت واضحاً أول الأمر، لكن كلما اقترب تميز وتحدد. أما حين أصبح تحت أسوار القلعة، وخيم الصمت، ثم ارتفع الطبل وتبعه الصوت، فقد عرف عبدالله بك صوت خليل الأعور، منادي الشؤم، كما كان يطلق عليه، وهو يبلغ الناس أن الفرمان الهمايوني قد صدر بصلب العصاة وأصحاب الفتنة، وسوف يرى الناس بأعينهم المصلوبين.

عصر ذلك اليوم، وكان عبدالله بك قد تعب من المناداة ودق الباب، جاءه أخيراً الحارس، وحين طلب منه البك أن يأتيه آمر القلعة أو واحد من السراي، رد الحارس أن الآمر في إجازة، ولا يعرف كيف يتم الوصول إلى رجال السراي، والأفضل أن يؤجل الموضوع إلى يوم أو اثنين، إلى أن يعود الآمر من إجازته!

ولم يتوقف صخب عبدالله بك، ولم تتوقف احتجاجاته، إلى أن جيء له بأحد المسؤولين، وعندما سمع آذان المغرب اكتفى البك بحبة تمر لينهي صيامه. وقبل أن تنتصف تلك الليلة تم الاتفاق على أن يدفع تسعة آلاف كيس، واشترط أن يمهل تسعة أيام، وله الحق إما بدفع ألف كيس كل يوم، أو أن يسلم الأكياس كلها في اليوم الأخير. ووافقت السراي على شرط عبدالله بك، وترك له أن يقرر: الدفع اليومي، أو الدفع في نهاية اليوم التاسع، أيهما يرضيه، وأيهما أكثر راحة له!

16

الموفد الذي أرسله خالد أفندي لتقصي الأوضاع، بعد أن دخل داود باشا بغداد، اتصل بكثيرين وسمع الكثير. ورغم أن أخباره كانت تصل لديوان الباشا كل يوم، ويعرف بمن التقى وما دار من أحاديث، فإن حذراً أقرب إلى التوجس داخل قلب الوالي، ولئلا تفلت الأمور قرر أن يبادر، كما أن الخشية من اسطنبول دفعته لأن يتصل بالأصدقاء، وأن يجزل لهم العطاء، إذ عن هذه الطريقة يمكن أن يدفع غوائل الزمان، أو على الأقل أن يؤخر الحساب!

وإذا كان داود عزم، وقد استقبل القبلة وأقسم، أن لا يكرر أخطاء الولاة الذين سبقوه، فقد عاهد نفسه أن يعتمد على قوته وعلاقاته، لكن دون أن يسلّم مصيره لأحد. ومرت في ذاكرته صور الذين سبقوه، وتجسدت أخطاؤهم: سليمان الصغير فرضه الفرنسيون، لكن في غفلة من الزمن نسوه فانتهى. عبدالله فرضه الإنكليز، وحموه خلال الفترة الأولى، لكن عجز عن إرضائهم فتخلوا عنه، فذهب مثل كلب، وحتى قبراً يدفن فيه لم يجد!

وتذكر سعيد. انفعل وهو يتذكره. كان سعيد في البداية محبوباً. وكان سليمان الكبير مثل خيمة تحميه من الأعداء. حتى الإنكليز وافقوا أن يكون والياً، قالوا نعم، لأن ذلك الكورسيكي، نابليون، أتعبهم، وكانوا يريدون أن يخلصوا منه، ولم يلتفتوا إلى أحد آخر. وسعيد بدل أن يعيد أمجاد أبيه، انشغل بحمادي وأمثاله، وترك الولاية لأولئك البدو الذين لا يحللون

ولا يحرمون، كما لا يفهمون بشؤون الإدارة والحكم، فأتلفوا كل شيء.

وبرقت في ذهن داود صورة خالد أفندي. هل يمكن الاعتماد عليه؟ هل يمكن الوثوق به؟ وكيف يمكن أن ترتب العلاقة مع اسطنبول بأقل قدر من التدخل والإزعاج؟ وهذا السلطان الشاب. . . هل يملك من التجربة والعلم ما يمكّنه من مواجهة التحديات؟

قال داود لنفسه: «أهم شيء الان: كسب الوقت، وترتيب أوضاع الولاية، وهذا يتطلب تحقيق الاستقرار، وبناء الثقة بين اسطنبول وبغداد. ولئلا يشوش ذلك الموفد عقل خالد أفندي، لا بد من أن أبادر بنفسي إلى الاتصال به».

وفجأة وجد نفسه يطلب مجيء كاتبه، ربحي خوجه، ويملي عليه الرسالة التالية:

«حضرة أفندينا المكرم خالد افندي، أيّدكم الله من عنده، ومتعكم بالسؤدد والمجد، وأسبغ عليكم موفور الصحة وراحة البال، آمين.

أما بعد، فإن خير بداية ما قاله الشاعر:

إذا اعتذر الصديق إليك يوماً — من التقصير عذر أخ مُقرّ
فصنه عن عتابك واعف عنه — فإن الصفح شيمة كل حر

بعد السؤال عن طيب خاطركم، ودوام الصحة وراحة البال، أنتم والأهل وجميع الأصدقاء، وكل من بطرفكم، فيسعدني يا حضرة أفندينا، وقد جمعتنا مودة القلوب وقوة الإيمان، أن تكونوا سندنا ولسان حالنا لدى المقامات الشريفة المبجلة في دار السلطنة، دار العز، وحصن المسلمين، وأن تنوبوا عنا في الإبانة أن ولاية بغداد استقر حالها وهدأ بالها، وعاد كل ذي صنعة لصنعته، مع التطمين أن الجهود الحثيثة تتوالى، وبال الناس مستقر، وحصل المقصود بالخير والبركة والرفاه.

أما عربان الفرات فقد وجّهنا إليهم الرسل والمكاتيب، مع الكلام الواضح الصريح، أن من والى الحكومة ولزم حده، وامتنع عن الغزو والتعدي، ووفى ما في ذمته بما فرض عليه، فله الأمان وراحة البال. وعاد

الرسل بكلام الأمن والاطمئنان، وأكدوا أن شيوخ القبائل قالوا السمع والطاعة، وقالوا إن هذا الذي كنا نريده ونتمناه.

لكن هؤلاء البدوان، كما تعرفون يا أفندينا، يقولون ما لا يفعلون، ويعدون لكنهم لا يفون، ومع ذلك ليس في طولة البال خسارة، فهم بالتأكيد سيرجعون إلى الغارة، وعند ذاك سنلقنهم الدرس بحد المدفع والسيف، وسوف ينالون كل ما يستحقونه من حيف، حتى يعرفوا أن الله حق، وأن الدولة تعرف الرأفة لكنها لا تقبل الغفلة، وأنها تمهل لكنها لا تهمل. حامل الرسالة والصوغة، إبراهيم آغا، من لَدُنّا موثوق، وعليه اعتماد كبير. إذا سألته فسوف يجيب، وإذا استفسرته عن أمور كثيرة فإنه لديه ما يكفي ويزيد.

أما بخصوص الأموال المقررة علينا، فإن عزرا كلف أخاه حسقيل أن يوافيكم بالمطلوب، وسوف تتم المحاسبة باليسر وحسن القبول، فكونوا من هذه الناحية كاملي الموثوقية، لأن الحساب غب الطلب.

أما بخصوص المراسلة والجواب، فإن إبراهيم آغا يعرف من التتار نفراً يمكن الاعتماد عليهم، فإذا شئتم سوف يوافونكم إلى حيث تأمرون، وإلى التوقيت الذي يتجاوب مع حسن خاطركم.

جناب عالي المقام خالد أفندي.

لا نرى إلا من الدواعي، ومن حسن الختام، أن تخصوا مولانا السلطان بكل الدعاء والتبجيل والتكريم، سائلين المولى، جلت قدرته، أن يديم عزه ونصره، وأن يجعله لكل المسلمين ذخراً وفخراً، وأن يكون دعاؤنا مقبولاً، ورجاؤنا محموداً، ومرضاتنا من عنده في الدنيا والآخرة، اللهم اقبل وانعم، إنك السميع المجيب، آمين».

كان داود باشا يريد أن يكتب أشياء أخرى كثيرة، وكان يريد أن يضيف بعض الأشعار، وفكّر لو كتب بخط يده، لكن وجد أن هذه الطريقة أسلم وآمن، فاسطنبول التي تسمع كثيراً، لا تصدق إلا القليل، إذ ينتابها، غالب الأحيان، الشك ثم الوسواس، وتسيطر عليها المخاوف، فهي تعرف أن

أكثر ما ينقل إليها ليس صدقاً كله، ولذلك تتحرى بطرق لا تخلو من تحد ودهاء، وهي تريد أن تطّلع لتتأكد، فتلجأ إلى المقارنة والتدقيق، وتبعث بالموفدين والمحاسبين لتقطع الشك باليقين. وهؤلاء الذين يتظاهرون بالتصديق، ممتلئون بالشك، ولا تعني لهم الكلمات التي يسمعونها الكثير، ولذلك يتحرون عن كل شيء، ويقضون الشهور وهم ينقبون ويبحثون.

إذا وصل الأمر إلى درجة الشك، فعندئذ لا بد لمن ينكر أن يثبت قوله، وعليه أن يخرج الرسائل التي وصلت إليه من قبل، فإذا تبين أن رسالة اختلفت عن أخرى من حيث الخط أو المداد أو ديباجة الكلام، خاصة في البداية أو الختام، فعنذاك يتبرع الكثيرون لإثبات اختلاف الخط عن الخط، والمداد عن آخر. أما الديباجة التي ترفع إلى شيخ الإسلام فتطلب رأياً فيما اختلف عليه، وكثيراً ما أدى الرأي إلى انتزاع الرأس من بين الكتفين، أو إلى المنافي التي لا يعود منها أحد.

يتذكر داود باشا ما قاله خالد أفندي في أحد اللقاءات الأخيرة:

ـ اسطنبول تشك بكل شيء، وتعتبر المرء مذنباً حتى تثبت براءته...

وشابت وجهه صرامة:

ـ أخذ جانب الحذر أسلم، واعتبار الشك هو الأساس آمن وأضمن!

ولأن ذلك اللقاء كان حميماً، وكان بينهما فقط، فقد أضاف خالد أفندي:

ـ حتى الخدم، وهم يلبون ما يطلب منهم، لا يكتفون بما سمعوا، ينظرون إلى الشفاه ليتثبتوا، وتظل الرجفة تلازمهم حتى اللحظة التي يتأكد فيها الطالب أنهم فعلوا ما أراد.

لم يكن داود باشا بحاجة إلى مثل هذا الكلام، فهو يعرفه مثل خالد أفندي، أو ربما أحسن منه، لكن الفرق أن خالد أفندي الآن في اسطنبول ويعرف أدق التفاصيل التي تجري هناك، ولا بد لداود أن يستفيد من هذه المعرفة، وأن يستوعب هذا الدرس دون أن يدفع ثمنه.

وإذ شعر داود ببعض الغضاضة لأنه لم يكتب بخط يده لصديقه، فقد اعتبر أن في ذلك حماية للطرفين، وهذا ما دفعه إلى مضاعفة الهدية، «فالكلمات، كما قال لنفسه وهو يأمر بإضافة اثنين من الخيول الكريمة، لا تكفي، لأنها في أحيان كثيرة تشبه الضحكات الصاخبة، إذ ليست دائماً تعبيراً عن الفرح، فهي تنتهي بسرعة، أما الخيول، أما الذهب، وما يشابهها من الأشياء الثمينة، فإنها تبقى، ولا تتأثر باللحظة، وما تعجز عنه الكلمات تعوضه الهدايا، وهذه من السهل تقدير قيمتها، كما من المحتمل أن تزيد هذه القيمة بمرور الزمن!».

حين سرح الباشا إلى ذكريات وأماكن بعيدة، انتبه فجأة أن ربحي خوجه ما زال يمسك بالقصبة، ومستعداً لمتابعة الكتابة، قال له، وكان يبتسم.

ـ عندما يمن الله علينا بالوقت وراحة البال، أريدك أن تعلمني خط النسخ!

رد ربحي بانفعال:

ـ جلسة أو اثنتان، يا أفندينا، تكفي لأن تكتب بالتجويد المطلوب، والأمر متروك لفخامتكم، ونحن جاهزون.

ـ المهم، يا ربحي، أن يكون الإنسان صافي البال!

ما إن بدأ الحديث في موضوع يعتبره ربحي هاماً، وهو إنشاء مدرسة لتعليم الخط، ومدى الفائدة من ذلك، حتى قال الباشا.

ـ إذا بدأنا بإقامة الجوامع يكون الخط ومدرسة الخط من أول اهتماماتنا، فذكرني بالأمر يا ربحي، لأن من الضروري أن ننقش على بيوت الله خطوطاً جميلة، وأن تبقى لمئات السنين.

ـ إلى الله أتضرع، يا أفندينا، أن يقدرك، وأن يمد بعمرك، لتكون سنداً وذخراً، لأن الخط الجميل، يا أفندينا، يفرح القلب ويصقل النظر، كما يفتح باباً للجنة، ويقول للذين سيأتون من بعدنا: لقد أقام الوالي داود هذا، وبنى ذاك، ورمم وأضاف لتصبح بيوت الرحمان جنة الأرض وطريقاً لجنة الخلد!

وكاد ربحي يضيف أشياء أخرى، لكن الباشا الذي امتلأ وجهه بالبشاشة قاطعه، وكأنه يحدث نفسه:

ـ لا تنسَ يا ربحي أن تذكرني وتلح في التذكير حين نبدأ ببناء المساجد والمقامات والزوايا.

ـ بأي شيء تريدني أن أذكرك، يا أفندينا؟

هكذا سأل ربحي، وكان مسروراً بادي اللهفة، لأن الباشا استجاب لما كان يفكر فيه.

رد الباشا، وبدا صوته عميقاً:

ـ كيف يجب أن يكتب اسم الذي بنى مسجداً يصلي فيه المسلمون، والمقام الذي يضم رفات صحابي أو واحداً من السلالة الشريفة. . .

توقف، نظر إلى ربحي بعيون قلقة، وبعد لحظات صمت، أضاف بحزن:

ـ وكيف يجب أن يكتب على ضريح أحد الولاة!

وغص بكلماته الأخيرة، ربما لانه تمثّل له القبر الذي سيدفن فيه، لكنه تابع كأنه يكلم نفسه:

ـ صحيح أن حساب يوم القيامة يساوي بين الجميع، والناس عند الله سواسية، لكن من خفت موازينه فكتابه بشماله، ومن ثقلت موازينه فكتابه بيمينه. . .

وغيّر الباشا جلسته، فتغير صوته

ـ خير القبور الدوارس. . ومع ذلك يجب أن يحترم الإنسان في حياته وموته، وما القبر إلا رمز لهذا الاحترام، ولذلك يجب أن يكون واضحاً، محمياً، لكن دون مبالغة.

توقف لحظة، وقد شعر أنه ذهب بعيداً، تنحنح ثم تابع:

ـ المهم أن لا ينسى الإنسان آخرته، ولا بد ان يتذكر: وراء كل حياة موت، وما يفيد الإنسان إلا ما سعى، والسعي هو الذي يشفع ويوسع القبر ويخفف الحساب ويقود إلى الجنة.

قال ربحي بمسكنة:

ـ الحق ما تقول يا أفندينا، لكن المرء هو الذي يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً!

وحين وجد رضا في وجه الباشا، أضاف وقد استبشر:

ـ والفرق كبير بين من يصرف عمره في الإحسان وعمل الخيرات ومَن يضيّعه سُدى..

ولم يتابع في نفس الاتجاه، فقد وجد أن الاتجاه الآخر أكثر أمناً وسلامة:

ـ إنْ تدوين عمل الخيرات، يا أفندينا، والاشادة بالذين قاموا بها، يشجع الناس على عمل الخير، لأن كسب الإنسان في هذه الحياة زائل ولا يفيده إلا الذكر الحسن.

رد الباشا، وجاء صوته صلباً:

ـ أنوي إشادة جوامع كثيرة، يا ربحي، وأنوي ترميم الأضرحة، وإقامة الزوايا، ولا بد أن يذكر على تلك الأبنية لماذا بنيت، ومن يرقد فيها ومن بناها، حتى تجعل الناس يقدرون أولياءهم وبركاتهم، فتكال لهم الأدعية وتلهج بذكرهم الركبان.

ـ هذا ما يتوقعه الناس منك يا أفندينا، وسوف يتذكرون ذلك جيلاً بعد جيل، ويقولون: اللهم أحسِن لمن أحسَن للمسلمين؛ اللهم بارك بالذين يقضون الليل تهجداً بذكرك، ولا يغمض لهم جفن وهم يسبحون بآلائك، اللهم جازهم في الدنيا والآخرة...

وأشار إليه الباشا بيده أن يتوقف، فقد امتلأ تلك اللحظة بالشجن والتذكر والخشوع.

وحين خيّم صمت طويل، وامتدت سكينة واسعة، شعر ربحي أن عليه الانسحاب. تحرك أكثر من مرة، ولما انتبه إليه الباشا، قال بصوت مسكين وهو يستأذن:

ـ أترك أفندينا، إذا أذن لي، في تبتله وخشوعه، وأنا رهن إشارته في

كل وقت وفي كل آن.

رد الباشا، وهو يأذن له، دون أن يرفع إليه عينيه، وخرج صوته بعيداً:

ـ بارك الله فيك، واللهم قونا على فعل الخير!

أما حين خرج الباشا إلى الشرفة التي تقود إلى الحديقة المطلة على النهر، فقد رأى فيروز، وكأن غريزة خفية قادته لكي ينتظره هناك. ابتسم له. نظر إلى ماء دجلة فرآه معتكراً. قال في نفسه: «شعب هذه الولاية كمياه النهر يعتكر لفترة ثم يصفو» وتذكر ما قيل في ناس هذا البلد، قالوا فيه أكثر مما قاله مالك في الخمرة. قالوا فيه شعراً ونثراً، لكنه يبقى وحده الرهان. رفع رأسه، وكانت حمرة أول المساء، تمتد بتدرج أخّاذ، وقد تجمعت فيها كل الألوان.

بانفعال قال كمن يحدّث نفسه بصوت عالٍ:

ـ أقول، وهذا الغروب يشهد على قولي هذا، سوف يفعل داود ما لم يفعله غيره، سيفعل ما عجز عنه الأقدمون والولاة الآخرون، وسيلهج الناس، حتى بعد مئات السنين، بما سأفعل، واشهد أيها الغروب على ما أقول.

وفيروز الذي انفعل نتيجة انفعال سيده، سأل بلهفة:

ـ هل يطلب سيدي مني أي شيء؟

ـ كل ما أطلبه يا فيروز أن يمد الله بحياتي، وأن تكون أنت إلى جانبي.

هكذا رد داود، وكان يواصل التمشي في الحديقة، وفيروز بعيد وقريب منه في آن واحد.

ثمّ تابع بنفس نبرة الصوت:

ـ سبحانه هو الذي يؤتي الملك من يشاء، وهو الذي يعز من يشاء، وهو . . .

والتفت إلى فيروز قبل أن يكمل العبارة، وقال بانفعال:

ـ كلفني عز وجل أن أفعل شيئاً لم يسبقني إليه أحد، وبمشيئته سوف أفعل . . .

كان فيروز يهز رأسه بحمية وانتظام دلالة الموافقة المشفوعة بالتضرع أن يستجيب الله لكل ما يقوله الباشا. واستطرد داود كأنه يعلن عهداً لا رجعة فيه:

- إذا شاءت إرادته لا بد أن يصبح داود سيد البر والبحر، ومثلما سيرضي الله سيرضي العباد، وكل ما أريده منك، يا فيروز، أن ترفع يديك إلى السماء وتقول: اللهم استجب. اللهم اقبل وشد الأزر وحقق المنى، فأنت القوة والسند، وأنت الحامي والعمد، وأنت في البداية والمنتهى، فاستجب يا رب العالمين.

كان فيروز رافعاً يديه بتضرع وكان يتمتم وراء الباشا، لكن الكلمات كانت تتداخل وتضطرب، وخيَّم المساء.

17

قبيل تنفيذ الإعدام بأيام قليلة أمر داود باشا أن تسحب من مخازن القوات العسكرية كميات كبيرة من المؤن، وأن تطرح في الأسواق. وأوفد عدداً من رجاله، يرافقهم بعض التجار، إلى البصرة والموصل وماردين وحلب، وإلى مدن أخرى، من أجل شراء كميات من المواد الضرورية والإسراع بشحنها إلى بغداد، كما بعث بهدية إلى القنصل الإنكليزي تعبيراً عن الود، أو ربما للاعتذار عن التأخر باستقباله، وقيل كي يأمر القنصل الشركات الإنكليزية في البصرة بسرعة توريد المواد!

قال داود باشا لعزرا، وكان صوته حازماً ولا يخلو من تحذير:

ـ . . . وتقول للتجار، ولأهل السوق: اللي يزيد الأسعار بارة عن الأسعار التي حددتها الحكومة، ما يلوم إلا روحه. . .

وبعد قليل، وقد قسَتْ ملامح وجهه:

ـ وإذا أحد منهم ما يفهم بعقله راح عيونه تفهمه عندما يشوف الجماعة مصلوبين.

وإذا كان اليوم الأول مر دون حركة كبيرة في السوق، فلأن الشك استولى على الباعة والمشترين معاً، فالباعة إذا كانوا مستعدين للبيع بالأسعار التي حددتها الحكومة، فإن هذا يقتصر على المواد التي تسلم إليهم فقط، لأنه يصعب عليهم بيع ما لديهم من مواد بخسارة. أما المشترون، وبعد أن فوجئوا بهبوط الأسعار، فقد توقعوا هبوطاً أكبر، لذلك لم يكونوا في عجلة من أمرهم، إذ يمكن أن ينتظروا أياماً أخرى.

أما بعد أن خرج المنادون، تسبقهم وتمهد لما سيقولون الطبول، فقد زفوا البشائر للناس، والتحذير لمن يخالف أسعار الحكومة بالبيع والشراء، ولم ينسوا أن يرفعوا الدعاء للوالي داود، وكانوا يرددون في نهاية النداء عبارة بذاتها: «وأُعذر من أَنذر»، وقد انتقلت العبارة بسرعة البرق إلى الصبية، إذ أخذوا يرددونها على شكل أهزوجة تسبقها كلمات وتلحق بها أخرى، دون أن يدركوا معناها بدقة!

حين وصلت الأخبار إلى قهوة الشط، بما فيها الهدية التي بعث بها الباشا إلى القنصل، وقيل إنها كانت عبارة عن ثلاثة رؤوس من أجود الخيول، مع تلك العبارة، أعذر من أنذر، فقد قال الأسطة عواد لعبدالله غبيشان، وفهم من كلامه ما يشبه التعريض:

- إلحق وبيع خيلك يا عبدالله، لأن الباشا فتح الطوايل، ومثل ما دز عشر روس للباليوز، وترس السوق دهن وطحين، فيعلم الله أنه راح يركِّب كل الناس خيول. . .

وضحك الأسطة، أصبحت ضحكته قهقهة، وهو يضيف:

- وقد أعذر من أنذر.

وبعد أن هز عبدالله غبيشان رأسه مرات عديدة، تعبيراً عن العجب مما يجري حوله، قال الأسطة:

- اللهم إجعل آخر هالضحك خير!

وبعد قليل:

- قلبي يقول لي، يا عبدالله، بعد ما طلع لنا هذا الأشيقر ما أعرف شلون، أن الدنيا مو راهمة، مو عدلة، والله أعلم أن والينا مبيت سالفة!

ومع أن البيع زاد في اليوم الثاني، ثم في الأيام التي تلته، وقال التجار لأنفسهم: خسارة هذا بربح ذاك، فإن اليوم الرابع كان غريباً، وخلافاً لما توقعه الكثيرون.

لقد نفذ داود باشا حكم الإعدام بعدد من رجال سعيد .

وجاء العيد ثقيلاً، ويختلف عن الأعياد في سنين أخرى.

ثم فجأة بدأ التساؤل من جديد: هل حان وقت زيارة القنصل للسراي؟

لا يعرف من طرح السؤال أولاً أو كيف، لكن لم يبق أحد إلا وكان له رأي، بل وأصبح موضع جدل واختلاف.

بضعة أيام، وهي الأيام الأخيرة التي أعقبت العيد مباشرة، وإلى أن حان يوم الخميس، والسؤال: متى سيقوم قنصل إنكلترا بزيارة الباشا؟

ظل هذا السؤال هاجساً، ولا يخلو من مخاوف، لأن «القنصل، كما قال الكثيرون، لا يتحرك إلا إذا ميَّز الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فإذا تقدم أو تأخر فإن وراء ذلك سبباً».

لم يترك رجال الباشا لمثل هذه التساؤلات أن تستمر أو أن تسيطر، فقد سربوا أخباراً أن «الباشا لا يريد رؤية الأجانب الكفرة إلا بعد انتهاء أيام العبادة» ولا يضيفون تحديداً أو توقيتاً.

فإذا أبدى أحد استغرابه، وقال إن الأمر لا يتعلق بالكفر والإيمان، فالباشا لم يستقبل أيضاً قنصل إيران المسلم، يرد رجال الباشا بتعال وفخامة:

ـ لا تقلقوا. . . سيأتي وقت القناصل!

وحين يرون عدم الارتياح على الوجوه يضيفون.

ـ سوف يجد الباشا الوقت الذي يعتبره مناسباً لاستقبال هؤلاء القناصل، أما الآن فهناك ما هو أهم من هذه القضايا الصغيرة!

واستمر التساؤل. . . وطال الانتظار

ورغم أن موعد استقبال قنصل إنكلترا كان قد تحدد، فإن الخبر لم يتسرب من السراي، وإنما أعلنه رجال القنصل. كانوا يذيعون الخبر أينما ذهبوا. ورغم أن بعض رجال السراي نفى أن يكون الموعد الخميس «لأن الباشا سيكون ذلك اليوم في سلمان باك لزيارة ضريح الصحابي سلمان الفارسي» فإن رجال القنصل عادوا للتأكيد اكثر من قبل على ان الموعد تحدد بشكل نهائي، «وعند الحادية عشرة سيتوجه القنصل إلى السراي،

وسيكون الباشا في استقباله. أما الموكب فسيكون أعظم من جميع المواكب التي شهدتها بغداد من قبل».

حرب صامتة بين الطرفين، لم تهدأ ولم تتوقف طوال الفترة بين إعلان الخبر وانتظار يوم الخميس الموعود. كان أكثر الناس يترقبون، رغم الحزن والهموم وأعباء الحياة، لأن على ضوء ذلك ستتحدد أمور كثيرة.

حتى النسوة اللواتي سعدن باستقبال داود باشا، راودتهن الرغبة في أن يشهدن موكب القنصل وهو يخترق شوارع المدينة في طريقه إلى السراي. وحين قابل الرجال هذه الرغبة بالرفض الممزوج بالاحتقار، كان رد بعض النسوة: «المسألة كلها لا بالبال ولا بالخاطر، والروحة بالأصل لسلمان باك، لكن أنتم ردتم تشوفوا الباليوز...» وأضافت عدة نسوة: «هذا الزغطوط ما يسوى ظفره لحلاق الرسول، وشنو اللي جاب لجاب؟» ومع ذلك استمر رفض الرجال حاسماً، واعتبرت النسوة أن الأمر ليس بذي بال.

وجاء يوم الخميس.

كان الجو، ذلك اليوم، مقبولاً، رغم الحرارة والتقلبات التي حصلت في الأيام الأخيرة. رائحة القداح تعبق وتملأ أنحاء المدينة. أما أشجار الحمضيات، التي اغتسلت بأمطار مفاجئة، فبدت لامعة، نضرة، وأكثر خضرة من المعتاد. حتى طيور الحمام التي أخذت تحوّم في الفضاء أسراباً، فكانت أقرب إلى الغيوم الصغيرة وهي تتشكل وتتمزق لحظة بعد أخرى.

قال نجدت أبو خيط، أحد أبرز كشاشي الحمام في محلة الميدان:

ـ الله... الله يا دنيا...

قال ذلك، وهو يتلفت في أنحاء السماء، يراقب أسراب الحمام التي بدت أكثر من الأيام العادية. وحين تنبه الناس لكلماته، تابع، وكان يوزع نظراته وحركات يديه بين الأرض والسماء:

ـ حتى رب العالمين، بهذا اليوم، قال لكل ما خلق: تونسوا، فكوا

لبسانكم وخيلوا!

وأخذ يصيح بطريقة فرحة وهو يشير إلى سرب حمام قريب:

ـ أي.. عيني... سوادي: اقمط! وانت أي... إنت، بغدادي فوق الوردانية! وأنت مكاوي: إلزم زين، دير بالك، لا تهدها، وراها وراها للوحة!

وحين وجد الفرح والتأييد في وجوه بعض الذين حوله، وكي يستفز المتحفظين، قال بتحد:

ـ شبيكم؟ ليش تباوعون عليّ هالشكل؟ باوعوا فوق، شوفوا شلون الدنيا مقلوبة، كل واحد مخيل على وحدة، وكل وحدة تقول: فدوة لعيونك!

تدخل أحد الموجودين، وكان يتكلم بكل جسده:

ـ لك نجودي... الدنيا مو بس مقلوبة فوق، فوق وجوا: باوع واشتمّ، ريحة القداح تفك الصدر، وشوفة الحبيب تبلّ الظهر، والطير فوق الطير تحل من الأسر، والزر جوا الزر تخلص من القبر، فقول: الله!

وتردد أكثر من صوت، وبحرقة:

ـ الله رب السماوات والأرض، سبحان ما خلق!

قال واحد من بعيد حين هدأت الضجة:

ـ سبحانه... بوجوهنا مدلغم، وكل يوم كفخة أو زلقة، ومع أصحاب العيون الزرق: وردة وخزامة، ومع كل خطوة يقول: الله واسم الله!

وحين بدا كلامه مستغرباً، أضاف:

ـ قبل أيام كنا غارقين بالوحلة. اليوم، وعلى قُصة أبو عيون الزرق: شمسة وريحة قداح، وطيور طايرة بالسما، والأسعار نزلت همين، وما ينعرف بعد... شكو!

قال واحد، سُمع صوته لكن لم يميز بدقة:

ـ على نياتكم ترزقون!

رد آخر:

- إنه قريب ومجيب للدعاء.

هكذا كانت تدور الأحاديث والتعليقات بين الذين جاءوا مبكرين انتظاراً لموكب القنصل. كانوا يفعلون ذلك لتزجية الوقت، لخلق جو من المرح، وربما أيضاً لمقاومة الخوف الذي تسرب إلى الكثيرين نتيجة ما أشاعه رجال السراي. إذ بالإضافة إلى ما قالوه وأكدوه في الأيام السابقة، إن الباشا سيكون في سلمان باك ذلك اليوم، وإنه لن يستقبل القنصل، فقد مر رجال الباشا هذا الصباح أيضاً وقالوا للجموع التي كانت تنتظر: «إذا ما رحتم لسلمان باك راح عليكم الأول والتالي».

كانت كلماتهم واثقة، ووجوههم أكثر صرامة من المعتاد، كل ذلك لتأكيد ما يقولون. وما ان يمضي رجال الباشا حتى تصل موجة من رجال الباليوز: «الطبل، يا جماعة الخير، ما يندق جوا البساط؛ بآذانكم سمعتم طوب الباليوز، وبعد ساعة تشوفون القنصل بعيونكم» ويعلق واحد من الجموع:

- بعد ساعة تطلع الشمس على الحرامية، ويبين الصادق من الچذاب!

وأهل بغداد لم يتعودوا أبداً على صدق الحاكم، فكيف إذا كان الذين يتكلمون باسمه اليوم هم نفس الرجال الذين تكلموا باسم سعيد، باسم التوتونجي، وظلوا يتكلمون بنفس الوثوق والحماس؟

وانشغل الناس بأحاديث جانبية انتظاراً للساعة الحادية عشرة.

وإذا كان الكثيرون قد رأوا موكب القنصل من قبل، فإن الرغبة، هذه المرة، تفوق أية مرة سبقتها، إذ من خلال مراقبة الوجوه والتصرفات، ومقارنة موكب اليوم، ثم الوقت الذي ستستغرقه الزيارة، وأمور أخرى مشابهة، بأيام سابقة يمكن أن يستنتجوا الكثير!

قبيل الحادية عشرة بقليل، سمع وقع الطبول. خيم صمت ثقيل. نظر الناس إلى بعضهم، وكانت هذه أول إشارة على كذب رجال الباشا. كان وقع الطبول، في البداية، بعيداً، ثم ما لبث أن أخذ بالاقتراب. وشيئاً فشيئاً امتزج بأصوات آلات النفخ والآلات النحاسية. وعلى جانبي الفرقة

الموسيقية. ويتقدمها رجال القنصل يوسعون الطريق، ويشكلون سوراً يتيح أكبر قدر من الحرية لأفراد الفرقة الموسيقية لكي يجودوا ويعطوا أفضل ما يستطيعون، وعلى مسافة منتظمة وثابتة من الفرقة، كان الخيالة وعدد كبير من الحرس، وقد شقوا خطين مستقيمين، كأنه درب داخل الدرب، وإن بدا أكثر ضيقاً. وبعد خطوات كان القنصل.

كان القنصل في المقدمة، وعلى مسافة منه، من الجانبين: كبير ضباط المقيمية، جهة اليسار، ونائب القنصل جهة اليمين. ووراءهم بخطوات قليلة عدد من المساعدين والتراجمة، ثم خلف الجميع طوق من الحراس يشكل حماية للموكب كله.

الجميع على خيول باذخة من ناحية المظهر والصحة والنظافة، وقد زينت بأسرجة وأرسان جميلة لامعة، وكانت الخيول من حيث الطاعة وسرعة الاستجابة شيئاً عجباً لم ير أهل بغداد خيولاً مثلها، بل وأكد الكثيرون أن الخيول كانت تسير على وقع الطبول، إذ ترفع أرجلها وتضعها بنظام شديد الدقة بالغ الصرامة، حتى ليظن من يراها أنه يرى بشراً مدربين على الطاعة والانتظام!

القنصل وسط هذه المجموعة مختلف ومميز، من حيث الشكل والملابس والموقع. ورغم اختلافه وتميُّزه كان منسجماً ومتكاملاً مع المجموعة كلها، بل وكان من الضروري أن يكون هكذا، لكي يبدو كل شيء بهذا الجمال وبتلك الروعة.

خلف هذا الموكب، موكب آخر، من رعاع المدينة وبهاليلها والمتسولين والعاطلين عن العمل والصبية. كان هؤلاء يصفقون ويهزجون، وكانوا يتبادلون النكات ويصرخون وينادي بعضهم بعضاً، كما لا يكفون عن توزيع التحيات على الذين اصطفوا على جانبي الطريق. ولولا الحراسة الشديدة التي أحاطت بالموكب، لأفسد هؤلاء الرعاع كل شيء. لكن أصوات الطبول والآلات النحاسية، ووقع حوافر الخيل، وذلك الصمت الذي غطى الواقفين على الرصيفين أثناء مرور القنصل، أعطى كل ذلك

طابعاً من المهابة والقوة، جعل الكثيرين يهزون رؤوسهم عجباً.

الناس الذين اصطفوا على الجانبين أثناء مرور الموكب، كانوا محايدين، يرقبون كل شيء بانتباه وبصمت، لئلا يفوتهم تصرف أو تخفى عليهم حركة. وإذا كانت الأنظار قد انشدّت أول الأمر إلى الفرقة الموسيقية، ثم إلى الحرس، فإن اقتراب القنصل جذب كل الأنظار، وفوّت على الكثيرين الانتباه إلى الذين يحيطون به، ثم إلى المرافقين خلفه.

ولأن الناس يحبون الاختلاف، ويلتذون بالمشاكسة، ولكل إنسان طريقته في رؤية الأشياء، وله تقييمه الخاص أيضاً، فإن كل مشهد في ذلك اليوم، كل حركة، كان موضوع تعليق واختلاف.

بعد أن وصلت الأخبار إلى قهوة الشط، قال عبدالله غبيشان:

ـ عرس واوية؛ دنابك وكدش، عجم وهنود، وكأنه طهور ابن مهيد. مو بس هالشكل، وين اكو شلاتية ببغداد كانوا وراهم يصفقون ويرقصون، والناس تباوع وتقول: سبحانه.. يعطي الحلاوة للي ما عنده سنون!

رد عليه الأسطة إسماعيل، في محاولة لاستفزازه:

ـ على كيفك يا معود، كل اللي شافوا الموكب قالوا: عبالك موكب السلطان: مزامير وطبول، مزيقا وقياطين ونياشين... هاي وين تلقى مثلها بغداد؟

ـ خلينا من هذا الكلام، أبو حقي، كلها قشمرة، وضحك على الناس!

ـ شلون قشمرة، مولانا، إذا رجال الوالي تلقوه من راس الجادة، وكل واحد: تفضل مولانا، تفضل آغاتي، وفوقها بخور وزهور وما يندرى بعد شنو!

احتد عبدالله غبيشان، والذي كان متحمساً لداود منذ البداية:

ـ لعلمك... آغاتي: الباشا ما قام من مكانه لما وصل القنصل، وبإصبعه شاور، ما معناه: اقعد. لا مد ايده ولا سلّم. حتى مباوعة ما باوعه. ظل الباشا يسولف ويّا جماعته، وبعد ما خلص واستراح التفت وقال للترجمان: ترجم: الباشا يقول لك أهلاً، وأنت ضيفنا، والضيف

لازم يكون مؤدب، وإذا صار لك حاجة راجعنا، وسكت!

رد الأسطة إسماعيل، في محاولة استفزاز جديدة:

ـ بابا، أنت تعرف، وكل الناس تعرف، الأشيقر، أبو الباليوز، لبلبان بالعربي، وما ينراد بينه وبين الوالي ترجمان، منين جبت قصة هذا اللي قعد وسطاني، ما تقول لي؟

ولأن عبدالله غبيشان ارتبك، إذ لم يعرف كيف يجيب، فقد تدخل الحاج شبلي:

ـ لا تروحوا زايد، يا جماعة الخير، وما لازم تفتهموا كلامي على أنه دفاع عن القنصل، معاذ الله، بس الرجّال أخذ موعد من الباشا، والباشا قال له تعال بفلان يوم بفلان ساعة، والقنصل جا باليوم وبالساعة، والضيف مثل الدخيل، اذا طب بالبيت صار مثل صاحب البيت وأزيد؛ فلا يعقل أن الباشا ظل منجعي، يسولف ويضحك، وزابل الرجال. . . هذا ما يصير، وأي واحد ما يساويها.

سأل عبدالله بسخرية مبطنة:

ـ چنت بالمجلس حجي؟ شفت بعينك؟

ـ الله بالعين ما نشاف، قال الحاج شبلي بعصبية، لكن بالعقل انعرف، لو آني غلطان؟

ـ عفوا حجي، أجاب عبدالله، بس هذا اللي سمعته، ومن مصادر تعرف كلش زين!

ـ من واحد من جماعة الباشا، مو هالشكل؟

هكذا تساءل الأسطة إسماعيل، في محاولة جديدة للمناكدة. فرد عبدالله، موجهاً الكلام للجميع:

ـ يرحم والديكم لا تحرجوني، ولا تسألوا منو!

قال الأسطة عواد، وكأنه يكلم نفسه:

ـ داود باشا غير سعيد، غير اللي جوا قبله، هذا باشا من صدق، والكلام اللي انقال، إذا صار كله، أو شي منه، يرفع الراس، لأن الله العليم

أبو الباليوز حافر له حفرة ويريد يوقعه بيها، ولازم أحد يوقف بوجهه!

قال الحاج شبلي وهو ينهض ليذهب إلى قهوة الكمرك، علّه هناك يسمع المزيد من الأخبار.

ـ نريد نصدق. . . لكن. . .

وتابع وهو يمشي:

ـ عند العبرة يبين منو عنده قوة، ومنو صباغ سليم!

18

بعد أن أنجز الباشا المهمات العاجلة، بدأ باستقبال الوفود.

التقى أولاً بكبار رجال الدين، ولأن هؤلاء يعرفونه أكثر من غيرهم، فقد كانوا، أغلب الوقت، مستمعين. في هذا اللقاء تحدث الباشا بكثير من الوجد والانفعال عن الآخرة، وقال إنه يراها رؤية العين. كما تحدث عن يوم القيامة والحساب، وعن الجنة والنار، وكيف أن الحسنات والسيئات توزن بالعدل، وأن الإنسان وما سعى، والله، جلت قدرته، لا يغفل عن شيء، حتى النملة التي تدب في زاوية مظلمة من هذه الأرض، يحصي، سبحانه، حركتها ويوفر لها رزقها، وأن الموعظة الحسنة بعشرة أمثالها.

وقبل أن ينتهي هذا اللقاء، أكّد الباشا أن رجال الدين هم الصفوة المختارة وعليهم الاعتماد في هداية الناس، وإرشادهم سواء السبيل. ثم أمر أن تقدم لهم الخلع، عربوناً للثقة، وأن لقاءات كثيرة ستجمعه بهم للاستفادة من نصحهم واجتهادهم.

ومثلما استقبل الباشا رجال الدين استقبل الوجهاء، وقد تبسط معهم كثيراً، وكان بادي الود والبشاشة. وبعد أحاديث قصيرة عن أخبار الناس وأحوالهم، أصبح حديث الذكريات هو الطاغي، مما كسر التهيب وأفسح مجالاً واسعاً للعواطف أن تفيض والقلوب أن تلتقي وتتقارب، الأمر الذي جعل الكثيرين يلومون أنفسهم أنهم أساءوا الظن بهذا الرجل، أو ظلوا بعيدين عنه، رغم ما يتصف به من طيبة ومقدرة وحب الخير، عدا عن طلاقة اللسان، والدقة في اختيار الكلمات والأمثال والحوادث، كل ذلك

دون تكلف، وبطريقة متواضعة أقرب إلى السحر.

وفي ليال أخرى عديدة التقى الباشا برهط من شعراء المدينة وأدبائها، وقد سبق له أن تعرف على بعضهم، وكانت تربطه بهم صلات مودة وثقة. وفي تلك الليالي طال السهر وامتد، حتى قيل إنه استمر في إحدى الليالي حتى الصباح. وأكد أحد العاملين في ديوان الباشا، أن الوالي وضيوفه بعد اللقاء الأول صلوا الصبح في جامع السراي، ثم دعاهم إلى مائدته. ومع تعدد أنواع الطعام، إلا أن الباچه كانت الوجبة الأساسية، بحيث أصبحت تلك الليلة، اذا ذُكرت، تذكر «بليلة الباچه»! أما وهو يودع ضيوفه، وحين سمع كلمات الثناء على اللقاء والطعام، فقد قال بنوع من الدعابة:

ـ مثلما مات سيبويه وفي نفسه شيء من حتى، فإن البغدادي يموت وفي نفسه شيء من الباچه!

ولقد ضحك الشعراء والأدباء كثيراً لدعابة الوالي، وتم نقلها، مع تحويرات كثيرة، وبمرح، إلى الأصدقاء والمعارف!

وإذا كان قد عرف عن الباشا طول الباع في امور الدين، إضافة إلى التقى والورع، فقد فاجأ الكثيرين في ليالي الشعر بما كان يحفظه من الشواهد الهامة، وما يماثلها بالفارسية والتركية. وقيل إنه روى مقطوعات عديدة، ولما سئل عن قائل تلك المقطوعات رد بأنه لا يتذكر، وأرفق الرد بابتسامة خجولة، مما أكد أنها من نظمه، وأنه قائلها، لكنه، تواضعاً، وربما خشية من هذا الجمع المهيب، لم يشأ أن ينسبها إلى نفسه! ومما يعزز مثل هذا الاعتقاد أن الأشعار التي رواها كان يشفعها، حتى دون أن يُسأل، باسم قائليها وببعض التفاصيل الإضافية التي تؤكد أن مثله لا ينسى!

وفي هذا اللقاء لم يغفل الباشا عن الإشارة، وإن كانت إشارة سريعة، إلى أهمية الشعر ودور الشعراء، إذ قال في لحظة انفعال:

ـ إن الشعراء هم لسان الحق.

ثم أضاف بحمية حين رأى رؤوس الذين يخاطبهم تهتز موافقة:

ـ إن الشعراء هم الذين يعبرون عما يجيش في الصدور وما تخفي

القلوب وهم الذين يرون أكثر من غيرهم وقبل غيرهم.

ثم أكد على ضرورة أن يهتم أولو الأمر بما يقوله الشعراء، لأنهم بمقدار ما ينقلون أفكار الناس ورغباتهم، فإنهم قادرون أيضاً على إظهار ما يصنعه الحكام، وخاصة السلطان، فالسلطان لا ينسى وقلّما يسهو، لكن للحياة ضروراتها وأحكامها، وقد لا يتاح لجميع الناس أن يفطنوا لأهمية هذه الأمور، إلا أن نتائجها تظهر أثناء الحروب، وفي مواجهة التحديات والمحن، وبالتالي ما كان يبدو خافياً على الآخرين، كان السلطان يعرفه، وهذا ما دعاه أن يفعل أو أن لا يفعل هذا أو ذاك من الأمور.

وهكذا وخلال شهور طويلة متواصلة، كانت مهمة داود باشا أن ينظم علاقاته، لكن بطريقة مختلفة عن السابق. فإذا كان شعاره أثناء الحصار أن يوسع القوس الذي يدور فيه، كي لا يفلت أحد، مما جعله يذهب إلى الناس، وأن يلتقي بهم، وأن يتحدث معهم ليقنعهم، فقد اختلفت الظروف بعد أن أصبح والياً.

الناس في المرحلة الجديدة بحاجة إليه أكثر من حاجته إليهم. عليه أن يبقى حيث هو، وأن يأتي إليه الناس. سيأتون بكل تأكيد. وسوف لن يسرف في الكلام معهم، فهم الآن بحاجة لأن يروا بأعينهم. ومثلما أتقن مخاطبة الناس في الماضي، عليه الآن إصدار الأوامر، توجيه الرسائل، ويجب أن تكون هذه قصيرة وواضحة.

أما رؤية الوالي بعد اليوم فيجب أن تكون أمنية، وحدثاً استثنائياً في حياة كل من يراه، بحيث ينقل أخبار هذا الحدث إلى الآخرين كأعجوبة، وأن ينسبه إلى الحظ الحسن، لأن صدفة من هذا النوع لا بد أن تكون توفيقاً من الله ونتيجة رضى الوالدين!

هكذا أصبح يفكر، وهكذا أراد أن تجري الأمور.

فبعد اللقاءات الكثيرة التي أجراها، وكانت متنوعة إلى أقصى حد، وقد تحدث خلالها كثيراً، وتبسّط، فقد رأى في الوجوه، أغلب الوجوه، نوعاً من القبول، لكن لم يصل إلى درجة الرضى. كان الذين يتحدث إليهم

يسمعون، يهزون رؤوسهم، دلالة أنهم سمعوا، لكن ليس أكثر من ذلك.

ولأنه الآن في وضع يتطلب الانصراف إلى القضايا الكبيرة، وعدم الالتفات إلى ما يقال هنا وهناك، فلا بد أن يوجد من ينوب عنه في الحديث، لكي يقنع الناس، ويحملهم على الموافقة ثم الرضى. بل أكثر من ذلك، يجب أن يكون هناك حماس لكل ما يفعله. ليس المهم الاقتناع، المهم أن يُبهروا بما يفعل، وأن يفعلوا ما يريد. وبمرور الوقت، وبالتكرار، سوف يقتنعون بكل تأكيد.

ليست الصورة واضحة بعد، لكن سوف تتضح.

ولأن الشعراء يقضون أيامهم وهم يلوون الكلمات، لا بد أن يكونوا معه، سوف يملأ جيوبهم، وعندها لن يكون مضطراً لإقناعهم، وحدهم سوف يقتنعون، ووحدهم سيصلون إلى الحقيقة، وستكون مهمتهم عند ذاك إقناع الناس وحملهم على القبول ثم الرضى!

لم يخلق الله الشعر عبثاً، خلقه كي يكون تسبيحاً بقدرته وذكراً لنعمه. حتى الرسول، عليه السلام، استعان بالشعر والشعراء، كان حسان شاعره. وفي كل وقت كان الشعراء يبشرون بالحقائق التي يفترض أن يقتنع بها الناس. وكان الناس مستعدين دوماً لسماع الشعر ثم السير وراء الشعراء. أما حول ما جاء في كتابه الكريم أن الشعراء يتبعهم الغاوون، فلا ينطبق على الشعراء المؤمنين الذين تعمر قلوبهم رهبة الله، ويدعون إلى الحق والجنة واليوم الآخر.

الناس بحاجة إلى الشعر مثل حاجتهم إلى الطعام، مثل حاجتهم إلى راحة الجسد والبال. وعندما يغيب شعر الإيمان يحل مكانه شعر الكفر والزندقة وأهل النار. والحاكم الذي يبتغي مرضاة الله، لا بد أن يستعين بهذا الجيش من الملائكة.

حين وصل داود باشا إلى هذا التصور، تراءت له وجوه عدد من الشعراء الذين عرفهم، قال لنفسه «الفراغ مفسدة للروح وللبدن، ومثلما يكون الإنسان معرضاً للزيغ ووسوسة الشيطان، يمكن أن يصل إلى

الإيمان، وأن يقضي عمره في ذكر الرحمان، وهذا ما يجب أن يفعله شعراء داود».

والفكرة تولّد الفكرة، كما السنبلة تأتي من الحبة، وتحمل عشرات الحبّات، هكذا تأتي الغلال ويعم الخير.

وداود الذي خبر الحياة وذاق حلوها ومرها، لا يحتاج إلى من يعلمه دروساً جديدة. يحتاج فقط إلى من يحمل أفكاره ويوصلها إلى الناس، وهذه الأفكار ستكون مثل السنابل المليئة، إذ حالما تدخل إلى الوجدان لا بد أن تستقر هناك. ولعل من أكبر أخطاء سليمان باشا الكبير أنه لم يستعن بالملائكة الذين سخرهم الله لخدمته، فأهمل الشعراء، ولم يلتفت إلى العلماء، وهذا ما يجب أن يتداركه هو نفسه، لأنه يريد بناء ينتقل من الآباء إلى الأبناء إلى الأحفاد، حتى قيام الساعة.

صحيح أن أهل العراق أصعب أقوام الأرض، وأكثرهم شراسة وجنوناً، لكن الحاكم العاقل، الذكي، الذي يعرف كيف يتصرف، قادر على ترويضهم وحملهم على أن يفعلوا ما يريد برضا وقناعة، وكأنهم اختاروا ما يفعلون بأنفسهم!

لو كان سعيد يملك ذرة من العقل أو الإيمان لما وصل إلى ما وصل إليه، ولكنها مشيئة الله، أو كما قال الحكماء: رب ضارة نافعة.

لن يضيع وقته في تذكر الماضي، المهم أن يتلافى الأخطاء التي وقع فيها الآخرون، وأن يستدرك النواقص التي جعلت أكثر الحكام الذين سبقوه يسقطون في منتصف الطريق. حتى الذين وافاهم الحظ، وحكموا فترة طويلة، فإن الصدفة هي التي خدمتهم أو ربما حماقات أعدائهم، وليس بعد نظرهم، أو استعدادهم للأيام الصعبة، لأنهم حين ماتوا وغابوا من الوجود، لم يبق منهم أثر. بل أكثر من ذلك، دفع أبناؤهم أو الذين جاءوا من بعدهم، ثمن أخطائهم وتهاونهم.

وسرح داود باشا، وهو يفكر في الدولة التي يجب أن تقوم. «الشعراء هم الذين يبشرون بالدولة، ثم الذين يبدؤون، لكن ما يجعل الدولة تستمر

وتظهر قوتها هم الذين يؤرخون للأحداث، ومن يقنع الناس بأهميتها، وهذا يتطلب أن يكون في الديوان: المؤرخون ورجال الدين والشعراء، ثم أولئك الذين لا يرون ولا يعرفون الآخرة!»

أفكار تبدو غامضة، متداخلة، لكنها ستتضح يوماً بعد يوم، وسوف يجسدها أناس خلقوا لهذه الأسباب ولهذه الغايات. ليست مهمة الحاكم أن يقول إني فعلت كذا وكيت، يجب أن يكون هناك من يقول ذلك، وأن يردده كل يوم، وفي كل مكان. وعلى الدعاة ألا يتعبوا من ترديد ذلك. إذ بدون الإلحاح ينسى الناس بسرعة، كما ليس لديهم الوقت أو الفكر الحصيف كي ينقبوا أو يقارنوا ويتأكدوا.

لذلك كانت الأفكار الأولى التي حرص عليها داود باشا أن يفعل كما فعل حكام آخرون، في مصر وفي بلاد الفرنجة، أن يأتي بالمطبعة، وأن يخرج للناس الجورنال. إذ عن طريق هذا الجورنال يمكن أن يقول الكثير، وأن يصل هذا القول إلى الناس. أما إذا ظل الأمر حبيس الصدور، ولا يسمع عنه إلا إذا حصل ما يذكّر به، فإن الناس سرعان ما ينسون، أو تلتبس عليهم الأمور ثم الأحداث.

لكن الناس لا يتركون الوالي يفعل. إنهم عجولون، ضيقو العقل والنظر، وأغلب الأحيان لا يفكرون إلا في اليوم الذي يعيشون فيه، لذلك يجب أن يعاملوا كالخيل: أن لا يخلدوا إلى الراحة، وأن لا يحمّلوا أكثر مما يطيقون. فالراحة إذا طالت تولد الكسل، والجهد إذا زاد عن حده يولد الثورة. أما الإحساس بالخطر فيجعل الناس في حالة من التأهب والتحسب، خاصة أن الذاكرة مليئة، ولا تحتاج سوى التحريض!

19

بعد أن دخل داود باشا بغداد غاب ساسون مع الذين غابوا. لا . . بل إن غيابه بدأ أثناء الحصار، أو على التحديد في الأيام الأخيرة منه. إذ بعد أن أخذ سعيد بفرض ضرائب جديدة، والاستدانة من التجار، وبعد أن باع عدداً كبيراً من خيوله، في محاولة لتأمين متطلبات الحرب، أحس ساسون أن المركب بدأ يغرق، ومن الأفضل أن يغادره في الوقت المناسب. لا يريد أن يتحمل العبء بعد أن أقفرت خزائن الوالي، كما لا يريد أن يتورط مع التجار بأن يكون السيف الذي يستعمله سعيد لحملهم على تقديم القروض. ادعى المرض، ثم ما لبث أن توارى. حتى المحاولات التي بذلت في الأيام الأخيرة من أجل نقله إلى القلعة، باعتبارها أكثر الأماكن أمناً، قابلها بالرفض. قال للرسول الذي أُرسل إليه مع عربة وعدد من الحراس: «سأفارق هذه الحياة الفانية اللعينة قبل الوصول إلى القلعة، فاتركوني أموت بسلام. أبلغوا أفندينا، سعيد باشا، أن قلوبنا معه، فليساعده الله ولينصره». وكي لا تتكرر المحاولة غادر البيت الذي كان فيه قبل أن تصل العربة إلى القلعة!

أما بعد أن دخل داود باشا، فكان عليه التزام الحذر أكثر من قبل «لأن الخطر الحقيقي، كما قال لابنه، يكون في اليوم الأول، خاصة أثناء الليل. فالمهزوم يمكن أن يفعل أي شيء قبل أن يمضي، يحرق، يدمر، يقتل، لأنه يائس. أما المنتصر فلا بد أن يؤكد لنفسه وللآخرين انتصاره، ويكون هذا التأكيد أوضح وأقوى ما يكون حين تتأرجح جثث الأعداء في الهواء».

لهذا السبب اختار ساسون مكاناً أميناً لاختفائه، وقرر أن يبقى مختفياً «حتى يبرد الدم» كما أكد لزوجته، حين سألته إن كان من الأفضل مرافقته وأفراد العائلة، وأضاف بسخرية: «وما يلزم بعد إلا آخذ وياي البيبي متو حتى يظل يصرخ: ساسون.. ساسون!».

عزرا كان موزعاً بين البقاء إلى جانب داود كي يراه الجميع، خاصة الذين لا يكنون له الود، وبين العودة بأسرع وقت إلى حيه وبيته كي يفرح لنفسه، ويجعل الآخرين يفرحون بعودته، بعد أن أصبح صراف باشي. وكان حريصاً أيضاً على معرفة أين أصبح ساسون وكيف يمكن الوصول إليه.

لم يقل لأحد ماذا يفكر، أو ما يحتمل أن يفعله. حتى سؤاله عن ساسون ورد ضمناً وهو يسأل عن آخرين. لكن حين ذكره لم يخل سؤاله من سخرية:

ـ بدالكم.. ضابط الإيقاع، ساسون، شنو اللي صار بيه؟ بعدو شايل الدبنك جوا ابطه وخابص بغداد وثابر العباد؟

وحين تلقّى إجابات غامضة، هز رأسه وأخذ يردد مقطعاً كان ساسون لا يمل من ترديده:

أيها الساقي إليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمع

وفهم الذين سمعوا ولم يفهموا، رغم أن الخصومة بين الاثنين علنية ومكشوفة، لكن قدروا أن في ساعات الغضب، كما في ساعات الزهو، يقول الإنسان أشياء قد لا يعنيها تماماً.

وفي الأيام التالية انشغل عزرا بأمرين: الأول، أن يبذل أقصى جهد ممكن لترتيب أوضاع السوق، ومحاولة تخفيض الأسعار وتأمين المواد، بعد فترة العذاب التي استمرت شهوراً طويلة. والثاني، أن يعثر على ساسون، خاصة بعد أن عرف كيف تعامل ساسون مع عائلته ومع عوائل أخرى صديقة، إذ لجأ إلى التهديد من أجل الحصول على معلومات حول مكان اختفائه، وقد استمر الحال هكذا إلى أن جاءت الأخبار أن عزرا

التحق بداود وأصبح في الشمال.

الآن جاء وقت الحساب. لذلك لم يتردد عزرا كي يبث عيونه في جميع الأحياء التي يسكنها اليهود، وأن يراقب بيوت أقرباء ساسون وأصدقائه، مع أن الباشا نبه على الجميع: «لا نريد أن نكسب أعداء بعد اليوم، نريد أن يكون الناس معنا».

وإذا كانت العادة أن يلجأ الولاة وأصحاب النفوذ إلى استخدام الرجال في التحري ومعرفة الأخبار، فقد لجأ عزرا إلى بث عدد من عيونه في المقاهي والأسواق، واختار أيضاً مجموعة من النسوة ليساعدنه في هذه المهمة.

فسلطانة رجوان، وكانت تقود جوقاً من الدقاقات، ومعها ابنتاها سارة وزكية، إضافة إلى امرأة عمياء من القريبات؛ كانت سلطانة تتمتع بصوت جميل، وكانت ذات قوام، رغم السمنة، يثير شهوة الرجال، كما يثير فضول النساء، وقد عُرف عن ساسون أنه يعتبرها أفضل من تغني البستة بين الرجال والنساء. ويؤكد من يعرفونه أنه لم يكن يمر أسبوع دون أن يستمع إلى صوتها. كان يذهب إلى حيث تغني، إلى بيوت يعرفها، وإلى أخرى يتعرف إليها، إذا تعذر عليها موافاته إلى بيته أو إلى بيوت أصدقائه. وكان يود، أيضاً، لو تتاح له الفرصة لحضور الحفلات التي كانت تقيمها في بيوت المسلمين، لكن باعتبار أن تلك الحفلات تكون مقصورة على النساء، فقد نقل عن لسانه أنه كان يسأل سلطانة بعد كل واحدة من هذه الحفلات:

ـ قالوا لي غناك ذيك الليلة يخبّل، وأنك غنيت من جوا صدرك، فأريد أن أسمع مثل ذاك الصوت!

وترد عليه سلطانة بمرح ودلال:

ـ بذيك البيوت كل وحدة تقول للقمر آني أضوي أزيد منك؛ وتظل كل خاتون تفتز وتندار مثل دولاب الهوا، فشلون ما تريدني أتخبل وأغني من كل قلبي؟

ولا تتركه يجيب، يصهل صوتها كفرس مشاكسة:

ـ وأنتو. . . كل واحد الله دعبله وشمره، قال له: روح يا عبدي من خلقتي، روح دوّر خبزتك بنفسك، ترى آني من اليوم ما عليّ!

ويبتسم الرجال الذين يسمعون، ينظرون إلى بعضهم ثم تفلت كلمات من هنا ومن هناك في إدانة سمنة سلطانة وقبحها، فترد، وقد تغير صوتها:

ـ الزمان عيّاب، لكن الخلفة وحدها تقول!

وتشير إلى بنتيها. تخجل البنتان، أو تتظاهران بالخجل، فتصرخ فيهما بطريقة أقرب إلى الأمر:

ـ الوحدة منكم ببيوت المسلمين غزالة، وهنا تعرج، فشنوا اللي صاير؟

مثل هذا الكلام يعني أن سلطانه ستتجاوز نفسها، ستكون أرق وأجمل من ليالٍ كثيرة سابقة، لأنها تعرف كيف تواجه التحدي.

عن هذا الطريق دخل عزرا. إذ بعد أن عرف عن العلاقة التي قامت بين زكية بنت سلطانة ونسيم ابن ساسون، وكاد الأمر ينتهي بالزواج، وقد أعطى الحاخام طقو موشي بركته، وقيل إنه بدأ الاستعداد لليلة الحنة، إلا أن كل شيء تغير فجأة.

سلطانة تقول إن ساسون هو السبب، إذ أوقف ثم أفسد كل شيء، رغم الموافقة التي أعلنها في إحدى المراحل، شرط أن تتوقف زكية عن الرقص والغناء. فوافقت هي، واضطرت سلطانة للموافقة، رغم تأكيدها أنه لم يسبق زكية أي من المغنين والمغنيات في بغداد منذ أن عرفت الغناء. لكن فجأة سافر نسيم، لا يعرف إلى أين أو إلى متى، وترك رسالة عند الحاخام طقو. كانت كلمات الرسالة شديدة الغموض، لأن «القدر» عاكسه واضطر إلى السفر؛ وأنه يحرر زكية من أي التزام ويترك لها أن تختار طريقها في هذه الحياة، رغم حبه لها.

قرأ الحاخام الرسالة أمام الأم وابنتها، وحين طلبت زكية أن تحتفظ بالرسالة، باعتبارها موجهة إليها، رفض طقو موشي، مدعياً أنها من ممتلكات الكنيس، وأنه مسؤول عن ذلك أمام الله لا أمام البشر!

أدركت سلطانة أن ساسون هو الذي أراد هذه النهاية، ومنذ ذلك الوقت امتنعت عن تلبية طلباته، حتى تلك التي تأتي عن طريق أصدقاء، واستمرت هكذا، وقيل إنها رفضت الغناء ذات مرة حين جاء فجأة لحفلة بمناسبة عيد المجلة (پوريم)، إذ طلبت من سمحة العمياء أن تغني بدلاً عنها، كما طلبت، همساً، من ابنتيها أن تحتفظا بصوتيهما، لكي يسمع هذه الأصوات من يقدر قيمة الخبز والملح، كما قالت!

بعد أن عرف عزرا هذه التفاصيل، وقد عرفها بالصدفة من الأسطة مهدي خضيّر، الذي جاء ليهنئه بسلامة العودة، وكان قد سبق أن عمل لديه سائساً، ويملك الآن عربة يجرها حصان مسن، وتستخدمها سلطانة في تنقلاتها لإحياء الحفلات، بعد هذه التفاصيل لمعت فجأة في ذهن عزرا الفكرة:

ـ تسلم لي على الخاتون، وتقول لها: أفندينا يسلم عليك هوايه ويريد يشوفك. . .

ولم يترك الأمر للصدف، تابع بحماس:

ـ وتقول للخاتون: أفندينا راح يكون ببيت قداحي يوم الأربعاء، قبل الحفلة بساعة. . .

وتغيرت النبرة:

ـ وإنت، قبل ساعة تجيبها وتجي، افتهمت؟ ما راح أوصيك. .

ـ أمرك مولانا، تؤمر أفندينا، من هالعين ومن هالعين!

في بيت قداحي كان موقف عزرا بسيطاً وواضحاً:

ـ. . . ونريدك، خاتون، تساعدينا. والمطلوب بس نعرف مكان هذا اللي كسر عرضنا وسوّد وجوهنا، ولازم يعرف أن الدنيا مو قشمرة.

وسلطانة التي أحست أن كل كلمة قالها عزرا تعنيها، ولها صدى في نفسها، لم تكن تعرف ما هو المطلوب. سألت بسذاجة:

ـ وآني، بدالك، شنو اللي أقدر أسوّيه؟

ـ أريد منك، خاتون، تعرفين ساسون بيا زاغور لاطي؟

ـ مثل هذا الجريدي وين يلاقي زاغور يوكّر بيه، يا أفندينا، فشلون تريد مني أنبشه وألاقيه؟

وشعرت أنها تورطت، أو كأنها توافق على ما يريده منها عزرا. قالت في محاولة للتراجع:

ـ همي ما تشيله جبال، يا أفندينا، ولولا إنّا نقشمر روحنا ببستة وعتابا، ونطلّع الضيم اللي بقلوبنا، كان من زمان طقينا، متنا، فالله يرحم أمواتنا، ويخلصنا!

ـ يواش.. يواش، خاتون، هذا الكلام ما ينصرف، بعدك بأول عمرك... وايدك تنوش...

وتغيرت نبرة الصوت:

ـ أنا وإنت مجروحين يا خاتون، واللي جرحنا هو ساسون؛ والله ما يقبلها أن نظل مقهورين وناكل أصابعنا ندامة. لازم نقول له ولغيره نحن منو، والظلم إذا حكم يوم ما يدوم كل يوم، حتى رب السما ما يقبل، فلازم نتفاهم.

بعد جدل مرتبك، توصل الإثنان إلى نوع من التفاهم. فعزرا لم يكن يطلب أكثر من أن تفتح سلطانة عينيها وأذنيها، وأن تسأل بطريقة مناسبة، خفية، أين يمكن أن يكون ساسون، ولا يريد منها أكثر من ذلك، كما لن يقول لأحد أنه عرف عن طريقها.

وفي محاولة لنفي أية مسؤولية، أو أي تعهد، وبعد أن استفسرت عن الكيفية التي يمكن عن طريقها أن تعرف، أو توصل الأخبار، قالت بلهجة لا تخلو من يأس:

ـ آني لا أنشد ولا أدوّر بالزواغير. أما إذا شفت أو سمعت فادز أسطة خضيّر، هو اللي يقول لك ساسون وين...

كادت أن تقول: أبو نسيم، مثلما تعودت حين تخاطبه، أو حين تذكر اسمه بين الآخرين؛ لكن الجرح الذي أحست به بعد الذي حصل، جعلها قاسية، وكأنها تريد أن تنتقم، إذ أصبحت لا تذكر اسمه أبداً، وإذا

اضطرت، وحسب السائل أو الجو، فلا تتردد في أن تصمت أو تلجأ إلى التجاهل أو المواربة، كأن تهز كتفيها أو أن تقول «هو». أما إذا أرادت أن تتحدث عنه مباشرة، وكان الجو أميناً، فتقول، ويخرج صوتها حاداً، مثل قطة محاصرة:

ـ لو چان بيه خير، لو چان رجال، ما چان روجينا هذّته، وما قالت له: روح ويّه جهنم، لا تفيد لا بالليل ولا بالنهار، مثل السيان: ريحة تهف ونفع ماكو!

لكن عزرا الذي لم يكن يريد من سلطانة إلا مجرد خبر، وليس أكثر مما تطيق، كان يود أن يستعين بعدد من الأشخاص، لعلّ أحدهم، أو عدداً منهم، يساعد للوصول إلى هذا الذي عذبه، وخلق له تحدياً، إذ بدون الوصول إليه، أو معرفة ما يخطط وما يفكر، لا بد أن يظهر في وقت من الأوقات ويسبب له متاعب وتحديات، كما أن النصر لن يكتمل إذا ظل أقوى خصومه حياً، إذ يمكن أن يظهر غداً وقد تصالح مع الآخرين ليصبح خطراً من جديد.

كان عزرا على يقين أن ساسون مثل أسماك الأنهار الجبلية: أشواك كثيرة، ومرونة في الحركة والانتقال، لكن لا تغادر محيطها، إذ لو فعلت لن يقدر لها أن تعيش. قد تختفي فترة، قد تموه نفسها، لكن لا بد أن تظهر حالما تشعر بالأمان.

قال لإثنين من رجاله:

ـ ساسون سمكة نهر!

وحين تطلّع إليه الاثنان باستغراب، ولم يفهما ماذا يعني أو ماذا يريد، تابع وهو يبتسم:

ـ الأسماك النهرية، مهما ابتعدت، لا بد أن ترجع إلى نفس المكان!

استراح لحظة ثم أضاف:

ـ والإنسان هوايه أذكى من السمك، فلازم نعرف العادات والمواعيد!

ولئلا تبقى الأمور مجرد رياضة فكرية أو حزازير، اندفع بتدفق، وقد

تغير تماماً:

ـ لازم تعرفوا: ساسون قريّب، بدربونة من هالدرابين حوالينا، ولازم نكظه مثل الجريدي. . .

وتغيرت لهجته:

ـ السمك اللي يلبط، الجمّار أول ما ينزل، الحليب من هايشة زينة ما كملت الخمس سنين، والعرق من عند ميخا، ذاك العرق الزين اللي ينجرّ مع الحيوة وصدور الدجاج السمينة، إذا باوعنا زين على هذي المسائل لا بد نلزم طرف خيط ونوصل لساسون. وبالليل، وين اكو مزيقا وطبل، باوعوا زين، وإذا مو أول ليلة ثاني ليلة ساسون لذاك المكان يتدهدى، وهناك يجوز نلزمه. . .

بهذه الطريقة كوّن عزرا شبكة من نوع خاص، كبيرة، لكن منتقاة بعناية. وإذا كانت سلطانة حلقة في هذه الشبكة، فإنه لم يقتنع، أو لم يكتفِ، بالاشياء التي تأتي صدفة أو حسب رغبات الآخرين، إذ لا بد أن يذهب أبعد من ذلك.

20

بعد أن أقام عزرا هذه الشبكة المحكمة من العيون، لم يتردد في أن يبدأ بزيارات دينية متعددة. زار الحاخام الأكبر، وزار عدداً من الكنس في عقود عديدة يسكنها اليهود، وتعمد أن يتأخر قليلاً في زيارة كنيس أبو سيفين، والالتقاء هناك بالحاخام طقو موشي. لكن حين قام بهذه الزيارة أضفى عليها الكثير من مظاهر العفوية، إذ تباسط في الحديث مع الحاخام ومساعده، ومع عدد من الزوار. سأل عن أحوال العقد وسكانه، وما إذا هناك حاجة لأية مساعدة. كما لم ينس الالتفات إلى بناء الكنيس وحاجاته، فاقترح ترميم بعض الجوانب، وتجديد السور الخارجي. وحين وجد الرضى، الأقرب إلى الغبطة، في عيون الحاخام، رجاه أن يزوره في السراي لبحث التفاصيل المتعلقة بإنجاز هذه الإصلاحات.

لم يتأخر الحاخام طقو موشي في رد الزيارة، ولم يتردد في أن يخوض مع عزرا في أحاديث وموضوعات عديدة، معتبراً، من باب اللياقة والكياسة معاً، ترك القضية المالية المتعلقة بالإصلاحات كنقطة أخيرة إذ من شأن الجو الودي، واكتشاف نقاط مشتركة، أن يسهلا تلبية أي طلب، وهذا ما حصل بالفعل.

كان الحاخام راغباً في مثل هذا الجو، وعزرا لم يكن أقل منه رغبة، إذ في حال توفره يمكن أن يصل أحدهما أو كلاهما إلى ما يريد، رغم أن من سيدفع المال سيكون في موقع أقوى ممن سوف يتسلمه، أو هذا كان شعور عزرا، الأمر الذي جعله يمتنع في هذا اللقاء عن الإشارة، مجرد الإشارة،

إلى ساسون.

انتهت الزيارة بصورة مرضية للطرفين، حتى المال لما قُدّم كان تعبيراً عن واجب. أما حين قام عزرا بتوديع الحاخام، فقد أبدى ضروباً من العناية والحفاوة، ورجا أن تتكرر مثل هذه الزيارات، وأن تكون بأوقات متقاربة. وقد أشار بانفعال إلى البهجة التي ملأت نفسه، وإلى الفوائد الكبيرة التي تحققت نتيجة المعلومات والشروح التي قدمها الحاخام حول أمور دينية وأخرى تاريخية، فامتلأ الحاخام بالرضى الكبير عن نفسه وعن الدور النافع والضروري الذي يقوم به، كما شعر أن قلب عزرا يفيض بالإيمان، وأن تمسكه بالشعائر صادق.

قال عزرا لنفسه، وهو يعود ورجاله بعد أن ودّع الحاخام مسافة اعتبرها كافية: «مثل هؤلاء يحتاجون إلى معاملة خاصة، لأنهم شديدو الحذر، ويعرفون أشياء كثيرة، وهذه الأشياء بالذات هي رأسمالهم، تماماً مثل النقود للصيرفي، ومثل البضاعة للتاجر»

حين فرغ من زرع هذا الطعم، عليه أن ينتظر وقتاً، وقد يطول هذا الوقت، إلى أن تبدأ السمكة بالإقتراب، ثم نقر الطعم. لذلك عليه أن يحاول في أماكن أخرى.

ومثلما استدرج سلطانة، مستفيداً من العداوة بينها وبين ساسون، فلا بد أن يفعل شيئاً مماثلاً مع روجينا، إذ ربما تساعده، خاصة وأن الذين ينزلون تحت الأرض، الذي يختفون من السلطة، تسيطر عليهم في البداية، وبعد أن يزول خوف الساعات الأولى، الرغبة في الخمرة والجنس. الخمرة، أول الأمر، كي ينسوا، إذ يريدون أن يخلقوا لأنفسهم عالماً يبعدهم عن الشعور بالهزيمة، وأيضاً لتنطفىء رغبة الانتقام السريع، لأنهم غالباً يجهلون الكثير من الأحداث التي تجري، ولا يملكون الرد المباشر، ويمكن للخمرة في مثل هذه الحالة أن تكون علاجاً، على الأقل خلال الفترة الأولى.

أما الرغبة الأخرى، والتي تبدأ تشتعل في عقولهم وقلوبهم، فهي أن

يلتقوا بالجنس الآخر، وغالباً يفضلون نساء لم يلتقوا بهن من قبل، إذ بالإضافة إلى الحاجة التي يفرضها الجسد، فإن صلات من هذا النوع تعيد لهم الثقة بالنفس، وتشعرهم بالقوة، وأيضاً لإطفاء اللهب الداخلي الذي يولده الحقد والعجز في المجالات الأخرى.

ساسون الآن كالتنور، فما أن تغيب الشمس حتى يغرق في الكاس والطاس، وبعدها يريد صوتاً يملأ رأسه، وامرأة تدلله، ثم يلتف عليها ليغرق في النوم.

بهذه الطريقة اقتنع عزرا أن روجينا يمكن أن تكون مفتاحاً، خاصة بعد أن وصلته الأخبار، وتأكد منها، أن زوجة ساسون، أم نسيم، لم ولن تغادر البيت، «كانت النَهَيْبيَة ينتظرون الساعة اللي أحط رجلي بالعتبة».

طريقة تعامل عزرا مع روجينا كانت مختلفة عن تعامله مع سلطانة أو مع الحاخام موشي. لم يتكلم معها مباشرة، بعث إليها واحداً من رجاله يعرفها، وهذا وضعها أمام خيارين لا تستطيع مقاومة أي منهما: المال أو الملاحقة. فإذا وافقت أن تتعاون وتقدم معلومات، وعن ساسون بالذات، يمكن أن يدفع لها ما تطلب، فقط أن تدلهم أين يقيم، ولا شيء أكثر من ذلك. أما لو رفضت فإن العمل الذي تديره سينتهي، وعندها ستجوع هي ومجموعة البنات اللواتي معها، وقد لا يُكتفى بذلك، يمكن أن تصبح الأمور أسوأ.

بعد جهد شاق، وبعد أن تكرر اللقاء معها أكثر من مرة، قال «الرسول» الذي كلفه عزرا أنها وعدت، وإن لم تعط موافقة صريحة وكاملة.

لقد قالت، أول الأمر، وهي تحاول الابتعاد عن أي التزام، ولتبرير الاعتذار، انها منذ مدة طويلة لا تعرف شيئاً عن ساسون، وأن العلاقة بينهما انقطعت، ومضى على ذلك أكثر من سنة. ولما اعتبر هذا العذر غير كافٍ، وان الظروف الآن اختلفت عن السابق، إذ كان الكثيرون في خدمته حين شغل منصب صراف باشي، وقد تخلوا عنه بعد أن سقط، ولا بد أن يلجأ إليها، ردت أنه في أيام قوته ونفوذه، وهي تعرف ذلك جيداً، لم يكن

يريد من المرأة إلا نظرة وابتسامة، وإذا زاد عن ذلك فلا يتجاوز القبلة والشمشمة، تماماً مثل العصفور، وإذا طوّخها: قرصة من الخد، أو يمد إيده على الصدر أو يخششها بين الزرور! وحين بدا الاستغراب على وجه الرسول، قالت بحدة:

ـ خُذ مني يا معوّد، آني اللي أدري بكل شي!

وحين ذكّرها بالطرب وجلسات الأنس، ابتسمت بسخرية وعلقت:

ـ كلها مظاهر، ومثل ما يقولون: الاسم للنورة والفعل للزرنيخ!

ولما أبدى استهجانه، ولا يعقل أن يكون الأمر كذلك ردت، وهي ترفع يدها بيأس:

ـ اللي أكل الصواب يعرف شكو بالجراب!

كادت الأمور تنتهي عند هذا الحد، لكن عزرا لم يقتنع ولم يسلم، قال للرجل الذي كلفه:

ـ هذي روجينا، أشطر من دلاّل بالسوق، تريد تزلّقنا، حتى نفك عنها ياقة، عبالها أيام ويرجع ساسون مثل ما كان، فتقول لها: الأحسن تحلب ويانا صافي، لأن بعدها تجي السطرة والدفرة.

بعد محاولات جديدة تخللها البكاء والرفض أكثر من مرة، قالت روجينا إنها لا تستطيع أن تقوم بهذا العمل المشين، والذي لا يتناسب مع ضميرها، وحتى لو سامحها البشر على مثل هذا العمل، فإن الرب في السماء لن يسامحها! لكن هدأت فجأة، وقد ظهر الفرح في عينيها، وقالت أخيراً إنه إذا وصل إلى علمها خبر عن مكانه فسوف تكلف من يوصل هذا الخبر. وبدا للرسول أن روجينا صادقة وكاذبة بنفس المقدار، لكن لم يستطع أن يصل معها إلى أكثر من ذلك، على الأقل في هذه المرحلة.

لم يعتبر عزرا النتيجة التي وصل إليها مع روجينا كافية أو مقنعة، بل أكثر من ذلك بدا له أن المرأة تحاول التهرب، وهذا ما دفعه لأن يثير شكوك سيد عليوي، ثم أن يحرضه عليها:

ـ . . . وتعرف، يا آغا، صديقنا، أبو نسيم، ساسون، صاحب كاس

وطاس، ومثل ما يحب الفلوس، وما يشبع منها، يحب الكيف: البستة والمقام، ويموت بيا ليل ويا عين، أما إذا صاحت مرية بآخر الليل: أوف، فتلقاه راكع خاشع، وبعد ما تخلّص الأوف يشيل كراعه وينشمر بين زرورها...

وأراد أن يتابع كي يصل إلى هدفه، لكن رد فعل عليوي، وقد انفرجت شفتاه، بدا مأخوذاً، وما كادت لحظة صمت تخيم، حتى علا صوته:

ـ شكو بالدنيا غير هذي النفايس يا أفندينا؟ هذا ما قدمه رب العالمين وقال: تمتع يا عبدي، كل واشكر!

وضحك بصخب، وهو يتلمظ، أو ربما لم تسعفه الكلمات، وبعد أن استجمع نفسه قليلاً:

ـ رب العالمين ما خلق الفاكهة حتى البني آدم يباوعها من بعيد، خلقها لحكمة، خلقها لضرورة وحاجة، وقال لعبده: إذا ما ذقتها، إذا ما أكلتها، أكلها غيرك، فأنت أولى بها، وإلا راحت، صارت طعام للعصافير وللواويات..

وتغيرت اللهجة؛ أصبحت أقرب إلى الحكمة:

ـ كل ما خلقه، عز وجل، له سبب وفيه حكمة، يا أفندينا. وسبحانه خلق الإنسان وقال له: يا عبدي آني خلقت وسويت، وأنت افتهم، وعليك الباقي!

رد عزرا برصانة أقرب إلى التأنيب:

ـ اللي تقوله يا آغا على عيني، بس...

ضحك بوقار، وقد تغير لونه قليلاً وأضاف:

ـ سبحانه أنعم على الإنسان بالخيرات كلها، وفضّله على العالمين، لكن تعرف، آغا: آخرها حساب وكتاب، وبعدها جنة ونار.

كان الآغا يهز رأسه موافقاً، وللحظات بدا خاشعاً، وخرجت كلماته أقرب إلى الدمدمة تأييداً، وبعد لحظة صمت قال، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ سبحانه، مالك الملك، وهو على كل شيء قدير!

ـ ومثل ما قال رب العالمين: أعطيتك، يا عبدي، كل شيء، أعطيتك العقل، وجاء في سفر التكوين، كلام الرب: «وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعلمها ويحفظها، وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت. وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فاصنع له معيناً نظيره. وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فاحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية. وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيراً. فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام. فأخذ واحداً من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم. فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أُخذت. لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً. وكان كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان».

وإذا كان الآغا قد سمع شيئاً مثل هذا، أو ما يشابهه، أو ربما مختلفاً عنه، فلا يعرف لماذا يريد عزرا أن يغرقه في هذا الجو. إنه مؤمن وكفى، لا يريد أن يسأل، ولا أن يعرف أكثر مما يعرف، فالله لا يحاسب الإنسان على قدر ما يعرف من الآيات وإنما يحاسبه قدر إيمانه.

كاد يقول لعزرا عن هذه الأفكار التي غزت رأسه وهو يسمع عن الحيوانات والطيور، وكيف أن حواء خلقت من ضلع آدم، لكن العبارة الأخيرة التي قالها عزرا على لسان الرب أعجبته: «وكان كلاهما عريانين آدم وامرأته، وهما لا يخجلان»، قال بصوت قوي:

ـ الله يعرف أكثر من البشر حتى وهم عراة، هذا شيء مؤكد، لأنه يرى كل شيء، ويسمع كل شي، ولكني. . .

وفجأة تذكر أن الحديث بدأ عن ساسون، وتذكر أن بداية الحديث

كانت جميلة فسأل بمكر:

ـ كأن ساسون، يا أفندينا، ملح وذاب، انفتحت القاع وبلعته، فشنو قولك حي أو ميت؟ بعده ببغداد أو انهزم؟

قال عزرا لنفسه، وهو ينظر للآغا ويهز رأسه: «إذا كانت هذه معلومات رجال الباشا فالباشا صام.. صام وفطر على جرية»، ورد ببرود:

ـ من أول الليل، يا آغا، وآني أريد أعرف!

ابتسم بحزن وعقَّب:

ـ تعرف يا آغا، طول النهار نركض، نريد نجمع بارة فوق بارة حتى ما تتصخّم وجوهنا. نقول للّي يسوى واللي ما يسوى: ساعدونا يا جماعة الخير، أعطونا دين، قرضة، وقبل ما يحول الحول ترجع لكم فلوسكم ومعها زودة، قلبنا انشلع، ونحن نركض وراء الناس...

وبدل أن يتابع، سأل بسخرية:

ـ وبدل ما تجاوبونا، وتقولون لنا شنو صاير بالدنيا، وين فلان وشنو صار بفلان، تسألون...؟

وضحك، في محاولة لاستدراج الآغا:

ـ واجبكم أنتم، آغاتي، تقولون: ساسون وين صار، وشنو راح نسوي اليوم وعقبه حتى نكظه مثل دجاجة، ونطلّع فلوسنا وفلوس الناس من حلقه، لكن...

ـ حقك يا عزرا أفندي..

وبعد قليل وكأنه تذكر:

ـ لكن هذا منو؟ هذا شنو حتى نخبص روحنا به؟

ـ هذا أكل أموال الناس يا آغا؛ هذا كان سكينة في خاصرتنا كلنا أيام سعيد، لو نسيت وعفا الله عما مضى؟

وتوالت هزات رأس الآغا، بالموافقة والتذكر، لكن اعتبر أن الأمر ليس مهماً:

ـ لكن هذا الجراب رِجل دجاجة ما يحلّ، ولولا فلوسه ما كان أحد

قال له: مرحبا، فلا تدير بال عزرا أفندي

-. . . وحقوق الناس يا آغا؟ الفلوس اللي نهبها، والسوايات اللي سواها؟

وتغيرت اللهجة:

- هذا تشوفه فقير مسكين، ورِجل دجاجة ما يحل، لكن إذا ولأنا من جديد الله أكبر، ما يخلي أحد من شره وأذيته!

ولئلا تبقى الأحاديث تدور في فراغ، ولكي يصل إلى نتيجة محددة، غيّر عزرا الاتجاه، إذ بعد فترة صمت سأل:

- شُنو رأيك، آغا، إذا قلت لك ساسون وين مُوكّر؟

تطلع إليه الآغا باستغراب، فقد أحس أن عزرا يسخر منه. تابع متجاهلاً تلك النظرات:

- أراهن يا آغا، وأدفع ما تأمر به؛ إذا كنت غلطان. . .

وتغيرت اللهجة، أصبحت متآمرة:

- مولانا، روجينا تتظاهر أنها بطّلت القوادة، لأنها ما تلحّق تقوّد لساسون، بنيّة رايحة وبنيّة جايه، وآني بخدمتك ساسون أفندي، بس قول، تريدها: زغيرّة، طويلة، سمينة بكر لو حايلة؟

وبعد قليل وقد انفتحت عينا الآغا على اتساعهما، ولا يعرف إن كان عزرا جاداً أم مازحاً يبلغه الأخبار أم يريد أن يعرف ردود فعله. مرت فترة صمت كافية، ولما وجد عزرا يتطلع ويهز رأسه، سأله:

- حيرتني، مولانا، وتاهت عليّ الحسبة، تسألني عن ساسون من صفحة وتتراهن أنك تعرف من صفحة ثانية، فشنو تريد تحزرني، مولانا؟

- حاشاك، آغا، إنت سيد العارفين، لكن مرّ عليّ ابن حلال وقال لي: خذوا بالكم يا جماعة، ترى الماي تجري جوّاكم وأنتم ما حاسين، وبعد ما قرّرته قال لي إن روجينا خري مري بين أبو سيفين وساسون، ليل ونهار. . .

وتغير صوته تماماً:

ـ ويجوز، يا آغا، أن المسألة أكبر من القوادة، أكثر من بنت خاشة وبنت طالعة، خاف هو وغيره ضامين لنا ضميمة، وبليلة ما بيها ضو قمر يچيتون علينا. . .

وعاد إلى اللهجة الأولى:

ـ هذا هو اللي يخوفني يا آغا!

اقترب الآغا كثيراً، حتى كاد يلامس كتف عزرا، وسأل بحزم:

ـ صدق ام چذب هذا اللي سمعته؟ هذا اللي قالوه؟

ـ اسأل رجالك آغا، دز عليهم واسألهم، حتى تعرف الصدق من الچذب

ـ واللي قالوا لك تعرفهم؟ ثقات؟

ـ مولانا، بغداد ما عندها سالفة إلا روجينا وساسون، وإذا ما تصدقني اسأل!

ـ والباشا يدري؟ عنده علم؟

ـ إذا كان أهل الداربين، والناس في القهاوي، وجماعة السوق كلهم يدرون، فشلون تريد ان الباشا ما يدري؟

ضرب كفاً بكف، وقال كأنه يخاطب نفسه:

ـ والله لأضربها ضربة فالة إذا ما تموّتها تعورها هالبنت الحرام.

بصوت فزع، رد عزرا كالموجوع:

ـ كل شيء إلا هذه، يا آغا، لأنّا نحن نريدها، وإلا تروّح علينا الخيط والعصفور!

انتقل التحسب المشوب بالخوف إلى الآغا. سأل بارتباك.

ـ قلت لي: عن طريق روجينا نصل إلى ساسون، ونحن ثارنا مع ابن هالحرام، فاترك المسألة عليّ. اتفقنا؟

ـ عليك نور يا آغا، وما تريد أحد يقول لك أو يوصيك: روجينا وأمثالها صدورهم قبور الأسرار، يعرفون كل شيء بالولاية، ويعرفون الناس على البطانة، وهذول ما يجون بالعصا، يجون بالمال والمرحبا،

فكل ما أريده منك المداراة وطولة البال، والكلمة الحلوة تطلّع الحية من زاغورها.

ظل الآغا ينظر ويهز رأسه، وكأن هذا الدرس لا يعجبه، وبعد فترة صمت قال بصوت عميق:

ـ لازم نلقاه، إذا ما كان عن طريق روجينا عن طريق غيرها، وإذا ما كان اليوم، اليوم اللي عقبه..

وبعد قليل سأل نفسه بمرح:

ـ وين يريد يروح؟ شلون يفلت مني؟

21

لم يترك سيد عليوي لرجاله الاتصال بروجينا، ذهب إليها بنفسه.

صحيح إنه التقاها عدة مرات من قبل، لكنها كانت لقاءات عابرة سريعة، أما الآن فيجد نفسه مدفوعاً لإقامة علاقة من نمط خاص. ومع أن له علاقات يتحدث عنها الكثيرون همساً، كان يروق له أن يبدو مختلفاً، ومثاراً لإختلاف الآخرين أيضاً.

يقول الذين يبغضونه أنه فاجر، حين يجري الحديث عن علاقاته النسائية، لأنه يرتبط بعدد لا حصر له من النساء. ويضيفون أنه فاجر من حيث السلوك واللسان، إذ لا يتورع عن استعمال أكثر الكلمات بذاءة، أما الشتائم فإنه يتلذذ وهو يقذفها، موجة وراء أخرى، من فمه، وكأنه يتغنى بها.

الذين لا يكنّون له عواطف خاصة، حباً أو كراهية، يقولون في وصفه أنه زير نساء، ولا يخفون حسدهم! اذ يتمنى الكثيرون لو تتاح لهم مثل هذه العلاقات، شرط أن تبقى سرية!

بعض أصدقائه يقول: الآغا طفل كبير، صحيح أنه يغضب وقد يكون قاسياً في لحظات معينة، لكن قلبه أبيض كالحليب، لأنه يعفو ويسامح بنفس سرعة غضبه، كما يقول ما يفكر فيه دون تحفظ أو خوف، عكس الكثيرين الذين يفكرون بشيء ويقولون شيئاً آخر. أما عن علاقاته النسائية، فيعترفون أن له مثل هذه العلاقات، لكنها لا تتعدى الترويح عن النفس، وأنها «بريئة»، يقولون ذلك ويبتسمون!

وسيد عليوي يسمع الكثير مما يقال، لكنه لا يقيم وزناً، وبعض الأحيان يعلق بنوع من السخرية:

ـ أهل بغداد يموتون قهر إذا ما قشبوا، لازم يلاقون أحد يحطونه وسطاني وتشتغل عليه رحمة الله!

الآن، بعد أن برزت روجينا فجأة، لمعت في ذهنه أكثر من فكرة. لم يبعث أحداً من رجاله ليسألها عن ساسون، ولم يرق له أن يؤتى بها. إذ ما كادت بضعة أيام تنقضي على لقائه بعزرا، حتى طلب من مرافقه، حامد، أن يتوجها إلى بيت روجينا. ظهرت المفاجأة على وجه حامد، وهو ينظر إليه مستوضحاً عن دقة الاسم والطلب، رد عليه الآغا بخشونة:

ـ أي نعم روجينا، روجينا القوادة، شنو بطّلت تسمع؟

وصلا في وقت مبكر من مساء يوم ربيعي. كان جو ذلك اليوم دافئاً، وكانت رائحة الطبيعة تتفجر فتولد حالة من النشوة في الجسد والروح، وكانت هذه الحالة تجعل الإنسان ممتزجاً بكل ما حوله، حتى يحس أن الأشياء أقرب إليه، وإنه جزء من الطبيعة بأشجارها وطيورها ورائحتها، بحيث يصبح أكثر خفة، وأكثر استعداداً ورغبة للتواصل والحديث، وربما الغناء.

روجينا فوجئت بالزيارة. كانت أقرب إلى الدهشة ثم الذهول. ورغم أنها تعودت منذ وقت مبكر على المفاجآت، وأضحت أكثر استعداداً لمواجهة المواقف الشائكة، إلا أن هذه الزيارة أشعرتها بالارتباك، بل وببعض الخوف، خاصة وأنها ربطتها بساسون.

تتذكر أنها رأت الآغا أكثر من مرة قبل سنين، لكن اسمه الآن يدوي في بغداد كما تدوي الطبول. وبمجرد أن يذكر الاسم تتولد حالة من الخوف الممزوجة بالاشمئزاز، خاصة بعد أن عُرف كيف قتل سعيد. إضافة إلى القصص الكثيرة التي يتناقلها الناس عما يجري في القلعة وفي ثكنة الفرسان.

ثم إنه قبل سنين لم يكن هكذا. كان نحيفاً، وله وجه أليف، ويزين

الوجه شاربان أقرب إلى الشقرة، ومقصوصان بعناية. الآن يبدو ضخماً، وكأنه ازداد طولاً وعرضاً، أما الشاربان المتهدلان فإنهما أشبه بالأسلاك أو بليفة حمّام قديمة، بعد ان أصبح لونهما يميل إلى الحمرة. والعينان لم تختلفا عن السابق، لكنهما الآن تخالط الحمرة بياضهما، فتبدو الدكنة حولهما وكأنها طوق يسوّر القسم الأعلى من الوجه.

في تلك المرات كان مع آخرين. وتتذكر روجينا أنه شرب وضحك، لكنه غادر مبكراً، لم تعرف لماذا. لم تسأل نفسها ولم تسأل الذين جاء معهم.

الآن يأتي وحده، إذ ما أن أبلغها حامد، الذي سبقه بخطوات، حتى شعرت بالرهبة، ماذا يريد وكيف تتصرف؟

لأول مرة تشعر أنها محاصرة، مرتبكة، وعاجزة عن التصرف. هل تقابله كما تقابل الآخرين بالابتسامات، ثم كطريقة لكسر التهيُّب والخجل تروي، بسرعة، نكتة بذيئة، لتسيطر على الجو؟ هل تقوى على أن تفعل ذلك في مواجهة هذا الرجل الذي لا تعرف لماذا جاء أو ماذا يريد؟ الرجال الآخرون، الذين يبدون مترددين أول الأمر، ولا يخلو ترددهم من خوف، يقفزون، بعد كأس يشربونه بسرعة، للاندماج أكثر مما ينبغي في الجو، وهي تعرف كيف تبقى مسيطرة من خلال طريقة التصرف، من الحركة، أو حين تأمر البنات بالرقص والغناء.

حاولت أن تبتسم، وحامد يقف مائلاً ليفسح له الطريق، وتخرج الكلمات بسرعة:

- تفضل سيدي.. تفضل.. تفضل.

روجينا ترخي وجنتيها في محاولة للابتسام، تشير بيديها الاثنتين، دون كلمات، أن يتقدم، أن يتفضل، وتنظر بقلق إلى الخطوة التالية.

يدخل سيد عليوي متمهلاً. ينظر بسرعة إلى روجينا ويجيل عينيه في أنحاء البيت، وتصل العينان إلى السقف، وكأنه يكتشف، وحين وقف وسط الصالة الكبيرة، وكان الصمت قوياً، تنفس رائحة ثقيلة هي مزيج من

العطور والرطوبة ودخان قديم، وكانت تختلط أيضاً برائحة كثيفة من الأكل والبشر والأثاث وربما أشياء كثيرة أخرى تراكمت منذ وقت طويل. لم يرتح عليوي للرائحة، ولم ترتح روجينا للصمت، ثم لهذه النظرة التي مسحت الأرض والجدران والسقف، ولم تتوقف عند وجهها إلا بشكل سريع وعابر.

قال ليكسر جو الصمت والرهبة:

ـ ريحة الدنيا برة تخبل: قداح وورد ورازقي...

وتغيرت اللهجة، بدت أقرب إلى المرح، وهو يضيف ملتفتاً إلى مرافقة:

ـ والخاتون عبالها بعد برد، مقفّلة الأبواب والشبابيك...

والتفت نحوها:

ـ لو خايفة؟

ردت، وخرج صوتها خشناً مخدشاً بسبب التدخين والخوف:

ـ وين اكو خوف بصايتكم وصاية النشامة أمثالكم!

واستعملت يديها أكثر من الكلمات، وهي تدعوهما للتفضل والجلوس، وكان سيد عليوي يشعر بمزيد من الثقة والألفة معاً. وما أن ارتمى على مقعد في صدر القاعة، بعد أن تخفف من بعض ملابسه، حتى نظرت روجينا، مواربة، إلى المرآة. شعرت أنها بحاجة إلى تغيير ملابسها، لكن الشعور الأقوى الذي سيطر عليها أنها بحاجة إلى وقت لتخلو إلى نفسها، لعلها خلال ذلك تستعيد السيطرة على انفعالاتها. قالت مستأذنة، بارتباك مازجه الخوف:

ـ من رخصتكم، فدّ دقيقة...، بك، بس أبدّل هدومي.

رد في محاولة لخلق جو أليف:

ـ ولا أحلى من هذا الثوب القلقلي، اللي تلبسينه، خاتون..

وبعد قليل وبمرح:

ـ لو آني غلطان؟

ـ حاشاك أفندينا، بش شايفة ومو مصدقة. جيّتك بالدنيا!

خلال الدقائق القليلة التي غابتها روجينا خيّم الصمت. كانت تُسمع في الداخل أصوات بشر وأبواب تُغلق، وحركة سريعة، لكن الآغا سمعها ولم يسمعها.

لما عادت روجينا بعد وقت قصير قضته في الداخل، بدت كأنها امرأة أخرى: الضحكة تفترش وجهها كله، ومع الضحكة ثقة تبدّت بالحركات السريعة، الرشيقة، ثم التفاتات لا تخلو من تساؤل أقرب إلى الإغراء. أما الثوب الأخضر المزين بورود صغيرة بألوان صفراء وبنفسجية فقد نقل معه أريج القداح والربيع. وبدت روجينا وكأنها خبأت مقداراً من السنين في خزانة ملابسها! أما الرائحة التي هفت بعودتها، ورغم حدتها خلال اللحظات الأولى، فقد بدت مرغوبة، أليفة، خاصة حين امتزجت بنسمة الهواء التي اقتحمت الغرفة لما أزاحت الستارة العنابية الداكنة، وفتحت النافذة.

أعطى الآغا لنفسه فرصة كافية، تملى الشكل والحركات، ومع النسمات التي ملأت المكان، فحركت الجو وجددته، قال كأنه يتذكر:

ـ سبحان الله...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ أتذكر أول مرة رأيتك وكأنها هذه الليلة..

وتغيّر صوته:

ـ هل تتذكرين؟

زمّت عينيها، في محاولة للتذكر. لم يتركها تتابع رحلتها:

ـ عند صادق بك

ولكي يزيل أي لبس لتشابه الأسماء:

ـ صادق بك الدفتري، هل تتذكرين؟

فهقهت وقد بدأت تستعيد السيطرة..

ـ صدق كأنها البارحة يا بك...

وأضافت، وشاب كلامها شيء من حزن:

ـ ابدالك، يا بك، الواحد ما يعرف شلون تمر الأيام!

ولئلا تستسلم لذكريات قديمة، ولكي تستعيد سيطرتها، تابعت:

ـ الأيام اللي مضت راحت وانقضت، هسه علينا الأيام اللي نعيشها.

وضحكت بغنج، وهي تنظر إليه بتحديد لتقرأه دون خطأ:

ـ. . . وجيتكم تسوى الدنيا، وهذا الشرف، ابدالك، أبد ما أنساه، فشنو تحبون تشربون: عرق لو غير شيء؟

قال الآغا وهو يقهقه:

ـ ما نريد نسوي زحمة. جينا بليا خبر، بدون موعد. .

ـ جيّتكم من السما يا بك، والواحد يتذكرها لولد الولد. . .

وقبل أن تسمع رده عما يرغب، صفقت بيديها، وفوراً دخل إثنان، رجل وامرأة. وإذا كان الرجل بدا فتياً، وكأنه يقوم في الدار بأكثر من مهمة، فإن المرأة كانت في حوالي الخمسين، أو تزيد قليلاً، وقد بدا وجهها ضاحكاً، أقرب إلى وجوه الأطفال. كانت ابتسامتها كبيرة وعيناها تسألان. وقف الإثنان في حالة تأهب، وقد أحسّا بأهمية الضيف، ينتظران أية رغبة كي تلبى فوراً.

ومن جديد، وقد انتقلت روجينا من مقعد مقابل، بعيد، إلى مقعد أقرب من الآغا، وانحنت وهي تسأل بلهفة قبل أن تستقر على المقعد:

ـ عيني تباوع، وما مصدقة روحي، وما أدري آني بحلم لو بعلم!

قهقهت. جلست. سألت من جديد بلهفة:

ـ مسوّين اليوم دولمة وخبز عروق، وبعد ما خلص الخس نزل قبل كم يوم الخيار، واهل المروّة دزولنا اليوم مخضّرات تفك الروح: طماطه وكرفس ونعناع وبصل أخضر وخيار. . .

تطلّعت إليه بطريقة معينة، وتابعت:

ـ وأتذكر. . . يا بك، أنك كنت تحب الجاجيك واللبلبي، فشنو رأيك، تسمح لي أحضّر فد شي؟

قال، وخرج صوته أقرب إلى المرح:

ـ كل شي خير وبركة...

والتفت إلى حامد:

ـ شوَكت أكلنا حامد؟

ولم يتركه يجيب، أضاف بصرامة:

ـ صار الواحد منا ما يتذكر شوَكت أكل، شوَكت نام...

ـ وتشربون كاس قبل الأكل... بك؟

سألت وهي تنظر إلى اللذين يقفان دون حراك ينتظران الأوامر، وقالت، وقد تغير صوتها تماماً:

ـ تحضّرون، أول شي، الشراب...

والتفتت إلى الآغا، وتابعت:

ـ وبس يأمر البك، شوَكت يحب ياكل، بدقايق كل شي يتحضر.

وكأن كل شيء كان جاهزاً، فما أن انقضت دقائق حتى رتبت الأشياء كلها. كانت روجينا تتحرك بنشاط، بخفة، وكأن تلك الحركة تمنحها المزيد من القوة والثقة بالنفس. لقد اقتحمت الحاجز الأول، فالآغا أياً كانت الأسباب التي جاء من أجلها، هو الآن في بيتها، وليس كأي زائر آخر، فقد امتدت يده إلى الكأس الأول، وبعد أن تدور الكؤوس، بعد أن تدوي الضحكات، سوف تعرف كيف تتصرف. ومع أنها لا تشرب إلا قليلاً، ومع أشخاص محددين، فقد شعرت أنها بحاجة إلى كأس أو اثنين ذلك المساء، لأن الشراب يختصر الوقت، يكسر الحواجز، ومن خلاله يمكن أن يصل الإنسان إلى أمور كان من المتعذر الوصول إليها لولاه.

والآغا، على الأقل في هذه الليلة، لم يأت من أجل ساسون وعزرا، بل ولم يفكر بهما إلا كما يفكر بارتفاع شجرة أو مساحة أرض، فالأمر، الآن، لا يعنيه، لكنه لم ينسه أيضاً.

حين قُدمت الكؤوس والشراب، كان مع الخادم والمرأة المسنة شابتان لا يزيد عمر الواحدة منهما على العشرين عاماً، وقد ساعدتا بهذا الواجب

بخفر أقرب إلى الارتباك، وكأنهما لم تعرفا الرجال من قبل. وسألت روجينا، بعد أن دقت كأسه بكأسها:

ـ شتحب، يا بك، تسمع الغنا أو تحب تشوف البنات يرقصن؟

رد الآغا، وكان لا يخفي ارتياحه:

ـ الزينة ما ينراد لها سؤال. . . خاتون!

ليلة لا تشبه الليالي الأخرى. هكذا قال حامد لاثنين من أصدقائه، وهو يزف إليهما أخباراً سارة بليال ستكون حافلة، لأن الآغا أبلغ روجينا، بعد أن امتد الليل وطال، وبعد أن تعددت الوصلات، إذ قال لها، وحاول أن يحمّل كلامه شيئاً من الإغراء:

ـ سأزورك مع الوِلِد، ونريد مثل هذه الليلة. . . وأزيد شوية!

ردّت وهي تضع إصبعها تحت العين اليمنى، ثم تنقلها بسرعة تحت العين اليسرى:

ـ من عيني هاي قبل هاي!

ورغم الإغراءات الكثيرة من روجينا والفتيات اللواتي تزايدن مع الغناء والرقص، إضافة إلى النكات البذيئة والشراب، ورغم المحاولات التي بُذلت كي يبقى ويقضي الليل معهن، إلا أنه في لحظة مفاجئة نهض، وكأنه تذكر أمراً لا يحتمل التأخير أو التأجيل، ومن حركته، طريقته في التصرف، وحتى النظرات، بدا أنه اتخذ قراراً غير قابل للمناقشة أو التعديل.

قال لروجينا وهو يضع يده على كتفها، وكأنه يختبر اللحم:

ـ تونسنا هوايه، خاتون، وبين يوم والثاني راح تشوفينا طابين عليك نوبة ثانية!

22

بعد أسابيع قليلة زار الآغا عليوي روجينا للمرة الثانية. جاء ومعه رهط من رجاله. كان مرحاً مثل المرة السابقة، أو ربما أكثر، وقبل أن تستعيد روجينا نفسها من وقع المفاجأة، إذ لم تكن بعد متأكدة مما رأت وما سمعت، حتى قال الآغا ليكسر التهيُّب:

ـ نحن الليلة ضيوفكم، وشكو عندكم يكفي ويزيد. . .

وبعد قليل، وبلهجة متآمرة أقرب إلى الهمس:

ـ والوِلد طقّت أرواحهم، صار لهم شهور وأيام، الواحد منهم مثل الفرس الحايل، يشبّ على الحايط، فإذا طوخناها وياهم خاف يسوون لنا مكسورة. اليوم هدّيناهم، قلنا لهم تونسوا!

وبفرح أقرب إلى النشوة قفزت روجينا. كانت تدور حول نفسها وهي تصفق وتنادي في وقت واحد، خاصة بعد أن ألقت نظرة لا تخلو من تمعن على وجوه الذين يرافقون الآغا من لحظة دخولهم، لتقرأ في تلك الوجوه ما تحمل من نوايا ورغبات. أما بعد أن سمعت ما قاله الآغا، وما بدا على وجوه المرافقين، فقد شعرت أنها كسبت نصف المعركة.

وكأن الاستعداد كان جاهزاً وكاملاً، توقعاً لمثل هذه الزيارة. خلال فترة قصيرة مُدّت مائدة كبيرة، وكانت عامرة. وشيئاً فشيئاً عبق الجو برائحة دخان الغلايين وقرقرة الأراكيل وأصوات الأطباق، وروجينا مثل النحلة تنتقل من مكان إلى آخر، تغيب بعض الأحيان كي تظهر فجأة، أما حين دخلت وسرب من الفتيات اللواتي تهيأن لهذه الليلة، فقد بدا الجو

احتفالياً متوهجاً، خاصة بعد أن انتشرت موجة من العطر القوي، ترافق مع بعض الهلاهل التي لم تكن عالية إلى درجة الإزعاج، كما في الأعراس، ولم تكن منخفضة إلى درجة الخجل. كانت قصيرة، مرحة، لكن تكفي للإعلان عن بداية الاحتفال. أعقب ذلك أدوار تعودت الفتيات على أدائها: بضع نكات، تحمل إشارات جنسيّة مبطّنة، ثم تقليد لحركات مرحة أقرب إلى التمثيل، وقد شارك فيها عديدون، وأغلب الأحيان، أناس الداخل.

ما كادت هذه الحركات تنتهي، حتى تغير الجو تماماً... تفكك ثم ارتخى. أصبح مرحاً مفتوحاً، وكأن كل فتاة تعرف الجميع منذ وقت طويل. فالتصرفات تتسم بالمرونة، وتحمل مقداراً كبيراً من الإغراء، إضافة إلى رشاقة المراهقة، خاصة تلك الطريقة في الضحك، والتي تشبه الصهيل، إذ ما تكاد تضحك واحدة، أو بمجرد أن تبتسم حتى يندلع المرح، فتعدي الأخريات، وفجأة يصخب الجو بالضحك وتبادل النكات، وأيضاً بتبادل الغمزات والإشارات، خاصة بين الرجال حول أي الفتيات أجمل من الأخرى، وأيّها الأكثر ملاءمة لهذه الليلة!

روجينا بمرح وفتون تدور بين الضيوف، وقد توردت وتغيرت. أما بعد أن ارتدت ثوباً جديداً، وطريقة الفتيات في استقبالها، وربما كان الأمر سيمر دون أن يلفت نظر الرجال ودون أن يميزوا ما حصل من تغيير، لكن تلك الصرخات الصغيرة، الأقرب إلى الدهشة، المعبّرة عن الإعجاب، جعل الرجال يتوقفون ويمعنون النظر، ثم ليكتشفوا الجمال الذي لا يزال يدافع عن نفسه، ويؤكد وجوده، من خلال بروز الصدر وعري الزندين والكتفين، وتلك النظرات التي تحفل بالإغراء والخبرة، وتقول الكثير وهي تلتفت إلى هذه الجهة أو تلك!

وبنفس النعومة التي يختفي بها النشالون، وبتواطؤات تفتقر إلى البراعة لعين مراقبة، أخذ الرجال والنساء يتسللون. كان بعض مرافقي الآغا أكثر خجلاً من غيرهم في التصرف والحركة، لكن ذلك لم يدم إلا لفترة

قصيرة، عابرة. فالفتيات يعرفن كيف يعالجن مثل هذه الحالات: بالجرأة الزائدة لقهر الخجل، بالضحك الصاخب، وأيضاً بالإعلان الصريح عن الرغبة، لإثارة المتأخرين!

كان يجري ذلك متخطياً الصعوبات وبعض الحرج، ليقف على مسافة غير قليلة من الآغا، إذ لم تتجرأ واحدة لتجاوز المسافة التي حددها، أو الطريقة التي يجب أن يُعامل بها.

ظل الأمر كذلك إلى أن جاءت روجينا بثوب جديد آخر. وبإشارات خفية، أو ربما بسبب تعليمات سابقة، وربما بتعليمات فرضها الثوب ذاته، أو هذا المقدار من العري الذي ظهرت فيه، انسحب، تباعاً، الموجودون، وبقيت روجينا والآغا وحدهما.

لم تكن تجرؤ أن تطلب منه الانتقال إلى غرفة داخلية، رغم أن رغبة جامحة راودتها، وربما تبديل الثوب أحد التعبيرات عن ذلك، إذ كان يكشف جسدها أكثر مما يستره، خاصة بعد أن أحست أن الآغا ينظر إليها بشهوة وبطريقة مختلفة، وكأنه يحاول إعادة اكتشافها، إذ سمح لنفسه أن يمسحها من بطة الساقين حتى الشعر الذي تركته مسترسلاً هفهافاً، وكأنه إعلان أخير عن ما تمتلكه من كنوز. أما حين توقف عند الصدر، ثم عند الزندين، فقد تركته يتمعن ويتوقف، لكن قالت له، من خلال العينين والابتسامة، إنها رأته يفعل ذلك، وإنها سعيدة لأنه فعل! بل وتعبيراً عن ذلك تعمدت أن تضرب كأساً بكأس، بعد تلك النظرة الطويلة المتأنية، وكأنها تعده بأكثر مما رأى، خاصة وهي تنهض لأمر لم يكن مهماً، ولكن لتفسح له الفرصة كي يراها مرة أخرى، ومن كل الجوانب!

قالت وهي تعود متمهلة كفرس تعرف مدى ما تملك:

ـ الوِلد هوايه متونسين..

ضحكت وهي تتابع، فجاء صوتها مليئاً بالإغراء:

ـ خابصين الدنيا جوا، ما تسمع إلا: آي أوي، يواش يواش على كيفك!

واقتربت منه أكثر، حتى كادت ترتمي في أحضانه وهي تجلس إلى جانبه، قالت في محاولة اختبار:

ـ عفواً أفندينا، خاف عوّرتك، ضايقتك. .

كانت تقول هذه الكلمات وهي تنظر إلى عينيه بإمعان لتقرأ الإجابة قبل أن يجيب. رد وهو يقهقه:

ـ عَلَوّاه كل المضايقات اللي خلقها رب العالمين هالشكل، لكان البني آدم يبوس إيده وجه وقفا ألف مرة كل مطلع شمس، ويقول: زدنا من هذه الخيرات!

وامتدت يده إليها. طوّق كتفيها، شدّها إليه. عصرها وهو يتشمم عطرها. أعطته نفسها للحظة، لكن في اللحظة التالية ماءت: أوي، أوي.

صدرت عنها هذه الأصوات، وهي تنظر إليه، ولما استمرت يده على كتفيها، وربما اشتدت قليلاً، قالت بغنج:

ـ اسم الله. . . أقوى من شاب ابن عشرين!

شدّها إليه أكثر من قبل، ليثبت لها أنه أقوى مما تقدر أو تظن، ماءت، واقتربت منه، سألت وهي تنظر إليه من أسفل، بعد أن أصبحت في حضنه:

ـ تحب نخش جوّا. . . حتى ترتاح؟

ـ اليوم: الزغار، وآني فد كم يوم وما تشوفيني إلا وطاب عليك، وراح نتونّس هوايه!

قالت وهي تتمسح به أكثر من قبل:

ـ علوّاه اليوم وكل يوم!

وبعد قليل وبلهفة:

ـ فدوة لعيونك، آغا!

حين أحست أن رفضه قاطع، وأن أية محاولة لن تكون مجدية، احتفظت بتوسلاتها.

قالت بطريقة لا تخلو من استفزاز مثير:

ـ أنتم الرجال إذا ردتم فد شي ماكو مرية تقدر تقول لا، أما المرية لو رادت، إذا اشتهت، حتى لو احترقت من جوا، واشتعل أفادها، فتقولون باچر واللي عقبه، وخلي المرية تشتعل وتموت بنارها!

ـ على كيفك . . . خاتون. الدنيا أخذ وعطا، وإذا مو اليوم ثاني يوم!

وبعد قليل وكأنه يوضح ويعتذر:

ـ صار لي يومين ما نايم، خاتون. ولولا غلاوة هالشباب عليّ، وقلت أنفّه عن صدري شويه لكان صاير لي ساعة ساعتين وأنا نايم!

وأكرم الشباب الفتيات أكثر مما توقعن، وأكثر من المعتاد. فعلوا ذلك داخل الغرف، ولكل واحدة بمفردها. وقدم شاكر زبيبه، باسم الجميع، هدية ومبلغاً من المال لروجينا. رفضت أن تقبل أول الأمر، وأصرّت على الرفض، لكن حين قال لها عليوي:

ـ ترى إذا ما قبلت هذه الصوغة ما راح تشوفين وجوهنا نوبة ثانية!

اضطرت أن توافق، وكانت شديدة التأثر، أقرب إلى الارتباك، فهي مضطرة أن تقبل «لأن من يرفض النعمة يعاقب في الدنيا وفي الآخرة»، حسب قناعتها؛ ولأن مثل هذا المال يمكن أن يصبح قيداً أو رسناً تُجرّ به، خاصة وأنه يأتي من عليوي ورجاله، ولا تعرف ما يريد منها. تمنت لو أنها لا تعرفه، أو لا تواصل اللعب معه، لأن وجه ساسون طوال السهرة لم يفارقها، بل وفي لحظات كثيرة كانت تظن أن الوجه الذي تراه، اليد التي تشد كتفيها، هما لساسون وحده.

قالت، بعد أن انفضّ الجمع وانتهى الاحتفال، وكانت كل واحدة من الفتيات تُري الأخريات ما قدم إليها، وتنظر بإمعان إلى الهدايا الأخرى، قالت روجينا لنفسها، وكانت تريد أن يسمع الجميع كلماتها:

ـ يا رب اجعله كله من بركاتك ومن خيرك!

وفي اليوم التالي، حين كانت الفتيات يستعرضن القطع الذهبية والهدايا التي قدمت إليهن. قالت لهن روجينا بنوع من الرجاء.

ـ علوّاهْ لو تبدلن هذا الذهب بذهب غيره، لأن الذهب الحلال يغسل الذهب الحرام. . .

وبعد قليل، وكأنْ تسأل نفسها:

ـ ما يندرى منين جايبين هذا الذهب، وما يندرى هو حلال أو حرام!

23

رغم مرور أيام عديدة على الزيارة ظلت روجينا متحسبة، يخامرها التساؤل والقلق: ماذا يريد منها سيد عليوي؟ هل جاء ليسألها عن ساسون؟ لكن لم يشر إليه مجرد إشارة. هل جاء للراحة والتسرية عن النفس؟ ولكن مثل هؤلاء يخفون وجوههم بألف قناع إذا اضطروا للمجيء، أما هو فقد صهل كالحصان حين دخل، وملأ هرجه البيت كله. وخرج أيضاً دون أن يفعل شيئاً. لماذا جاء إذن؟

ظلت هذه الأسئلة، وأخرىٰ غيرها، تعاودها وتقلقها، وكل الإجابات التي افترضتها لم تكن مقنعة أو كافية. أما إجابتها للفتيات اللواتي كن عندها تلك الليلة، ثم إجاباتها لمن يسألها عن زيارة عليوي، فقد تعددت وتغيرت مرة بعد أخرى، لأنها لم تكن متأكدة من شيء. كانت أغلب الأحيان تجيب وعيناها تتيه في أمكنة بعيدة.

ولأنها رأت الكثير في هذه الحياة، وتعرفت على نوعيات لا حصر لها من البشر، كانت تميل إلى طريقة في التفكير والتصرف تختلف عن معظم الناس، إذ تعتبر الرجال القساة الذين يفاخرون بعدوانيتهم، والذين يتلذذون باستعمال الكلمات البذيئة، ولا يترددون بضرب أو شد شعور النساء، إن مثل هؤلاء شديدو الضعف، وأغلب الأحيان بحاجة إلى أمهات أكثر من حاجتهم إلى عشيقات!

لم تكن تقول ذلك لأحد، بل ولم يكن هذا الشيء واضحاً لها تماماً، لكن بعض الرجال الذين عرفتهم، ثم بعض القصص التي سمعتها في

أوقات مختلفة، تركا في نفسها أسئلة تختلط بالشكوك، وكان يروق لها أن تراقب وتتابع، لأن في الأمر شيئاً يثيرها.

لطف الله فرج، زعيم شقاوات الميدان، الذي كان اسمه يولد الرعب ليس في محلة الميدان وحدها وإنما في بغداد كلها، كانت تتعدد أسماؤه والألقاب التي تطلق عليه تبعاً لعواطف الناس تجاهه وموقفهم منه.

فالذين يعتبرونه رمزاً ومثالاً للقوة، يدللونه، بعض الأحيان، بإطلاق أوصاف كبيرة أو خارقة عليه. ويبالغ بعضهم ويتجاوز كل حد، ليصل إلى الأسماء التاريخية أو التي ترد في الكتب: الصمصام، الباتر، أبو الفوارس عنتر. أما الذين لا يعنيهم الأمر، ويؤثرون الحياد، إذ يسمعون ويراقبون ثم يهزون رؤوسهم وأكتافهم ويمضون، ولأن الاسم والألقاب لا يعنيان لهم الكثير، بالإضافة إلى الغرابة، فقد اختصروا الأسماء إلى: لطس إذ اعتبروه أكثر لياقة وأيسر، وهذا ما جعلهم اذا ذكروه أن يكتفوا: لطس أبو الميدان!

أما خصوم لطف الله فرج ومبغضوه، وأولئك الذين تعرضوا لأذى رجاله، وهم كثيرون، فإن الأسماء والألقاب التي يطلقونها عليه كثيرة ومتغيرة: جراب، أبو فرج، أبو الدقايق، هذا عدا عن الأسماء والألقاب التي تطلق في التو واللحظة، وغالباً ما تنتهي بالشتائم!

لطف الله فرج كان حامياً لروجينا حين سكنت في أحد الأحياء الجديدة في أقصى غرب الميدان. كانت في أول شبابها: جميلة، صغيرة، كأنها لعبة، وكانت بحاجة إلى الحماية والحب معاً. ولم يتأخر لطف الله في أن يقدم لها الحماية، ولم يطل الوقت ليقع في حبها.

كانت روجينا لا تحب أن تتذكر كل شيء بعد مرور السنين، لأن الشيء الذي لا يمكن أن تنساه: ان الرجل الذي يخافه جميع الناس، والذي يخيف الحكومة أيضاً، وإذا ذكر اسمه تتداعى صور ووقائع لا نهاية لها عن شجاعته والأعمال التي قام بها.. ذاك الرجل الذي يخلق كل هذا الخوف، كان جباناً معها! كان يرتجف بين يديها، وفي أحيان كثيرة يبكي مثل طفل، ولا يكف عن البكاء ولا يهدأ إلا إذا وضعت رأسه في حجرها، قريباً من

الصدر، وأخذت تغني له كما تغني الأم لطفلها الصغير لكي ينام!

تتذكر روجينا أنها لم تحب إنساناً كما أحبته، كما لم تتعب مع إنسان كما تعبت معه. إذ بمقدار ما كانت تذوب رقة، وتصاب بالإرتباك، بمجرد أن تضع عيناها عليه، وتبذل أقصى طاقتها كي يرضى، لأن يبتسم، وتتحول بين يديه إلى قطة، إذ تدور حوله، تتمسح به، وتنتظر اللحظة التي يطلب منها شيئاً، فإنها لا تعرف لماذا يرفضها كامرأة!

كان يقضي لديها ساعة، اثنتين، ثم يمضي. لشد ما حاولت إقناعه بأن يقضي الليل معها، ما أكثر المرات التي حاولت أن تغريه، كم جرّبت وبذلت من الجهود والتوسلات كي ينام معها، ولكن كل شيء انتهى إلى نتيجة محددة: الرفض الحاسم الذي لم يتخل عنه. كان يرفض بكلمة، بهزة رأس، ولا شيء يجعله يغير رأيه.

السؤال الذي حيّرها: لماذا؟

كان في بعض ظهيرات الصيف يمر كي يقيل عندها، وما ان ينزع ثيابه حتى يتبدى لها صولجاناً من القوة والاكتمال. الزنود المتينة المفتولة، الرقبة المكتنزة كأنها رحى، الصدر العريض القوي الذي تغطيه غابة من الشعر الأسود الكثيف في أكثر المواضع. حين ترى ذلك ثم تهبط فتلمح السروال وقد اكتنز، وهو ينهض على ساقين قويتين كأنهما نخلتان، تشعر برجفة قوية تجتاحها من أقصاها إلى أقصاها، وكثيراً ما وجدت نفسها ترتمي عليه، ومثل ريشة يرفعها، تصبح بين يديه مثل طفل صغير. وتتذكر حين كانت طفلة، وأبوها أو بعض من الأقارب، يداعبها، يهزها، يلقيها في الهواء. كان خوف يمازجه اللذة يسري في ذلك الجسد المقذوف، لكن ما أن تتلقاها الأيدي مرة أخرى حتى تزول اللذة ويبقى الخوف، الآن ولطوفي يداعبها، يحملها بيد واحدة ويدور بها، تعاودها من جديد اللذة القديمة، ولكن دون خوف هذه المرة.

بعد أن يدور بها مرات كثيرة، وينزلها، يقول:

- عزّلنا، خلص، وهسه أريد آخذ لي غفوة!

ومثل كرة، ترتد عليه، تتشبث بعنقه، تحاول أن تجره إليها، لكنه ثابت كالجدار، قوي مثل ثور، وعنيد كأنه حمار، لا يستجيب، ولا يلين. وتحاول من جديد، لكن هذه المرة عند القدم، عند الساقين. تغمر وجهها، تموء مثل قطة، تتوسل، وحين تراه بعيداً هكذا تقفز إلى صدره، تمتد يداها الصغيرتان إلى غابة صدره تنتف بعض الشعيرات، تغمر وجهها هناك، تُخرِج أنفاساً ملتهبة في هذا الجحيم الطاغي الذي يشتعل في كل مكان، لكن دون جدوى.

في لحظة ما يقول، وتتهاوى كلماته كقطع الحجارة:

ـ بْس أقوم من النوم نتشاقىٰ!

وليس أمامها إلا أن توافق، أن تسلم. وعند قدميه كحارس تنام، لعل الذي لم تصل إليه قبل النوم تصله بعده. ويغرق في نوم عميق، وتظل في يقظة عارمة ترقب قسماته، تتملى جسده، تتابع أنفاسه، ولا تمل من النظر إليه.

تكررت الحالة مرات عديدة، وتذكرت حيرتها وتساؤلاتها، لأنها لا تقوى على الاحتمال، فهي تفشل في الوصول، ولا تقوى على الهجر. إنها تغرق فيه يوماً بعد آخر، وتكتشف فيه صفات لم تكتشفها من قبل عند غيره: يحنو عليها، يعاملها بمودة تصل إلى درجة الاحترام، وفي الوقت الذي يزداد طمع الآخرين بها، وبعض الأحيان معاملتها بخشونة، وبغير قليل من القسوة والبذاءة، فإن المرأة التي تسلك هذا الطريق عليها أن تتعلم بسرعة كيف تدافع عن نفسها، أن تكبر سنة كل شهر، ليصبح من الصعب خداعها أو حملها على غير ما تريد. وروجينا مثل كل الأخريات كبرت بسرعة، تعلمت بسرعة. أصبحت أكثر اعتماداً على النفس، وكان يمكن لها أن تفعل مثل غيرها: أن تستقل عن الحماية المباشرة، أو أن تستعين بها عند الضرورة، لقاء مبالغ يتفق عليها، يتم اقتطاع جزء منها لقاء خدمات تُقدم.

كان بإمكان روجينا أن تفعل ذلك، لولا الجنون الذي يسكنها تجاه

لطوفي. وحين تنازلت عن مطالب من الصعب أن تتنازل عنها المرأة في علاقتها مع الرجل، واكتفت، إلى أن تجد حلاً، بأن تراه، أن تسمع ضحكته، وأن يبقى حامياً لها، فقد هيأت له كل الأسباب كي يختار غيرها من «البنات»، إذ ربما تكون له رغبات ومقاييس للمرأة التي يفضلها لا تدركها، وبذلت كل من البنات جهوداً لاجتذابه، لإغرائه، لكن انتهت تلك الجهود إلى الفشل! ولم تستطع أيّ منهن أن تصل إلى أكثر من لمسة، وبعض الأحيان «حضْنه»، عدا زهور!

وهذه المرأة لا يُعرف من أين جاءت، وكيف وجدت نفسها في هذا الوسط. لم تكن لها من صفات المرأة المرغوبة أو المشتهاة سوى ضحكة تملأ وجهها، أقرب إلى ضحكات الأطفال، وصوت يقطر بكل الحزن. كانت تحفظ عدداً من أغاني الجنوب، وتعرف كيف تغنيها ومتى.

زهور إذا اختارها رجل ذات مرة، وحظها دائماً أقل من غيرها بكثير، تعرف كيف تجعله يختارها مرة أخرى! ولأن الأخريات لا يعتبرنها منافسة لهن، تقوم بأعمال لا يقوم بها إلا الخدم عادة، لذا فإن وجودها واستمرارها ضروريان، وهذا ما جعلها باقية، وربما أكثر من غيرها. ليس ذلك فقط، كانت لا تخرج من البيت إلا نادراً، لأن لا أحدَ من الرجال يطلب أن توافيه إلى مكانه، وقيل إنها تخاف الخروج أيضاً لأن لديها إحساساً قوياً أن هناك من يترصدها، ولا بد أن يقتلها.

زهور الوحيدة التي قُدّر لها أن تنام مع لطوفي. حصل الأمر صدفة، إذ جاء ولم يكن في «البيت» غيرها. خافت إلى درجة لم تخف هكذا من قبل حين وجدت نفسها وحيدة مع لطوفي. تمنت لو لم يجيء، لو أن أحداً معها. طلب الشاي، قدمته بارتباك، وحاولت أن تنشغل، أن تغادر الغرفة، لكن لطوفي طلب منها أن تجلس قبالته، وأن تغني.

هكذا روت القصة لروجينا في نفس الليلة، ومع كل أغنية يطلب منها الاقتراب، وإعادة بعض المقاطع، وكان يرتجف، وكأن خوفها انتقل إليه، وفي لحظة ما، ولا تتذكرها بوضوح، مع أن روجينا أكدت عليها مرات أن

تحاول استعادتها بكل دقة، لكنها، كما تقول، كانت مضطربة خائفة، وكان خوفها يزداد وهي ترى لطوفي على تلك الحالة من الانفعال، كان يرتجف، يرتعش، تصطك أسنانه، وفجأة انقضّ عليها. لأول وهلة ظنت أنه سيقتلها، وسيتم ذلك خنقاً، لكنه أخذها إليه كما تؤخذ وسادة، وحين أحست بحرارته، بأنفاسه، تأكدت في اللحظة أنه يريدها.

وتتوقف زهور عن متابعة التفاصيل اللاحقة، لأنها لم تعش لحظات ممتعة مثل تلك اللحظات، ولا تظن أن مثل تلك اللحظات يمكن أن تتكرر مرة ثانية!

روجينا وهي تدقق بالتفاصيل، فيما تستعيد زهور كل حركة، تريد أن تفعل مثلها، لعلها بعد هذا الفشل الطويل المتواصل، تصل.

ورغم أنها قامت بالدور كله، حتى الأغاني التي غنتها زهور، غنتها له، وأضافت وحوّرت، ولجأت أيضاً إلى السحر والعطور، لكن لطوفي يمعن في تعذيبها، بالتوقف عند لحظة لا يتجاوزها!

حتى مع زهور لم تتكرر المحاولة، أو هكذا تدّعي! وتقسم بعض الأحيان، لكن أحداً لا يصدقها، لأن «البنات» كثيراً ما يغبن عن البيت، ولأن لطوفي يأتي حسب رغبته، وليست له مواعيد أو أوقات ثابتة. فإذا حضر، وكانت واحدة أو أكثر من «البنات» يكتفي منها بالغناء! أما غير ذلك فلا يُعرف عنه شيء!

في وقت ما، قبل أن يحدث ما حدث مع زهور، كانت روجينا حين تخلو لنفسها، تسيطر عليها فكرة أن لطوفي ليس رجلاً مثل باقي الرجال في علاقته بالمرأة. وظنت أن في الأمر خوفاً أو جهلاً، أو ربما مكتوب له سحر. ولذلك فهو مربوط، ولا بد من فك هذا السحر وحلّ ذلك الرباط، وقد بذلت جهداً في هذا المجال لكن دون جدوى!

في وقت لاحق ظنت أن زهور تكذب، وربما رتبت الأمر مع لطوفي لكي لا تُظنّ به الظنون، لكن طريقة زهور وهي تروي ما حصل، وكيف أن عينيها تشعان ببريق لا يصدر إلا عن إنسان اشتعل بلهيب نشوة لا يستطيع

الفكاك منها أبداً، تجعلها تنفي احتمال الكذب.

ولأنها تريد أن تصل إلى ما وصلت إليه زهور، كانت تنفي أية شبهة حول رجولة لطوفي، كما بذلت جهداً كبيراً كي تصل إلى مستواها في الغناء، وأن تتفوق عليها أيضاً، واتبعت أساليب إضافية في محاولة الاقتراب من لطوفي، كأن تدلك ساقيه، أو تداعب أذنيه وأن تقدم له العسل بشهده، وأن تذبح له طيور الحمام للأكل والنذر معاً، وتجرأت مرات في أن تمدّ يدها هناك، لكن «التيس، كما كانت تردد لنفسها، بعده معاند». ورغم ذلك لم تسلّم ولم تتوقف عن المحاولة!

ظلت الأمور هكذا، وكانت روجينا متأكدة أن الشيء الذي قد لا يحصل اليوم لا بد أن يحصل غداً، وسوف تعرف كيف تصل.

ذات صباح أفاقت بغداد على خبر ملأ جنباتها: لطوفي قتل، وانطوت صفحة في حياة روجينا، وحياة المدينة.

تذكرت روجينا تفاصيل هذه القصة وهي تستعيد وجه سيد عليوي. وبانتظار أن يزورها مرة أخرى، تذكرت قصة نعيم أبو طوب، وقد خدم لديها فترة من الزمن، كان خادماً وحارساً، يخاف منه الطارئون على «البيت» بقصد ابتزاز «البنات»، أو التهرب من الدفع، وبعض الأحيان افتعال المشاكل كي لا يدفعوا كل ما يطلب منهم. كان نعيم يتولى أمر هؤلاء، ويعرف كيف يجعلهم يتوبون عن اللجوء إلى مثل هذه الأعمال، ليس فقط نتيجة القسوة أو العنف الذي يميز ردود فعله بل ونتيجة الإساءة والفضائح التي يعرف كيف ينشرها عن هؤلاء في المقاهي القريبة، لتصل في اليوم ذاته، أو في اليوم الذي يليه، إلى أبعد مقهى في بغداد، كيف حبسهم في أماكن معينة! ماذا فرض عليهم من أعمال يأنف أي إنسان عن القيام بها كي يطلق سراحهم، أو يكف عن ضربهم!

نعيم ذاته بين البنات يفضّل أن يُنادى بنعيمة، ويتصرف كأي بنت من هذا الوسط، هذا إضافة إلى أنواع الملابس والألوان التي يختارها، ولا يتردد في أحيان كثيرة أن يلبس مثل النساء أيضاً.

أكثر «البنات» يعتبرنه «أخاً»، وبعضهن يناديه أستاذي، وهو معهن محب كأخ، ووديع مثل أب، وبقدر ما يخافه الآخرون ويتجنبونه، فإن «البنات» شديدات التعلق به. فإذا غاب تخيّم على «البيت» وحشة، ويدخل الخوف إلى قلوب البنات، حتى إذا عاد بعد يومين أو ثلاثة كان يحمل معه قصص الجزء الآخر من الميدان، حيث يعيش الأغنياء وكبار الموظفين والعاملين في السراي، وكلها تتحدث كيف نام معه فلان، وكيف نام هو مع فلان الآخر، وكيف عاش مثل سلطان اسطنبول أو مثل الوالي خلال تلك الأيام، ولديه الكثير من الأدلة والإثباتات التي تؤكد صحة ما يقول!

هل يعتبر سيد عليوي واحداً من الذين يفضلون هذا النوع من العلاقات؟ هكذا تساءلت روجينا، ولم تكن تملك جواباً، أو لم تكن متأكدة من الجواب.

24

منذ الليلة التي قتل فيها سعيد، وقعت نابي خاتون فريسة للمرض. كان المرض أول الأمر نوعاً من الهلع، إذ تبقى مفتوحة العينين في حالة ترقب وخوف، فما أن تلمح جفناً يتحرك، أو يداً ترفع، ما يكاد طير يرف بجناحيه، أو يُسمع صوت، حتى ترفع يديها الاثنتين بطريقة دفاعية، وكأنها تتقي شيئاً. لما أصبحت تترك وحيدة، لإشعارها بالطمأنينة، تحول هلعها إلى حالة من الذهول، إذ تمضي ساعات وهي تتطلع إلى نقطة بذاتها. كانت تهز رأسها بعض الأحيان، تهزه بالموافقة أو بالرفض، وللتأكيد في حالات معينة، وكانت تكلم نفسها بتمتمة لا تتجاوز حركة الشفتين.

ظلت هكذا خلال الشهور الثلاثة الأولى، ثم فجأة تحولت إلى العنف. كانت تصرخ، تشتم، تحطم، وتريد أن ترى أي إنسان لتصب عليه كل غضبها، الأمر الذي أدى إلى احتجازها في بيت لا يعرفه إلا عدد محدود من خاصة رجال الوالي. وبعد أن رفضت تناول الدواء، ولم تجدِ بعض المعالجات، كالتدليك والماء الساخن، اضطر الطبيب الذي كُلّف بمعالجتها والإشراف عليها، لإصدار أمرٍ بتقييدها الى قوائم السرير، ثم إلى تكثيف المعالجة، مما جعلها تنام ساعات طويلة متواصلة.

نوبة العنف لم تطل، خاصة وأن الأدوية التي أجبرت على تناولها حوّلتها إلى امرأة مسكينة لا تفعل شيئاً سوى البكاء. كان بكاؤها صامتاً حزيناً، وغالباً دون صوت. ولأنها بلغت حالة من الضعف والاستسلام، ورأتها هكذا ابنتها نازك خاتون، زوجة الوالي، فقد حز في نفسها أن تترك

وحيدة أو أن تعامل بهذه الطريقة، فتضرعت إلى زوجها، وكانت توسّلاتها تختلط بالدموع، أن يوافق على نقلها إلى السراي، إذ يمكن في هذه الحالة أن تعتني بها، وقد تشفى.

لم يتأخر الباشا في الموافقة، إذ نُقلت إلى جناح منعزل في قسم الحرملك بالسراي، وأصبح يطلق عليها: السيدة الكبيرة، وبدا وكأن هذه المشكلة انتهت، أو في طريقها لأن تكون كذلك. لكن ما انقضت أسابيع قليلة حتى عاودت نابي خاتون سيرتها الأولى: البكاء، وأحياناً الصراخ؛ وتحطيم الأثاث؛ ورفض تناول الأدوية. ورغم التكتم على الأمر، وإخفائه عن الباشا، فقد كانت تصله أخبارها، وكان مضطراً للسكوت. وقد حمل ذلك الطبيب على تقييدها من جديد، وزيادة الأدوية التي تعطى لها، بحيث أصبحت تبدو كالمخدرة أو الغائبة عن الوعي.

ولما هدأت من جديد، أصبحت السيدة الكبيرة كالأطفال بتصرفاتها وأسئلتها: تسأل عن كل شيء، بما في ذلك أسماء الذين حولها، وما هي صفاتهم، وإلى متى سيبقون هنا. فإذا انتهت من هذه الأسئلة تلتفت إلى توجيه الأوامر بضرورة تهيئة الطعام لسليمان باشا الكبير، لأن من المحتمل أن يصل في أية لحظة، ولا بد أيضاً من إعداد الماء الساخن لحمّامه اليومي، وتأمر بتحضير ملابس محددة للباشا، لأنه يفضلها على غيرها خلال فترة المساء، ويجب أن تكون مع هذه الملابس العصا السوداء القصيرة، وأيضاً سبحة العقيق أو الكهرمان!

وإذا كان داود باشا لا يأبه لهذه التصرفات والأوامر، ما دامت السيدة الكبيرة هادئة، لا تصرخ ولا تحطم، فإن كل خشيته أن تعاودها نوبات العنف، خاصة وأن الأخبار أخذت تتسرب من السراي، وأصبح يلوكها الناس في المقاهي والأسواق، ومعها الحديث من جديد عن سعيد وسليمان، والأحداث التي مرت. وقد فكر أكثر من مرة أن يحجر عليها، أن يسفرها إلى خارج بغداد، أن يتخلص منها، لكن كان يؤجل ذلك ما دامت هادئة، وانتظاراً للوقت المناسب.

في إحدى المرات، وقد تسللت السيدة الكبيرة إلى جناح الوالي، أخذت الخلعة التي دخل بها داود باشا بغداد، وخلال وقت قصير حولتها إلى كومة من القطع الصغيرة، بعد أن أعملت مقصاً حاداً بها. وسرعان ما وصل الخبر إلى الباشا، فقال للذين حوله، وكان ضمنهم الآغا:

ـ موت بعض الناس راحة لهم ولغيرهم!

وبكلمات قليلة، غامضة، أشار إلى مرض السيدة الكبيرة، دون أن يضيف شيئاً آخر. أما الآغا الذي تعمد أن يبقى مع الباشا، فقد قال حين أصبحا وحيدين:

ـ إذا فاتنا نخلص منها ذيك الليلة، فوكل لي أمرها، يا باشا، وما يكون لك بال!

ابتسم داود باشا، كانت ابتسامته حزينة، ورد كأنه يخاطب نفسه:

ـ المكان ضيق والبغل رفاس، يا آغا، ونحن بدل ما نهتم بقضايا البلاد والعباد، طلعت لنا هالعجيزة، واللي ما قدر عليه الرجال تريد تسويه!

ـ إذا تركت الأمر عليّ، يا باشا، آني أدبره!

ـ تأخر الوقت... يا آغا...

وبعد قليل:

ـ القشة بالعين ما تعمي لكن تزعج، فخلي كم شهر يمر وبعدها نشوف!

خلال إحدى نوبات صحو السيدة الكبيرة، جاءتها واحدة من الخادمات لتقول لها إن رأس سعيد أرسل إلى اسطنبول، ولا بد أن تلحق به إلى هناك، لأن قبره أصبح مزاراً، يأتيه الناس من كل مكان.

وقالت لها الخادمة مرة أخرى إنه بذهابها إلى اسطنبول لن يتاح لها زيارة القبر فقط، بل ويمكن أن تقابل السلطان. فإذا قابلته وشرحت له كيف حصلت الأمور، منذ أن جيء بداود طفلاً صغيراً وبيع في بغداد، وكيف أن سليمان الكبير اشتراه واعتنى به وهذّبه إلى أن كبر، فوثق به وقرّبه، وكدليل على تقريبه زوّجه ابنته ثم دارت الأيام، وبدلاً من رد

الإحسان تحول داود إلى قاتل. ولم يكتف بقتل البدو وأهل المدن، بل بلغت به الخسة حداً أنه قتل ابن الذي ربّاه. والسلطان حين يسمع القصة من بدايتها إلى النهاية، سوف تثور الدماء في عروقه، فيبعث وراء داود فوراً لكي يحاسبه، وداود إذا مثل بين يدي السلطان، وكانت نابي خاتون موجودة، ونظر إلى عينيها سوف يصاب بالرعب، ولن يستطيع إخفاء الحقيقة. وبعد أن يعترف أمام السلطان، والذين حوله، لا بد أن ينال جزاءه، «لأن مثل ما قال أهل قبل: بشر القاتل بالقتل، ولو بعد حين».

ونابي خاتون التي أعجبتها الفكرة، واستعادت الخادمة روايتها مرة وثانية، سيطر عليها هاجس السفر، وكانت تبرره بزيارة قبر سعيد، ولا تضيف شيئاً آخر.

ورغم أن ابنتها، نازك خاتون، زوجة الوالي، بذلت جهداً كبيراً لصرفها عن هذه الفكرة، وأكدت لها أن سعيد باشا دفن، الرأس والجسد، في مقبرة الإمام الأعظم أبي حنيفة، وفي مكان دفن الولاة، وقد شيعه الوزراء والأمراء، وحالما تتعافى سترافقها لزيارة الضريح، إلا أن السيدة الكبيرة كانت تسخر مما ترويه ابنتها. فإذا أكدت نازك خاتون، وأقسمت، على صحة ما تقول، تبدأ الأم بالصراخ وبتحطيم الأثاث والزجاج، الأمر الذي جعل الوالي يوافق، وبحماس، على أن تسافر، وترك لها أن تختار بين حلب واسطنبول، ولا مانع لديه، إذا شاءت، أن تسافر إلى الحج، لأن زيارة الكعبة تنير القلب وتعافي الجسد، وإذا رغبت أن تجاور إلى جانب قبر الرسول، فإن كل مسلم يتمنى مثل ذلك.

ولم تتأخر السيدة الكبيرة في أن تختار اسطنبول وجهة لسفرها، ولم تقل أية كلمة إضافية، كما طلبت منها الخادمة، لكي يوافق الباشا، ولئلا يشك في النوايا، ثم بالنتائج!

أمر الوالي بتهيئة قافلة للسفر إلى اسطنبول. وفي الليلة الأخيرة، قبل السفر اختلى بصادق أفندي، صهره، وابن نابي خاتون، وأخذ موافقته على سفر الوالدة.

عند أضواء الفجر، كان الموكب الصغير يستعد للتحرك، وقد جرى للسيدة الكبيرة وداع قصير، وكان حزيناً، إذ لم يشارك فيه سوى عدد محدود من أفراد الأسرة، وعدد أكبر من الخدم والحراس، وبدأت القافلة رحلتها باتجاه اسطنبول.

ما كادت أيام قليلة تنقضي حتى انتشرت أخبار متضاربة عن غياب نابي خاتون. كان أول رد من رجال السراي، أن السيدة الأم لا تزال موجودة، وقد استعادت صحتها، بعد أن بذل الوالي أقصى العناية، حتى أنه استدعى أطباء من حلب واسطنبول لمعالجتها، وأنه الآن يطلب مرضاتها، بعد أن تولت نسوة في السراي شرح ما وقع، وأن داود باشا أصابه السقم، وعزف عن الأكل لأيام عديدة حين بلغه ما حصل لسعيد باشا، وقد أمر بأن يقتل كل الذين تسببوا بهذه الجريمة، التي لم يسمع بها إلا بعد أن وقعت.

يقول رجال السراي ذلك، ويؤكدون أن نابي خاتون، بعد أن عرفت التفاصيل، قالت للباشا، وقد سمع عدد من الخدم ما قالته:

ـ لا يمكن للإنسان أن يقتل ابنه، وسعيد كان ابنك، أعز من ابنك.

ويضيف واحد من الخدم أن داود باشا بعد أن سمع هذا الكلام قبّل رأس نابي خاتون، بعد أن رفضت أن تعطيه يدها ليقبلها!

كان مثل هذا الكلام يدور في الأيام الأولى لسفر القافلة. أما بعد أن وصل بعض المسافرين والتجار من ماردين والموصل، وأكدوا أنهم التقوا بقافلة نابي خاتون، فقد قال رجال السراي إن نابي خاتون سافرت بالفعل، لكنهم لم يضيفوا شيئاً آخر. لم يقولوا إلى أين أو إلى متى. وحين سئلوا مرة ثانية وثالثة عن وجهة سفرها، وما إذا ستعود قريباً، أجابوا بتردد وحيرة: إنها سافرت إلى حلب بدعوة من واليها، وسوف تبقى هناك حتى تشفى، أو إلى أن يوافق الوالي، لأن «الضيف أسير المعزب» ويبتسمون دلالة أن مثل هذا العرف يحكم زيارات الضيافة!

فإذا توالت الأسئلة، ومعها الإشاعات والشكوك، ووجد رجال السراي أنفسهم مضطرين للإجابة أو للتوضيح، فإنهم يقولون إن سفر نابي خاتون

قد يطول، إذ من المرجح أن تذهب بعد حلب إلى زيارة الأماكن المقدسة في دمشق والقدس، وقد تصل إلى المدينة المنورة!

ولأن القوافل لا تتوقف بين بغداد والشمال، وصولاً إلى اسطنبول، ولأن كثيرين يسلكون هذا الطريق، فإنه حين سُئل بعض المسافرين ما إذا قابلوا نابي خاتون في طريقها إلى اسطنبول، ذكر هؤلاء أنهم التقوا بقوافل عديدة، لكن لم تكن ضمن أي منها نابي خاتون. ولم يتأخر رجال الباشا ليذكروا أن تلك القافلة، في إحدى مراحل الطريق، وبناء لرغبة السيدة الكبيرة، غيّرت وجهتها، وذهبت إلى المدينة المنورة، وأغلب الظن أن تبقى نابي خاتون هناك، أن تجاور بالقرب من قبر النبي.

وحين وصلت قافلة من الموصل، حاملة كميات كبيرة من الحنطة، فقد ذكر أفراد في هذه القافلة، أن سيلاً هائلاً دهم قافلة كانت آتية من اسطنبول في طريقها إلى مكة، وقد جرف ذلك السيل عدداً من أفراد تلك القافلة وأغرقهم، فقال رجال السراي إن نابي خاتون كانت ضحية ذلك السيل، وغرقت مع الذين غرقوا!

أما في قهوة الشط، فقيل إن نابي خاتون غادرت بغداد مصممة أن تكون اسطنبول وجهتها، لكنها لم تصل أبعد من كركوك، فقد داهم «اللصوص» القافلة وبعد أن سلبوا كل شيء، عرفوا أن نابي خاتون في القافلة، ولخوف «اللصوص» من عقاب الوالي والسلطان، وفي محاولة لإخفاء الجريمة، فقد قتلوا الجميع وفروا!

ورغم أن عقلاء صوب الكرخ، وفي قهوة الشط، نبّهوا من هم أصغر منهم سناً، بضرورة الحيطة حين يتحدثون إلى الغرباء، خاصة بأمور تتعلق بالسراي، ولجأوا أيضاً إلى شيء من التكتم والحذر، وبعض الأحيان إلى استعمال عبارات محايدة وهم يجيبون على الأسئلة التي توجه إليهم، إذ يقولون: «أخبار ذاك الصوب» دون تحديد ودون تخصيص، إلا أن الإجابات تفهم أو تحوّر على أنها تعني الوالي وتعني السراي.

الآن وهم يسمعون القصص التي تروى عن نابي خاتون، والتي تتراوح

بين وصولها إلى اسطنبول ومقابلتها للسلطان، وكيف أن السلطان حين سمع منها قصة ما حصل، أجهش في البكاء، وبكى معه كل من كان في مجلسه، وقد أمر بإحضار داود إلى اسطنبول. بين هذه الرواية، وتلك التي تتحدث عن السيل، وما أخذه في طريقه، وكانت نابي خاتون في جملة ما أخذ، فإن المسنين في قهوة الشط حين يسمعون هذا الذي يقال، يرددون كلمات تفهم ولا تفهم، يقولون: «اللي يدري يدري، واللي ما يدري يقول: چف عدس».

25

مع تزايد عدد الناس حول داود باشا كان شعوره بالوحدة يزداد، ورغبته بالانعزال تقوى. لم يكن هكذا من قبل، لكنه امتلأ بهذا الشعور منذ أن عاد إلى بغداد وأصبح والياً. ومع كل يوم جديد، ومع كل حدث جديد، يحس أن الذين حوله يزدادون بلادة، أو يصبحون أقل قدرة على فهم ما يريد. صحيح أنه يتبادل معهم الحديث، ويتبسط في الكثير من الأحيان وهو يشرح ويوضح، وكانوا يصغون إليه ويهزون رؤوسهم دلالة الفهم، كما تخرج من حناجرهم كلمات كبيرة، لكنه يحس أنهم في عالم آخر، وربما لم يستوعبوا ما قصد إليه، وهذا ما يجعله يتألم ويمتلىء بالضيق. كان يتمنى لو يكف هؤلاء الذين يدورون حوله عن التمثيل، عن إطلاق صيحات الإعجاب، لكن دون جدوى.

ونظراً لتزايد انشغاله، فقد أصبح يعتمد على فيروز ينقل إليه الهمسات التي تتردد في السراي، وكذلك على نائلة خاتون تنقل إليه ما يدور في الحرملك.

وفيروز، من حيث الشكل والسلوك حالة مفردة، لا تتكرر إلا بأزمنة متباعدة، وفي أمكنة متباعدة.

لم يأت مع داود من تفليس. ولم يكن يوماً قريباً من السراي أو له صلة بالذين يحكمون. من ينظر إليه قد ينسبه إلى بخارىٰ، أو إلى جزيرة في البحار البعيدة، لأن وجهه قد يبدو غريباً من حيث لون البشرة، لكن إذا دقق الإنسان في الملامح يجد منها شبهاً في الكثيرين، وإن وزع بمقادير

وأشكال تجعل فيروز مختلفاً. صغير الحجم، هذا شيء مؤكد، لكن دون تشوه من أي نوع. وقصر القامة هو أكثر ما يلائمه، إذ لو كان أطول قليلاً، لبدا غريباً. حتى الكفان، رغم صغرهما، فإن فيهما من القوة ما يجعل الذي يصافحه يحس شيئاً يكمن في الداخل، ليست القسوة ولا الشعور بالعظمة، وإنما ذلك الكيان المستقر، الواثق، والذي لا يخلو من حزن.

رجل باهر، في كيان قد يبدو، من بعيد، صغيراً، لكنه كاف ومقنع. فإذا استقرت عيناه في عيني أي إنسان، إذا سمعت كلماته، وهي قليلة على العموم، فلا بد أن تترك في الذاكرة أثراً لا ينسى.

أما كيف أصبح فيروز قريباً من داود، فإن الصدفة وحدها خلقت هذه القرابة:

« ـ كنت أوفي نذراً لأمي: أن أسقي العطاش في مقام سيدنا عبد القادر لمدة ثلاثة أيام، وخلال الأيام الثلاثة كان يصادفني ذلك الشيخ فأقول له: ماء منذور، أتشرب يا سيدي؟ كان يتناول الطاسة ويشرب. في اليوم الثالث صادفته مرتين، قبل الظهر وعند الغروب، وقد شرب في المرتين، وقال: ليبارك الله من وفى عهداً، ومن سقى عبداً، وليجعله من أبناء السلامة». «كانت عينا الشيخ تقول إضافة إلى الكلام كلاماً، وكانت يده، وهي تمتد إلى الماء، تشكر الخالق على نعمه، إذ كان يبسط كفه جميعها شكراً وامتناناً، ويقول: إذا جرى الماء بين الناس، إذا لم يحبسه إنسان، بعد أن مَنّ به خالق الأكوان، فأمة الإسلام بخير، ولو بعد حين».

ويضيف فيروز، وقد استبد به الحنين لأيام قديمة:

«بعد أن وفيت بنذر أمي، لا أعرف كيف وجدت نفسي أذهب كل يوم إلى مقام سيدنا عبد القادر. وإذا شغلني الماء أسقي به العطاش في الأيام السابقة، فإن عيني ذلك الشيخ، ثم كلماته، استهوتني، ثم جذبتني، فوجدت نفسي أذهب إليه كل يوم، وأسمع ما يقول، ووجدت أنني أحب ما يقول، بل وأعرفه بقلبي وإن لم يطعني لساني على ترجمته إلى كلمات، كما يفعل هذا الشيخ الجليل.

«ولما داومت على الذهاب إليه يوماً بعد يوم، وجدت نفسي مضطراً للذهاب كل يوم. لما رآني لا أفارق مجلسه، وأني إليه أنظر، وبه تعلقت روحي، قال لي ذات يوم: إذا لم تثقل عليك أعباء الحياة، ولست مضطراً أن تعيل أماً أو أباً أو ولداً، وبك حنين إلى الجنة فأنا بحاجة إلى من يساعدني ويحمل عبئاً عني. ولا أعرف كيف قلت له: لبيك وأنا الخادم بين يديك، ومنذ ذلك الوقت لم أفارق سيدي ومولاي داود باشا يوماً واحداً».

أما داود باشا الذي لا يتذكر التفاصيل التي يرويها فيروز، فيتذكر أن هذا الرجل بمقدار ما يستقر في القلب فإنه يتعب العقل، إذ بعد أن يغيب الوزراء والاغوات وأمراء الجيش، يتحدث نيابة عن الجميع، ويسرف في بعض الأحيان، ليقول كيف يفكر الناس، ما يحبونه وما يخافون منه.

ويختم داود باشا ما يريد أن يقوله عن فيروز بكلمات قليلة: «إنه عين المدينة ولسانها، وإذا غاب الكثيرون وحده يتكلم، وإليه وحده أصغي!».

قد يبدو فيروز قصيراً، بنظر البعض، وقد تكون بشرته داكنة قليلاً، وربما يختلف الناس حول عدد من صفاته، لكن الصفة التي لا خلاف عليها: انه يعرف الكثير، ولكن أكثر شيء يعرفه هو الصمت!

ومثلما كان داود يثق بفيروز ويؤثره على كل حاشيته، فإنه إذا انتقل إلى الحرملك فهناك: نائلة خاتون.

ونائلة رغم أنها ليست أماً أو أختاً، وليست زوجة، كما لا تعتبر قريبة من القريبات، إلا أنها أهم، أو من أهم، شخصيات الحرملك.

تربت، مثل داود، في سراي سليمان الكبير، وهي أكبر منه ببضع سنين. بعد أن تزوجت مرتين ولم تنجب، وبعد أن مات زوجها الثاني، قررت أن تسقط الرجال من حياتها، وقيل إنها خاوت واحداً من الملائكة، وانصرفت إلى العبادة والصلاة.

أحبت داود كأم أو كأخت كبيرة، وأصبحت من حاشيته. حتى عندما استقر في باب الشيخ، بجانب المرقد، ولم تكن له حاشية، كانت نائلة

خاتون ضمن أفراد أسرة داود، وبمرور الوقت أصبحت واحدة من الأسرة ولا غنى عنها.

رغم تقدمها بالعمر ظلت نائلة خاتون محتفظة بوجه أنيس. الابتسامة لا تفارق وجهها، حتى لتبدو كالأطفال، خاصة وأن حجمها صغير، إذ كانت أقرب إلى القِصر، مع سمنة قليلة تجعلها إذا مشت، إذا تلفتت، أقرب إلى البطة.

في وقت ما لم تكن لها واجبات محددة، ومع ذلك يحس الجميع بضرورتها، حتى إن غيابها، ولو لفترة قصيرة، يخلق فراغاً لا يمكن لأحد أن يعوضه، خاصة لداود، ربما لما تحفظه من قصص، ولطريقتها التمثيلية وهي ترويها، إضافة إلى بساطة تمتزج بالبلاهة، أو أنها تصطنع البلاهة لتسوغ لنفسها أن تتصرف وتتكلم بطريقة لا تؤاخذ عليها، ولا يجرؤ أحد أن يفعل مثلها!

تحب الصغار، لكن بمقدار. إذ تتجنب المواليد في سنواتهم الأولى، لأنها لا تطيق الانشغال بأمور أكلهم ونظافتهم، ولا تمانع في مداعبة من هم أكبر سناً. وكلما كبر الصغار كانت تزداد علاقتها بهم، فإذا شبوا، ثم تقدموا بالعمر، اعتبروها أماً أخرى لهم، ربما تمثلاً بالأب، والذي يُطلق عليها الرضيعة، أو الخاتون، أو لأنهم يجدون فيها سحراً حين تروي القصص وحوادث الأيام. وفي وقت معين تصبح موضع أسرارهم وثقتهم، إذ تعرف كيف تواسي، ثم كيف تداوي، خاصة خيبات المراهقين وأوجاع من هم أكبر سناً!

ظلت هذه حال نائلة خاتون سنيناً عديدة متواصلة، إلى أن ولدت محسنة، وهي الابنة التي ولدت لداود قبل شهور من رحلته إلى الشمال. سمّاها هكذا تيمناً وتفاؤلاً بما قد يقع. كان يريد من الله أن يحسن إليه، أن يتفضل عليه بالإشارة فجاءت. وما عزز تفاؤل داود تأكيد نائلة خاتون «أن قُصّة هذه الفتاة كلها خير وبركة، لأنها ولدت والقمر بدر، وهذا دليل أن الأيام مقبلة».

ولادة محسنة غيّرت بالكامل حياة نائلة خاتون، جعلتها امرأة أخرى. إذ بعد أن تضيق ببكاء الأطفال أو صراخهم، كانت تأمر المربيات أن يستعملن بعض النباتات المخدرة لكي يكفوا عن البكاء، وتجعلهم يغرقون في النوم. كما لا تتردد أن تصيح على الأطفال المزعجين، بل وقد تخيفهم ليسكتوا أو يبتعدوا. أما الآن، وبعد أن ولدت «سعد أبيها» محسنة، فقد أفردت لها سريراً إلى جانب سريرها، واستعادت الكثير من الأمور التي نسيتها، أو تعمدت نسيانها، بشأن تربية الصغار، من الأكل إلى النظافة فالغناء.

خلال الفترة القصيرة التي قضاها داود في بغداد قبل أن يتوجه إلى الشمال، أصبح ينظر إلى الصغيرة من خلال عيني نائلة خاتون، ولأنه تفاءل بولادتها، ثم برعاية الرضيعة لهذه الصغيرة، فقد سافر وكله ثقة وأمل بالأيام التي ستأتي.

كانت نائلة خاتون تقدم لداود تقريراً غيابياً كل ليلة، إذ تتطلع إلى الصغيرة وتوجه الصوت إلى البعيد: « . . . وضحكت اليوم يا أفندينا، شلون ضحكة. . . تفك الصدر» «الليلة، للفجر، ما شافت عيني النوم، لكن ما يخالف، فدوة لعيونك» «يا بك، يا أبو يوسف، اليوم بزّ سنها مثل هلاهل الربيع» «ناغت اليوم، فدوة لعيونها ما أحلى مناغاتها، عبالك يمامة، عبالك حمامة» وتتمادى في إحدى الليالي، تقول وهي تضع يدها أمام عينها، تعبيراً عن الخجل « . . . حتى ضرطتها، حاشاك، يا بك، يا أبو يوسف، ما لها ريحة».

أما بعد أن قضى داود باشا شهوراً طويلة في الشمال، ثم عاد، فكان أكبر شوقه لهذه الصغيرة التي حاربت إلى جانبه وجعلته ينتصر. وما قالته نائلة خاتون غيابياً قالت أضعافه لداود بعد أن عاد. كانت لا تتعب وهي تحكي له عن التفاصيل الصغيرة، وعن كل يوم من أيام محسنة التي مرت، وكانت تنهي حديثها بعبارة أصبحت مألوفة لفرط ما كررتها، كانت تقول:

ـ ظفرها يسوي ديرة وعشيرة، وعلى قصتها شفت الخير كل الخير،

والجاي، بعد، أكبر.

وكرّت الأيام. أكملت محسنة سنتها الأولى، عيناها الواسعتان تنظران إلى كل ما حولها. كلماتها تتعثر قليلاً ثم تستقيم. قلّ بكاؤها وزاد ضحكها. ورغم أنها تمانع الانتقال من يد إلى أخرى، إلا أنها لم تمانع أن تنتقل إلى أحضان داود. كانت تنظر إليه بود، تبتسم، وكان يروق لها أكثر ما يكون أن تعبث بلحيته والشوارب. وتبقى هكذا وقتاً غير قصير، ثم ترتمي على نائلة خاتون. وفي أحضانها تتحول إلى عصفور لا يمل أبداً من التغريد. كانت تضحك من أعماق قلبها، تتغشغش، حتى أن الباشا خاف وتحسب أكثر من مرة من هذا الضحك أن يرهقها أو أن يؤثر عليها، لكنها سرعان ما تعود إلى العبث ثم إلى الهدوء، رغم أنها لا تكف عن محاولة الطيران والافلات من يدي نائلة خاتون. لكن وهي تعود إلى الأحضان تبدو مثل غزالة أتعبها الركض ولا بد أن تنام. والباشا كثيراً ما مر في اليوم الواحد عدة مرات، حتى أثناء نومها، لكي يفرح ويأنس بها.

بعد الأسنان الأولى، وبدخول فصل الربيع، أصبح هم نائلة خاتون، وقد جاوزت محسنة عامها الأول، أن تقف على رجليها، أن تمشي.

استعادت نائلة خاتون كل ما تتذكره من الأهازيج التي تشجع الأطفال على الوقوف ثم المشي. استعانت بالمربيات كي تحفظ المزيد من هذه الأهازيج والأغاني. رددتها بأنغام لا حصر لها، وهي ترفع الطفلة، وهي تشجعها، والطفلة التي أَلِفَتْ هذه الأهازيج، وأصبحت تحبها، تستجيب لها، تنفعل بها، ترتفع، تحاول أن تقف، لكنها بعد محاولات عديدة لا تواصل، إذ تتوقف وهي تلوي رقبتها.

كانت نائلة خاتون تقول لها بصوت عال:

- أسنان الزغار من أسنان الأمهات، أما الرجلين فمن التراب والشمس.

وتضحك الصغيرة، وتضحك معها نائلة خاتون وهي تقول لنفسها: «الشمس إذا ارتفعت تقوي العظام، والبني آدم ما لازم يعاند، فإذا راح يوم

وجا الثاني تتعدل، تصير الرجلين خيزران، أقوى من الخيزران، بس تدفا الدنيا».

وجاء الربيع ثم انقضى، ونائلة خاتون تبذل جهوداً تتضاعف يوماً بعد آخر، كي تقف الطفلة، ثم كي تمشي، لكن كل الجهود انتهت إلى نتيجة محزنة: الطفلة بعظام رجليها الضعيفة غير قادرة على الوقوف، وقد لا تقوى على المشي في وقت قريب.

هل يمكن لنائلة خاتون أن توافق أو أن تستسلم؟

لم تترك وسيلة. لم تتوقف لحظة واحدة عن المحاولة. انشغلت عن كل شيء إلا هذه الأقدام الصغيرة. كانت تلف الساقين. كانت تفك اللفائف. كانت تبدأ بفرك القدمين إلى أن تصل الأفخاذ والحوض بزيت النارنج وماء الورد. كانت تقرأ عليها الأوراد طوال الليل، والأقدام عاجزة، لا تستجيب لسائل أو دعاء، ونائلة خاتون تزداد إصراراً.

استدعت كل من له علاقة بطب أو رقية. بذلت بسخاء لعرافات جلبن لها نباتات من أمكنة بعيدة، وأكدن لها أنه قبل أن يحول الحول، ستركض الصغيرة مثل غزالة، لكن وسائل الطب لم تجد، وعجزت نباتات العرافات عن تحريك قدمي الصغيرة.

حملت نائلة خاتون الطفلة إلى جميع الأضرحة والمقامات. نذرت وربطت الخيوط على الشبابيك وشواهد القبور، وبعد أن فكتها ربطتها من جديد على كاحلي الصغيرة، ربطتها برقة مع كلمات كثيرة امتزجت بدموع أكثر. طلبت من الخيوط ومحسنة معاً أن تفعلا شيئاً، لكن الخيوط صمتت، والصغيرة تفتح عينيها بحزن وهي ترقب الخيوط تأتي وتذهب لا تعرف لماذا... ولا يتغير شيء.

بعد الربيع والصيف ثم الشتاء، كل شيء في محسنة يكبر ويتفتح إلا الساقان، فإنهما لا تكبران إلا بمقدار، وكلما كبرتا يزداد العجز ويظهر أكثر. ومع الكلمات الأسئلة التي تتبعثر من الفم الذي يشبه اللوزة، حين ترى من هو أصغر منها يتسلق الحائط ليقف، أو يمسك بأحد أصابع الكبار

لينهض، وتسأل محسنة:

- بيبي... شْوَكت أمشي؟

قيل إن نائلة خاتون ظلت تبكي ساعات بعد أن سمعت السؤال. كانت تبكي بحرقة، لم تخف دموعها، ولم تخجل وهي تنشج أمام الآخرين. ومحسنة التي كانت تنتظر جواباً خافت حين رأت دموع نائلة ثم وهي تسمع نشيجها، فانخرطت هي في البكاء أيضاً، وظلت ترفض أية محاولة لنقلها إلى مكان آخر أو إبعادها عن نائلة، إلى أن انتزعت. وقيل إن محسنة مرضت وظلت مريضة إلى أن أعيدت إلى نائلة خاتون من جديد.

26

وجاء ربيع آخر بعد شتاء طويل. وداود باشا الذي انشغل بأمور عديدة، لم يستطع أن يتابع معالجة المسائل الصغيرة، أو أن يسمع تفاصيل ما يحدث كل يوم، ومع ذلك لم ينسها، ولم تغب عن باله. لكن ما إن رأى نباهة الطفلة، وطلاقة لسانها، وما إن بدأت عيونها تدغدغ شرايين قلبه، حتى تعلق بها أكثر من قبل، وأصبح أقل استعداداً لفراقها. لم يكن ذلك شفقة أو حزناً، كان رهاناً كبيراً وتحدياً لا يفتر.

سأل داود الكثيرين. سأل أهل الطب والمنجمين والعرافين. سأل الكبار وأصحاب التجربة، لكن أحداً لم يستطع شيئاً، رغم الأدوية التي وصفت، والمساحيق التي سفتها الصغيرة أو مزجت مع طعامها وشرابها.

نائلة خاتون بعد أن مرت على مقامات الأولياء واحداً بعد آخر، زارت أضرحة تعرفها وأخرى ذُكرت لها، وكان بعضها مجهولاً أو نائياً، وعدد منها أرضاً خراباً أو نتوءات في جدار أو عند مجرى ماء. ولم تستطع أن تجعل الدماء تعود إلى الساقين الضامرتين الرخوتين، فقررت أن تذهب إلى أبعد من ذلك.

ذهبت إلى سيدي محمد. ذهبت إلى سامراء. قضت أياماً عديدة في كربلاء والنجف. كانت تحمل الصغيرة، رافضة أن يحملها أحد غيرها، ورافضة أن يرافقها هذا العدد من التنابل، كما وصفتهم لداود، وهي تهيىء لرحلتها إلى هذه العتبات المقدسة، فقد طلبت منه برجاء أقرب إلى التوسل، أن يبعد عنها أصحاب القلوب السوداء «الذين يخربون الشفاعة،

ويسدون الطريق، ويجعلون الأئمة المباركين مثل المگادي وهم يصرخون أمام أضرحتهم: كسوة وعشرين خروف ونيشان، وكأنهم يعلنون أن بنت الوالي مقرمة».

ذهبت إلى أكثر هذه المقامات كإمرأة فقيرة، تحمل على خصرها فتاة مجهولة، حتى إن الكثيرين أشفقوا عليها لما رأوها تحمل فتاة مثلها طولاً ووزناً، لكنها لا تبالي، لا تشعر أن حملها ثقيل. حتى الطفلة، في لحظات معينة، وبحركة من الجزء الأعلى من جسدها، تحاول أن ترتفع، أن تطير، لعلها تخفف وزنها، خاصة وهي ترى نظرات الإشفاق! قالت لها، وهي ترفع يديها في صحن مسجد أمير المؤمنين:

ـ بيبي... لا تديرين بال، أقدر أزحف.

وحركت يديها بطريقة معينة دلالة القوة والرغبة في أن تزحف، واستمرت في المحاولة.

نظرت نائلة إليها طويلاً، وكان الجفنان ثقيلين ويخلفان حرقة كاوية في العينين.

ردت، وهي تلتقطها، وتواصل الدوران حول الضريح:

ـ هذا أبو الحسن والحسين، هذا اللي يرد الغياب، واللي يهزم الكفار، ولا ينسى مظلوم، وما يقدر عليه ظالم، يقدر يقول لك: إمش بقدرة قادر، وتمشين!

وتواصل الدوران حول هذا الضريح، وحول الأضرحة الأخرى، مع الشموع والخيوط والخرق الممزقة. حتى أن صندوق الثياب الذي حُمل من بغداد، مُلىء أكثر من مرة بثياب جديدة وزعت كلها، ليس على سبيل الصدقة، وإنما بالتبادل، لعل ثوب فقير يشفي الطفلة، لكن الطفلة عادت إلى بغداد بأرجل أكثر ضعفاً، وبثياب مهلهلة، دون أن تدب الماء في الساقين أو في القدمين.

قال داود بعد أن تعب لتعب نائلة والصغيرة:

ـ المؤمن ممتحن، خاتون، ومحسنة ستكون شفيعتنا يوم القيامة،

والصبر مفتاح الفرج، فلنصبر، ولنقبل بما أراده لنا الله عز وجل.

وافقت ولم توافق. فكرت بالحج والطواف وسكنى المدينة المنورة إذا مَنّ الله على الصغيرة بالشفاء، «لكن الله، كما قالت لنفسها، مشغول عنا بأناس يستحقون أكثر منا».

وبمقدار ما ترقب ساقي الطفلة، وتحاول أن تهرب من عينيها المليئتين بالأسئلة، فقد بدأت تراجع كل ما أحاط بولادتها: ماذا حصل في تلك الأيام؟ من قُتل ومن قتله؟ والنهر هل ارتفع مثل السنين الأخرى أم أخلف عادته وتغير لأن الناس تغيروا؟

أسئلة تأتي وتهرب. ليست واضحة، ليست ثابتة. إنها مثل الوهج تبرق وتختفي بتعاقب لا يترك للعقل أو للقلب أن يتملى ما حصل.

حتى اللحظات التي كانت تميل فيها إلى إدانة داود، لأنه، كما سمعت، قتل هنا وهناك، وساق الجنود في هذا الاتجاه أو ذاك ليموتوا، لكنها لا تعرف كيف ترتب الأمور لتصل إلى نتيجة، أو لتحدد سبباً يمكن أن يكون وراء ما يحصل، فتقول لنفسها إن لداود قلباً يحتمل الجميع، وإنه أب ليس لأولاده وحدهم، بل ولأولاد الولاية كلها، وتتأكد أكثر حين تراه كل صباح وهو يتفقد الأشجار والخيول وأقفاص الطيور. أما حين تسمع ضحكته فتقول، وقد يسمعها من حولها:

ـ أبو يوسف ما يقدر يدوس نملة. . .

وتتذكر ساقي الطفلة، فيخرج صوتها غاضباً:

ـ لكن رجله وهو مقبل تهدّ هَدّ، تنطق بليا كلام، وتقول آني!

وحين تستعيد رشاقته وهو يمتطي الحصان تقول:

ـ وبلمح البصر، وكأنه نسمة، الواحد يشوفه فوق الفرس!

وتذكرت سعيد وأمه، وتذكرت ما قاله فيضي الأعرجي. كان فيضي يهم بقص شجرة صفصاف نبتت إلى جانب البركة الداخلية، وقد طُلب إليه قصها لأن أوراقها كانت تفسد الممر وتولد الحزن، وهي تتدلى كخيمة.

كان فيضي قبل أن يهوي على الشجرة يردد:

«من قتل إنساناً بلا ذنب، من أمر بقص شجرة دون سبب، من منع عطشاناً من ورود الماء، أو حيواناً من لقاء جنسه وقت البذار، فبشره بالقتل، أو بوار الحال، والله على كل ما أقول شهيد».

راقبته نائلة خاتون أول الأمر من النافذة. كانت النافذة قريبة، فوقه تماماً. وبعد أن دار حول الشجرة مرات كثيرة، وكأنه لا يقوى على القيام بالمهمة التي كلف بها، ودخن غليوناً ثم ثانياً، وهو يهمهم، وقد سمعت بعض ما قال، قررت أن تنزل، وأن تسأله.

خاف حين رآها. أنكر أنه قال شيئاً. وحين ابتسمت لتشجعه، قال كأنه يعترف.

ـ إنها مثلنا يا خاتون: وحيدة، والماء وحيد، وهي تتقرب منه، تتشاقى وياه، توشوشه، تشد شعره حتى لا يحس أنه وحيد...

توقف لحظة ثم أضاف بصوت مختلف تماماً:

ـ الخاتون لا تريدها، لا تحبها. ما يخالف، لكن الأعرج بدل ما يقصوا رجله لازم يعطوه عوچية، عصا خيزران، حتى يتوكأ عليها ويمشي!

وعاد إلى اللهجة الاستنكارية:

ـ أحلفلك بالعباس خاتون، أكو شجرة بالدنيا ما تهتز، ما تقول أريد وما أريد؟ أكو شجرة ما توقع أوراقها؟

وتغيرت اللهجة من جديد:

ـ لو كان بيهم خير، كان شدوا آذان حمودي وزيدان وأبو أرشيد، وقالوا لهم اكنسوا زين، ما نريد ورقة صفرا، لكن لمن أحكي، لمن أشكي؟

وقام إلى الشجرة. تفل بيده. قال، وهو يهم بالعمل:

ـ الله، سبحانه وتعالى، ما عنده حجارة، لكن يعرف شلون ينتقم!

ولأن فيضي لم يقص إلا جزءاً من الأغصان المتدلية، ولم يبدأ بالساق بعد، فقد طلبت منه نائلة خاتون أن يتوقف، لأن هذه الشجرة يجب أن تبقى. وحين تطلعت إليها عيناه بتساؤل ممزوج بعدم التصديق، خوفاً من

غضب الخاتون، زوجة الوالي، قالت نائلة بحدة:

ـ هذي الشجرة قرة عين أبوها، محسنة، والأفندي ما يرضى.

وظلت شجرة الصفصاف تتدلى فوق الماء، كأمل أخير أنه بحسنة هذه الشجرة قد تمشي محسنة... ذات يوم.

27

العادة أنه مع وصول القوافل والبريد ينشغل الكثيرون في تقصي أخبار الولايات الأخرى، يسألون المسافرين العائدين عن الأسعار وأخبار المطر والجراد، وعن العجائب التي صادفوها في الطريق أو في المدن التي وصلوا إليها. ولا ينسون السؤال عن الولاة والأمراء والشيوخ، وخلال هذه الأسئلة يطرحون أسماء ووقائع معينة لتكون علامات يمكن على ضوئها أن يتابعوا الأخبار والأحداث في الأماكن الأخرى. ومن عادة المسافرين، خلافاً لأصحاب البريد، بعد أن يستريحوا يوماً أو يومين، أن يفيضوا في الاجابة على أسئلة وجهت إليهم وعلى أخرى لم توجه، وهكذا يعرف الكثيرون الأخبار، ويقدرون تقديراً متوجساً ما إذا ستتحسن الأحوال أم ستسوء.

قال مسافرون عادوا مؤخراً من البصرة، وبعد أن شهدوا سفناً إنكليزية عديدة وصلت إلى هنالك: «لو كان الامبراطور نابليون حراً طليقاً، كما كان من قبل، لاستطاع أن ينغص على الإنكليز حياتهم، لكن بعد أن هُزم لم يعد أحد قادراً على الوقوف في وجه الإنكليز» قالوا ذلك وأضافوا بسخرية وحسرة: «غاب البزون إلعب يا فار».

الذين لم يسافروا، وسمعوا باسم نابليون يتردد، نظروا حولهم فلم يجدوا سوى عدد من القساوسة بملابسهم الغريبة وهم يهرولون في الدرابين، كي يجمعوا الصبية الصغار من أجل أن يعلموهم القراءة والكتابة. تساءل الكثيرون: ماذا يستطيع هؤلاء في مواجهة الإنكليز؟ وهل

هم الذين يمثلون نابليون الذي يتحدثون عنه، ويقولون إنه كان ملك البر والبحر، ووصل إلى أقاصي الدنيا؟

ليس ذلك فقط، حين رجع القنصل الإنكليزي من رحلته الى أوروبا أواخر الصيف، وفي الاحتفال الذي أقامه بهذه المناسبة، قال يخاطب وجوه المسيحيين «يجب أن يشعر المسيحيون منذ اليوم بالأمان الكامل، لأنهم في حماية التاج البريطاني. وأحب أن أزف البشرى للأخوة المجتمعين أن دير النمساويين أصبح بحماية المقيمية البريطانية» وحين سأله بعض المتابعين لأحداث العالم عن نابليون، ابتسم القنصل ابتسامة صغيرة، كأنه كان يتوقع هذا السؤال، وبعد أن أخذ نفساً عميقاً أجاب:

- يمكن اعتبار نابليون جزءاً من التاريخ القديم، الجزء الذي انتهى!

وكي لا تبدو كلماته غامضة أو مبالغاً فيها، أضاف:

- لقد أزعج هذا النابليون أوروبا والعالم كله، ولو تُرك وشأنه لما وجد العالم راحة أو سلاماً، لذلك كان تأديبه ضرورياً، وهذا ما تولته الإمبراطورية البريطانية العظمى، وانتهى الأمر.

ومن قبيل الثقة، ولإدخال الطمأنينة إلى قلوب الذين يستمعون، أضاف:

- صحيح أنه كان بعيداً من هنا، وانكسرت محاولاته قبل أن تصل إلى شواطىء أو رمال هذه المنطقة، وغرق في الوحول الروسية حتى أذنيه، لكن يبقى تأديب مثل هؤلاء المغرورين ضرورياً، كي لا تتكرر المحاولة مرة أخرى!

ورغم أن صورة نابليون كانت مهتزة، غائمة، في أذهان أغلب الذين يسمعون كلام القنصل، فإن المشاعر تجاهه كانت تتراوح بين المحبة والخوف. فهذا الإمبراطور الذي دق أبواب الشرق، وأسمع صوته كل العالم، لا يعقل أن يذهب هكذا أو بهذه السرعة. ثم ماذا لو أن غيابه مؤقت؟ وهل باستطاعة المسيحية أن تقوم وتنهض دون الكاثوليكية، دون أن تكون فرنسا موجودة وقوية؟

سأل أحد الآباء الكرمليين القنصل:

ـ سعادة القنصل. . .

كان يضم يديه في حجره، وينظر إلى الأسفل، وكأنه يراقب أصابع هاتين اليدين التي بدت عصبية:

ـ الكاثوليكية لا ترتبط بشخص، ومثلما الرب موجود ودائم، فإن غياب شخص، أياً كان الرأي فيه، لا يغير في طبيعة الكنيسة ودورها، لذلك نشعر أن القنصل سيرعى المسيحية كلها.

رد القنصل بود وبتواضع:

ـ لتطيب نفس كل مسيحي في هذا البلد، وفي أي بلد آخر؛ إن قنصل جلالة الملك لا يفرق بين مسيحي وآخر، وإذا كانت الظروف السابقة، نتيجة ما حصل في أوروبا، خلقت شيئاً من سوء التفاهم، فإن غياب نابليون سوف يعيد للمسيحية مجدها ووحدتها!

رجال الباشا الذين نقل إليهم ما قيل في هذا الاجتماع، عن طريق الجواسيس، خاصة من اليهود الذين التبس دورهم على أنفسهم وعلى الآخرين، قالوا بنوع من الثقة: «ليقل القنصل، الذي يبدو كالديك، ما يشاء بعد أن غاب دور فرنسا، ولم يعد قنصلها، لكن سيشعر بالندم إذا عادت الأمور إلى ما كانت عليه».

أحد رجال السراي القريبين من الباشا، بعد أن عاد الناس للحديث عن الموكب الجديد للقنصل الإنكليزي، ورداً على الذين سألوه عن ممثل فرنسا، هل سيعود أم سيبقى ذلك الإنكليزي وحده يصول ويجول، رد بنوع من الحزن:

ـ لا يمكن لأحد أن يتوقع، فما دامت باريس غارقة في الظلمة، ويطارد رجالها بعضهم، سيبقى هذا الإنكليزي سبباً للدوار لنفسه ولغيره!

وأضاف بطريقة لا تخلو من رجاء:

ـ ليساعد الله الرجال المخلصين. . .

ثم بعد قليل، وقد تغيرت النبرة:

ـ السلطان يقدر الإمبراطور، وكذلك الوالي، لكن الأهم من ذلك: ديار الإسلام، ماذا يمكن أن يحصل إذا هزم هذا الرجل أو تلك الدولة، وإذا انتصر هذا الملك وتلك الدولة، هذا ما يشغل بال والينا ويفكر فيه دائماً!

الذين سمعوا كلام رجل السراي فهموا ولم يفهموا، لكنهم قدروا أن الرجل لا ينطق عن الهوى، «وأنه يزن كلماته بميزان الذهب».

الكلمة الأخيرة قالها الحاج شبلي، وكانت رداً على السؤال الذي ظل يتردد في قهوة الشط، هل أن قنصل نابليون سيعود من جديد إلى بغداد أم لا.

لم يكتف بذلك، إذ بعد صمت طويل، وكأنه يخاطب نفسه، قال بعصبية:

ـ كل واحد منهم منفوخ مثل الظرف، يظن نفسه فيلسوف زمانه، ولذلك يقول كلاماً لا يفهم ولا يفسر، والناس تضرب الأخماس بالأسداس!

وتوجه إلى خالد الوائلي كأنه يعاتبه:

ـ كان سليمان الكبير يفهم ويفسر حتى لغة الطير، كان ترجمان زمانه، فما قولك بما تسمع اليوم؟

ـ حجي... طولة البال زينة، وهذي الديرة داها منها وبيها، فلا تروح بعيد!

ـ البعيد ما تاركنا يا ابن الحلال، لازمنا من زياقنا وما مخلي لنا فكة.

ـ وكّل الله... حجي.

ـ منو إلنا غيره، يا معود؟

وبعد قليل:

ـ عليه توكلنا، وإليه ننيب، لكن ما أحد يدري شنو اللي يصير باچر.

قال الوائلي بمرح:

ـ باچر يتكفل بنفسه، حجي، لا تدير بال!

ـ والإنكليز . . . شنو براسهم وشراح يسوون؟
ـ لو عندي علم وأدرى چانت الدنيا بألف خير . . .
وضحك، ضحك بمرارة ثم تابع :
ـ لو أعرف يا حجي چان قلت لك، وأنت تقول لغيرك، فإذا انطشت ووصلت للصغير والكبير تنلاص على الباليوز، ويقول : كبروا الزغار . . .
وتغيرت اللهجة تماماً، أصبحت قاتمة :
ـ لكن المصيبة أن الواحد ما يدري!
هز الحاج شبلي رأسه عدة مرات، وهو يفكر بحزن، وحين خيم الصمت، قال عبد الله غبيشان :
ـ إلعب وحدك ترجع راضي!
قال الوائلي، وهو يهز رأسه بمرح :
ـ شوفوا الفسقان شيقول . . .
وبعد قليل، وقد فارقت صوته السخرية :
ـ ليش الإنكليز مخليين أحد يلعب وحده يا معود؟ ماخذين الدنيا شاطي باطي، وما فاكين ياقة . . . يوم ويّا عبد الله باشا، وثاني ويا سعيد باشا، يوم مع السلطان ويوم مع الشيطان، وتعالوا يا فتاحي الفال، يا أهل السيميا، افرزوا وفسروا : هذا مع منو؟ وهذا ضد منو؟ وآني . . . ويّا نفسي أو ويّا إبليس!
علّق الحاج شبلي بأسى :
ـ بالمختصر المفيد، يا جماعة، الواحد منا دايخ!
إذا كان المسافرون نحو الجنوب، أو الذين عادوا من هناك، قد نقلوا عن نابليون هذه الصورة، فإن الذين عادوا من الشمال، من حلب وبيروت والشام، والذين وصلوا إلى مصر وعادوا منها، فإنهم يتكلمون عن هذا الكورسيكي بطريقة يمتزج فيها الإعجاب بالجموح، بالحزن الذي لا يستطيعون إخفاءه : «رجل أراد أن يغير العالم، أن يخلق عالماً جديداً».
ويفيض هؤلاء في الحديث عن الانتصارات التي حققها نابليون. عن

خوف ملوك أوروبا، وكيف كانوا يرتعدون إذا سكن أو تحرك، وكيف يحاولون التماس رضاه، والاستجابة إلى كل ما يريده ويتمناه، لكن نابليون يندفع ليدكَّ الممالك ويقول: لا آكل إلا من صيدي، ولا بديل عن الحرية والاخاء والمساواة. وتتحرك جيوشه في كل مكان، وتردد الجبال العالية والأودية السحيقة صدى الأناشيد التي تصعد من حناجر جنوده وهم يجتازون الدول ويطوون الممالك.

ويتردد الهمس، الذي ينقله مسافر بعد آخر، أن نابليون أعلن إسلامه، وأمنيته الوحيدة أن يزور الديار المقدسة، ولا بدّ أن يمر بالعراق أثناء الزيارة!

حتى باشوات بغداد كانوا يحسبون ألف حساب لهذا الثائر المجنون. كانوا يتحدثون عنه بإعجاب لا يخفونه، ويؤكدون أن سفيره يلتقي بالسلطان وقتما يشاء، في الليل والنهار؛ والسلطان يتبادل والإمبراطور الهدايا والإعجاب، وإن الواحد يستجيب لما يطلبه الآخر. وللتدليل على صحة ما يقولون، يذكرون سليمان الصغير وخالد أفندي.

سليمان ما كان يُقدّر له أن يصبح باشا بغداد لولا نابليون وسفيره في اسطنبول. أما خالد أفندي الذي يصول ويجول الآن، من ماردين حتى البصرة، مروراً بحلب والموصل وبغداد، فقد كشفه نابليون عندما كان سفيراً في باريس من أول مرة يراه!

ولأن خالد أفندي صديق الباشا، فالحديث عنه يجري همساً: «لما استقبله نابليون، نظر طويلاً إلى عينيه، ثم تركزت نظراته على الجبين، وخلال دقائق انتهت المقابلة. وما كاد خالد يخرج من البلاط الامبراطوري حتى التفت نابليون إلى وزيره وسأله: أرأيت البقعة السوداء في جبينه؟ وحين صمت الوزير، لا يعرف كيف يجيب، قال له نابليون: لا يليق بمثل هذا الرجل أن يبقى في باريس، لأنه رجل سوء وجاسوس علينا وعلى دولته».

ولم يطل الأمر بخالد أفندي، طرد من باريس كما تطرد الكلاب

السائبة. قالوا له: كش، فخرج في ليلة مظلمة دون أن يحس به أحد!

ويضيف الذين يتحدثون: «منذ أن عاد من باريس، لا يفارق سفير ملك بريطانيا في اسطنبول. أما إذا جاء إلى بغداد فأنتم تعرفون أين يقضي أوقاته وبصحبة من»!

أما نعمان العاني الذي ذهب إلى القاهرة طلباً للعلم، وقضى هناك بضع سنين، حين غزا نابليون مصر، فليس لديه حديث أحب إلى قلبه من الحديث عن مصر خلال تلك الفترة:

ـ مصر بذيك الفترة انقلبت، تغيرت. ما ظل شيء بمكانه. حتى الشوارع والملابس والأسماء تغيرت. ما أقدر أقول أحسن أم لا، لكن أهم شيء: الغازيتا!

يعرف أنه بهذه الكلمة الأخيرة يضع الناس أمام لغز كبير. تتركز عليه العيون:

ـ شنو اللي قلته، نعمان أفندي، إنه أهم شيء؟

ـ الغازيتا... أي نعم الغازيتا!

ويأتيه أكثر من صوت:

ـ شنو هذي البلية، يا نعمان أفندي؟

يحاول بعضهم أن يستعيد الاسم، لكن يأتي مختلفاً. ونعمان العاني يشعر بفرح أقرب إلى النشوة وهو يرى العيون مركَّزة عليه تنتظر حل هذا اللغز. يصمت وقتاً يعتبره كافياً، ويبدأ:

ـ على والديكم ألف رحمة، وهذا السؤال خوش سؤال!

تتوالى هزات رأسه، يصقل صوته وهو يوضح:

ـ بدل ما الواحد يسولف للثاني شنو صاير بالدنيا، الغازيتا هي اللي تسولف، تقول منو جا من السفر، منو مات، منو ترفع. كل هذا مكتوب بالغازيتا، والناس تقرأه وتفتهم.

لا تزال الفكرة مبهمة وأكثر تشويشاً من قبل، فيسأل أحدهم:

ـ يعني مثل المنادي أبو طبل؟

ـ لا يا معود، ما كو أحد يصيح ولا أحد يدق الطبل، الغازيتا وحدها تقول كل شيء!

ولئلا يفقد السيطرة على الموقف في هذه المتاهة التي وضع الناس فيها، يسارع بالتوضيح:

ـ لما وصل نابليون إلى مصر وصلت معه مكاين، الواحدة بكبر هذي القهوة أو أكبر، ووصل الكاغد، وبدل ما الواحد يكتب بالقصبة على الكاغد، المكاين تظل تدق بالليل وبالنهار، وكل شيء ينختم على الكاغد، وثاني يوم الناس تصيح: نريد «بريد مصر»، ويشترون هذي المكتوب بيها كل شيء. المتعلم يقرأ لروحه، واللي ما يعرف القراية يقرون له كل ما مكتوب بالكاغد، وتشوف مصر من أولها لتاليها صارت تعرف شنو صاير بالدنيا!

وبعد قليل، وقد تهللت أساريره، يختم كلامه:

ـ هذي هي الغازيتا!

ويعلق أحد الموجودين:

ـ يعني مثل كتب التاريخ؟

ـ لا، يا معود، هذي تحكي عن كل يوم بيومه، شنو صار وشنو راح يصير؛ التاريخ سوالف الناس اللي ماتوا واللي ولدوا، وأخبار الحروب..!

ويسأل آخر:

ـ وهذي المختومة على الكاغد تطلع مرة بالسنة، بالشهر؟

ـ لو راد نابليون كان يقدر يطلعها كل يوم، بس قال لروحه مرة بالأسبوع يكفي!

ـ يعني تطلع مرة كل يوم جمعة؟

ـ أي نعم...

ويبتسم نعمان العاني ابتسامة كبيرة، وهو يضيف:

ـ ومثل ما اكو غازيتا تقول للناس عن أحوال السياسة، اكو غازيتا

مخصوصة للشعر واللغة والفقه والأدب. . . واسمها «العقد المصري»، ومكتوب عليها: دورية أدبية علمية. . .

فيعلق واحد بسخرية:

ـ يعني هذا صاحبنا نابليون جا لمصر حتى يعلم أهل مصر شعر العرب ودين الإسلام؟

ـ لازم تعرف، مولانا، أهل مصر هم اللي يكتبون بالغازيتا!

ـ يعني كل واحد شايل ختمه وواقف بالسرا حتى يدمغ الكاغد؟

ـ مولانا. . . المكاين هي اللي تشتغل وحدها، لا اكو مهر ولا اكو دمغة!

وتتغير لهجة نعمان العاني، ويتغير شكله، وهو يقول:

ـ يحتاج لكم سنين وأيام يا أهل بغداد حتى تعرفوا شنو صاير بالدنيا!

يهزون رؤوسهم وهم يسمعون هذا الهراء، ثم بتعمد، ولإغاظة السيد نعمان، يقول واحد لآخر:

ـ ما علينا. . . شنو سمعت؟ شنو صاير بالدنيا يا أبو فلان؟

ـ سولف، يا أبو فلان، أنت تعرف الأكو والماكو!

ـ صدق. . يا جماعة. . . شكو ماكو؟ منو انصلب؟ منو انلزم؟ منو انهزم؟

ـ لو كان عندنا كاغد أبو دمغة كان خلصنا من الأول والتالي. . .

ـ لك هذا اسمه أبو الغوازي!

ـ يا معود هذا اسمه: قال الراوي. . . يا سادة. . . يا كرام.

وتضج المجموعة بضحك صاخب في الوقت الذي يكون نعمان قد بدأ يستعد للمغادرة. كان لا يخفي ابتسامته، ويقول في نفسه: «أهل بغداد عينهم وكحة، ما يصدقون إلا اللي تشوفه عيونهم، أما عن القال. . .».

28

الباليوز، مثل عادته دائماً، حاضر، بل كثيف الحضور، لكن ضمن رصانة صارمة لا يتنازل عنها، ولا يتهاون بأي من شروطها ومقتضياتها. فهو يرقب بعناية كبيرة كل ما يحصل: كيف يعبر الناس عن فرحهم واستقبالهم للوالي، ماذا يقولون وكيف يتصرفون. حتى الانفعالات الصغيرة التي تظهر هنا وهناك يرصدها بدقة. يفعل ذلك بهدوء وصبر، ويتقصى دون تعب أو ملل كل ما يحصل، ويبقى مع ذلك بعيداً عن المشاركة أغلب الأحيان، وبعيداً عن الظهور.

ومثلما فعل في المرات السابقة فعل هذه المرة أيضاً، لكن، ربما، بحرص أكبر، لأن داود ليس جديداً على الباليوز وليس غريباً عنه. وربما لأن ريتش أصبح أكثر نضجاً وتجربة وهو يقرأ إنفعالات الناس وطريقتهم في التعبير، «فأهل هذه الولاية، كما قال لنفسه، يشبهون الأطفال أيام العيد، أو في مواجهة أشياء جديدة أو غير متوقعة. ينفعلون بسرعة، يصخبون، وبعض الأحيان يجنون، لكن ما أن تنقضي أيام العيد، وما أن تصبح الأشياء التي أدهشتهم في البداية مألوفة أو عادية حتى يملوا منها وينسوها، ثم يبدأون مرة أخرى البحث عن الجديد أو غير المألوف. وعلينا أن نحتمل هذه الفورة من الانفعال، تماماً كما يفعل الآباء في مواجهة أطفالهم، وأن نحكم السيطرة على ما يليها من الأيام».

ولما كان ريتش شديد الحرص على معرفة كل شيء، وعلى ألاّ تفوته الصغيرة والكبيرة، فقد أوعز لرجاله أن يراقبوا ويتحروا أدق الأمور، لكن

الأكثر أهمية أن يكون موجوداً داخل السراي، وأن يسمع ويعرف كل ما يدور هناك، خاصة وأن داود يختلف عن سعيد. . . ويختلف عن غيره من الولاة.

وتذكر ريتش بمرارة كيف أن داود غادر بغداد، قبل بضعة شهور، ووصل إلى كركوك، قبل أن يعرف. لقد موّه داود باشا سفره، ومعه هذا العدد من الرجال، ليس فقط على سعيد باشا، بل وعلى الباليوز أيضاً، رغم أن ريتش كلف اثنين من رجاله بتقصي أخبار داود بشكل دائم، ومعرفة ما يدور في أوساطه، وكان هذان الرجلان يعتبران نفسيهما من المقربين لهذه الأوساط، أو جزء منها. لا يريد ريتش الآن أن تتكرر خطيئة من هذا النوع، خاصة بعد أن أصبح داود والياً.

قال لنفسه، وهو يستعرض رجاله، وكيف يجب أن يكون بعضهم في السراي: «هذا الجورجي بمقدار ما يبدو طيباً وبسيطاً فهو شديد الخطر، تماماً كالمياه الساكنة، إذ لا يُدرك عمقها، ولا يُعرف ماذا تخبىء في باطنها».

وإذ فكر ريتش ببعض رجاله، ومدى علاقتهم بالسراي، فقد تأكد أن داود لن يبقي أحداً منهم، مثل عادة أي والٍ جديد. فقد استبدل رجال التشريفات والحراسة والخدم والمسؤولين عن الإطعام والإسطبل، برجاله، خاصة وانه كوّن لنفسه حاشية كاملة لما كان في الشمال، وقد رافقه هؤلاء ودخلوا معه عندما دخل بغداد.

قال له ميناس، وهو يصف موكب داود حين ينتقل من مكان الى آخر: «الرجال حوله يحيطون به كالسور، وحراسه نمط غريب من الناس: مهتاجون، عصبيون، قاتمو الوجوه، ينظرون إلى الناس بغضب ممزوج بالكراهية، ويدفعون بخيولهم الذين يحاولون الاقتراب، ولولا الابتسامة الكبيرة التي تملأ وجه داود، ولا بد أن حراسه كانوا يرونها، لارتكبوا حماقات كثيرة. إنهم حذرون إلى درجة الخوف، مرتبكون إلى حدٍ لا يميزون بين الذين يحبون الباشا وبين الذين يريدون به شراً. ليس ذلك

فقط، فقد نقل لي بعض رجالنا أن عدداً من تجار وآغوات بغداد، الذين لم تكن وجوههم مألوفة للحراس، تعرضوا إلى معاملة خشنة في بعض المرات، ومُنع بعضهم من دخول باحة السراي، وواحد من هؤلاء، وقد تعرض للدفع والإهانة: رؤوف السعدي».

رد ريتش بسخرية:

- رؤوف السعدي... إن الإنسان لا يميز فيه ما إذا كان متسولاً أو صاحب حانوت صغير، أو ربما سمّاكاً فرغ لتوه من بيع ما اصطاده ذلك اليوم!

وبعد صمت تابع ريتش وكأنه يحدّث نفسه:

- هؤلاء الشرقيون ملتبسون ومجبولون بالفوضى والتناقض، لا تميز فيهم الغني من الفقير، أيهم الطيب وأيهم الماكر، ومن هو الفرح ومن هو الحزين. بل أكثر من ذلك تبدو عليهم الغبطة حين يوقعونك في خطأ التمييز، أو لم تسعفك فراستك بالمقدار الكافي لتحديد الصفات والمراتب!

ولأن ميناس من سكان البلاد، ويعرف أكثر من ريتش طباع الناس وطريقتهم في التصرف، ولأنه أقدر على التمييز أيضاً، قال كمعلم:

- بل ويحاولون خداعك يا مستر ريتش، نعم، إنهم يفعلون ذلك إذا لم يكونوا مطمئنين...

وتابع بلهجة الواثق:

- حين أرسلتني، يا مستر ريتش، لشراء الأرض الشرقية، ذهبت للقاء المالك. سألت أكثر من واحد كي يدلني عليه، وكل من أسأله يريد أن يعرف لماذا أبحث عنه قبل أن يجيب عن سؤالي. حتى هو سألته، وقبل أن يجيب نظر إلي طويلاً وسألني ماذا تريد منه، ولم يعترف أو يعلن عن نفسه إلا بعد أن أطمأن!

بدت القصة طريفة لريتش، إذ لم يسمعها من ميناس قبل الآن، سأل بفضول:

ـ وماذا تظن وراء هذا التكتم؟

ـ إنهم، يا سيدي، يخافون من القتل، كما يخافون من الحسد، من الابتزاز أو الغدر . . .

وضحك ميناس وهو يضيف:

ـ وربما يخافون من أنفسهم يا مستر ريتش!

ـ يخافون من أنفسهم؟ سأل ريتش، إنهم غريبو الأطور!

ـ يقول المتدينون: على الإنسان أن يكون مثل ذرة الرمل، مثل قطرة الماء، صغيراً، متواضعاً. وكما تشبه ذرة الرمل ذرة الرمل، وكما تشبه قطرة الماء قطرة الماء، يجب أن يشبه الإنسان الإنسان. وهم بهذه الطريقة يكتسبون الثواب، ويصبحون أقرب إلى الله. هكذا يقول المتدينون، لكنني لا أصدقهم، يا مستر ريتش!

ـ ألاحظ شيئاً مثل الذي تقوله، وألاحظ أيضاً أنهم يسرفون في بعض المظاهر، خاصة بالأكل والشراب، وأحياناً بهذا الكرم الأبله، إذ يمكن أن يعطي الواحد كل شيء دفعة واحدة ولمن لا يستحق، وفي أحيان أخرى يفعلون العكس، فكيف تفسر مثل هذه التصرفات؟

ـ إنهم كالأطفال لا يقدِّرون نتائج ما يفعلون. المهم أن يثبتوا وجودهم، ويظهروا متفوقين بنظر أنفسهم وبنظر الآخرين!

ورغم أن مثل هذه المناقشات تمتع ريتش وتستهويه، ويحاول أن يسمع أكثر مما يتكلم، فإنه غالباً يأخذ دور المدقق، فهو يسأل ويستوضح لعله يفهم بشكل أفضل هؤلاء الشرقيين، الذين يثيرون حيرته وفضوله في آن، إلا أنه ليس من البلاهة إلى الدرجة التي يمكن أن تستغرقه مثل هذه الأمور الآن. إنه رجل عملي قبل أي شيء آخر، والإنسان لا يكتسب مثل هذه الصفة إلا من خلال قدرته على مواجهة المشاكل وإيجاد الحلول لها، وهذا يتطلب أن يرجىء أموراً وأن يعطي الأولوية والأهمية لأمور أخرى.

سأل ميناس ليعيده إلى بداية الحديث:

ـ قلت لي إن حرس الباشا قساة أجلاف، وإنهم جاءوا معه من الشمال؟

ـ هذا ما رأيته وهذا ما أكده رجالنا!

ـ ومعنى ذلك أن يكون له حرس جديد؟

ـ هذا ما أتوقعه، يا سيدي.

ـ ولا بد أن يكون لنا رجال بينهم.

ـ عندما يجوعون سيلجأون إلينا، كما فعل قبلهم حرس سعيد باشا.

ـ وهل ننتظر حتى يجوعوا؟

سأل ريتش بهذه الطريقة الساخرة، وغمز بعينه، وكأنه يطلب منه أن يبدأ دون إبطاء بإيجاد موقع قدم بين هؤلاء.

بعد فترة صمت قال، وبدت لهجته مختلفة، وفيها تحدٍ:

ـ منذ الغد يجب أن نعطي فرصة للحيوانات التي طال حبسها في الأقفاص. علينا أن ندهش أهل بغداد وان نقول للوالي عن بعض ما نملك، وما لدينا من عجائب!

دارت عينا ميناس في محجريهما مثل دورة بندول الساعة، بان عليه الاستغراب من طريقة رئيسه في التفكير، كيف ينتقل من موضوع إلى آخر، دون أن تكون هناك صلة بين المواضيع، لكن وجد أن مثل هذه الفكرة يمكن أن تغيّر مزاج الناس واهتمامهم، خاصة وأن عدداً من الحيوانات التي وصلت مؤخراً من الهند انتقلت فوراً من المركب إلى الحظائر، دون أن يتاح لها فرصة العرض أو أن يراها غير المشرفين عليها!

ورغم أن الطواويس الأربعة الموجودة في الباليوز تتردد أصواتها، وتُسمع في منطقة واسعة من المدينة طوال النهار، فإن تلك الأصوات الحادة، والتي لا تخلو من نشاز، أثارت الكثير من الاهتمام، وكان يشفع لها جمال ريشها، وتلك الخيلاء في المشي والحركة حين تبدأ استعراضها في الحديقة الغربية، الأمر الذي كان يدفع الكثيرين إلى الاقتراب لرؤيتها والتعبير عن إعجابهم الشديد. كانوا يصطحبون معهم أطفالهم وبعض الضيوف... إذا كانت هذه الطيور تلاقي الاستغراب والفضول، فان الناس حين يرون الحيوانات الأخرى سيذهلون.

وريتش الذي أدرك منذ وقت مبكر مدى اهتمام الناس بكل ما يصدر عن الباليوز، فقد لفت نظره أن حيوانات الباليوز تحظى باهتمام كبير. كان يروق له، بعض الأحيان، بمنظاره المكبّر، مراقبة الناس الذين يتجمعون بالعشرات لرؤية الطواويس والقرود، وكان يطلب من الحرس والمشرفين على الحدائق أن ينقلوا إليه تعليقات وانطباعات الذين يتفرّجون على هذه الطيور والحيوانات، وقد حرص أكثر من مرة على تدوين بعض الانطباعات والأقوال.

أما خيول الباليوز المتنوعة، وكيف ينظر إليها كل من يراها بإعجاب يصل حدود الافتنان، فإنها كانت حديث الكثيرين، وموضع سؤالهم. وبلغ الأمر بعدد من الأغنياء والشيوخ أن تجرأوا وتساءلوا ما إذا كان الباليوز يوافق على بيع بعض هذه الخيول، فإنهم مستعدون لدفع ما يطلب منهم. لم يقولوا ذلك لأحد من رجال الباليوز مباشرة أو بشكل واضح، لكن هذه كانت أمنيات بعضهم، وكانت مثار أسئلة آخرين، وهم يفترضون أثماناً لهذه الخيول.

مثل هذه الأحاديث والأمنيات تتسع وتقوى حين يمر موكب القنصل، سواء في طريقه إلى السراي، أو إلى خارج المدينة للصيد.

وإذا كان لكل من الموكبين مراسيمه الخاصة، وطريقه المختلف، ومواعيد تكاد تكون ثابتة، فان موكب الصيد كان يخلق شحنة من الانفعال قلّما يحظى بها موكب آخر. إذ بالإضافة إلى الملابس الخاصة، وهي شديدة الغرابة، ولم ير أهل بغداد مثلها من قبل، خاصة القبعات والقفازات والأحذية الطويلة، فإن ما يستقطب اهتمام الناس إلى أقصى حد ذلك العدد الكبير من الكلاب التي ترافق القنصل وأنواعها وأحجامها وطريقتها في التصرف وردود أفعالها وهي تمر بين الحشود التي تصطف على طرفي الطريق الذي يمرّ فيه الموكب، وكيف تنفعل تلك الكلاب، وتظل حذرة، وبعض الأحيان عدوانية، حين ترى جميع العيون تراقبها وتنصب عليها من كل ناحية.

هذه بعض التفاصيل الصغيرة المتعلقة بالباليوز، والتي رآها الكثيرون. أما تلك التي سمعوا بها ولم يروها فإنها تفوق الوصف وتتجاوز كل تصور: الأسود الكثيرة الموجودة في الأقفاص، والتي يُسمع زئيرها في بعض الليالي فتثير الفزع، ثم النمور التي وصلت من أمكنة عديدة، والقرود، وتلك الأعداد الهائلة من الطيور الملونة، خاصة الأفريقية، وتلك التي جيء بها من الهند. وقد أهدى ريتش عدداً من الببغاوات إلى بعض رجال السراي، ومنهم درويش آغا، وقيل إنها كانت تردد كلمات بالعربية والإنكليزية، والأرمنية، وكانت حديث المدينة. ولما لجأ درويش آغا إلى الباليوز، حرص على اصطحاب الببغاء، فتحول اسمه، بين رجال الباليوز، منذ ذلك الحين، إلى ببيي متو!

وريتش الذي بدأ هاوياً في حب الكلاب والخيول، أصبح يدرك أهمية ما يملك من حيوانات. إذ بالإضافة إلى المتعة التي يشعر بها وهو يراقبها أو يعتني بها، فقد كان يقضي ساعات متنقلاً بين الحظائر والأقفاص، وبلغ به التعلق خلال فترة معينة أن يؤثر قضاء الوقت معها على أن يقضيه مع هؤلاء الذين لا يملون من الحديث عن ذكائهم وما حققوه من أعمال، في الوقت الذي تدل أشكالهم وأحاديثهم عن الغباء والسماجة وحتى قصور الخيال، مقارنة مع الحيوانات والطيور التي تشتعل بالذكاء والخفة؛ الأمر الذي جعل ريتش يفكر بتحويل الملاحظات التي دوّنها إلى كتاب، لكنه احتار كيف يمكن لكتاب واحد أن يجمعها، في الوقت الذي تجتمع هي فعلاً في الباليوز، وتخلق هذا الكم من المتعة، والتي يريد أن يوصلها إلى الآخرين!

قال لنفسه، وكان عائداً من الإسطبل، وكانت رائحة الخيل تشي به دون صعوبة من أي نوع: «ستعرف ماري، حين تشم الرائحة، أن هناك من ينافسها في حب كلود».

كان راضياً عن نفسه، وكان مصمماً على إدهاش أهل بغداد. قال بصوت عالٍ:

ـ سوف يدرك هؤلاء الناس ماذا يعني الباليوز... ومن هو ريتش.

29

لم يكن أي من القصرين، السراي والباليوز، في عجلة للوصول إلى ترتيب العلاقة بينهما بشكل كامل. فالسراي يعّج بالوفود، وإنشغالات الباشا بإعادة النظر بالرجال والمواقع تأخذ معظم وقته. والباليوز ظل مترقباً، مثل الأيام الأولى، رغم مظاهر الود التي تتواصل بين الطرفين، وإن شاب تلك المظاهر الحذر، سواء في الاتصال أو طريقة التعبير.

داود باشا الذي بدأ عسكرياً منذ نعومة أظفاره، واكتسب الكثير من الخبرة في رحلته الحافلة، سواء بالمعارك التي خاضها، أو بالمدة الطويلة التي قضاها في السراي، أصبح الآن، وبعد أن خاض آخر معاركه في مواجهة سعيد باشا، يميل إلى التخلي عن المظاهر العسكرية، فما أن مرت فترة حتى تخلى عن بزة القائد العسكري، وأصبح في حديثه اليومي أكثر اختصاراً، ويمتلىء بالدين والتقوى، ويترصع بالتاريخ والشعر، ويحض على التسامح وتجاوز الماضي بدمائه وأحقاده. وأخذ يقرّب يوماً بعد آخر الرجال الذين ليس لهم علاقة بالحرب، خاصة الذين خاضوها معه.

حتى القوات العسكرية التي ملأت بغداد خلال الأسابيع الأولى، أخذت تخلي معسكراتها، وتنتقل إلى أماكن أخرى. قيل إن جو بغداد لم يلائمها، فقد وقع عدد كبير من الجنود مرضى، وأخذت تنفق أعداد متزايدة من الخيول. وقيل إن قادة الجند هم الذين طالبوا بمغادرة المدينة بعد أن زادت الحرارة، ولم يعودوا يحتملون هذا المقدار من المصاعب للرجال والحيوانات. وانتشرت إشاعات أن الجنود الذين قدموا من الشمال

طالبوا بالعودة من حيث أتوا. بعضهم قال إنه سيعود بشكل نهائي، وبعضهم قال إن الأمر لا يتعدى إجازة بضعة شهور، ولا بد أن يعودوا بانتهاء شهور الصيف.

ميناس الذي ينقل لريتش أخبار مغادرة الجنود، وكانت أخباره لا تخلو من التساؤل والارتياب، وتتضمن الكثير من التفاصيل التي ينقلها رجال الباليوز المكلفون بأبواب بغداد، ويفترض أن يقدموا معلومات عن القوات والمواد التي تدخل إلى المدينة أو تخرج منها. . هذه المعلومات التي ينقلها ميناس، كان ريتش يعقّب عليها بأسئلة لا تخلو من ملامة:

- إلى أين تذهب هذه القوات؟ وما هو هدف تحركها؟ هذا هو السؤال.

وميناس بالدقة المتناهية للمعلومات التي يقدمها، وغالباً يبدو فخوراً أنه حصل عليها، بعد أن يواجه بأسئلة ريتش، يشعر بالارتباك والحيرة. كيف يمكنه أن يعرف الهدف؟ وهل يُفترض بأي تحركٍ أن يكون له غرض مباشر أو هدف محدد؟

أما ريتش الذي تصله هذه الأخبار من مصادر أخرى، فيريد أن يشعر رجاله بضرورة الانتباه أكثر مما يفعلون، وأن يبذلوا جهداً لمعرفة ما وراء الحركة المباشرة، ما وراء المظاهر التي يراها الكثيرون. كما عليه أن يعيد ترتيب علاقاته، وأن يختبر تحالفاته، لانه الآن بمواجهة والٍ من نمط مختلف.

حتى مظاهر القوة التي يتمتع بها الباليوز يجب أن تكون واضحة ورادعة، ولا بدّ أن يشعر بها الوالي ليفكر كثيراً قبل أن يقدم على أي عمل، وهذا يقتضي استعراض القوة بين وقت وآخر، كي لا ينسى أبداً. كما أن رؤية الناس العاديين لهذه القوة من شأنها أن تضغط على السراي، لأن السراي يرى ويسمع أغلب الأحيان من خلال الآخرين.

هذه القناعة دفعت ريتش لأن يزيد عدد قوات الحراسة، وأن يجدد أسلحتها وثيابها، كما دفعته إلى العناية بمظاهر ومواعيد تبديل الحراسات، وأن يرافق ذلك صدوح النفير ودقّ الطبول. أما السفينة النهرية الرابضة قبالة

الباليوز، فقد زيد عدد العاملين عليها، وقيل إن طاقم السفينة، آن ماري، التي جاءت بزيارة، ورست إلى جانب سفينة الباليوز، عادت إلى البصرة ولم يبق على ظهرها الاّ ما يكفيها للإبحار. أما البحارة والجنود الكثيرون فقد أحدثوا هرجاً على ضفتي النهر ما ان اقتربوا، ثم في المدينة ولأيام عديدة، فقد بقي القسم الأكبر منهم، وكانوا خليطاً من الكركة والأفارقة، أما القادة فكانوا شديدي الشقرة، وقد توقع لهم أهل بغداد أن يذوبوا تماماً قبل أن ينتهي الصيف!

أما ما حملته السفينة الزائرة فكان موضع تساؤل واهتمام، إذ رأى الناس من الضفة الثانية أشياء كثيرة تفرغ من السفينة. ومع أن عدة زوارق اقتربت منها، وفي أوقات مختلفة، لمعرفة أنواع الحمولة وكمياتها، إلا أنها لم تصل إلى نتيجة واضحة، مع أن التفريغ استمر الليل بطوله واليوم التالي. أما أثناء النهار فقد مُدّت أشرعة وفردت أقشمة عريضة، بحيث تعذر معرفة ما وراءها أو ما تحتها، مما حدا بعدد من الشعراء الشعبيين إلى نظم قصائد وهم يراقبون من الضفة الأخرى أنوار المشاعل والأشباح تتحرك حولها طوال الليل، بحيث تبدو مثل أعراس الجن، كما وصفها أحد الشعراء!

أما الدعوات والحفلات التي أقيمت في الباليوز، فقد رُوعي إحاطتها بالمظاهر الباذخة، وأفانين الاستعراضات الفخمة والصارمة معاً، بحيث بدا ريتش في هذه المرحلة أكثر ثقة، خاصة حين ارتدى ملابس قائد بحري أثناء الحفلة التي أقيمت لقبطان آن ماري وبحارته، وحرص على تقليد القبطان وشاحاً خاصاً، وقد تم إعداده بسرعة، وأعطي اسماً جديداً وغير مألوف: «وشاح الرواد والمكتشفين ـ ما بين النهرين» وكان هذا مقابل الوسام الذي قدّمه القبطان لريتش.

لقد جرى تبادل الأوسمة في جو احتفالي مهيب، وذكر عدد من الضيوف أن ملابس ريتش العسكرية كانت جليلة مهيبة، إلى درجة تفوقت على كل الأزياء التي تعوّد ارتداءها في مناسبات مختلفة. أكثر من ذلك، وأثناء حفلة العشاء التي أقيمت في حدائق الباليوز، اقترح بعض الضيوف،

من قبيل التقدير، لو أن القنصل يستمر على ارتداء هذا الزي!

كان ريتش يتقبل التهنئة وكلمات التقدير مثل أي عسكري محترف: إبتسامة صارمة، التفاتات بالغة الوقار، وبطريقة مدروسة، إضافة إلى هدوء بارد ليعطي للموقع والزي ما يستحقانه من اعتبار. أما عندما تتالت كلمات التقدير ممتدحة الزي بالذات، متمنية أن يعتمده ريتش دائماً، فقد قال كلمة تناقلها الكثيرون: «لا يزال الوقت مبكراً لهذا الزي، أما حين يتم إنجاز مشروع تنظيم الملاحة في النهرين، بالاتفاق بين بريطانيا العظمى ودار الخلافة في إسطنبول، وبهمة الوالي الجديد، داود باشا، ويعتمد هذا الطريق كطريق للبريد والقوافل بين بريطانيا العظمى والهند. . . حين يتم إنجاز هذا المشروع، وأكون على ظهر أول باخرة تبحر من البصرة إلى أعالي دجلة والفرات، فسوف أعتمد هذا الزي».

أغلب الذين سمعوا ما قاله ريتش، ثم إيضاحاته على مائدة العشاء، وبعد ذلك، فهموا ولم يفهموا، لكن قدّر الجميع أن عصراً جديداً ينتظر هذا البلد، وما كان ريتش ليقول ما قاله لولا إتفاقه مع الوالي، وإتفاق بريطانيا مع إسطنبول. ومع ذلك ظلت الصورة غامضة مشوشة، ولم يُعرف كيف ستُنفذ أو متى!

وإذا كان مثل هذا الكلام يعني رجال الدولة، وقد يستمرون في تقليبه على وجوه كثيرة، لمعرفة ما سينتج عنه، فإن الناس في الأسواق والمقاهي، فهموا الأمر، أو نُقل إليهم، بشكل مختلف. فقد وصل إلى علم الناس أن الآغا عرض على ريتش أن يتبادل وإياه الأزياء! وقيل إنه طلب من القبطان، وقد ترجم بينهم عزراً، ورجاه أن يؤمن له عدداً من هذا الزي، وأبدى استعداده لدفع الثمن مقدماً! وبالغ بعض الناس فذكروا أن الآغا تبادل مع القبطان المسدسات، عربون الصفقة الجديدة، وأنه استأذنه في أن يجرب القبعة التي يرتديها، واستدعى عدداً من رجاله ليقدروا ما إذا كانت ملائمة أم لا!

إنها أحاديث ليل، كما يقال، إذ تتغير وتتبدل من واحد لآخر، بين يوم

ويوم. أما الشيء غير القابل للتغير أو التبدل فهو ما تراه العين. وهذا ما حصل بعد عشرة أيام من مغادرة آن ماري، وظهور ملامح بعض ما كانت تحمل.

فالأرض شرق الباليوز، والتي تم شراؤها قبل سنة وبضعة شهور، وكانت عبارة عن بستان مزروع بالنخيل وأشجار الحمضيات والفواكه، ومحاطة بسور طيني يخفي ما وراءه، قيل إن الأرض اشتريت لتوسيع الإسطبل، وقد تواصل العمل فيها خلال المدة الماضية كلها. أما حين أزيل الحائط الطيني من حولها وانكشفت، فقد تبين أنه أقيمت فوقها حظائر عديدة لحيوانات لم يسمع بها من قبل، وأقيمت في الجهة الأخرى أقفاص ضخمة أشبه بالغرف الواسعة المحاطة بأسلاك لتصبح مثل الشباك، وتسبح داخلها أنواع من الطيور بأشكال وألوان وأحجام متفاوتة إلى أقصى حد.

حين أنجز ذلك سمح للناس الاقتراب من السور الجديد، وهو من الأسلاك الشائكة، وقد حل مكان السور السابق، واستمر هذا السماح لثلاثة أيام، وتقاطرت الجموع من كل مكان لتلقي نظرة، عبر السور، على الحيوانات والطيور، مما اضطر الباليوز إلى تنظيم مرور الناس، وعدم السماح بالتوقف لفترة طويلة، ومنع الضجيج أو رفع الصوت، لئلا تتهيج الحيوانات. هذه الأيام الثلاثة قلبت حياة المدينة، وجعلت الناس لا يتحدثون إلا عما رأوه، فأفاضوا في إيراد التفاصيل والأوصاف وزاد الكثيرون من عندهم أشياء افترضوا أنهم شهدوها بأعينهم، أو هكذا تهيأت لهم!

بعد الأيام الثلاثة قال حراس الباليوز، وهم يمنعون الناس من الاقتراب، «مثلما البشر بحاجة إلى الراحة والنوم، فالحيوانات والطيور كذلك، وإلا تصبح خطرة أو تتعرض للمرض».

ولم يكن أمام الناس إلا الإذعان، رغم شعورهم بالخيبة، وتجلت الخيبة أكثر ما يكون لدى النسوة، من أجل أنفسهن، ومن أجل الأطفال، خاصة بعد أن تملّك الانفعال والنزق بالأطفال والصبية، لأنهم لم يشاهدوا

تلك الحيوانات بالمقدار الكافي!

ومثل عادة ريتش أيضاً: لم يظهر كل ما لديه دفعة واحدة.

فالمفاجأة الكبرى، كما أخذت تنتشر الأخبار، ستظهر خلال الأيام القريبة، وسوف ترى بغداد شيئاً لم تره من قبل، هذا ما بدأ يتردد في أماكن كثيرة.

بعد أسبوع على العرض الأول، وفي محاولة لتطويق الخيبة، نتيجة وقف زيارة الحيوانات، خاصة للذين لم تتح لهم الفرصة لرؤيتها، فقد سرّب رجال الباليوز أخباراً أن ما عُرض لا شيء قياساً لما سيعرض.

بعد تسريب الأخبار الأولى أخذت تضاف إليها كل يوم تفاصيل جديدة: «راح تنقلب بغداد، انتظروا» «اللي راح تشوفوه ما راح تنسوه طول عمركم!» «اللي شفتوه الحيوانات الزغيرة، أما اللي راح تشوفوه فأكبر من كل ما تتصورون».

ومع كل تفصيل جديد يزداد شوق الناس، ويزداد فضولهم. ما هي الحيوانات التي يتحدث عنها رجال الباليوز؟ وكيف أمكن تخبئتها وراء الأسوار طوال الفترة الماضية دون أن يعرف الناس؟ وهل توجد حيوانات أكبر من الجمل وأقوى من الأسد، وأعجب من السعدان؟

ورجال الباليوز لا يكفّون يوماً واحداً عن الإثارة وخلق المزيد من التحريض، والناس ينتظرون ويتساءلون!

حين انتصف الأسبوع اندفع رجال الباليوز إلى الأسواق والمقاهي. كانوا لا يتوقفون إلا دقائق قليلة، وخلال هذه الدقائق ينشرون الأخبار ويحرضون ويتحدون. كانوا يفعلون ذلك وهم شديدو الفرح، شديدو الوثوق. وحين يحاول الناس الاستفسار وسؤالهم أكثر عن الحيوانات، كيف هي، وما هي أسماؤها، كان رجال الباليوز لا يعرفون كيف يجيبون، وحتى لو أجابوا فكانوا يزيدون الأمور غموضاً!

يوم الأربعاء تغيّر الجو تماماً. غاب رجال الباليوز، وتسرّبت معلومات لا يُعرف من سرّبها، أن الباليوز قد توقف عن عرض هذه الحيوانات!

لكن بعد ظهر اليوم ذاته، وأكثر من كل الأيام السابقة، قال رجال الباليوز إن الحيوانات التي سيتم عرضها لن تعرض في الحدائق المغلقة، ولن تتم رؤيتها من بُعد، وإنما ستجتاز أسواق بغداد وشوارعها، شرط: أن يعامل الناس الحيوانات بالاحترام والرقة التي تليق بها.

صباح الخميس ارتفع النفير في الباليوز. كان النفير مختلفاً عن أيام سابقة، من حيث النغم وفترة الصدوح، وتلا ذلك دق الطبول، إيذاناً بأن موكباً سيخرج، كما هي العادة حين يخرج القنصل في طريقه إلى السراي، وأيضاً حين يستقبل ضيوفاً بارزين.

خرجت كوكبة من الفرسان بثياب الاحتفال، وكذلك كانت الخيول. كان سيرها خبباً، وعددها ليس كبيراً. اتجهت فوراً إلى الميدان، وسط المدينة. في الميدان كان أحد المنادين الذين تستعين بهم القنصلية عادة إذا أرادت إبلاغ الأهالي بخبر من الأخبار، وكان إلى جانب المنادي ترجمان القنصلية، جوزيف ديراني.

بعد أن نادى المنادي، والناس يسمعون ويراقبون الفرسان والخيول والترجمان، طلب السكوت والإصغاء لما سيقوله ممثل الباليوز، نيابة عن القنصل.

نظر جوزيف ديراني طويلاً إلى الوجوه، بعد أن خيَّم الصمت، ثم جاء صوته هادراً:

ـ يعلن سعادة القنصل، ويبلغ عموم الأهالي، أنه بمناسبة عيد جلوس ملك بريطانيا العظمى، سيقدم استعراضاً كبيراً، وسوف يرى الأهالي حيوانات لا مثيل لها في كل العراق، وهذا الاستعراض يدوم يوماً أو يومين، بشرط أن يلتزم الأهالي بالسكينة وحسن النظام، مع أخذ العلم أن الحيوانات الضخمة التي ستعرض على الأهالي شديدة الخطر إذا تهيجت. فالمطلوب ثم المطلوب، وعلى الحاضر أن يبلغ الغائب، وعلى الكبير أن يبلغ الصغير، إلتزام جانب السكينة والحذر. ويمنع الاقتراب من الحيوانات، أو المناداة بالصوت العالي، كما يمنع الضحك قهقهة،

وكذلك الصفير ودق الطبول، وكذلك يمنع الزيك والعفاط، وكل ما من شأنه أن يعكر أمزجة الحيوانات.

يا أهل بغداد. . . اسمعوا وعوا، واعرفوا أن التجاوز يقلل من الفرح والمتعة، وسعادة القنصل يتمنى لأهل الولاية جميعهم الصحة والبهجة والموفقية.

بدأت تُسمع من البُعد أصوات الطبول. كان الدوي يصل على شكل موجات متتالية، وكأنه آتٍ من أعماق سحيقة، خاصة وأن الصمت خيّم على المكان فجأة، بسبب الترقب والانتظار، وما يشبه الخشية. بل أكثر من ذلك كان الناس يتلفتون ليس فقط إلى الجهة التي يأتي منها الصوت، بل وإلى الجهات الأخرى أيضاً، وكأنهم يختبرون المكان، أو يتحوطون للهرب فيما لو تعرضوا إلى خطر من نوع ما، رغم أن الجميع قرروا فيما بينهم أن يلتزموا أقصى حالات الحذر.

ومثل مواكب القنصل السابقة، كانت في الطليعة كوكبة الفرسان، بالثياب المزركشة، والسيوف تلمع في الهواء. وبعد الفرسان كانت مجموعة من العربات تجرها بغال قوية، وفوق كل عربة قفص كبير، وداخل كل قفص حيوان أو اثنان. كانت أغلب الحيوانات ضخمة غريبة الأشكال، حتى القرود التي عرضت كانت بأحجام وأشكال عديدة ومختلفة. وقد أثارت اهتماماً ترافق مع ضجة مكتومة، خاصة وأن القرود في ذاك اليوم بدت في حالة من الانشراح، ربما بسبب الدفء الذي ذكّرها بمواطنها الأصلية، إذ كانت لا تكف عن الحركة والقفز، وتزيد في ذلك حين ترى الناس يراقبونها بإعجاب ودهشة. وقد تصرف عدد من هذه القرود بطريقة بذيئة، كما قدَّر بعض الرجال، وندموا أنهم اصطحبوا معهم أولادهم الصغار، وبشكل خاص الفتيات! وإذا كانت هذه الحيوانات قد أثارت الاهتمام ومقداراً غير متوقع من الدهشة، فإنها لم تستنفد الطاقات وحب الاستطلاع لما سيأتي بعدها.

ومن بُعد بدأت تلوح أشياء ضخمة تتحرك. كانت تتحرك كأنها التلال،

وفوق كل واحد منها رجل يسبح في الهواء. لم تكن عربات، ولم تكن جمالاً. كانت حيوانات أكبر من الجمال ومختلفة عنها، لونها داكن، ولها رؤوس كالمثلثات، وفي نهاية الرأس رِجل كبيرة تتقدم، ترتفع، تتحرك بعصبية، وكأنها لا ترتكز على الأرض، ربما لعرج أصابها، أو قد تكون زائدة. أما الأرجل الأخرى الأربع، فإنها أقرب إلى سيقان الأشجار: غليظة، متينة وكأنها قطعة واحدة.

ما إن أقبلت تلك المخلوقات الهائلة، حتى أفسح الناس الطريق واسعاً، كانوا ينظرون إليها وينظرون إلى بعضهم بدهشة والكثير من الحذر. أما الرجال الذين كانوا فوقها، وقد أخذت تتضح ملامحهم لما اقتربوا، فإنهم جعلوا الناس يتساءلون: كيف صعدوا؟ وكيف لا ينزلقون عن هذا الظهر الأملس؟ ثم كيف تسمح مثل تلك الحيوانات القوية، ولا بد أن تكون شرسة وخطرة، بركوب الناس عليها ولا تفعل شيئاً؟

العيون تنفتح إلى أقصاها. الشفاه متهدلة. القلوب واجفة وقد استبدت بها الخشية. والصمت ممتد، واسع. وما عدا الأنفاس السريعة التي تتصاعد، فإن رجال الباليوز لا يتوقعون ولا يتأملون صمتاً مثل ذلك، ولا نظاماً أشد صرامة مما يرون.

ووجد من همس: إنها الفِيَلَة!

وبسرعة البرق انتشر الإسم بين الناس الفِيَلَة.

استمر الموكب حتى وصل إلى الباب الشرقي، وقفل عائداً. والناس، خلافاً لأية مرة سابقة، لم يسيروا مع الموكب، لكن ما يكاد الموكب يتجاوز مكاناً حتى يبدأ الناس يستعيدون التفاصيل.

بعد عودة الموكب إلى الباليوز لم يبرح الناس الشوارع، ولم يتوقفوا عن الحديث حول ما رأوا. تبادلوا، مرة بعد أخرى، التفاصيل، وأعادوا وصف الحيوانات، وبالغ بعضهم في تحديد حجم الفيلة، وأوزانها، وتساءلوا كيف وصلت من البلاد البعيدة، وكيف تكتم عليها «الاشيقر، أبو العيون الزرق». واختلفوا فيما إذا كانت تؤكل أم لا، وأيضاً تساءلوا ماذا

تأكل ليقرروا إن كان لحمها حلالاً أم حراماً!

وإذا كان الرجال قد بالغوا في الحديث عن الفيلة في ذلك اليوم وفي الأيام اللاحقة، وكانوا ينتهون بسرعة ودون اختلاف، فقد كان يروق لهم أكثر أن يطيلوا الحديث عن «الشوادي» وكانوا يسرفون في ذلك، خاصة عن أمور لا يجرؤون، أو لا يُحسن أن تحكى أمام النساء! تحدثوا عن مؤخرات هذه السعادين المكشوفة وعن أعضائها التناسلية، وبالغ بعضهم بالادعاء أنهم رأوا بأم العين، قبل وصول الموكب إلى الباب الشرقي، كيف جامع ذكر اثنتين من الاناث كانتا معه في القفص، الواحدة بعد الأخرى. ولم يؤكد صحة مثل تلك الرواية إلا قليلون!

قال رجال الباليوز بعد ساعات من عودة الحيوانات إلى الحظائر «سيكون الغد أهم من اليوم وأكبر» ولم يضيفوا شيئاً آخر، لكن كان واضح من طريقة الكلام، ومن الفرح الذي ملأ وجوههم، وانعكس على تصرفاتهم، أن القنصل كان راضياً، وأن الأهالي كانوا عند حسن ظنه، ويريد أن يكافئهم!

في الليلة ذاتها، وحتى ساعة متأخرة، تركزت الأنظار على مبنى الباليوز وعلى الباخرة الراسية في النهر قبالته، إذ ما كاد الليل يخيّم حتى أضيئت أنوار الباخرة، فبدت شعلة وسط الماء، حتى أنها لم تظهر هكذا من قبل؛ قال الذين يسكنون على الضفة الأخرى، وكانوا من مواقعهم يشاهدون الباليوز والباخرة، إنهم لم يروا مشهداً مثل هذا، خاصة بعد أن صدحت الموسيقى وارتفع صوت الغناء. وقبل أن ترتفع أصوات المؤذنين إعلاناً بحلول العِشاء، ارتفعت في السماء أنوار ملونة، وكانت هذه الأنوار التي ترافقها أصوات الانفجارات تتناثر في الهواء، مما خلق حالة من الخوف، دفعت إلى إدخال الصغار إلى الغرف الداخلية في البيوت المقابلة خشية من الأذى أو الحرائق. وراقب الكبار الأنوار والانفجارات بكثير من الحذر، لكن بعد عدة إطلاقات، وبعد أن تأكد للناس أنها لا تؤذي، أو على الأقل لن يصلهم أذاها، فقد استعادوا السيطرة على انفعالاتهم،

وأخذوا يراقبون بمتعة أكبر، مما فوّت الصلاة على الكثيرين، لأنهم لم يسمعوا الأذان، ولم يتنبهوا له!

الملا إدريس إمام مسجد الشواكة، وهو المسجد المقابل للباليوز، على الضفة الثانية من النهر، كان يهم بصعود درجات المئذنة ليبدأ بالتمجيد، كما يفعل كل ليلة جمعة، حين سمع الدوي وأصوات الانفجارات التي تتوالى، وشهد ضوءاً شق السماء وغمر الكون، تماماً مثل ضوء البرق، فأيقن تلك اللحظة أن شيئاً خطيراً قد حصل، وربما يكون يوم القيامة قد حلّ، فلم يتمالك نفسه، وحار هل يواصل الصعود أم يهبط الدرجات، ولأن الصوت والضوء جاءا فجأة، ارتج عليه وسقط! سقط وتدحرج على درجات المئذنة، ولم يتوقف عن الصراخ والاستغاثة، لكن لم يسمعه أحد، لانشغال الجميع عنه، وفي لحظة صمت سُمع صوته، فهب لنجدته ومساعدته بعض الجوار. حين وصلوا إليه كان ينزف، نتيجة إصابته في جبينه وشفته السفلى، أما ساقه اليمنى فكانت مكسورة.

قال الملا إدريس لزواره، بعد أسبوع من الحادث:

ـ الدنيا، يا جماعة الخير، بآخرها، مصّبحة مسيّة. . .

وانفعل فجأة، وبغضب:

ـ ما عليكم مني، صحيح آني تقرّمت، ويعلم الله أن رجلي ما راح تطيب، لكن السالفة مو هنا، السالفة اللي شافتها عيونكم: الناس ما لها شغل إلا تركض ورا الشادي حتى تباوع طيزه، وولاية داود تبدأ بعام الفيل، ومنائر بغداد ماكو بيها يوم الخميس ليلة الجمعة من يذكر اسم الله، وأهل الكفر يفسقون ويفجرون أشكرا، وبيوت الله تصفر، حتى صلاة الجمعة ما تلقى فيها إمام. . . هاي وين صارت؟

ويحاول عواده أن يخففوا عنه، أن يقللوا من خطورة الأمر، لكنه يصرخ:

ـ من أجداد أجدادنا وصلاة الجمعة أبد ما قالت بس، لكن بذيك الجمعة تمنيت أموت وما أشوفها!

وحين يلاحظ الرضا في وجوه عوّاده يفيض:

ـ والله وتالله، وما لكم عليّ يمين، بذيك الجمعة، جرّيت نفسي، وأنا مقرم مثل ما الكلب يجر رجله المكسورة، وقبل ما تتجبّر رجلي، وهسه يجون، وبعد شوي يجون، لكن لا حياة لمن تنادي. .

وبدأت تتساقط من عينيه الدموع.

ـ والله دفنت أبوي وما نزلت دمعتي؛ ودفنت أمي ونزلت دمعة من عيني ما شافها إنسان؛ ودفنت أكبر أولادي وقلت شفيعي يوم القيامة. لكن بذيك الجمعة، وأنا وحدي بالجامع، بصلاة الجمعة، وما يجيني أحد، فما تعرفون: دموع الأولين والآخرين سحّت من عيوني، وبعد ما بكيت وشبعت من البكا، رفعت إيدي لربي وقلت: ترضى يا ربي هالشكل؟

قال الذين تابعوا تلك الليلة، إن الانفجارات بعد ساعة معينة توقفت، لكن صوت الموسيقى والطبول لم يتوقف. ظل الباليوز ساهراً حتى الصباح، وظلت تصدر من الباخرة الأغاني والأناشيد والعربدات إلى درجة أن البيوت في الضفة الأخرى لم تستطع النوم. حتى الصبية ظلوا ساهرين، وكذلك النسوة، لأنه جاء من قال: كما بدأت الليلة لا بد أن تنتهي، ومن يريد أن يشهد ليلة لن ينساها عليه أن يبقى ساهراً!

ويوم الجمعة، ضحى الجمعة، وكما حصل في اليوم السابق: كوكبة الفرسان، والمنادي، ثم العربات، ووراءها الفِيَلَة.

كان احتفال يوم الجمعة كبيراً مهيباً. وإذا كان قد غاب عن احتفال الأمس الكثيرون، أو لم تتح الفرصة لرؤية كل شيء، فقد امتلأت الشوارع منذ الصباح هذه المرّة، خاصة وأن رجال الباليوز مضوا من مكان إلى آخر، وبسرعة، ليقولوا: عمر الإنسان خسارة إذا لم يشهد ما سيجري اليوم.

الرجال الذين شهدوا احتفال الأمس كانوا يوم الجمعة أكثر حرصاً. والنساء اللواتي لم يعلمن، أو لم يستطعن رؤية الموكب الذي مر يوم الخميس، صمّمن، وبوسائل شتى، أن لا يغيب عنهن موكب الجمعة، خاصة بعد أن سمعن الكثير، ومن الصبية أكثر من الرجال، وبعد أن شهدنا

ما حصل في الباليوز والسفينة الرابضة مقابله.

خاب ظن الكثير من الصبية يوم الجمعة، إذ بعد أن تحدثوا كثيراً وطويلاً عن القرود، فإن عددها، وترتيبها في اليوم التالي، كان قليلاً وفي وسط الموكب. والرجال الذين منّوا أنفسهم برؤية هذه المخلوقات العجيبة، والتي تهيجهم وتنفرهم في نفس الوقت، لم يأسفوا كثيراً لعددها القليل، أو لكونها في وسط الموكب، فقد كان ذلك أفضل، وعَزّوا أنفسهم لوجود الأطفال والنسوة. أما النساء فقد كان كل شيء بالنسبة لهن جديداً وعجيباً ومهماً، خاصة وأن الرجال لم يقولوا «لا» تماماً، ولم يوافقوا، فقد كانوا مسرعين لئلا يفوتهم شيء!

كان في مقدمة موكب يوم الجمعة أسدان، كل واحد منهما في عربة خاصة. ورغم الهدوء الذي حرص عليه الناس، وإفساح الطريق عريضاً أمام العربات وهي تتقدم، فإن الأسدين كانا مستثارين، مهتاجين إلى درجة أدخلت الرعب في القلوب.

وبعد الأسود جاءت عربة تحمل نمراً أرقط، وهذا النمر بحركته المجنونة، في القفص الواسع، ولّد حالة من الذعر، ليس فقط للناس الذين رأوه، بل وللقردة التي كانت خلفه، فقد انكمشت هذه القردة، وكانت تبدو أصغر حجماً وأقبح منظراً، رغم أن أحد الذكور كان في حالة انتصاب، وكان يدور في القفص كالمجنون، وسائل أقرب إلى الرغوة يطفح من فمه ويسيل على جانبي الشدق.

حمد الرجال الله أن القرود كانت هكذا. والصبية سُلبوا برؤية الأسود والنمر من هذه المسافة القريبة، وبهذا الهياج، ولم يلتفتوا إلى ما عدا ذلك. أما النسوة، وقد كن بعيدات، ورغم عنايتهن بكل صغيرة وكبيرة، ورغم أنهن رأين كل شيء، فقد اكتفين بإصدار أصوات خائفة، لكن مكتومة، وصدرت عن بعضهن شهقات، وقد سمعت أيضاً بعض الضحكات الماجنة!

مرّ الوقت بسرعة، وبخوف والتباس، وغاب الناس عن كل شيء، عدا

ما يشاهدون. قال بعض الناس إنهم سمعوا، من بعيد، آذانا، ودعوة للصلاة، لكن ما كان يجري أمام أنظارهم، وهو مزيج من التشوق والرغبة والخوف، أنسَاهم، أو جعلهم لا يسمعون أو لا يميُزون.

في وقت متأخر، وقد بدأ هذا الوقت بين العصر والغروب، إذ توقف الموكب في أماكن عديدة، وظل الناس ينتظرون عودته، وتخلل ذلك تبادل التعليقات وإبداء الملاحظات، فقد فطن الكثيرون أنهم جوعى، وفطن غيرهم أن الصلاة فاتتهم، وقال بعض الناس، وهم ينسحبون، إن بغداد بدأت تعيش عصراً جديداً، وقد تمتموا بكلمات وأدعية لا يعرف إن كانت تعبيراً عن الرضى أم عن الغضب.

قدّر الكثيرون أن هذه الليلة ستكون مثل الليلة السابقة، لكن رغم الانتظار لم يحدث شيء. أسف الأطفال والصبية كثيراً، وشاركتهم النسوة بهذا الأسف.

الكبار من الرجال والنساء ناموا مبكرين، لكن عبارات محددة، تكررت وترددت كثيراً.

ـ اللهم استرنا... اللهم حسن الختام... يا رب أنت الأعلم بالسراء والضراء وأنت الأعلم بالسرائر، احفظنا واحمنا... إنك سميع مجيب الدعاء!

30

أولاد الباشا يتكاثرون كل سنة. وصدف أن جاءه أكثر من ولد في إحدى السنين. ومع كل طفل جديد يزداد ثقة وقناعة أن العناية الإلهية تنظر إليه بعين الرضا وترعاه. وإذا كانت طفولته مريرة قاسية، هنا وهناك، ولشد ما أرهقته الوحدة وعذّبه الضياع، فلا يعرف لأية أرض ينتمي، ولأي شعب ينتسب، فإن الأولاد وهم يتزايدون من حوله، يشعر أن جذوره امتدت عميقاً في تربة العراق، وأن القبيلة التي ابتدأت بواحد لا بد أن تكبر وتنتشر، وعند ذاك لن تأكله الحسرة، وسيزول الألم الذي لازمه طوال حياته السابقة.

لكن فرحة داود تصل إلى حد وتقف هناك. فهذه الطفلة التي أطلق عليها اسم محسنة اعترافاً بما منّ الله عليه، ولأنها جاءت في وقت الإقبال، كما قالت نائلة خاتون، تحتل مكاناً خاصاً في قلبه، وتجعله يغصّ عندما يرى كل شيء فيها يتألق ويتفتح عدا الساقين. وإذا كانت الابتسامة، ثم اليدان الصغيرتان وهما تمتدان إلى لحيته لتداعبها، قد أسرتاه في البداية، فإن ما يأسره الآن، ويحكم الحصار عليه: طلاقة اللسان؛ الضحكة الخصبة التي ما إن تُسمع حتى تعدي من يسمعها؛ ثم النظرات التي تنبعث من العينين وكأنها فيض من النور الممزوج برائحة الورد والزعفران.

كانت كلماتها قليلة في البداية، لكن ما إن تخرج من الشفتين الصغيرتين حتى تنداح كأمواجٍ في كل أرجاء السراي. كان يتناقلها الصغار والكبار، بما فيها من أخطاء وَقلبٍ للحروف وتلك المدات التي تميز نهاية

الكلمات. فإذا فات نائلة خاتون نقل بعض ما تقوله، فالخدم حولها يتكفلون بالباقي. وحين يسهو الكبار عن التقاط واحدة من تلك الكلمات فإن الصغار يركضون من مكان إلى آخر وهم يرددون ما قالت محسنة. حتى زوجات داود الأخريات، وبعض من بناته، كن ينقلن ما تقوله محسنة، بعد أن يضفن من عندهن أنغاماً ومدات تشي بعواطفهن تجاهها. كن يفعلن ذلك هزءاً مرة، وغيظاً مرة، وتحريضاً لأولادهن مرات، كي يكونوا أقرب إلى الباشا، فتكون الأمهات كذلك!

وإذا كان داود باشا يعرف جزءاً من الكيد الذي يدور في القصر، رغم تباعد الأجنحة، فإن الجزء الأكبر من هذا الكيد يفوته، أو لا يحفل به، كما لا يريد سماعه، لأن مشاغل الدولة، وتكاثر هموم الداخل والخارج، لا تترك له فرصة لمزيد من الهموم الصغيرة، ثم إنه يفكر ويخطط لأبعد مما تفكر به الزوجات والخدم، أو ما يسلي عشرات العاملين في القصر، والذين يعتبرون المكائد، وما يُهمس به في غرف الزوجات والمربيات، الخبز اليومي الذي منه يتعيشون، وقد يكون سبباً في أن يحصلوا على المكافآت والهدايا، خاصة إذا أحسنوا نقل ما يجب أن يُنقل، وفي الوقت المناسب!

ما كان يشغل داود باشا، وقد لاحت الفرصة بعد طول انتظار، أن يشيد دولة لم تقم مثلها منذ أقدم العصور، ولعل أول شيء ينبغي توفره: أسرة كبيرة شديدة الترابط لا يستطيع أن ينفذ إليها أحد من الغرباء. حتى البنات يجب أن يُختار لهن أزواجاً من الأقوياء، أو من الرجال الذي جُرّبوا وامتحنوا في المصاعب وأيام الرخاء، وبعد التأكد من ذلك يجب أن يقسموا أغلظ الإيمان أن لا يخونوا، وأن لا يتهاونوا، ومن يخن أو يتهاون فدمه مباح.

هكذا كان يفكر داود، وهكذا كان يخطط. لم يقل ذلك لأحد بوضوح. ولعل نائلة خاتون الوحيدة التي سمعت منه بعض الأفكار. كان ينثر أفكاره وأحلامه على مسامعها بطريقة مواربة، على شكل ذكريات، أو

على شكل رهان أو مزاح، لكنه كان يعني ما يقول:
ـ . . . وتذكرين، خاتون، ونحن جهال بسراي سليمان، بالكاد الخبزة نشبعها، وإذا كنا اليوم أحياء وعايشين ما يندرىٰ باليوم التالي شنو اللي يصير . . .

يضحك بحزن ويتابع بصوت مكسور:
ـ الواحد منا يخلق الثوب، ولازم يكون آخر من ينام وأول من يقوم، ويا ويله إذا غلط أو سها، جلده يروح للدباغ، ماكو أم تشفع ببكاها ولا أب يجر سيفه ويقول يصير وما يصير . . .

يصمت قليلاً، يتذكر، ثم يأتي صوته بنبرة مختلفة:
ـ حتى الأيتام يلتقى لهم هنا أو هناك قرايب، أعمام أو أخوال؛ يلتقى لهم عشيرة تدافع عنهم، تأخذ بثارهم، احنا، يا محفوظة السلامة، جينا من زرف الحايط، إيد من ورا وإيد من قدام، لكن الله . . .

وتتغير هيئة داود ويتغير صوته:
ـ سبحانه وتعالى أعطانا، قال: خذوا. ومن اليوم ما يكفي أن نبوس أيدينا وجه وقفا ونقول الحمد والشكر، لازم نعرّت بسنونّا، لازم ندافع بدمنا وأرواحنا عن عطايا مالك الملك، ونقول لله عز وجل: مثلما وهبت وفضلت، ملكاً وولداً ورضواناً، فإنّا له لقابضون، وسنكون لولد الولد، ومن يأتي بعدهم من هذه الذرية شاكرين نعماءك ونسبّح بحمدك وآلائك، فأنت الذي يعطي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء!

يدرك داود، وهو يفكر ويحلم ويجود بمثل هذا الكلام أمام نائلة خاتون، أنها لن تنقله، فهي لم تستوعب معظم ما قاله، ولا تعرف كيف تنقله، لكن تحس أن داود يتكلم أفضل منها، وأنها تحب هذه الطريقة حين يتحدث عن أيام قديمة تتذكر قسماً كبيراً منها، ويتحدث أيضاً عن الأولاد والجنة، وما قد يحصل في القادم من الأيام. إنها تحب هذه الطريقة، بل وتحاول أن تقلدها في بعض الأحيان، وهي تروي القصص للصغار كي يناموا. كانت بعد أن تروي أحداثاً قاسية مؤلمة، ولئلا ينام الصغار

مقهورين أو حزانى، كانت تنهي تلك القصص بأن تقول: يا عمي جتك الشمس/ مگدر أقوم من حدبتي/ يا عمي جالك الچلب/ مگدر أقوم من حدبتي/ يا عم جتك الفرس/ مگدر أقوم من حدبتي/ يا عم جتك العروس/ نعم.. نعم عيدوها/ يا عمي ليش تخبلت/ يا عمي ليش جنيت! وينام الأطفال وهم يضحكون ويحلمون!

كان داود يحارب اليتم الذي عاشه بالتحدي. أما الوحدة التي ظلت تلازمه خلال كل تلك السنين، رغم أنه يعيش بين العشرات والمئات معظم وقته، فلم تتبدد، أو بالأحرى لم تتراجع، إلا بعد أن تزوج، وبدأ يأتيه من صلبه أولاد. صحيح أن بعض هؤلاء الأولاد ماتوا صغاراً، ولقد حزن لذلك حزناً شديداً، لكن ما جعله ينسى: الأولاد الذين جاؤوا بعدهم، ملؤوا حياته وجعلوه يتفاءل.

ثم إن نازلي امرأة متفهمة، قد تعاند، وقد تغضب في حالات معينة، لكنها تدرك أن زوجها مثل أبيها، مثل أي رجل، يحق له أن يتزوج مرة ثانية، ومرة ثالثة ورابعة، ولهذا لا يطول عنادها، ولا يتجاوز غضبها حداً معيناً. كل ما تحرص عليه أن تحمي موقعها، أن تنتزع الاعتراف بالأولوية والقدم، وأيضاً ببعض الامتيازات، باعتبارها أماً لأكبر الأولاد، خاصة الذكور. وهذا ما جعل داود يحتفظ بأربع زوجات، كانت على رأسهن نازلي!

وإذا كان داود اضطر لأن يطلّق بعض زوجاته، لعدم الإنجاب، أو لأن الخلفة كلها من البنات، وفي حالات أخرى لاختلاف المزاج، أو في لحظة غضب، فإن نازلي ظلت تستقبل وتودّع دون خوف أو اهتمام، فهي ابنة سليمان الكبير، وهذا يعني لها ولداود، ولمعظم الذين حولهما، الكثير، خاصة وأنها وقفت معه وإلى جانبه في النزاعات داخل الأسرة التي أعقبت مقتل سعيد باشا، وما رافق ذلك من دماء وقطيعة وقسوة، الأمر الذي لم ينسه لها داود.

ولأن داود شديد التدين، فقد اضطر لأن يطلق عدداً من زوجاته، لأنه

لا يجوز أن يجمع أكثر من أربع في آن واحد، فإذا حملت منه إحدى الجواري، وولدت له ولداً ذكراً كان يعقد عليها، لكن لفترة قصيرة، ربما لأسابيع وبعض الأحيان لأيام، من أجل أن ينسب الولد إليه. وفي هذه الحالة لابد من مبادرة من نوع ما، كأن تتبرع إحدى الزوجات، لقاء هبة كبيرة أو امتياز، بأن تكون «الضحية». أو أن تتولى واحدة من كبيرات القصر إقناع إحدى الزوجات «أن تفسح المجال شرعاً ووديًا أمام الباشا»، وغالباً ما يحمل مثل هذا العرض الوعد من ناحية والتهديد من ناحية أخرى، وعلى الزوجة التي يقع عليها الاختيار أن تقرر، ويترك لها يوم أو بضعة أيام للتفكير، وخلال هذه الفترة تجري عمليات مساومة وتفاوض، يقوم بها رسل بين الطرفين، من أجل تحسين الشروط، والوصول إلى صيغة يبدو فيها الطرفان منتصرين!

هذه الأمور تجري بكثير من التكتم والحرص، وأيضاً تحت جنح الظلام، لأن أي تشبث أو خطأ قد يؤدي إلى مضاعفات لا يريدها الباشا، إذ كان يعتبر أن أموره الخاصة يجب أن لا تلوكها الألسن، وأن تبقى بعيدة عن أسماع العامة، ولقد لجأ إلى العقاب الصارم حين تسربت أخبار عن حديقة الغزلان الداخلية الموجودة في السراي: عدد الغزلان، ومن جاء بها، وأنواعها، وكيف أن الباشا يطعمها بنفسه وبيديه! عاقب الناقل ليس لخطورة الأخبار التي سربها، وإنما ليعطي درساً، وليجعل كل من يعمل في السراي، أو له علاقة، يحفظ لسانه ويتكتم على ما يرى أو يسمع.

وكي يبدو الباشا عادلاً ومنصفاً بنظر نفسه، وبنظر الذين حوله، فقد لجأ في مرتين، تفصل بينهما ثلاث سنوات، وبعد أن تعذر الوصول إلى نتائج مرضية خلال المفاوضات، ولأن الزوجات الأخريات تدخلن في الأمر، لجأ إلى القرعة، إذ سجل أسماء الزوجات الثلاث، إذ كانت نازلي مستثناة، واستدعى نوري خوجه، الأعمى، المقيم في جامع السراي، وطلب منه أن يسحب ورقة من الأوراق الثلاث، وكان القرار، الطلاق، ما قالته الورقة.

وبنفس الوقت، وبعد أن يقع الطلاق، يقوم قاضي السراي بإتمام عقد الزواج الجديد.

كان مثل هذا العقد يتم، أغلب الأحيان، دون احتفال أو مراسيم خاصة، وعدا الاكراميات التي يقوم نادر الشيخة بتوزيعها في اليوم التالي، ويحرص على اختصارها إلى أقصى حد، من حيث المبلغ الذي يُعطى، أو الذين تشملهم الاكرامية، ويكون تأكيد نادر وهو يسلم المبلغ، إن والينا رزق بولد جديد، ولا يذكر أي شيء عن الزواج الجديد!

ورغم تكتم السراي على جانب، وإبراز جانب آخر، فإن طريقة نادر الشيخة، وهو يوزع العطايا، تفضح كل شيء. فذلك الحرمان الذي يشمل عدداً كبيراً من العاملين في السراي، خاصة أولئك الذين يعملون في الأماكن البعيدة، وبعد أن تصلهم أخبار العطايا للآخرين، وحرمانهم منها، وغالباً تصل هذه الأخبار مع المبالغة والكيد، لتنغيص عيشة نادر أفندي، الذي يعتبر خصماً لكل إنسان يعرفه، لما يتصف به من بخل وتقتير، فإن أخبار الزواج الجديد للباشا تطغى على كل ما عداها. حتى اسم المولود الذي يصدر عادة ببلاغ رسمي عن السراي، يغيب في زحمة ما يتردد عن اسم الأم، وعلاقتها بالوالي أو بغيره من العاملين في السراي! ومدى ما تتصف به الزوجة الجديدة من جمال أو صوت، وما يشبه ذلك من الأوصاف!

والوالي الذي تصله مثل هذه الأخبار التي تتردد في المقاهي والأسواق، يحار كيف وصلت إلى الناس، ومن أوصلها. ورغم التحريات الدقيقة، والعيون من الرجال والنساء، فقد كانت الأمور تصل إلى نقطة لا تتعداها، وهذا ما كان يجعل الباشا متحسباً، أقرب إلى الخوف، فما دامت أخبار الغرف الداخلية وصلت إلى الناس، كيف يضمن ألا تصل الأخبار الأخرى؟

قال لنائلة خاتون، ذات ليلة، بعد أن جاءه غلام جديد، سماه المعتصم، والعادة أن يجلس في الشرفة الجنوبية، المطلة على النهر، لتقبل

تهاني كبار العاملين في السراي، وكان يستقبل الرجال بين العصر والغروب، وبعد أن يصلي صلاة المغرب، يستقبل عدداً من النسوة. قال لنائلة التي قادت جوقة النسوة لتهنئة الباشا، وبعد أن انفضّ الجمع:

ـ تعرفين... خاتون؟

نظرت إليه باهتمام دون أن تقول كلمة واحدة. تابع:

ـ أكثر ما يخوفني، يا خاتون، اللي يجون بالفرح والعزا لبيت الباشا! لو رايحين لبيت فقير أو مسكين كان أفرح من كل قلبي، لكن الفقير والمسكين الله غاضب عليه، لأنه خلقه فقير، ولأن الناس ما تباوع عليه، ما تتذكره، عرّس أو مات...

أخذ نفساً عميقاً وصمت. ظنت نائلة خاتون أن ما قاله شيء مألوف يقع كل يوم، وفي أي مكان، وما كان لديها شيء لتضيفه. لكن فاجأها بأمر جديد ومختلف:

ـ هذا، خاتون، مو زين، يلعّي النفس، لكن اسأليني، شنو اللي يخوّف؟

ـ اسم الله عليك، أفندينا، لا تقول هذا الكلام!

ـ لا، خاتون. لازم تعرفين، لازم أقول...

تلفت حواليه أكثر من مرة، ولأكثر من ناحية، وخرج صوته مجروحاً:

ـ أكثر ما أخافه، خاتون، حرامي البيت. أي نعم الحرامي اللي منا وما حاسين عليه!

وذكر لها كيف أن الناس في المقاهي والأسواق، كما وصلته المعلومات، لا يتحدثون عن المعتصم، إنما يتحدثون عن ماري الگرجية. متى جاءت إلى بغداد، وكيف انضمت إلى نساء السراي. ويتحدثون عن طولها، وعن الشامة في خدها الأيسر، وكيف سبت الباشا، ثم كيف هجر نساءه جميعاً، ولازمها لا يفارقها حتى جاءت له بهذا الغلام!

ويضحك الباشا بحزن وهو يهز رأسه هزات بطيئة متحسرة ذات اليمين وذات الشمال، ثم يتابع:

ـ هذا ما تجرؤوا ونقلوه لي اليوم، وما يندرى بعد شنو اللي يعرفون!
وتغيرت اللهجة تماماً، أصبحت حازمة، أقرب إلى القسْوة:
ـ وماكو أحد غيرك، خاتون، يقدر يعرف حرامي البيت. منو يبوق لسان الزغار والكبار، ومنو يشيل قرصة الخبز حارة للقهاوي ولأولاد الحرام!

ـ ما لك عليّ يمين، يا باشا، حتى النملة إذا مشت أسمعها، وما يصير شي إلا وأخباره عندي، لكن البني آدم يسها، ينسى، وسبحان الله بلاني وابتلاني بهذي الفقيرة المسكينة، محسنة، فحتى الصلاة نسيتها!
ـ آيسي منها، خاتون، وآني ما خليت أحد. سألت القريب والبعيد، حتى جماعة من الهند والسند سألتهم، وقلت: اللي يشفي الزغيّرة، الفقيرة، أزوجها له. . .
هز رأسه أسفاً وحزناً وأضاف:
ـ محسنة بقلبي. ما تفارق بالي. ما أقدر أنساها لا بيقظتي ولا بنومي، لكن لكل شيء حد، ولكل مخلوق أجل. هذه إرادة رب العالمين، والمؤمن ممتحن، فإذا كانت هذه إرادة الله، وهذه مشيئته، فلا راد لهذه المشيئة. . .
وترك للصمت أن يخيّم ثقيلاً، وكان القمر برتقالياً متأخراً، قال، وكأنه إنسان آخر:
ـ محسنة الشفيعة، وهي التي ستقودنا إلى الجنة يوم القيامة، وهي اللي تذكرنا أن الدنيا موت وحياة، لكن، وكما قال عليه الصلاة والسلام: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً!
قالت نائلة خاتون بحزم:
ـ خوفتني، يا أفندينا، من حرامي البيت، ولازم أفتّح عيني زين!
رد وهو يضحك، وكان يهمّ بالوقوف:
ـ ولازم آني أشوف إذا كان ماري عندها شامات غير اللي أعرفها، قبل ما يعرفها غيري ويطشها بقهاوي بغداد!

31

قهوة الشط ليست كأية قهوة أخرى في بغداد: كبيرة، متدرجة، وبالغة البساطة والكثافة معاً. وإذا كانت مقاهي الأطراف تماثلها ببعض هذه الصفات، فإن ما يميزها عن غيرها الاتساع، ثم إنها دائمة التغير من حيث المزاج، تماماً كماء النهر. عدا عن أن فيها أركاناً وزوايا قوية ثابتة، ليس بالجدران التي تنهض عليها، وإنما بالبشر الذين يحتلونها، ويشكلون جزءاً من ملامحها، الأمر الذي يعطيها تميزاً إضافياً.

وإذا كان للسوق التجاري مقاهيه وناسه، فإن هذه المقاهي تمتلىء خلال أوقات معينة ثم تفرغ بعد ذلك، كما وتعتمد في عملها على خدمة المحلات حولها، وتلبية الطلبات خارجها، عدا عن العابرين والطارئين. فإذا اقترب الغروب، وبدأت المحلات التجارية تغلق أبوابها، فلا تلبث تلك المقاهي أن تلملم نفسها لتشارك السوق كله وهو يدخل إلى الصمت، ثم إلى العتمة التي تزحف عليه قبل أن تزحف على الأمكنة الأخرى في بغداد.

أما قهاوي الأطراف، رغم أنها لا تغلق أبوابها خلال النهار، إلا أنها تنشط وتبدأ باستقبال روادها بعد العصر وأول المساء، وهؤلاء الرواد لا يتغيرون أغلب الأحيان، كما لا تتغير الأحاديث التي يتبادلونها. إذ بعد الأسئلة العادية عن الصحة وأخبار العمل، وعن ذاك اليوم كيف كان، تبدأ النمائم الصغيرة عن هذا وذاك من أبناء المحلة، ثم ينصرف الكثيرون إلى الألعاب الموجودة في المقهى، مع ما يرافقها من تحديات ورهانات

وضجيج، وأيضاً ذلك الغضب المبالغ فيه من أجل وضع حد للمتفرجين كي لا يتدخلوا في اللعب، لانه، ليس من السهل وقفه أو منعه. وحين ترتفع أصوات المؤذنين إعلاناً عن صلاة العشاء، يتحرك الكثيرون، تباعاً، ليس بالضرورة إلى المسجد القريب، وإن تظاهر بعضهم بذلك، ولكن إعلاناً أن يوم قهوة الطرف قد انتهى، ولابد أن يعود هؤلاء إلى بيوتهم، ولا يتخلف في المقهى عادة إلا الذين خسروا في الأشواط الأولى من اللعب، ويريدون أن يثأروا، ويتأخر أيضاً الشباب الذين دخلوا مرحلة الهموم، وبدأت تشغلهم شؤون القلب وتحصيل الرزق وأمور السفر.

قهوة الشط عالم آخر وحياة مختلفة: مقدار كبير من الكلام، والذي يتخلله الاختلاف، ومقدار أكبر من الأحلام والغضب. ثم هناك مقدار من الجنون. أما أعداد البشر الذين يؤمون القهوة، وفي أغلب الأوقات، في النهار كله ومعظم ساعات الليل، فإنها تكبر أو تقلّ تبعاً لمزاج المدينة وما يقع فيها من أحداث.

إذا كان صوب الرصافة يفخر باتساعه، وجمال أكثر أحيائه، وبوجود السراي والوالي، وبذاك الكم الكبير من أصحاب المقامات والأولياء، وبالسوق التجاري الكبير، فإن صوب الكرخ لا يشعر بالغضاضة أو النقص، كما لا يشعر بالخوف. صحيح أن قبور الأولياء الذين يرقدون في هذا الصوب لا تحمل الزينة، وقد تبدو فقيرة، لكن الأهمية، كما يقول الكرخيون، لا تحددها الحجارة، ولا تقاس بارتفاع الأضرحة، أو كميات الشموع والبخور، إنها تتحدد بمقدار ما تتركه في النفس من أثر، وما تولده في الذاكرة من حنين وأحلام.

لا شك أن الناس في صوب الكرخ أقل غنى، لكنهم أكثر اعتزازاً بانتمائهم لهذه الجهة من المدينة. فالأحياء التي قد تبدو ضيقة ويظهر عليها القدم، وتوحي بالفقر أيضاً، إلا أن البشر الذين يملكونها يمتلكون قلوباً من ذهب، كما يقول الذين يحبونهم، ويتصفون بالكثير من الطيبة والبساطة، ويتميزون أيضاً بالصخب والأصوات العالية والمرح، إذا اعتبرت مثل هذه

الصفات مزايا! أما علاقاتهم مع الغرباء فإنها أقرب إلى الدفء والمودة، لكنهم بالإضافة إلى ذلك يتصفون بالحذر، وبغير قليل من الانتباه، حتى إذا وثقوا وتأكدوا أصبح هؤلاء الغرباء جزءاً من المكان ومن ناسه.

الذين يرتفعون في المراتب من أبناء الكرخ، وهم في العادة قليلون، أو على وجه أدق، أقل مما هو متاح لأبناء الرصافة، فإن هؤلاء لا يغيرون أصدقاءهم وأمكنة سكناهم، كما لا تتغير عاداتهم، لأن المسنين حين يرد الحديث عن مثل هذه الموضوعات يقولون بفخر: «كل يردّه حليبه»، وهم بذلك يردون على بعض الذين يفخرون، أو الذين يقولون: «الكرخي مثل الحجارة. . . تغيب عنه سنة ومية، وترجع تلقاه بنفس المكان وبنفس الوضعية».

ما يفخر به أهل الكرخ الروابط التي تجمعهم، إذ رغم الكثير من النكد والمنغصات الصغيرة التي تقع كل يوم، وتجعلهم يثورون ويشتمون، ويقسم الواحد منهم أن لا يقول لخصمه المرحبا، إلا أنه في اليوم التالي ينسى، أو يتظاهر بالنسيان، مع تصميم أكيد، مشفوع بأيمان غليظة في أغلب الأحيان، أن لا يعود إلى مثل هذه الحماقات مرة أخرى. أما إذا واجه الناس المصاعب، وهجمت التحديات، فإنهم يشعرون وكأنهم أسرة واحدة، شخص واحد، وأي أذى يصيب أحدهم يصيب الجميع.

هذه الخصال التي تميز الذين يسكنون في صوب الكرخ، تجعل الكثيرين في صوب الرصافة يفكرون ويتساءلون ويتحسبون، بل وتجعلهم يخافون في بعض الأوقات.

فإذا كانت الصحراء تسند ظهر هذا الصوب، فإنها تجعلهم دائماً على ثقة، إذ لا بد أن تسعفهم بالمدد حين يحتاجون، أو أن تحتضنهم من جديد إذا تعرضوا للملاحقة. كما أن شعور الإنسان بالامتداد والحماية يجعله أشد قوة وأكثر استعداداً للتحدي، أو على الأقل لا يرضى بما يرضى به الآخرون، خاصة أولئك الذين فقدوا صلاتهم وروابطهم بالمنابع والجذور.

ورغم أن الصحراء بعيدة، وقد تبدو عصية، قاسية، وغير مألوفة للذين يسكنون في صوب الكرخ، نظراً للأزمنة التي مرت، إلا أن رائحة الصحراء التي تهب من جهة الغرب، تحمل معها تأثيراً لا يمكن مقاومته أو نسيانه، وتترك بصماتها على الوجوه والتصرفات.

لا يقول سكان صوب الكرخ ذلك، لكنهم يحسونه في داخلهم على نحو خفي. حتى المسنون الذين يفخرون بانتسابهم إلى جذور قوية، ويحاولون توريثها لمن بعدهم، وحين لا يجدون حماسة تكفي، أو رغبة تماثل رغبتهم، ينتابهم الحزن، ومع الحزن الخوف من الأيام التي ستأتي.

الذين يسكنون في الصوب الثاني من المدينة، يلحظون أكثر من الكرخيين، الصفات والعادات، وحتى الجنون الذي يميز تصرفات الذين يسكنون في الكرخ، خاصة أوقات الشدة، حين تأتي سنوات القحط، أو حين يصل الجراد، أو حين ترتفع مياه النهر وتهدد المدينة.

صادق البلام، كبير ملاحي صوب الرصافة، يقول حين يجري الحديث عن صوب الكرخ، وحين يكون الكرخيون موجودين:

- الله ربكم يا جماعة ذاك الصوب!

وحين ينظر إليه الذين حوله، وكان بينهم أصحاب مراكب وقفف من الصوبين، يتابع:

- جماعة ذاك الصوب، موبس معهم الله والأنبياء والأولياء، معهم، آغاتي، الروج والموج، لأن الريح الغربية قبل ما توصلنا تمر بيهم، تسألهم: ها.. شنو قولكم أروح لذاك الصوب لو ما أروح!

يضحك بعربدة البحارة، خاصة وأنه ركب البحر العالي، وذهب إلى أماكن بعيدة، حتى إذا ملّ أو تعب، عاد إلى بغداد ليصبح صاحب مركب أولاً، ثم ليصبح شيخاً للملاحين. كان صادق البلام يضحك بهذه الطريقة، وهو يتطلع إلى جسده، خاصة الساعدين، ويضيف:

- وفوق الروج والريح الغربية شطكم عالي...

ويبدأ يتذكر:

ـ من أنا وزغيّر، من يوم ما فتحت عيني على الدنيا، وكل ما قالوا: بغداد غرقت، ننهزم لذاك الصوب، لأن الرصافة ناصية، والموج يرد من ذيك الصفحة لهذي الصفحة.

صادق البلام، وهو يؤكد هذه الحقيقة، لا يختلف الآخرون معه حولها، إلا أن الاختلاف حول ارتفاع صوب الكرخ، وعن مدى تأثير الريح، ولأنه لا يعرف بدقة الإجابة، ولكي يخلص من الأمور الخلافية، ينتهي كما بدأ:

ـ الله ربكم يا جماعة ذاك الصوب!

قد يكون صوب الكرخ أكثر ارتفاعاً من الرصافة، وهو بالتأكيد كذلك، لكن الأكثر أهمية، أن قهوة الشط هي الأكثر ارتفاعاً من كل ما حولها. كيف قامت في هذا المكان، أو متى قامت؟ لا أحد يجهد نفسه لتفسير ذلك، لأن قهوة الشط تحتل هذا المكان منذ وقت طويل، كما أنها تمثل شيئاً عزيزاً ومتميزاً في هذا الصوب، وربما تبدو لكثيرين أنها تماثل السراي والباليوز وقصر الوالي، عدا عن مراقد وخانات وزوايا كثيرة في الصوب الآخر.

بطريقة غامضة، لا يعرف كيف، أصبحت قهوة الشط هي قلب الكرخ. حتى أنه لا يذكر هذا الصوب الا ويعني الكثيرون القهوة بالذات، بما تثيره في الذاكرة من مواقف تعبّر عن نمط للحياة والعلاقات، إضافة إلى الأحداث التي شهدتها. وهذه كلها، إضافة إلى عدد من الناس الذين لا يغادرونها حتى يرجعوا إليها، ويفعلون ذلك عدة مرات في اليوم الواحد، جعلتها مختلفة عن المقاهي الأخرى في كلا الصوبين، وجعلتها رمزاً أو حمى للذين يفكرون ويتكلمون، وأيضاً للذين يحلمون.

قال داود باشا بعد شهور طويلة من عودته إلى بغداد، قال لكيخياه ذات غروب، وهما يجلسان في الحديقة المطلة على النهر، وكانا يستعرضان الأماكن والبساتين:

ـ ما تقول لي، يا يحيى بك، يا هو قهوة الشط؟

وبعد أن دقق الكيخيا النظر، وكان يزمّ عينيه، وبعد أن مسح أماكن عديدة، قال، وهو يشير بإصبعه:

ـ بعد ذاك البستان. . أكو مجموعة بيوت، بعد هذي البيوت تماماً، على النهر، قهوة الشط.

سأل الوالي من جديد:

ـ هاي اللي بصفحة البستان، ورا الجامع؟

ـ تمام يا باشا

ـ أشوفها خرابة. . ما لها هيئة وما عليها ضو!

ـ قهوة صيادين وسكارى، يا باشا. . .

وأضاف مستدركاً:

ـ وافندية الكرخ يقعدون هناك!

وبعد قليل، وقد أخذ الكيخيا نفساً عميقاً، وكأن هماً يثقل على صدره، أو قضية تشغله، قال وقد تغير صوته:

ـ وتعرف، يا باشا، الأفندية ما عندهم شغل إلا فلاني وتركاني، ولازم طول الوقت يسولفون ويقسمون، حتى يحللوا خبزتهم.

ـ سمعت، يا بك، إن جماعة قهوة الشط مسوّين سرايا ثانية، وهناك يفتون، ويقولون: يصير وما يصير!

ـ أفندية، وأصحاب غنم وجمال، فإذا خلصوا من سوالف التاريخ انداروا على سوالف هذي الأيام، ونزلوا قص!

ـ ما عندهم شغل؟

ـ عندهم شغيلات زغيرة ولسانات طويلة، يا باشا. . .

ابتسم الكيخيا، بدت ابتسامته حزينة، وأضاف:

ـ وبالعَجَل يخلصون شغيلاتهم حتى يتلاقوا بالقهوة، وهناك تشتغل رحمة الله: فلان طويل، وفلان قصيّر. فلان أخذ وفلان نهب. ومن هذا سالفة ومن ذاك بيت شعر، وهم بينهم من يفتي ويقول، وما ينقال هناك ثاني يوم ينطش بالولاية كلها، وما تعرف من قال وشنو اللي قاله، وتنلاص

علينا وعلى غيرنا، لأنه ما ينعرف الصدق من غيره!

قال الباشا وهو يبتسم:

ـ وتعرف.. يا بك، إذا هذول الأفندية ما اشتغلوا، إذا ما لقوا فد شي يتلهون بيه، يقعون بروسنا دق!

رد الكيخيا بحسرة:

ـ قهوة الشط، يا باشا، شالعة قلبي. كل يوم والثاني سالفة أو إشاعة؛ وكل يوم والثاني: صار بالسراي فلان شي وفلان شي، ونحتار، شلون نخلص منهم، ورأيي، يا باشا، حتى نسد حلوقهم، لازم نسوي فد شي!

ضحك الباشا، هز رأسه عدة مرات، وجاء صوته بطيئاً موزوناً:

ـ إذا ماكو قهوة الشط، لازم نسوي قهوة شط، أو واحدة مثلها..

وبعد قليل، وهو ينظر إلى نائبه بتحديد:

ـ شلون نعرف شنو صاير بالدنيا إذا الناس سدت حلوقها؟ إذا صمّت من فوق ومن جوا؟ شلون نعرف الضحك من البكا، الجد من الهزل؟

وتغير صوت الباشا:

ـ إذا أكو بذاك الصوب مثل قهوة الشط، ونقدر نسمع ونعرف شنو اللي صار واللي جرى، فأريد منك تسوي قهوة ثانية بهذا الصوب، وبيها ناس مثل ذوليك!

وبعد أن خيم الصمت فترة غير قصيرة، قال الباشا، وكأنه يكلم نفسه:

ـ أخطر شي بهذي الولاية إن الواحد ما يعرف شلون الناس تفكر، شلون تحلم..

واستدار نحو النهر، كأنه يتذكر:

ـ سعيد.. وقبله عبد الله.. واللي قبله، وغيره.. وغيره.. الواحد منهم كان يسمع اللي يريده، اللي يعجبه، وآني أريد أسمع الشي اللي ما يعجبني، الشيء اللي ما يقولوه الناس بوجهي، لكن يقولونه بين بعضهم، هذا اللي يهمني يا بك، وعلوّاه نسمعه دائماً!

ولما خيم الصمت من جديد، وكان الاثنان ينقلان النظر إلى أماكن

عديدة في صوب الكرخ، وهما يتأملان المشهد كله، وكانا يفكران بأمور كثيرة، قال الباشا بحزم:

ـ أريد منك، يا بك، أن تتنصت حتى تسمع الصمت!

وابتسم وهو يضيف:

ـ ما أريدك تتنصت على اللي يقولوه الناس بس، أريدك تتنصت على الشي اللي ما يقولوه، على الشي اللي يفكرون فيه.. وإذا أمكن على اللي يحلمون بيه.

وبعد قليل، وهو ينهض، وقد أحس بالبرودة التي حملتها الريح الغربية:

ـ دائماً.. من ذاك الصوت تجي المصايب. إذا خلصنا من البدو، تدبي علينا القصص والإشاعات اللي يغزلها أفندية قهوة الشط بالليل، وقبل آذان الفجر تنطش ببغداد كلها.. وتعال أفرز وقول: هذا صحيح.. وهذا لع...

وهما يسيران إلى الداخل، التفت داود باشا، وقال لنائبه مازحاً:

ـ صدق لو لع؟

32

كان الصيد لداود باشا إحدى الوسائل لترويض عواطفه، وهذه الهواية التي استبدت به منذ وقت مبكر، كانت تتيح له المجال كي يجعل الحقد يفيض إلى الخارج، إذ يجد نفسه مدفوعاً لترويض ما يعتمل في داخله، من خلال اكتشاف ومعرفة المخلوقات الأخرى، والتي لها أمزجة وطُرق في الدفاع عن النفس، وأساليب متعددة للتمويه تختلف عنه، فإذا أراد الاقتراب منها، ثم السيطرة عليها، يجب أن يقترب بحذر، في الوقت المناسب، وإلى الحد الذي لا يفزعها، فتهرب، وتفلت من بين يديه، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يقتنصها لو سلك إليها طريقاً يتناسب وطبائعها.

الآن، وهو يرى ريتش يستعرض قوته، بالأزياء التي يغيرها كل يوم، وبالحيوانات التي جلبها من أمكنة عديدة، ويتباهى حين يعرضها أمام الناس، ويسمع صرخات الإعجاب من الصغار والكبار، ثم المشاعل السماوية التي يزرعها في سماء بغداد، ليدلل على مدى قوته وما يملك، والسفن المليئة بالسكارى التي تصعد من البصرة، ولا يدري إلى أين يمكن أن تصل في المستقبل، هذه الأشياء وغيرها يمكن أن ترضيه، أن تجعله يحس بالقوة والتفوق، لكن إلى حين.

وفجأة لمعت في ذهن داود باشا صورة الجمل مقابل الفيل، وتذكر قصصاً قديمة من التاريخ.

صحيح أن حيوانات هذه المنطقة تبدو، أغلب الأحيان، ضامرة، مغبرة، شرسة، عدا الجمل، إذ يراه يختلف عن الحيوانات الأخرى، ليس

بصبره فقط، بل وبحقده أيضاً، وهذا ما يجب أن يكون، ليصبح مختلفاً ومتميزاً عن الخصم الغربي الذي يريد أن يفرض نفسه وأسلوبه.

قال داود باشا لنفسه، وهو يغالب الغيظ، خاصة وقد تذكر فارق العمر بينه وبين ريتش: «الفرق كبير بين دولة انتصرت على نابليون، وتريد أن تسيطر على العالم، وبين دولة انهزمت في معارك عديدة، في أوروبا ومع روسيا، ولذلك عليّ أن أحاربه هنا وليس في مكان آخر، وعليّ أن أحاربه بسلاحي وليس بالسلاح الذي يفرضه هو».

ابتسم داود وهو يضيف لنفسه: «لن أخضع لما يريد. لن أتركه ليحدد ساعة المعركة أو أسلوبها».

ومرت في ذاكرته صور عديدة: الموكب الفخم، الاحتفالي، ومعه قطعان الكلاب، حين يخرج للصيد. أنواع الأسلحة الحديثة، والتي تتغير بين رحلة وأخرى، ثم أولئك الذين يهيئون له الطرائد كما يهيئون الطعام، فهل يعتبر نفسه صياداً ماهراً؟

ولمعالجة هذه المشاعر، قال لنفسه بنوع من التصميم الحاقد: «الأسلحة وحدها، حتى لو كانت جديدة، لا تصيد. أما الملابس المنتقاة مثلما تخدع الطير تجعل الصياد مغروراً، والغرور أقصر الطرق إلى الفشل. إن الذي يصيد هو الإنسان، وحصيلة صيده تتوقف على معرفة طبيعة الطريدة، وكيف يجب أن تواجه، ومتى وأين».

قال لفيروز الذي كان يرقبه من مسافة قريبة:

ـ لترسل بندقية الصيد الفرنسية التي وصلتنا أخيراً إلى الآغا.

ـ أمرك سيدي.

ـ وعسى أن يهديها بدوره للقنصل، كي يفاخر بما عنده من أسلحة جديدة!

وحين ابتسم فيروز ولم يعلق، أضاف الباشا:

ـ وقل له: مثلما الفرس من الفارس فالبندقية من الصياد.

وابتسم الباشا وهو يقول لنفسه: «الآغا لا يفهم القضايا المعقدة، ولا

يتذوق النكتة» وأضاف يخاطب فيروز:

ـ وقل له: ليكثر من الصيد، فالباشا سيكون ضيفه!

كان إرسال بندقية الصيد بمثابة تخلٍ من الباشا عن منازلة ريتش، على الأقل الآن، فالوقت مبكر على هذا النزال، وكما للصيد والقنص أماكن ومواسم يعرفها الصيادون، فيجب عليهم أن يلتزموا بها إذا أرادوا أن يظفروا، فإن من يخطىء في معرفتها لا بد أن يدفع الثمن!

وزيادة في المكر أرسل هدية للباليوز، وهي عبارة عن مجموعتين من الغزلان، مجموعة من الغزلان الصحراوية، والثانية من غزلان الجبال. وكان يعرف أن الباليوز لا يملك مثلها، وهي بالإضافة إلى ندرتها، تعبّر عن نوايا طيبة، لما ترمز إليه الغزلان من وداعة ورقّة، إضافة إلى أن عيونها الواسعة تعني أن السراي ترى كل شي! أما دقة السمع التي تميز الغزلان في العادة، فلم يشر إليها أية إشارة، إذ ترك لريتش أن يستنتج ذلك!

وإذا كان مهرجان الباليوز قد آثار الاهتمام، وشغل الناس أياماً عديدة، كما بعث برسائل إلى من يعنيهم الأمر، فإن دخول الصيف، أو بداية الحرارة في بغداد، جعل ريتش يفكر بجولة طويلة، وبالاتجاه المعاكس للرحلة التي بدأ يهيِّىء لها الباشا، إذ ما كادت تتوالى الأخبار عن احتمال توجه قوات الوالي نحو الصحراء، حتى أخذ الباليوز يهيِّىء رحلة القنصل إلى الشمال، وكان لديه الكثير ليفعله هناك.

فالتجار اليهود الذين قدموا هدية بمناسبة عيد جلوس الملك، وكانت عبارة عن مجموعة من القطع الأثرية، وقد قدمها وفد كان يرأسه عزرا في اليوم التالي للعيد أثارت اهتمام ريتش، خاصة بعد أن استسفر عن المكان الذي جُلبت منه، وقارن هذه المعلومات بما لديه، وضرورة أن ينتهي من وضع الخارطة للمواقع الأثرية التي تعتبر أكثر أهمية من غيرها، وما تقتضيه من عناصر ووسائل، ليشرع فوراً باتخاذ خطوات عملية. خاصة بعد أن بدأ الفرنسيون عمليات تنقيب واسعة، وفي عدة أماكن، وتوفرت لديه أخبار أنهم حصلوا على نتائج وحصيلة كبيرة.

ثم إن زيارة الشمال تتيح له فرصة إعادة الدراسة، وإمكانية اختبار طبيعة الأرض، ونوعية التربة، مما يجعله قادراً على اقتراح خطة متكاملة لطرق جديدة غير الطريق السلطاني، الذي خطته البغال ومجاري المياه دون أن يتدخل الإنسان مجدداً من أجل تخطي الأزمنة، وتجاوز هذه الوسائل البدائية!

أما أصدقاء الشمال الذين ألحّوا عليه كثيراً ومراراً بزيارتهم، فقد حان الوقت ليفعل، لأن هؤلاء الأصدقاء، كأية مجموعة بدائية، إذا طال الانقطاع عنهم، يمكن أن يضيعوا، وقد يتغير ولاؤهم دون أن يحسوا بالذنب، ثم إن عدم تلبية دعوتهم، رغم إلحاحهم، يشعرهم بالغضاضة، إذ يبدون بنظر رجالهم أدنى درجة وأقل أهمية مما يدّعون، ونتيجة ذلك يمكن أن يتخذوا مواقف سلبية لا تلبث أن تتحول إلى عداء.

وتذكر خالد بك الذي زاره عدة مرات، ودعاه بإلحاح لزيارة كوي، كما بعث إليه بعدد من أطيب خيوله، وأوفد إليه الرسل والرسائل، وريتش يؤكد أن لديه الرغبة في الزيارة، لكن مشاغله في بغداد تحول دون تلبيتها في وقت قريب. ويصبر خالد، ويعاود الزيارة والاتصال، وريتش لا يلبي، كما لا يعد ولا يعتذر، إلى أن ذهب خالد لكرمنشاه، وأظهر عداء لبغداد ولكل من فيها حتى لريتش، إذ اعتبره خاضعاً لإمرة الباشا، وعاجزاً عن أن يتصرف بطريقة مستقلة!

قال ريتش ليحسم أمره: «مثل هؤلاء الناس يمكن استرضاؤهم بسهولة، شريطة أن تشعرهم بأهميتهم، خاصة أمام أتباعهم، وبمجرد أن تأكل من خبزهم يشعرون بالفخر، ويتذكرون ذلك لوقت طويل».

وعاودته ذكرى الأيام الأولى لوصوله إلى بغداد. كان يفترض أن المناقشة الهادئة، والاعتماد على العقل والمنطق من أجل إقناع الآخرين، يوصلانه إلى ما يريد، لكن بعد أن حاول، وبذل أقصى براعته، اكتشف أن الناس هنا يختلفون عن الأماكن الأخرى، لأنهم هنا لا يريدون من يقنعهم، فهم بحاجة أكثر إلى من يأمرهم، إلى من يقول لهم ماذا يجب أن يفعلوا،

وكيف يجب أن يفعلوه! أما حين تتحدث إليهم بأدب، بصوت منخفض، يفتحون عيونهم على إتساعها، لكن أفكارهم في أماكن أخرى، ربما لأن عقولهم قاصرة عن إدراك ما تريد، إذ يكتفون بهزات الرؤوس بالموافقة. لكن إذا فاجأتهم بالسؤال يرتبكون، ينتزعون أنفسهم من الأماكن البعيدة التي كانوا فيها، وتطلب عيونهم قبل الكلمات، وبرجاء أقرب إلى التوسل، أن تطرح عليهم، مجدداً، السؤال، لكن بطريقة لا تحتمل كل هذا التعقيد. ويُطرح السؤال مرة أخرى، وبصيغة أخرى، وغالباً تكون النتيجة ذاتها!

إنهم يفضلون الحديث عن الامور الخاصة، الحميمة. وربما هذه الامور وحدها تعني لهم شيئاً، وتبدو لهم مهمة. حتى ماري، وكأية امرأة، تُعنى كثيراً بالتفاصيل، كما تحب الدخول إلى عالم الآخرين من خلال الأمور الخاصة، إلا أنها بدأت تضيق ذرعاً بهذا الإلحاح المبالغ فيه، حين تُسأل عن الأمور الصغيرة، ويجعلها الآخرون تدور في هذا الفلك وحده. قالت قبل أيام: ما رأيك يا عزيزي كلود إذا قلت لك إن الرجال في هذا البلد لا يختلفون عن النساء! سألتني ذلك وأخذت تروي لي كيف كان الضيوف ينظرون إليها ويوجهون لها الأسئلة عما تحب من أنواع الأطعمة، وكيف تتحمل الجو، وما إذا تشتاق إلى بلدها أم لا. كانت تتمنى أن يسألها أحد عن أمر جدي، لكن لم تظفر بذلك!

فإذا كانت هذه حال الناس في المدينة، فماذا يمكن أن يكون حالهم في أعالي الجبال؟ في تلك المناطق المعزولة حيث لا يرون سوى الشمس في النهار والقمر في بعض الليالي.

وقرر أن يزور تلك المنطقة، تخلصاً من جو بغداد، وللقيام بالمهمات الأخرى التي طالما أجّلها.

33

في ليالي السهد، وما أكثرها، كان داود باشا يسافر بخياله إلى أماكن عديدة، ويستعرض وجوهاً وأحداثاً لا حصر لها، لكن في الفترة الأخيرة استبدت به جورجيا، ويستغرب أن تفليس التي كانت غائبة طوال سنين وسنين أصبحت توافيه في الكثير من هذه الليالي! فجأة يجد نفسه يرحل إلى هناك، إذ تهف في أنفه رائحة الأرض ودخان أيام الشتاء، أو تتبدى له أزهار الربيع بألوانها وهي تزركش الحقول، لكن في لحظة تغيب كل هذه المشاهد، ولا يبقى إلا وجه أمه. كان وجهاً مستديراً مشرباً بالحمرة، ومع أنها تميل إلى القصر، أو ربما تبدو كذلك لسمنتها، إلا أنها سريعة الحركة بالغة النشاط وهي تملأ البيت بالدفء والحيوية منذ الصباح الباكر.

ومع وجه أمه تعود التفاصيل: الريح كيف تعصف؛ الثلج كيف يهجم؛ وحين تصبح أغصان الأشجار كالأعلام الممزقة. كانت الأشجار، بعد أن تسقط أوراقها وتتعرى، تبدو كالجيش المتقهقر: ألوان كثيرة متداخلة، قامات متفاوتة الطول ولا تعرف أي انتظام، ثم ذلك البخار الذي يشع من الأرض أو يتولد من الكائنات، خاصة الأبقار، وكأن الطبيعة رئة كبيرة لا تتوقف عن الزفير، لتملأ الجو ببخار يتصاعد ويتلوى ثم يختلط بالدخان الذي يرتفع من المدافىء، ومن فرن البيت، في الجانب الغربي من البستان، مع الحرائق الصغيرة التي يشعلها الأب ليدفّىء الحظيرة. تصبح للطبيعة رائحة خاصة، حريفة، بالتأكيد ليست زكية، لكنها قوية، نفاذة، كما تثير في الخيال صوراً وأشياء لا يعرف كيف تتكون.

وتحمله ليالي السهد إلى أماكن أخرى، يذهب بعيداً، لكنه بسرعة يعود. فقد قرر منذ وقت مبكر أن يبقى، وبالتحديد منذ أن سلّمه سليمان باشا المفاتيح. قال له بلهجة تقع بين الطلب والأمر: «إذا خدمتني بالصدق والإخلاص، وكنت أميناً وكنت مطيعاً، فستبقى مفاتيح السراي بين يديك. وإذا صبرت واجتهدت فسوف تنتقل من الباب الصغير إلى باب أكبر».

منذ أن سمع تلك الكلمات، والتفت حواليه يراقب الناس والأحوال، ويسأل بكثير من الحرص عن كل ما يحيط به، قرر أن يبقى، وأن يعمل بكل قوته كي يرتفع درجة بعد درجة إلى أن يصل.

كان كتوماً فلم يبح بأحلامه وأفكاره لأحد. وكان جلوداً في العمل والسهر والحرص. وكان يؤثر الصمت. ولعل الصمت هو أكثر ما تحبه القصور، وتفضله على أية ميزة أخرى. لا مانع أن ترى، أن تسمع، وأن تعرف أيضاً، لكن عليك ألا تفتح عينيك أكثر مما ينبغي، ولا أن تدير رأسك دورة كاملة لترى كل شيء. وإذا سمعت شيئاً تظاهر أنك لم تسمع، أو أن ما سمعته كان دون قصد. أما ان تقترب من الأبواب لتسترق السمع، لتطل من النوافذ لترى ما يجري، فإن انكشف الأمر ستذهب إلى السراديب البعيدة، المظلمة الرطبة، وهناك يمكن أن تنتهي دون أن يحس أحد!

وما تراه، وما تسمعه، رغم أنك رأيته وسمعته، فأنت تجهله! حتى في أوقات المزاح أو بين الأصدقاء، أنت لا تعرف لأن من يعرف أكثر من الآخرين أو قبلهم لا بد أن يدفع الثمن اليوم أو غداً. وتذكر داود باشا ما قاله سليمان الكبير: «من اللسان تبدأ أكثر الشرور، ومن الكلمات تندلع أكبر الحرائق، فإياك ثم إياك».

لم يكن الباشا الكبير يلومه أو يحاسبه على زلة لسان سمعها أو نقلت إليه، إنما كان يدربه كي يرقيه إلى مرتبة أعلى، ولكي يعهد إليه بمهمات جديدة، بعد أن تأكد أنه حفظ الدروس السابقة.

هناك لحظات في حياة كل إنسان تخلق السعادة أو التعاسة. يحصل

ذلك نتيجة قرار يتخذه، أو يُتخذ نيابة عنه، وهذا ليس دائماً نتيجة الذكاء، أو ترتيب الأمور بشكل معين، وإنما لأن توافقاً في الأزمنة والأمكنة والطوالع، وربما بقليل من الفطنة، سواء في اختيار اللحظة أو الكلمة المناسبة، يؤدي إلى الاتجاه الصحيح، ثم إلى بداية الوصول، تماماً كما يحصل عند مفارق الطرق.

داود حين قرر لم يكن متردداً أو خائفاً، كما لم ينظر إلى الخلف. وخطوة بعد أخرى، وجد نفسه وقد قطع جزءاً كبيراً من الطريق. انفرجت الزاوية كثيراً، وأخذ يوغل في اتجاه لا رجعة فيه. أصبح كل قرار جديد يتخذه، كل حركة يتحركها، وأية علاقة يقيمها، تسهّل عليه الوصول، أو ربما تقطع عليه الطريق بشكل نهائي.

يقول الذين يعرفون أن الدرس الهام الذي تعلمه من سليمان الكبير هو: الصمت. وكان يجيد الصمت أكثر من أي شيء آخر، رغم أنه بارع في الكلام، وقد لا يبزه أحد في هذا المجال، لكنه يعرف متى يتكلم وأي شيء يجب أن يقول. يفعل ذلك حين يريد هو لا حين يطلب الآخرون.

ورغم أن تفليس تعاوده مرة بعد أخرى في ليالي السهد، ومعها وجه أمه بشكل خاص، ثم تتعاقب بعد ذلك الوجوه: جورجي عمانوئيل شفاي، أبوه، وشيو، أخوه، وديمتري، أخوه الأصغر، وتتراآى له صورة الكلب الذي كان عندهم هناك. ومع أنه يحبهم كثيراً، ويحب أمه أكثر من أي إنسان آخر، إلا أن ذلك جزء من الماضي، هذا الجزء الذي يجب نسيانه، لأنه، في النتيجة، لا يعني له الكثير الآن. صحيح أنه يفكر بمساعدة أهله، ولا بد أن يبعث لحاكم المقاطعة في جورجيا طالباً منه تحرير أسرته من العبودية، وبالتأكيد سوف يستجيب، بعد أن أصبح هو والياً لبغداد، أو ملكاً لبابل، كما يخاطب بيترو الجورجي الذي يكتب له الرسائل بالجورجية والفرنسية، بمداعبة، إلا أن ذلك لا يتعدى الحنين الذي يجب الا يستبد به، كما يستبد ببعض الناس!

الماضي بالنسبة له محرض، والطفولة الفقيرة الصعبة، حين كان يصحو مع الفجر كي يقوم بقسم من الأعباء الكثيرة المفروضة على العائلة، لقّنته الدرس الأول. صحيح أن دروساً أخرى كثيرة أعقبت ذلك، لكنه تعلم من هذا الدرس الكثير، و«الفقر، كما قال لنفسه، يمكن أن يعلّم بمقدار ما يمكن أن يكسر ويدمّر، حسب النظرة إليه وكيف يتم التعامل معه» أما الأيام الأولى في بغداد، تلك الأيام التي يحاول أن ينساها ولا يفلح، فقد حفرت في قلبه أثلاماً لا يمكن أن تزول. كانوا ينظرون إليه ويتكلمون، ورغم أنه لم يفهم ما كان يقال، لكن يحس أن كل كلمة مسمار يُدق في عظمه، وكل نظرة غرق في وحل أسود. وبعد أن انتقل من يد إلى يد، ومن بيت إلى آخر، وصل السراي، فاعتبرها خشبة خلاص لا يمكن أن يتخلى عنها. ومن هناك بدأ.

ولأنه عرف كيف يتعامل مع ماضيه، فقد قرر إعادة عجنه ليخبزه من جديد، لأنه لا يريد أن يأكل خبزاً قديماً.

فالأيام الأولى، رغم صعوبتها، تبدو له الآن خارقة، فقد استطاع أن يعيشها ثم أن يتجاوزها. ومع أنه استوعب دروسها، إلا أنه لا يريد أن يتصرف بوحيها. قد تكون ذكرى، لكن ما يريده الآن هو الهدف، ولن يكون غراً ليبقى أسيراً للماضي.

الماضي نهر عميق، ينبوع دائم التدفق، لكنه الآن يواجه أنهاراً أخرى وينابيع لا حصر لها، وعليه أن يوجد ممرات سرية وعميقة جداً لكي يسحب من مياه الماضي إلى النهر الذي يسبح فيه الآن. الينابيع القديمة رغم مائها البارد أيام الصيف، وتدفقها حتى في سنوات المحل، إلا أن الينابيع التي تروي، هي تلك التي تحيط به الآن، أياً كانت برودتها.

يتذكر الشهور الأخيرة في الشمال. كان محاصراً بالبشر والينابيع، ومثلما كانت تهدر أصوات الرجال طالبة سرعة الوصول إلى بغداد، كان دوي الينابيع والشلالات يمنع أو يحد من هذا الهياج، ليتولد صخب من نوع آخر: المهم ليس الوصول وحده، الوصول والبقاء، ثم الانتصار،

وكل ما عدا ذلك: طريق للهزيمة أو للبقاء في الشمال، وربما للتراجع أكثر.

كان الزبد يتدفق فوق المياه كغطاء ليقول: تمهلوا إلى أن تنكشف روعة الأشياء، لأنكم تبحثون عن المياه، لا تبحثون عن الخيال، وأنا الدليل وأنا الإشارة، فانتظروا!

وكان داود باشا يقول لنفسه، لكن يريد للآخرين أن يسمعوا:

- من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، ونحن نريد أن نشرب من ماء بغداد إلى آخر أيام العمر، وماء بغداد موجود وجارٍ، وعلينا أن نعرف الطريق للوصول إليه!

وإذا كان الإنسان، في أحيان كثيرة، يولد أكثر من مرة، فإن الولادة الأخيرة هي وحدها التي يعوّل عليها، لأنها تعني البقاء أو الغياب.

استعاد داود باشا رحلة الشمال، والتي دامت شهوراً طويلة، تأمل أوراق الشجر، أصغى إلى أصوات الينابيع، نام قرب الشلالات، توقف عند معابر الأنهار، تطلع ملياً إلى الجبال والخضرة، وعرف أحلام الناس، كما راقب باهتمام صخب الماء وهو يهبط من الأعالي، وهناك توقف وأطال التأمل، خاصة وهو يرى الأسماك عند مساقط المياه. قيل له إنها الأمهات تحاول العودة إلى الينابيع الأولى. فرح وحزن. فكر بذلك طويلاً وعجب، وقال لنفسه: «هذا درس يجب أن نتعلمه من الأسماك، أسماك القاع وأسماك الأعالي». وحين أخبروه أن تلك الأسماك في محاولتها العودة إلى الينابيع، وحين تعجز، رغم ما تبذله من جهد، فإنها لا تموت دفعة واحدة، بل ترفع رؤوسها فوق الماء، وتظل تنوح وتبكي بصوت عالٍ ولأيام متواصلة، ثم تقرر ان تنتحر، تخرج الى اليابسة.. وهناك تموت.

وقد سمع أكثر من ذلك: الأسماك التي تعاكس مجرى الماء، وتريد أن تصعد مع الشلال، فإن القليل منها يستطيع ذلك، أما الأمهات الباقيات فإنها تقف عند أسفل الشلال، تقف على ذيولها، وتتلبث في الماء وقتاً غير

قصير، وهي تصرخ بطريقة أقرب إلى الاحتجاج. وقالوا لو أن صياداً يحمل فالة ويريد أن يصطاد في هذا الموقع لجمع الكثير، لكن الصيادين، خاصة المحترفين، لا يفعلون ذلك! يقولون بطريقة حكيمة: من العيب أن يكون الإنسان دنيئاً إلى هذا الحد. ويقول غيرهم، إن لحم الأسماك التي تصاد أسفل الشلال تجلب الحمى والكوابيس، ومن يداوم على أكلها يصب بالعمى!

قد تكون الأمهات، والعودة إلى الينابيع، ما جعل داود باشا يهجس في المنام واليقظة بأمه وبجورجيا. وربما هذا ما جعله يستعيد في ليالي السهد، أشياء نسيها منذ وقت طويل.

لكن، وهذه المشاهد تعاوده وتلح عليه، فقد طلب من بيترو أن يبذل جهداً استثنائياً لمعرفة ماذا حل بالعائلة، وأن يجد الطريقة المناسبة لإعادة الصلة، «لأن ملك بابل، هكذا قال لبيترو، اشتاق لمريم، أمه، ويريدها أن تأتي لترى كيف أصبح ابنها الآن!». وبيترو الذي أوصى عدداً من المسافرين الذين ذهبوا إلى إسطنبول، وكان في نيتهم أن يذهبوا إلى مكان أبعد، طلب منهم أن يوافوه بطريقة مناسبة للاتصال مع جورجيا. لم يقل إن الباشا يريد ذلك، لكن أهل بغداد، كما قال بيترو لخَلَف، وهو يطلب منه تأمين مبلغ إضافي لأحد المسافرين، يعرفون دلالة أي طلب، وما يكمن خلفه من نتائج، وقد فهم خلف الطلب ولم يتأخر في تأمين المبلغ المطلوب.

إذا كانت الشلالات استوقفت الباشا، وجعلته يتساءل، فإن الفترة التي قضاها في الشمال، دفعته للتساؤل أكثر من قبل. صحيح أنها أسئلة لا تبارح الذاكرة، وقد تأتي بشكل عفوي، لكن مهادها، ثم نتائجها، تكمن في مكان آخر.

حتى الضباب الذي ينقشع سريعاً في الأماكن الأخرى، فإنه في الشمال يبدو كعباءة، إذ يغمر الوادي كله، ويظل هناك إلى ساعة متقدمة من النهار، وله رائحة تحمل في ثناياها قوة الحياة. أما الأشجار، وهي تعبُ من

الضباب، بعد أن عبّت الندى الليل كله، فإن لفاكهتها مذاقاً ينتقل مباشرة من اللسان إلى مجرى الدم. وكذا الخضار فإنها لا تذبل أبداً، ويتجدد النسغ داخلها كل يوم جديد.

في ضواحي تفليس كانت الخضار قبل أن تكتمل يأتي الصقيع. كان الصقيع قوياً جارفاً إلى درجة أن الماء داخلها يجمد من لهيب البرد فتذبل، أو تتوقف عن النمو، ورغم ما يبذله الفلاحون في تدفئتها، في دفعها لأن تواصل الحياة فإنها لا تفعل، ولا تستجيب.

وثلج الشمال، رغم كثافته، يشبه الألحفة التي تسقط على من يحس برعشة البرد، فيغادره البرد، ويصبح أكثر استعداداً لأيام جديدة.

قالت مزيونة، ضاربة الودع، وقارئة الحظوظ، لداود باشا حين التقت به في كركوك: «تواجه أعداء كثيرين، تتغلب عليهم، لكن لا يهدؤون. فإذا مرّ ربيع ثم صيف، وجاء الربيع الثاني فأيامك عز طويل».

يتذكر داود أيام الشمال كلها، يوماً إثر يوم. ويتذكر أعشاب الأرض، برودة الينابيع، وأيام الثلج الطويلة والليالي التي لا تنتهي. أما كلام مزيونة فإنه فخ، لأنها رأت سيفه والعسكر حوله، ورأت أن لا مهنة له سوى الحرب، في الوقت الذي كان يريد أن يعرف ما وراء الحرب، متى سيصل إلى بغداد، وأي شيء سوف يؤسس فيها ليدوم له العمر كله ثم ينتقل لأبنائه ثم للأحفاد إلى آخر الزمان.

في ليالي السهاد الطويلة المضنية لا يعرف كيف ينام أو متى. يتقلب عشرات المرات، يغيّر مواضع اليدين والرجلين، يرسم صوراً مليئة بالأشجار ويشرع يعدها لكي ينام، لكن في أحيان كثيرة، وبعد أن يعد الأشجار ويعدّ غيرها، يرجع إلى العد من جديد، إلى أن ينزلق، دون أن يحس، إلى نوم مليء بالأحلام، وكانت هناك دائماً مريم تنادى عليه، تشير إليه، وحين يتحرك ليجيب تختلط عليه الكلمات، لا يعرف بأية لغة يخاطبها أو ماذا يقول، فإذا حاول مرة أخرى، وبذل جهداً أكثر مما يطيق غادره النوم وهجمت عليه اليقظة لتحرمه النوم مرة أخرى.

ولا ينسى في اليوم التالي أن يسأل بيترو فيما إذا عاد المسافرون، أو وصلت إليه أية أخبار من تفليس، وحين يهز رأسه نافياً، دون أن يجيب، يقول له الباشا:

ـ سوف ننتظر أياماً أخرى.

ويتواصل دويّ بغداد، ويغرق فيه الجميع.

34

من الدروس التي تعلمها داود، وهو في سراي سليمان باشا الكبير: «إجعل كل إنسان محتاجاً إليك، ومعتمداً عليك؛ وأنت لا تحتاج ولا تعتمد على أحد بشكل كلي أو بصورة دائمة». والنصيحة الأخرى التي يتذكرها داود: «قوة أي فرد مستمدة منك وحدك، فإذا تخليت عن هذا الفرد يصبح لا شيء، ويجب أن يحس الجميع بذلك». أما كيف استطاع سليمان أن يكسب ولاء رجاله، فلأنه اتبع قاعدة ذهبية، كما سماها ذات يوم، وهو ينقل لأصهاره بعض تجارب الحياة، قال وهو ينقّل نظراته بينهم:

- على الحاكم أن يعامل رجاله بثقة، فلا يلجأ إلى القسوة إلا إذا كان الذنب كبيراً. كما يجب أن يبعد الخوف عن الذين حوله، لأن الخائف يبحث عمن يحميه، وقد يذهب الخائف أبعد مما تتصور، وحيث لا تريد!

كان سليمان الكبير قليل الكلام، وكان يفعل الأشياء أكثر مما يتحدث عنها، لكنه يريد من الذين حوله، خاصة أقرباءه، أن يستوعبوا هذه الدروس، وهذا ما جعله قوياً إلى آخر يوم من حياته.

وداود الذي كان يراقب دون تعب، وكان يعيد الدروس على نفسه لئلا ينساها، كثيراً ما لجأ إلى التاريخ يقرؤه، ويستعيد عبره، لأن المهمة التي نذر نفسه لها: إما أن تظفر أو أن تخيب، ولا يحتمل الأمر حلاً وسطاً.

لم يكن ينام في بعض الليالي. كان يفكر ويخطط ويحلم، وكان يفرح

ويحزن، فالعبء كبير، والأعداء كثر، والناس حوله يفهمونه ولا يفهمونه. وحتى الذين يتظاهرون بالفهم فإن البلادة تسيطر على أبدانهم وأرواحهم، فتجعلها ثقيلة إلى درجة لا يعرف كيف يحركها أو كيف يغيرها، لتصبح أقدر على التجاوب معه.

ولأن العبء كبير، كانت تراوده أحلام لا تخلو من غرابة في بعض الليالي: ماذا لو كان العراق في مكان آخر من هذا العالم، ألم يكن حكمه أيسر؟ وماذا لو كان فيه بشر من طبيعة أخرى، ألم يكن ذلك أسهل؟ هكذا كان يحلم ويتمنى. ويبالغ في بعض الأحيان، ليصل إلى مدى حين يعود منه يعود بفرح يشوبه بعض الحزن. إذ يتمنى لو أن الشمس في بغداد أرحم وأقل توهجاً؛ لو أن الأرض لا تتملّح بهذه السرعة أو بهذا المقدار؛ لو أن الأنهار تفيض في غير هذه الأوقات من السنة، إذ بدل أن تحمل مياه الفيضان الخير والبركة للزروع التي نمت، تحمل إليها اللعنة والدمار، وتجرف معها كل ما بنته يد الإنسان؛ لو أن البدو أبعد، ولا يعرفون الطرق المؤدية إلى المدن؛ لو أن التاريخ أخف حملاً، ولا يبهض الذين يحملونه إلى هذه الدرجة؛ لو أن الذين يعيشون فوق هذه الأرض أقل مذاهب وأعراقاً وألواناً. . . لو أن ذلك حصل، لما استطاعت اسطنبول أن تبقى وأن تسيطر، أن ترسم وتحكم؛ ولما استطاع غيرها أن يفكر بالغزو، أو أن يطمع بأرض أو ماء، أو أن يفرض ما يريد!

وحين يعود من رحلة الأماني، ويتلفت حواليه، ويحس بالقوة، يقول: «إنها إرادة الله، وتلك هي مشيئته» هكذا يختم داود باشا الرحلة والمناجاة، وينصرف بعزيمة أقوى ليفكر ويخطط، ما يستطيعه الآن وما يحتمل التأجيل إلى الغد أو إلى أبعد من ذلك من الأيام التي ستأتي.

ورغم أن داود يحب الشعراء، ولهم عنده منزله تفوق غيرهم بكثير، إلا أنه لا يحب طريقتهم في التفكير أو التصرف. فقد خُلق لكي يبني بلداً وينشيء دولة، لا أن يسيطر عليه بيت من الشعر، لا يعرف متى يقتلعه النسيان من ذاكرة البشر

لا يكتفي بذلك فقط، خُلق داود لا لكي يقول أبياتاً من الشعر، وإنما ليقال فيه الشعر؛ خلق لا ليكتب التاريخ، وإنما ليصنعه، وبعد ذلك يأتي المؤرخون ليقولوا: هذا ما صنعه داود، ويبدؤون بالكتابة والتعداد إلى أن يتعبوا!

أن يصنع الإنسان دولة، خاصة في هذا المكان، ومن هؤلاء البشر، أمر لا يستطيعه إلا الأفذاذ النادرون. وفجأة لمع بذهنه اسم الاسكندر الكبير، فكر لو يسمي واحداً من أولاده القادمين بهذا الاسم. ابتسم، لكنه ما لبث أن حزن حين تذكر كيف أن الاسكندر مات قبل أن يكمل مشروعه، ثم كيف توزع خلفاؤه ملكه إلى أن تبدد.

حين يجد داود نفسه يحلم لا يسترسل طويلاً في الحلم، إذ يكره الذين يكتفون بالأحلام. يعتبرهم مرضى، ولا بد من معالجتهم، كي يشفوا من هذا الداء الخطير، خاصة وأن ليالي بغداد تنشر هذا الداء وتجعله راسخاً أكثر من أي مكان آخر في هذا العالم!

ما يكاد يتسلل من الحلم، ويلتفت إلى ما يجب عمله، وبعد أن يكون قد فكر طويلاً وخطط، يجد أن عليه الكثير ليفعله، خاصة في هذه المرحلة. قد يتعب في البداية، لكنه التعب الذي يريحه في مراحل لاحقة، إذ يعتبر أن وضع الناس والأشياء في الأماكن المناسبة سوف ييسر عليه الأمور، تماماً مثل التعب الذي يتطلبه شق قناة للماء، فما تكاد تلك القناة تُشقّ حتى تتدفق فيها المياه بيسر، ويظل الأمر كذلك ما دام الإنسان يراقب ويتابع، دون أن يضطر لجلب الماء كل مرة من الأمكنة البعيدة. . . !

وخلافاً لغيره من المنتصرين، لم يلجأ داود إلى تبديلات كبيرة أو سريعة. ترك الكثيرين في وظائفهم وأماكنهم، لكنه أشعر الجميع أن عهداً جديداً قد بدأ، وأخذ، في نفس الوقت، ينشىء جهازاً موازياً يعتمد عليه أكثر فأكثر، خاصة في المواقع العسكرية.

لا يريد أن يعادي الكثيرين، خاصة في هذه المرحلة، قال، وهو

يستقبل كبار الموظفين:

ـ عفا الله عما مضى؛ نحن أولاد اليوم، ونحن في عهد جديد . . .

نظر إلى العيون التي تتابعه، وهو يمسح الوجوه أمامه، وكان بينها عدد من رجال الدين:

ـ وأرواح الناس وأموالهم أمانة في أعناقنا، وكما سيحاسبنا الله على هذه الأمانة، فإن السلطان، في دار السعادة، ائتمننا وكلفنا وطلب منا أن نؤدي الأمانات إلى أصحابها، فمن فعل فقد أرضى الله ورسوله وأولي الأمر، ومن نكل فإن حسابه في الدنيا والآخرة، اللهم إني بلغت، وعسى أن تنفع الذكرى.

لم يهدد، لم يسمّ أحداً، لكنه كان حازماً، وكان واضحاً حين وجه رسائله. والذين وُجهت إليهم لم يخطئوا في فهمها، لذلك بالغوا في إظهار الولاء، وفي تأنيب أتباعهم حين يذكّرونهم بالمصاعب، أو حين يبالغون في إبراز بعض الأخطاء، وبعض العيوب التي أخذت تقع هنا وهناك، يوماً بعد يوم.

أما حين اخذت تتوارد الى السراي أخبار امتناع بعض القبائل عن أداء ما يترتب عليها من ضرائب ورسوم، فقد قال داود باشا للآغا، وكانا يجلسان في الشرفة الجنوبية المطلة على النهر:

ـ لازم نخلي البدو يخافون خوفة حية . . بس تنذكر الحكومة.

ولما هز الآغا رأسه موافقاً، تابع داود:

ـ وهذا ما يصير إلا بعد ما يجيهم أول صواب . . والثاني، حتى يقولوا: إن الله حق، وإن الحكومة تقدر على كل شيء.

ومثل عادته اكتفى الآغا بهزات من رأسه، دلالة الموافقة، لأنه لا يعرف ماذا يريد منه الباشا. خيم الصمت. كان الليل مديداً، ومياه النهر تومض بالتماعات خفيفة بين فترة وأخرى، حين يمر أحد مراكب الصيد، وكانت تسمع من البعيد أصوات غناء أو نباح كلاب متكسرة أو متطاولة، وكان يظهر جزء من المركب الراسي أمام الباليوز، وكان لا يُعرف ماذا

يجري بداخله، وتتردد بعض الأحيان أصوات تنادي أو تشتم، لكنها متداخلة لا تفهم، وتترنح قبل أن تصل!

والباشا الذي يعتبر هذه الشرفة أحد حصونه القوية، حيث يشعر بالثقة وهو يطل على النهر من ناحية، وتبدو له السراي مكتملة، متألقة من الناحية الثانية، ثم تلك المساحة الرحبة التي تفصله عن الآخرين، بحيث ينتفي أي قيد على الكلام والتفكير معاً، ما يدفعه إلى الاسترسال، وبعض الأحيان البوح بما يدور في ذهنه. وتبدو هذه الليلة هكذا.

بعد فترة صمت طويلة، قال الباشا:

- البدو أبد ما يؤتمنون، يا آغا...

وتغير صوته:

- إذا شعروا بالقوة... إذا أرخيت لهم الحبل. إذا أمحلت الدنيا، أو حتى في سنوات الخير؛ إذا ضحكت بوجوههم، وإذا عبست؛ إذا نسيتهم أو تذكرتهم؛ دائماً عندهم الحجة للتمرد والعصيان، وهذه آفة هذي الولاية، ولاية العراق، وهذا سبب ضعفها!

هز الآغا رأسه، لكن بموافقة أكبر هذه المرة، وقد بدت تتضح الصورة. أضاف الباشا بنبرة جديدة:

- إذا لم يتأدب البدو ويخضعوا خضوعاً كاملاً، فسوف يستمر وجع الراس، وتزداد المشاكل.

ثمّ كأنه يحدّث نفسه:

- ومثل ما قالوا: ماكو من البدو إلا الإفلاس ووجع الراس!

انفعل الآغا فجأة، وكأنه تذكر شيئاً:

- البدو، يا أفندينا، الله بيم بلا ويرسون، ما يجون إلا بالعصا!

- تمام، يا آغا، ولازم نؤدبهم حتى نخلص من سوالفهم، لأنهم لا يعرفون الحلال والحرام، وعندهم: الحلال ما حل باليد...

تنفس الباشا ملء رئتيه، وهو يفكر بأمور كثيرة، وتبدو هذه الأمور متداخلة، متشابكة، لكن شعر أنه من الضروري، في مرحلة معينة، أن

تتلخص بفكرة، بموضوع محدد، والبدو، في هذه الفترة، هم الموضوع، وهم الخصم، لذلك يجب أن يركز كل جهده عليهم، وهذا ما يجب أن يفعله رجاله، وفي كل مكان، لكي تتجمع طاقات الناس وقناعاتهم في هذه البؤرة.

قال الباشا، وهو ينظر في نصف الظلمة إلى وجه الآغا، وكان يناجي نفسه: «بعض الناس إذا كثرت عليهم الأسئلة أو تراكمت يضيعون».

فبعد أن أفلت قاسم الشاوي، وذهب إلى حافة جهنم، كما يصف الوالي الأهوار، شعر داود باشا بالغيظ، إذ كان يريد القبض على هذا العاصي، وبعد أن يعذبه ويشفي غليله منه، يحز رأسه كما تحز قطعة الجبن، ويبعث بهذا الرأس ليس باتجاه الغرب فالشمال، كما هي العادة، حيث ترسل الرؤوس إلى اسطنبول، بل كان ينوي إرساله باتجاه الجنوب، إلى حمود بن ثامر والقبائل القاطنة هناك، كي يقول لهم كيف يتصرف داود مع العصاة، لأنه يعرف أن أفضل طريقة لمعاملة هؤلاء البدو، والتي يفهمونها بسرعة، أن يروا بأعينهم كيف يُعاقب المتمردون. قد تغلي دماؤهم أول الأمر، ولا بد أن يهوّسوا، ثم تتعالى صياحاتهم مع ذلك الغناء الأعمى، وربما يطلقون رصاصات في الهواء، لكن ما أن ينظروا مرة ثانية إلى العيون المطفأة في ذلك الرأس المحزوز، حتى تسري في أجسادهم رعشة الخوف، وعند ذلك يتقدم المسنون، وترتفع أصواتهم التي كانت إلى الأمس لا تسمع، لكي يحذروا ويذكِّروا الشباب الذين لا يعرفون، أو ربما لا يقدِّرون، من هو داود، وماذا يمكن أن يفعل.

إذا بردت الدماء تماماً في العروق، ونظروا من جديد إلى الشفاه في الرأس المقصوص كيف ازرقّت، فعندئذٍ لا بد أن يُصابوا بالهلع، وسوف يستجيبون لكل ما يريده الوالي وما يأمر به. ولن يكتفوا بالطاعة بل سوف يرسلون الهدايا أيضاً. وبعدها سيفكرون مرات ومرات قبل أن يقدموا على أي عمل جديد.

داود وهو يفكر بهذه الطريقة في التعامل مع البدو، فلأنه اختبرهم من

قبل، أعطاهم فرصة وأخرى. عفا عن كثيرين، لكن أبلغهم ثم أنذرهم أنهم إن لجؤوا إلى العصيان فسوف يضرب بلا رحمة، وسيأخذ البريء بجريرة المخطىء، وعندها يدب في صفوفهم الرعب، بحيث أن الأم إن أرادت إخافة أطفالها، وحملهم على السكوت أو النوم، فليس أمامها إلا أن تقول: جاء داود ورجاله.

لكن قاسم أفلت منه، صار بعيداً، وهذا ما سيجعله يتوهم أن النصر سهل مثلما هو الهرب من حراس أغبياء يملأ النعاس عيونهم، كما سيدفع إلى تحريض كل من يمكنه الوصول إليه، وعند ذاك تبدأ المتاعب.

كانت لدى داود أفكار كثيرة، ومنذ وقت مبكر، حول الطريقة الفعالة لمعاملة البدو، لكن الولاة الذين سبقوه، ما إن يسمعوا اقتراحاته حتى يهزوا رؤوسهم بموافقة خجولة، ثم يهبطون إلى الصمت، وكان هناك دائماً من يتبرع باقتراح إرجاء مثل هذا الحل، انتظاراً لوقت ملائم، والوقت الملائم لا يأتي!

وتذكر داود باشا كيف هيأ لسعيد ظروفاً مواتية إلى أقصى حد، حين ألحق بالبدو هزائم قاسية، وفي عدة مواقع، إلى درجة جعلتهم يوافقون على كل شيء. كان يمكن آنذاك مواصلة العملية إلى نهايتها: بالتوطين والجندية والضرائب، لكن سعيد اكتفى بغرامات رمزية، ثم عفا عنهم، الأمر الذي جعلهم يعودون إلى سيرتهم الأولى.

الآن... بدأت تتهيأ الفرصة المناسبة. سوف يتمكن في وقت غير بعيد من ملاحقة قاسم، وحين يقبض عليه، سيجعله أمثولة. وإلى أن يحين مثل هذا الوقت لجأ داود إلى استنفار خصوم قاسم.

- يا عبد الله... المشيخة منذ اليوم لك، لكن احذر الذين يريدونها، وليكن الله في عونك من الحساد والطامعين.

لقد كان داود على قناعة أن العشيرة لن تنتهي إلا إذا صارت عشائر. وكلما كثر عدد العشائر داخل العشيرة الواحدة أصبحت أكثر استعداداً للتمزق والاضمحلال. كما أن الزعيم الذي يختاره بنفسه، لا الذي تختاره

العشيرة، سيكون الخنجر الذي ينغرز في صدور الزعماء الآخرين، ويقتلهم. كما يبقى ذلك الشيخ ضعيفاً وبحاجة إلى دعم الحكومة، وبهذه الطريقة يمكن السيطرة عليه، والسيطرة على العشيرة كلها، أو القسم الأكبر منها.

وحين يتنازع الشيوخ تنفتح دروب داخل العشائر يمكن سلوكها لكي تتم السيطرة على الجميع.

وإذا كان من شأن الغيظ، ثم الغضب، أن يحد أيٌّ منهما أو كلاهما من قدرة الفرد على الرؤية ثم التصرف، فإن الوالي يجب أن يعرف كيف يلجم غضبه، ثم أن يخفيه، بحيث لا يلحظ ذلك حتى أقرب الناس إليه، وعند ذاك، أو بعده، يقرر كيف يواجه المشكلة ومتى، لأن هزيمة الوالي تختلف عن هزيمة أي إنسان آخر. إنها تحصل مرة واحدة، ودفعة واحدة، وتكون القاضية، بينما بالنسبة لباقي الناس، فإن السقوط، وإمكانية النهوض مرة أخرى، جزء من حياتهم اليومية. بل أكثر من ذلك أنهم لا يعرفون إلا هذا السير المترنح، هذا السقوط المتوالي، وأيضاً الهزائم التي لا تتوقف، لكن إحساسهم المتبلد يجعلهم لا يقدرون، إذ فوراً ينهضون كي يواصلوا سيرهم الرجراج المتعثر، ليسقطوا ذات اليسار وذات اليمين، تماماً مثل سنابل القمح بعد ان تنضج وتضربها الرياح.

ولئلا يخطىء في التوقيت استدعى المفتي، خالد التميمي، وسأله:

ـ ماذا تقول، يا مولانا، فيمن خرج على الملة، ودعا إلى الفتنة؟

ـ كافر ودمه مباح!

ـ وماذا تشور على الوالي أن يفعل؟

ـ أن يدعو المسلمين إلى قتاله، لأن ذلك هو الجهاد في سبيل الله.

ـ قال سبحانه وتعالى، وهو أصدق القائلين: «إنما الأعراب أشد كفراً. . .»

ولئلا يحمل شيخه الأمور على أنها انتقام، تابع الباشا، وقد انخفض صوته وتغير:

- وتعرف يا شيخنا، لقد عفونا عن الذين أساؤوا إلينا، وحتى الذين حملوا السلاح في وجوهنا، لأننا لا نريد أن توصف ولايتنا بالدم والانتقام. . .

وتغير الصوت، أصبح أكثر حزماً:

- والرسول، عليه الصلاة والسلام، عفا حين فتح مكة فقال، حتى للذين حاربوه من قبل: من دخل بيته فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن. ونحن قلنا: عفا الله عما مضى، لكن الذين فسَّروا سعة الصدر ضعفاً، والتسامح جبناً، وحقن دماء المسلمين عجزاً، وعاودوا سيرتهم الأولى: يقطعون الطريق، ويروّعون الآمنين، ويستبيحون دماء وأموال المسلمين، فلا بد من مواجهتهم بالحزم والشدة، ولا أخالكم إلا معنا، أليس ذلك يا شيخنا؟

زفر الشيخ خالد التميمي، وهز رأسه عدة مرات، إذ يعرف أن الباشا يريد فتواه، وهو لن يتأخر في إعطائها، لكن لا يعرف عمن يجري الحديث، ومن هم الذين يعنيهم الباشا، قال، وقد حمّل صوته مقداراً كبيراً من الحزن:

- لا يستقيم حال هذه الأمة، يا باشا، إلا بأن يعمر الايمان الصدور، وأن تصان أموال المسلمين وأعراضهم، وأن يُحكم بالعدل، وأن يُعطى كل ذي حق حقه. . .

ولكي لا يفهم كلامه خطأ أضاف، وهو يحاول أن يبتلع ريقه، فاضطرب صوته:

- من خرج عن رأي الجماعة فقد زاغ ودخل الشيطان إلى قلبه، ولا بد من تقويم اعوجاجه، لأنه إذا تُرِكَ فهذه هي الفتنة.

وليثبت الباشا تسامحه، واستعداده للعفو، قال بطريقة لا تخلو من كرم:

- وتعرفون يا شيخنا أننا مستعدون أن نعفو حتى عن قاسم الشاوي، رغم أنه لا يزال يحمل السلاح في وجوه المسلمين، أما أخبار الدليم فقد

زادت عن كل حد، وتجاوزت كل ما يمكن أن يُسكت عنه، ودماء المسلمين أمانة بأعناقنا، وأنتم لا تقبلون أن تراق الدماء وتستباح الأموال والأعراض.

وأفتى خالد التميمي بضرورة أن ينهض الباشا لمحاربة العصاة وأهل الفتنة.

والباشا الذي كان قد سيّر رئيس الانكشارية عليوي آغا قبل أيام إلى غرب بغداد على رأس جيش كبير ليؤدب العشائر التي امتنعت عن أداء الضريبة، وتذرع شيوخها بانقطاع المطر، وطالبوا بالاعفاء. وحين رفض طلبهم طالبوا بالتأجيل، وحين رفض طلب التأجيل، قالوا ندفع شيئاً ونترك لسنين الخير الشيء الباقي، ولكن المتسلم رفض كل ما اقترحوه، وما زال يلحّ ويهدد ويشدد في المطالبة والتضييق، فقالوا له: لن ندفع وليكن ما يكون.

وكانت هذه مناسبة كافية لأن يجرد الباشا الحملة، وأن يوكل أمر قيادتها إلى سيد عليوي، رئيس الانكشارية.

لا يريد أن يظهر بعيون الناس وكأن دافعه الانتقام من خصومه، ابن الشاوي وأمثاله، لأن الانتقام، بعد الدرس الذي تلقاه نتيجة قتله لسعيد، أشعر الناس أنه لا يختلف عن غيره من الولاة، وأنه استسلم لعواطفه وأحقاده، ويفترض بالوالي أن يكون أباً يعرف كيف يسامح ويعفو، لا أن يعمي الحقد قلبه وعينيه فيندفع إلى الانتقام. سيغض النظر، مؤقتاً، عن بعض خصومه إلى أن يحين الوقت المناسب.

كان داود باشا يقول لنفسه، وبعض الأحيان بصوت عالٍ، حين يكون وحيداً: «يجب أن لا ينسى الوالي شيئاً، لكن عليه أن يتذكر في الوقت المناسب، لأن من يخطىء في التوقيت كمن يبحث عن حتفه!».

ثم إن مواجهة الخصم الذي يشكل خطراً راهناً يحس به الجميع أفضل ألف مرة من مواجهة خصوم لا يراهم الناس ولا يحسون بهم.

وهناك دوافع أكثر أهمية، وإن لم يصرّح بها لأقرب الناس، ويتجنب

التفكير بها الآن. فالشاوي الذي عرف إلى أين يهرب، ويريد أن يستدرجه إلى هناك، كي يستنزف قواه، ويغرقه في الوحول، سيأتي وقته. فحين يأتي وقت طريق النهر، ويحس الناس أنهم سيموتون إذا ظل العصاة يمنعون المؤن التي تأتي من البصرة، سوف يتفرغ له، ولا بد أن تكون الانتصارات التي حصلت في أماكن أخرى قد وصلته، وعند ذاك سيتعامل معه بالطريقة المناسبة، الطريقة التي يفهمها جيداً.

ومثلما أخذ بركة الشيخ خالد التميمي، فقد أخْبر عدداً من الشعراء، وقال لاثنين يؤثرهما على غيرهم من الشعراء، الأخرس والصفوي:

ـ زوبع والجميلة، وحتى شمر، وغيرها من القبائل، تُذكر أو لا تذكر بسبب الشعر الذي قيل فيها، ومن قاله...

ابتسم ابتسامة كبيرة، تطلع إلى النهر الذي كان يُرى من النافذة، وتابع:

ـ من كان ليذكر كافور لولا المتنبي؟ ومن هو المعتصم لولا أبو تمام؟

وكاد يسترسل أكثر، فقد عنّت بباله أمثلة أخرى، وهاجته أبيات من الشعر كان يروق له الاستشهاد بها في بعض الأحيان، لكن المناسبة الآن مختلفة، وما يريده يتجاوز المطارحة أو المنادمات. قال محرضاً:

ـ في حالات معينة الشاعر هو الذي يعطي للموقعة الحربية أهميتها، يجعل الناس يتذكرونها ويتحدثون عنها بعد مرور مئات السنين، حتى لو زال مكانها، أو لا أحد يعرف موقعها، لأن الشعر يبقى وغيره يزول!

وحين رأى الاضطراب في وجهي الأخرس والصفوي، وكأنهما دخلا في تلك الحالة التي تسبق المخاض الذي يؤدي إلى الشعر، قال وخرج صوته عميقاً:

ـ بعض الشعر يسبق المعارك، وبعض الشعر يتبعه...

وكاد يقول إنه ينوي أن يؤلف كتاباً يضمنه قصائد خلّدت أبطالاً وأماكن، وأن تلك القصائد أصبحت تاريخاً وذاكرة للناس، لكن وجد الحالة التي تملّكت الشاعرين بدأت تفعل فعلها، ثم إن الأمر، الآن، يتجاوز رغبات ونوايا من هذا النوع، إذ إنه مقبل على حرب يجب أن ينتصر

فيها انتصاراً ساحقاً، لكي تصل أصداء هذا الانتصار إلى الناس بسرعة وقوة، وأن يستوعب خصومه بالذات هذه الأصداء، وأن يحسوا بهذا الانتصار، وكل ما عداه مؤجل، أو لا يعني له شيئاً هاماً الآن.

تابع محرضاً:

ـ إذا قال كل منكما شعراً، فإن هذا الشعر سيصل قبل أن تصل الجيوش والمدافع، ولا بد أن يفعل أكثر مما يفعل الفرسان. وحتى الفرسان إذا امتلأت رؤوسهم بذلك الشعر سيكونون أقوى وأكثر شجاعة، لأن الملائكة تحارب معهم، تقف إلى جانبهم.

وانفعل الشاعران، وقد أحسّا أن الباشا يقول شعراً، وهذا الشعر لا يحتاج إلا لبعض الوقت والصبر كي تنتظم قوافيه وتستقيم أوزانه. وشعر كل منهما وكأنه يطير، يصل إلى أقاصي الذاكرة ويعود مثقلاً بعبق التاريخ وبعنفوان الرؤى. قال الأخرس بطريقة لا تخلو من انفعال:

ـ الشاعر، يا باشا، يحتاج إلى شيطان، ولا بد من خلوة!

ضحك داود باشا، وقد امتلأ نشوة: الرسالة وصلت، وتلك الدودة التي تغمض عينيها في بعض الأحيان، ولا تظهر إلا إذا حرضها دافع قوي، بدأت تنغل في داخل هذا «الأخرس»، ولا بد أن يقول قولاً جميلاً.

رد وهو يهز رأسه والنشوة لا تزال قوية مستبدة:

ـ «يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره»، إذهب، فأنت طليق!

كان الباشا لا يستطيع أن يخفي فرحه، في بعض لحظات انفعاله؛ فما يقوله يجد آذاناً صاغية، عقولاً تلتقط الغمام قبل أن يصبح غيماً، ثم تلك الاستجابة وكأن الصدى أقوى من الصوت.

وبطريقة لا تخلو من الارتباك الذي يمازجه الانفعال المتوتر المنفلت، تطلع الأخرس إليهما، وكأنه يراهما ولا يراهما، وخرج.

قال الصفوي الذي حاول أن يكون أكثر اتزاناً:

ـ وتعرف، يا باشا، لا بد للشاعر أن يرى بعينيه وأن يسمع بأذنيه، وحالما تدق الطبول ويتقدم الفرسان وترتفع صيحات الحرب، سأكون مع

الذين يسيرون، وسوف أكون الحادي والبادي. . .

وقبل أن يكمل رد الباشا بانفعال لم يستطع أن يخفيه:

ـ بارك الله فيك. . .

وبعد قليل، وهو ينظر إلى عينيه:

ـ هذا ما توقعته منك، وهذا ما أردته، وسوف أجعلك مع الآغا، تسمع كل شيء، وترى ما يحسن أن تراه دون أن تتعرض لأذى. . .

وكاد يضيف، لكن الصفوي قاطعه بمودة:

ـ آخر ما أفكر فيه، يا باشا هو الأمان. . .

وضحك ضحكة صغيرة ثم تابع:

ـ إنني أشم رائحة الجنة، وأقصى أماني المؤمن الشهادة في سبيل الله، وأن يكون مع الصديقين والشهداء.

ترك الباشا بعض الوقت يمر كي يتشبع الجو بكلماته، ثم تابع بصوت رخيم:

ـ أقصى الأمنيات أن يموت الإنسان في سبيل الله، وأن يحشر مع الشهداء والصديقين، لأن الجنة. . .

ولم يشأ أن يسترسل بنفس الطريقة أو حول الموضوع ذاته. تنحنح. صمت قليلاً، ثم أضاف:

ـ نحن بحاجة إليك في هذه المعركة، وفي معارك أخرى كثيرة، ولذلك نحرص أن تبقى حياً مثلما نحرص على بؤبؤ العين، على سويداء القلب.

رد الصفوي بطريقة لا تخلو من تفاخر:

ـ الموت، يا باشا، نهاية كل إنسان، وسعيد من يموت في سبيل الله، من يحشر مع الشهداء والصديقين. . .

ـ قل سيدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة. . .

توقف للحظات من الصمت ثم تابع:

ـ أعرف شجاعتك، وحميتك في الدفاع عن حمى الإسلام، لكن لا

أقبل أن تجازف. . .

وتغيرت النبرة تماماً:

ـ. . . لدينا من الفرسان الآلاف المؤلفة، وهم مدربون ومجربون، ولكن كم لدينا من الشعراء؟

ثمّ أكمل وقد تخلل صوته شيء من التحريض:

ـ يمكن أن يكون لدينا عدد وفير من الشعراء، لكن. . .

وابتسم الباشا وهو ينظر بتحديد إلى عينيه، الأمر الذي جعل الصفوي يغض نظره قليلاً بخجل مصطنع، حتى إذا نظر إلى عيني الباشا من جديد، لكي يكتشف مدى جدية ما يعنيه، تابع داود بنبرة واثقة:

ـ أسمح لنفسي أن أقول: لدينا عشرات، مئات وآلاف من الفرسان أكثر فتوة، وربما أقوى تحملاً وتمرساً منك، لكن، قل لي، بالله عليك، كم من الشعراء الفحول تتذكر عبر هذي المئات أو الآلاف من السنين؟

ولم يتركه ليجيب:

ـ وهذا ما يجعلني أكثر حرصاً على أرواح الشعراء من الشعراء أنفسهم!

ولئلا يساء فهمه، تابع الباشا بحمية:

ـ الطلقة قد تقتل فرداً، وطعنة السيف قد تصيب وقد تنبو، أما بيت الشعر، إذا كان قوياً محكماً، فإنه يعادل آلاف الطعنات، آلاف الطلقات، ثم إنه خالد، يبقى بعد أن يغيب الجميع، لذلك فأنا مسؤول أمام الله عن أرواح هؤلاء الشعراء مثلما أنا مسؤول عن أرواح الشهداء.

وخرج عدد من الشعراء مع الجيش المتجه غرباً، رافق الصفوي الجيش لبضعة أيام، ثم ما لبث أن استدعي، استدعاه داود باشا. قال له وهو يستقبله من جديد:

ـ لم أطق أن تكون بعيداً عن بغداد، ثم إن صوت الشاعر يصل إلى كل مكان، وليس مثل صوت المغني أو عازف الرباب الذي يتردد بين أربعة جدران، وقبل أن ينقضي الليل، يكون ذلك الصوت قد انقضى.

ونظر الصفوي إلى الباشا نظرة طويلة مفعمة بالامتنان، وقال وهزات

رأسه تتوالى:

ـ كنت في الأيام الماضية، يا أفندينا، مثل طير حبيس في قفص، إذ كانوا يحيطون بي إحاطة السوار بالمعصم، ولم يتركوا لي فرصة لأخلو مع شيطان الشعر، أو أن أتقدم أكثر لأشهد أولى المعارك.

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ كانوا ينفذون أوامرك يا أفندينا، ولقد أسرني ذلك الحرص وضيّق علي حتى إني...

قاطعه الباشا بمودة:

ـ إن لبغداد عليك حقاً، ولنا فيك نصيب.

وقرر الصفوي أن ينظم قصيدة جديدة في مدح داود، وأن لا يقل عدد أبيات هذه القصيدة عن مائة بيت، وآلى على نفسه ألاّ ينام، ولو سهر بضع ليالٍ، حتى ينتهي من نظمها!

35

تجنب داود باشا الجنوب والأهوار، آثر أن تكون أولى معاركه العسكرية غرباً، على ضفاف الفرات وهو يخترق الصحراء في رحلته، قبل أن يتفرع، ويصبح بحراً لا تُعرف ضفافه وحدوده، وقبل أن يغيب مجراه في تلك المستنقعات التي لها بداية، لكن لا تنتهي.

صحيح أن الصحراء قاسية، خاصة على جند لم يتعودوا مناخها، لكن الخريف دخل مبكراً تلك السنة، مما جعل القادة، وهم يستقبلون الليالي الرطبة المنعشة، يسرفون في إطلاق الأحكام واستباق النتائج، واعدين أنفسهم بانتصارات سهلة، وبغنائم لا حدود لها، وأن ذلك لن يقتصر على ما سوف يحصلون عليه مباشرة، بل وسيحصل الأهل، في أي مكان كانوا، على غنائم كبيرة، نتيجة وفرة المواد، ورخص الأسعار، بعد أن يُقضى تماماً على قطّاع الطرق المنتشرين في القسم الأعلى من الفرات، والذين يمنعون التجارة ويسلبون القوافل.

كانت تعليمات داود باشا للآغا وكبار الضباط:

ـ لا نريد حرباً طويلة، يجب أن تكون الحرب خاطفة؛ ولا نريد نصراً صغيراً، يجب أن يكون النصر كبيراً ومدوياً، بحيث يتردد صداه في جميع أنحاء الولاية، وأن يسمع به البعيد كما شهده القريب.

وغادره هدووؤه:

ـ البدو لا يفهمون إلاّ لغة واحدة: لغة القوة؛ لذلك استعملوا معهم أقسى الأساليب، حتى لا ينسوا الدرس إلى ولد الولد...

ومع هزات الرأس الحازمة، وهو ينظر إلى وجوه القادة الواقفين في مواجهته:

ـ البدو ماكرون كالثعالب. حين لا يستطيعون مواجهة القوة التي تقابلهم يبدون الندم والطيبة والوداعة، ويقسمون أغلظ الأيمان أن لا يعودوا للعصيان مرة ثانية، ولا تستغربوا إذا رأيتم بعضهم يرمي عقاله ويبكي طالباً العفو والمغفرة. . .

وتغير الصوت قليلاً:

ـ لكن إذا تمكنوا مرة أخرى ينسون أقوالهم وأيمانهم وكل الوعود التي أعطوها، ويتحولون إلى وحوش: يقتلون وينهبون ويدمرون كل ما يصادفهم. والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين. فأريد منكم أن تلقنوا هؤلاء الوحوش درساً، وأن تعلموهم ماذا يعني الوقوف في وجه الحكومة، وعدم إطاعة الأوامر، وماذا يعني الامتناع عن دفع المستحقات المقررة عليهم للسلطان!

وبعد أن ترك فترة الصمت تطول، تابع بنبرة جديدة:

ـ أضع فيكم كل ثقتي، وأنا على يقين أن النصر الذي يتحقق على أيديكم سيدوَّن بماء الذهب، ولا بد أن تتردد أصداؤه في جميع أنحاء السلطنة، وسوف يصل إلى مسامع مولانا السلطان، وعندها سينعم عليكم برضاه وبركاته وأعطياته.

أما وهو يودع القوات قرب أبو غريب، في أقصى غرب المدينة، فقد انتحى بسيد عليوي وقال له:

ـ لا يزيل الخوف من القتل إلا القتل. وعندما تصبح رؤية الدم عادية، مألوفة لدى الجنود، يصبحون أكثر شجاعة ولا يهابون شيئاً. . .

لما رأى إبتسامة على وجه عليوي، أضاف:

ـ لا تقبل في الأيام الأولى أي حديث عن الصلح. خذ علماً لكن لا تفعل شيئاً. وحتى في اليوم الثاني لا تفعل شيئاً. أما في اليوم الثالث فقل لهم: «الأمر قابل للبحث»، وحين يأتي إليك شيوخهم أذلاء صاغرين،

إفرض الشروط وتشدد بالمطالبة، وعليهم الوفاء بكل ما تطلب اليوم قبل الغد وإلا . . .

كان الباشا واثقاً من النصر، فقد اختار بعناية الهدف ومكان المعركة، واختار أيضاً الوقت المناسب!

قال الذين رافقوا الحملة إن سيد عليوي لم يغيّر أيّاً من عاداته: كان يشرب كل ليلة، لكن كان يفعل ذلك مع عدد محدود من رجاله؛ وكان ينشغل بالرياضة والصيد، ويبدو عصبياً حين يسمع الأذان، إذ يحب أن ينشغل بأي شيء سوى الصلاة؛ وكان يطلب من ثامر المجول أن يرافقه، ليس باعتباره واحداً من الحرس الخاص، وإنما لصوته، فقد كان يطلب منه أن يغني في أي مكان يعتبره مناسباً.

وقال بعض الذين يميلون إلى المبالغة، ولا يكنون الود لسيد عليوي، إنه ترك لضباطه أن يتصرفوا. «لأن البدو لا يحتاجون إلى خطط عسكرية، بل يحتاجون إلى تكسير راس. فإذا الواحد افترض أنهم جيوش وأهل حرب، تنلاص عليه وعليهم، فتصرفوا يا أهل المروة، ولا تتركوا واحداً وما تكسرون خشمه!»

أما الذين لا يميلون إلى المبالغة فقد ذكروا أن سيد عليوي اجتمع بضباطه مرات عديدة، قبل أن يتحركوا للمواقع الأمامية، وأعطاهم التعليمات الضرورية، كما ترك لهم حرية التصرف بما يعتبرونه ضرورياً في الأحوال الطارئة، كما هي العادة بين القائد وضباطه!

تمهل عليوي آغا في رحلته، رغم توقعه انتقال الأخبار، وبالتالي احتمال زيادة استعداد القبائل لمواجهته، بما في ذلك استدعاء الحلفاء. لكنه موّه هذا بالقول إن تحرك الجند بهدف التدريب ثم للانتقال إلى مكان آخر بعيد. ومما أكّد ذلك أن القوات وصلت إلى أماكن معينة ثم غادرتها، بحجة أن «قوات السلطان لا تنوي الإقامة هنا» كما تردد في الفلوجة والرمادي وهيت وآلوس، إنما جاءت للتدريب كي تواجه القوات الوهابية في أماكن تشابه طبيعتها هذا المكان!

وإذا كان الباشا في بغداد ألحّ على ضرورة الحرب السريعة، فإن عليوي يتذكر كلمة قالها ريتش، وهو يتحدث عن البدو. قال ريتش: «البدو يحبون الحرب الخاطفة. يستطيعون في الفترة الأولى للحرب أن يبذلوا أقصى ما يستطيعون، فهم شجعان، محبون للحركة السريعة، لكن ما إن تمتد الحرب وتطول حتى تفتر هممهم، وتضيق صدورهم، لأن الحرب بالنسبة لهم جولة والثانية، ويجب أن تنتهي إلى نتيجة محددة. صحيح أنهم لا ينسون، والثأر جزء من تكوينهم، لكنهم لا يطيقون الحروب الطويلة، لذلك فإن أفضل طريقة لكي تهزمهم أن تجعلهم في حالة حرب دون حرب فعلية، أن تجبرهم على الانتظار. ورغم ما يزعمون عن مدى قدرتهم على التحمل، ويجاملهم الآخرون فيدافعون عن ذلك، فإن هذا التحمل لأيام، وحتى لو طال فلا يتعدى الأسابيع».

كان ريتش يتكلم بطريقته، وسيد عليوي يفهم بطريقته أيضاً. ورغم ما سمعه من الباشا داود، عن ضرورة الحرب السريعة، فإن ما لاحظه بتجربته الخاصة، وهو يتعامل مع البدو، أنهم لا يعرفون النظام ولا يطيقونه. صحيح أنهم يمتثلون لرأي الشيوخ، ويبدون صنوفاً من الشجاعة والتضحية، لكن ذلك لا يدوم طويلاً، ولا يخضع إلى قاعدة، إذ في لحظة، ونتيجة إنفعال من نوع ما، يستفزون، وحالما يسيطر عليهم الاستفزاز يفقدون عقولهم، يتحولون إلى مخلوقات غريبة، لا يمكن الحكم على أفعالهم أو ردود أفعالهم، وهنا يجب أن يتقدم القائد الحكيم كي يصفي حساباته معهم!

ولأن سيد عليوي لا يرغب أن يكون امتداداً لفكرة أو لشخص، فهذه الحرب يعتبرها حربه الخاصة ويريد أن يمتحن أفكاره واحتمالاته. قد يعترض داود، لكنه سيقنع في النهاية، وبعدها سيمتثل، خاصة وهو يرى النتائج، «فالحروب، كما قال لنفسه، وقد شعر بالغبطة لانه وصل إلى هذه الفكرة، لا تخضع، في مراحلها الأخيرة، إلى الاقناع قدر ما تخضع إلى النتائج، فالنتيجة هي المنطق وهي وسيلة الإقناع، كما أنها الحكم الأخير!»

حين انتصف الخريف، وبعد أن استقر الجند في أماكن صحراوية تكاد تكون ثابتة، ثم التدريبات التي أجروها هناك، فقد تأكد الجميع أن لهذه القوات أهدافاً تتجاوز هذه المنطقة، وتتجاوز القبائل حولها، خاصة وأن خطباء المساجد، وهم يلقون الخطب والدروس، أكدوا ذلك.

آخر جمعة في ذلك الخريف، وبعد أن هدأت الشمس، ومالت نحو الشمال، وسبق ذلك بعض الأمطار، إستبشر الكثيرون، وقالوا إن هذه السنة ستكون من سنوات الخير، ولا بد أن تعطي الصحراء كل خيراتها، أعطى سيد عليوي أوامره بالهجوم.

اندفعت القوات في اتجاهات عدة. كان إندفاعها سريعاً قوياً لكي تدرك القبائل قبل أن تصل أو تعبر الفرات، اذ كان سيد عليوي على ثقة أن الاشتباك إذا حصل شرقي النهر فلا بد أن يبيد البدو عن آخرهم، لأن الذين لن يطالهم الرصاص سيتولى النهر التهامهم، والذين لن يموتوا قتلاً سيموتون غرقاً. أما إذا تأخر الاشتباك، واستطاع البدو أن يعبروا الفرات، ودخلوا الصحراء، فعندئذٍ ستكون القوات الحكومية تحت رحمة القدر.

اندفعت القوات بسرعة، تاركة وراءها الكثير من الجيوب، فقد كان الهدف الوصول إلى الفرات عند هيت، وهناك يجب أن تقع المعركة الحاسمة.

والبدو الذين تنحوا قليلاً عن الطريق، وناوشوا القوات من الجوانب، وأوقعوا بها بعض الإصابات، كانوا متأكدين أن حصار هذه القوات سوف يؤدي إلى استسلامها، لذلك سهلوا مرورها، وفي أحيان كثيرة زينوا لها هذا المرور السريع، وهكذا واصلت القوات تقدمها.

وإذا كانت خدعة مقاتلة أعداء خارج الولاية انطلت، وتركت تأثيرها في أوساط بلدات الفرات، وسرت إلى القبائل التي جاءت للنجدة، فخففت إندفاعها، وحملت بعضها على العودة من حيث أتت، فإن الأمطار التي توالت في أيام الخريف المتأخرة جعلت بعض القبائل الصغيرة تطلب مساكنها الشتوية، وهذا ما أدى إلى حركة بطيئة عمياء في اتجاهات

متعددة، إذ لم يكن يُعرف هل تقع حرب أم لا، وبالتالي هل يستمر الاستعداد كما في الأيام الأولى، أم أن الحرب لن تقع أبداً، ولذلك لا حاجة لحرق الأعصاب في انتظار شيء لن يحصل؟ ولما كان الاحتمال الثاني أقوى تباطأت الحركة وقلّ الحذر، الأمر الذي جعل إندفاع الجند إلى الأمام لا يلاقي صعوبة أو مقاومة جدية.

كانت حركة القوات، في البداية، سريعة ومفاجئة، لكن غريزة الشك التي تسري في دماء البدو تيقظت، وكانت أسرع من حركة القوات الزاحفة. انتشر المسنون، رجالاً ونساء، ومعهم الأطفال، على أطراف بساتين النخيل وعند الآبار، في كل موقع يحتمل أن يمر فيه الجنود. وبطريقة سحرية كانت أخبار الزحف تصل أسرع من الريح. ورغم أن الجنود لم يرتاحوا لابتسامات الأطفال، أو لحركات أيديهم وهي ترتفع بما يشبه التحية، وقد تجاهلوهم في البداية، فلم يبادلوهم النظرات أو الابتسام، كما لم يردوا على التحيات التي توجه لهم، ربما لخوفهم أو لانشغالهم بما ينتظرهم في الأيام التالية. أما المسنون، الذين ظلوا على مسافة، فقد ظلوا يراقبون بصمت، وبدت ملامحهم قاسية.

وإذ لم يبد الجنود اهتماماً في اليوم الأول لحركة الأطفال، فقد أصبحوا في الأيام التالية شديدي القسوة وهم يطردونهم ويشتمونهم، ولم يتردد بعضهم بضربهم. أما المسنون فقد تواروا تقريباً. كان يصدف أن يظهر رجل مسن أو امرأة عجوز بين فترة وأخرى، لكن ما يكاد يظهر أحد حتى تبدأ الشتائم والإشارات البذيئة، وقد وُجّهت نحوهم البنادق عدة مرات، بل وأطلقت النيران في الهواء لإرهابهم أول الأمر ثم لجرحهم أو حتى قتلهم.

لقد تأكد قادة الجند، وهم يواصلون زحفهم، أن الأخبار قد سبقتهم، «ولا بد أن يكون هؤلاء العفاريت قد نقلوها». وتأكد ذلك أكثر من خلو أماكن عديدة من ساكنيها، تبين ذلك من الآثار، من بعر الجمال والغنم الطري، من الرماد الذي لا زال ساخناً، مما يعني أن الرحيل حصل في

الليلة السابقة، أو ساعات الفجر الأولى، كما أكّد البيات والعقيل، الذين رافقوا الحملة، أن هؤلاء المسنين ألعن من الأبالسة. صحيح أنهم يبدون فقراء مسالمين، وغارقين في الصمت أيضاً، حتى يظن من يرهم أنهم خرس أو لا يحسنون من الكلام إلا رد السلام، إلا أنهم يرون مثل الصقور، حتى الدماء التي تسري تحت الجلد يرونها، كما يعرفون الإنسان من كلمة، من نظرة. ولأنهم لا يستطيعون الركض أو الطيران فإنهم يكلفون الصبية بالإبلاغ عن عدد الجنود الذين مروا وأسلحتهم، بأن يحصوا العدد بنوى التمر أو بالحصيات الصغيرة، وبسرعة البرق تنتقل الأخبار.

قال الضباط لجنودهم في اليوم الثالث للزحف:

ـ إذا رأيتم في الطريق رجلاً، حتى لو كان أعمى، اقتلوه. أما الصبية فاقبضوا عليهم لأنهم يفيدون في الليل!

تباطأ الزحف قليلاً، لكنه لم يتوقف. أما الأماكن التي عبرها الجنود فلم يشاهد فيها رجل أو امرأة، وكذلك اختفى الصبية!

في اليوم الخامس استراحت القوات الزاحفة، وفي اليوم السادس وقعت المعركة الأولى، وقعت شرقي الفرات، كما أرادها سيد عليوي. كانت معركة قاسية سالت خلالها دماء كثيرة، ومن الطرفين.

التقارير الأولى التي حملها فرسان البريد لعليوي كانت تطالب بإرسال المزيد من القوات، وعلى جناح السرعة، «لأن هؤلاء البدو يملكون أسلحة كثيرة، وعددهم لا يُحصى، كما أنهم يحاربون بطريقة منظمة، الأمر الذي لم يكن في الحسبان» وأشارت التقارير أن معنويات الجنود عالية رغم سقوط عدد كبير من الجرحى بعمليات القنص، وليس في عمليات الالتحام.

في اليوم التالي أخذت المعارك، قبل الظهر، شكلاً أقسى من اليوم الأول، والتقرير الذي أرسل إلى القيادة ذكر أن البدو تكبدوا خسائر فادحة، وأنهم تراجعوا، ولم تعد المسافة التي تفصلهم عن النهر تزيد عن مسيرة ساعات. وأكد التقرير أن اليوم الثالث سوف يكون هاماً، وطالب بسرعة

إرسال المزيد من القوات لمنع العدو من عبور النهر. ولم يشر التقرير، إلا بصورة سريعة، للخسائر التي لحقت بالقوات الحكومية.

تلك الليلة، ثم لثلاثة أيام متوالية، وقعت أمطار غزيرة، مما أدى إلى توقف المعارك تقريباً. وما عدا عمليات قنص من الطرفين، والانشغال بمواجهة الأعباء الجديدة التي فرضها الطقس، فإن كل طرف غرق بالوحول والشلل، وأيضاً بتعذر معرفة أو تقدير الخطوات التالية للطرف الآخر.

ولما كانت عادة البدو أن يتطلعوا دوماً إلى السماء برجاء، وبعض الأحيان بتضرع، فإنهم لم يفعلوا هكذا هذه المرة. كانوا يخافون من عبور الفرات، يتجنبونه في معظم الحالات، ولا يقدمون على ذلك إلا إذا كانوا مضطرين، فكيف يصبح الحال إذا وجدوا أنفسهم محاطين بالماء من كل الجهات؟ والخدعة التي اعتمدوا عليها، في أن يقسموا المحاربين إلى جزأين، الأول يبقى شرقي النهر لمواجهة قوات داود، وإشغالها في محاولة لتأخيرها، ريثما تصل نجدات الحلفاء، على أن تكون المعركة الحقيقية غربي الفرات، وحتى لو تراجعوا فان الصحراء ستكون بالنسبة لهم مثل حضن الأم، ولن يستطيع داود، ولن تستطيع قواته شيئاً حاسماً، وستبقى الحرب هكذا إلى أن يمّل الجنود أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً. إذا كانت هذه هي الخطة والخدعة فماذا يستطيعون الآن؟

قال مجحم السلمان، الذي أوكلت له القيادة شرقي النهر:

ـ مصيبة ما كانت لا بالبال ولا بالخاطر: الله وعبد الله!

زفر بحرقة، وكان يرى وجوه الذين حوله، على ضوء سراج خافت، كأنها الأشباح تتراقص، وتابع:

ـ إذا عضينا على جروحنا وتحملنا كم يوم زايد، فعسى أن الله يفرجها!

رد عليه مفلح الخرسا بغضب:

ـ قلت لك يا ابن الحلال قبل ما تدردب علينا مصايب الله: تراها نسّمت يا أبو سلمان، ووراها غيمة سودا تحرق أو تغرق، فخلنا نعبر.

ـ وشلون نعبر والسيوف بصدورنا والرصاص بظهورنا؟ شيقول علينا

ربعنا؟ خفنا؟ انهزمنا؟

رد مفلح بسخرية:

ـ وهالحين، يا أبو سلمان، تظن أنه راح يطلع منا مخبّر؟

قال سويلم الجويدر ليخفف الغضب:

ـ هالحين ما يفيدنا أكل أصابعنا ندامة، هالحين يلزمنا نشوف شلون نخلص من هذي الجلهيمة، شلون نطلّع هالبريسم من هذا العوسج.

رد مفلح وهو يهز رأسه بسخرية:

ـ وين اكو برسيم مولانا؟ ما تشوف شلون راح الاكو والماكو؟

قال مجحم بحزم ليسيطر على الجو:

ـ أولها وتاليها موتة يا أولاد الحلال، ومثل ما نحن محصورين وتايهة علينا، ترى الجماعة مثلنا، مو أحسن منا، فإذا تحملنا كم يوم زايد ترى حالنا بخير، لأنّا أهل ديرة، والغريب، مثل ما تعرفون أعمى حتى لو كان بصير.

سأل مفلح الخرسا بغضب:

ـ وأهلنا وحلالنا يا أبو سلمان؟ إذا نحن الرجال صبرنا، هم يصبرون؟ يتحملون؟

ـ اللي يصير علينا يصير عليهم!

وبعد مناقشات طويلة تقرر أن يبقى من يستطيع البقاء، من يريد البقاء، أما الذين لهم رأي آخر، موقف آخر، فيترك لهم أن يتصرفوا بما يرضي الله وضمائرهم.

وفي الجانب الآخر لم يكن الموقف أقل ارتباكاً. فالآغا الذي جاءته التقارير أن البدو ليسوا كما صورهم ريتش، إذ يعرفون كيف يحاربون، وكيف يوقعون بخصومهم الخسائر، وأنهم يمتثلون لما يريده الرؤساء، كما أنهم قنّاصة حاذقون، بحيث أن رصاصة واحدهم تخترق الجمجمة مباشرة، مثلما قال حامل البريد، حين سأله عليوي عن الإصابات ومواضعها. وأنهم، مثل جمالهم، يتحملون الصبر والعطش إلى درجة أن

الواحد يبقى في مكانه من الصبح إلى أن يحلّ الظلام؛ بعد أن سمع سيد عليوي وعرف هذه التفاصيل، كان عليه أن يفكر بخطة جديدة، وأن يتخذ التدابير من أجل نجاح هذه الخطة!

أما قادة الميدان فكانوا أشد خوفاً وتحسباً. ففي هذا المدى الموحش، الذي كان لأيام قليلة سابقة يضجّ بضوء ساطع خلال النهار، مع حرارة كاوية، بعد أن أخذت الشمس ذلك السمت في السماء، ولم تعد مجرد شروق من هذه الجهة، وغروب من الجهة المقابلة، وإنما أصبحت طغياناً، بحيث تكشف أي تحرك من الجهة الشرقية. وفي الليل تصبح السماء ملاءة ليست سوداء فقط بل وشديدة الكثافة، ولولا تلك الثقوب المضيئة التي تشتعل من كل ناحية، وكأنها عيون، لظن كل جندي وهو يتطلع إلى النجوم، أن السماء تطبق عليه كالقبر.

كان الجميع، القادة والجنود، يتمنون لو تنطفىء الشمس ويعم الظلام، خاصة وأنهم اختاروا الثلث الأخير من الشهر القمري ليتحركوا. كانت الشمس تبدو لهم خصماً، أو مثل عدو متجبر: توقظ البشر قبل الأوان، ترفع عنهم الالحفة وهم في ذروة الدفء والنوم. أما ذلك الجدب الصحراوي الذي لم يره الكثيرون من قبل، وكانوا يظنون أنه أقل قسوة، فقد تبدى في الأيام الأولى، وهم يزحفون، عدواً آخر غير العدو الذي ينتظرهم عند النهر، غير عيون المسنين، وغير عيون الأطفال وضحكهم، وهم ينظرون إليهم ساخرين وهم يرفعون لهم أيديهم الصغيرة!

الآن، وقد غابت الشمس تماماً، وراء الغيوم السوداء الكثيفة، وأصبحت السماء في الليل بلا عيون، ثم جاءت تلك الأمطار الغزيرة التي أغرقت كل شيء: الثياب والخيام والدواب، وحتى الأسلحة؛ وعصفت الرياح وتوحلت الأرض، ثم تقدمت تلك البرودة الكاوية، خاصة في أواخر الليل، فقد شعر الجنود والقادة، وحتى الدواب، بالحصار، ليس بالمياه وحدها، بل وبالخوف وبأيام صعبة قادمة أيضاً.

حتى التقارير التي تزايدت في فترة الأمطار، كانت شديدة الاضطراب،

إذ يُكتب فيها الشيء ونقيضه، وترسل إلى مقر القيادة بتوالٍ لا يفصل بين التقرير والآخر سوى ساعات. لكن تبدو تلك الساعات بنظر مرسليها وكأنها دهور، لذلك شوّشت الذين أرسلوها والذين أرسلت إليهم في وقت واحد، فلا يعرف ما هو المطلوب تماماً، ولا يعرف كيف يمكن تأمين ما اعتُبر أو ما قُدّر أنه يفي بالحاجة. فأمر عليوي آغا، وكان شديد الغضب لتوالي التقارير بهذا القدر، وبهذه السرعة، «خلّيهم يفكوا عنا ياقة، هذول الأوادم، وبليّا ما يثبرونا: نريد ونريد. خلّونا نشوف دربنا، وبعد ما تنكشف السما، ونشوف وجه ربنا، نقول لهم: زين، هذا اليوم، وهذا باچر. هذا نقدر نسويه وهذا ما نقدر. أما وغضب الله نازل علينا، والدنيا وحلة والأرض زلقة فشنو اللي نقدر عليه؟ خوب نحن صرنا مثل الله نقدر نسوي كل شيء؟»

ولأن الأخبار وصلت إلى داود باشا أيضاً، وقد امتدت الحملة أكثر مما أراد، وأكثر مما قدر، فقد اتخذ جملة من الإجراءات: بعث لعليوي آغا نيشاناً مع كسوة، وأرسل إمدادات إضافية من القوات والعتاد؛ طلب تعديل الخطة والالتفاف على البدو من الجهة الشرقية، وأن يأتيهم من خلفهم أيضاً؛ وطالب بسرعة حسم المعركة!

قال بدري الحاج صالح العلو، الذي حمل الكسوة والنيشان، وقد وصل مع المجموعة التي ترافقه بعد العشاء بقليل، إن الآغا رفض استقبالهم. قال لهم ضابط الخفر، بعد أن ألحّوا، وقد راجع رئيسه أكثر من مرة: «الصباح رباح، والآغا دخل إلى فراشه». وحين أبلغوه أنهم يحملون رسالة من الباشا، إضافة إلى الهدايا، وبعد أن غاب الضابط قليلاً وعاد: «لقد نام، ولا يمكن لإنسان أن يوقظه».

أما بدري العلو المرافق العسكري لداود باشا، وكان عينه وأذنه في المهمات الخاصة، فقد نقل للباشا، بعد أن عاد من تلك المهمة:

ـ قبل أن نصل إلى مقر القيادة، يا باشا، بمسافة، كنا نسمع صوت ثامر المجول، كان صوته يلعلع مثل الرعد، وكان الدنبك ومعه الدفوف

تجاوب. أما ريحة العرق، يا سيدي، فحدث ولا حرج!

جرّ نفساً عميقاً، وهو يحاول تذكر التفاصيل:

ـ استوقفتنا السيطرة الأولى، وبعدها السيطرة الثانية، وفي كل مرة: الأوراق، والعد والانتظار. وبعد التأكد، وبعد التي واللتيا نتقدم خطوة...

وتغير صوته، صار أقرب إلى الامتعاض:

ـ نقول لهم: وفد من السراي. تكليف خاص من الوالي. وفد الاستعجال السريع؛ لكن العسكريين يقولون: على العين والراس، آغاتي. الوالي فوق الجميع، لكنها الأوامر، أوامر الآغا! وننتظر، وننتظر، وبعد الانتظار: الصباح رباح، والآغا نايم!

سوف يأخذ الوالي علماً بما حصل، لكن لن يفاتح ولن يعاتب الآغا. أما رجاله فقد أوضحوا لرجال السراي، ودون أن يُطلب منهم ذلك، أن الليلة التي وصل فيها وفد السراي كانت ليلة الخميس على الجمعة، والآغا الذي تفقد القطعات من الفجر حتى الغروب رجع متعباً، وبعد أن صلى العشاء، ولأن لديه مهمات كثيرة فجر اليوم التالي، فقد اضطر للنوم مبكراً. أما لو عرف بوصول الوفد، حتى لو كان وصوله متأخراً، فما كان ليتردد في استقباله، خاصة وأن الوفد يحمل معه النيشان والكسوة وأوامر الوالي!

كانوا يقولون ذلك بصوت عالٍ، ويرددون الكلمات نفسها، لأن الآغا في اليوم التالي، حين استوضح الأمر، وتأكد من صفة الوفد ومهمته، شعر أن خطأه كان كبيراً، لكن تعلل بعذرين: كثيراً ما ينتحل البدو صفة رجال الدولة، خاصة أوقات الحروب، كي يغيروا ويقتلوا، لذلك أصدر أوامره أن لا يستقبل أحداً ليلاً. أما العذر الثاني فهو أن رؤيته الليلية ضعيفة ومشوشة، ولقد أخطأ أكثر من مرة بأسماء أشخاص أو صفاتهم، لأنه لم يستطع أن يميزهم بوضوح!

بعد أن انقشعت الغيوم في اليوم الثالث، وفردت الشمس نورها على الكون، بدت الصحراء بلون أصفر قانٍ مختلط بزرقة، والرمل الذي امتص

الكثير من الأمطار التي سقطت أصبح ثقيلاً رخواً، أما الفضاء بعد أن اغتسل هواؤه مرات لا عد لها، فقد أصبح شفافاً نافذاً بحيث تُرى الأشياء على مدّ البصر ولمسافات بعيدة.

حين نظر كل طرف لنفسه وقدّر وضع الآخر شعر الطرفان بالحزن: الخيام متهدلة؛ الحيوانات منكمشة على شكل مجموعات وقد التقت رؤوسها في الوسط وكأنها تندب المصير الذي يتربص بها؛ الأشجار المبعثرة هنا وهناك ارتخت وتكسرت أغصانها؛ أما برك الماء التي تفصل بين الطرفين، وقد ملأت المنخفضات جميعها بمياه عكرة، فبدت مثل القبور الضخمة.

حتى السواتر المكوّنة من الحصر وجريد النخيل وأغصان الأشجار التي حجبت، جزئياً، طرفاً عن آخر في الأيام الأولى، تبددت وتطايرت، ثم أصبحت مع بعض الخيام دليلاً على أنه كانت هناك حياة وانتهت، بل وكشفت ما وراءها من حيرة وبؤس، تماماً مثلما يبدو انسان مشوهاً بعد أن تُنزع ثيابه!

ولأن الحرب في مثل هذا الطقس، عدا القنص، مستحيلة، فقد التفت كل طرف إلى ترتيب شؤونه، مع أدعية كثيرة، من كل جانب، لو أن الله يلهم القادة، والذين يصدرون الأمر، أن يكفوا عن الجنون، كي يعودوا من حيث أتوا. لكن ما يفكر فيه الجنود، وما يتمنونه، يختلف كثيراً عما يفكر به القادة، عما يريدونه. فإذا بدت الحركة ظهر اليوم التالي للأمطار متراخية، ولا تخلو من رغبة الاستسلام للشمس كي تدفىء العظام، فإن ظهر ذلك اليوم شهد وصول قوات جديدة، وتوزيع كميات إضافية من الذخيرة، كما أعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد.

ومر اليوم الأول، ومر اليوم الثاني دون أن يحدث شيء، لكن فجر اليوم الثالث شهد التحرك الكبير من جهة الجنوب الشرقي، ومن جهة الشمال الغربي.

صحيح أن التقدم كان بطيئاً، فالأرض لم تجف بعد، كما أن الغدران

والوحول ملأت الأودية والمنخفضات، مما أعاق الحركة قليلاً، لكن التقدم استمر.

كان يُشاهد في أمكنة عديدة حيوانات نافقة، وبقايا ثياب، وكانت العقبان والغربان والطيور الجارحة تحوم في عدة بقع قريباً من الأرض، وقد غادرها الحذر، بله الخوف، حتى بدت وكأنها ترقص في بعض اللحظات، إذ ما تكاد تسفّ، ثم تسقط على البقايا، حتى تدرج هاربة من طيور أقوى أو أكبر منها، لكن هذا الهرب المخاتل لا يذهب بعيداً، ولا يكف عن إعادة المحاولة، حتى ليبدو الأمر لعبة لأغلب الطيور. أكثر من ذلك.. أصبحت تلك الطيور لا تبالي بتقدم القوات أو اقتراب الجنود، كما لا تحفل بحركتها. وكان يروق لعدد غير قليل من الجنود أن يتابعوا لعبة الطيور السوداء تتطاير وتحط هنا وهناك، وهي بحركاتها المرحة بمقدار ما تبعث على الإثارة، فإنها تثير التساؤل والحزن!

وفي تجمعات البدو التي ارتقت الطعوس والهضاب الصغيرة، لكي تهرب من المياه والوحول، ولتشرف من مكانها ذاك على القوات الزاحفة، فكانت أهازيجهم والهوسات مليئة بالحقد والحزن معاً. وكان هناك الانتظار القلِق لصدور الأوامر من أجل الاشتباك مع القوات الحكومية التي تُرى من بعيد وكأنها غابات سوداء تتحرك.

أما الفرات الذي كان أخضر داكناً في كل الأيام الماضية، فقد تحولت مياهه إلى اللون البني الكدر، كما تباعدت ضفتاه وتزايدت سرعة جريانه، بحيث لم يعد ناس الضفة الشرقية يرون الضفة الأخرى، وحتى القفف التي كانت تملأ ضفتي النهر، وكانت تبدو كالدمامل في ذلك الجسد الطويل، اختفت تماماً، ربما ابتلعها النهر، أو قذف بها بعيداً إلى شطآن مهجورة.

قال المحاربون الذين رابطوا على الضفة الغربية إنهم لم يروا في حياتهم النهر يفيض في مثل هذا الوقت من السنة. وقال المسنون من المحاربين إنهم كانوا يخوضون في مياه النهر، ولم يكونوا مضطرين لنزع ملابسهم إلاّ حين يبلغون الوسط، ويظل الأمر كذلك إلى أن يأتي الفيضان

الكبير أيام الربيع. أما أن ترتفع المياه هكذا، وفي هذا الوقت، فأمر غريب. وتذكر واحد من المحاربين أنه رأى النهر هكذا لما كان صغيراً، وما كان ليتذكر لو لم تنبعث رائحة الصحراء دفعة واحدة، بعد هطول تلك الأمطار، وقبل أن يأتي جوريد، فالرائحة وحدها هي التي ذكَّرته!

كانت مثل هذه الأحاديث والذكريات تتوالى والمحاربون ينتظرون، وقد شفّهم الحزن وعذّبهم الانتظار. فبعد أن هيؤوا أنفسهم لخوض المعركة على هذه الضفة، وتقسّموا وحدات وكراديس ومجموعات، ولكل منها مكان ومهمة، فإنهم يشعرون هنا بالحصار والعزلة والعجز. فما زالوا يتمنون أن تقع المعركة على هذه الضفة من النهر، لكنهم الآن ليسوا متأكدين. كما أنهم غير قادرين على عبور النهر. حتى الرسل الذين اضطروا للعبور، فقد كان ذلك مخاطرة كبيرة، مع أنهم سبّاحون مهرة ومجربون، وقضوا جزءاً كبيراً من أعمارهم في حضن الماء، وغامر بعضهم فوصل الأهوار! فإذا كان التيار يقذف هؤلاء إلى أمكنة بعيدة، وواجهوا مخاطر حقيقية وهم يعبرون النهر، فكيف حال الذين لم يقتربوا من الماء، ولا يعرفون النهر إلا لملء القرب؟ وكيف حال النساء والصبية والمسنين؟ ثم ماذا حصل للحلال والرزق؟ وقبل هذا وذاك ماذا حصل لرفاقهم الذين كانت مهمتهم تأخير القوات الزاحفة ومشاغلتها، ثم استدراجها إلى الضفة الغربية، كيف حالهم، وماذا حصل لهم، وهل يمكن أن يتخلوا عنهم؟

قال مجحم لرجاله، وكانوا يرون الكتل الكبيرة السوداء تتحرك ولا تتحرك:

- البني آدم يموت موتة وحدة...

وزفر قبل أن يضيف:

- وإذا مات بالسيف أو برصاصة أحسن له وأشرف من أن يموت بكلاش...

وتغير صوته قليلاً:

- وموتة السيف أو الرصاصة نوبة واحدة، أما موتة الكلاش فبألف موتة. . .

وضحك بحزن:

- ومو بس هو وحده اللي يموت بالكلاش، يورّث هالموتة لولد الولد.

وبعد فترة صمت قصيرة أضاف وبحدة:

- وأشرف لنا وأحسن أن نواجه رب العالمين ودمنا عطرنا، وعلامات السيوف بصدورنا شهادة ونيشان، وإذا شافنا سبحانه وتعالى يشوف عيون مفتحة وسنان تضحك، ونقول له بحيل صدر: شهداء، لا حساب ولا كتاب، لا منو أنتم أو شنو مسوّين!

كان مجحم السلمان بمقدار ما يحدّث الرجال حوله، كان يحدث نفسه. ورأى بعض الرجال مثل هذا الحديث ضعفاً.

رد عليه سعد المبدر بنزق:

- وشنو لازمة هذا الحچي يا أبو سلمان؟

ولم يتركه ليجيب، أضاف، ولم يفارق النزق صوته:

- خوياك مجربين، وما ينراد لهم عيني وآغاتي، بس إنت اؤمر، قول، يا أبو سلمان وشوف.

رد وهو يبتسم بحزن:

- خيل الأصايل تالي تجود يا سعد، ولولا إني أعرفكم وتعرفوني كان كلامي غير كلام.

قال بعض الذين تصادف وجودهم بين هيت والرمادي، مقيمين أو مارّين، إن المعركة لما احتدمت بين الطرفين سالت دماء لا تقل عن الأمطار التي سقطت في الأيام السابقة. ومياه النهر التي كانت عكرة، حين استقبلت هذا المقدار من الدم، تحولت إلى لون بني قاتم أقرب إلى السواد. وقال هؤلاء إنه لم يستثنَ أحد من القتل، حتى الصبية، وعدد كبير من النساء والمسنين، قتلوا، قتل الآلاف بل أكثر من ذلك.

قال سيد عليوي لجنده، وقد وصل في نهاية المعركة:

ـ لا نريد الأسرى، ليس لدينا طعام، وسوف يكونون جواسيس علينا، وأنتم تعرفون: البدو يثأرون بعد أربعين سنة، ونحن لا نريد شهوداً، ولا من ينقل الأخبار.

حتى مفلح الخرسا الذي تملّكه الخوف واندفع إلى قوات عليوي، وقد نزع عقاله، ورفع يديه الاثنين، دلالة التسليم، كان من أوائل الذين سقطوا في المعركة. وقيل إنهم استقبلوه لدقائق قليلة، ثم قتلوه. وأكد شاهد أن الضابط قال له وهو يطلق عليه الرصاص:

ـ اللي يخون جماعته أسهل عليه أن يخون أعداءه.

وأطلق عليه ثلاث رصاصات، اثنتين في الرأس، والثالثة في الصدر.

أما مجحم وثلاثة من أولاده، ومجموعة من الرجال كانت معهم، فقيل إنهم توغلوا داخل معسكر الحكومة، قبل الفجر، وقضوا على عدد من الضباط. وأكد واحد من الجنود، ظل مختبئاً وراء أكياس المؤونة، أنه شاهد بعينيه الاثنتين كيف دب الرعب في المعسكر، وهرب من استطاع الهرب، وكاد المهاجمون يفلتون، ومعهم عدد من الأسرى، بينهم محمد الرميح، زعيم العقيل، لولا أن أطلق عليهم النار أحد الجنود الذي جاء بالصدفة، فقتل أكثرهم، بمن فيهم مجحم ومحمد الرميح، ثم جاء جنود آخرون وقتلوا الباقين.

ومثلما طلب داود باشا، لم يفاوض عليوي أحداً في اليوم الأول بعد أن انتهت المعركة، ولم يفاوض في اليوم التالي، أما حين وصل شيوخ الدليم في اليوم الثالث، ولإنقاذ النسوة والصبية، وقد عبروا النهر من الضفة الأخرى بواسطة سفينة كانت قادمة من عانة، فقد اضطروا للموافقة على ما أراده أو فرضه سيد عليوي، خاصة بعد أن وصل بدري الحاج صالح العلو حاملاً رسالة جديدة من الباشا، وقد استقبل فور وصوله أولاً من قبل رجال السيطرة، ثم من رجال الحراسة، إلى أن وصل، مع عدد من المرافقين، والتقى مع الآغا. وقد تم استقباله قبل أن يجف عرقه!

36

ما كادت القطعات العسكرية تتجه غرباً، حتى بدأ داود باشا بإعادة ترتيب وضع القطعات العسكرية الباقية. كلف عدداً من الضباط الذين رافقوه في رحلة الشمال بأعباء إضافية. غيّر مواقع عدد من الضباط الذين عيّنهم الآغا، أعطاهم رتباً إضافية وبدّل أماكنهم ومهماتهم! أنشأ حرساً خاصاً للسراي. استبدل قوات القلعة بأخرى غيرها، كما أقام حراسات جديدة حول أبواب بغداد من الداخل والخارج.

وأصدر الباشا أوامره أيضاً لعزرا أفندي أن يحكم الرقابة على التجار، لئلا يستغلوا محاربة بدو الفرات الأعلى فيرفعون الأسعار أو يخفون بعض المواد. كما أمر بإقامة موائد للفقراء ورجال الدين، وطلب من خطباء المساجد أن يحضوا الناس على الصدقة والعناية بالفقراء والمحتاجين، وعلى محاربة الرذيلة والفساد.

كان الباشا، خلال هذه الفترة، يصل الليل بالنهار، وكانت السراي في حركة دائمة وانشغال لا يعرف التوقف.

ولما كانت هذه الحركة، وتلك الانشغالات تتطلب مالاً، فإن نادر الشيخة الذي اختاره الباشا من الموظفين القدامى القلائل للبقاء في السراي والإشراف على الشؤون المالية، كان في حالة من الانفعال، بدا معها قلقاً مهموماً نتيجة الأعباء الكبيرة والمتزايدة، الأمر الذي يتطلب تأمين موارد جديدة، والحرص أكثر من قبل في أمور الصرف، فاتفق مع عزرا أفندي على أن يتشدد أكثر ولا يلبي إلا الطلبات ذات الختم الأخضر، والممهورة

بتوقيع الوالي، ومعها مصادقة عزرا أفندي.

لقد كان المال بالنسبة لنادر الشيخة متعة لا توازيها أية متعة في هذا الكون. المال عنده، ليس وسيلة للتداول أو شيئاً قابلاً للانتقال، إنه قيمة بذاته. لذلك لا يكفي أن يكون حريصاً دقيقاً، بل يجب أن يكون متشدداً إلى أقصى حد، وعليه أن يتقن ترديد كلمة أساسية في التعامل مع الآخرين: ماكو. حتى السكوت، فيما لو سكت أثناء المطالبة، قد يساء فهمه، وربما يعتبر موافقة مؤجلة. وكي لا يقع في مثل هذا الخطأ، عليه أن يرفض بطريقة واضحة، حازمة ونهائية!

كان يروق لنادر أفندي أن يغلق باب غرفته بالمفتاح حين يعرف أو يتوقع مجيء أحد لمطالبته بمال. كان يفعل ذلك مرات عديدة في الأسبوع، خاصة يومي الاثنين والخميس، حين يتوافد الكثيرون على السراي. ففي تلك الغرفة، في أقصى المجاز الطويل من الجهة الشرقية للسراي، كان يخيم الصمت، وتغرق تلك الجهة في العتمة لما تعج الجهة الجنوبية بالناس.

إذا ابتعد نادر أفندي عن المطالبات، وابتعد عنه الناس، فإن له هواية تستأثر باهتمامه كله: يستخرج مقداراً من الليرات الذهبية المصفوفة بعناية داخل القاصة الكبيرة، وبعد أن يتأمل هذه الكومة بفرح لا يستطيع أن يخفيه، يبدأ بإسقاطها من يد إلى أخرى، إذ يضم أصابعه كمخروط، ثم يأخذ بإنزالها بسرعات متفاوتة. يفعل ذلك كي تستشعر أصابعه ملامسة المعدن المقدس، كما يسميه، وليقدر العدد، ولكي يطرب على الصوت وهو يتقافز وينتشر نتيجة الاصطدام أو الاحتكاك!

هذه الهواية تستغرق وقتاً، بعض الأحيان يكون طويلاً، وقد تأخذ أشكالاً عديدة، لكن ذروة الانفعال تكون حين يقذف ليرة ذهبية بيده اليمنى لتتلقاها اليسرى، فوق ليرات سبقتها واستقرت في تلك اليد. كان يقوم بهذه اللعبة باتقان بالغ، وبلذة تجتاح جسده كله. وفي هذه الرحلة القصيرة، السريعة، والرنين يتتابع ويتغير، تبعاً لكثافة السقوط، يكون نادر

أفندي في منتهى التألق، وأقصى حالات الفرح.

مثل هذه الرياضة التي يمارسها نادر أفندي لماماً في النهار، ودائماً في الليل، لا تستهدف إعادة حساب ما في الخزينة، أو التأكد من ذلك، لأن مثل هذا الحساب يجري في الذاكرة، وهو واثق منه، وإنما لكي يُشعر نفسه بالفرح والقوة معاً، ولأن الأموال تجعله يتأكد أن ليس في السراي سوى اثنين: هو والوالي.

كان يقول لنفسه، وهو يعيد الليرات الذهبية إلى القاصة الحديدية:

- الفلوس تونّس، شوفتها ترد الروح، وصوتها يبلّ القلب، وما أعرف شلون الناس تمردها...

وحين يطفىء النور، ليدخل إلى غرفته المتواضعة، والتي لا تحوي سوى سرير وبضعة مقاعد، يخرج صوته:

- اللي معه فلس يسوى فلس. أما المفاليس فهذول الله غاضب عليهم، ومثل ما عاقبهم في الدنيا راح يعاقبهم في الآخرة، لأنه، سبحانه، أعطى البني آدم عقل، وقال له: هذا ملكي وأنت تصرف. خلي يصير براسك خير ودوّر على خبزتك...

ويتغير صوته، يصبح غاضباً:

- الله ما ينزّل زنبيل ذهب ويقول: خذ. الله يقول: أنا أعطيت العقل وعلى عبدي أن يكد حتى يحصل!

ويفرح لأنه وصل إلى هذه النتيجة، إذ لا معصية عليه، ولن يحاسب على ذنب. فالمال، منذ البداية، وحتى الختام، لله، ويجب أن يحافظ عليه. إنه حارس، والحارس يجب أن يكون أميناً وشديد الانتباه، لأنه مؤتمن. أما إذا سها أو تساهل، إذا فرّط أو تجاوز فكأنه خان الأمانة، وهنا، تماماً، معصية الخالق.

لا يقول ذلك لأحد، إذ بمجرد أن يدخل مع إنسان بمناقشة حول الأمر، وكأنه بدأ المساومة، والمساومة تقود إلى التنازل، وهكذا تتوالى التنازلات إلى أن تفرغ الخزائن، وعندها يقع الخراب، والخراب كما يقول

بصوت صلب، وإن شابه بعض الارتجاف:

ـ عقوبة من الله على عباده.

يقول العاملون في السراي: إن نادر أفندي أبخل من كلب، وإنه لا يلبس الحذاء إلا حين يقابل الباشا، وإنه يؤخر الغداء كي لا يتعشى؛ ويبالغ بعضهم فيضيف إنه لا يخرا حتى لا يشعر بالجوع!

حين يصرف الرواتب، أو حين يدفع الأعطيات التي أمر بها الباشا، أو حين يطالب الذين قاموا بتوريد المؤن إلى السراي بما يستحق لهم، يصاب نادر أفندي بالمرض. ترتفع حرارته، وتعاوده تلك البحة في الصوت، ولأن مثل هذه الأمور تقع كل يوم تقريباً، رغم محاولاته التي لم تتوقف في أن يجعل الاثنين والخميس من كل أسبوع يومي قبض المستحقات، إلا أن الأمور ليست بذلك الانتظام، أو وفق ما خطط لها، لذلك فإن المرض لا يفارقه، كما يصبح عصبياً مستثاراً، ويمكن لأية كلمة أن تخرجه عن طوره. كما يلجأ إلى حبس نفسه في غرفته، بعد أن يغلقها من الداخل، وقد تمر ساعات دون أن تسمع له أية حركة، ويقال إنه لا يستعيد شيئاً من هدوئه إلا بعد أن يفتح القاصة ويطمئن أن كل شيء في مكانه!

كان الباشا يحب ويكره نادر الشيخة بنفس المقدار. أو يمكن القول إنه يكرهه في أوقات، ويحبه في أوقات أخرى. يكره فيه التزمت الذي يصل إلى حد الإحراج، خاصة حين يمتنع عن دفع بعض الأعطيات الضرورية لشيوخ العشائر ولأئمة المساجد، إذ يؤجل الدفع إلى أقصى حد يستطيعه، لعله من خلال هذا التأجيل يحمل أصحابها على التنازل عنها كلها أو بعضها، وقد حصل ذلك أكثر من مرة، وقيل إن الباشا لم يلمه، بل وقيل إنه أثنى عليه!

لما تأكد الباشا من حرصه، تولدت بين الاثنين لغة تعامل لا تحتمل الخطأ: فطريقة توقيع الباشا، ومكان التوقيع في أمر الصرف الذي يعده الديوان، يحدد ما إذا كان عليه الصرف فوراً أو يمكن تأجيله. وفي الحالات التي لا تحتمل الانتظار والتوقيع، فإن الرسول الذي يرافق

صاحب الأعطية يحدد ما إذا كان في الخزانة مال يصرف فوراً أم عليه أن ينتظر.

قال له الباشا ليحسم الأمر بعد ان تزايدت الشكاوى بسبب المماطلة والتأخر في الدفع:

ـ إذا جاءك خلف فادفع، لأن الله يخلف.

ومد نادر أفندي كفيه بحيرة وتساءل، وتكلمت عيناه بمرارة، وكأنه غير راضٍ عن هذا الإسراف، فقال له الباشا وهو يبتسم:

ـ وغير خلف إذا جاك لا تدفع حتى لو حلف!

أما أسباب محبة الباشا له فكثيرة، ولعل أهمها: الحرص على حماية ثروته، الملاحقة الدؤوبة لمنع الإسراف أياً كان نوعه، ومن أي مصدر جاء.

حين يقلّم فيضي الأشجار، في نهاية الشتاء، وتكون الأغصان رطبة غير قابلة لأن تستعمل كوقود، خاصة وأن الدفء يكون قد دب في الكون، فهذه الأغصان وقود للسنة القادمة، ولذلك يجب ألا تُرمى! تُسلّم لمحي الأعور، لكي يجففها، ويقول له نادر آغا:

ـ هذه أمانة برقبتك، فإذا سهيت أو نسيت فالله لا يسها ولا ينسى، وإذا ما كان حسابنا بالدنيا يكون بالآخرة، فاحرص، وقول: الدنيا حياة وموت.

والخراف التي تذبح في السراي ليست كأية خراف: يجب أن تُعرف أوزانها، وأين يجب أن تذهب جلودها ومصارينها. حتى القرون، كما يؤكد عدد من العاملين في السراي، كانت لها استعمالات، وحين تباع لا بد أن تُسدد قيمتها!

والأكل والشراب والثياب، وحتى العطور، لكل منها حساب. وهناك أشخاص كلّفهم نادر بالإشراف والمتابعة والمراقبة، لكي لا يذهب شيء إلى غير مكانه أو لمن لا يستحقه!

يقول الذين يكرهونه: بعد أن تزايدت المفاتيح التي يحملها، اضطر للاستعانة بمن يحملها عنه، أي أصبح لديه حامل للمفاتيح مثلما لدى

الباشا حامل الأختام. وهذا الذي يقوم بالمهمة لا يتلقى راتبه نقداً، وإنما يعطيه نادر أفندي مواداً عينية مما تحت يده، ويتغير حجم هذه المواد بتغير سعرها في السوق! وحامل المفاتيح صنع لنفسه خرجاً فيه جيوب كثيرة، في أحد هذه الجيوب المفاتيح، وفي الجيوب الباقية المواد التي يمنحها نادر: السكر، الصابون، الفلفل، الرز، العدس، بحيث يبدو، وهو خارج من السراي، شخصاً مضحكاً، إذ بالإضافة إلى الشكل المنبعج في أماكن كثيرة، فإن الرائحة التي تنبعث من أحماله غريبة مختلطة إلى درجة لا يمكن تحديدها أو تصنيفها، لكنها، مع ذلك، أصبحت مألوفة لعدد من الأشخاص الذين يتعاملون معه، وغالباً ما ينتظرونه بعد المغرب وقبل العشاء عند باب السراي، يوم الخميس، كي يبدأوا مساومته على بضاعته!

ربما يقال إن مثل هذه القصص من تدبير خصومه، وإنه أكبر من إشغال نفسه ببيوت المؤونة أو ترتيب الشؤون الصغيرة في السراي، فالباشا انتدبه لأمور أكبر من هذه بكثير، وهذه الأمور بالذات هي التي تفسر حب الباشا له، وتجعله قوياً ومستمراً، رغم الكراهية التي يكنُّها له معظم، إذا لم يكن كل، العاملين في السراي!

يقول الذين يعرفون أكثر من غيرهم، إن الباشا لم يُبق على نادر الشيخة، ولم يحمه إلا بسبب الخدمات التي يقدمها. إنه يتذكر الديون والمدينين أكثر من أي شيء آخر، ليس اعتماداً على السجلات، إذ حُرق أغلبها في الأيام الأخيرة من حكم سعيد باشا، وإنما اعتماداً على الذاكرة التي تستطيع في لحظات أن تستعيد ما تبقى على فلان أو فلان من ديون للدولة. الضرائب المقدرة عليه، كم دفع منها وماذا تبقى عليه، ومواعيد الدفع!

يتذكر نادر افندي ذلك ليس من أجل أن يثبت للآخرين أن ذاكرته لا تزال قوية، وإنما ليتذكر وقت حلول هذه الديون، وأيضاً وقت مجيء المدينين، خاصة في الأسابيع ثم الشهور الأولى لاستلام داود. فقد ظن الكثيرون أن سقوط سعيد لن يعفيهم من الديون فقط، بل لا يوجد من

يتذكرها، خاصة بعد أن احترقت السجلات والأوراق، والكثير من دواوين الدولة.

كانت أصوات هؤلاء المدينين عالية متحدية، وهم يستعرضون ما حلّ بهم من غبن، وما لحقهم من خسائر، بعد أن ألزمهم سعيد بكذا وكذا من الأموال، وكيف أنهم أدّوا ما عليهم وأكثر! ويظل الأمر كذلك إلى أن يطل نادر أفندي على مجلس الباشا من وراء حجاب، أو يسأل عن زواره، وخلال دقائق تصل إلى الباشا، مع الغليون أو القهوة، ورقة تبين الديون المترتبة عليهم.

ولأن الباشا يريد أن يكسب ولاء هؤلاء، أو أن يحصّل جزءاً من الديون، كان ببراعة يعاود الحديث، بعد أن تكتمل لديه المعلومات، لكي يصل في النهاية إلى نوع من التسوية مع هؤلاء المدينين، حتى لو انتهت تلك التسوية بأن يسقط عنهم تلك الديون، مع التأكيد انه يفعل ذلك تكرماً، تقديراً لمواقفهم وتأييدهم، وأنه لن يتساهل بما سيترتب عليهم من أموال بمواعيد ومقادير محددة.

كان يقول له داود بعد أن ينفضّ الجمع:

- لم تخطىء يا نادر أفندي حين سميت ابنك يقظان. . .

وبعد قليل وكأن الباشا يكلّم نفسه:

- يجب أن تترك على جلود هؤلاء الناس علامات لا ينسونها أبداً، لأن آفة البشر النسيان، أما إذا عرفوا وعرفت فإن التفاهم يصبح أيسر!

ولا يعرف نادر أفندي هل يفرح، ويعبر عن هذا الفرح بالضحك، أم أن الأمور أكثر جدية وخطورة، بحيث يجب أن تتحول في وقت قريب إلى ليرات ذهبية، لأن هذه الطريقة وحدها التي تدخل الفرح إلى القلوب!

في وقت لاحق، وبعد أن استقر ديوان الباشا، وأصبح يعرف من هم زواره، ومتى سيأتون، أمر بأن تودع لدى نادر أفندي، قبل أي موظف آخر، أسماء الزوار، خاصة من التجار وشيوخ القبائل والمتنفذين، وأيضاً رجال الدين، لكي تسجل الديون والعطايا وبعض المعلومات التي تمكّن

الباشا من الوصول إلى نتائج مناسبة مع هؤلاء الزوار.

قال لنادر أفندي، بعد أن استدعاه إلى الشرفة الجنوبيّة المطلة على النهر:

ـ المال للدولة، يا نادر، مثل الأكل والشرب للإنسان.

لم يكن نادر الشيخة بحاجة إلى مثل هذه المقدمة، فهو يعرفها جيداً، ربما أكثر من الباشا. ضحك بخجل واعتدال، وكأنه يقول له: لا توصّي حريص يا باشا، وأريد منك أن تقف معي من أجل حماية الخزينة.

ابتسم داود باشا، وقد أدرك ما يدور في عقل نادر، وتابع:

ـ لو كان لدي عشرة مثلك، يا أبا يقظان، لنمت قرير العين...

وتغيرت اللهجة، أصبحت حزينة:

ـ هذا البلد عجيب يا نادر، ما تظن أنك وصلت حتى تكتشف أشياء لا بالبال ولا بالخاطر...

جرّ نفساً عميقاً وأضاف:

ـ كورة زنابير. تشوف الواحد اسم الله عليه، لابس كشيدة ولسانه ما يفوت حلقه، وهو يردد: قال الله وقال الرسول. تقي، ورع، يصلي ويصوم، وتدمع عينه إذا انذكرت الجنة، لكن إذا سألت عنه، إذا تحريت منو هو، وشنو مسوي بدنياته، تشوفه زنبور، وأبد ما يخرى عسل!

وشعر الباشا أنه ذهب بعيداً، وأن مثل هذا الكلام لا يعني واحداً مثل نادر أفندي، فيغيّر جلسته، وهو يقول بصوت أراده ودوداً:

ـ ما علينا يا نادر. المهم أن نضبط المالية، لأن هذه الحرب، مثل ما تعرف، نار الله الكبرى، تأكل الأخضر واليابس، وشقد عندنا فلوس فهذول العسكر يأكلون ويقولون لنفسهم عوافي. أريد منك الحرص: خلف وختم أخضر، لا تنسَ، وإلا أبو كلاش يكدّ وأبو جزمة ياكل وتنلاص علينا.

واتفق الطرفان أن يكون الصرف محدوداً، وأن تكون المكافأة متناسبة مع النصر، وألا تزيد إلا إذا حملها خلف وعليها التوقيع والختم الأخضر!

أما أكثر أسباب محبة الباشا لنادر فتلك الوقاحة، التي تجرح، لكن لا تقتل، في تعامله مع الآخرين، خاصة ناس السراي، بمن فيهن نساء الباشا ومحظياته وجواريه، إضافة إلى الحرس والمرافقين والمسؤولين عن الاسطبل، وأيضاً المسؤولين عن الحيوانات والطيور الموجودة في السراي!

ما عدا الباشا، ولأسبابه الخاصة، فلا أحد يطيق نادر أفندي، أو بالأحرى فإن الجميع يكرهونه، ويتمنون لو يختفي، لو يموت. وإذا كانت مواقف هؤلاء لا تتجاوز التمني والانتظار، فإن لعزرا موقف آخر، وكذلك نائلة خاتون، وبعض الأحيان نازلي باشي!

37

أقام داود باشا احتفالاً كبيراً لقواته المنتصرة. أقام الاحتفال في السراي، ودعا إليه رجال الدولة والوجهاء وأرباب الشعائر الدينية والتجار، وحرص على أن يكون بين المدعوين شيوخ العشائر وعدد من أغوات الأكراد.

كان الاحتفال جليلاً كبيراً، منح خلاله سيد عليوي رتبة إضافية، وقد قام الباشا بتقليده الوسام العالي. وأثنى، من خلال كلمة قصيرة، على شجاعته وتفانيه، وذكر أن الولاية في المرحلة الجديدة، وبعد هذا النصر الذي منّ به الله، تبدأ عهداً جديداً من الاستقرار والهدوء، بعد أن قُضي على قطّاع الطرق والذين يسلبون القوافل، وهذا سيؤدي لازدهار التجارة بكل تأكيد، ولأن يعيش الناس في أمان. ولم ينس الباشا أن يلتفت إلى شيوخ القبائل، وهو يلقي الكلمة، إذ ذكر أن الغزو عادة ذميمة، وقد حرّمها الله، ولا بد أن تكف القبائل عن هذه العادة، وأن تعتمد، من أجل تحصيل الرزق، على الزراعة والكد، ووعد أن تبذل الولاية، وأن يبذل شخصياً، وجميع المأمورين في كل أنحاء الولاية، شمالاً وجنوباً، كل جهد من أجل رفاه العموم. وختم كلمته بأن قال «وباشا بغداد الذي عرفتموه وخبرتموه، يؤمن بالله وبرسله وملائكته، ويؤمن باليوم الآخر، يبشر وينذر، وكما أن الحلال بيّن فإن الحرام بيّن، وكما أن الحق بيّن فإن الضلال بيّن، فمن أراد لنفسه ولأهله الخير والعافية فإن الطريق إلى ذلك واضح صراح قويم، ومن أراد غير ذلك فبيننا حساب الدنيا والآخرة.

اللهم إني حذّرت وأنذرت، اللهم إني بلّغت، والله على ما أقول شهيد».

ورغم أن العادة في احتفالات من هذا النوع أن يرتدي الوالي الملابس العسكرية، فقد حرص داود باشا، بعد أن دخل بغداد، على التخلي عن هذه الملابس، لذلك بدا بين هذا الحشد الكبير من الضباط، مختلفاً بل وبدا بنظر بعضهم أقصر قامة وأقل تألقاً. وتمنى الذين لا يكنون الود لسيد عليوي لو أن الباشا كان مرتدياً الملابس العسكرية، لئلا يظهر سيد عليوي وكأنه كل شيء في هذا النصر. لكن ما خفّف من تأثير هذا الخطأ أن الوحيد من العسكريين الذي لم يرتدِ ملابس الاحتفالات هو عليوي ذاته، فقد جاء إلى الاحتفال بملابس الميدان، وكانت خشنة متسخة، ولا تخلو من غرابة، الأمر الذي فُسّر بأشكال مختلفة. إذ قيل إن إصرار الآغا على تلك الملابس كان للتدليل على أنه جاء مباشرة من أرض المعركة، وأنه مستعد للعودة إلى المعركة من جديد لو طلب إليه الباشا ذلك! وقيل إن ظهوره بهذا الشكل يدل على تواضعه وعدم اهتمامه بالمظاهر، حتى بدا الوسام مع الوشاح الذي قلده إياه الباشا غير متناسبين مع بذلة الميدان، بحيث أن ناطق أفندي، الذي حمل الوشاح إلى الباشا، كان على ثقة أن الوشاح سيسلّم باليد دون أن يُقلّد، وهذا ما جعله يبقي الطرفين مربوطين، لأن «وشاحاً مثل هذا»، كما قال لبدري صالح العلو، الذي بادر بسرعة لإنقاذ الموقف، إلى حل طرفي الوشاح، «يحتاج إلى ملابس تليق به، وإلى صدر كأنه الصخرة لكي يبرز فوقه، أما أن يضيع في هذه الكومة من الثياب القذرة، وأن يبحث الباشا عن مكان بين هذه الأسمال ليعلق الوشاح، فأمر يثير القرف والاستغراب». وقيل إن الباشا لم يكن مرتاحاً أو راضياً حين رأى سيد عليوي بملابس الميدان، في الوقت الذي ارتدى باقي الضباط زي الاحتفالات، لكن الوقت لم يكن كافياً لتدارك الأمر، فقُبل الوضع على مضض!

وناطق أفندي، مسؤول التشريفات في السراي، أبدى استياءه لبدري في المساء المتأخر ليوم الاحتفال بقوله:

ـ خدمت في بلاط السلطان، وخدمت في ولاية حلب. عرفت الكبار والصغار، وشهدتْ عيني احتفالات بعدد شعر رأسي، ولم أر مثل احتفال اليوم...

واختلط الغضب بالغيظ وهو يشرح ويوضح:

ـ إهانة لوالينا؛ إهانة للمقام العالي؛ إهانة للأوسمة والنياشين، فكيف يسمح لنفسه الاقتراب من الباشا ورائحته كلها صنان وكأنه خنزير؟

خفض صوته كثيراً وهمس:

ـ هذا الزق من العرق مع حفنة من غبار ممزوج برائحة البول، ويتلقى أوسمة؟

ولم يترك لبدري أن يجيب، تابع:

ـ كان مولانا السلطان يرفض المصافحة لمجرد أن الذي يصافحه مدّ يده إلى أحد قبله. وكان رجال التشريفات ينبهون الزوار: سلام دون مصافحة...

وعاد إلى الصوت المنخفض:

ـ أما ايدين منقّعة بالسيانات، وصار لها شهور ما انغسلت، فهذي مو بس ايدين نجسة، هذي ايدين تجيب الأمراض والمصايب، فالله يستر والينا!

رد بدري ليخفف من حدة ناطق أفندي:

ـ بس والينا يتوضأ خمس مرات في اليوم يا معوّد، ويغسل مرتين كل يوم، فلا تخاف، لا تدير بال.

«إن زي الرجل، كما يقول ناطق أفندي لنفسه، لا يقل أهمية عن الكلام الذي يتفوه به، وإذا قيل إن لكل مقام مقال، وإن كلام الإنسان يدل على عقله، وهذا ما يجعله حاضراً ومرغوباً، أو لا يُلتفت إليه أبداً، فلا يُسمع كلامه، ولا يؤخذ برأيه، فكذلك الأمر بالنسبة للثياب، بل إن الثياب، في أحيان كثيرة، تدل على حصافة الرجل ومدى ما يتمتع به من ذوق وكياسة، وإن الحكمة التي تقول: كُلْ ما تريد والبس ما يريده الناس،

لم تأت من فراغ أو من عبث، فالملابس غير المناسبة سواء تم ارتداؤها بطريقة غير صحيحة أو لوقت غير مناسب، تجرح العيون، وتخلف ألماً في النفس. كما أن الناس يُعرفون ويُميزون من خلال الملابس التي يرتدونها، ولولا ذلك لتساوى الفقير بالغني، الحاكم بالمحكوم، وهذا لا يجوز أبداً، وهذا ما أدركه السلاطين قبل غيرهم، فجعلوا المراتب والكساوي والأوشحة والنياشين، وأوكلوا هذه الشؤون إلى أناس يفهمونها ويقدرونها، ولولا ذلك لضاعت الأمور، واختلطت المراكز، وعمت الفوضى».

هذه الفلسفة تجعل ناطق أفندي إنساناً متطلباً شديد الحرص، لا يقبل التساهل حتى في أصغر الأمور، وهذا ما يجعله، بنظر نفسه على الأقل، شخصاً بالغ الأهمية، لأن الخبرة التي اكتسبها عبر السنين أكدت له أن كل شيء في هذه الحياة، وكل إنسان، كيف يبدو وكيف نراه، لأن العين نافذة القلب، والقلب وما أحب، والقلب وما كره. حتى الحروب التي تقع، وقد تؤدي إلى آلاف القتلى، ترتبط إلى حد كبير بالحب والكراهية، والحب والكراهية، بالدرجة الأولى: ما تراه العين.

ويسرف ناطق أفندي، نظراً لانشغاله بهذا الموضوع، في التأمل والتفكير، بحيث أوصله تأمله، وقاده تفكيره للحلم بإعداد كتاب، وقد استرسل في هذا الحلم إلى درجة أن وضع عنواناً للكتاب: «أقوم المسالك في الزي والتصرف وما إلى ذلك» وفكر أيضاً أن يفرد فصولاً طويلة حول ملابس القواد والأنفار، الحكام والعامة. لكن ما يحزن ناطق أفندي كثرة المشاغل اليومية، وأيضاً افتقار الناس إلى الذوق وحسن التصرف، ثم ذلك الميل إلى أن يميز الإنسان نفسه عن كل الذين حوله، حتى لو بدا غريباً!

ونظراً للدقة المفرطة التي تحكم علاقاته بالآخرين، بمن فيهم الوالي، فلم يجرؤ أن يعلن عن أفكاره ومشاريعه، رغم اليقين المسيطر عليه أن مشروع الكتاب لو عرض على الوالي لا بد أن يلاقي قبولاً حسنا، وربما حماساً، من أجل أن يبادر إلى تنفيذه. لكن ناطق أفندي لا يسمح لنفسه بأن

يتخطى المراتب، ويعرض المشروع مباشرة، وهذا ما جعله يقوّي علاقاته ببدري صالح العلو، فهو الشخص الملائم كي يبحث الأمر مع الباشا في ساعة من ساعات الصفاء، ولا بد أن يصل معه إلى نتيجة مرضية! وعندها يتفرغ هو، وربما مع بعض المساعدين، لهذه المهمة، وخلال بضع سنين سيكون بين أيدي الناس كتاب يعلمهم كيف يلبسون وكيف يتصرفون!

أما خطبة الوالي، وكانت مرتجلة، أملتها المناسبة، فإنها بقدر ما جرحت رجال القبائل، أثارت مخاوف عدد من رجال الدين المسلمين، إذ شعر هؤلاء أن بعض الكلمات التي استعملها الوالي، خاصة حين وصف نفسه بالبشير والنذير، وحين قال: اللهم إني بلغت، فيها من التجاوز والتعدي ما لا يجوز السكوت عليه، فمثل هذه الصفات خاصة بالرسول وحده، ولا يليق ببشر غيره استعمالها، لكن حين فكروا بالأمر وحين تشاوروا فيما بينهم، كانوا اقرب الى الاقتناع ان اللحظة املت مثل تلك الكلمات، وأن البدو يحتاجون إلى لغة فيها من الوعيد والتهديد ما يجعلهم يكفون عن الغزو، وينصاعون لأوامر الدولة. ثم تذكَّروا، وذكّروا بعضهم، أن إيمان الوالي راسخ، وتفانيه في خدمة الدين الحنيف مضرب المثل، وتذكروا أيضاً العطايا التي قدّمت لأرباب الشعائر الدينية، ووُعدوا بأكثر، كما تذكروا كرم الباشا في ترميم الجوامع والزوايا والتكايا.

وإذا كانت هذه الأمور، كلها أو بعضها، قد لاقت فهماً وتفسيراً، أو قُبلت على مضض، فإن الشيء الذي ولّد دوياً في السراي لم ينقطع، وتسبّب بحالة من التوتر سيطرت على كل شيء وعلى كل إنسان، فهو موقف نادر الشيخة.

كان آخر من ينام في السراي، وأول من يستيقظ. قال الكثيرون، واقسموا أغلظ الأيمان على صدق ما يقولون، إنه لم يكن ينام. ربما غفا للحظات بين نوبة هياج وأخرى، أما النوم الذي يعرفه البشر، فلم يعرف طريقاً إليه. كان، لئلا يشعر بتأنيب الضمير، أو يكتشف نفسه نائماً، يقضي وقتاً مع الحرس الليلي للسراي. كان يحدّث الحرس عن الجنون الذي

سيطر على سيد عليوي، وكيف أن هذا المجنون لا يعرف إلا كلمة واحدة: هات. وإنه مع مطلع كل شمس يطلب من الأرزاق والأموال ما يكفي الناس أجمعين ولمدة شهور أو سنين! وإذا كان قد عرف أو سمع كيف يتصرف المجانين، فإن أكثر ما يؤلمه أن الباشا يستجيب، يوافق على كل ما يطلب، وكل ما يريد، وكأن الباشا انضبع، أو يخاف هذا المجنون. إذ بدل أن يحجر عليه، بدل أن يصرخ في وجهه ويقول له لا، فإن الختم الأخضر والتوقيع لا يتوقفان في الليل والنهار، ومع الختم والتوقيع: خلف.

هكذا كان يحدّث الحرس لكي لا ينام. وحين يصفن الحرس أو ينشغلون عنه، بجولة مكلفين بها، أو بملء الغلايين، أو حين يتبادلون أخبارهم الخاصة، كان يهرب إلى غرفته. وبدل أن ينام يفتح القاصة ويبدأ بعدّ ما تبقى من أموال، وهذه العملية بدل أن تدخل الطمأنينة على نفسه، بدل أن تشعره بالثقة، فإنها تزيد توتره، وتجعله إنساناً يصعب التفاهم معه.

كان الباشا في الأيام الأولى للحرب، حين يستيقظ فجراً، لأداء الصلاة، ولكي يتأكد من الحراسات، يلتقي بنادر أفندي. كان يسمع منه ويصغي إليه، رغم الهياج الذي يميز تصرفاته، وبعض الأحيان كلماته. كان كل ما يقوله شكوى مريرة من هذا المجنون، سيد عليوي، الذي يريد كل شيء، ولا يعرف إلى أي وقت سوف يستمر في تلبية هذه الطلبات. والباشا الذي يسمع ويهز رأسه، لم يكن يرغب بمناقشة نادر، مع أنه يقدّر حرصه وغيرته، لكن ما ان تكررت الشكوى، وبنفس الكلمات، وبعض الأحيان بهياج يزيد عن الحد، حتى جاءه بدري الحاج صالح العلو، قال بطريقة أقرب إلى التهديد:

ـ شغلتك، أفندي، تعدّ الفلوس، موشغلتك تقول ليش ولمن، مو شغلتك تقول يصير وما يصير، أو هذا كثير وهذا قليل، افتهمت لو أفهّمك بطريقة ثانية؟

ـ يعني تهددني؟

ـ افهم كلامي شلون ما تريد. . .

وتغيرت اللهجة، أصبحت غاضبة:

ـ موبس هالشكل، حدك هذا المجاز، وحديقة الورد أبد ما تطبّها، أسمعت؟

كان نادر أفندي ينظر إليه غير مصدق. كان يرتجف من الغيظ والغضب معاً، إذ لم يتعود أن يسمع لغة مثل هذه، لكن يبدو أن الباشا طلب منه أن يبلغه ذلك، لأن بدري، أغلب الأحيان، يعرف كيف يسمع ولا يعرف كيف يتكلم، خاصة مثل هذا الكلام الذي يقوله الآن.

سأله نادر أفندي، وكان صوته مخنوقاً:

ـ هذا كلامك أم كلام الباشا؟

ـ هذا الكلام اللازم تسمعه وتفتهمه زين. . .

وبعد قليل، وقد اختلفت النبرة قليلاً:

ـ والباشا براسه ألف شغلة، وهذي البسته سمعها منك ألف مرة، فما ينراد من الفجر، وبدل: يا رزاق يا كريم: عليوي أخذ، عليوي يريد. خلّ الباشا بهمه وشغله، يرحم والديك!

جلس نادر أفندي على الأرض، أو بالأحرى انزلق كما ينزلق كيس حنطة فقد توازنه، وما كاد يتكوم هكذا حتى أخذ ينشج. كان الصوت متقطعاً أول الأمر ثم أصبح نحيباً. وبدري الحاج صالح الذي لم يتصور ذلك ولم يرده، شعر أنه قسا عليه، وأن الأمر لا يتطلب مثل هذه القسوة. ترك بعض الوقت يمر، هدأ خلاله نادر أفندي قليلاً، قال بدري في محاولة لإصلاح الموقف:

ـ أنت تعبان يا أبو يقظان. قوم، اغسل وجهك واخزِ الشيطان. . .

وبعد قليل، وبود:

ـ لازم تستريح شوي يا أبو يقظان.

ـ قول للباشا: نادر، أبو يقظان، مات واشتعلت صفاحه، وانلعن والد والديه، وكل شيء خلص، خله يدور على واحد غيري!

كانت الكلمات تخرج من فمٍ يصطك ويختنق بالدموع. كانت الكلمات

تخرج متقطعة يائسة.

بصعوبة، وبمساعدة اثنين من موظفي السراي، أمكن إقناعه ثم حمله إلى غرفته. وضع في السرير بعد أن رفض تغيير ثيابه. كان يرتجف مثل قصبة، وربما ارتفعت حرارته، لأن جسده كله كان ينتفض، كان يتقلص ويتمدد لا إرادياً. أما عندما غفا، أو بدا أنه يغفو، فقد خرج بدري من غرفته وهو يشعر أنه ارتكب بحق هذا الإنسان ذنباً لم يقصده، لكن الخطأ ولد وكبر في لحظة، خاصة بعد أن قال له الباشا:

ـ خلصنا من إبن هالأوادم، نادر حريمة، قل له يفك عنا ياقة، وما أريد أشوفه كل مصباح، وقبل ما يصيح الديك: عليوي أخذ وأخذ. خلنا نتصبح بغيره، وإذا عنده سالفة، خلف موجود، وكل شيء عن طريقه!

حاول بدري أن ينقل إلى الباشا رد فعل نادر، وكيف انهار وسقط في موجة من البكاء والحمى، وأنه طلب إعفاءه من مهمته والبحث عن بديل آخر.

ابتسم الباشا بحزن، وكان يهز رأسه، وبعد أن مرت فترة صمت، قال، كأنه يخاطب نفسه:

ـ دواه عند عزرا، هو اللي يقدر يتفاهم وياه!

ولم يستطع عزرا أن يشفيه، لكنه ضمد بعض جراحه. قال له إنه يفهم حرصه وتشدده، ويفهم امتناعه، بعض الأحيان، عن تلبية كل الطلبات أو تأخيرها، لكن للحرب متطلباتها وأعباءها، ولا بد من الوفاء بها، وأن الخسائر التي نضطر لها الآن ستتحول إلى أرباح كبيرة في المستقبل، إذ سيدفع البدو الضرائب والمستحقات، وسوف تصل البضائع بكميات كبيرة، وهذا يحرك السوق ويشجع الناس على الشراء، فإذا حصلت مثل هذه الحركة تتحول إلى فلوس، وقسم كبير من هذه الفلوس من حق الولاية، ولا بد أن تصل إلى يديه، وعند ذاك تمتلىء الصناديق من جديد!

كان نادر أفندي يستمع لعزرا بكل حواسه. كان يفتح عينيه على إتساعهما، وكان البؤبؤان يتحركان بسرعة كبيرة. فما يقوله هذا اليهودي

مفهوم، جميل، يدخل إلى القلب مباشرة، ولا يخلو من إقناع، لكنه، مع ذلك، غير واضح بما يكفي. كما لا يعرف متى يصبح نقوداً وتصل إلى يديه. هل يستطيع الانتظار حتى ذلك الوقت؟ وماذا لو نفد ما لديه من نقود قبل أن تصل النقود التي يتحدث عنها عزرا؟ هل من يقدّم قرضاً؟ والموظفون والإسطبل ونساء الوالي، هل يقبل أحد الانتظار، أو يقول: الله يسامحكم، ولا أريد شيئاً؟

اعتدل نادر أفندي في فراشه. استقر البؤبؤان وهو ينظر إلى عزرا، وبعد فترة صمت طويلة خرج صوته، وكان الصوت مرتجفاً:

ـ أريد أصدقك، عزرا أفندي، لكن. . .

لم يكن يريد أن يعلن موافقته كاملة أو دفعة واحدة، إذ لا يزال يشعر بالخوف والإهانة. وإذا كان مستعداً لنسيان الإهانة، خاصة بعد أن أشار عزرا عرضاً لأسف الباشا لما حصل، فإنه لا يمكن أن يتخلى عن الخوف، هذا الخوف الذي جعله لا ينام، ويعاف الأكل، ولا يطيق أن يكون مع الآخرين.

قال عزرا، في محاولة لكسر تمنعه:

ـ أبدالك، أفندي، قول، تكلم.

ـ أوافق، عزرا أفندي. أقول عفا الله عما مضى، لكن بشرط. .

ـ شنو شرطك، أفندي؟

ـ هذول اللي يطلبون الفلوس صبح وعشية كفار، ماكو رحمة بقلوبهم، فأريد كفيل.

ـ شنو يعني كفيل آغاتي؟

ـ أريد واحد يشهد، واحد مثلك بقلبه انصاف، ويعرف الله، يقول: هذا عدل. هذا ضروري. وهذا ما منه چاره. . .

وتغير صوته، أصبح غاضباً:

ـ أما إذا صارت الدنيا قوترة، وبس هات، فلو كان عندي مال قارون. . يخلص!

وتم الاتفاق بين الطرفين على أن يتولى عزرا تنبيه الباشا إلى أن طلبات عليوي زادت عن الحد، وأن الخزينة تتناقص يوماً بعد آخر، ويجب ألا يستغرب إذا جاء يوم، وقد لا يكون بعيداً، وفرغت الخزينة تماماً!

أما عن الوليمة التي اقترحها عزرا، كي تتم المصالحة بين نادر وبدري فقد رفضها نادر أفندي بطريقة لا تقبل المناقشة أو إعادة النظر. قال لعزرا بما يشبه اللوم:

ـ تتصورني، أفندي، أقدر أعلس لقمة ويّا هذا الجاحد النعمة؟

ـ كل واحد، آغا، يسوقه مرضعه، فأريد منك، إبدالك، تنسى وتسامح!

ـ اللي ما يقيس قبل ما يغوص ما ينفعه القياس بعد ما يغرق، يا أفندي. . .

وبعد قليل وبحسرة:

ـ عتبي مو على هذا اللي ما يفتهم، عتبي على والينا، هو اللي يشوف الفلوس تحترق، تطير، وما يقول: آخ!

بعد أسبوع من الاحتفال بدأت تصل الغنائم. آلاف من رؤوس الغنم، وعدد أقل من الإبل، أما الخيول التي وصلت، فقد اختير منها ثلاثون ضُمّت إلى أسطبل السراي، وعرض الباقي، وكان بضع مئات، للبيع.

قبل يوم من وصول الغنائم كان اللقاء الأول بين الباشا ونادر أفندي. كان الباشا في الشرفة الجنوبية، وقد فرغ لتوه من لقاء سيد عليوي ومسؤول فوج التجهيز والإمدادات، وقد أبلغاه أن طلائع الغنائم بدأت بالوصول، ولا بد من تهيئة الأماكن لاستقبالها، واختيار الرجال لاستلامها والعناية بها. وكان الباشا متأكداً أن اللحظة المناسبة لاسترضاء نادر أفندي قد حانت. لم يبعث بدري لاستدعائه، ولم يبعث فيروز. بعث إليه ناطق أفندي.

ـ الله ربك، نادر افندي. الباشا طالبك، يريد يشوفك!

رد نادر بارتباك:

ـ آني؟ يريد يشوفني؟

ـ أي نعم، وقال لي: بالعجل...

وبعد قليل، وهو لا يقوى على إخفاء فرحته:

ـ بوجه منوّر وسنّ يضحك!

ودّ نادر أفندي لو يرفض، أن يقول: لا. يكفي أن يبقى خَلَفْ الرسول بينهما، ليس لديه ما يقوله له. لكن حركة ناطق أفندي، وهو يخطو في الغرفة خطوات قصيرة، لم تترك له الفرصة. سأله نادر أفندي، وهو يعرف الجواب سلفاً:

ـ ما يمكن تتأجل للصبح؟

ـ يبزي يا معود. خف رجلك، الباشا ينتظرنا!

نهض. قفل الباب الأول، قفل الباب الثاني. تأكد من الشباك، إذ دفعه بيده ليتأكد أنه مغلق، وحالما استدار ليتبع ناطق أفندي، قال، وحاول أن يضفي على صوته القوة:

ـ على بركة الله. اللهم اجعله خيراً.

قال الذين راقبوا اللقاء إن الباشا استقبله كما يستقبل كبار الضيوف وأعزهم. وقد طال اللقاء، وتخلله الابتسام. والذي وصل إلى حد الضحك بصوت مسموع أكثر من مرة! ويبدو أن الاثنين تذكرا أموراً عديدة وتحدثا عن أمور عديدة. أما حين انتهى اللقاء فقد كانت حركة نادر أفندي سريعة ولا تخلو من اضطراب. أما حين طلب عدداً من مساعديه، وأغلبهم يسكنون في أماكن ليست قريبة، فقد انشغل خلال الانتظار بإعداد قوائم وكتابة بعض الملاحظات.

قال حراس وبعض رجال السراي ان نادر أفندي ومساعديه لم يناموا لحظة واحدة تلك الليلة، وانهم غادروا السراي عند الفجر. انطلقوا بسرعة، وقد رافق هذا الانطلاق الكثير من الهرج ووصايا اللحظات الأخيرة، وقد فهم منها أنهم ذاهبون لاستلام الغنائم.

الذين كانوا في ساحة أم السباع، أو قريبين منها، قالوا إن الخيول التي

وصلت إلى تلك الساحة في أواخر ذلك الليل، كانت آلافاً مؤلفة. وقالوا إن وقع حوافرها كان يُسمع من مسافات بعيدة، إذ كانت تدوي في الليل سواء انتظمت خطواتها أو لم تنتظم. أما الصهيل، الذي ظل يتردد بين فترة وأخرى، فكان حزيناً مليئاً بالحسرة، وقد أكد ذلك عدد من الذين لهم دراية بالخيل، ويعرفون طباعها، خاصة حين يركبها غير فرسانها، أو حين تساق دون فرسان عليها.

لكن أعجب شيء، وأغرب هيئة في ساحة أم السباع: نادر أفندي. كان يتراكض من مكان إلى آخر، ولا يعرف هل يكفي أن تُعدّ الخيول، أم أن توضع عليها علامات، أم يجب عليه أن يفعل أشياء أخرى. كان يتحرك بسرعة، وينادي، ويصرخ في آن واحد. أما الأوراق البيضاء التي ملأت يده، إضافة إلى الدفتر الكبير الذي كان يحمله هادي السودا، ويركض وراءه، فما كان يعرف ماذا يجب أن يسجل على تلك الأوراق أو في ذلك الدفتر!

حين عاد نادر أفندي إلى السراي بعد ثلاثة أيام، كان مهدوداً، متعباً، وقبل أن يذهب إلى غرفته مرّ على الاسطبل، وتأكد أن الخيول كلها وصلت، وخُصص لها من يعتني بها. وقيل إنه نام نوماً عميقاً تلك الليلة، وقد سمع الحرس حين مروا بالقرب من غرفته شخيره. وعلى غير عادته ظل نائماً إلى أن ارتفعت الشمس مقدار رمحين أو ثلاثة في صباح اليوم التالي.

38

. . . وأقيم احتفال ثانٍ في القلعة، كان هذا الاحتفال مختلفاً عن ذاك الذي أقامه الوالي. فقد جرى ليلاً، وضم العسكريين وأصدقاءهم، ودُعي إليه عدد محدود من المسؤولين، إضافة إلى جوقة من الموسيقيين والراقصات، وغنى فيه وأجاد: ثامر المجول!

كان أغلب العسكريين بملابس عادية بسيطة، خلافاً ليوم الاحتفال الكبير، وإن حرص بعضهم على وضع الأوسمة وتقلّد السلاح. أما باقي الحضور فقد تميزوا بالأناقة المفرطة، والعناية باختيار الألوان والأزياء التي تساعد، دونما خطأ كبير، في تحديد مواقعهم الاجتماعية وأهميتهم في سلك الوظيفة. أما النسوة اللواتي رافقن أزواجهن فكن قليلات نسبياً، بالمقارنة مع عدد الرجال، وقد خصص لهن بهو واسع، وهذا البهو بمقدار ما يعتبر مفصولاً عن القاعة الكبيرة، التي جرى فيها الاحتفال، فإنه مرتبط بها أفقياً، حيث لا يحجزه إلا قاطع خشبي مشبك من أحد الجوانب.

سيد عليوي كان نجم الاحتفال، خاصة في البداية. إذ استقبل الجميع بود ظاهر، وببشاشة لفتت نظر الكثيرين، مقارنة بما كان عليه يوم الاحتفال الذي أقامه الباشا. ومما زاد في لفت النظر إليه: البساطة في الملابس التي ارتداها، ثم الحيوية في الحركة والحديث. فقد وقف مع الكثيرين، وتبادل معهم الأحاديث. كما ابتعد تماماً عن جو الحرب، إذ لم يتطرق أبداً إلى المعركة الأخيرة، كأنها لم تقع أو لم يكن قائدها! أكثر من ذلك، حين سئل عن بعض الأمور التي لها علاقة، استطاع بنكتة أن يغلق الموضوع!

وإذا كان الاحتفال قد بدأ وقوفاً، وعلى شكل حلقات صغيرة، في القاعة والشرفات المحيطة، وتجاوز بعض المدعوين الشرفات إلى الحديقة، إلا أن الأمر لم يدم سوى فترات قصيرة، نظراً لبرودة الجو، ثم تلك الرغبة أن يكون الإنسان مع الآخرين، وأن يغرق في هذا الدوي الذي يخلق الدفء، ويجعل التواصل مع باقي الضيوف سهلاً ولا يخلو من متعة، وربما بعض الفوائد الآن أو في المستقبل!

النسوة الحاضرات كن أكثر قدرة على خلق جو أليف فيما بينهن، فأي لقاء سابق بين واحدة وأخرى لا يعني مجرد المعرفة، كما هو الحال بين الرجال، وإنما صداقة وثيقة، وتخطٍ سريع للمواضعات، وإن احتفظت بمقدار غير قليل من المجاملة. أما إذا كان اللقاء يتم لأول مرة فسرعان ما يتحول إلى رغبة بالاكتشاف، باختصار الأزمنة، وعدم انتظار الوقت المناسب كي يُسأل عن كل أمر من الأمور. فما تكاد بضع دقائق تمر حتى تتكامل الصورة التي تعرفها الواحدة عن الأخرى، لتبدأ بعدها عملية اكتشاف من نوع آخر: أي الرجال هو زوج التي تتحدث؟ وإلى أي حد يتطابق حديثها مع ذوقها باللباس الذي ترتديه، والعطر الذي تستعمله؟ وهل لباسها أو الحلي التي تتقلدها تحكي حقيقتها وتجسدها أم هناك فرق قد يخفي أموراً لا بد من اكتشافها؟

حتى إذا انتهت أية مدعوة من جارتها التفت إلى الجارة الأخرى، إلى المدعوات الأخريات. وقبل أن تمر ساعة تكون كل واحدة قد استكملت معظم ما تريد من معلومات ومن تقييم، وانتهت أيضاً إلى أن تكون مميزة بين الأخريات، ضمن المجموعة، وعلى انفراد أيضاً!

ووسط هذا الدوي الذي لا يصل إلى حدود الصخب، والذي تتداخل تخومه وتتشابك، وفي جو الدخان والعطور الذي ملأ أنحاء القاعة الكبرى، سُمع تصفيق. التفتت العيون، وإذ حامد، مرافق سيد عليوي، ينبه إلى أن لدى رئيسه ما يقوله أو ما يفعله. ساد الصمت، وتحركت الأجساد قليلاً كي يبدو الآغا في الصدر، وكي يراه الجميع.

ابتسم الآغا ابتسامة عريضة، وهو ينظر إلى الوجوه بمودة. ورغم أنه تعوّد على إصدار الأوامر، ومخاطبة الجموع، إلا أنه بدا، للحظات، محرجاً، إذ لا يعرف ماذا يقول، وكيف يخاطب الذين ينظرون إليه بتركيز. بعد أن امتد الصمت قليلاً، قال وخرج صوته مرتجّاً.

ـ نحن العسكريين مو مثل غيرنا، نحن ما نعرف شلون نصفط الكلام، نحن نعرف. . .

وتوقف لحظة. كانت تلك اللحظة طويلة مشحونة، اذ أدار عينيه في الوجوه وأضاف:

ـ نحن العسكريين نعرف كيف نحارب. . كيف. . .

وصمت. لكن فجأة وسط الصمت المشحون خرجت من جديد كلماته:

ـ نحن نعرف أن نقول لكم: أهلاً وسهلاً بمقدمكم وسعداء لحضوركم، والآن تفضلوا استريحوا ليبدأ الحفل!

وضجت القاعة بتصفيق عالٍ، مبالغ فيه، لأن ما قاله الآغا، بعد أن هيأ الجو، جرى خلافاً لما توقعه الجميع. وقد لاقت هذه الكلمات، بالإضافة إلى التصفيق، نوعاً من الاستحسان والتقدير، حتى بدا الآغا بنظر الكثيرين أنه يعرف عدا القتل، كيف يكون مرحاً، ودوداً، الأمر الذي لم يكن متوقعاً أو معروفاً عنه من قبل!

خلال حفل الاستقبال كانت الموائد، في القاعة الكبرى وفي البهو، قد هيئت بعناية، إذ رافق العسكريون ضيوفهم إلى تلك الموائد بعناية كبيرة، وبمعرفة سابقة دقيقة ومتفق عليها، حتى أدق التفاصيل.

وكان العسكريون أيضاً شديدي الكرم مع ضيوفهم، وكانوا شديدي الكياسة في الكلام والتصرف. بل إن عدداً من المدنيين، خاصة من الوجهاء، لاموا أنفسهم لأنهم كانوا سيئي الظن بهؤلاء العسكر الذين لا يفهمون إلا شيئاً واحداً: القسوة. القسوة في الحرب، في القتل، في التعامل مع الآخرين! الآن يكتشفون أن هؤلاء العسكريين لا يختلفون عن

غيرهم، وفي أحيان كثيرة يتجاوزون المدنيين ويتفوقون عليهم!

أما عندما بدأت الفرقة الموسيقية، وقد خصص لها مكان في الوسط، ناحية الشرق، فقد تولد جو من الألفة مازجه المرح، لأن الموقع الذي كانت فيه الفرقة يتيح أن ينظر طرفا القاعة إلى بعضهما بيسر ودون حرج، خاصة وأن الموائد صُفَت بطريقة مكّنت الجميع أن يتابعوا الفرقة الموسيقية بلا مشقة.

أما بعد أن دارت الكؤوس، خاصة على موائد الرجال، فقد تغير الجو بسرعة. أصبحت أية نغمة تثير الكوامن، وأي صوت يثير الشجن.

حتى الرجال المتحفظون، الذين يفضلون أن يشربوا سراً، وقد بدا على بعضهم التردد أول الأمر، لم ينتظروا طويلاً، بعد أن اتجهت العيون نحو الفرقة الموسيقية، ثم تجاوزتها إلى أبعد من ذلك! والضباط الذين أبدوا أريحية كبيرة، وهم يسألون، وهم يعزمون، وفي محاولة لإزالة الحرج، قالوا: اعتبروا أنفسكم في بيوتكم وتصرفوا. وانصرف هؤلاء الضباط إلى متابعة الموسيقى، إلى ممازحة بعض الزملاء على طاولات أخرى، مما ساعد وسرّع في خلق جو أليف وممتع.

ولأنه رافق بعض الموائد جو أكثر جدية من موائد أخرى، اذ استمر الرجال يتبادلون الأحاديث الرصينة، ويتقصون بجدية عدداً من الأمور، فإن الضباط الأقل رتبة، وكانوا يجلسون إلى موائد بعيدة نسبياً، ما لبثوا أن سيطروا، من خلال المرح والمشاركة، على الآخرين. فانتقل المرح، تدريجياً، من مائدة إلى أخرى، ولم تمض ساعة حتى أصبحت القاعة الكبرى جسداً واحداً ومناخاً واحداً.

أما حين تقدمت كوكبة من الراقصات، بمصاحبة موسيقى تلائم الرقص وتحرض عليه، فقد اشتعلت القاعة الكبرى كلها. لم تبق مائدة، ولم يبق شخص، إلا وعبَّر عن انفعال حقيقي ومشاركة فعلية، ولعل أقل المشاركات كانت الآهات، ثم التصفيق الصاخب حين تبدأ الراقصات بأداء رقصة جديدة، وحين ينتهين من أخرى!

لقد اختارت روجينا، دون أن تظهر، الراقصات بعناية كبيرة. كانت كل واحدة أجمل من الأخرى، وكل واحدة أمهر من التي سبقتها. حتى إن الكثيرين تساءلوا ما إن كانت هاته الراقصات من بغداد، أو على الأقل يقمن فيها، ولماذا وأين تختفي هذه الجواهر ولا أحد يعلم بها!

أكثر من ذلك، المائدة الرئيسية، مائدة عليوي وكبار ضيوفه، لم تستطع أن تحتفظ طويلاً بهذا المقدار المبالغ فيه من الجدية. إذ ما كادت نجمة، وهي الأخيرة بين الراقصات، تظهر، وكانت، بالإضافة إلى جمالها، تتمتع بقدرة باهرة، فقد كانت تنفعل، بل وتغيب، وهي تؤدي الحركات. كان جسدها يضيء وهو يتلوى. كان يصرخ ويعوي، ورغم المرونة التي تصل إلى حد الإعجاز وهي تحرك ذلك الجسد، بحيث يبدو أقرب إلى جسد الحية، فإن الجهد الذي كانت تبذله، وهي تحاول أن تحكم كل حركة، كل سكنة، جعل العرق ينز. كانت حبات العرق وهي تتدحرج من الجبين، من تحت الإبطين، من بين النهدين، تتحول إلى كرات من اللؤلؤ، إذ تلتمع، تبرق، تتناثر، الأمر الذي جعل طلعت باقة، وهو من ضباط سيد عليوي الأساسيين، وكان على مائدته، ينهض بانفعال ويمسح جبين نجمة بمنديله، ثم يقدم لها المنديل.

ما كادت تبدر منه هذه الحركة، بعد أن انتهت الراقصة من رقصتها الثانية، حتى جُنت القاعة. دوى التصفيق والتهبت الأيدي، وترافق ذلك مع ضحكات صاخبة تعلن، بشكل لا يخطيء، تأييدها. أما الكلمات التي صدرت من الموائد البعيدة، من صغار الضباط، فقد عبّرت عن أكثر من التأييد، كانت هتافاً مليئاً بالتقدير والثناء، ولا تخلو من الحسد أيضاً!

طلعت رجع إلى المائدة محرجاً، رغم أنه كان معروفاً بمرحه. لكنّ الابتسامات التي استقبل بها على المائدة الرئيسية، وكانت تحمل معنى الشكر، ثم التأييد الذي انهال من كل مكان، جعله يشعر أن خطأ من هذا النوع مغفور، لأنه قابل للفهم، ولم ينوِ غير ذلك أو أكثر من ذلك!

حتى النسوة اللواتي استقبلن الموسيقى بعواطف هادئة، أقرب إلى

الحياد، وكن موزعات بين سماع تلك الموسيقى ومراقبة الرجال، رغم المسافة التي تفصل بين الطرفين، وقد تهامسن أكثر من مرة لحركات بعض الرجال أو لكلامهم، فإن الرقص أثارهن، ليس كما أثار الرجال، وإنما بطريقة معاكسة، أو هكذا تظاهرن. فالتعليقات التي كانت تصدر عنهن كانت أكثر وضوحاً، وبعض الأحيان بصوت عالٍ. ولم تتردد أكثر من واحدة أن تبدي تقززها من الحركات الفاضحة. من الملابس التي تظهر أكثر مما تخفي! بل وصدرت ملاحظات بحق الرجال، فقد وُصفوا بالخفة، بعدم المعرفة، بهذا الانجذاب للحم أية امرأة، عدا الزوجة!

أما حين ظهرت نجمة، وكان موقف النسوة لا يزال هو ذاته تجاه الرقص، فإن الأمر بدأ بشكل وانتهى بشكل آخر. إذ بالإضافة إلى الاعتراف التدريجي بجسد تلك الراقصة، فقد امتدحن حركاتها الجميلة المتقنة، خاصة وهي تغمض عينيها، خلافاً للراقصات اللواتي سبقنها. كانت ترقص وهي لا ترى أحداً، وكأنها ترقص لنفسها، لحبيب تتخيله دون أن تراه. وكانت ترقص، في بعض اللحظات وكأنها تتعبد، أو تقدم طقساً مقدساً.

لم يُعلن كل ذلك بكلمات واضحة، لكن الصمت الذي خيم عليهن أول الأمر، ثم ذلك الانفعال الذي جعلهن يتحركن بطريقة مختلفة عن السابق، والمتابعة الدقيقة، بما فيها مد الرؤوس أو تحريك المقاعد، وأخيراً ذلك الهمس الذي يدل على الاعجاب والحسد معاً، جعل بعض النسوة الفتيات يتمنين لو أنهن يستطعن ذلك، لو يجربن ذلك، لأن ما كن يشهدنه يختلف عن كل الرقصات السابقة، عن كل الراقصات اللواتي مررن قبلها.

حتى حركة طلعت باقة، لم تحمل هذا المقدار من الاحتجاج أو الرفض. فنجمة التي فتحت عينيها، وكأنها تفيق من حلم، أو تعود من رحلة بعيدة، بدت مرتبكة، خائفة، وكأنها طفلة صغيرة. حتى منديل طلعت باقة الذي مسح الجبين كان مثل يد حنونة، مثل لحظة حب، وكان

في وقته تماماً!

نجمة التي لم تكن تعرف كيف تواجه التصفيق وكلمات الاستحسان، كانت بحاجة إلى سند أو مساعدة، نظرت إلى أكثر من مكان، وكأنها تتوقع النجدة من أحد ما، من مكان ما. أما حين توالى التصفيق، واشتد، طالباً أن تقدم وصلة جديدة، فقد اتجهت عيناها إلى الفرقة الموسيقية بتوسل، راجية أن ترحمها، وأن تساعدها أيضاً. وربما التقط قائد الفرقة، في تلك اللحظة، الخيط، إذ التفت إلى زملائه بسرعة، وكأنه يتواطأ معهم، كي يساهم الجميع في إنقاذ هذه الصغيرة.. فاختار نغماً سريعاً وقصيراً.

دارت نجمة دورة، ثم ثانية، أما في الدورة الثالثة فكانت تقترب من الباب الذي دخلت منه... وكالطيف غابت، كالحلم تلاشت، وغاب معها النغم وتلاشى!

واستغل سيد عليوي الضجة، وفُهم من حركاته أنه حان وقت تقديم الطعام، فانسحب الموسيقيون، وهجم الذين يقدمون الطعام، وتغير الجو تماماً. لكن نجمة، رغم غيابها، كانت أكثر الناس حضوراً وطغياناً، واستمر ذلك إلى أن انتهى الطعام، إلى أن رفعت عن الموائد كل البقايا. وجاء دور ثامر المجول.

وثامر المجول، ذلك الجنوبي الذي امتحن صوته، وهو يغني للماء، بين القصب، في الليالي المليئة بالنجوم، والذي أحب ابنة الشيخ، وغنّى لها من بعيد كل الأغاني، وحين تزوجت ورحلت، لم يحتمل فقرر أن يرحل إلى بغداد.

وإذا كان ممكناً تغطية بعض الصفات في المدينة الكبيرة، تحت ركام السرعة والكثافة، فإن الصوت يفضح نفسه ويصعب إخفاؤه. وثامر الذي كان يغني لنفسه على شاطىء دجلة، علّ المياه الجارية تحمل صوته وحنينه إلى تلك التي أصبحت طيفاً بعيداً، ما لبث أن تردد صدى ذلك الصوت في الأمكنة القريبة، وأخذ يتجمع حوله أولئك الذين يلذ لهم الحزن، ويسكنهم الحنين، وكان بين هؤلاء من يحسن الاستماع ويميز الأصوات. ولم تمض

مدة إلا وأصبح ثامر المجول الصوت المشتهى، والنغم الذي يذيب الحجر ويحرك أحزان الروح. ووجد من أبلغ سيد عليوي عنه، وحين سمع صوته لم يتركه يبتعد عن ناظريه يوماً واحداً!

قال الذين كانوا يسمعونه على الشاطىء، وأولئك الذين كانوا على زوارقهم داخل النهر، إن صوته حين يصرخ كان يشق الماء، يجعل النهر يروج ويموج. أما إذا ارتجف ذلك الصوت، فإن المخلوقات كلها تحبس أنفاسها، تتوقف البلابل عن التغريد، وترفع الخيول آذانها، ولا يقوى الساهرون على النوم بعد ذلك ولفترة طويلة. ويؤكد ثلاثة من الصيادين أن الأسماك كانت تتقافز فوق الماء، تطير، حين كان ثامر المجول يغني في إحدى الليالي!

كان الناس جميعاً يتحدثون عن ثامر: كيف ينفعل وهو يغني؛ كيف يهدر صوته كالرعد مع الموال؛ وكيف يترنح ذلك الصوت وهو يصيح الأوف. وكان الكثيرون يعتبرون أنفسهم من السعداء لأنه أتيحت لهم فرصة سماعه. وبلغ الإعجاب بعدد من محبي الطرب أن سموا أبناءهم باسمه!

ورغم الحزن والصعوبات التي اجتاحت بغداد مرة بعد أخرى، فقد كان ناس المدينة يجدون بعض العزاء أن ثامر لا يزال بينهم، وانه يغني حزنهم. ويعتبرون أن الحياة مهما ضاقت أو قست، فهناك من يستطيع أن يلتقط اللحظات المضيئة التي تجعل تلك الحياة أقل صعوبة، وتذكّر أن أياماً جميلة مرت ذات وقت، وأن أياماً مثلها قد تأتي.

حين اختطف سيد عليوي ثامر المجول، وأصبحت إقامته وراء أسوار القلعة، ولا يتردد صوته إلا في بساتين بعيدة، ولبعض الناس فقط، قال الكثيرون ان بغداد ضاقت ثم أظلمت. وقال بعض الذين كانوا يترددون على شاطىء النهر، لما اكتشفوا لأول مرة صوت ثامر المجول، انْ ليس لهم قلوب تحتمل رؤية الشاطىء مقفراً والصوت غائباً، وقالوا إن الدنيا اختلفت عن السابق!

الصيادون قرب الباب الشرقي، الذين أولموا عدة مرات لثامر، قالوا إن

صوته هو الذي كان يصيد، كان يدفع إلى شباكهم أعداداً كبيرة من السمك. يقولون ذلك وهم يقسمون، وللتأكيد أكثر، يقولون إن صيدهم حين يغيب صوت ثامر يقل أو ينقطع. أما بعد أن غاب بصورة كاملة، فلا يعرفون أية صعوبات سيتعرضون لها، وكيف ستكون أيامهم القادمة!

استعاد الكثيرون صوراً وذكريات وهم يرون أمامهم ثامر المجول. صحيح أنه تغير، أصبح أكثر سمنة، لكن في عينيه حزناً لم يكن فيهما من قبل أو بهذا المقدار. حتى الابتسامة التي ارتسمت على وجهه، وهو يحيي الضيوف، بدت شاحبة ولا تخلو من مرارة.

قال الذين سمعوا ثامر يغني تلك الليلة إنهم لم يسمعوا في حياتهم مثل ذاك الغناء، وقد لا تتاح لهم الفرصة لأن يسمعوا مثله مرة أخرى!

وإذا تميز موقف النسوة تجاه الموسيقى بالحياد، وتجاه الرقص بالغيرة والخوف والحسد، وإن تستر ذلك بإظهار القرف والاستهجان، فإن مواقفهن تجاه غناء ثامر المجول كان بالغ الانفعال والتجاوب، حتى أن أصوات مشاركتهن، في لحظات معينة، وصلت إلى أسماع الرجال وأطربتهم، ووصل الأمر أن تصفيقهن بلغ من الشدة إلى درجة أن أعاد ثامر عدة مقاطع، وكان يتوجه نحوهن ويطلب أن يسمع أصواتهن المشاركة.

أما الرجال فقد غادروا عقولهم تماماً. كانوا لا يكتفون بالتصفيق والمشاركة في الغناء. كان بعضهم يقف، يطلب من الآخرين أن يشاركوا، أن يعلنوا أقصى درجات الفرح، لأن ليلة مثل هذه نادرة، وقد لا تتكرر.

وثامر المجول، كما أكد اثنان من أصدقائه، يجود في حالتين: حين يغني لنفسه فقط؛ وحين يغني للمجموع. إذا غنى لنفسه يذوب وجداً، يتحول إلى خيط من النور، إلى غيمة من الحنين، وشيئاً فشيئاً يصبح الوجد نحيباً رقيقاً، وندباً موصولاً، وكأنه على وشك أن يغادر هذه الدنيا فور انتهائه من الغناء، من قول كلماته الأخيرة. أما إذا غنى للجموع فإنه يمتلىء بالشجن، يصبح عنيداً أقرب إلى الحدة، بل ويبدو متحدياً، وكأنه قادر على التقاط نجوم السماء، والوقوف في وجه العاصفة وفيضان النهر،

مؤكداً من خلال الكلمات وملامح الوجه، أنه سيواجه اعتى القوى، أقساها، وأنه سيصل إلى من يحب!

ويضيف الأصدقاء الذين يعرفونه: «وثامر إذا غنى لثلاثة أو لأربعة، ومثلما يريدون، يضيق صدره، ويغيب صوته، ويصبح مثل طير جريح».

كان الآغا، وهو ينصت إلى ذلك الصوت، لا يصدق أذنيه. كان مذهولاً، منفعلاً، إلى درجة أن أخرج مسدسه، وبعث به مع حامد هدية لثامر. ورفع كأسه تحية له أكثر من مرّة.

غنى ثامر، تلك الليلة، كمجنون، مثل أسير أفلت من سجنه. بكى وأبكى أكثر الذين في القاعة. وسُمع شهيق عدة نسوة. أما الزفرات التي صعدت من أعماق القلوب، فكانت تتزاحم إلى درجة تصدّع الصدور، وتفجر الدموع.

وحين غادر شواطىء الحزن إلى حقول الفرح، اكتشف الجميع سعة الحياة وجمالها، وكيف وكم يخطىء الإنسان حين يبدّد هذه الحياة، ويفرّط باللحظات البراقة التي يمكن انتزاعها من خلال الحب والوصال.

وكي تصبح هذه الليلة مختلفة عن أية ليلة غيرها، ورغم الجهد الذي بذله ثامر، فقد وجد نفسه يواصل الغناء، ليس فقط بدافع الحماس الذي أبداه الجمهور، بل وبدافع قوة داخلية جعلته يغني عدة أغنيات جديدة، ولا يُعرف إن كان أعدها خصيصاً لهذه الليلة، أو تذكرها بعد أن كانت غافية في أعماق الذاكرة. وأكد أحد أصدقائه أن اثنتين من الأغاني الجديدة التي ارتجلها كانت وليدة التو واللحظة، لأنه لم يعد يتذكر الكلمات، رغم الجهد الذي بذله من أجل استرجاعها!

وامتد السهر تلك الليلة وطال. وبالغ بعض المدعوين، فأشار إلى أن عدداً من سائقي عربات الضيوف وُجدوا يصلّون الصبح جماعة حين خرج أصحاب العربات! وكان سائقون آخرون نياماً، مما اضطر بعض الضيوف للانتظار، أو ركبوا [illegible]، وطلبوا أن توافيهم عرباتهم إلى بيوتهم.

39

أخبار الحفلة التي أقامها الآغا غادرت جدران القلعة في ذات الليلة، وتكاثرت في الليالي اللاحقة. أما التفاصيل فقد انتشرت في طول بغداد وعرضها، وكانت، وهي تنتقل من مكان إلى آخر، تزيد وتتغير، كما أصبح الناس لا يملون من الحديث عنها في النهار والليل.

كان الحديث يختلف من واحد لآخر، لاعتبارات وأسباب لا حصر لها. فحديث النساء يختلف عن الذي ينقله الرجال. ويختلف حديث رجال السراي عن ذاك الذي يجري في المقاهي والأسواق. ويختلف أيضاً عن حديث مبغضي الآغا، أو حديث الذين يقدرونه.

رجال الدين حين وصلتهم التفاصيل: الشراب الذي أريق؛ عري النساء؛ الرقص والغناء؛ ثم كيف أطفئت الأنوار وعم الظلام واختلط الرجال بالنساء. . . عندما سمع رجال الدين هذا الكلام فتحوا أعينهم على اتساعها، وسألوا مرة أخرى، ومرة ثالثة، ودققوا بأصغر التفاصيل وأكثرها خفاء. كانوا يسألون وهم يبلعون اللعاب الذي تزايد في حلوقهم، وبعد أن ألمّوا بكل ما أرادوا معرفته، صاحوا: «الله أكبر. . الله أكبر. . يا غيرة الدين ويا عار الجبين. إنه الكفر الصراح والفجور الذي لا يباح. لقد ظهرت الإشارة وقرب قيام الساعة. كل امرأة من اللواتي حضرن ليلة الفجور، وجاءها غلام بعد تسعة شهور، فهو ابن سفاح، وواحد من هؤلاء الأطفال سيكون الأعور الدجال.»

أكثر من ذلك، اجتمع رجال الدين وقرروا مراجعة الباشا، ومطالبته أن

يوقع حد الزنا بالذين حضروا، مهما علت وظائفهم أو ارتفعت منزلتهم، وقدموا من الحجج والبراهين ما يوجب ذلك. لكن واحداً منهم سأل: هل تقبل شهادة من حضر؟ ألا يعتبر كل الحاضرين فسقة وفاجرين؟

ولم يحسم رجال الدين والفقهاء الأمر، ظل بينهم خلاف. قال بعضهم: يجوز التوسع والاجتهاد في جميع أمور الدين، عدا الزنا. وقال الآخرون: الزنا قمة المعصية، ولا يمكن السكوت عنه. وتوالت اجتماعات رجال الدين، وظلوا يقلّبون الأمر على كل الوجوه، وظلوا يتناقشون ويختلفون!

أما رجال السراي، وحتى النساء، فقد تعددت وتباينت مواقفهم، لأن الموضوع كان يناقش همساً وبتكتم شديد، مما جعل الجميع يقدّرون ولا يجزمون!

إذ بعد أن تعمد سيد عليوي توجيه الدعوة لعدد من رجال السراي، نقل هؤلاء ما شهدوا، وما سمعوا، فتكونت في السراي وجهات نظر بعدد الحاضرين. لكن ما كادت التفاصيل تأتي من مصادر أخرى، ويضاف إليها كل يوم شيء جديد، حتى اختلطت الروايات وتعددت إلى درجة لم يعد أحد يعرف حقيقة ما حصل!

بدري، المرافق، نقل للباشا كامل التفاصيل قبل أن ينقلها إلى أي إنسان آخر. «كانت الأشياء واضحة، بيّنة، ثم فجأة تداخلت واختلطت» هكذا اعترف بدري للباشا «ولا أعرف بعد ذلك، على وجه الدقة واليقين ما حصل» إذ بعد أن بدأت نجمة الرقص، وكان بدري إلى ذلك الوقت رافضاً المشاركة في الشراب، وجد نفسه يستجيب لأحد أصدقائه القدامى ويتناول منه الكأس حين مده إليه. «والإنسان يا باشا في لحظات معينة، يعجز عن المقاومة والاحتمال، فالكأس الأول، كما الخطوة الأولى، أصعب الكؤوس، وأعسر الخطوات. ولذلك أطلب الصفح والمغفرة على هذه الخطيئة التي لن أكررها مرة أخرى.»

الباشا كان يستمع باهتمام. يهز رأسه حين تُذكر أسماء المدعوين؛ حين

يشار كيف تصرف فلان من التجار أو الموظفين. لمن تحدث، ماذا قال، وهل عامله الآغا، أو أحد رجاله، معاملة خاصة، وما إذا كانت الخاتون معه أم لا؟

نقل بدري، حتى التفاصيل الصغيرة، وتحدث هذه المرة أكثر من مرات سابقة، في محاولة لنيل رضا الباشا وصفحه، وأسرف كثيراً في الحديث عن الآغا وطلعت. ولم يتردد في الحديث عن نجمة، وما تركت من أثر على الجميع، على الرجال والنساء، وكان يفسر أو يبرر ما حصل!

لم يقاطعه الباشا وهو ينقل له ما رأى وما سمع. ابتسم عدة مرات. هز رأسه عدة مرات. وقال له، في محاولة لأن يحرض ذاكرته:

ـ أكتب إليّ كل هذه المعلومات.. وحاول أن تتذكر أكثر!

ناطق أفندي الذي دُعي إلى الحفلة أيضاً، أصرّ على هاشم أفندي أن يبقى إلى جانبه، لأنه «أدرى بالناس وأعرف» كما قال له يغريه في محاولة لإقناعه، في الوقت الذي كان هاشم يريد أن يسمع أكثر مما يرى، لكن باعتباره من رجال السراي فقد قدّر أن الكثيرين سيتحفظون إذا رأوه قريباً ويسمعهم، أو أن يمد رقبته الطويلة ليتابعهم، لذلك وافق على البقاء إلى جانب ناطق أفندي، لكن شرّع أذنيه، وتنقل في عدة حلقات قبل أن تبدأ الحفلة عله يسمع أخباراً أو أشياء جديدة.

ناطق أفندي، في هذه الحفلة، كان مجرد عينين تراقبان وتدققان. وقد أكدّ في التقرير الذي رفعه إلى ديوان الباشا، وكتب عليه: «مخصوص. رفيع السرية، لأنظار فخامة الوالي»، كتب في التقرير ما يلي: «لم تشهد السلطنة، في دار السعادة، وفي أي مكان قدّر لي أن أخدم فيه، أن أرى مثل هذا الحال، وفي تمام هذا المجال، ما رأيته في القلعة. لم يدخل الضيوف حسب مراتبهم، أو وفقاً لطريقة تحظى بالاحترام العالي أو التقدير المناسب. كان كل ضيف يدخل دون إعلان وبلا أية مراسيم، وكأنه يزور بيت أبيه، أو يذهب إلى معارفه وذويه. وهذه الطريقة أفسدت المراتب، وولدت الحيرة لدى الضيوف والمراقب، خاصة وأن عدداً من النصارى

واليهود جلبوا أهل بيتهم، وبدل أن تدخل النساء من باب مخصوص، وبخفر وحياء، فإن الضحكات التي كان يستقبل بها المضيف، الآغا سيد عليوي، ضيوفه، جعلت الشؤون تختلط، خاصة وأن بعض النسوة لم يكتفين بالتسليم من بعيد أو بهز الرأس تحية للمضيف، بل لجأن إلى المصافحة المباشرة، وكادت أكثر من امرأة أن تصافح الرجال الذين يقفون إلى جانب الآغا، لكن عفة هؤلاء الرجال، وتراجعهم في الوقت المناسب، أو تظاهرهم بالانشغال، قلل من هذه المعايب.

أما الآغا نفسه فقد كرر خطيئة يوم الاحتفال الكبير الذي أقامه الباشا: لم يرتدِ ملابس الاحتفالات. لم يتقلد الرتب والنياشين. لم يقف إلى جانبه الحرس الثلاثي للدلالة على المقام والرتبة، الأمر الذي جعل عدداً من الضيوف يسلّمون على المرافقين قبل تقديم واجب الاحترام لصاحب أعلى المقام.

إن الملابس والرتب، في مثل هذه الاحتفالات، أشد ضرورة من أي وقت، وإلا ما معنى أن تكون ملابس مولانا السلطان، أدام الله عزه ونصره، أيام الجمع والأعياد مختلفة عن أيام العيد والجهاد؟ وما معنى أن يكون الحرس والتشريفات بالملابس الناصعة والنياشين اللامعة والسيوف المشرعة والأجساد المترعة، وحسب الأقدمية في السلك، أليس معنى ذلك أن تكون ليوم عزٍ وفخار، ولمقام ترتفع إليه الأبصار، فيفرح الصديق ورعية السلطان، ويخاف الكافر في كل زمان ومكان؟

ثم كيف يجوز لرتبة أقل أن ترتدي كامل القيافة وتمام الهندام، في الوقت الذي لا يفعل ذلك عالي المقام وواسع الاحترام؟ ألا تحدث مثل هذه التشوشات والبلبلات، خاصة لمن لا يلم بالمقدار الأسمى في معرفة الرتب وتحديد المنازل والمقامات؟

إنكم يا صاحب المقام العالي تقدرون أن الناس منازل، ويجب أن تعرف هذه من الهيئة، فكما النبوة بالوحي وسناء الوجه وطلاقة اللسان، فلا بد للناس من لباسٍ وهيئةٍ ونيشان، وهذا ما يفترض سنّه في الولاية ليكون

معلوماً من قبل الخاص والعام، قبل أن يعمّ ما لا يُحبّ، وقبل أن تفرض الدهماء ما لا يجب.

فإذا عدنا إلى ليلة القلعة، فأقول عنها براحة الضمير، ويوافق معي الحسير والبصير، إن الناس من الخراقة وانعدام البصيرة، ومن فساد الذوق وتساوي الحرير والحريرة، ان كل واحد يرتدي ما يشاء، مغضياً عن الوقت إن كان صبحاً أو مساء، صيفاً أو شتاء، وكأنه فزاعة زرع، أو حالب ضرع، لا يميز إن كان سيلتقي وزيراً خطيراً أو صعلوكاً حقيراً. بكل الموجز من الكلام، ومن حيث المنظر والهندام، كان الاحتفال: زرق ورق، وهيئة سز وذوق يوك.

ثم كيف يقوم أحد الأركان، مثل طلعت باقة، بمثل ذلك العمل الشائن: بمنديله ويده ينشّف عرق واحدة من الغواني؟ أين النخوة والرتبة وعالي المقام؟ وهل انعدم أحد من المكلفين بالخدمة ليتولى هذي المهام؟ كاد خجلي يقتلني، يا فخامة الباشا، وكان عرقي يغرقني؛ إذ لم أرَ لا في دار السعادة، ولا في أي مكان آخر، ان السادة وذوي المكانة يفعلون ما فعل المشار إليه. وقد زاد في الطنبور نغماً كما يقول أهل قونية والجبل، حين انتزع الآغا سلاحه وأرسله إلى أحد الخصيان، فماذا يكون الرجل دون سلاح، والقائد بلا جناح؟ ومهما بلغ الحب والتقدير، والإيثار والغلبة، فإن الإنسان لا يتخلى عن اسمه أو أهله، كما لا يتخلى عن دينه ونسبه، وفعلة الآغا تحظى بالتبخيس وعدم التقدير، وتتسم بالخفة وغياب التدبير. كان يمكن أن يأمر له بسلاح، أي سلاح، وأن يعطي ويزيد، لكن سلاحه الخاص، بيضة مجده وعنوانه ليوم الخلاص، فلا يفعلها إلا طفيف العقل، حارق الأرض والنسل، والعاق الملة والأهل. اللهم نج المؤمنين. أما بخصوص النسوة فاترك لغيري الكلام.

وأترك لنباهة والينا أن يرى أحسن الرؤيا، وأن يصل إلى سداد المقصود. خادمكم، ناطق قزويني.

نادر أفندي لم يدعَ للحفل، وما كان ليذهب حتى لو دعي، ومع ذلك،

تلك الليلة لم ينم! بذل جهداً كبيراً كي ينام، استجدى وسادته مرات عديدة وهو يحاول أن يستدرج النوم، لكن النوم جفاه. قرأ عدة سور قصيرة من القرآن، علّها تدخل السكينة إلى قلبه وتجعله يغفو، لكن بعض الكلمات في تلك السور أقلقته وأبعدت النوم عن عينيه أكثر. قرأ سورة ياسين ثلاث مرات، وبعدها آية الكرسي سبع مرات، لكن النوم يبتعد أكثر فأكثر. نهض من فراشه، أخرج مفتاح القاصة الداخلية وفتحها. كان المبلغ الأخير الذي دفعه لسيد عليوي من هذه القاصة. نظر إلى النقود وداخله الحزن: «إذ لو كانت تلك الليرات موجودة الآن، في مكانها مع أخواتها» أحس أنه تعيس وأنه محارب. لا أحد في هذا العالم يفهمه ويقدر أعماله. ماذا لو كان إنسان آخر في مكانه؟ هل يمكن لداود، أو أي باشا آخر، أن يستمر؟ ولماذا يتعاملون مع النقود بهذا الشكل؟ إنهم يدمرونها، يدوسون عليها كما يدوسون على التراب. ألا يعرفون أنها نعمة ويجب أن تعامل كما أمر الله؟ وهذا الخنزير، عليوي، لماذا يعاديه وينظر إليه هكذا؟ إنه لا يفهمه أبداً، ولولا الباشا وحمايته لفتَكَ به، لجعله عبرة لكل من يأتي إلى مثل هذا المنصب. أغلق القاصة بعنف، وهو يقول بصوت عالٍ: «بجهنم، بالقير، خلهم بعدي ياكلون أصابعهم ندامة!».

كان أول الواصلين إلى السراي، بعد انتهاء الحفلة: بدري، تمنى لو أن الخصومة لم تقع بينهما، إذن لاستطاع أن يستوقفه ويسأله عما فعل الظالم: عليوي. كم من الخراف ذبح، وكيف تكومت رؤوس الذبائح فوق تلال التمن لا تؤكل، وإنما ليفاخر بها أمام الضيوف. وكيف.. وكيف. إنه يعرف طريقة عليوي في التصرف، حتى الباشا لا يفعل مثله، لكن بدري، بعد ذلك الفصل، بعد تلك الكلمات، لا يمكن أن يُقارَب. صحيح انه عفا عنه وسامحه، لكن المرارة التي يحسها تجاهه تمنعه من سؤاله الآن.

وجاء ناطق وهاشم معاً، جاءا في عربة واحدة، لكن عربة أخرى كانت وراءها. وَدّ لو أنه يخرج إليهما، ليعرف منهما ماذا حصل في تلك الحفلة، لكن فجأة وجد أن الدم يرتفع في رأسه: لماذا عربتان؟ لماذا يحبان

الإسراف هكذا؟ وهل يختلفان عن عليوي؟ ولو كانا في موقفه ألا يفعلان مثله؟ وتذكر هاشم أفندي حين جاءه قبل أيام، ومعه خلف، ليضغط عليه من أجل أن يدفع للشيوخ. قال لنفسه، وهو يطفىء النور، ويحاول، من جديد، أن ينام: «وجوه نعاج وقلوب ذياب، كلهم هالشكل، لكن واحد محصّل، إيده واصلة، والثاني ينتظر، وما يندري شيسوّي إذا وصل!».

معاون القنصل، المستر هايني، لم يتردد في قبول دعوة سيد عليوي. كان على المائدة الرئيسية بين كبار المدعوين. أما القنصل ذاته فقد اعتذر، نظراً لانشغاله بأمور لا تحتمل التأجيل.

كان معاون القنصل، وهو يلبي الدعوة، لا يصدر عن القيام بالواجب فقط، ولا عن الرغبة بتوثيق العلاقات مع علية القوم والمسؤولين، خاصة العسكريين، فقط، إذ بالإضافة لهذين السببين، فإن أحد رهاناته الأساسية أن يكتب، ليس مجرد ذكريات عن إقامته في بغداد، وإنما دراسة عن طبيعة هذا المجتمع: كيف يفكر الناس؛ كيف يتصرفون؛ ما تأثير الطقس على تكوينهم العقلي والنفسي؛ وما تأثير الدين والمذهب في هذا التكوين؛ ثم ما هي العلاقة بين السكان الحاليين وأجدادهم القدامى، والأكثر قدماً، إن كانت هناك أية علاقة؛ وهل تعتبر البداوة إحدى الصفات الثابتة في هذا المجتمع أو مرحلة من مراحل تطوره؛ ثم الحزن الذي يبدأ من ملابس النساء ويمتد إلى كل تفصيل في حياتهم، والذي يتبدى أكثر ما يتبدى في الغناء، لماذا يسيطر عليهم؟ وهل يتمتعون به، أم يعتبر ظاهرة عابرة، مؤقتة، ونتيجة هذه المرحلة فقط؟

كانت لدى هايني أسئلة كثيرة، ولم يتوصل بعد إلى أجوبة يطمئن إليها، وهذا ما يدفعه، في أحيان كثيرة، إلى الإلحاح في السؤال، ومراقبة الظواهر والمناسبات، وزيارة المناطق ثم المقارنة بينها. كما جعله يعتمد قاعدة لا يحيد عنها أبداً: لا ترفض دعوة، ولا تملّ من سماع الآخرين، ولا تتعب من السؤال، إذ ربما يكون الإنسان بحاجة إلى مفتاح صغير كي يفتح بوابة الأسرار، ويدخل إلى عالم مليء بكل شيء عجيب!

إذا كانت عادة هايني أن يصف أولاً، ثم يرتب الوقائع بعد ذلك، ويجري المقارنة، تمهيداً لاستنتاج شيء ما، فإن تلك الساعة التي يقضيها أغلب الأحيان مع ريتش، صباح كل يوم، تجعله يتألق، خاصة في العرض، وكأنه، في هذه المرحلة، يبدأ الكتابة التجريبية، وإن يكن على سطح الماء، أو على ذرات الهواء، حتى إذا اطمئن، لجأ إلى تدوين الملاحظات، وغالباً ما تكون تلك الملاحظات، مع أشياء أخرى، مادة التقرير الذي يرسل ريتش منه ثلاث نسخ، الأولى إلى اسطنبول، إلى سفارته هناك؛ والثانية إلى لندن، إلى وزارة المستعمرات؛ والثالثة إلى البصرة ليكون في البريد الذاهب شرقاً، إلى الهند.

في اليوم التالي للحفلة، وخلافاً للعادة، جاء هايني إلى دار القنصلية متأخراً، فقد كان بحاجة إلى ساعات نوم إضافية، كي يعوّض سهر الليلة السابقة، ولأنه يريد أن يرتب أفكاره بعد أن شهد هذا الكم من البشر والأحداث. قال لريتش، وهو يهز رأسه ويده معاً، دلالة أنه سمع ورأى الكثير:

ـ سنلتقي أول المساء، لأن لدي الكثير لأقوله...

ابتسم بسخرية وهو يضيف:

ـ لكن أريد أولاً أن أصفي ذاكرتي من تأثير خمر هذه البلاد!

ـ هذا معناه أن نؤجل الحديث لمدة أسبوع، لأن خمرهم له بداية، لكنه لا ينتهي، إنه أكثر تأثيراً من مادة الرصاص!

ـ ومع ذلك لدي ما أقوله هذا المساء.

وفي المساء بدأ يتحدث:

«... أكاد لا أصدق. فإذا تجاوزنا الأمور الكثيرة التي نعرفها عن هؤلاء البشر، فإن ليلة أمس جعلتني أفكر بشكل جديد، وربما مختلف عن السابق. بعد هذا الكم الهائل من المجاملات، الأقرب إلى النفاق، وما كادت تمضي نصف ساعة، ونحن على المائدة الرئيسية، حتى تغير الجو تماماً: فالكأس الثاني، بالنسبة لهؤلاء، بداية التحول ثم الانهيار، تماماً

مثل انهيار السدود التي يبنونها في وجه الفيضان. إذ بمقدار الثقة بالنفس، والتي تكاد تصل إلى حدود الغرور، فجأة يتحولون إلى أناس ضعفاء، مسالمين، أقرب إلى الفجاجة الصبيانية، أو يصبحون عدوانيين مستفزين، ويمكن لكلمة أو تصرف أن يخرجهم عن طورهم، وقد يرتكبون الحماقات.

«الخمر، بالنسبة لهم، نقطة الضعف الأولى. إنهم يشربون لا لكي يرفهوا عن أنفسهم، وإنما لكي ينسوا! وليخرجوا من تأثير الضغوط والاعتبارات التي كثيراً ما يلتزمون بها في ساعات الصحو. وهم يشربون بإسراف وبسرعة وكأنهم يريدون الدخول في حالة من الغيبوبة، وهذه الحالة تظهرهم على حقيقتهم: أطفال بجثث كبيرة؛ لذلك لا يترددون في أن يقولوا أي شيء، وهم يميلون إلى المبالغة حتى الحد الأقصى، وبإعطاء الوعود التي لا يتذكرونها، وبإظهار شجاعة استثنائية، كما يصبحون شديدي الحساسية لأية كلمة ولأي تصرف، وربما تبدر من كثيرين تصرفات ما كانوا ليجرؤوا على إظهار ولو قسم ضئيل منها، إذ في حالات الصحو يكونون بالغي الصراحة في الكلام والتصرف، لكن وراء ذلك يخفون هشاشة استثنائية».

«لقد رأيت أمس مشاهد ربما لا تتاح إلا في حالات نادرة: مهيوب المدلل الذي يعتبر من أسرة محافظة، ويدّعي التدين أيضاً، ما كاد يستلطف إحدى الراقصات، وقد عبّر عن ذلك بصوت عالٍ، وأيضاً بدق أصبعتين، حسب التعبير الشائع الذي يستعملونه، وما أن انتهت تلك الراقصة من إحدى الوصلات، حتى كرع كأسين متتاليين، وكأنه يريد أن ينيم آخر الوعي العالق في ذاكرته، ليبدأ دوراً جديداً: وقف وأخذ يجاري الراقصة، بطريقة الرجال، طالباً منها أن تجود وتتألق، ومع كل حركة منها يزداد انفعالاً، إلى أن رمى كشيدته في الهواء.

قال بعض الذين كانوا أقل سكراً منه: «ستكلفه هذه الحركات ثمناً غالياً». وحين سألتهم أن يوضحوا أكثر، ردوا: «انتظر وسترى».

أما بدري، أحد مرافقي الوالي، فظل متوازناً رصيناً إلى أن جاءت راقصة أخرى. وفي الوقت الذي يفترض أن لا يشارك الآخرين الشراب، وإن اضطر للتظاهر بمسايرتهم، لأن من واجبه أن ينقل ما رأى، والجميع يعرف أنه عين الوالي، فقد انخرط باللعبة تماماً، إذ أخذ يصفق برعونة كي يجلب نظر الراقصة، وكان يرسل إليها، عبر الهواء، كلماته وعواطفه بشكل ملفت، ولقد رأيت سيد عليوي يغمز أحد رجاله لافتاً نظره إلى تصرفات «عين الباشا».

«إنهم يشربون هذا المقدار من الخمر، وبسرعة، كي يصلوا إلى اللحظة التي تجعلهم يتجاوزون خوفهم وضعفهم تجاه الجنس، إذ في صحوهم يبدون محافظين ومملوئين خجلاً تجاه المرأة، فما أن تلعب الخمرة برؤوسهم حتى يتخطوا الخوف، ويتحول ضعفهم إلى جرأة أقرب إلى التهور والتهتك، ويعبرون عن ذلك بالكثير من التفاخر والمباهاة، وكأنهم كانوا ينتظرون مثل تلك اللحظة ليظهروا على حقيقتهم.

الجنس بالنسبة لهم شيء مقدس. شيء ضروري لبقائهم، ويبالغون إلى درجة تستدعي التفكير والتساؤل. يفعلون ذلك ليس بدافع الحرمان، وإنما نتيجة أسباب أخرى تبدو لي غامضة من بعض الجوانب. ربما يحاربون الموت بهذه الطريقة، وربما يريدون مقاومة الفناء، أو كأنهم وهم يلتحمون يعبرون عن قناعة أكيدة أنهم يتركون وراءهم شيئاً. وقد يفعلون ذلك، وهو مجرد احتمال، بدافع الانتقام، إذ يتوهمون أنهم اخترقوا شيئاً ما، أو وصلوا إلى شيء مقدس يفتقدونه في الأحوال العادية. لا أدري أيفعلون ذلك نتيجة الغيظ، أو كتعويض عن عجزهم في فعل أمور أخرى يتمنونها في الواقع لكن لا يستطيعون تحقيقها؟

لو أن رساماً قدّر له أن يشهد ما شهدته أمس، وتمكّن من تسجيل هذه الحالات، لقدّم لنا لوحات لا يمكن أن تغيب من الذاكرة: كانت شفاههم تتدلى، كانت أصابع أيديهم تفرك، وكانت أجسادهم مهتاجة، محتقنة. أكثر من ذلك رأيت حركات الرجال، حتى الخفية منها، وكأنها رسائل

موجهة إلى الطرف الآخر من القاعة، قدر ما هي موجهة إلى اللواتي يرقصن.

أما عندما اختلستُ النظرات إلى النسوة، فقد رأيت عدداً منهن ـ بمقدار ما أتاحت لي الرؤية ـ أكثر شهوة واستجابة من المعتاد، حتى لو تظاهرن عكس ذلك!

والأمر الثالث الذي أدهشني أمس: طريقتهم في التعامل مع الغناء. أعرف مدى الحزن الذي يكتنزون به، والذي يغلفهم من قمة الرأس إلى أسفل القدمين، لكن لم أتصور رجالاً يبكون وتتساقط دموعهم بصمت ولا يخجلون من ذلك.

كان المغني ملكاً سيطر عليهم إلى درجة الإذلال. كان يبكيهم ويفرحهم، يجعلهم يحزنون إلى درجة أن الرجل الوقور فيهم، المالك زمام نفسه، والصاحي في جوقة السكارى، لا يستطيع أن يكتم الشجن الذي يجتاحه كالعاصفة، إذ يغيب عن كل ما حوله، يسلم نفسه للصوت والذكريات، وكأنه يعيش في عالم آخر!

فإذا تعب هذا الملك من الحزن، وأراد أن يوقفه، فإنه كالساحر يفعل ذلك. إذ ما يكاد يدندن بلحن جديد، حتى ينقلب الجو كله، وأولئك الذين كانوا غارقين في لجّة الحزن، يتحولون فجأة إلى بشر من نوع آخر، يهزجون ويرقصون، ولا يترددون في أن يغنوا معه، رغم النشاز الذي يتولد من هذه المشاركة!

قد لا نستطيع، نحن الغربيين، التمييز بدقة بين لحن وآخر، نظراً لتشابهها ورتابتها، لكنهم، مثل الكلاب أو القطط، يملكون حواساً تجعلهم قادرين على التقاط أكثر الألحان خفاء، أشدها إيغالاً في البدائية والرتابة. ربما الكلمات التي يغنيها المطرب، أو كلمات أخرى تلائمهم، وقد يخترعونها في اللحظة، ما يساعدهم على توهم عالم خاص بهم، مما يدفعهم لاستباق قيامه، وكأنهم يحرضون المغني ويحرضون أنفسهم من أجل خلق هذا العالم.»

كان نائب القنصل يتكلم مع ريتش، وكأنه من خلاله يوجه الكلام لجمهرة واسعة من مواطنيه، متحدثاً عن أحوال هذا الشعب ومزاجه، ما يثيره وما يحزنه. وإذا كانت هذه عادة مستر هايني، فإنه مأخوذ بما يجب أن يكتبه ذات يوم عن طبيعة شعب وعاداته مختلفٍ تماماً عن شعوب أخرى، وهذا ما يميزه عن غيره. ولا بد أن يضيف إلى ذلك كماً كبيراً من الجوانب الأخرى في هذا الشعب، الذي يحاول أن يدرسه كظاهرة للشعوب التي تعتبر في مرحلة الطفولة، ولا تزال تعيش بغرائزها وعواطفها، ولم تصل بعد إلى اعتماد العقل ومنجزات العلم والكشوف الحديثة في حياتها وسلوكها، إذ ما تزال أسيرة للماضي والتربية الخاطئة، هذا عدا عن بعدها عن الاحتكاك بالشعوب الأخرى والحضارات المختلفة، مما يبقيها غارقة في ظلام العصور القديمة.

نائلة خاتون كانت تسمع الكثير من الهمس الذي يجري في السراي، لكن دون اهتمام كبير، خلافاً لباقي نساء السراي. ففي الوقت الذي كانت النسوة الأخريات يدفعن للخدم والخصيان والحراس عطايا كبيرة من أجل الحصول على تفاصيل جديدة، وينشغلن بهذه التفاصيل، وتفاخر الواحدة بمقدار وغرابة ما تعرف، كانت نائلة خاتون مشغولة بأمر آخر: روجينا، التي دبرت ورتبت، كل شيء: الرقص والغناء، وأشرفت على وضع أسماء المدعوين، لماذا لم تظهر في هذه الحفلة؟

لقد عرفت نائلة خاتون أن روجينا وراء هذه الترتيبات من شريفة دلي، التي تقرأ لها الطالع مرتين في الأسبوع: الاثنين والخميس.

وإذا كانت شريفة قد أشارت مجرد إشارة إلى دور روجينا في حفلة القلعة، فقد طلبت منها نائلة خاتون أن توافيها بمعلومات أدق، وأكدت لها أنها ستكرمها لقاء ذلك.

قالت لها يوم الخميس، وجاءت أبكر من العادة:

- عرفت كل شيء، خاتون. سيد عايوي مثل محبس بإيدها. تقول له 'ن زين يقول فلان زين. تقول له فلان يبغضك وما يريدك، يصير فلان

بقدرة قادر مثل ابن الضره أو أنجس.
ـ وبعد.. شريفة، شنو سمعت؟
ـ سِمعت، خاتون، إنه يريد يستقعدها...
وابتسمت قليلاً، وهي تضيف:
ـ وكل يوم والثاني متخم عليها، وعندها ينام ويقوم!
وحكت أشياء أخرى، وأقسمت أن كل كلمة قالتها صحيحة ودقيقة، وقد أسرَّت لها نجمة بذلك، وطلبت منها أن تجد لها مكاناً يمكن أن تلجأ إليه.
قالت نائلة خاتون للباشا:
ـ... ويقولون، يا أفندينا، إن الآغا ما يخالف لروجينا شور، وكلمتها عنده ما تصير ثنتين!
ـ لا تصدقي، خاتون. الآغا خوش ولد ويفتهم!
ـ إسمعني ولا تصدقني، يا أفندينا، بس هذا الحچي اللي سمعته بأذني ومن ناس يعرفون كلّش زين!
ـ لا تصدقي، يا معوّدة، كله قال عن قيل!
ـ وداعتك، وتعرف شقد غلاتك عندي يا أفندينا، روجينا حافرة للآغا نوجه ولا بد يوقع بيها...
وبعد قليل، وهي تتنهد:
ـ زين، اللي تشوفه، لكن يروح يوم ويجي الثاني، وراح تشوف بعينك!
ـ لا تديرين بال يا معودة...
وأضاف بلهجة لا تكاد تُسمع:
ـ ما عايزة إلا هذي: القحاب هن اللي يحكمن ويرسمن!
والتفت إلى ناحية النهر وتابع بصوت مسموع، وكأنه يخاطب المياه:
ـ سوف تسمعين.. وربما تشهدين الكثير الكثير في قابل الأيام!

40

منذ أن وصل ريتش إلى بغداد، وهو لا يكف عن التساؤل والتفكير لفهم طبيعة البلد والناس. كان يصل، بعض الأحيان، إلى إجابات تقنعه، وربما ترضيه، لكن ما إن يحاول وضعها في سياق حتى يجد أن تلك الإجابات تشكّل الاستثناء لا القاعدة، لأن عشرات الشواهد الأخرى تنقضها، بحيث تبدو وكأنها وجدت في اللحظة، أو انبثقت فجأة، دون مقدمات توحي بإمكانية حصولها، دون أن تكون لها صلة بما قبلها.

فحين يجري الحديث عن نشوء الحضارات، مثلاً، يستغرب أن الحضارة البشرية الأولى نشأت في هذه البقعة. ويتساءل هل إن الذين يراهم الآن هم أحفاد أولئك الذين أقاموا الحضارات؟ ثم ما هي الصلة بين ما يراه الآن وذاك الذي كان في يوم من الأيام؟

كانت تخطر بباله مثل تلك الأسئلة، لأن القاعدة التي تنطبق على الأماكن والحضارات الأخرى، أي حين يختار الإنسان مكاناً، ليقيم حضارة، فلا بد أن تتوفر مجموعة من الشروط الملائمة، الأمر الذي يوحي أنها توفرت هنا في وقت من الأوقات. فالناس لا يبدون أنهم قابلون لأي نوع من التعلم، يولدون ويموتون بنفس المعارف والقناعات، وغير مستعدين لتغيير شيء أو إضافة شيء آخر. كما ليس لديهم الرغبة، أو ما يطلق عليه في الأماكن الأخرى: الشوق، لاكتشاف الجديد، وأيضاً، وربما هذا أهم الأشياء، أن الناس هنا لا يملكون حساً بالزمن.

أما الطقس، كما تبدى لريتش، فبالغ الصعوبة صيفاً وشتاء، وحتى ما

يمكن اعتباره طقساً معتدلاً خلال فصلي الربيع والخريف، فإن القدر يتدخل غالباً ليجعله غير ذلك!

أيام الربيع، والتي تمتد من منتصف آذار حتى منتصف أيار، ويفترض أنها أجمل أيام السنة، ما يكاد الإنسان ينفض عن كتفيه ملابس الشتاء الثقيلة، ويتهيأ لاستقبال الدفء والزهر وانتقال الطبيعة، حتى تدهمه اللزوجة، إذ يعبق الجو ببخار وهو مزيج من رائحة العفونة والغبار والرطوبة، بحيث تتولد في الجسد حالة من الرخاوة والخدر تشبه تأثير الخمرة الرديئة، ويظل الأمر كذلك إلى أن يهبط الظلام، فيصبح الجو متسامحاً وأكثر رحمة، حين تنسحب تلك الرائحة، لكن لتعاود، وبقوة أكبر، في اليوم التالي.

لا يقتصر الحال على مظاهر الطبيعة والمناخ، فالنهر الذي كان مستسلماً وديعاً طوال أيام الشتاء، والذي لا يعتكر إلا قليلاً بتأثير الأمطار القليلة التي تسقط؛ هذا النهر لا يلبث أن يصبح شيئاً آخر في بداية الربيع: ترتفع مياهه، تعتكر، يتسع مجراه، ويزداد تدفق الوحول فيه، وهذه كلها مجرد علامات تعلن عن الأيام الصعبة التي ستأتي.

فالربيع، أي ربيع، قلّما يمضي دون أن يخلف جروحاً عميقة في الجسد والروح. وإذا كانت الأنهار في جميع بقاع الأرض تلتحم بما حولها، وتعبّر بالإيقاع ذاته عما يتردد في الطبيعة، فإن لهذا النهر إيقاعاً مختلفاً ومزاجاً مغايراً. إذ ما تكاد الأنهار في الأماكن الأخرى تهدأ بعد أمطار الشتاء، ويستعيد الماء لونه فيها، وما يكاد الإنسان يتمالك نفسه ويسيطر عليها من جديد، ويعاود ترويضها كي تكون مصدر حياة له، كما يحصل في كل مكان، فإن نهري العراق يفاجئان الإنسان.

فالسماء الصافية، الشديدة الزرقة، والدفء الذي يسري في جسد الأرض، والزروع التي نهضت من غفوة الشتاء واستطالت بأوراقها الجديدة ونسغها الفوار، والحياة التي تفتحت لاستقبال أيام الخصب... ما يكاد هذا يظهر حتى يعربد النهران، ثم يهجمان بجنون وحشي، ليغيرا ويمزّقا

الطبيعة والبشر.

لقد تكرر الفيضان منذ وصول ريتش وحتى الآن كل ربيع. والفيضان لا يعني مجرد زيادة في مياه النهر يمكن أن تجرف في طريقها بعض الجذوع اليابسة، وبقايا الأشياء التي خلفها أو نسيها الإنسان طوال فترة انحسار المياه. الفيضان هنا يعني تدمير كل شيء. إذ تعلو المياه وتعلو حتى تغمر أعالي الأشجار. والفيضان هنا يعني أن يجرف النهر في جريانه المجنون الزروع والحيوانات والبيوت، ولا يوفر أيضاً الكثير من البشر.

يتكرر الفيضان ربيعاً بعد ربيع، وتتطاول أيام الغمر حتى ليظن الإنسان أن اليابسة لن تظهر مرة أخرى، وأن المياه التي ارتفعت واتسعت بهذا المقدار ستبقى هنا إلى الأبد، فيهرب الناس ملتجئين إلى الأماكن العالية، وإلى سطوح المنازل، تاركين وراءهم كل شيء، لا يريدون سوى النجاة بأرواحهم.

هذا الزحف المائي الذي يأتي من بعيد، دون إنذار سابق، لا يعرف الناس كيف يتعاملون معه، كيف يتقونه. فالوسائل البدائية التي يلجؤون إليها، ليس من شأنها إلا أن تعطي البعض منهم فرصة للهرب، لأن الأشياء التي يضعونها في وجه الماء بائسة ضعيفة، إذ لا تتعدى سدوداً من الحصير والتربة لا تقوى إلا على رد الموجات الأولى. أما بعد أن تتقدم المياه وتتوالى الأمواج ثم ترتفع وترتفع، فإن الدعاء يصبح السلاح الوحيد في محاولة يائسة للوقوف في وجه الفيضان المجنون. ترتفع الأدعية وتعلو، بحيث تصبح أقرب إلى التوسل، أو ربما تشبه الاحتجاج، ويظن هؤلاء الناس أنهم كلما رفعوا أصواتهم بالدعاء، وكلما زادوا فيه، كانوا أقدر على رد المياه، وكانوا بمنجى من خطر الغرق. لكن الموج لا يبالي، ولا يسمع، فيتواصل هديره، وتتزايد ضحاياه، حتى إذا تعب الإنسان فالفيضان لا يتعب ولا يتوقف، جارفاً كل ما هو قائم، وكل ما هو عنيد، بحيث يتحول الإنسان إلى مخلوق ضعيف ليس لديه سوى الدموع وسيلة للدفاع. وكلمات ندب بائسة، لا تلبث أن تتحول إلى مجرد أصوات.

فيضان النهرين، الذي لم يتوقف منذ بدء الخليقة، أو ربما كان هو أصل الخليقة، جعل حتى الربيع في هذا المكان حزيناً ذاوياً. فالأيام التي تسبق الفيضان، والتي تعربد فيها الطبيعة تعبيراً عما تختزنه في داخلها من قوى وشهوات، لا تلبث أن تتلاشى من الوجود ومن الذاكرة، بعد أن تتدافع كتل المياه المجنونة، مخلّفة وراءها الدمار أولاً، ثم الوباء الذي يليه.

فما إن تتخافت اندفاعات المياه المجنونة، ويهدأ اصطخاب الموج، ثم يعود النهر إلى مجراه، حتى تتخلف في كل مكان البرك. تكون أول الأمر متصلة واسعة، ثم تصبح متباعدة، معزولة، وداخلها بقايا الأشياء: الحيوانات النافقة، الأغصان، الخرق، الأجسام الصلبة من قدور وأواني ومخلفات أخرى. وما أن تُصلي الشمس هذه البرك بأشعتها الحادة النافذة حتى تفقد لونها البني المائل إلى الحمرة لتصبح خضراء ثم خضراء قاتمة. لتتحول إلى الدكنة، وتعلوها بقع صغيرة أقل خضرة، وهذه تحتضن ملايين البيوض لتلك الحشرة التي تخرش الذاكرة، وتجعل ليل الناس أقرب إلى الجحيم!

إنها الملاريا. . . هذا الوباء الذي يأكل الإنسان ببطء ويعذّبه، قبل أن يجعله مثل الشبح: ذابلاً، مترنحاً، وقد تداخلت في ذاكرته الأشياء والأسماء. ومن لا تقضي عليه الملاريا لا يشفى منها أبداً، إذ تعاوده مرة بعد أخرى، كلما لاح مرض، وكلما ضعفت مقاومة الجسد.

هذه السنة جاء الفيضان أيضاً، لكنه جاء متردداً خجولاً. فارتفاعات النهر التي توالت مرة بعد أخرى لم تصل إلى حدود الخطر، إذ جاءت متباعدة، ثم تراجعت إلى أن هدأت، دون أن تترك آثاراً مدّمرة. وقد فسّر الناس الأمر بالطالع الخيّر للوالي، وأن أيام الخير لا بد أن تتوالى، وقد تزيد، وفي ذلك تعبير عن رضى السماء، بعد أن رحل سعيد ورجاله وجاء داود! ليس ذلك فقط بل إن رجال الوالي الجديد لا يكفون لحظة واحدة عن تذكير الناس بالخير الذي ينتظر الجميع، لأن السماء حين ترضى تعطي

دون حدود، وما الضيق الذي أصاب البلاد والعباد في فترة سعيد سوى إنذار السماء للناس أن الفساد قد طغى، والظلم قد استشرى ولا بد من عقاب!

«الآن وقد قُضي على الفساد والمفسدين، فقد جاء الخير في ركاب والينا داود.» قال ذلك رجال الوالي، وقاله أئمة المساجد والمخاتير، وقاله بعض رجال السوق، لكن لم يكونوا متأكدين، إذ كانوا يعبِّرون عن رغباتهم أكثر مما يعبِّرون عن واقع جديد!

إذا كان هذا حال الربيع في هذه البلاد، وهو أجمل الفصول، أو بكلمات أدق أرحمها، فإن الفصول الأخرى لا يمكن الحديث عنها دون أن يصاب الإنسان بالكآبة حتى الوجع، نظراً لما يعانيه خلال تلك الفصول من أوقات صعبة تصل إلى حدود الإرهاق.

فالصيف يبدأ هنا في وقت مبكر، وعلينا ألاّ نتذكر الأماكن الأخرى، حيث تتميز الفصول وهي تتوالى وتتتابع. الصيف في هذه البلاد يهجم مثل فيضان النهر: سريعاً جامحاً ودفعة واحدة. إذ ما تكاد نسمات ناعمة تعبر الجو، تعبيراً أن الشتاء ولّى، وجاءت أيام أكثر منه رحمة، حتى تتبعها خلال أيام قليلة لفحات كاوية، وهي الإنذار الأول أن الصيف يؤذن بالوصول.

يبدأ الصيف من مطلع مايو، وكلمة «يبدأ» هي مجازية تماماً، لأن أشعة الشمس لا تتسلل كي تدفىء الأرض ثم الهواء، وبعد ذلك تشيع الحرارة في الجو، وإنما تنصبّ هذه الأشعة كأسلاك النار منذ ساعات الصباح الأولى. فما يكاد الإنسان يفتح عينيه، حتى يحس بالدبق وقد تلبّس جسده كله، فيشعر أن فتوراً كالأغلال يتسلل إليه، وما أن ينظر إلى السماء بزرقتها الشاسعة، وامتدادها الذي لا يعرف حداً أو نهاية، إلا ويلفحه حريق ينبع من كل مكان: من الهواء، من طوب البناء، من ملامسة الأشياء أو مجرد الاقتراب منها. وهذا الحريق لا تلطفه أو تخفف منه السقوف أو الأشجار، ولا حتى المياه، لأن كل شيء يتفاعل ويتحرك استعداداً للدخول في هذا

الطقس المجنون.

الصيف هنا بداية الموت الحقيقي، أو اللحظة التي تسبق هذا الموت، لأن الوهن إذا استبد يجعل الإنسان عاجزاً عن الحركة، ضعيف الجسد، أقرب إلى الاستسلام. ولعل من الطريف والمحزن في آن معاً، أن يراقب الإنسان الآخرين: كيف يتصرفون، كيف تكون ردود أفعالهم على ما يجري حولهم. أما مراقبة الحيوانات، كالخيل والكلاب والقطط، فإنها تثير في النفس حزناً حقيقياً لما تعانيه هذه المخلوقات التي لا تعرف ماذا تفعل لمواجهة الحريق الذي يطوقها من كل جانب. وإذا كانت الحيوانات الصغيرة أكثر قدرة على التصرف، إذ تجد زوايا رطبة، أو أماكن ظليلة تتلاعب فيها نسائم التيارات، فإن الحيوانات الأكبر تعلن يأسها بتصرفات لا تخفى!

أما الطيور المهاجرة التي وجدت لنفسها حلاً، إذ تذهب إلى الطقس الذي يناسبها حسب فصول السنة، فهذه الطيور الصغيرة التي تتقافز هنا وهناك في الصباح الباكر، قبل شروق الشمس، لا تلبث أن تختفي، ولطالما يتساءل الإنسان: لماذا لا تهاجر؟ لماذا تركت الأماكن المعتدلة واختارت أن تبقى في هذا الجحيم؟ سؤال يبعث على الحيرة، وليس له أي جواب منطقي!

حتى تذكّر أيام الشتاء الباردة، لعلها توحي، نفسياً، ببعض البرودة أو التوازن، لا تغير أبداً في مواجهة هذا الطوفان الذي لا ينتهي من الحرارة.

ولئلا يبقي ريتش في إطار التأملات والتساؤل، ولأنه منذور لمهمة كبيرة، فقد وجد حلولاً لهذا الوضع. «لا يمكن التغلب على العذاب الذي يواجه الإنسان في هذه البلاد إلا بالعمل». هكذا كان يقول لنفسه بتحدٍ، وهو يضع لائحة بالأعمال التي عليه إنجازها. «فالإنسان من أقدر المخلوقات على التكيُّف، خاصة إذا كانت لديه العزيمة ولديه هدف يريد الوصول إليه، وبلاد مثل هذه لا بد أن تُكتشف بدقة، وأن تُدرس، خاصة وأنها لا تزال مجهولة لمواطنينا. حتى المعلومات التي يعرفونها عنها

مشوشة متداخلة بحيث لا تمكّن أيّ سياسي أو مسؤول من وضع تصور لما يجب أن تكون علاقتنا بها. أما لو أراد قائد عسكري بريطاني أن يقود جنوده ليسيطر على هذه البلاد فالأرجح أن يضيع، قبل أن يصل إلى هدفه، في مستنقعاتها وصحاريها ووديانها، لأننا لا نملك أية خرائط حول تضاريسها. ومعرفتنا بالناس لا تتعدى معرفة سائح تتراءى له الأشكال واحدة أو متشابهة».

وحين تذكر الآخرين الذين ينافسون البريطانيين، ولما مرت بذهنه صورة القنصل الفرنسي، دانييل، الذي كان في بغداد يوم وصوله، وكيف كان يملي على الوالي ليس الطلبات وإنما الأوامر. قال لنفسه بصوت عال:

ـ لن تعود مثل تلك الأيام ما دمت حياً، وما دمت موجوداً هنا!

واستدعى أحد مترجمي المقيمية، استدعى جوزيف ديراني، قال له وهو يؤكد على مخارج الكلمات:

ـ إذهب من فورك إلى السراي، وبلغ نائب الوالي أن الدكتور رايت سوف يقوم بزيارة البصرة، وعليهم أن يشعروا رجال الأبواب والطريق بذلك، لتأمين ما يلزم من استقبال وعناية واهتمام وتوفير الراحة له في سفره...

وبعد قليل وكأنه تذكر:

ـ لا أريد أن أوصيك بضرورة التقليل، ما أمكن، من الإجابة على أسئلتهم، إنهم ثرثارون وأغبياء، إذ يفسرون أية كلمة تصدر عنا بطريقتهم الخاصة، ويفهمون الأمور على غير حقيقتها.

كاد يسترسل أكثر، لكن حين التقت عيناه بعيني جوزيف، وكانت ابتسامة صغيرة ترتسم على وجه المترجم، وكأنها تؤكد أن لا حاجة لمثل هذه التوصيات التي يعرفها جيداً، وقد سمعها من قبل مرات كثيرة، قال لينتهي من هذا العمل:

ـ ولا تنسَ أن تذكر أن سعادة القنصل يبلغ تحياته إلى «أفندينا»

وحين همّ جوزيف ديراني بمغادرة الغرفة، أضاف ريتش، وكانت

كلماته لا تخلو من سخرية:

ـ ولا مانع أن تبلغ نائب الوالي تحياتي!

مثل هذه المهمة، في وقت سابق، كان يقوم بها القنصل نفسه؛ صحيح أنها كانت تتم في السياق، أثناء الزيارة، وكأنها إحدى مفردات الزيارة وليس هدفها. أما بعد ان مرت السنوات، وأصبح ريتش أكثر معرفة بعقلية الولاة والمسؤولين في السراي، فلم يعد ميالاً إلى المجاملات أو إلى الثرثرة. أكثر من ذلك يعتبر أن وقته أثمن من أن يبدده في مثل هذه المهمات التي كانت تسبب له نوعاً من التوتر تتضح آثاره بسرعة بذلك الصداع الذي غالباً ما يلازمه أثناء الزيارة، ويستمر بعدها. أصبح الآن يكلف أحد رجاله، وقد تعوّد السراي على ذلك، واعترف به كأمر واقع، خاصة وأن داود باشا بدا في مرات عديدة أقل مجاملة ممن سبقوه في التعامل مع القنصلية ورجالها.

كان ريتش يعتبر أن أفضل وسيلة لإقناع الوالي الجديد، وتالياً حمله على الموافقة، أن تشعره، دون أن تجرح، بوجود أوراق كثيرة قوية لديك، وإنك قوي بما فيه الكفاية، ولذلك فأنت تطلب، لا تترجى أو تلتمس، «لأن هؤلاء الشرقيين يفهمون التواضع على أنه ضعف، ويعتبرون التهذيب وسيلة للخداع، ومن الخطأ أن تشعرهم بذلك. إذهب إلى الهدف مباشرة، ومن الضروري أن تستعمل كلمات لا تحتمل الخطأ أو التأويل، خاصة وقد أصبحوا يدركون جيداً ماذا تعني بريطانيا العظمى».

وهو يستعرض هذه الصور، كان يستعيد شريط حياته في هذا البلد، وكيف استطاع، لأنه ممثل دولة عظمى، ولأنه أصبح أكثر دراية بتصورات الناس، بمن فيهم الولاة، أن يضع قواعد للسلوك، ويحمل الآخرين على الاستجابة لكل ما يريد.

«ابتعد عن المساومة، لأنها تقود إلى التنازل، وأي تنازل يقود إلى آخر بالضرورة. هؤلاء الشرقيون كالأطفال يدرسون بالغريزة الطرف الآخر، نقاط ضعفه وقوته، ومن النقاط الضعيفة يدخلون. أما البساطة، أما

الصدق، فكثيراً ما يخدعهم، يظنون مثل هذه الصفات دليلاً على العجز أو الضعف، لأنهم لا يعتمدون إلا على ما يرون، ولا يفكرون إلا باليوم الذي يعيشونه.

«ليس ذلك فقط، إذ داود باشا نفسه، والذي يعتبره رجاله من أذكى الولاة، وكي يقنع الناس بأهميته، إعتبر أن إقامة قصر له يفوق دار المقيمية هو ما يمكّنه من التفوق على القنصل، ولذلك لا يهدأ ليل نهار من أجل إنجاز هذا البناء بأسرع وقت ممكن. أما البساطة التي كان يتميز بها في أيامه الأولى فقد جعلت الكثيرين يخطئون في فهمه وتقييمه، وقد أدرك ذلك بسرعة، مما جعله يتصرف في الفترة الأخيرة بهذه الطريقة المتعالية، ويسرف إلى أقصى حد بمظاهر الأبهة والترف، ويبدو أنه يريد أن يقنع ناسه أكثر مما يريد إبلاغي رسائل من نوع محدد».

وأخذت تتبدى له، من جديد، صورة داود باشا حين دخل بغداد، وكيف كان رجاله أيضاً. عزا بساطته، في البداية، إلى تدينه، وما يفرضه الدين من تقشف وتواضع، لكن قبل أن تنقضي السنة الأولى تغير كل شيء: الملابس، التصرفات، المعاملة، حتى النظرة تغيرت. أصبح رجال الباشا كالطيور الملونة بهذا الكم الهائل من الملابس المزركشة التي يرتدونها، وأصبحت الدواوين مثل غرف عيد الميلاد بما تحتويه من أشياء وألوان، بحيث أن العيون تزوغ والنفَس ينحبس عندما يجد الإنسان نفسه محاطاً بهذا المقدار من الأشياء المتناقضة. أما العطور التي تُقدّم في كل زيارة فإنها تثير الغثيان لكثافتها وعدم القدرة على احتمالها، وما يكاد رجال الباشا يرون ابتسامة رضا، أو ربما يتوهمونها، حتى يبالغوا في دلق كميات إضافية من تلك العطور، فإذا جاء دور المباخر، فلا بد أن يُذكر من أين جيء بتلك المواد، وكيف تخلط، وما يضاف إليها، وكيف يجب أن يتم تحضيرها بعيداً عن ضوء الشمس أو التيارات الهوائية، كي تحتفظ بكثافتها وزكائها!

لقد عانى ريتش الكثير وهو يحاول أن يتعود على الشرق. صحيح أنه

كان يبدي حزماً في حالات كثيرة، خاصة فيما يتعلق بالطعام، إذ لم يكن مضطراً لمجاملة الآخرين سواء بالطريقة أو المقادير، لكن هناك أموراً لا يمكن تفاديها، ولقد جلبت له الكثير من الكدر، ولازمه الصداع لأيام متوالية. ورغم أنه حاول إلزام الآخرين، حين يقبل دعواتهم، بأمور لم يكن من السهل قبولها أو الموافقة عليها، إلا أن المزعجات كثيرة، وغالباً ما تبرز فجأة، دون القدرة على منعها، رغم المحاولات التي يبذلها رجاله في اللحظات الضرورية، وبعض الأحيان الحاسمة، كأن ينبه، بسرية ظاهرة، أن سعادة القنصل، وبأمر من طبيبه، لا يستطيع أن يتناول هذا النوع من الحلويات، أو هذا النوع من اللحوم، وقد يشيرون إلى أيام الصوم الكبير، كسبب لامتناع القنصل عن تناول بعض المشروبات أو المآكل!

ـ لو قدر لأي خنزير أن يتناول هذه المقادير من الأطعمة، ومن هذا النوع، لقضى قبل طلوع الفجر. . .

هكذا كان يقول الدكتور رايت لميناس حين يبلغه بدعوة جديدة لغداء أو عشاء. لا يكتفي بذلك، يضيف بسخرية حزينة:

ـ كان على سكان هذه البلاد أن يفاوضوا سكان القطب، أن يتم تبادل الأمكنة أو تبادل الأطعمة! أما أن يجتمع الإثنان معاً، وفي هذا المكان، فإنه الانتحار بذاته، ويمكن أن نطلق عليه الانتحار الصامت، لأن الناس هنا، جميع الناس، يعرفون ذلك ويفعلونه، وكأنهم يتلذذون بتعذيب النفس!

ريتش الذي يشارك الدكتور رايت رأيه، ويحاول، قدر ما يستطيع، اتقاء الأمور الضارة، إلا أن نظرته للتعامل مع الآخرين مختلفة، وقد تكون نابعة من موقعه، أو من المهمة التي نذر نفسه لها. كان يرد على الدكتور رايت، إذا جرى الحديث عن هذا الموضوع:

ـ غالباً ما يفسر الشرقيون امتناع الضيف عن تناول الطعام معهم بالخشية من السم، ولذلك تراهم يقدمون الدليل وراء الدليل على أن ما يقدّمونه من طعام أو شراب خالٍ من الغدر، وهذا ما يجعلهم يتذوقون القهوة قبل أن

تقدم إلى الضيف، وأن يأكل كبيرهم مع المدعوين.

كاد ريتش يتابع، ويأتي بأمثلة أخرى، لكن رد الدكتور رايت كان سريعاً وساخراً:

ـ أن يموت الإنسان من السم فيه الكثير من الرحمة، لأنه موت سريع، أما أن يموت كل ساعة وكل يوم، ويطول نزعه قبل أن يقضي فعلاً، فهذا هو الموت الذي لا يخلو من مازوشية، وهو ما يفعله الشرقيون بإصرار، وكأنهم يتلذذون بهذا النوع من الموت!

41

ظل ريتش، منذ أن وصل إلى بغداد، يسمع أكثر الهمسات خفاء في السراي، حتى تلك التي تجري في الغرف الداخلية! كان هناك من ينقل إليه كل شيء، في وضح النهار. وفي فترات الاضطراب، وأثناء الصراع بين المتنافسين، كان هناك من ينقل إليه، ليلاً، ما يجري بين هؤلاء المتصارعين. إذ ما تكاد تهدأ الحركة في الشوارع، ويعم الظلام، حتى يتسلل إلى الباليوز أفراد من السراي أو من القلعة، ودائماً كان ميناس في استقبالهم، وقد تم الاتفاق مع كل واحد منهم على إشارات محددة، سواء بعدد من الدقات على الباب الجانبي المفضي إلى رأس القريّة، أو بأضواء تتقد عدداً من المرات، وعند ذاك ينزلق الآتي عبر البوابة، وينفض ما لديه عند ميناس: من استقبل الباشا ذلك اليوم، وكم دامت المقابلة، ومَن من كبار الموظفين أو الشيوخ زار السراي، وبمن التقى، وعشرات التفاصيل الأخرى.

والباليوز الذي لم يكن محتاجاً إلى كل هذه التفاصيل، أيام عبد الله وسعيد، أو إلى هذا العدد من زوار الليل، لأن الأخبار تأتي من مصادر عديدة ودون تأخير، حتى إن هايني اقترح خلال فترة معينة «الاستغناء عن هذا العدد من الكسالى الثرثارين، الذين لا يُعرف إن كان ما ينقلونه صحيحاً أو هاماً، خاصة وأن قسماً كبيراً منه متعلق بخصومات الحريم!».

كلام هايني، وقد حمل معنى الاحتجاج، كان رداً على اعتذار ريتش لما طلب منه تعيين واحد أو اثنين لمساعدته في ترجمة الأغاني الشعبية

والأمثال. اعتذر ريتش عن ذلك بعدم وجود المخصصات الكافية الآن لمثل هذه الأعمال، وكان يعني في الحقيقة عدم جدواها، أو ليست لها مثل هذه الأولوية في الوقت الحاضر.

ولما ألحّ هايني، وسخر لوجود هذا العدد من المخبرين، رد ريتش:

ـ نحن هنا نعمل في القضايا السياسية لا في التاريخ، ولا في دراسة فولكلور الشعوب، وأظنك تقدِّر ذلك.

ـ والسياسة، يا مستر ريتش، كي تكون ناجحة ومؤثرة، يجب أن تستند إلى العلم، إلى التاريخ. أما هذا الهراء الذي ينهال علينا مثل أمطار لندن، فإنه لا يجدي شيئاً، يذهب فوراً إلى البالوعة!

ـ ولكن السياسة، يا مستر هايني، تستند إلى المعلومة الساخنة، إلى الواقعة التي تحصل الآن، هذه هي التي تهمنا وتؤثر على عملنا، وربما على مستقبلنا، أما الواقعة المتعلقة بالتاريخ أو غيره من الأمور فلها وقتها الذي سيأتي، أعتقد أنك توافقني على ذلك، أليس كذلك؟

ـ دعني أقل لك شيئاً واضحاً يا عزيزي، وهذا الشيء أسمح لنفسي أن أكرره، رغم أنّا تحدثنا عنه مرات عديدة...

إبتسم بطريقة تطلب، بل ترجو، الصبر، وأيضاً التأمل والتفكير العميق:

ـ الأكثر أهمية، كما افترض، ليس الواقعة التي تحدث أمام أبصارنا، وإنما فهم العقل الذي تصدر عنه، أي السبب الذي جعلها تقع بهذا الشكل وليس بأي شكل آخر...

تنفس بعمق، وكان يبدو مهموماً، قبل أن يضيف:

ـ لا أختلف معك، مستر ريتش، في أننا، هنا، نعمل لقضايا كبيرة وهامة للإمبراطورية، ولعل السياسة اليومية هي أقل هذه القضايا أهمية...

كاد يضيف أشياء أخرى، لكن ريتش قاطعه:

ـ القضايا الكبرى، يا هايني، وأنت تعرف ذلك، هي حاصل جمع الأشياء الصغيرة، هي الوقائع التي تتراكم وتأخذ اتجاهاً معيناً، وعند ذاك

تصبح كبيرة ومؤثرة. أما أن ننتظر، أو نهمل الأشياء التي تقع الآن، بحجة عدم أهميتها، فسوف يجعلنا نخسر كل شيء!

ـ والعقل الذي تصدر عنه الأفعال اليومية، هل يجب أن نهمله؟

ـ ومن قال إننا أهملناه؟ ألا ترى طريقتنا في التعامل معهم؟ كيف نستمع إلى ثرثراتهم وأحلامهم، وكيف نتغاضى عن أكاذيبهم ونفاقهم، وكيف نتحمل سماجاتهم أيضاً؟ لولا فهمنا لهذا العقل لتصرفنا معهم بطريقة مختلفة!

ـ لا أنكر أن جزءاً مما وصلنا إليه كان نتيجة فهمنا لطريقة تفكيرهم، لكن هناك أشياء أخرى يُفترض أن نوليها الاهتمام أكثر من ثرثرة المخبرين!

ـ أن نقيم جامعة لدراسة الأزياء والأغاني واللهجات وتلك الأمثال الفولكلورية التي تمليها الحذلقة، حذلقة اللغة. . . أهذا ما تريد أن ننصرف إليه، أن نفعله؟

ـ أتذكر يا كلود إن من أول الدروس التي سمعتها منك، وربما في الأسبوع الأول لوصولي إلى هذا البلد: «لا يمكن فهم هذا الشعب دون فهم تاريخه، وباعتبار أن التاريخ المتداول، المكتوب، يشوبه التزوير والتحريف، يجب علينا أن نقرأ هذا التاريخ من خلال الآثار، من خلال الشواهد الحية» أليست هذه الكلمات، أو ما يماثلها، ما قلته لي، يا كلود؟

ـ لا أتذكر الكلمات بالضبط، يا عزيزي، فقد مرت سنوات. . .

ضرب على مسند المقعد. ابتسم. سافر قليلاً ثم عاد:

ـ لا تزال الآثار، بالنسبة لي. .

وتغيرت اللهجة تماماً:

ـ الآثار التي أوليها الاهتمام هي الشواهد المادية، إذ تعني إعادة قراءة الحضارة الإنسانية، كيف بدأت، كيف تطورت، كيف واجهت المصاعب والتحديات، وكيف انتهت تلك المواجهة بحيث استمرت حضارة، أو أخلت المكان والدور لحضارة أخرى أكثر تطوراً، هذا ما يعنيني من الآثار. . .

تركه هايني يتابع، إذ رغم ما لديه ليقوله، فقد آثر أن يعتبر هذه المناقشة مناسبة لفهم أعمق لما يدور في رأس ريتش، خاصة وأن الاتفاق والتقاطع بينهما ليس إلى الدرجة التي تستوجب الاختلاف، بقدر ما تتطلب صيغة أفضل لإعادة ترتيب الأولويات.

تابع ريتش بحماس:

ـ أعرف أن أغلب الأشياء التي تقال لنا الآن ثرثرة، وقد يكون جزء منها ملفقاً، لكن هذه الثرثرة لا بد من سماعها، من معرفتها، كي تكون سلاحاً، أو لأقل أحد الأسلحة التي يمكن أن نستعملها في الوقت المناسب. . .

استراح قليلاً ثم أضاف:

ـ تتذكر حين كان سيد عليوي ضيفنا. . . تتذكر ما قاله لنا عن سعيد باشا، عن أشيائه الصغيرة: الحَمَام الذي كان يربيه، العسل الذي كان يتناوله بكميات لا يتحملها دب، ثم المساحيق والحمامات الدافئة. . . كل ذلك كي يقضي وقتاً ممتعاً مع حمادي. . . ولما عرف سعيد أننا نعرف كل هذه التفاصيل، وربما غيرها، أصبح بأيدينا مثل الدمية. . .

ابتسم وقد أصبح أكثر تألقاً:

ـ قد تكون أشياء كثيرة تصلنا كل يوم غير ذات جدوى، لكن شيئاً واحداً يمكن أن يكون أساسياً، وهذا ما يجب أن نقبض عليه، وأن نستعمله في الوقت المناسب. وتعرف أنه من أجل الحصول على هذا الشيء لا بد من دفع الثمن، ليس من المال فقط، بل ومن الوقت والأعصاب أيضاً!

وبطريقة لا تخلو من براعة، وربما من مكر، أراد ريتش أن ينسى الكثير من الماضي وأن يركز على الأيام الراهنة. سأل هايني فجأة:

ـ تعرف انّ ما تشكو منه هو ما نحتاجه بالضبط هذه الأيام؟

ـ ما نحتاجه اليوم؟ ماذا تقصد؟

ـ منذ أن جاء داود، وبعد أن استقر، أصبحت معلوماتنا عن السراي تتناقص يوماً بعد آخر. . .

تنهد. هز رأسه بحزن عدة مرات، ثم أضاف:

ـ وقد استغل حملة الفرات الأعلى ليعيد تنظيم القطعات العسكرية في بغداد وحواليها . . .

وضرب مسند الكرسي بعنف، وتابع:

ـ والآغا سكر بالانتصار الذي حققه، افترض أنه أصبح الأقوى والقادر على فرض ما يريد، ولا يُدرى ماذا ستكون نتائج الصراع فيما لو وقع بين الإثنين الآن . . .

وبعد قليل وبحسرة:

ـ أما المخبرون الذين كانوا يأتون إلينا كل ليلة، فقد أصبحوا الآن كالجثث العفنة بعد أن طردهم داود باشا من السراي. إنهم يقضون أوقاتهم في المقاهي، علّهم يصطادون خبراً يحملونه إلينا . . .

وتغيرت لهجته، أصبحت ساخرة:

ـ ولقد أبلغت ميناس أن يبقي الضوء الأزرق مشتعلاً باستمرار، لأننا لا نريد أن نرى وجوههم، ولا أن نسمع أكاذيبهم!

ـ أعتقد أن داود، الآن، مثل أي والٍ في بداية ولايته: يجب أن يظهر عداءه لأصدقاء الوالي السابق، كي يبدو مختلفاً، ونقيضاً له، ليجمع وراءه كل الذين خاصموا ذلك الوالي، لكن لن تمر فترة إلا ويصبح مثل الولاة الذين سبقوه: واقعياً، مدركاً لموازين القوى، بما في ذلك قوته الخاصة، وبالتالي من يجب أن يكونوا أصدقاءه!

ـ أتمنى ذلك يا هايني، لكن يبدو لي أن لدى هذا الرجل شيئاً مختلفاً . . .

غيَّر جلسته فتغيرت نبرة صوته:

ـ صحيح أن نابليون هزم وانتهى إلى الأبد، خاصة في أوروبا، لكن أسطورته التي انتهت هناك بدأت هنا من جديد، وهذا ما يجعل داود يغرق في الحلم والمناورات، خاصة وأن ذلك الألباني يعتبر نموذجاً مغرياً!

ـ لا أظن أن أحلامه تبلغ حد الجنون، وتصل إلى هذا المستوى!

ـ دعنا نفترض هكذا ونتفاءل، ولكن ألا تلاحظ كم يحرصون على معرفة أخبار نابليون؟

ـ ألاحظ، ولكن كما يقولون في أمثالهم الشعبية. . .

وابتسم قبل أن يتابع:

ـ لديهم مثل يقول: القرعة تفاخر بشعر ابنة خالتها، ولذلك يفترضون أنه لا أحد يستطيع الوقوف في وجه إمبراطوريتنا سوى فرنسا، فرنسا التي على رأسها نابليون، وهذا ما يفسر حرصهم على معرفة أخباره!

ـ ولا يعرفون أن نابليون أصبح جزءاً من التاريخ الماضي!

ـ ولكنهم سيعرفون.

ـ إلى أن يعرفوا، إلى أن يستوعبوا هذه الحقيقة، لا بد أن يسببوا لنا مقداراً غير قليل من المتاعب، وإلا كيف تفسر هذه الجفوة التي تصل حد العداء من داود ورجال السراي؟

ـ أعتقد أنها فترة اختبار لقياس ردود أفعالنا، وبعدها سيصبحون عقلاء بما فيه الكفاية!

نهض ريتش. أخذ يتمشى في الشرفة المطلة على النهر. كان مهموماً، خاصة وأنه لم يتوصل إلى خطة يمكن اعتمادها لمواجهة داود، فهو لا يريد أن يحاربه، لأنه ليس عدواً بعد، ولا يريد أن يتركه يرتب أموره، ثم ليفرض شروطه بعد ذلك. وهذا يقتضي أن يشغله، أن يلوح له، من بعيد، بما يملك من أوراق وإمكانيات، فإذا امتثل مثل ولاة آخرين يمكن أن يتعايشا، وربما أصبحا أصدقاء، أما إذا افترض أنه من القوة بحيث يستطيع خلق المتاعب، فلا بد عندئذٍ من وضع حد له.

قال ريتش، وبدا صوته عميقاً:

ـ مشكلة هؤلاء الشرقيين أنهم مكابرون. إن المكابرة جزء عضوي من شخصيتهم، إذ يتوهم الواحد منهم أنه يعرف كل شيء، وأنه قوي إلى درجة يمكن أن يواجه أي خصم ويفعل ما يريد. . .

وهز رأسه عدة مرات، كانت هذه الهزات تحمل معنى السخرية

والأسف، قبل أن يضيف:

ـ وشخصية من هذا النوع لا تتعلم ولا تتروض إلا بطريقة واحدة: الضرب على الرأس. فالضرب يعلمها كيف يجب أن تتعامل مع الواقع، كيف يجب أن تنظر إلى الآخرين، وأيضاً ما هي قوتها وحقيقتها!

وبعد قليل، وهو يضرب الأرض بقدمه:

ـ فإذا لم يعلمها الضرب كيف يجب أن تكون، فإن من شأنه أن يكسرها، أن يجعلها صغيرة وذليلة دائماً!

ـ نحن نتفق ونختلف يا عزيزي كلود. نتفق بضرورة أن نكون موجودين ومؤثرين، ونختلف حول الوسائل. فالضرب ليس دائماً الطريقة الفضلى، لأن الحيوان الجريح هو أخطر من الحيوان الذي لم يجرح؛ والضرب يولد الحقد، يولد الغيظ، وعند ذاك نكون في حالة دفاع عن النفس!

ـ يجب ألا نتوهم كثيراً، يا هايني، فنسحب ما يجري في أوروبا على أماكن أخرى، خاصة على مثل هذه البلاد. فإذا كان العقل هناك سيداً، فالعاطفة هنا هي السيد، وهذا يتطلب أن نكون حازمين لئلا يخطئوا في فهمنا، وبالتالي يخطئون في التعامل معنا.

ـ ولكن الحزم ليس له شكل واحد!

ـ ومن قال ذلك؟

ـ أراك تميل إلى المواجهة، إلى القوة، وهذا الشكل من الحزم يعتبر أكثر الوسائل بدائية، وربما أقلها جدوى!

ـ وماذا تقترح أن نفعل؟

ـ أن نسيطر عليهم من الداخل، والخطوة الأولى: أن نفهمهم، أن نروضهم بالتدريج، أن نجعلهم يفعلون ما نريد وبظنهم أنهم يفعلون ما يريدون!

ـ وكيف نصل إلى ذلك؟ بترديد أغانيهم؟ بترديد أمثالهم؟ أهذا ما تريد أن نفعله يا عزيزي هايني؟

ـ أريد أن نفعل كل الأشياء معاً، فعن هذه الطريقة لا نكسب الحاكم

وحده، بل ونكسب الناس أيضاً!

ـ ما جئت إلى هذا المكان، يا عزيزي، كي أضيع جهدي ووقتي من أجل تحضير شعب غير قابل للتحضر. . إن مهمة من هذا النوع اختصاص الأنبياء والحالمين، وأنا لدي من المشاغل ما تجعلني أفكر بطريقة أخرى.

تهالك على كرسيه، وبدا متعباً. صحيح أنه لا يمل من مناقشة هايني، وبعض الأحيان من الاختلاف معه، لكن الأمر في هذه الفترة أكثر تعقيداً، وربما أكثر خطورة، لأن الأوضاع كما يبدو، لا تسير وفق ما يريد، «فداود، كما قال لنفسه، يختلف عن الحكام الآخرين، وقد تكون لديه أوهام كثيرة، ويريد أن يختبر قدرته على تحقيقها، أو تحقيق قسم منها، وهذا يتطلب أن نكون مستعدين، ويتطلب أن نشغله، لأن الأنبياء والحالمين حين يجدون أنفسهم شبعى، ولديهم من الوقت الكثير، فإنهم لا يتورعون عن خلق المتاعب للآخرين، بغض النظر عن النتائج التي ربما تتولد من هذه المتاعب».

جاءت ماري في الوقت المناسب، جاءت تجرّ قردها الصغير، دوني، قالت وهي تنقل نظرها بين الإثنين:

ـ يبدو أن الرجال ما وُجدوا على ظهر هذا الكوكب إلا ليتحاربوا، فالحرب هي عنوان ومبرر وجودهم!

ـ إنهم يحاربون من أجل امرأة جميلة؛ من أجل كأس مشتهاة!

هكذا قال ريتش، وهو يتوجه نحوها كي يعانقها، وليطلب للجميع الويسكي، ردت بدلالٍ:

ـ لماذا أنتما متجهمان؟ وهل المرأة التي تتحاربان من أجلها جميلة إلى هذا القدر؟

قال هايني وهو يقهقه:

ـ ليتنا كنا مختلفين على امرأة، إذن لفاز بها واحد منا، لكننا مختلفان على جنس الملائكة، وعلى أيهما أسبق البيضة أم الدجاجة!

وتغير الجو فجأة، أصبح مرحاً.

42

ليلة القلعة غيّرت بدري صالح العلو تماماً. صحيح أنه أبدى ندمه أمام الباشا، ولام نفسه على الضعف الذي بدر منه، وتخاصم مع الزميل الذي أغراه وقدم له الكأس، كما قرر خلال نهارات كثيرة أن ينسى، لكن طيف نجمة ظل يلاحقه.

كانت نجمة تتخايل له في النوم واليقظة، وكانت تتجسد ما أن يسمع صوت امرأة، ما أن تهفّ رائحة أنثى. أما إذا لمح واحدة، أية كانت، فإنها لا تُقارن بجمال نجمة، بعذوبتها وخفة حركاتها: أجفان ذابلة تشبه خيمة رطبة ودافئة، ساقاها كأنها أعمدة مرمر مضيء، زنداها مراوح تحمل رائحة الجبال، والبطن، آه، لشد ما كان مشدوداً وليناً معاً. أما العرق الذي انزلق من الجبين، من بين النهدين، فكان مهرجاناً من المسك. حتى الخنزير، طلعت باقة، بوقاره كله لم يحتمل. صحيح أنه اندفع نحوها كالثور ليمسح الجبين، لكنه خاف أن يقترب، خاف أن يحترق، فاكتفى بأن تبارك بها، ثم أعطاها المنديل ومضى بعيداً.

وتروح وتأتي صورة نجمة، تماماً مثل أرجوجة، لا تذهب بعيداً لكنها لا تقترب إلا بمقدار، وكأنها نور معلق بين السماء والأرض، لا ترتفع وتغيب، كما لا تقترب وتهبط لتصير باليد ثم في القلب.

لم يكن بدري مراهقاً حتى يفتن بأول امرأة يصادفها، لم يكن غراً أو جاهلاً، كما لم يكن محروماً، حتى يقع أو يتساهل، فماذا حصل؟

كان يسأل نفسه هذا السؤال عشرات المرات في اليوم الواحد. أكثر من

ذلك كان يعتبر أن جميع الرجال الذين حضروا حفلة القلعة يشاركونه الإعجاب، وأيضاً اشتهاء تلك المرأة. لكن من هي ليجد نفسه تجاهها مسلوباً هكذا، ومستثاراً بهذا المقدار؟

حاول أن يفسر عواطفه، أن يجعلها بسيطة ومفهومة، كي يصل إلى حل يطفىء اللهب الذي يحسه في داخله. لو تملّك جسدها، لو ينام معها ليلة، أينتهي هذا العذاب الذي يزحم كل خلية من خلاياه! هل يعتبر مشاعره نحوها حباً، أو شيئاً يقرب من الحب؟

لا يعرف كيف يحدد عواطفه ورغباته. لا يعرف ماذا يريد منها. يكفي أن يبحر في عينيها، أن تكون قريبة، أن يحدثها، وأن يتمعن ليس فقط بذلك الجسد الذي انتزعه من سكينته وطوح به لا يعرف إلى أين، بل وأن يتمعن بالروح الكامنة في ذلك الجسد.

كانت خائفة مثل أرنب، وربما ارتجفت في بعض اللحظات. كانت مليئة بالقوة والعنفوان وهي تحكم سيطرتها على ذلك الجسد. كانت فراشة تقفز وتطير أو تقف على رؤوس أناملها، لتتحرك بتلك الطريقة التي تجعل الكون كله يحبس أنفاسه. وكانت في أعماقها كالطفل الخائف، ترعبها النظرات، وتجعلها الأصوات مذعورة، لأن الكل يريد أن يلتهمها. كانت تبحث بعينيها، بارتجاف الجفون، بتقلص الشفتين عن حماية، عن إنسان يمد لها يده، عن قوة تخلصها من طوفان النار الذي يتقدم نحوها، وفجأة غابت.

شعر بالراحة لما غابت، هذا ما كان يريده، فقد نجت من العيون الحمراء التي تقطر شرراً، ومن الأفواه السكرى التي تهرس حتى العظام، فكيف لو اقتربت منها، ألا تفترسها وتفتك بها كما تفترس الحية عصفوراً صغيراً، وتزدرده أو تلوكه، ليصبح وكأنه قطعة من البلعوم؟ لكنها بمجرد أن دخلت ذلك الباب، وغابت، انفجرت في داخله، تجلت وتجسدت، لكي لا تغيب أبداً.

إنه حائر ومتعب. لا يعرف كيف يداري حيرته، كيف يصل إلى حل أو

قرار، فالدنيا تبدو له ضيقة، صغيرة، وسوداء أيضاً.

الجميع يشاركونه في اشتهائها، لكن لا أحد يحبها مثله. لقد صفقوا لها كثيراً، أخافها التصفيق، ولكنه وحده توقفت يداه عن التصفيق، في لحظة بدأ قلبه بالخفقان ثم بالضجيج. كان تصفيقهم تعبيراً عن الشهوة، عن الرغبة بامتلاكها، بإخضاعها، وهو لا يريد إلا أن ينظر إلى عينيها، إلى ابتسامتها دون أية رغبة بالامتلاك أو السيطرة. وإذا مد يده إلى خدها، إلى جفنيها، فلكي يقول، همساً أو بصوت مسموع: تبارك هذا الذي خلق. لن يرغمها على شيء. لن يطلب منها شيئاً، فإذا أعطت، إذا شاءت، فسوف يكون ذلك كرماً منها ومنّة.

الجسد؟ يمكن أن يصل إلى ما يشبه جسدها، لكن كيف يستطيع الوصول إلى مثل ذلك البهاء؟ صحيح أنه لم يكلمها، لم يقترب منها بما يكفي، كما فعل الخنزير طلعت باقة، لكن شيئاً في داخله قال بكلمات لا تقبل الخطأ، بطريقة لا تقبل الشك، انه أمام امرأة لا تشبهها أية من النساء، وإن في داخلها روحاً تبكي كما تبكي الغزلان، وإنها وقفت في مواجهة تلك الجموع، التي كانت عيوناً كلها، كما تقف الضحية أمام السياف: كانت مرغمة، مضطرة، ولقد تأكد أكثر من طريقتها وهي تهرب، كانت تخطو إلى الخلف بقوة، بسرعة، تريد أن تنجو من النيران التي تطوقها!

والجسد، رغم المتعة التي يقدمها، فإن الروح هي التي تجعله هكذا، تلك الروح ترفرف وتزهو حتى بعد أن يتعب الجسد، بعد أن يخبو.

روح نجمة في تلك الليلة مثل أمطار الربيع، مثل خيوط النور، مثل هدهدة الأم لطفلها الرضيع. كانت في لحظات تتألق، تسافر بعيداً لتعود محمّلة برائحة القداح والرازقي، ولتملأ القلوب بالفراشات وألوان قوس قزح، ثم كانت في لحظات أخرى، تقول، من خلال الجسد، الغضب والحزن والشبق، وكل العواطف التي لا تجرؤ المرأة على قولها في أكثر الأحيان!

وكان، بالإضافة إلى الحيرة والتعب، مُوزَّعاً بين الوظيفة وثقة الباشا،

وبين العواطف التي تجتاحه كالنيران. وأيضاً لا يعرف كيف يصل إلى نجمة أو ماذا يريد منها.

بعد أن استفسر عن الفرقة، ثم عنها، عرف أن روجينا هي المعلمة، وعن طريقها وحدها يمكن أن يصل. هل يجرؤ أن يفعل ذلك؟ وإذا فعل هل يمكن لأمر مثل هذا أن يبقى سراً؟ وماذا لو وصل إلى الباشا أو عليوي؟

لقد تعلم في سلك العسكرية، ثم من مرافقة الباشا، أن من جملة ما يذل العسكري، ويجعله عاجزاً عن القيام بالواجب: الخضوع إلى قضايا القلب، أي العواطف. فعلى العسكري أن يترفع عن الشفقة والحب، وألا يصغي إلى نداءات العامة أو حتى إلى تصرفاتهم، وأن يكون له قلب كالصوان.

ويتذكر موقفاً للباشا. كانوا يزحفون من أربيل إلى كركوك. في إحدى مراحل الطريق طلب منه الباشا أن يلتقط حجراً حدده، التقطه، قدمه إلى الباشا، نظر إليه الباشا بإمعان ثم أعاده إليه وهو يقول: «احتفظ به، لحين أطلبه». عند أول استراحة، وقف الباشا خطيباً. تكلم كثيراً، ثم فجأة طلب منه الحجر. أمسك بالحجر ورفعه وهو يديره في كل الاتجاهات. وبعد أن رآه الكثيرون، وتأكد منه القريبون، قال: أبناء الجبال يعرفون هذا النوع من الحجارة، أما أبناء الوسط والجنوب فإنهم يسمعون به لكنهم لم يروه. هذا هو حجر الصوان. انه أقسى أنواع الحجارة، وبالإضافة إلى القسوة فإنه يجرح، وهكذا يجب أن يكون الجندي في جيشنا: له قلب كالصوان: لا يخاف، لا ينكسر، ولا بد أن يترك أثراً، فإذا لم يقتل لا بد أن يجرح.

تذكر هذا الموقف، لكن ماذا يمكن أن يقول للباشا الآن لو عرف أن عسكرياً، وليس أي عسكري، وإنما مرافقه، الذي يأتمنه على كل شيء، وقع في حب راقصة، وأنه من الضعف والهشاشة بحيث لا يستطيع أن يتخلى عنها؟ أين الصلابة، وحجر الصوان والترفع عن العواطف؟ كيف ضاعت الثقة وتداخلت الأمور إلى درجة أن المرافق يصبح تحت رحمة الخصم، عليوي؟

في لحظة انفعال، والعواطف في صدر بدري تتأجج كالبراكين، قال لنفسه بغيظ: «ولكن العسكري، حتى مرافق الباشا، إنسان قبل أي شيء آخر: والإنسان ليس مجرد البزة التي يرتديها أو الموقع الذي يكون فيه، انه عواطف وأفكار ورغبات، وحتى جنون، أما أن يبقى أسيراً للرداء أو للموقع، وأن يخضع لما يريده الآخرون، دون أن يسمع نداء قلبه، فعندئذٍ يتحول من إنسان إلى دابة، إلى لعبة، إلى شيء دون روح، وهذا لا أستطيع أن أكونه».

كان مثل هذا الكلام يأتي في الليل، وكان ليل بدري يطول ويمتد أكثر من أية فترة سابقة، لكنه في النهار يصبح إنساناً آخر!

هل يعترف للباشا ويستأذنه؟ هل يذهب إلى روجينا سراً ودون أن يعرف أحد؟ هل يدوس عواطفه ويتحول إلى حجر صوان ليخلص من هذا العذاب؟

يقرر شيئاً في الليل، وفي النهار ينقضه. يضع خططاً في الليل وتتلاشى مع أوّل أضواء نهار اليوم التالي. يردد في الظلام وحتى ساعة متأخرة من الليل أيماناً بصلابة الصوان على أنه سيُقدِم في الغد، لكن تلك الأيمان تنزلق كالماء لتضعف إرادته وتصميمه، ولتصبح شتماً للنفس وتقريعاً للذات التي لا تحسن شيئاً ولا تعرف كيف تتصرف وكيف تتخذ القرار!

وأي يوم يمضي دون أن يقرر، دون أن يصل، ألا يعني احتمال أن يأتي غيره ويسرق هذه الغزالة ويمضي بها إلى حيث لا يدري ولا يصل؟

وروجينا التي تعرف من يكون، وفي أي موقع هو، ماذا ستقول وكيف ستتصرف؟ هل ستُبقي الأمر سراً مكتوماً بينها وبينه؟ وماذا لو عرف الآخرون؟ هل يجرؤ على المواجهة أم ستنكسر عينه مثل انكسار إرادته، وينسحب ذليلاً كما يفعل الكلب المهان، إذ يضع ذيله بين ساقيه ويمشي موارباً مع تلك النظرة المسكينة؟

ولكن لماذا لا يترك السراي والباشا وكل الذين يحسب لهم حساباً ويمضي مع نداء قلبه، دون أن يتعرض لامتحان لا يحبه ولا يريده؟ والباشا

الذي قال له حين كان معه في الجبل: على الرجل أن يتزوج ليكمل نصف دينه، ماذا يقول الآن إذا كانت الزوجة التي سيختارها من «بنات» روجينا، من بنات الهوى؟ لن يكتفي بالرفض، سيقرن الرفض بالسخرية ويقول له: «ألم تجد في بغداد غير هذه الساقطة لتتزوجها؟» وسيقول الباشا لنفسه: «كانت العادة أن يزوج الولاة بناتهم لأقرب الناس إليهم، وأنت، كنتُ أعدّك لأن تتزوج واحدة من بناتي، وبدل أن تبذل أقصى ما تستطيع كي تحظى بهذا الشرف، ذهبتَ إلى حيث لا أتوقع ولا أنتظر، فشكراً لله أني لم أتعجل ولم أفرط، فقد بان معدن الرجل وانتهى الأمر».

وفي محاولة للدفاع عن قلبه، وكأنه يواجه خصومه في السراي، أو الذين قد يسخرون منه، يقول لنفسه، وهو يحاول أن يكظم غيظه: «الذين ينظرون إلى السراي من بعيد، الذين يسمعون الصمت ولا يصلهم الدوي، الذين يتخيلون ويحلمون ولا يعرفون، يظنون السراي تكية من التكايا، زاوية يملؤها التقى والورع، ولا يرتفع فيها سوى اسم الله من الصباح إلى الهزيع الأخير من الليل، لكن لو يقتربون، وينصتون إلى الهمس الذي يدور، لو يعرفون كيف تسري الحركة بعد أن تطفأ الأنوار، لو أن ذلك حصل لأصاب الكثيرين الذهول. أما إذا شاهدوا بعض الذي كان يجري ويدور، فسوف يقولون إن روجينا وبناتها، سلطانة وفرقتها، أكثر عفة؛ فهل يحق لناس السراي أن يقولوا كلمة، أن يعترضوا على رغبة إنسان وجد نفسه يسقط في هوى نجمة دون أن يدري؟»

بعد أيام من العذاب المضني، والسهر الذي بانت آثاره في الزرقةِ حول العينين، وفي ارتعاشة اليد وهي تقدم الأوراق إلى الباشا. تجرأ بدري، حين لاحظ الفرصة مواتية، وطلب أن يمنحه الباشا إجازة لمدة شهر. نظر إليه الباشا وابتسم، وكان في النظرة والابتسامة أكثر من سؤال. قال بدري، وخرج صوته متلجلجاً:

ـ أريد أن أكمل ديني يا مولاي!

ـ ومن هي المسعدة، صاحبة الحظ؟

ـ من يبحث يجد، يا سيدي!

ـ لم تحددها بعد؟

ـ ذكرتْ لي العائلة واحدة . . .

ولكي يداري كذبه حاول أن يبتسم، لم يطاوعه فكاه. خرجت الابتسامة قاسية أقرب إلى التكشير. قال الباشا في محاولة لأن يساعده:

ـ حين تقرر أبلغني، لأن لك علينا حقاً، وقُصتك كانت خيراً علينا، ولا بدّ أن نهني وأن نبارك، لأنك تستاهل كل خير!

كان يتمنى، في تلك اللحظة، لو أنه يستطيع طلب نقله إلى أقصى مكان في الولاية، أن يذهب مع أول فوج متوجه إلى القتال. أن يقطع علاقاته بكل الذين عرفهم من قبل، كي لا يتعرض إلى سؤال أو نظرة سخرية. قد لا يوافق الباشا، وربما يشك في أمره، لكنه في لحظة مناسبة سيعترف، سيقول له انه لا يقوى على التفكير بإمرأة غير نجمة، ولا يريد لأحد أن يسأل، أن يقول كلمة. ومثلما اختار الآخرون، واتخذوا قراراتهم بمفردهم، فمن حقه أن يفعل ذلك!

حديث مثل هذا لم يجر، ظلت الرغبات حبيسة في صدره. لقد وافق الباشا على أن يمنحه الإجازة، وأشار مازحاً:

ـ بعد تسليم المهمات لا تتأخر، إبدأ البحث فوراً عن العروس، وعلى الله توكل، مع المباركة والتوفيق!

حين رأته روجينا يدخل إلى بيتها ذات مساء بملابس مدنية وعباءة تحسبت، لم تستطع أن تخفي ارتيابها بل وخوفها. ماذا يريدون منها؟ بصعوبة، استطاعت أن ترتب علاقاتها مع سيد عليوي، والآن. . السراي؟ ألا توجد امرأة غيرها في الولاية كلها لتصبح هدف «الكبار»؟ كانت تعيش بهدوء، كانت تفعل ما تريد برغبتها، وتغني الموّال الذي يروق لها، الآن يتجاذبونها، كل واحد يريدها أن تغني له الموال الذي يحبه ويستهويه!

هكذا فكرت وهي تبذل جهدها كي تلجم الخوف، خاصة وأن بدري جاء متأخراً، بمفرده، ويبدو ذابلاً من غير شرب.

ولأنها امرأة مجربة، ولا تقبل أن تقع تحت تأثير المفاجأة، وبعد أن رحبت بحرارة واهتمام، استأذنت قليلاً:

- نفنوفي مو لايق بك، فد دقيقة، بك، من رخصتك!

وبقدر ما أعطت نفسها فرصة كي ترتب زينتها، احتفالاً بمثل هذا الضيف، فقد أعطت لعقلها وقتاً لكي يقدّر الاحتمالات التي يمكن أن تطلبها السراي، وكيف يجب أن تتصرف، وكيف عليها أن تجيب.

وإذا كانت قد استقبلت عليوي بكثير من الهرج والحيوية، فإن هؤلاء الشبان لا يروقون لها، فهي تخافهم، لا تقدر بدقة كيف يفكرون، أو ماذا يمكن أن يفعلوا. صحيح أنهم أغرار، قليلو التجربة، لكن مثل هذا الضيف، وبالموقع الذي يحتله، لا يمكن أن تحزر ماذا يرغب، وما هي المهمة المكلّف بها.

خلال فترة غيابها تلفت بدري، أجال نظره في الغرفة، خاصة الزوايا والستائر، وكأنه يحاول اكتشاف ما وراءها، أو تقدير من كان هنا في يوم من الأيام. وضع يده على المقعد الذي يجلس عليه وهزه، يريد اختباره، أو استنطاقه عن الناس الذين سبق أن جلسوا عليه. تنفس ملء رئتيه لعل الرائحة تقول له ما عجزت عن قوله المقاعد. شعر أنه لا يحب هذا المكان. كان كل شيء كامداً ثقيلاً، الرائحة مزيج من الهواء الخانق مع عطور متنوعة قاسية، وعرق من النوعين، إضافة إلى بقايا دخان من تبوغ متعددة وحادة!

لما عادت روجينا حملت معها موجة من العطر. بددت الرائحة الجديدة ما قبلها أو طغت عليها، فتغير هواء الغرفة واختلف، خاصة وأن عودتها حملت وترافقت بفيض جديد من الترحيب والحركة السريعة والابتسامات التي تبدأ صغيرة ثم لا تلبث أن تتحول إلى قهقهات، تعبيراً عن السرور لهذه الزيارة.

سألته بطريقة أقرب إلى الرجاء ما إذا كان يرغب أن تقدم له الشراب، وأن تهيىء له العشاء، أو إن كان يرغب بأي شيء. اعتذر بارتباك، بخجل

لم يستطع أن يخفيه. قال إنه كان يمر قريباً من هنا، وإنه جاء للزيارة فقط، وإنه سيأتي مرة أخرى ليشرب ويتونس!

وروجينا التي رفضت تصديق أية كلمة قالها، وعاودت أكثر من مرة، وبإلحاح، تسأل ما إن كان يحب رؤية البنات ليختار واحدة، وهو يعتذر، ازدادت ريبة وخوفاً من هذه الزيارة. ماذا يريد إذن؟ وما وراء هذا الخجل والارتباك؟ قالت، بطريقة لا تخلو من تعريض:

ـ إذا ما راح تمالحنا، تشرب من ميّتنا وتاكل من خبزنا، وإذا ما قلت «أكلكم» طيب، راح آخذ على خاطري!

ـ لا خاتون، شوفتك بالدنيا، والأكل وغيره يجي وقته!

ـ هاي أبد ما تصير، لازم تذوق فد شي.

ـ ما أقدر، وداعتك، نفسي عايفة، وقلبي يرفرف!

ـ خير.. خير يا معوّد، لا تحچي هذا الحچي، فدوه لعيونك، آني إبدالك!

ـ ما يخالف خاتون... كلها كم يوم وأصير زين!

ودخل الصمت من جديد. ربما لم يكن وقت الصمت طويلاً، ولكن هكذا أحست به روجينا. فإذا جاء «مصادفة»، وهي لن تصدق ذلك أبداً، ولا يريد أن يشرب أو يأكل، كما لا يرغب أن يرى البنات، مجرد رؤية، فلماذا جاء إذن؟ لماذا أرسلته السراي؟

لو أن غيره جاء، لو أن إشارة ما توحي أو تفسر هذه الزيارة، لأمكن لحوار أو كلمة أن تزيل الخوف. لكنه في كل لحظة يغرق أكثر في مقعده. تهرب عيونه إذا حاولتْ أن تنظر إليهما، تبدو ابتسامته شاحبة ولا تخلو من كآبة.

في لحظة، وقد بدت بعيدة، تكلم من جديد:

ـ أريد أسألك فد سؤال، خاتون!

ـ تفضل عيوني، قول، اسأل.

ـ البنيّة، نجمة، اللي رقصت يوم حفلة القلعة، أقدر أشوفها؟

صهلت روجينا مثل فرس. ضحكت بقهقهة عالية، ومدت رجليها، وكأنها خرجت فجأة من تحت الماء. أخذت نفساً عميقاً. نظرت إليه وكأنها تقرأه من جديد. لقد سمعت السؤال جيداً، لكنها، حتى الآن، لا تصدق، وربما كان السؤال عنها مجرد فخ، لا تريد أن تتورط، أن تعطي جواباً قبل أن تتأكد. سألت، وخرج صوتها مرحاً:

ـ بلي. . بلي، نجمة، بنيّة تخبّل. . .

صمتت. نظرت إليه بتحديد، وقد تغيرت ملامحها. لا تريد أن تتسرع في الإجابة. قد لا يكون وحده الذي يسأل عنها، إذ ربما يكون الباشا سمع بها، وصلته أخبارها، وهو الذي يسأل!

قالت، كأنها تكلم نفسها:

ـ نجمة خوش بنيّة، سمكة تلبط، غزالة، قمر يضوي، لكن. . .

كانت تقول كل كلمة وهي تنظر إلى عينيه، إلى ردود أفعاله، علّها تكتشف إن كانت تعنيه شخصياً أم تعني غيره. في لحظة معينة، وبغريزة الأنثى، قدرت أنها تعنيه، وربما لا تعني غيره. قالت بطريقة متعالية ولا تخلو من مكر:

ـ بس هاي ماكو أحد يقدر ينوشها. . .

وبعد قليل، وكأنها تحدث نفسها:

ـ بألف ويلاه قدرنا عليها ذيك الليلة، وقالت وحلفت: هذي الليلة وبس!

وعادت لتحدث نفسها مرة أخرى:

ـ ثامر يثبر الدنيا إذا أحد باوع عليها، ومن ذاك اليوم مدلغم وما يتحاچى!

ـ ما أريد منها شي، خاتون، بس علوّاه أقدر أشوفها، دقيقة، دقيقتين، وأقول لها: سبحان ما خلق!

في تلك اللحظة تأكدت أن الرجل الذي جاء «مصادفة»، ويحدثها الآن بهذه الطريقة، ولا يريد سوى دقيقة أو اثنتين كي يراها، ليحدثها، ليس

مغرماً فقط، وإنما مجنوناً بهواها. ولئلا تفقده، وتخيب أمله، عله يفيدها يوماً، قالت بطريقة تحمل مقداراً من الحزن:

ـ شقد شفت بحياتي؟ شفت هوايه بنات حلوات، الواحدة تقول للقمر قوم من مكانك وخلي الناس يحكمون منو أحلى أنا لو انت، لكن مثل هذي البنيّة ما شافت عيني!

تنهدت وهزت رأسها عدة مرات، وأضافت بحزم:

ـ لكن ثامر معرت بيها مثل ما يعرت كلب بعظمة. يغار عليها من نسمة الهوا، من ضو القمر، ومن عصافير النبگة!

قالت الكلمات الأخيرة لتغريه أن يحاول؛ أن لا يسلم بسهولة؛ وأن كل شيء في هذه الدنيا يمكن أن يحصل إذا تمكّن الحب من القلب.

كان حائراً معذباً، وكان، أيضاً، شاكراً لروجينا. فقد عجزت عن تلبية ما يريد، لكنها دلته على الطريق.

حين كان يودعها، كانت تهزّ رأسها بنوع من الشفقة، ولكنها تريد أن تحرضه أيضاً. كانت تقول، وبنغم:

ـ يا أبو بشت بيش بلشت... بيش بلشت، بيش بلشت، أويلاخ يابا!

43

سيفو المحمود أحد أركان صوب الكرخ، وأبرز معالمه. يعرفه الجميع ويعرف الجميع، حتى في الصوب الآخر اذا وجد من لم يره، فلا أقل من معرفة اسمه وبعض الحوادث التي تروى عنه. انه أشبه بطير من طيور الماء: ساقان طويلتان ضامرتان كأنهما ساقا لقلق، مكشوفتان أغلب الأحيان إلى ما فوق الركبة. أما الدشداشة التي يرتديها فلا يمكن تمييز لونها الحالي كما لا يُعرف لونها القديم، وما إذا كانت لطفلٍ أم لرجلٍ كبير، فقسم منها مشكول بالحزام الصوفي الذي كان أبيض ذات يوم ثم تحول إلى القتام. القسم الأعلى من الدشداشة ينفتح برحابة عن صدر أقرب إلى القفص، إذ تبدو عظامه بارزة قوية، وربما كانت مليئة باللحم والعضلات، لكنها انصقلت بتأثير المياه التي تتدفق من القربة المحمولة على الكتف، أو بتأثير العرق الذي يسحّ من الرقبة والجبين العريض.

يمكن لحي الشيخ صندل أن يستغني عن أشياء كثيرة، ويمكن أن يتغير قليلاً أو كثيراً، لكنه لا يستطيع أن يستغني عن سيفو، ولا يستطيع أن يحتمل تغير أو غياب سيفو عن الحي يوماً واحداً. وإذا تصور الكثيرون إمكانية تغير الولاة، وعزل القادة، أو حتى احتمال موتهم، فلا أحد مستعد لأن يفكر أو يقبل بغياب سيفو أو تصور تعرضه للمرض أو الانقطاع. أصبح أكثر معالم الحي ثباتاً وحركة وضرورة. إنه قديم إلى درجة أن رجال القوافل الذين مروا قبل سنين في بغداد، وغابت عنهم ملامح المدينة، وعادوا إليها بعد تلك السنين، وحتى لو عاد بعض معارف لهم، فإن

السؤال الأول الذي يطرحونه على أنفسهم وعلى الآخرين: «وين نلقى الجواد، ساقي العطاش: سيفو؟» ودون انتظار طويل يتوجهون إلى الشيخ صندل، إذ لا بد أن يلقوه هناك.

وأبناء الحيّ ذاته يؤرخون الأحداث، ويحددون المواعيد والوفيات بأمور ترتبط بسيفو: «ولد فلان يوم غرق جمل سيفو بالطوفة الكبيرة»؛ «مات فلان سنة عضّت الحية رجل سيفو وانقطع الماء عن المحلة ثلاثة أيام!»

ويسرف أبناء الحي في إيراد الأحداث المتعلقة بالرجل، ويميل بعضهم إلى الدعابة، لكن لا تصل إلى حد السخرية أو الانتقاص من أهمية سيفو أو ضرورته، وإنما هي طريقة في التعبير عن الألفة والود، لأن أي خطأ في التعامل معه لا بد أن يؤدي إلى نتائج لا يمكن احتمالها أو توقي عواقبها. وتتداخل هنا الحاجة المباشرة مع الاعتقادات المسيطرة، فإغضاب سيفو يعني انقطاع الماء عن أحد البيوت، وهذا يحصل نتيجة خطأ جسيم يرتكبه أحد أفراد هذا البيت، خاصة إذا تعلق الأمر بأمانته، إذ يمكن أن يخلق صعوبات قد لا يستطاع تداركها بسهولة، ولعل أول ما يفعله أحد عقلاء البيت محاولة استرضاء سيفو!

لا يقتصر الأمر على الاضطراب الذي يتولد من انقطاع الماء، فالأكثر خطورة من ذلك الشعور بالذنب الذي يخيم على البيت، خاصة لدى المسنين، إن إساءة كبيرة لحقت بأحد الأوفياء، ومن شأن إساءة كهذه أن تلحق الأذى، وقد تصل إلى المصائب، حتى لو لم يشأ سيفو ذاته، «لأن الملائكة التي تحرسه، وتقف إلى جانبه، هي التي تتولى الانتقام» الأمر الذي يدفع لاسترضاء سيفو في ذات اليوم، أو قبل ظهور شمس اليوم التالي، «لأنه إذا نام مكسور الخاطر يهتز العرش غضباً!».

يعرفه أهل الحيّ جميعاً، الصغار والكبار، ويعرفه سكان المحلات المجاورة، وحتى البعيدة، ويحسدون محلة الشيخ صندل لأن سيفو يخص هذه المحلة بالذات، ولأنهم لم يجدوا سقّاء بنشاطه وحميته؛ بل ويبالغ

عدد من سكان محلة الشيخ صندل، خاصة المسنين، بأن يؤكدوا أن الماء الذي يجلبه سيفو من دجلة أكثر صفاء، وأشد برودة من الماء الذي يجلبه السقاؤون الآخرون. يذكرون ذلك إذا زارهم أحد، ويذكرونه إذا زاروا المحلات الأخرى وشربوا من المياه التي تقدم لهم.

أكثر من ذلك: قيل إن عدداً من متنفذي محلّة أخرى، وشاركهم المختار، حاولوا إغراء سيفو أن ينتقل إلى محلّتهم، وأن يتولى سقايتهم. وحين وجدوا أن الإغراء لا يعني له شيئاً، ولا يمكن أن يغيره، لجؤوا إلى ذكر فضائل من يقدم الماء، ويسقي العطاش، وكيف يرفع الناس أيديهم إلى السماء بالدعاء، وحتى الحيوانات والطيور ترفع رؤوسها شاكرة، بين رشفة وأخرى، امتناناً لمن سقاها ويسّر لها الماء، وقالوا إنهم سيدعون له في الصباح والعشية، وسيقبّلون أيديهم وجهاً وقفا إذا وافق وجاء إلى محلّتهم. لكن سيفو، وبطريقة اعتذار أقرب إلى التوسل، أكد لهم أنه لن يستطيع القيام بهذا العمل، مع رغبته فيه، لأنه غير قادر!

من الصعب تحديد عمر سيفو، حتى ولو تقديراً، كما أنه لا يحب أن يتحدث عن ذلك، وهكذا كفّ الناس عن سؤاله بعد أن تلقوا أجوبة غامضة ولا تخلو من سخرية.

الشكل، رغم النحافة الظاهرة، يوحي بالقوة ومتانة العصب، إضافة إلى امتداد القامة، مع انحناءة صغيرة، ربما بتأثير قِرب الماء الكثيرة التي يحملها من الشط إلى البيوت أو إلى بعض الدكاكين في صدر المحلة.

نوعية العمل، ثم طبيعة الحياة التي يعيشها، تجعل الإنسان يكبر أكثر من الآخرين وقبلهم، لكن هذا الكبر يتراجع، وقد يتلاشى، إذا وقعت بعض المعارك، أو حصلت الرهانات لتحديد من يرفع ثقلاً أكبر من غيره، ومن هو أقوى زنداً حين تتقابل الأيدي في الكسار، ومن يتفوق في الصراع. فسيفو الذي يبدو بنظر الشباب الأغرار مسناً، وساقاه أقرب إلى سيقان الغزلان، لا تكادان تحملانه، وهو ينقلهما بهدوء حذِر، وعظام الوجنتين البارزة وكأن لم يبق غيرها في ذلك الوجه المحروق بشمس بغداد

التي تتساقط من السماء كاللهب، وتبدو أشد حرارة وأكثر فعلاً إلى جانب الشط، ثم خلال الطريق الصاعد باتجاه الشيخ صندل. إن تلك الشمس أضافت إلى التمويه الخلقي الذي ميّز الوجه، تمويهاً إضافياً، بحيث يصبح الشباب الأغرار على قناعة كلية أنهم بدفعة صغيرة يمكن أن يسقطوا هذا الشبح، ويمكن بليّة يد لا يُستعمل فيها إلا جزء من القوة حتى تتقلص ثم تنثي العظام في اليد المقابلة، لكن ما أن يبدأ النزال، خاصة في أيام الربيع المتأخرة، حين تحتدم القوة بالعنفوان، بذلك الفيض الذي يطفو على الأجساد والأرواح معاً، ما أن يبدأ النزال، ويكون سيفو طرفاً فيه، حتى يكتشف الصغار خطأهم، بعد أن خسروا الرهان، وحتى يزداد تقدير الكبار، معللين الأمر أن الملائكة التي ترعاه تمنحه القوة أيضاً.

قد يضيف بعض المعجبين، وكنوع من الدعابة المشوبة بالحسد، وغالباً ما يقولون ذلك همساً: «الماء البارد مثلما يحيى يميت؛ أحيا فيه القوة وأمات الخَلَف». إذ يعتقدون ان آلاف القرب التي حملها على ظهره روت عصب القوة، جعلته أخضر ريّاناً، وقتلت عصب الشهوة فبرد. يقولون ذلك بمزيج من الفخر والحسد، وإن كان الفخر أغلب، خاصة وهم يرون أبناءهم، وبعضهم يرى أحفاده أيضاً، في الوقت الذي لم يرزق سيفو بوَلَد.

ليس ذلك فقط، فالجميع يعرفون أن فطيم أم الغزل هي زوجته الثالثة، وقد أنجبت قبل أن تتزوجه بنتاً وولداً. الولد غرق في الشط، وكان ابن عشر سنين، والبنت كبرت وتزوجت وسافرت إلى البصرة، وقد قبلت فطوم أن تتزوجه لأنها تريد رجلاً يحميها، ويكون إلى جانبها أكثر مما تريد زوجاً تنجب منه، كما أسرّت لواحدة من صديقاتها، وتريد أن تعيش مع سيفو كما تعيش القطة مع أهل البيت!

أما الزوجتان اللتان سبقتا فطوم فواحدة أخذها الفيضان، بعد أن عاشت معه ثلاث سنين، ولم يُعرف شيء عن أسباب الغرق! والثانية ماتت بالهواء الأصفر، مثل كثيرين، حين هبّ ذلك الهواء من جهة الشرق وخرب بيوتاً

كثيرة في الكرخ والرصافة، وفي أمكنة أخرى كثيرة، وقد أصيب بهذا الوباء سيفو نفسه، لكن الملائكة تولت حمايته، رغم أن الحمى تعاوده بين فترة وأخرى.

يقول بعض الناس إن الحاج علاوي، مختار محلة الشيخ صندل، يعرف كل شيء، ليس في المحلة وحدها، بل وفي المحلات الأخرى. ويقولون إنه يعرف بغداد طابوقة طابوقة. له ذاكرة مثل حد السيف، وتشبه بير الغيبة، حيث تنزل لتبقى إلى الأبد، وإذا دخلت إلى البير لا تخرج من هناك بسهولة.

ويقول بعض الناس إن الأسطة إسماعيل، حلاق محلة الشيخ صندل يفوقه، رغم أنه لا يترك دكانه، فهو «يعرف أية دجاجة باضت البيضة، وأي فلاح زرع القمحة، وأن كل الأخبار تأتي إليه مبلبلة، ساخنة» حتى ليحار الكثيرون كيف تصله ومتى، ومع أن بعضهم يقضي لديه ساعات متواصلة، أو يرابط جالساً في المقهى المقابل للدكان، ويرى الذين يأتون والذين يذهبون، فإليه وحده تصل الأخبار. وأبو حقي الذي يحرص على نقل الأخبار إلى الذين يسألونه، يحرص أكثر من ذلك على كتم مصادره. كما أن الأخبار على لسانه تكتسب ألقاً ونضارة تفتقر إليها أخبار الحاج علاوي. وإذا التبس خبر من الأخبار على الناس، ذهبوا إلى الأسطة إسماعيل، فعنده الخبر اليقين، والمعرفة الأكيدة.

سيفو يعرف أخباراً كثيرة، لكنه يختلف عن الحاج علاوي وعن أبو حقي، فلا يجيب إلا على الأسئلة التي توجه إليه، وأغلب الأحيان بإيجاز شديد، ويتجنب المبالغة والتعريض، كما يمتنع عن ذكر الأخبار المسيئة، وإذا اضطر، نتيجة الإلحاح، فلا يذكر الأسماء، إذ يعتبر ذلك رأس الفتنة.

يحاول أبو حقي بوسائل ماكرة، وخلال اللحظات التي يملأ له سيفو الحِب، أو يرش الماء أمام دكانه، أن يستقي منه بعض الأخبار، كأنْ يبدأ بذكر اسم أو طرف حادثة وقعت في الأيام الأخيرة، ويتبعها بسؤال ما إذا يعرف تفاصيلها أو ملابساتها، وسيفو الذي ينظر إليه بطريقة هي بين

الاستفهام والاستنكار، يحاول الهروب من الإجابة، لكن كثيراً ما يوقعه أبو حقي. ومن بضع كلمات، أو من تعليق قصير، يربط ما قاله سيفو بما يعرفه هو، بما سمعه من آخرين، ثم إن طريقته في إعادة رواية الحادثة تجعله الوحيد الذي يعتد بروايته، ووحدها تنتشر.

والحاج علاوي عكس أبو حقي في حمل سيفو على الكلام، إذ يلجأ إلى الاستفزاز، وبعض الأحيان إلى السخرية، وسيفو الذي يحتمل الكثير، ويتظاهر أنه لا يسمع، يصل إلى حد لا يطيق السكوت، ولا يرضى بالأكاذيب، إذ يضع القربة جانباً، ويصرخ في وجه المختار:

ـ بغدادنا زغيّرة، حجي، والناس تعرف الاكو والماكو، فاتركنا من هذي السوالف، واذبحها على قبلة!

ويضحك الحاج علاّوي بقهقهة، كوسيلة للدفاع، وتخرج الكلمات من فمه مبعثرة:

ـ هذي هي القبلة، إذبحها وراوينا. . .

ولا يكتفي بيده وهو يشير نحو القبلة، بل يستدير نصف استدارة، ويتابع:

ـ الناس ما تحب الصدق، الناس تريد اللي يونّسها، وأنت مالك شغل إلا تونّس الناس.

ـ آني حجي؟

ـ من أكو غيرك يفتر بالدرابين ويلقلق؟ يقول اللي صار واللي ما صار؟

ـ حجي. . ترى اكو بيوم القيامة حساب وكتاب!

ـ باوعوا يا جماعة الخير. . منو اللي يحچي عن يوم القيامة، وعن الحساب والكتاب!

ـ ما راح احچي لو طلعت برأسك نخلة، موت بقهرك.

ـ اخصمها مولانا، وأنت تعرف أزيد من غيرك، قل لنا شنو أخبار عزرا؟ شنو أخبار الآغا؟

يضحك سيفو، يتلفت في جميع الاتجاهات، ويخرج صوته ساخراً:

ـ باوعوا عمن يسأل؟

وبعد قليل وبصوت مختلف:

ـ آني مالي شغل بهذول الخايسين، ولا تهمني سوالفهم، لأن الواحد منهم أنجس من اللاخ...

ويعود من جديد إلى لهجة السخرية:

ـ الحجي، يا جماعة الخير، شامرنا بحجر چبير، وبعد ما چان يسأل عن الباشبزق فلان، والجندرمة علان، صار يسأل عن الإكبارية، جماعة السراي! وباچر ما يندرى يجوز يسأل عن الوالي.

وينهض بسرعة واضعاً حداً لهذه المناقشة، وما أن يرفع القربة على ظهره، حتى يقول:

ـ إسألنا يا حجي عن الفقراء، عن أهل الله، هذول اللي نعرفهم، وهذول اللي يستاهلون إن الواحد يسأل عليهم.

ويرد عليه الحاج علاوي بسخرية مماثلة:

ـ الفقراء يا سيفو مالهم حظ بالدنيا، حظهم عند مالك الملك، عند رب العالمين. أما الواقعين بالدهن، أما عزرا، والكيخيا والآغا، وجماعة ذاك الصوب، فهذول إمّا يشبرونا ويسوّدوا عيشتنا، أو يهديهم الله ويفكوا عنا ياقة، وعندها يقدر البني آدم يرجع لأهله سالم، ويعرف يبيع ويشتري، وبالليل يصيح: أوف.. ويا عين!

ـ نحن، يا حجي، ماشين الحيط.. الحيط ونقول يا رب الستر. أما الولاية وما يصير فيها من قرا بالغ فمو يمنا، فخلينا بهمنا، يرحم والديك!

وينزلق سيفو في درابين المحلة لكي يوصل المياه إلى البيوت، ويظل لسان الحاج علاوي يهدر بما كان وبما سيكون، لا يتوقف إلا لحظات، ريثما يستقبل أحد الذين يريدون أن يختم له ورقة تتضمن بيعاً أو شراء، فيجر من حزامه بسرعة الختم النحاسي، ويرطبه ببخار فمه، ويختم بيده اليمنى، ويده اليسرى ممدودة لتلقي المقابل، وبعد أن يتأكد من المبلغ، يتابع، حسب لازمة لا تتغير:

ـ أي نعم، وين وصلنا بالسالفة؟

ولأن كل واحد من السامعين يفهم الحديث بطريقته، فإنه يصعب تحديد نقطة التوقف. يخرج صوت الحاج علاوي، والذي يحمل معنى اللوم للآخرين لأنهم لا يتابعون بدقة، وربما لا يفهمون ما يقول:

ـ ما علينا من السوالف الزغيّرة، منو قال وشنو قال، المهم شقال الاكبارية، شنو جرّنا لهذي السوالف... وين صار رباط الحچي؟

ويتذكر مرة، ولا يتذكر أخرى، ولأن لديه الكثير ليقوله يتابع بلهجة جديدة:

ـ ما علينا، المهم...

ويندفع إلى حديث يعتبره مهماً، يقول لمن يقابله ويستمع إليه:

ـ المهم... آغاتي مو تفتحوا عيونكم وحلوقكم، المهم تفتحوا قلوبكم، حتى الواحد يعرف أن كلامه ينقال لمن يستاهله!

44

«هل يمكن للزمن أن يكون طويلاً مجدباً قاسياً إلى هذا الحد؟» هكذا سأل بدري نفسه، وهو يحاول، طوال أسبوعين، أن يصل إلى نجمة، ولا يستطيع.

أراد، أول الأمر، أن يصل بمفرده ومباشرة، لكن انقضت أيام دون أن يحقق أية نتيجة، إذ لم يهتد إلى مكانها، أو إلى من يوصلها إليها. أما حين عرف أن روجينا هي الأم والعش، ورغم إحساسه بالمرارة، فقد قرّر أن يلجأ إليها. وروجينا التي استقبلته باهتمام وبدت بشوشة مرحة، فقد فعلت ذلك لأنه مرافق الباشا، ولما تخلى عن هذه الصفة فقد اعتبرته واحداً من الرجال، وبالتالي يمكن أن تقدم له واحدة من البنات، أجمل البنات، لكنه لم يشأ أيضاً. أما حين فتح صدره، وأخرج قلبه ووضعه أمامها، فقد كان لا يريد سوى نجمة. بدت روجينا حائرة مشفقة، بل وحزينة. ماذا تستطيع أن تفعل من أجله، وكيف تتصرف معه؟ حتى ذلك المقطع من الأغنية الذي رددته كان حزيناً أكثر مما كان ساخراً. وكأنها تريد أن تقول: لا أملك لك حلاً، ولا أستطيع شيئاً!

في تلك الليلة، ومع أنه خرج متأخراً من بيت روجينا، فقد حام، مثل أي لص، حول القلعة. كان يعرف أن ثامر إلى جانب سيد عليوي، وبالتالي يجب أن يقيم قريباً منه، ونجمة لا بد أن تكون هناك أيضاً. نظر إلى عددٍ من كوى القلعة، كانت مظلمة. نظر إلى السور، كان عالياً قاسياً ومنفراً. أما سيد عليوي الذي حرص على الإقامة في القلعة خلال الفترة

الأولى، ثم أثناء التحضير لحرب الفرات الأعلى، فهل ما يزال متقشفاً وراغباً في أن يبقى بين جنوده، خاصة بعد النصر الذي حققه، أم يريد أن ينتقم الآن، ويعوض ما فاته، ولذلك سرح إلى بيت من البيوت الكثيرة التي يتردد عليها، وحمل معه الشراب والغناء والرقص ومضى؟

تراءت له نجمة، لكن هذه المرة بين مجموعة من الرجال المخمورين، وليس كما شهدها في ليلة القلعة. الآن.. الرجال لا ينظرون إليها من بعيد، وإنما يتناوبون عليها، يتقاذفونها، وهي لا تملك إلا أن تستجيب، أن تشاركهم الضحك والعربدة، حتى إذا قامت لترقص، ولا بد أن تكون عارية، لا يطاوعها جسدها، يرتخي ثم يسقط. والذين حولها يصرخون، يطالبون. وتحاول، لكنها تسقط مرة أخرى، تتلوى وهي على الأرض، يتشنج وجهها، يهتز جسدها، ثم فجأة تتقيأ.

قال لنفسه بحنق وهو يحاول إتقاء هذه الصورة: «لا يمكن أن تكون هكذا، إنها أقوى منهم، ولا أحد يستطيع أن يرغمها. وتذكر كلمات روجينا: «أي مرية إلا هذي» وحلفت لتؤكد له، وأضافت أن ثامر قابض عليها كما يقبض الكلب على عظمة، وانه يغار عليها ولا يقبل حتى لضوء القمر أن يراها، ولا زال نادماً على تركها ترقص هكذا أمام الرجال في ليلة القلعة.

بعد الدورة اليائسة حول القلعة، ولمقاومة فكرة أن تكون نجمة الآن عارية وبين مجموعة من الرجال، قرر أن يعود إلى داره في الشيخ صندل.

كانت بغداد تغرق في أضواء الفجر. برد ناعم يوقظ الحواس. ملاّ حمادي الذي رفع الأذان بسرعة، مثل عادته، وانتهى من هذا الواجب الضروري، يريد أن يوقظ الجميع، لذلك يرفع صوته متعمداً للرد على تحيات المارين القلائل، وينادي كانه يصرخ أو يستغيث طالباً من سيفو أن «يرقص لليوم الجديد بجفية» لأنه أول محرم، وعليه أن يبذل جهداً مضاعفاً لمثل هذا اليوم المبارك، ليتقاضى بهذه المناسبة إكراميات وعطايا لا حد لها!

وصل بدري والنقاش، الأقرب إلى المداعبة، يدور بين الملا حمادي وسيفو. وإذ رحب به الإثنان، واعتبرا هذا الصباح مباركاً، خاصة وأنهما لم يرياه منذ وقت طويل، لكن يُقدران الأعباء والمهمات التي يقوم بها، وإضطراره للإقامة فترات طويلة في السراي، إلى جانب الباشا، فإن المحلة تعتز، كما قال ملا حمادي، «لأن لها ابناً في السراي وكلمتنا هناك مسموعة.» فقد تساءلا، دون كلمات، ما إذا كان آتياً من السراي أو ذاهباً إليها في هذه الساعة المبكرة.

قال ملا حمادي، وكأنه تذكر أياماً سابقة:

ـ اللي يشوفك، يا بك، بعد هالغيبة الطويلة، يقول شقد كبرنا، وشقد مرت أيام.

ـ الأيام تركض ركض يا معود، قال سيفو، سدّ عين.. إفتح عين تشوف العمر انقضى!

ـ مو بس هالشكل: نركض من الصبح إلى المسوّيات والعشا خبيّز!

ـ تهون يا ملا، تعوّدنا، وما عادت تفرق!

ـ أنت ما تفرق وياك، مولانا، ماكو وراك دادا ولا بيبي، بس ويّا غيرك تفرق، لو أنا غلطان.. بك؟

ـ حاشاك ملا، اللي تقوله صحيح!

هكذا رد بدري، في محاولة لئلا يدخل في نقاشٍ لا يعني له شيئاً، وغير مستعد له، الأمر الذي استفز سيفو، فقال بحدّة:

ـ لا تسمع هذا الكلام، مولانا، الملا كل كلامه دفن.

ـ آني سيفو؟ بهذا اليوم الفضيل تقول هذا الكلام؟ ما تخاف الله؟

ـ ما أخاف غيره، ملاّ، بس أنت قلت لروحك: جا ابن المحلة، بدري، فلازم ما نفوّتها، نذبّ قدامه چم حچاية، وهو ما يقصر، يقول للباشا والباشا يعطي!

ـ وشكو بيها إذا الباشا تصدق على الفقرا، على اللي يستاهلون؟

ـ قبل ما تسأل الآدمي: شلونك، شلون الصحة والأحوال، شوكت

نسمع الأخبار الزينة إنك راح تتزوج ونفرح بك، قبل هذا كله: تعدّد وتلطم، فإذا الباشا ما انطاك تريد بدري ينطيك، مو هالشكل؟

ـ أنت تدوّر طلايب سيفو، تريد تفتن بينا!

قال بدري، وحاول أن يحمّل صوته مقداراً من المصالحة:

ـ يا جماعة الخير: الدنيا بعدها غبشة، وآني صار لي كم يوم ما نايم، عصريّة أو مسويّات نتلاقى ونسولف!

رد سيفو في محاولة لأن يقطع الطريق على الملا حمادي:

ـ لا تدير بال، عيني بدري، الملا يشيل من اللحية ويخلّي على الشوارب، ولا بد شعرة تلزق!

تركهما بدري يتناقشان ويتعاركان، ومضى.

عادة محلة الشيخ صندل أن تكون شديدة الاحتفال بأبنائها، خاصة عندما يعودون من سفر، أو حين يشفون من مرض، وتعبّر عن ذلك بالزيارات والهدايا، لذا اعتبرت إجازة بدري لا تقل أهمية عن السفر أو الشفاء من المرض، فكثرت الزيارات وتواصلت. في الصباح بعض النسوة، الجارات والقريبات، وبعد الظهر، وعلى امتداد المساء والسهرة، الكثير من الأصدقاء وبعض الأقارب. الأم، والأختان الكبيرتان، شعرن أن الإجازة هي استجابة لطلباتهن المتكررة حول ضرورة أن يبقى بدري فترة في البيت، وأن يتردد عليه أكثر من السابق، كي يدبر أمر زواجه بطريقة مناسبة، إذ ستتاح له فرصة أن يلتقي ببعض القريبات، ببعض فتيات المحلة اللواتي كبرن فجأة أثناء غيابه، ولا بد أن تعجبه واحدة، وعند ذاك سيتم البحث العملي بين النساء، ثم بين الرجال، من أجل ترتيب المهر فالزواج. أما إذا ظل غائباً أو بعيداً، وظلت الأسماء وحدها تتكرر: فلانة طويلة، وفلانة سمينة، وهذه تريد وهذه لا تريد، لأنها صغيرة، أو تنتظر ابن عمها، إذا ظلت الأمور هكذا فلن يتزوج مهما ألحّت الأم والأخوات، ومهما تعاونت عليه العمات والخالات، إذ غالباً ما يرد على مثل هذا

الإلحاح بابتسامة، تعقبها نكتة، كي يدوّخ الناس، كما تقول أمه بحزن ومرارة.

لم يكن إذن ما قاله بدري للباشا كذباً كله، وإن لم يكن كل الحقيقة. ففكرة الزواج التي لم تراوده أو تشغله بهذا المقدار، كانت تشغل الأم إلى درجة أن عينيها تنفتحان إلى الدرجة القصوى ما إن ترى فتاة تعتبر أن فيها من الصفات ما يلائم «المقرود» الذي لا تعرف كيف يفكر أو ماذا يريد، خاصة وأن جميع أقربائه وأصدقائه الذين بعمره، أو حتى من هم أصغر منه سناً، تزوجوا وأنجبوا، وهو لا يزال يؤجل، ولا يرغب الخوض في هذا الموضوع!

الآن، وخلال هذه الإجازة، لا بد أن يحسم الأمر، وهكذا دب الصوت في المحلة أن بدري جاء ليبقى فترة غير قصيرة. وسرى الهمس أن شيئاً ما متوقع الحدوث، فإذا لم يكن زواجاً كاملاً، فلا أقل من نيشان، وربما عقد المهر، انتظاراً لوقت ملائم من أجل إتمام الزواج. وبهذه الطريقة التي لا تخلو من تواطؤ، بدأت تتوالى الزيارات التي تظهر بريئة عفوية، لكن وراءها تدبير ومكر كثير.

أما الأصدقاء والأقارب الذين جاءوا للزيارة، ثم للخروج معاً إلى مقهى المحلة، وأحياناً تبادل الزيارات مع مقاهٍ أخرى، وأيضاً التمشي على شاطىء دجلة بين العصر والغروب، فقد كانوا أكثر جرأة وصراحة في السؤال عن احتمال الزواج، وما إذا كان ينوي ذلك الآن. وكان الجواب، أغلب الأحيان، قصيراً وحاسماً: «ليش مستعجلين، بعد وقت» أو «الزواج ما هو بالبال ولا بالخاطر، فاتركونا من هذا الموضوع يرحم والديكم» فإذا ألح عليه أحد الأقارب المسنين بالسؤال، أو بضرورة أن يحسم الأمر ويقرر، فكان يلجأ إلى المزاح، وإلى نكتة يرويها كي يغير الجو!

وإذا كان الكثيرون على قناعة أن بدري يعني ما يقوله بشأن الزواج، فقد بدا لأغلبهم أن شيئاً يدبر في هذه الأيام، ومختلفاً عن أيام سابقة. حتى بدري بشكله أو بتصرفاته، وأيضاً طريقته في الكلام، وهو يرد على سؤال

أو يروي حادثة، بدا متوتراً ولا يخلو من نزق. غابت عنه تلك الميزة التي جعلته متفوقاً على الكثيرين: الحيوية، إذ كان يورد التفاصيل، وبصور مليئة بالطرافة والجدة. الآن يبدو ما يرويه، إذا روى، مفتقراً إلى النضارة، وبعض الأحيان مفتقراً إلى الترابط. أكثر من ذلك بدا وكأنه لا يرغب بأي كلام.

هل غيّره الجبل أم أثّرت عليه السراي؟ وهل تكفي هذه الفترة أو تلك الأماكن لأن تغيّر الإنسان بهذا المقدار؟

حتى الزيارات الصباحية التي يفضلها الأصدقاء المقربون، إذ يمكن أن يتحدثوا بهدوء، وأن يستفسروا عن أي شيء، دون مقاطعة الآخرين أو صخبهم، حين يتزايد الجمع، لم يستطيعوا أن يرتبوها، «لأن الأفندي» وهذه الصفة التي يطلقونها تقع بين التعريض واللوم، لكن دافعها المحبة بكل تأكيد، «ينام للظهر. وكأن عنده قصور نوم، وما يريد يشوف خلقة بني آدم». والذين تجرؤوا واقتحموا، وأيقظوه من نومه، فوجئوا وهم يرونه ذابلاً، أقرب إلى الغياب، حتى بعد أن يمر وقت غير قصير يجدونه غير مستعد لمشاركتهم، أو أن تلك المشاركة مختلفة كثيراً عن السابق، لفت نظرهم ذلك وحاروا في تفسيره!

الأسطه اسماعيل، أبو حقي، حلاق المحلة، جاء عصراً للسلام. جاء بملابس نصفها يرتديه أثناء العمل، والنصف الثاني أثناء الجلوس في المقهى أو زيارة الأصدقاء. ومثل عادته يريد أن يسمع وأن يتكلم في نفس الوقت، وبنفس المقدار. ولكي يعبر عن احتفائه، ولأنه لا يريد أن يبقى طويلاً، فقد خلق هرجاً غيّر الجو:

ـ ضوّت المحلة ببدرها فيا ألف هلا ومرحبا. . .

والتفت إلى الحضور، أجال نظرة سريعة، تركزت بالدرجة الأولى على الرؤوس، كي يتأكد أن لا أحد خانه وذهب إلى حلاق آخر، وما إذا كانت الرؤوس تحتاج إلى حلاقة جديدة أم لا. بعد هذه النظرة التي طمأنته بدأ:

ـ أشغال الناس كلها كوم وشغلتنا كوم. . .

تطلع بفرح إلى الوجوه التي شدتها هذه البداية، التي لا بد أن يكون وراءها شيء هام:

ـ القصاب يذبح، وبعد ساعة زمان ينفض إيده ويمشي، لأنه باع وخلّص. البزاز ما يوصل دكانه إلا الظهر، يروح مترهي، بعد استكان شاي أو اثنين، واحد بقهوة المحلة والثاني بقهوة الشط. ولما يفتح، يقول، وهو مقندل: يا كريم. وتتدهدى عليه خاتون وراء الثانية، وكل واحدة تخبّل وسوالف وضحك وشقا...

وأدار عينيه بالوجوه التي استطابت الحديث، وان ظل غامضاً، إذ لا يُعرف ماذا سيأتي بعده. هز رأسه عدة مرات، وتنحنح ليصقل صوته، ثم أضاف:

ـ وتريدون بعد أقول لكم شلون يشتغل العلوچي وبياع المخضرات والزعرتي و...

وسمع أصواتاً مرحة تطالبه أن يتحدث حول الزعرتي، رد بمرح، كي يبرر ما سيقول:

ـ قواويد، أدبسيزية، كلكم تعرفون شغل الزعرتي أحسن من أبو حقي، لكن اللي جوا إبطه عنز تثغي...

وضحك بمرح كي يزيل آثار الشتائم، وأضاف:

ـ باوعوا بين رجليكم حتى تشوفوا شنو اللي ساواه بيكم الزعرتي!

ولئلا ينساق في هذا الجو، وكي لا يمر الوقت، سأل بلهجة جديدة:

ـ إسألوني، يا جماعة الخير، شنو القصد من هذا الكلام؟ شنو لازمته؟

ـ إي أبو حقي، شنو قصدك؟

هكذا سأل أكثر من واحد، وبمرح، فرد، وهو يستعد للنهوض:

ـ أي نعم، وين ربّاط الكلام...

وتابع وهو واقف:

ـ أول ما قلته، إن كل الأشغال أحسن من شغلة المزين، كل شغلة ولها وقت، إلا شغلة المزين: بالليل وبالنهار، من غبشة وبعد ما تظلم العين،

ولازم تراضي كل الناس.

وخطا خطوة والثانية، حتى إذا أصبح وسط الغرفة، وقف وأخذ يردد:

ـ سليمى يا سليمى.. تنام قلوب الناس وآني قلبي شينيمه؟

وحين ضجت الغرفة بالضحك، وما كاد يجد لحظة كي يُسمِع صوته، حتى قال، وهو يخرج:

ـ مسلّم عليكم يا جماعة، وفي أمان الله!

ما كاد يخرج حتى أطل برأسه من جديد، وقال مخاطباً بدري:

ـ خل ببالك.. هذا الرأس ينراد له زيان، فلا تطوّل على أبو حقي!

وظل الأسطة اسماعيل، مثل عادته، يتسقط الأخبار، خاصة أخبار بدري، إذ بعد أن وصلته تعليقات مشوشة من الذين زاروه، أخذ يساوره القلق: إجازة طويلة أم أن الباشا استغنى عنه؟ هل هو مريض أم قرّر أن يتزوج؟ ولماذا هذا الشحوب وهذا الصمت؟

قال اسماعيل لسيفو، وهو يحاول أن يستدرجه:

ـ يقولون، سيفو، إنه بيت آغاتي اشتروا حوش بصفّ حوشهم وخيطوا واحد باللاخ، سمعت؟

ـ منو بيت آغاتي؟ وشلون يتخيط حوش باللاخ؟

ـ بيت علو...

وبعد قليل، وبصوت مختلف، كأنه يتآمر:

ـ يقولون أن بدري جا وجايب وياه كومة فلوس!

ـ إلعب بالمقصص، أبو حقي، شنو تريد تقشمرني؟

ـ وداعتك هذا اللي سمعته، هذا اللي يقوله الناس.

ـ آني ما سمعت، وما أحط بذمتي!

ـ زين.. أنت شنو اللي سمعته؟ شنو اللي تغيّر ببيت علو؟

ـ الله وكيلك ما تغير شيء: نفس الطاس ونفس الحمام!

ـ لعاد الناس ليش تحچي؟

ـ يا معود الناس من يوم آدم ما عندهم إلا الحچي والسوالف!

ـ يعني، برأيك، ماكو شي؟

ـ اي، ماكو شي، اطمئن!

قال أبو حقي يخاطب نفسه، لكن يريد أن يستفز سيفو:

ـ الله العليم انْ ماكو دخان بليّا نار!

ـ يعني ما تصدقني؟ ما تثق باللي أقوله؟

ـ كلامك على الراس والعين، سيفو، بس الواحد ما يقدر يسد آذانه، ويقول ماكو شي. . .

وبعد قليل وبانفعال عله يستدرج سيفو من جديد:

ـ كل الناس تسولف وتقول إن بدري جايب وياه لهمودة فلوس!

ـ يا أبو حقي الناس تلقلق، تحب الحچي، وأنت عاقل وتفتهم، وتعرف كلّش زين منو الحاج صالح العلو: الحرام أبد ما يفوت بيته!

ـ آني هذا رايي، سيفو، لكن ما أقدر أضم راسي مثل النعامة وأقول ماكو شي، إذا كان الكلام تارس بغداد!

ـ يا معوّد، أهل ذاك الصوب يسوون للضرطة هلاهل، فسدّها وخلصنا!

ـ وأهل هذا الصوب؟

ـ أنجس!

بعد قليل، وهو ينهض بعصبية:

ـ وآني على ويش مدوخ رأسي، خلّي أمّة علي تندب علي، وآني خلّي راسي مرتاح.

45

في أحد العصاري «قبض» الأسطة اسماعيل على بدري:

ـ جيت والله جابك، صار وقت زيانك!

ـ الله يخليك، أبو حقي، اليوم مالي واهس.

ـ هذي موكل يوم تحصل، هسه نحن وحدنا، أزينك ونسولف.

ـ مالي خلق أسطه اسماعيل، أجيك غير يوم.

ـ شوكت، قل لي، الدنيا ما عاد بيها أمان!

ـ ما أقدر أقول: بس غير يوم، اليوم مالي واهس.

ـ هذا مو كلام، بك، أريد تقول لي شوكت...

وتغيرت اللهجة تماماً، لم تعد تتعلق بالحلاقة، فعينا بدري الحائرتان، إضافة إلى شحوبه، أثارا الأسطة اسماعيل، سأل بلهجة جديدة:

ـ الزيان وأبو الزيان.. هذي ما اشتريها ببارة، ما زينت اليوم تزين ثاني يوم، الشعر مخلوف، لكن اللي حارق فوادي أني شايفك صافن، وما يندرى أنت هنا أو هناك، معنا أو مع غيرنا، وهذا مو بس رأيي آني، الكل يقولون: بدري تغير، وكأن المحلة وأهلها ما عادت فد شي بالنسبة له، لو آني غلطان؟

ـ أبو حقي، يرحم والديك، كلام الناس هوايه، فلا تدير بال.

ـ أشوفك هالأيام غير شكل، وكأنْ اكو قضية شاغلة بالك، أنت بس قول وما عليك، عليّ الباقي!

ـ ماكو شي، يا أبو حقي، ولا تلحّ، لأنْ بعدها أصدّق انه أكو قضية!

ـ خاف محتاج فد شي؛ خاف أحد غاثك؟

وتغيرت اللهجة، في محاولة للاستدراج:

ـ وأولها وتاليها، يا بك، الناس للناس، والأقربون أولى بالمعروف...

اقترب منه أكثر، حتى كاد يلامسه:

ـ نحن أولاد محلة، بينا خبز وملح، واللي يصير عليك يصير علينا. نحن إخوان، أكثر من الأخوان، فازعل هوايه إذا ظليت ساكت، إذا ما سولفت وقلت شنو اللي يوجعك!

ـ كل شي ماكو، يا أبو حقي...

وبعد قليل وبحزن:

ـ كل ما في الأمر: ضايج يا أبو حقي، والدنيا ما تسوى خِلالة!

ـ تعال.. تعال، لازم أعرف، عيني بدري: أنا أزين وأنت سولف، وإذا ما عاجبك زيان، نقعد ونسولف!

ـ خليني اليوم، أجيك غير يوم!

ـ إلى يوم گصاص الغزلان؟

ـ لا يا معود، يوم والثاني وما تشوفني إلا وأنا طاب.. تزين ونسولف.

ـ هذا وعد؟

وبعد قليل وبلهجة مختلفة:

ـ بس بصراحة شَوَّشتني، ليش هالضوجة؟

ـ لا تدير بال أسطة، كل قضية وإلها حل!

الأسطة اسماعيل الذي سلّم مؤقتاً، إذ شعر أن لا جدوى من استمرار الإلحاح والمحاولة، قدّر أن المشكلة التي تواجه بدري تتعلق، بالدرجة الأولى، بالوظيفة، إذ ربما يكون الباشا غاضب عليه، ولا بد أن تطول إقامة بدري في المحلة، وما لم يستطع معرفته اليوم سيعرفه في الغد، سواء من بدري نفسه أو من آخرين.

أما سيفو الذي أحس، دون سؤال، أن زيارة بدري ليست مثل زيارات

سابقة، وربما قدّر ذلك من عدد الضيوف، أو من انشغال الأم، وحركتها المضطربة السريعة، فإن منظر بدري، منذ اليوم الأول، ثم حين صدفه في قهوة المحلة، أو وهو يتمشى على شاطىء دجلة، لم يعجبه، لم يقل ذلك لأحد. لم يسمع الكثير مما كان يدور من همس وتعليقات، حتى ما قاله أبو حقي، لم يسمعه، لكن أخذ يراقب ويتساءل.

أكثر من ذلك: «قِرَب الماء التي كان يجلبها لبيت صالح العلو مرتين في اليوم، الأولى في الصباح الباكر، والمرة الثانية عند الغروب، زادها واحدة ثالثة، كان يجلبها عند الضحى. لم يطلب منه أحد ذلك، ولم يعترض على ذلك أحد، لكنه قدر ضرورة الزيادة وفعل. وربما كان الحمل الإضافي السبب الذي جعله يلتقي مرات عديدة ببدري.

ظل خلال الأيام الأولى يأتي بحمل الضحى دون ضجة، خلافاً لحمل الصباح، إذ كان يكره النوم المتأخر، ويريد أن يكون الآخرون مثله، أو على الأقل لا يميلون إلى الكسل، أما وهو يأتي بحمل الضحى، فكان ميالاً، لا يعرف لماذا، لأن يفعل ذلك بهدوء، وببعض الكسل، إذ يطلب أن يشرب الشاي، أن يجلس في باحة الدار. قد لا يتكلم كلمة واحدة خلال هذه الفترة. كان يكتفي بأن يدخن غليونه، ويتأمل النباتات، وبعد أن يحتسي قدح الشاي الثاني ينهض، وبهدوء يغادر.

في هذه الفترة، التقى أغلب المرات ببدري، وجرت بينهما أحاديث. كانت قصيرة، سريعة، لكن أكدت له أن هناك مشكلة ما. لم يقل له أحد ما هي. لم يسأل. لم يتغير شيء، سوى الحركة السريعة، وأيضاً صمت بدري، وبعض الأحيان ذهوله، أو ربما غيابه وهو يراه أمامه! وهذا ما جعله يراقب بعناية، ينتظر اللحظة التي يقول له بدري شيئاً، علّه يستطيع أن يصل إلى بداية «الانكشاف»، كما يقول لنفسه عندما يواجه صعوبات أو تحديات.

بعد عدة أيام من المراقبة، وانتظار اللحظة المناسبة، فجأة وجد بدري يحمل استكان الشاي ويأتي للجلوس بجانبه، ودون مقدمات بدأ:

- أبو فلاح . . أريد مساعدتك، أريد منك فد خدمة!

- آني؟ أساعدك؟

- أي نعم، أنت الوحيد اللي تقدر!

- أحچي غيرها، يا معود، آني رِجّال فقير، على باب الله، خاف أنت غلطان!

- لا . . عمو سيفو، أنت اللي تقدر تساعدني!

- أستغفر الله؛ أؤمر عيني بدري، واللي أقدر عليه، اللي أقدر أسويه، فدوة لعيونك.

حتى تلك اللحظة لم يكن سيفو يصدق أذنيه، زحف، كما يزحف كلب، نحو بدري، تطلع إليه، بعد أن فرك عينه اليمنى بطرف ردائه، بعناية، إذ ربما توضح النظرة ما عجزت عنه الكلمات. كان خائفاً ومرتبكاً. تابع بدري وكان صوته مضطرباً:

- تعرف ملاّح؟ صاحب مركب؟

لم يجب سيفو، فكل ما يسمعه، حتى الآن، يبدو غريباً، غير قابل للتفسير. تطلع من جديد، وبإمعان، إلى عيني بدري، وكان يجلس بجانبه وليس بمواجهته، لعل العيون والحركات تسعفه لمعرفة ما يريد منه. قال بدري:

- أريد صاحب بلم أو صاحب مركب زين، خوش ولد، نؤجر مركبه من الصبح إلى المغرب . . .

وتغيرت النبرة وهو يسأل:

- تعرف تجدف أبو فلاح؟

ماذا يريد منه؟ لماذا يسأله هذه الأسئلة؟ وماذا يريد أن يفعل بالمركب؟ هكذا سأل سيفو نفسه، وهو يحاول أن يقدر إجابات من نوع أو آخر، دون أن يجزم بشيء.

رد سيفو بارتباك:

- أكو هواية بلاّمة زينين.

وبعد قليل، وقد غيّر جلسته، ليكون مقابله، وسأل، وكان جسده كله يسأل:

ـ بس ما قلت لي شتريد بالمركب؟ وين تريد تروح؟ وين تريد تسيّر؟

ابتسم بدري كانت ابتسامته مرتبكة، ووجهه شاحباً، بدا حائراً أو غير قادر على الإجابة. وربما عنّت له فجأة فكرة أن يستأجر قارباً وينزل إلى النهر، أما ماذا سيفعل بعد ذلك فلم يكن يملك جواباً أو تصوراً واضحاً.

سأل سيفو إذا كان راغباً بكأس شاي جديد، وكأن بهذا السؤال يريد أن يغير الموضوع، أو أن يعطي نفسه فرصة إضافية كي يفكر، ومن أجل أن يخرج الموضوع بطريقة مقنعة أو ربما جديدة. هز سيفو رأسه بالموافقة، دون أن يتكلم. نهض بدري، وهو يحمل الكأسين. بدا في مشيته وكأنه لا يسيطر على جسده وحركاته، ترنح قليلاً ثم استقامت المشية. شعر سيفو بالحزن، وامتلأ حيرة أكثر من قبل. قال لنفسه، وهو يهز رأسه: «تغيّر الرِّحّال.. تغير هوايه».

مع الرشفات الجديدة، وبدا الشاي هذه المرة أطيب مذاقاً، تجرأ سيفو على السؤال:

ـ ما قلت لي: ليش المركب؟ وين تريد تسيّر؟

ـ ما أريد أروح لأي مكان. أريد أتمدد بالمركب وأباوع على القلعة...

وبعد قليل، وبصوت يكاد لا يسمع:

ـ لعل وعسى؛ يمكن الله يفتحها على وجهنا!

إذا كان للكلام السابق أن يُفهم، ولو بصعوبة، فإن ما يقوله بدري الآن لا يفهم أبداً. انه كتلة من الألغاز، وربما يحمل الخطر أيضاً. تذكر سيفو الأحداث التي وقعت قبل سنتين، عندما حوصرت القلعة وكان فيها سعيد وحمادي، وكيف ألقى بعض الذين كانوا فيها أنفسهم إلى الشط، لعلهم ينجون، ثم كيف اضطرب الشط، وسادت الفوضى واتسعت، وخاف الناس وترك قسم منهم بيوتهم وسافروا... فماذا يريد بدري الآن من

القلعة، وما الحاجة إلى مراقبتها بعد أن حكم داود وأصبح كل شيء في بغداد طوع بنانه وتحت تصرفه؟

مرت هذه الصور والأفكار في مخيلة سيفو، وقد أصبح كله عيوناً، وهو يراقب بدري، ولا يعرف كيف يفكر أو ماذا يريد.

تطلع بدري بتحديد إلى عيني سيفو، قال، وخرج صوته دافئاً وراجياً:

ـ إذا قلت لك فد سر، يا أبو فلاح، يظل بينّا؟ ما يطلع؟

رد سيفو، وشاب صوته الألم:

ـ على بختك، بدري، شنو مالك ثقة بيّ؟

وبعد قليل، وكأنه يلومه:

ـ لولا أني أعرفك، وأعرف الحليب اللي رضّعك، كانت أخذت على خاطري...

وتغيرت اللهجة أكثر، أصبحت تقّريعاً:

ـ شنو نسيت الأوادم؟ ما عاد اكو أمان بالدنيا؟ والرجال ينربطون بزنجيل أو بكلمة يقولونها...؟

وعاد إلى لهجة مصالحة:

ـ لا... على بختك يا بدري، ما كنت أريد منك هذا الكلام!

هكذا تدفق سيفو، دون أن يترك له فرصة للتوضيح أو الرد. وبدري الذي كان يهز رأسه ويبتسم، كان راضياً أيضاً عن الثقة التي يقدر وجودها لدى سيفو، لكنها الآن تعبر عن نفسها بهذا الفيض الذي لا يترك مجالاً لشكٍ أو لتردد.

رد، وكان لصوته رنين:

ـ ما افتهمتني زين، يا أبو فلاح، وما كان قصدي من السؤال اللي جا ببالك...

ـ على كلٍ شتريد.. قول!

هكذا رد سيفو بما تبقى في صوته من عصبية، وراغباً في أن يسمع ذلك السر.

جمع بدري نفسه، تنحنح أكثر من مرة، استعداداً لأن يبوح:

ـ أنا متورط، يا أبو فلاح. شفت بنيّة. شفت بنيّة، شلون بنية، تاخذ العقل، ومن يوم ما شفتها وصورتها ما تغيب عن بالي لا بالليل ولا بالنهار. . .

كان سيفو يسمع ويهز رأسه، وللحظات، ظن أن بدري يهذي، إذ لا توجد علاقة بين الذي يقوله الآن، وما بدأ به الحديث. هل يريد أن يصطحب الفتاة بنزهة واختار أن تكون في النهر؟ وما دخل القلعة في الأمر؟

سأل، وبدا صوته بين المرارة والسخرية:

ـ راح تخبلني، لأنها انلاصت علي. بدينا بمركب مع ملاح زين، وبعدها تحجي لي عن بنية، ما تفهمني وين رباط الحچي؟ شجاب هذي على هذي؟

ـ القصّة طويلة، لكن بالمختصر المفيد: هذي البنية، الله أعلم، نازلة بالقلعة، وأريد أتأكد!

ـ نازلة بالقلعة؟ شنو اللي جابها على القلعة؟ شتسوي هناك؟

ـ رجلها يشتغل بالقلعة!

ـ وهمين متزوجة وعندها رجال؟

ـ أي نعم. . . لكن. . .

وحاول أن يستدرك، أن يوضح، لكن الصورة غامت وتداخلت في ذهنه، فلا يعرف إن كان ثامر تزوجها أم تعيش معه دون زواج، وما إذا كانت له وحده، أم يشرك الآخرين معه، وما طبيعة العلاقة بينهما. سأل بارتباك:

ـ تعرف ثامر المجول؟ سمعت به؟

ـ منو ما يعرف ثامر يا معود. هذا أشهر من نار على علم!

وبدأ سيفو أكثر اندهاشاً وحيرة. تطلع إلى بدري بإمعان وبخوف. ماذا حصل له، وماذا حصل في هذه الدنيا؟ يبدأ بسؤال وينتهي إلى شيء آخر مختلف، ولا علاقة بين البداية والنهاية، فكيف يفكر الرجل أو ماذا يريد؟

خفّض سيفو صوته، وهو يسأل:

ـ شنو القصة؟ شنو اللي صاير بالدنيا؟

ـ ما أدري، شفتها وتخبلت بيها!

ـ وثامر، شعليه؟ شنو قصته؟

ـ عايشة وياه، وما أدري، يحبها؟ مستقعدها؟ تزوجها؟

ـ سالفتك آغاتي، ما الها چارة، برسيم بعوسج...

وبعد قليل وبطريقة أبوية:

ـ عيني، بدري، خاف أنت متوهم، هذول الناس ما أحد يقربهم، يتحارش بيهم. فإذا كان ثامر مستقعدها، فلا بد تكون مثله، هالرقعة لهل البابوج، فانساها ولا تدير بال، يرحم والديك.

ـ ما أقدر يا أبو فلاح، ما أقدر!

ـ والله دوختني، وما أعرف شاقول، وشلون أقدر اخدمك وأساعدك؟

ـ ننزل بالمركب، ونظل نباوع القلعة، بركي الله!

ـ تحچي صدق لو تقشمرني؟

ـ إذا أريد أقشمر روحي ما أقشمرك، يا أبو فلاح! أنت مثل أبوي، وما تعرف شقد أقدرك وأحبك.

ـ وإذا أخذنا المركب ونزلنا بالشط، وشفت المسعدة، بنت الأوادم، شراح تسوي؟

ـ ما أدري، المهم أباوعها، أشوفها!

ـ وإذا شفتها؟

ـ هذا يكفي!

ـ لا تلعب بي شاطي باطي، بدري، يرحم والديك، قل لي الصدق حتى نذبحها على قبلة، لأن هذا الكلام اللي تقوله ما ينصرف، ما يسوى فلسين!

ـ أنت ما عليك، خلينا ننزل وبعدها الله كريم!

ـ لازم تعرف، بدري، عيون الناس مفتحة، وإذا ظلت القضية سر بيني

وبينك، باچر اكو ملاح واكو أوادم بالشط وعلى الصوبين، والناس تحچي!

ـ إحنا شمسوين، يا أبو فلاح، بايقين؟ ناهبين؟

وتغيرت اللهجة، وهو يضيف:

ـ قاعدين بالمركب نباوع، وإذا الله رزقنا نصيد فد شبوط.

ـ بدري.. هاي بغداد تنسد بوبها، وحلوق الناس بيها ما تنسدّ، فخاف تجيبك التهايم وأنت نايم، وبعدين تبتلي. أنا ما عليّ، لا بعدين تقول!

ـ ما عليك، أنا المسؤول!

ـ زين.. زين. اليوم خلص، باچر أدوّر على ملاح زين، وعقب باچر ننزل، اتفقنا؟

ـ على خيرة الله!

46

اثنان لم يناما تلك الليلة: بدري وسيفو!

فسيفو الذي تعود أن يصل إلى البيت بعد الغروب بقليل، وغالباً يصلّي المغرب متأخراً أو لا يصليه، رغم لوم ملا حمادي ومحاولاته في أن يحمله على الصلاة في المسجد جماعة، «لأنها أبرك، يا أبو فلاح، وكل ركعة بألف، وهذي راح تشفع لك يوم القيامة» فإن جميع الجهود التي بذلها الملا لم تجدِ. كانت الحجة الدائمة لسيفو: الجوع. «جوعان، ملا وتعرف: إذا بردت الشوربة ما تنكال». لكن إلى جانب هذه الحجة: الرغبة في أن يشعر، ولو لفترة قصيرة، أنه قادر أن يكون سيداً، وأن يفعل ما يريد، وليس ما يطلب منه. ومن جملة ما أصبح يعتبره حقاً له: أن تستقبله فطيم، وأن تصب الماء على يديه ليزيل آثار تعب اليوم، وأن يكون الدوشك مفروشاً في صدر الغرفة، وبعد أن يغيّر ثيابه، والثياب هي الدشداشة القذرة المربوطة بالحزام الصوفي، إذ يخلعها بسرعة ويرمي بها في الزاوية، وحالما يفعل ذلك يبدو مثل طائر ملون: الأجزاء التي تتعرض للشمس تبدو قاتمة أقرب إلى السواد، أما تلك المستورة، عند أسفل البطن وحتى الركب، فإنها متدرجة الألوان: حنطية قاسية، ثم بياض كأنه التراب المبلول، ثم بلون الباجلاء، حتى إذا رأى الإنسان لون الركبتين فإنه يرى ما يشبه الخبز المحروق: سواداً على كثافة خشنة وكأنه طين متراكم.

حين يخلع دشداشته، ويبدو عارياً، أو أقرب إلى العري، وتراه فطيم هكذا، تقول بنوع من السخرية:

ـ وين مصخّم روحك. . . ؟

وقبل أن يجيب، وهي لا تنتظر جواباً، تتابع:

ـ نايم ورجليك بالشمس، وراح يجي يوم مو بس تسودّ، راح تحترق!

يتناول منها الدشداشة النظيفة. يبتسم. يقول كأنه يكلم نفسه:

ـ باوعوا منو اللي يحچي، منو اللي يقول!

وبعد قليل، وبسخرية:

ـ قال غراب لغراب: ولك. . ليش أنت أسود؟

ترد فطيم بتحدٍ:

ـ إذا أحد شافني وشافك يقول: حرامات هذا الأبيض القرطاس ينمرد ويّا الفحم والطين!

ـ الحق وياك خاتون: إذا الشمس من أيام وسنين ما شافتك، وإذا تباوعين على القمر من ورا البوشي، فلازم تصيرين قرطاس، أبيض من القرطاس!

وقبل أن تجيب يهدر صوته:

ـ ويلچ. . منقوبة، بدل العوافي، بدل الهلا والمرحبا، واقعة بي دق؟ أسود ومطيّن؟

وتتغير اللهجة، تصبح ساخرة:

ـ الحق عليّ أتزوج واحدة مزنجرة، تخضخض مثل گونية العظام، لكن القدر كتب ورسم. . .

وبعد قليل، وقد لبس دشداشته وارتمى فوق الدوشك:

ـ ما يخالف. . إذا فاتتنا بالدنيا. . حظنا بالآخرة ما راح يكون هبي بياض!

ـ باوعوا منو يقول. . .

تتسع ضحكتها وهي تهز رأسها، وتضيف:

ـ عبالك تشوف الجنة؟ هاي شيلها من بالك!

ـ حتى الجنة ما أريدها إذا أنت بيها!

وفجأة تتغير فطيم. تشعر بالخوف فيما لو تركها فعلاً، أو اختلف دربها عن دربه، تسأل بقلق:

- صدق.. أبو فلاح.. شراح نسوي إذا آني بصفحة وأنت بصفحة لخ؟ ما نتلاقى؟ ما نتشاقى؟ وصوتك.. ما أسمعه يصيح: وين انت فطيم؟

- قومي بربوگ.. اشتعل ربي من الجوع، ومصاريني تقرقر، أريد فد لقمة!

- على ويش مستعجل؟ خلنا نسولف، نحچي، موبس أكل ونوم يا مال القوم!

- فطيم.. قلبي من الجوع سايف، فيرحم والديك لا تطوخيها، قومي سخني الأكل، وخليني أتزقنب.

- من هالعين قبل هالعين.. يا أبو فلاح الورد.

- تظلين بنت أوادم وصاحبة أصل!

- كلمن حليبه يرده، وما تعرف شقد غلاتك عندي، يا أبو فلاح!

كانت ترقبه وهو يأكل. كانت في أعماقها تحبه، لكن تعتبر أن من الضعف، وربما من الخفة، أن تظهر له هذا الحب. أن تحوله إلى مجرد كلمات. أكثر من ذلك، كانت تحاول، بعض الأحيان، أن تناكده، أن تثيره، إذ بهذه الطريقة، والتي يتخللها بعض الشتائم، تحمله على الكلام، وهي تعرف أنه لا يعني الشتائم التي قد يتفوه بها، إذ تعتبرها جزءاً من مستلزمات الحديث!

تلجأ إلى هذه الطريقة لأن سيفو الذي يصر على تناول طعامه وهو متربع على الدوشك، ما يكاد ينتهي، وفي أحيان كثيرة وهو يلوك اللقمة الأخيرة، حتى ينقلب على جنبه ليدخن غليونه أولاً، ثم ليهبط إلى النوم فوراً، وهي لا تريده أن يفعل ذلك. تريد أن يتحدث، تتمنى أن يسألها عن يومها، من رأت وماذا فعلت، لتسأله بدورها من رأى وماذا سمع. لكن التعب الذي يكون قد هدّه طوال النهار لا يترك له فرصة. ودون إرادة، دون قدرة على المقاومة، يجد نفسه ينزلق إلى النوم كما تنزلق سمكة إلى الماء.

هذه الأمسية شعر أنه متعب أكثر من أماسٍ غيرها، إذ بالإضافة إلى الأحمال الزائدة التي نقلها، كي يعفي نفسه في اليوم التالي من بعض الأحمال، ويجد الوقت الكافي للاتفاق مع واحد من أصحاب المراكب، فإن شعوراً بالضيق، الأقرب إلى الهم، سيطر عليه، منذ أن رأى بدري ذلك اليوم، ثم هذا العبء الذي وضعه على كتفيه. ماذا يريد من مثل هذه المرأة؟ وهل يليق به، وبأسرته وبالمحلة كلها، أن يتعرض لهذه التجربة القاسية؟ وبدري نفسه، الذي تتمناه أية فتاة في المحلة، وفي بغداد كلها، كيف يتورط مع امرأة ساقطة؟ ثم إنها متزوجة أو مستقعدة، والغريم هو ثامر المجول، الذي يمكن أن يؤلب جميع الناس عليه، لماذا وضع نفسه في هذا المكان وتجاه هذا الشخص، ألم يفكر بالنتائج، بأهله، بمحلته؟

ثم صاحب المركب، ماذا سيقول إذا طُلب منه أن يقف، دون حركة، مقابل القلعة، وبدري لا يفعل شيئاً سوى أن ينظر وينظر، وهو صامت وحزين؟ ألن يفكر الملاح أن الرجل أصيب بالجنون؟ وهل يمكن أن يسكت بعد ذلك؟ وإذا وافق على السكوت أمام بدري، ماذا سيقول للملاحين الآخرين، لمن يسأله، عما كان يفعل هناك؟ ولماذا في ذلك المكان بالذات؟

كانت هذه الأفكار، وغيرها الكثير، تدور في رأس سيفو، وهو يحاول أن ينام، لكن مع كل فكرة جديدة، يزداد النوم بعداً، وتزداد مخاوفه ويثقل الهم عليه. تمنى لو أن بدري لم يكلفه بهذه المهمة، ولم يطلب منه هذا الطلب، إذن لاستطاع أن يواصل حياته، ولاستطاع أن ينام كما كل ليلة. الآن يشعر أنه غير قادر لا على النوم ولا على المساعدة، ولا يعرف ماذا يجب أن يفعل.

حتى فطيم يمكن أن تشور عليه، وتساعده، لو حدثها عن هذا الهم الجديد، لكن كيف يفعل ذلك بعد الكلمات الكبيرة والغضب الذي بدر منه حين سأله بدري ما إذا كان يحفظ السر أم لا.

وحاول أن يتذكر القصص التي سمعها أو عرف بها عن الذين أحبوا.

وصفوهم أنهم لا يستطيعون النوم، ويعافون الأكل، ويفضلون عدم مخالطة الناس، إذ يؤثرون العزلة كي تبقى صور الحبيب. ثم كيف يلجؤون إلى الأخوات من أجل إيصال رسائل الحب، وغالباً ما تنتهي مثل هذه القصص بالزواج. يصادف، في بعض الأحيان، أن تغضب أسرة الفتاة أو الشاب، لكن غالباً ما تنتهي إلى الرضا والتسليم بالأمر الواقع. أما أن يحب شاب، مثل بدري، امرأة متزوجة، أو من هذا النوع، فلم يسبق أن سمع بمثلها، وحتى لو سمع، فإنه يعتبر ذلك نزوة، ولا تليق بالرجال العقلاء!

وسأل نفسه ما إذا أحب في يوم من الأيام. حاول أن يتذكر، لكن بدا له كل شيء غائماً وبعيداً. ربما أحس بلهفة أو حنيّة خاصة تجاه زوجته الأولى، وحزن كثيراً حين غرقت، حتى إنه قرر عدم الزواج، لكن لم تمض بضعة شهور إلا ووجد نفسه يبحث عن زوجة ثانية، لأنه لا يستطيع أن يعيش وحيداً. والزوجة الثانية، مريم، كانت تجيد أمراً لا أحد يستطيع أن يجاريها فيه: الصمت! حتى وهي تموت بالهواء الأصفر، وكان إلى جانبها يمرّضها، لكن ما ان غفا لدقائق قليلة حتى قررت أن تموت خلال تلك الغفوة: بذلت كل جهدها كي تفعل ذلك، لكن في اللحظة الأخيرة ندّ عنها صوت، حاولت أن تكتمه، فسمعه واستيقظ. وقبل أن يرفع المخدة وراءها، لترتاح قليلاً، انتهت. ماتت وشفتاها مطبقتان، وبرد جسدها قبل أن يستدعي الجيران. قال بعض الذين جاؤوا لمساعدته إنهم رأوا دمعة تسقط على خده. هو لا يتذكر، ليس لأنه لم يحزن عليها، أو لم يتأثر، ولكن يعرف أنه إذا حزن أو تألم، وأراد البكاء لا يستطيع. يشعر أن صدره يؤلمه، ويغيب صوته! ويظل الألم أياماً ثم يزول تدريجياً، أما الصوت فيبقى غائباً لفترة. ولما استشار ذات مرة الأسطة اسماعيل، باعتباره أعلم منه وأدرى، أوصاه أن يوقف «المسخوط» الغليون، وأن يتناول مشروبات دافئة، على أن يحلّيها بالعسل وليس بالسكر، فرد عليه، وكان صوته مخرشاً:

ـ يعلم الله أنك ما تعرف غير هذا الدوا، ولكل علّة: للمسهول واللي

عنده قبض؛ من توجعه سنونه واللي طالع له دوحاس؛ وتوصفه لمن توجعه عيونه وذاك اللي عنده رعصة، وحتى للمجردم، واللي خصيانه تصيح، فشنو. . . ما تقول لي شوكت دواك يمنع الموت ويرد الموتى؟

ضحك أبو حقي طويلاً وهو يسمع سيفو يتكلم بهذا الانفعال، وبذلك الصوت المشروخ، وكأنه يمثل دوراً. ولما هدأ الإثنان، قال أبو حقي، وحاول أن يحمّل كلامه مقداراً كبيراً من الجدية:

ـ مولانا. . هذا الدواء مذكور بالقرعان، فالعسل دواء لكل داء!

وبعد قليل بطريقة حكيمة:

ـ وآني كنت أريدك تنفّه عن روحك، تطلّع اللي بصدرك، فإذا نفهت، إذا طلع اللي جوا الصدر، يطيب البني آدم، يصير زين، أما إذا نام على غش فحسبته حسبة!

اقتنع بكلام الأسطة اسماعيل، أوقف الغليون، وشرب سوائل محلاة بالعسل، فشعر أن صوته يعود إليه، لكن الحزن لم يفارقه.

قال لنفسه، دون أن يكون متأكداً: يجوز أن هذا هو الحب!

أما فطيم، ونظر في الظلمة حيث تنام، فإن الحاج علاوي هو الذي ورطه لكي يتزوجها. لم يفكر بالزواج بعد موت مريم، وسمع، همساً، من يقول: «سيفو يموّت أية مريّة يتزوجها». ولأنه ليس كذلك، أو لا يريده، فقد قرر ألا يتزوج. وتدخل الحاج علاوي. كان الأمر صدفة، إذ ما كادت فطيم تغادر دكانه، ولا يعرف ماذا كانت تريد منه، حتى دخل. أفرغ القربة في الحب، وجلس قليلاً ليستريح. تبادل والحاج بضع كلمات، ثم خيم الصمت. كاد يقوم، بعد أن انتهى من تدخين غليونه، لكن فجأة تطلع إليه الحاج علاوي، وكأنه لم يفطن لوجوده من قبل. قال له، وبطريقة أقرب إلى الأمر:

ـ أقعد. . أقعد سيفو. . .

امتثل، دون إرادته، وجلس. قال له الحاج علاوي:

ـ تعرف. . سيفو، شقد أنت عزيز عليّ وعلى المحلة كلها. . .

توقف قليلاً. صمت سيفو، لم يرد ولم يعقب، لكن أحس أن وراء مثل هذه المقدمة شيئاً آخر. تابع الحاج:

- وواحد مثلك، بعمرك، ما يصير يبقى وحده، بليا مريّة...

كاد يرد عليه رافضاً، لأن مثل هذا الأمر لا يفكر فيه الآن، ولا يعني له شيئاً، لكن الحاج علاوي تابع، وكان حاسماً في لهجته:

- لقيت لك مريّة تناسبك تماماً، وكأن رب العالمين ما خلقها إلا حتى تصير زوجة لسيفو...

وتغيرت اللهجة، أصبحت أبوية، ولا تخلو من أمر:

- ولأني أعرفك وأعرفها زين فأريد أمون، وما أريدك تقول: لا، راح أزوّجك!

وحين نظر إليه سيفو بدهشة، وكان لديه ما يقوله، ليرفض، ليطلب التأجيل، إلا أن الحاج علاوي واصل الهجوم، لكن كلامه هذه المرة لم يخل من مداعبة:

- أريد أكسر رقبتك، وأدفع الديّة، لأني بعد شهر أو شهرين راح أشوفك جاي تهفي: يخلف عليك حجي: شقد اكو أصدقاء، شقد اكو ناس يحبون، لكن مثلك ماكو، لأنك لقيت للجدر قبغه، وخلصتني من ألف ورطة...

وهكذا تزوج فطيم. حصل الأمر دون حماس، وبسرعة، لكنه يشعر الآن أن الحاج علاوي لم يخطىء، أو على الأقل لم يخطىء كثيراً!

ففطيم، رغم النكد وسلاطة اللسان، لا يتصور أن يأتي إلى البيت يوماً ولا يجدها. لا يعرف إن كان يحبها أم لا، لم يسألها ولم تسأله، حتى بطريقة غير مباشرة، لكن يحس أنها ضرورية، وأنها تعني له الكثير. ينظر إليها، بعض الأحيان، خلسة، فيجدها تنظر إليه، تنظر بحنان. يعرف ذلك من العينين، فالعيون تتكلم، وبطريقة لا تكذب. حتى الكلاب والقطط التي تقابله في الطريق، يقرأ موقفها منه من خلال العيون. يعرف أي كلاب تحبه وأيّها تكرهه. وحتى أصحاب البيوت في المحلة، يعرف عواطفهم

تجاهه من عيونهم. الكلمات لا تهمه كثيراً، مهما كانت تلك الكلمات كبيرة. وحين يطلب الشاي، ويجلس في ظل الجدار، قرب الحِب، يعرف ممن يطلبه وأين، لأن الشاي إذا لم يكن ممزوجاً بالأنفاس الطيبة فإنه يصبح مثل الماء الساخن المُحلّى، ولا شيء أكثر من ذلك!

فطيم، الآن، تعني الانتظار واللهفة. تقلق إذا تأخر. تمرض إذا مرض، وتغضب إذا سمعت بحقه كلمة لا تليق.

حتى الشتائم بينهما ضرورية. يعرف أنها لا تريد الإساءة إليه، ويتذكر كم بكت وناحت حين قرصته الحية. ثم كيف فزّعت المحلة كلها. حتى مجيد دقلة الذي يقيم في سلمان باك، ويرفض أن يزور مريضاً، ويطلب أن يؤتى بالمريض إليه ليعالجه، استطاعت فطيم أن تأتي به، وكان ذلك سبباً في شفائه، وفطيم ظلت تزوره كل سنة مع النذر له ولسلمان. هل كانت تفعل ذلك لولا الحب؟ لولا المشاعر التي تحسها وتدفعها؟

تساءل في الظلمة، وكان يسمع أنفاسها منتظمة، ولا تخلو، بين فترة وأخرى، من شخير، ما إذا كان يحبها أم لا؟

لو لم يسمع اليوم ما قاله بدري لتجرأ وقال إنه يحبها. لكن بدري كان يتكلم بطريقة أخرى، بكلمات مختلفة، وهو لا يعرف مثل هذه الكلمات، ويراها غير ضرورية. هل يختلف عن بدري، أو أن ما يحسه ويعيشه بدري يختلف عنه؟

كاد يوقظ فطيم ليسألها عن عواطفها تجاهه. أو بالأحرى كان يريد أن يسألها: ما هو العشق. إنه يسمع هذه الكلمة، أو ما يشبهها، أكثر من أية كلمة أخرى، لكن لا يعرف معناها، أو ماذا يُقصد منها بالضبط. ابتسم، وانقلب في فراشه، لأنه كان متأكداً أن فطيم لو صحت الآن، ولو سألها عن معنى هذه الكلمة، لربما سمع شيئاً لا يرضيه، وقد لا تكتفي بالكلمات، إذ ربما أرادت أكثر من ذلك!

إذ بعد أن أصبحا في هذه السن، وبعد أن عاشا وعرفا الكثير، لم يعودا حريصين، مثل الكثيرين، على استعمال كلمات نازكة وملبلبة، كما يفعل

الغرباء حين يلتقون لأول مرة!

ومن جديد سأل نفسه إن كانت هذه حالة بدري. قال وكله غيظ: «ابن صالح العلو مخبّل، أكيد مخبّل، وواحد مثله ما يجي بعيني وآغاتي، يجي بجرة أذن وعين حمرا، وما أكون سيفو إذا ما خليته يجوز من هالقحبة».

وسأل نفسه ما إذا كان أحد من أهله مثله، تذكرهم كلهم، قال بأسف. وهو ينقلب على جنبه الآخر عله يستطيع النوم «وجوه الخير لها علامة: والحجي والحجية، وكل آل علو على العين والراس، بس هذي البلية، اللي ما كانت لا بالبال ولا بالخاطر منين جتهم؟».

قدّر أن أبناء الحكومة، خاصة الذين يعملون في السراي، يمكن أن يصابوا بأمراض غامضة، وقد يكون هذا المرض من جملة تلك الأمراض، لأنهم لا يرون الشمس، وأغلب الوقت في غرف مغلقة. كما أنهم لا يرون الناس ولا يسمعون كلامهم، وهذا ما يجعلهم مختلفين تماماً عن غيرهم. وتذكر بعض معارفه الذين عملوا في السراي، وكان منهم الحراس أو الذين عملوا في الحدائق. لقد تغيروا تماماً: يتكلمون بصوت لا يُسمع، وكأنهم يتكلمون من أنوفهم. يضحكون بطريقة عجيبة، يضحكون مثل البنات أول ما يجيئهم الحيض: بفرح وخوف وارتباك. وحتى رزوقي الذي عمل سايساً في السراي، ما مضى عليه شهران أو ثلاثة إلا وتزوج من جديد. ويتذكر ما قال له: «الناس على دين ملوكهم، أبو فلاح، وماكو أحد أحسن من أحد. وإذا مرية وحدة تكفي لأيام الفقر، فأيام العز ينراد ليها مريّة بيضة قرطاس، مرية راهية وعيونها خضر».

هل يحتمل أن يكون بدري مثل غيره تعوّر وأصابه مرض السراي؟

وفكر بمرض آخر: «الرجل الذي لا يأكل من طبخ أمه ومن خبزها، أو من طبخ أهل بيته وخبزهم، وكل يوم يأكل من يد، لا بد تقع براسه مصايب الله، يا هل ترى سمّوا باسم الله وهم يُعدّون الطعام؟ هل كانوا على طهارة؟ ألا يجوز أنهم سحروا الطعام والشراب، ووضعوا سحر الهند والسند ببطنه؟ والأكل الزائد، بدل أن يعطى للفقراء، يُرمى أو يعطى

للكلاب، فهل يجعل الله فيه خيراً أو بركة؟».

ثم هذا العدد الكبير من النساء في القصر «وكل واحدة مخيّلة على رِجّال، راد ما راد لازم تنوشه، لازم تصله، معقول تهدّه بليا سحر؟» وتذكر ما قاله له الأسطة اسماعيل: «عيني سيفو، يا أبو فلاح، المريّة إذا رادت ماكو قوة بالكون تقدر توقف بوجهها، حتى الله وملائكته ما يقدرون، وعندها ألف طريقة وطريقة حتى توصل: بالغمزة، باللمزة، وحتى بالدمعة. مولانا، المريّة تفطر الحجر، وتبطح أشجع فارس. منو اللي نزّل آدم من الجنة غير حوا؟ ومنو هو عنتر بليا عبلا؟ حتى أبو زيد الهلالي، مولانا، ما خلص من النسوان».

ويتذكر سيفو أن الأسطة اقترب منه، وكأنه يريد أن يوشوشه، أو يبلّغه سراً: «القوة، مولانا، مو اللي يشيل أكثر، القوة منو يتحمل أكثر» ويتذكر سيفو أن الحاج علاوي جاء في تلك اللحظة، وقبل أن يحلق له أبو حقي، قال، وكان يخاطبهما معاً: «المريّة مثل الأرض، اللي ما تتحمّله فوقها، تجره تحتها، وهناك تصفّي حسابها وياه» ولم يستجمع كل ما قاله أبو حقي بعد ذلك، لكنه ظل يردد: السحر.. السحر مولانا، أي نعم السحر. فهل يجوز أن يكون بدري مسحوراً؟

وخطر ببال سيفو: علوان الشيخ جعفر. «بغداد كلها عنده، وبشهر واحد فك كل سحر مكتوب. وسوّى قرايات طردت حتى العنكبوت، ووصف دوايات للمجردم واللي ما بيه حيل، وفرّج عن كل مكروب، لكن مين يقدر يصل علوان، وشيجيبه من الحلة؟».

لا يمكن أن يفيد في مثل هذه الحالة إلا علوان «أما سحّاري بغداد فكلهم حيالين، ما يتأمنون، يجرّون فلوس ونفع ماكو».

قبل أن يصيح الديك، قبل أن يؤذن الفجر، تناول سيفو من الزاوية دشداشة الشط، كما يُسمّي ثوب العمل. نظر في الظلمة حيث كانت تنام فطيم، سمع أنفاسها منتظمة هادئة، فابتسم وخرج.

أما بدري فلم يستطع النوم. تقلب في فراشه عشرات المرات، ويتذكر

أنه سمع صوت الملا حمادي يؤذن الصبح، وسمع أصوات عشرات، مئات، العصافير واليمام، وربما لمح الأضواء الأولى للنهار قبل أن يغرق في النوم، وظل نائماً حتى الظهر أو بعده بقليل!

47

لو لم ينم بدري حتى ساعة متأخرة من ذلك اليوم لأبلغ سيفو بصرف النظر عن فكرة النزول إلى النهر. ولو أن سيفو لم يغب طوال ظهر ذلك اليوم وحتى المساء لأمكن أن يتبلغ بالأمر، لكن سيفو، مثل عادته، جاء عند الضحى فوجد بدري نائماً، فلم يشأ أن يوقظه، ترك البيت بسرعة ومضى، دون أن يشرب الشاي الذي جلبته له أم قدوري.

وبدري الذي ذهب مبكراً عصر ذلك اليوم إلى مقهى الشط، وبقي إلى ما بعد الغروب، عله يحظى بسيفو، لم يعثر عليه، ولم يستطع أن يوصل له خبراً.

قيل إن سيفو شوهد بعد الظهر، وكان يرتدي ملابس «مقابلة الحكام»، كما قال الأسطة اسماعيل مازحاً، ولا أحد يعرف إلى أين ذهب، أو ما وراءه من مهمات!

قال أبو حقي لما سئل أين يحتمل أن يكون سيفو:

ـ قطعاً أبو فلاح هسّه بالسراي، لأن الباشا دز عليه!

وحين نظروا إليه باستغراب، تابع بسخرية:

ـ الوالي ما يقدر يسوي فد شي بليا شور أبو فلاح! شعبالكم!

وبعد قليل وبشيءٍ من الحزم:

ـ لا يغركم الدشداشة الخلق اللي يلبسها، فأبو فلاح صماخ مو شلون ما چان، بلوة. صحيح لا قاري ولا دارس، لكن، صلوات على النبي، يقرا الممحي وماكو مثله اثنين...

أما فطيم، حين أُرسل إليها أحد الفتيان ليسألها عن سيفو، وقد أرسله الأسطة عواد، صاحب قهوة الشط، بناء لطلب بدري، فكان جوابها مدعاة للتساؤل:

- من شوكت أبو فلاح يعطي سره لأحد!

وأضافت، كما قال الصغير:

- واي.. واي، باوعوا، منو ينشد عنه؟ إذا آني ما أعرف، ما أقدر أجاوب، شلون غيري؟

وبدت غاضبة، حين سألها الصغير لماذا لبس دشداشة الطلعة، وقد طلب منه الأسطة عواد أن يسألها، إذ ردت بعصبية:

- بابا روح.. تمشَ، وقول لعواد اللي دزك: سيفو يغني الموال اللي براسه، ويلبس الهدوم اللي تعجبه، وماكو أحد يقدر يقول: ليش!

أما الحاج علاوي، فكان له رأي آخر حين سئل:

- سيفو ما ينحزر عليه. أبو سنكيرة، ومثل المهدي له غيبة.

وتابع كأنه يحدث نفسه:

- الله أعلم وين هسه موكّر: عند الشيخ عبد القادر؟ عند الكاظم؟ ما يندرى. لكن بالتأكيد عنده كم فلس جمعها من هنا.. من هنا وما يقدر يضمها، لازم ينطيها. وبطريقه يسمع قرايات تكفيه سنة، ويمكن تشفع له يوم القيامة...

وحين عرف أن عواد بعث ليسأل فطيم، ضحك الحاج علاوي، هز رأسه عدة مرات ثم قال:

- أبو فلاح إذا سوى فد شي ايده اليمنى ما تعرف شنو اللي سوته اليسرى، وين رايحين؟

وأضاف بسخرية:

-.. ويقشمر فطيم بشوية شكرات: أحمدي ربك واشكريه يا مريّة. كلي واسكتي، هذي شكرات مقري عليها، هذي شكرات من يم إمام يشوّر!

وهكذا انقضى اليوم دون أن يعرف أحد أين ذهب سيفو، أو ماذا فعل! وبدري الذي لم يقدّر أن أمراً مثل هذا يمكن أن يولد اهتماماً وردود أفعال كهذه، إضافة إلى استمرار التساؤل، فقد قرر أن يصرف النظر عن «رحلة الجنون» كما سماها لنفسه، وما سؤاله عن سيفو إلا كي يوقفه عن إتمام الفكرة، وبالتالي لا حاجة للبحث عن ملاح وسفينة!

أما سيفو فقد قرر الاستعانة بصاحب مركب من أصدقائه بصوب الرصافة، «لأن جماعة صوب الكرخ، كما قال لنفسه، ما بيهم غير ساناتهم. يريدون يعرفون: الشط من حفره والنغل من بزره، وهات لص من حلوقهم.»

ولا يعرف كيف خطرت له تلك الفكرة: «. . . أبو منعم: الصديق ديقه، وآني تعنّيت من ذاك الصوب وقصدتك، وما أريدك تفشلني. عندي صديق، أخ، أعز من أخ، يريدنا نسيّر سوا باچر بالشط. هذا الصديق شاعر، لكن صار له كم يوم مقبّطة عليه، يريد وما يقدر. قال لي: «أبو فلاح أشو الله ما فاتح عليّ، فشنو رأيك نلاقي صديق عنده بلم وننزل نسيّر بالشط. وهناك الدنيا سنطة، وماكو حولنا لا إنس ولا جان. يمكن الله يفتح علينا ونخلّص هذي القرّاديّة، وهو يسميها قصيدة، قلت له: لعيونك. وهذا سبب جيتي، أبو منعم، وأيدي بحزامك».

نام سيفو، تلك الليلة، أبكر من ليالٍ أخرى. نام من التعب ومن سهر الليلة السابقة. أما محاولات فطيم أن تعرف أين كان وماذا فعل، فقد انتهت بسرعة، حين رد، وكان يتجنب أن تلتقي عيناه بعينيها:

ـ شكو بهذي الأيام غير الفواتح. من فاتحة لفاتحة: السلام عليكم، عظّم الله أجركم، والجنة إنشاء الله مثواه، وفي أمان الله!

ـ قهرتني، أبو فلاح، منو مات؟ فاتحة منو؟

ـ يا معوّدة قولي منو ما مات، منو بعده طيب!

ـ هذا شلون كلام، اسم الله. شنو صارت الناس تموت سنطة، بليا حس، بليا خبر؟

ـ لعاد الفقرا شلون يموتون: بمزيقا وطبل؟

وتظاهر بالحزن والغضب:

ـ نقضان، فطيم، وقلبي ممرود، فإذا ما راح تسخنين الأكل راح أندفس وأنام!

كانت تريد أن تقول له إنهم سألوا عنه في قهوة الشط، وكيف ردت عليهم، وماذا قالت عن ملابسه، لكن وجدته حزيناً، لا يرفع رأسه عن الصحن، فقررت أن تؤجل مثل هذا الحديث إلى وقت آخر. أما حين لم يكمل صحنه، ولم يعمّر الغليون، فقد تأكدت أن حزنه سينقلب إلى غضب فيما لو سألته، لو قالت كلمة إضافية، وهكذا انشغلت بأمور صغيرة، وبهدوء، كي تتركه ينام!

كان أبو منعم، صاحب المركب، رجلاً مرحاً، محباً للمزاح والغناء. ما كاد يرى بدري في غبشة الصباح حتى هزّ رأسه بهدوء عدة مرات وقلب شفته السفلى قليلاً، وكأنه يقول لنفسه: أعرف هذا الوجه، رأيت هذا الوجه من قبل. ولأنه سيقضي النهار معه، لم يكن متعجلاً لسؤاله، إذ ربما سيتذكره قبل أن يسأل؛ ثم هناك أمر آخر، فأبو منعم لا يحب الغناء فقط، بل هو أحد أفراد فرقة هواة للإنشاد، وقد تكون هذه مناسبة لأن يقيم علاقة بشاعر، وقد يغني له شيئاً مع فرقته في يوم من الأيام!

ما كاد المركب ينزلق على وجه الماء، تاركاً شريعة الدملوجي وراءه، حتى ارتفع صوت أبو منعم بالغناء. كان الصوت شجياً، خاصة بالبحة التي تلازمه، وما يكاد يصطدم بالموجات الصغيرة التي تتوالد من ضربات المجدافين حتى يترجع له صدى يجده الإنسان ناعماً لذيذاً في هذا الصباح الربيعي. أما نسمات أول النهار حين تصطدم برائحة النهر، بقرصة البرودة، فإنها توقظ الحواس، وتحرك المشاعر. يحس الإنسان أنه يطفو فوق الماء، يطير، ويتأكد هذا الإحساس مع كل ضربة مجداف وابتعاد المركب عن الشاطىء.

قبل أن يبلغ المركب منتصف النهر، سأل أبو منعم، وبدا صوته خشناً:

ـ وين تريدون نروح؟

إلى ما قبل هذا السؤال كان سيفو حائراً كيف يجب أن يتصرف. ودّ لو أنه اتفق مع بدري على طريقة مناسبة، لكنه خشي أن لا يُفهم، أو أن يخلق مشاكل دون مبرر، الأمر الذي جعله صامتاً حزيناً، وإن نوى أن يفرض إرادته في وقت ما، بشكل ما، حتى لو غضب بدري أو لم تعجبه طريقته.

الآن، وأبو منعم يسأل، فوجىء الإثنان بالسؤال. وإذا كان سيفو قد صمت متعمداً، ليرى كيف سيكون جواب بدري، إلا أن نظراته أصبحت لهباً، وهي تتركز في عيني بدري. كانت حادة، مكتسحة، أشبه بالحصار. كانت تقول، دون كلمات: يجب أن تكون عاقلاً، وتعرف معنى الكرامة، لئلا تتحول إلى أضحوكة، وتحوّل الشيخ صندل والكرخ الى قصة يتندر بها ذاك الصوب، ثم لتعم بغداد كلها.

لا يُعرف كم استمر هذا الصمت، وماذا قالت النظرات، أو كيف فُهمت، لكن ما كاد أبو منعم يسأل من جديد:

ـ ها، شنو قولكم، وين ردتم نسيّر، مع النهر أو عكس الماي؟

حتى جاءه جواب بدري:

ـ أنت الربان ونحن الملاليح، وين تاخذنا نروح!

ـ هذا أول الشعر: أنت الربان ونحن الملاليح، وين تأخذنا نروح، هكذا رد أبو منعم بمرح!

هل يمكن لكلمة، لنظرة أو حركة، أن تغير بهذا المقدار؟ أن تنقل البشر، وربما الكون، من حالة إلى أخرى؟ هكذا أحس سيفو فجأة. شعر أنه كسب المعركة كلها، وما الساعات الكثيرة الآتية إلا تفاصيل صغيرة في هذه المعركة الكبرى.

مال نحو بدري وهمس بأذنه:

ـ إذا قلت إي، إذا قلت لا، انت من هالدقيقة عسكر بياده جوا إيدي، أسمعت؟

هزّ بدري رأسه موافقاً، وارتسمت على وجهه ابتسامة. صحيح أنها

بدت شاحبة، لكنها غيرت ملامح وجهه، جعلته مختلفاً عن الأمس.

رفع سيفو أصبعه، وهو يوجه إليه الكلام من جديد، وبهمس أيضاً:

- وأنت من هالدقيقة شاعر، لا مرافق الباشا ولا ضراط عقيل، سمعت؟

- هاي شنو أبو فلاح. . .

سأل هكذا وابتسامته تتسع ووجهه يتغير، وتابع:

- قلت أنت القايد وافقنا، على العين والرأس، لكن شلون بدقيقة الواحد يتغير من قصاب إلى دفّان موتى؟ من مزين إلى شاعر؟ ما تقول لي؟

- أنت من هذي الدقيقة شاعر، وما عليك، الباقي عليّ!

- هذي آخر وظيفة لو اكو بعدها؟

- إلزم النظام، القايد، أبو فلاح، هو اللي يصدر الأوامر!

- وصاحبنا، أبو منعم؟

قالها بدري بصوت عالٍ، في محاولة لأن يواصل جو المرح الذي خلقه سيفو، وأيضاً ليكونا اثنين ضد واحد.

رد سيفو، وقد أضفى على وجهه ملامح قاسية:

- قلت لك: أبو فلاح قمندان باشي، وأنتو بياده، سمعت؟

ولأن المرح يعدي، كما الحزن، قال أبو منعم:

- إذا كثرت الملاليح غرقت السفينة، يا أبو فلاح!

وبعد قليل وبنبرة مرحة أيضاً:

- وهسه، وين تؤمرني أستاذي؟ وين نروح، مع النهر أم نصعد لفوق؟

فرّ سيفو يده، وكأنه يسأل بدري عن رغباته. رد بدري بتلويحة يد تعني أن كل الخيارات ممكنة، وأن الأماكن متشابهة، وأكد ذلك بحركة من شفته، مشفوعة بملامح الوجه لتزيدها تأكيداً.

قال سيفو، وهو يسند ظهره على حافة المركب، ويترك لأبي منعم مساحة أكبر للتصرف:

- نصعد مع النهر فد شوية، حتى نباوع بغداد، وبعدها مع الماي

ننحدر!

ـ كأنك بقلبي يا أبو فلاح . . .

ـ وبعد قليل:

ـ قلت لروحي: النهار بعد بأوله، وحيلنا قوي، فنصعد شقد ما الله يقدرنا عليه، وبعدها ندهدي مع النهر، ووين تأخذنا الماي نروح . . .

وضحك بقهقهة ثم تابع:

ـ شلوني وياك أبو فلاح؟ موافق؟

قام سيفو. اختل قليلاً توازن المركب. كان يريد أن يخطب، لكنه اختصر كل شيء، قال وهو يهبط:

ـ على بركة الله؛ سيري فعين الله ترعاك!

48

تتبدى بغداد، حين يُنظر إليها من النهر، عبر غباش الماء، شيئاً لا يصدّق، أو هكذا رآها ناس المركب في ذلك الصباح الربيعي.

بدت جديدة، طازجة، فوّاحة بشذى القداح، خاصة بعد أن اغتسل هذا الشذى بالماء وشفّته ريح صغيرة نبعت من أعماق النهر وهبطت من الأعالي. أما خضرة النخيل التي ملأت الأفقين، فكانت تتموج وتتغير كل لحظة: شفافة، زاهية، ريانة، وخضرة قاسية أيضاً، ولا تخلو، في لحظات معينة، من تحدٍ.

وبين خضرة وخضرة عشرات الألوان الخضراء المتشابكة، وكأن كل شجرة، كل غصن يريد أن يتميز بلونه الخاص، بتألقه الذي يجعله مختلفاً عن غيره.

قال بدري، وكأنه فوجىء بما يرى، وكان يتلفت إلى الضفتين مذهولاً:

ـ ولا عبالك بغداد اللي نعرفها وعايشين بيها!

ـ إذا الواحد معمي قلبه، وطامس بالوحل للزردوم، شلون تريده يشوف وردة وخزامة، مولانا؟ شوكت يفتح عيونه ويباوع؟

هكذا رد سيفو، وهو يحاول أن يخزن أكبر قدرٍ من الهواء في صدره، فيبدو الصدر مثل قفص قديم لم يعد يتسع لما في داخله. كان سيفو حزيناً وفرحاً في آن واحد، أو كانت عواطفه مختلطة متداخلة إلى درجة لا يستطيع أن يحدد ما هو أو كيف هو. لم ير بغداد من وسط النهر منذ فترة

طويلة، أو لم يرها هكذا. صحيح أنه ركب الزوارق مرات عديدة، لكنه كان يركب ليعبر من ضفة إلى أخرى، وكانت عيناه، أغلب الأحيان، على الماء، حوالي المركب. وحتى إذا نظر إلى البعيد، فقد كانت المناظر تهتز وتتحرك. أما إذا رفع عينيه لينظر من صوب إلى الثاني فتبدو الأماكن جامدة، قاسية.

الآن، من هذا المكان، يبدو كل شيء مختلفاً، وكأنه يراه لأول مرة.

قال سيفو لنفسه: «الجرف غدار، لأن البني آدم يلزق بيه، ومثل ما الجرف بمكانه، والماي هي اللي تجي وتروح، فالواحد ما يحس، يفتّح عين يغمض عين يلقى العمر انقضى، مرّ وراح».

هز رأسه عدة مرات، وتابع بحزن يخاطب نفسه: «وشلون عمر؟ كله خسارة، وفوق الخسارة: قهر وشلعان قلب».

التفت إلى أكثر من ناحية وسأل نفسه: «إذا سبحانه وتعالى حاسب البني آدم، حاسب واحد مثلي، وسأله: قل لي يا فلان شنو اللي شفته من ملكي، من اللي خلقته وسويته، شلون راح يجاوبه؟».

قال سيفو، وقد انفرجت أساريره:

ـ صدق يا جماعة الخير.. إذا رب العالمين سألنا يوم القيامة: شلون كانت دنياتكم، تونستو؟ عشتو؟ شفتو؟ شراح تجاوبون؟

رد أبو منعم، وقد فوجىء بالسؤال:

ـ هو.. هو منين جبت هذا السؤال، أبو فلاح؟ شلون جا على بالك؟

ـ أفرّ راسي هنا.. هنا، واسأل روحي: شنو اللي شفته بدنياتك يا مقرود، وين رحت، شنو شفت، شنو اللي سويته؟

ـ اي... قل لنا، سولف، يا أبو فلاح، شنو اللي شفته؟

ـ راح أقول لرب العالمين: يا رب أنت اللي خلقتني زمال، أنجس من الزمال، ومن عمري عشر سنين بين الجرف والشيخ صندل أروح وأرجع، تيتي تيتي، وبعدين أنت اللي عندك ملائكة وسجل محفوظ وكل شيء مقيد ومكتوب، وتعرف أحسن مني، فأنت اعلم شلون عشت وشنو اللي شفته!

قال بدري، وقد راقت له اندفاعة سيفو، يسأل الملاح:

ـ وأنت، يا أبو منعم، لو ربنا سألك فشنو راح يكون جوابك؟

ـ من اليوم لذاك اليوم فرج، فعلى ويش مستعجلين، يا جماعة الخير؟

رد سيفو، وبدا حانقاً:

ـ ما مستعجلين، آغاتي، لكن هو لاحقنا بعصاته: صلوا. صوموا. اعبدوني. لا تسووا هذا، لا تسووا ذاك. موبس هذا الشيء، ويقول: ديروا بالكم، ترى جهنم فاكّة حلقها، ويسألها سبحانه وتعالى: هل امتلأتِ؟ فتقول: هل من مزيد؟

قال أبو منعم، في محاولة لأن يغيّر الموضوع:

ـ وكّل الله، أبو فلاح، لأنه سبحانه غفور رحيم!

ـ وشديد العقاب، مولانا، هالشكل قال في كتابه العزيز!

قال بدري، الذي ما زال مفتوناً بالمناظر، ولا يريد أن ينجرّ إلى الفخ الذي نصبه سيفو:

ـ إذا تريد تلطم، أبو فلاح، فغيرك مستعد يشق زياقه، لو آني غلطان؟

فجأة تنبه سيفو، رد بحزن:

ـ صحيح، مولانا، هسّه وقت ونسه، ولاحقين على اللطم...

وتغيرت اللهجة، وكأنه يريد أن ينهي الموضوع:

ـ ما باقي بدنياتنا شي يسوى، آغاتي، يوم والثاني الواحد يعض لسانه، ويمشي كأنه ما چان!

وحاول أن يقف، لكن المركب اهتز، قال كأنه يحتج على اهتزازه:

ـ إذا الواحد يريد يرقص، إذا يريد يدق أصبعتين، ويقول أوف، يسوي؟

رد أبو منعم بمرح:

ـ وجهك مو وجه رقص، أبو فلاح، وإذا بيك حيل غَنّ هسّه، كسرة راح نوقف وهناك راوينا رقصك!

المناظر تتغير كل لحظة، قرصة البرد التي رافقت الخطوات الأولى

بدأت تنحسر. أما الشمس الخجولة، المتوارية خلف غابات النخيل، وكانت ترسل ضياءها من بعيد، فقد ظهرت بوهج دافىء غيّر لون الماء والخضرة، وجعل الأشياء وكأنها في لحظة ولادتها الأولى!

بدت بغداد، من هذه المسافة، أقرب إلى الحلم، أو كأنها مدينة أخرى. غابت رائحة الأزقة الضيقة، تراجع الحزن، وما عدا صوت المجدافين اللذين يشقان الماء، كان الصمت ممتداً وواسعاً.

ظهر الباليوز. كان البناء، ضمن الخضرة التي تلتف عليه، رشيقاً ببياض أسواره. حتى السفينة الرابضة إلى جانبه، على حافة النهر، بلونها الرمادي، كانت مثل سمكة عملاقة عجز الصيادون عن التقاطها، رغم الحبال الغليظة التي تقبض عليها من الجانبين، والتي تظهر رخوة، وربما لهذا السبب تركوها مؤقتاً، وإلى أن يأتي من يساعد على جرها.

قال بدري، الذي يرى الباليوز من هذا المكان لأول مرة:

ـ إذا الواحد قريب من فد شي ما يشوفه زين، يا جماعة الخير!

تطلع سيفو إلى أكثر من جهة، وقد التبس عليه كلام بدري، لكن الإصبع التي امتدت نحو الباليوز، أوضحت قليلاً. تابع بدري:

ـ من بعيد يبين أصغر!

ـ مثل واحد ببطن بير، والثاني فوق منارة، شلون تريدهم يشوفون فرد شكل؟

هكذا رد سيفو، وقد تذكر شيئاً. ضحك وهو يضيف:

ـ قبل سنين، سنكر مجيد أبو الحنة، قال لأهل المحلة: بطّلت، دوّروا على واحد غيري حتى يلقح نخلكم. وأهل المحلة قالوا: ماكو غير سيفو، هو وحده يدبر المسألة. والله ما كذّبت خبر: بين قربة والثانية، اصعد نخلة. يوم والثاني لقحت نخل المحلة كلها!

ابتسم ابتسامة واسعة، وبعد فترة صمت:

ـ مو هنا القضية، القضية أن الواحد وهو فوق، ويباوع المحلة والبني آدمين من هالعلو، يشوف كل شيء غير شكل!

ـ راح أقول فد كلمة، لكن أريدك ما تزعل، أبو فلاح!

قال أبو منعم، وهو يلتفت إلى سيفو بطرف وجهه. رد سيفو بتحدٍ:

ـ قول، مولانا، شنو ظلت عليك!

ـ قلت لروحي لما سمعتك تقول: لقّحت، إنك راح تحچي عن غير شي!

ـ هذي مو إلنا، آغاتي، هذي لغيرنا!

قال سيفو الكلمات الأخيرة، والتفت إلى بدري، كأنه نوع من التعليم عليه. رد بدري ممازحاً:

ـ تهمة غنى ولا تهمة فقر، أبو فلاح، مو هالشكل؟

ـ العلم عند علام الغيوب، مولانا!

ومرت موجة من الضحك. أما عندما بانت السراي، فقد بدت مبعثرة، أقرب إلى الكتل، رغم اتساع المساحة. كانت قديمة، متآكلة، وكأن الزمن يصرخ من كل جنبة من جنباتها. قال بدري في نفسه: «الأبنية تهرم، تتعب، وسيأتي يوم تموت فيه، كما يموت البشر» وشعر بالحزن أن الباليوز يبدو بناءً فتياً، في الوقت الذي تبدو السراي وكأنها في آخر أيام حياتها.

قال أبو منعم، وقد بدت نخلات طليعة عند المنعطف:

ـ بعد بيك حيل، أبو فلاح، حتى تلقّح هذي الطلايع لو راد أصحابها؟

سأل، وهو يوزع نظره بين سيفو وبدري، في محاولة للعودة إلى الموضوع الأكثر أهمية.

رد سيفو بنزق:

ـ جذّف زين يا معود، وباوع لقدّام، خاف نزلق!

ـ على بختك، أبو فلاح، شنو خايف؟

ـ وين اكو خوف، أبو منعم، هذي خلصنا منها، بس ما تشوف زنادنا ما عاد بيه نار؟

ـ بعدك شباب، مولانا!

ـ خليها سنطة، أنت أخوي وتعرف!

قال بدري في محاولة استفزاز جديدة:

ـ ذاك اليوم سمعت سالفة بالقهوة. . .

مد سيفو رقبته مثل طائر مائي، وبهمس أقرب إلى التآمر:

ـ أي أبوي، شسمعت؟ شيقولون؟

ـ العهدة على الراوي، يا أبو فلاح. بس سمعتهم يقولون ان سيفو كان غافل ملا حمادي ويصعد على المنارة ويوذن. وقت صلاة، مو وقت صلاة، ما يدير بال، ليل نهار ما يدير بال، صدق؟

ضحك سيفو، شاب ضحكته نوع من المرارة، وبعد فترة صمت:

ـ وُلْد المحلة سرسرية، ما عندهم لحية ممشّطة؛ ومن سنين وأيام حلفت يمين ما أطب قهوة الشط. . لكن!

ـ ليش أبو فلاح، خير؟

هكذا سأل أبو منعم، وقد راق له الموضوع. وهدر صوت سيفو:

ـ ملا حمادي حيّال، ما يعرف الحلال من الحرام. الفلس ربه ومعبوده، مثل اليهود، أكثر من اليهود.

واهتز رأسه وهو يحاول أن يتذكر، وبعد فترة صمت:

ـ قال الأولياء والأنبياء: استروا عيوب موتاكم، لا تحچوا عليهم مو زين. . .

وابتسم، كانت ابتسامته أقرب إلى القهقهة، أضاف وقد تغيرت لهجته تماماً:

ـ يا جماعة، حرام الواحد يحچي على جماعته، على أهله، لأنه إذا سوّى هالشكل كأنه يأكل من لحمه!

قال أبو منعم ليحول دون توقفه أو لتحريضه على مواصلة الحديث:

ـ هي سالفة، يا أبو فلاح، وإذا الناس بقهوة الشط يحچون، فنسمعها منك أحسن ما نسمعها من غيرك، مو هذا رأيك؟

عقب بدري لزيادة التحريض:

ـ وإذا قالوا استروا عيوب موتاكم، فالملا حمادي بعده حيّ، ويمكن

يدفنّا كلنا، وعنده لسان ولا لسان حية، فليش خايف؟

ـ يا جماعة الخير: الخوف بقلبي مات، وهسّة إذا أخذوني للوحة ما أخاف، كلها موتة، لكن. . .

وضحك بسخرية وهو يضيف:

ـ وآني والملا، بهذي الأيام، أصدقاء. واللي يشوفنا قاعدين نسولف، يقول: باوعوا الفخاتي شلون تتناغىٰ، فاتركونا من الأيام القديمة!

رد أبو منعم، وكأنه يضع سيفو في موقع صعب:

ـ إذا ما ردت، أبو فلاح، تحچي السالفة، يحرم عليّ الليلة أروح على البيت إذا ما سألت الناس بقهوة الشط!

ـ السالفة، من الأول للتالي، وهذي صار لها سنين وسنين، وكنا شباب بذيك الأيام، إن الواحد شرب قمع عرق، والدنيا ليل وقمرية، سوالف وونسة، وصار بينا شرط: منو يقدر يصعد المنارة ويصيح يا ليل يا عين؟ والله، محسوبكم، أبو فلاح، ما كذب خبر: حطيت طرف دشداشتي بسنوني، وطُب طب، كل درجتين ثلاثة سوا، اشوف روحي براس المنارة، ومن هناك رحت أصيح يا عين يا ليل، والجماعة من جوا يردون عليّ: أوف. وبعدها جريت مقام وبستة، اشتغلت من جوا الهلاهل والشتايم والعفاط، وما أدري بعد شنو، والملا حمادي يصيح: يا معود، يا ابن الأوادم، إنزل، خلنا نتفاهم، كسرت عرضنا، نجست الجامع، وآني ولا داير بال، وما نزلت إلا بألف ويلاه!

هزّته الذكرى، سافر بعيداً إلى أيام قديمة. كان يهز رأسه ويبتسم ابتسامة تقع بين التذكر والأسف والإعجاب، وبعد فترة صمت:

ـ طبيعي تخاربنا آني والملا حمادي، لكن بذيك الأيام وين يقدر يفك حلقه، شحدّه يقول كلمة واحدة، والله العليم كان أكسر رقبته. كنت أتعارك مع ذبان وجهي. وهو، من بعيد، مدلغم، يباوع عليّ بسكوت، ومخنزر. . . على كلٍ. . .

سأل بدري بمرح:

ـ بس هذي أبو فلاح لو اكو غيرها؟

ـ ونوبة ثانية، بعد صلاة الجمعة، ووقتها ما شارب ولا مقندل، بس الكلام اللي قاله بالخطبة كلش قهرني، وما شفت روحي إلا وآني صاعد للماذنة، وشكو عندي شتايم وفشار، وقعت براسه.

وضحك ثم أضاف، وقد تغير صوته تماماً:

ـ سوالف ملا حمادي كلها أعرفها، آني أعرفه كلش زين، وبذاك اليوم شرّيته على الحبل، غسلته وشرّيته، وهو يباوع من جوا: دموعه تسحّ، ويصيح: أتركك للواحد الأحد، أتركك للمنتقم الجبار!

وبمرح يسأل بدري:

ـ وبعدها.. شلون تصادقتم وصرتم أصحاب؟

ـ هذي ما صارت إلا بعد شهور وأيام!

ـ بس المهم تصالحتم.

ـ أي نعم، تصالحنا لكن بشروط!

سأل أبو منعم، وبحماس:

ـ أي أبو فلاح، المهم الشروط، شنو كانت شروطك، وشروط الملا؟

ـ قلت له: إسمع ملاّ، ما يهمني شلون تقعد يهمني شلون تحچي، ومن اليوم لازم تحچي عدل. وقلت له: لا تجمع ولا تشحذ فلوس باسم الفقرا وتنام عليها، والفقرا ما يشوفون من هذي الفلوس لا بشلك ولا باره، أمّا الشرط الثالث...

وتلفت حواليه، كأنه خائف من البوح، أو لظنه أنه لا يزال على اليابسة والناس حوله، فلما اطمئن تابع:

ـ أما الشرط الثالث، ملا حمادي، فلا تقرا على رأسي كل ما شفتني: تعال، صلِّ، صوم، سبّح، تصدّق.. هذي كلها أعرفها، وآني أسوي اللي يعجبني، وشوكت ما أريد. أما قال فلان وقال علان فقولها لغيري...

وبعد قليل، وبنبرة جديدة، إعلاناً أن القصة انتهت:

ـ إذا وافقت على هذا الكلام، على هذي الشروط، فماكو بيننا إلا كل

خير، وأصير آني وياك مثل العسل والدهن، واتفقنا!

ـ وشروطه هو، ما انت قلت له شروط؟

هكذا سأل أبو منعم باستفزاز، وكأنه يريد أن ينتقص من نصر سيفو، رد عليه بسخرية:

ـ كان له شرط واحد: ان ما أصعد للمنارة!

ـ بس هذا الشرط؟ سأل بدري، لو اكو غيره؟

ـ هذا شليلي، وأهل المحلة كلهم يدرون، وأنت قلت: الجماعة بقهوة الشط يعرفون ويسولفون!

ـ استغفر الله، نحن مصدقين، أبو فلاح، بس ما دامت السالفة انفتحت فنحن نسأل سؤال.

هكذا قال أبو منعم، لعله يستدرج سيفو من أجل أن يقول شيئاً إضافياً، وسيفو الذي كان واثقاً، ولإزالة أية شكوك، قال موضحاً:

ـ الرِجّال تكلّم هوايه عن الجنة والنار، عن الكتاب والحساب، وعن يوم القيامة، وآني قلت له: ملاّ أنت تعرف: ماكو أحد ينزل بقبر غيره، وكل عنز معلقة من عرقوبها، وكل واحد له عقل ويسوي اللي بعقله!

لما أصبحت القلعة قريبة بدت ثقيلة كابية، وبدا السور المحيط بها قاسياً، ويشبه حبل المشنقة. وإذا ظل الجو، لدقائق قليلة، مرحاً رضياً، فقد شابه، فجأة، كدر، وكأن ريحاً حملته. أما الصمت الذي هبط ثقيلاً، فقد امتد على صفحة الماء أيضاً، وأصبح لوقع المجدافين صرير يشبه صرير سكين عمياء في لحم حي.

قال بدري، وخرج صوته كانكسار آنية فخارية: قوياً ومكتوماً:

ـ يكفي أسطه.. هذا حدنا!

للحظة جفل سيفو، فقد أحس أن قواه تنهار، وبراعته تتداعى، وان ما دبره، أو افترض أنه وصل إليه، يتلاشى. ظن أن بدري سيرتكب حماقة، ولا بد أن يصلب المركب قبالة القلعة. ولا يُعرف ماذا يمكن أن يحصل بعد ذلك. لكن الصوت الذي تدفق مرة أخرى جعل شذى القداح يعبق أو

يفيض مرة بعد مرة، وكأنه ينبع من الماء ويهبط من الفضاء.

قال بدري:

ـ وهسّه نذّهدى ويّا الماي ونشوف تاليها وين نصير!

قال سيفو:

ـ وراح تسمع، من أبو منعم، بعد ما خلص من المجداف، موال بطيز موال، وإذا عندك واهس وبيك حيل إحسب وقيّد!

49

بعد أن أدار أبو منعم الزورق، وألقى المجدافين وسطه، قال، وهو يفرك يديه

ـ الآن.. يستريح الرب!

ـ قال بدري، في محاولة للتصحيح:

ـ الآن.. يستريح الربان، أسطه!

ـ المهم الاستراحة، مولانا، لأنه اللي ياكل العصي مو مثل اللي يعدها...

وبعد قليل، وقد تغيرت النبرة:

ـ الرب اللي أحچي عليه مو ذاك مال الملا حمادي...

وأضاف بأسى، لكن دون شكوى:

ـ قبل ما يطيح بينا الزمان، مولانا، ونضرب چف من الصبح للمسويات، من طلوع الشمس لغيابها، حتى نحصّل خبزتنا، چنّا بحارة مجانين، وين أكو سفينة بكبر السراي، أكبر من السراي، وين اكو بحر ما شافته عين، ولا داسه أنس أو جان، چنّا نركب ونچيت...

وتذكر. سافر بعيداً وعاد. تابع، كأن أحداً غيره يواصل الحديث:

ـ وبذيك المراكب، وبيها من كل الأجناس والألوان واللغات، كان القبطان مثل ملك الزمان، يأمر ويقول: يوم الأحد ويوم العيد اليوم اللي فيه يستريح الرب. ما أدري شنو يقصد، لكن اللي يباوع شنو اللي يصير ويحصل يتخبل: السفينة مثل الطاووس، على وجه الماي، تمشي

وحدها، الريح وحدها تسيّرها.

ابتسم بحزن، وهو يضيف:

ـ يا جماعة، ومالكم عليّ يمين، همين الماي تفتهم. الها روح...

قال سيفو بحماس:

ـ مولانا، سبحانه وتعالى، قال: وخلقنا من الماء كل شيء حي!

وبعد قليل وبارتباك:

ـ وين رايح.. إذا ماكو ماي ماكو حياة، ماكو لا زرع ولا ضرع، والبني آدم بليّا ماي، ريشة بريح، لا يزرع ولا يخلّف، وما يسوى فلس، مولانا!

رد بدري، وهو يحاول أن يعطي الحديث مجرى:

ـ أبو فلاح خليك سنطة، هسّة نريد نسمع فد شيء ينزل بالقلب، وبين بستة والثانية نشوف أبو منعم وين راح، وشنو اللي شاف...

ثم، وبما يشبه الأمر:

ـ طوّل بالك يا أبو فلاح. خلنا نشوف الناس اللي راحوا وشافوا وبعدها نسمع شتقول!

رد أبو منعم، بنوع من التسليم:

ـ غنا أغني؛ أغني شقد ما يساعدني صوتي...

وبعد قليل، وبأسف:

ـ لو عرفت أنه الكم واهس بالغنا، كان جبنا ويانا ملا لطيف، لأنه وحده يضبط المقام، ويثوّر الدنيا، أما وحدي، وبليا دنبك ودف، فما أدري شيصير!

ـ اللي الله يقدّرك عليه!

هكذا علق سيفو ليمنع أي تردد، أما بدري فأضاف:

ـ وبين المقام والثاني تسولف لنا عن البلاد اللي شفتها، والعجايب اللي صادفتها!

تلفت أبو منعم بارتباك، كأنه يبحث عن شيء أو تذكر شيئاً، ولما تأكد

قال:

ـ علوّاه أعرف السوالف مثل أبو ردينة. . .

عدّل جلسته قليلاً، وأضاف، وقد تغيرت لهجته تماماً:

ـ چان ويانا بواحد من المراكب اللي توصل إلى الهند وجاوه والصين فد واحد اسمه داهش أبو ردينة. وفعلاً هذا الاسم يلوق له، لأن عنده سوالف تدهش، تخبل. مو بس هالشكل، يعرف شلون يسولف. وچنا ليالي وليالي نلتم حوله وهو يسولف. . .

وتغيرت اللهجة:

ـ فما أدري وين صار. هو بصراوي، من العشار، لكن قضّى كل عمره بالبحر، فإن چان بعده حي فالله يقويه ويعطيه العافية، وإذا مات الله يرحمه. خوش رجال. لبلبان. هواية يونّس، حتى إن الواحد وياه ما يحس بالوقت. . .

وعاد إلى اللهجة الأولى:

ـ وداهش هذا موبس ملاح، چان يعرف يقرا ويكتب، وچان عنده كومة كتب، وإذا الله ما كذبني، يمكن ما يملك غيرها. . .

توقف قليلاً، تغيرت ملامحه، أصبحت حزينة، عبّ الهواء وتابع:

ـ ويوم تفارقنا، وچنّا بساحل عمان، ولأن العلاقات بينا صارت قوية، صرنا أخوان، أكثر من الأخوان، انطاني فد كتاب، وقال: يجوز ما تقدر تقراه، لكن إذا وصلت بغداد اكو هوايه يقرون، ولا بد يقروا لك شكو بهذا الكتاب، ولا بد تتونس وتتذكرني!

سأل بدري بلهفة:

ـ والكتاب شنو اللي صار بيه، وينه؟

هزّ أبو منعم رأسه عدة مرات، وقد عبرته ذكريات كثيرة. بعد أن مرت فترة صمت، وأجال عينيه خلالها بوجهي بدري وسيفو، رد ببطء:

ـ الكتاب موجود، أي نعم موجود!

ـ علوّاه الواحد يقدر يشوفه!

هكذا رد بدري.

ومن جديد تطلع أبو منعم إلى عيني بدري بتحديد، وكأنه يقرأ في العينين ما إذا كانتا تؤكدان الكلمات التي قالها، فلما اطمئن، قال بمرح:

ـ الكتاب مو بس موجود، وشايله وياي بالمركب!

ودون أن ينتظر، انزلق إلى أرض المركب، جرّ من مكان كان مغطى بالحبال وبشادر قديم صندوقاً حديدياً، فتحه بمفتاح كان معلقاً بخيط لا يُعرف لونه ويتدلى من الرقبة، واستخرج كتاباً مغلفاً بجلد نبيذي، ومده نحو بدري!

سيفو الذي كان يراقب كل شيء بصمت، أصابته الدهشة، حين كان يسمع الحديث، ثم وهو يرى لهفة بدري ورغبته في أن يرى الكتاب، وأخيراً وهو يقلّب الكتاب وقد أصبح بين يديه.

قال بطريقة مهيبة:

ـ لو أن كل ما يتمناه الواحد يصير هالشكل چان هسّه الدنيا بألف خير...

وبعد قليل، كأنه يكلم نفسه:

ـ بِيّا سالفة چنّا، وين صرنا، الواحد ما يصدق!

وأخذ بدري يقلب صفحات الكتاب. كان يتنقل بين صفحاته كما تتنقل الفراشة. يهز رأسه مرة. تمتد شفته السفلى مرة. يضحك مرة. وكان الصمت قوياً ممتداً.

قال سيفو في محاولة لكي يكسر الصمت:

ـ كأنا قاعدين بعزا: واحد صافن، واحد يقرا، وما باقي على أهل الشيخ صندل، سيفو وأمثاله، إلا يلطمون!

أبو منعم الذي عاد من رحلة الذكريات بسرعة، والتفت إلى سيفو، وإن لم يسمع بوضوح كل ما قاله، تساءلت عيناه. أما بدري فقد ظل بعيداً، مع كتابه، ولم يسمع شيئاً.

قال سيفو في محاولة للاستفزاز:

ـ خلنا نرجع، أبو منعم، يرحم والديك، لأن أذني اليسرى صارت تونّ، ولا بد يكون هذا الونين من شتايم ربعنا، أهل الشيخ صندل، لأنا تركناهم اليوم عطاش!

انتبه بدري، كأنه يستعيد نفسه من أمكنة بعيدة، وتساءل باهتمام مرتبك:

ـ ها . . شنو، شنو اللي قلته، أبو فلاح؟

ـ ما أدري إحنا جايين على مود الونسة أم قاعدين بفاتحة!

ـ ما افتهمت أبو فلاح!

ـ أبو منعم سافر للهند وللسند، سافر ويا داهش وغير داهش، وانت غرقت بالكتاب، وآني ما أدري أبقى وياكم أو أجيّت بالشط وأروح يَمّ جماعتي!

رد بدري، وهو يضحك:

ـ على كيفك، أبو فلاح، كل جيّتنا على مود الونسة!

ـ إذا هالشكل ضم الكتاب، وخلنا نسمع صوت أبو منعم الورد!

قال أبو منعم في محاولة للتوفيق بين عدة أفكار:

ـ أغني شوّي ويقرالنا السيد شوية.

وتغيرت النبرة:

ـ وابن عمتي نواف، تعرفه، قرالنا فد أشياء بهذا الكتاب تخبل، تاخذ العقل!

ـ المهم، مولانا، نخلص من قعدة العزا!

كان المركب يسير الهوينا مع حركة المياه، وينحرف قليلاً مع المجرى. يتركه أبو منعم ولكن إلى حد، إذ بحركة جسده، خاصة القدمين، مع ميل الجذع إلى هذه الناحية أو تلك، يعتدل، فإذا أبى، أو تجاوز حداً معنياً، كان يستعمل أحد المجدافين كي يعدل مساره.

بغداد التي كانت مثقلة بالليل والبرودة، وببعض الضباب المنبعث من مياه النهر، تفتحت، تألقت في ذلك الشعاع الصباحي الذي اتسع وملأ كل

مكان.

صوت أبي منعم، البطيء، والذي لا يعلو إلا قليلاً، يبدو للسامع كأنه آتٍ من بعيد، مع شجن تلونه الكلمات، وتضفي عليه مسحة تجعله حزيناً وفيه قتام يحسه القلب ويتشربه لحظة بعد أخرى.

عبروا السراي، مرة أخرى. بدت قوية، لكن الحزن لم يفارقها. أما الباليوز، حين مروا به من جديد، فكان أكثر تألقاً، خاصة وأن الحركة على السفينة، والدخان الذي انبعث من المدخنة التي كانت بلونين، ظهر وكأنه زوبعة، نظراً للطول والاستقامة، قبل أن يتمطى في الهواء العالي، ثم يتبدد.

أما عندما اقترب المركب من وسط المدينة، وبانت الشرائع واضحة، والمراكب تنطلق منها أو تتجه نحوها، وتوقف أبو منعم عن الغناء، فقد قال له سيفو بطريقة تتجاوز الرجاء ولكن لا تبلغ الأمر:

ـ خفّ أيدك، أبو منعم، خلنا نخلص من الهرجة، وإلا الروج أخذنا يمنة ويسرى!

ـ لعيونك، أبو فلاح، وخاف الجماعة، هنا، هنا، يصيحون علينا، عبالهم ننقل نفرات من هالصوب لذلك الصوب!

تجاوزوا الباب الشرقي، بدأ النهر يشكّل قوساً وهو ينعطف نحو اليسار. ارتفع صوت أبي منعم يغني، وقد فتنته المناظر التي ترى على الضفتين:

هذي يا صاح أوقات الهنا ... وبلوغ النفس أقصى الأمل
جمعت من كل شيء أحسنا ... لذة في غيرها لم تكمل

ولما سمع ثناء سيفو، وقد أغمض عينيه، تابع بإيقاع جديد:

ضرج الورد بها وجنته ... والشفيق الغض إذ ذاك جريح
تحسب النرجس فيها أعينا ... شاخصات نحونا بالمقل
مال غصن البان فيها وانثنى ... في هواها ميلان الثمل

ما كاد ينتهي من هذا الموشح، ورغم ثناء سيفو، حتى خيم الصمت.

ولما طال الصمت وامتد، رفع سيفو رأسه متسائلاً. تطلع إليه أبو منعم وهو يهز رأسه ويبتسم، وقال بحزن موضحاً:

- إيد وحدة ما تصفق يا أبو فلاح. . .

وتغيرت نبرة الصوت:

- وإذا تريد الصدق: الله خلق الغنا لليل. بالنهار شقد ما يحاول الواحد ما ترهم، ما تصير. . .

وبعد قليل:

- بالليل يصير للواحد واهس يغني، يرقص، ويحار شيسوي. . .

وأضاف بصوت خفيض لا يكاد يسمع:

- يجوز البني آدم بالليل يخاف، يحس بالظلمة، بالموت، ويريد ينسى ويونس روحه، فتشوفه يصيح، يرفع صوته، يقول آني هنا، آني مو خايف، وكل شيء أقدر أسويه!

رد سيفو:

- الغنا واهس يا معود. اكو ناس يغنون بالليل، بالنهار، ما يهمهم الوقت، بس يسمعون صوت الدنبك ما تشوفهم إلا ويصيحون: خفي يا رجليّ!

عقّب أبو منعم بمرح:

- المهم الدنبك، مولانا، هو اللي يرقّص!

وبعد قليل، وبمرح أكثر:

- واللي ما يرقص لصوت الدنبك أو الطبل يقول: الأرض عوجا!

- شنو قصدك، آغاتي؟

- قبل شوي چنت خابصنا، بس تريد ترقص، هسّه راح نوقف، وبيك حيل راوينا رقصك، آغاتي!

- أكيد الأرض راح تكون عوجا على أبو فلاح، وبدل ما يرقص آني راح أقرالكم قصة أو ثنتين من هالكتاب.

قال بدري ذلك وهو يلوّح بالكتاب.

ما إن استقروا على اليابسة. وبعد أن تم إعداد الشاي، أخذ بدري يقلّب ويقرأ: «وحدّث أبو محمد الحسن بن عمرو أن مركباً خرج من بلاد الهند إلى بعض النواحي فذهب من يد صاحبه بقوة الريح، وغاب المركب فاضطر الربان إلى الرسو بجوار جزيرة صغيرة لا ماء فيها ولا شجر؛ وخرجوا إلى البر واشتغلوا بإصلاح المركب، واتفق لهم يوم نوروز فحملوا من خشبيات المركب، وبعض خوص وقماش وأوقدوا، فتحركت الجزيرة بهم، فأسرعوا وألقوا أنفسهم إلى الماء، وتعلقوا بالقارب، ورأوا الجزيرة تغوص تحت سمعهم وبصرهم، ولحقهم اضطراب البحر بحركتها ما أشرفوا بسببه على الغرق؛ وكانت سلحفاة نائمة على وجه الماء، وحين أحست بحر النار هربت».

وحدّث البرختي: «نحن أهل بلاد واسعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة. والمسافة ما بين كل بلد من جميع بلادنا وبين هذه الجزيرة ثلاثة أيام بلياليها. وكل من في أقاليمنا ومدننا من الملوك يعبدون هذه النار التي تظهر لهم بالليل في هذه الجزيرة. ويسمونها بيت الشمس، لأن الشمس تشرق من طرفها الشرقي وتغرب في جانبها الغربي فيظنون أنها تبيت في هذه الجزيرة. فإذا أصبح وأشرقت الشمس من جانبها الشرقي، خفيت نارها وماتت، وارتفعت الشمس فيقولون: هي هي. وإذا غربت في جانبها الغربي وامسى ظهرت النار فيقولون: هي، هي. فيعبدونها ويقصدونها بصلواتهم وسجودهم من سائر الجهات. ثم إن الله جعل المرأة في بلدنا تلد أول بطن ذكراً، وثاني بطن أنثيين، وكذلك باقي عمرها. فما أقل الرجال في بلدنا وأكثر النسوان. فلما كثرن وأردن التغلب على الرجال صنعن لهم المراكب وحمّلوا منهم آلافاً وطرحوهم في هذه الجزيرة. وقالوا للشمس: يا ربهم أنت أحق بمن خلقت، وليس لنا بهم طاقة. ومنذ ذلك الوقت ما سمعنا ولا مر بنا أحد من الناس غيركم، ولا يطرق بلادنا أحد على مر الأزمنة. وبلادنا في البحر الأعظم تحت سهيل لا يقدر أحد أن يجيء إلينا فيرجع؛ ولا يجسر أحد أن يفارق الساحل والبرد خوفَ أن

تشربه البحار!».

قال سيفو مخاطباً بدري:

ـ هذي الديرة توالمنا هواية، الواحد يحس أنه ملك، شتقول؟

تجاهل بدري السؤال والتفت موجهاً الحديث إلى أبي منعم:

ـ وهذي الجزيرة اكو أحد من جماعتك وصلها؟

ـ عليّ الحرام لو أني وصلت ما أرجع، لأن هذي هي الجنة اللي وعد بيها رب العالمين المتقين، والناس الخوش أوادم!

سأل سيفو:

ـ هاي شلون الواحد يقدر يوصلها؟

ـ يركب بالسفينة، ويارب ويا رحيم، شهر ثنين، سنة ثنتين وما يشوف روحه إلا هناك!

ـ وإذا تهنا؟ إذا الريح ما والمت؟

ـ يفوت السبت بطيز اليهودي، تكون راحت علينا بالدنيا والآخرة!

ـ وما نقدر نرجع لبغداد نوبة ثانية؟

هكذا سأل سيفو بسذاجة. رد أبو منعم وهو يضحك:

ـ باوعوا شلون يسأل! إذا الريح قبّت، وصار الموج مثل الجبال، أعلى من الجبال، وين اكو واحد يخلص؟ وين اكو واحد يرجع!

ـ يعني ماكو منها نتيجة؟

ـ إذا لحق الواحد يندار على القبلة ويتشاهد يكون الله راضي عليه!

ـ عيني، أبو منعم، لا تحسب حسابي، ومثل هذي الديرة ما أريدها...

وبعد قليل، وبأسى:

ـ تبقى بغداد، على كل سخامها ولطامها، أرحم، وأحسن...

ثم بهمس:

ـ وبعدين تعودنا عليها، فإذا رحنا هنا.. هنا خاف نضيّع المشيتين!

قال بدري، وهو لا يخفي مرحه:

ـ مثل هالروحة ما تتفوت، أبو فلاح، لو تريد تعيف كل هالنسوان وتبقى ويّا فطيم؟

ـ عصفور باليد، مولانا، أحسن من . . .

قاطعه بدري، وهو يتظاهر بالعصبية:

ـ زين إسمع: «. . . ومن ذلك أمة بجزيرة على شبه النساء، يقال لها بنات الماء في صور النساء الحسان ذوات الشعور السبط، لهن. . . وثدي وكلام لا يفهم، وقهقهة وضحك. وحُكي عن بعض البحريين أن الريح ألقتهم إلى جزيرة فيها شجر وأنهار عذبة، وأنهم كانوا يسمعون جلبة وضوضاء وضحكاً فكمنوا لهن، وأخذوا منهن امرأتين فأوثقوهما، وأقامتا مع اللذين أخذاهما أياماً. . . وإن أحدهما وثق بصاحبته فأرسلها من وثاقها فهربت إلى البحر ولم يرها بعد ذلك، وبقيت الأخرى مع صاحبها مستوثقاً منها، فحملت منه، وولدت ولداً ذكراً، وأنهم ركبوا البحر فلما حصلت في المركب رحمها وحل ميثاقها، وقد رأى أنها لا تزول عن ابنها، فتغفلته ووثبت إلى البحر، فلما كانت بعد ذلك بيوم ظهرت له وألقت إليه صدفة در».

قال سيفو، في محاولة لأن يغير الجو:

ـ اللي قلته، يا أبو منعم، إن الغنا لليل، صدق، بالليل، الواحد ما يشوف بس بعيونه، وبقلبه يشوف، ويغني غير شكل!

ـ مو بس الغنا، أبو فلاح، كل شيء بالليل غير شكل. . .

هكذا رد أبو منعم، وأضاف بمرح:

ـ شفت بحياتك عرس صار بالنهار؟ شفت كلمة عشق طلعت من القلب غير بالليل، آخر الليل؟ وشتو قولك بالضحكة اللي تشق الحزن، وتطلع من جوا الصدر، تطلع بالنهار لو بالليل؟

أضاف سيفو، وكنوع من الاحتجاج على القراءة:

ـ واللي يقرون. . .

ضحك بسخرية، وكأنه يحاول أن يستدرك:

ـ مو قصدي اللي يقرون على القبور، هذول، الواحد منهم يگدّي ويريد يحصل له فلسين، أو يقولوا له عفية ويرحم والديك: آني أحچي على اللي قرا ودرس، هذول يقرون بالليل!

هزّ رأسه بأسى، والتفت نحو بدري:

ـ تعرف راضي الحلي. . .

وحين زمّ بدري عينيه، في محاولة للتذكر، أضاف سيفو:

ـ ابن أبو راضي اللي يسكنون براس الدهدوانة، بصفّ ناجية أم القيمر. . .

ردّ بدري، وهو يبتسم:

ـ أي. . أي عرفتهم، تذكرت، أي شنو؟

ـ ما أشوف أمه إلا وتتوسل بيّ: أبو فلاح: هذا الولد راح يخبلني: يسهر الليل كله وينام بالنهار، وشقد ما حاولت، شقد ما سويت، ماكو نتيجة. راح ينعمي. كل الليل يقرا. عميت عيونه من القراية. ما تحچي وياه أبو فلاح! وأرد عليها: شاقدر أسوي أم راضي؟ ترد: القراية موكل شي بالدنيا!

قال بدري بسخرية:

ـ ما ينراد كل هالسالفة، يا أبو فلاح، وما ينراد كل هذي اللوفة، وإذا عاجبكم نقوم فأنا حاضر. الكتاب وياي، وإذا ما قرينا هسّه، أقدر أقرا بعدين.

وبدأ المركب رحلة العودة، إلى بغداد، وقد طالت كثيراً!

50

لـم يكـن سيفـو متأكداً أن هذا الـذي جرى منذ الصبـاح وإلى ما قبـل الغروب بقليل كان حلماً أم حقيقة. يتذكر الوقائع كلها. حتى أصغر التفاصيل يتذكرها. الكلمات التي قيلت، طريقة قولها، وكيف كان يقرأ 'ارها على وجهي بدري، ثم أبي منعم. لكن إلى جانب هذه الوقائع فقد ـصل شيء آخر، لا يعرف تماماً ما هو، أو كيف وقع أو متى، لكنه أحسه كل جوارحه. ويبالغ بعض الأحيان حين يظن أن له آثاراً على جسده. يمدّ ه إلى عدة مواضع، يتلمس، يتحرّى، عله يكشف تلك الآثار.

وإذا كان الجسد عصياً على البوح، وبطيئاً في التعبير، فإن في داخله اء يتمطى، يرفع صوته بتحدٍ، مرجّعاً أحداثاً بعيدة منسية، وحتى الأحلام التي عبرت مخيّلته ذات ليلة ثم توارت، يراها الآن تتدفق وتفيض، تنفجر مرة أخرى وكأنها تتجدد، أو تكتسح الحواجز التي وقفت في وجهها ودفعتها إلى النسيان.

لم يعد قادراً، أو راغباً، في حبس الذكريات، أو منع استعادة الحياة التي عاشها طوال تلك السنين، تماماً مثلما لا يستطيع الإنسان وقف المطر الذي ينهال من السماء. قد يهرب منه لحظة، لكن آثاره تحاصره من كل الجهات.

أيمكن لرائحة الماء، وسط النهر، أن تفعل ذلك؟ وإذا كانت الرائحة وحدها لا تكفي، فهل أن الجسد، وهو يلامس الأمواج، أو يقاوم ثقل الماء، بعد أن تراهن والأسطه أبو منعم، أيهما يستطيع أن يغوص لفترة

أطول، لمسافة أبعد، ما جعله يستعيد الماضي كله؟

لقد تغيّر فيه شيء ما، يحس هذا الشيء لكن دون أن يقوى على تحديده، أو معرفته. انكسر حاجز، وسرحت إلى داخله موجة مضيئة وحزينة ملأت كل كيانه.

صحيح انه سخر من بدري في اليومين السابقين. ولم يفهم تلك الرجفة التي ميزت صوته حين كان يتحدث عن نجمة. قال إن ذلك لا يليق بالرجال العقلاء، ويسيء لبدري ولعائلته وللمحلة كلها، ويسيء إليه شخصياً. ولم يشعر بأنه يخطىء حين فكر أن يمنع هذا الجنون، وأن يقف في وجه بدري، مهما كلفه ذلك من مشقة!

لكن.. خلال لحظة خاطفة، وسط النهر، أحس أنه مخطىء، وأن تلك الرغبة التي كانت تدفعه لمثل هذا الموقف قد تجمدت، ثم أخذت بالتراجع. كيف يصف ما حصل له؟ متى بدأ؟ لا يعرف، وليس متأكداً، لكن يحس ذلك بقوة، هل حصل لما وصلوا إلى القلعة، أم قبل ذلك؟ وهل لموقف بدري لما طلب أن يستدير المركب ويعود إلى السير مع المجرى علاقة؟ أيمكن أن يكون ذلك هو الذي استفزه، أم استسلام بدري بعد أن صعدوا إلى المركب؟ ولماذا بدا بدري ضعيفاً فلم يعترض ولم يناقش، أم لعله يضمر موقفاً آخر؟

فجأة تفتحت روح سيفو، أو ربما انفجرت. ولا بد أن تكون تلك الرائحة الملعونة، والتي تختلف عن رائحة الجرف، هي التي حركته، خضته تماماً، وغيرت مسار الدم في عروقه.

ومثلما تتكسر الموجات الصغيرة على طرف النهر بدأت تتكسر الحواجز، أو تغير مواقعها. صحيح انه حافظ على هدوئه، كي يمنع جنون بدري، لكن جنونه الخاص هجم عليه كما تهجم الحمى في بعض الليالي، يتذكر ذلك من الملاريا القديمة التي تلازمه. حاول أن يتجاهل الموجة الأولى، أبعدها بقوة، لكن مع كل ثانية تمر، مع كل نخلة يعبرونها، يحس أن شيئاً داخله يفلت ويريد أن يخرج، أن يطير!

الأيام القديمة، الذكريات، لحظات الزهو ولحظات التعب، تجمعت كلها فجأة، كما تتجمع مزن الربيع، وأخذت تنهمر عليه. لماذا جاءت هكذا دفعة واحدة؟ ماذا حملها إليه الآن، وماذا تريد منه؟ لا يملك جواباً، أو بالأحرى لا يعرف الجواب، كما أن أي جواب لا يجدي، أو أقل من أن يفسر مشاعره ويوضح له كيف تجري الأمور.

ثم لماذا هو على صواب وبدري على خطأ؟ وهل ما قاله أبو منعم، وأيضاً ما قرأه بدري في ذلك الكتاب الذي خرج من الصندوق الحديدي كما يخرج العفريت من المكحلة، ما جعله يشعر بهذا التغير؟

حتى أبو منعم، لما حوّل اتجاه المركب، كي يعود إلى بغداد، إيذاناً بانتهاء الرحلة، ضرب المجدافين بقوة، وبدت حركاته عصبية، ولا يعرف لماذا ردد: واللي ما زار سلمان كل عمره خسارة؟ هل كانت لديه رغبة، في ذلك اليوم الربيعي، أن يواصل الرحلة إلى سلمان باك، ومع الونسة زيارة ضريح سلمان الفارسي، لتمسح الزيارة الخطايا والكلمات الملعونة التي أفلتت دون إرادة، ودون أن تعني موقفاً؟ ثم ألا يجوز أن تكون الذكريات اجتاحت الأسطة وحملته إلى أمكنة بعيدة، وعبّر عن ذلك بهذه الطريقة؟

فجأة أحس بالخسارة والضياع، وترافق ذلك مع الحزن حين تصور نفسه يترنح مثل دابة بين الجرف والشيخ صندل. فمنذ أن فتح عينيه على الدنيا لا يتذكر إلا أنه يواصل هذه الرحلة الدائرية التي لا تنتهي. رحلة عمياء إلى درجة لا يتصور أنه عاشها. كيف استطاع أن يواصل تلك اللعبة المجنونة، وعيناه أغلب الوقت نحو الأرض، بين الجرف وتلك البيوت التي لا يُسمع فيها غير الشجار والشتائم؟ ألم يتعب؟ ألم يزهق؟ وهؤلاء الذين يستقبلونه بالمرحبا، ويقولون له كلمات كبيرة، هل يعرفون كم يعاني، ليس فقط من التعب، وإنما من ذلك التكرار الذي لا ينتهي: ذات الطريق، ذات الخطوات، ثم ذات المياه المتعبة التي وصلت إلى الشاطىء بنوع من الاستسلام، لتنقل إلى ذات البيوت، ولتوضع أخيراً في ذات

الأواني التي ما تكاد تمتلىء حتى تفرغ، وكأن الناس يريدون شيئاً واحداً، ويتعمدونه: أن يقسوا عليه، أن ينتقموا منه. حتى الكلمات التي يرددونها لا تتغير، حتى استكان الشاي الذي يقدمونه إليه، كأنهم بهذه الطريقة يرضون ضمائرهم قبل أن يرضوا أحداً آخر!

حتى النقود التي تدفع إليه كل خميس يحس أنه لا يحبها، ويحاول أن يتخلص منها في أسرع وقت. يعطي فطيم قسماً، ما يكفي لشراء الأكل والحاجات الضرورية، وما يزيد يودعه عند الحاج علاوي. لا يعرف بالضبط المبالغ، ويتعب حين يحاول تذكر ما أعطى وما يجب أن يستعيده، لكن الحاج علاوي منذ أن أدى فريضة الحج وزيارة قبر الرسول تغيّر: «فلوسك أبو فلاح، وما أريد أدوخ بعدّها، بهذا الكيس، وإذا ردتها يوم من الأيام، تعال بحيل صدر وقول: فلوسي، حجي، فتشوفها حاضرة. وتعرف، الدنيا حياة وموت، فإذا ربنا أخذ وديعته فأنا كتبت ورقة باسمك وحطيتها ويّا الفلوس، وأريد منك علامة، ونحطها همين وّيا الفلوس، فإذا صار قدر، والناس كلها راح تموت، تجي وتقول: أريد فلوسي وعلامتها: فلان شيء!».

ورغم أن سيفو رفض تقديم العلامة أول الأمر، وتأخر حين ذكّره الحاج علاوي بها، لكنه اقتنع في النهاية، حمل معه من طرف النهر صدفة صغيرة حمراء، قدمها للحاج علاوي بخجل، وقال له، وهو يدفع إليه آخر ما تبقى لديه من الخميسية: «هذا هو النيشان، حجي، وما يعرفه إلا ثلاثة: أنت وأنا وفطيم، ومثل ما قلت: الدنيا حياة وموت».

لقد سحب فلوسه عدة مرات من الحاج علاوي وبقي النيشان! كانت لديه دائماً أسبابه لسحبها: الكسوة، الضحية، وأيضاً الزيارة. كان الحاج علاوي على يقين أن أغلب هذه السحوبات تتم أثناء زيارات يقوم بها سيفو للأولياء. لم يكن يقول ذلك، لكن عن طريق النسوة، والأحاديث التي تدور بينهن، ثم عدم رؤيتهن أن ثوباً جديداً أو حذاء جديداً دخل بيت سيفو، فلا بد أن يكون المبلغ قد صُرف في أمكنة أخرى، ولأسباب لا

يُعلن عنها!

والملا حمادي الذي سأل الحاج علاوي ذات مرة، كيف يصرف سيفو فلوسه، رد عليه بقسوة جعلته لا يكرر السؤال مرة ثانية:

ـ حجيت بيت الله الحرام وزرت النبي؛ وشفت أوادم بعيني هذي، اللي راح ياكلها الدود، بقد شعر رأسي، لكن يحرم عليّ مثلكم أبد ما شفت...

فتح الملا حمادي عينيه انتظاراً لما سيقوله الحاج علاوي، والذي تباطأ، وهو ينظر إليه بحقد ممزوج بالسخرية:

ـ كل واحد من هذول اللي يوذنون ويغسلون الموتى، وبالليل يعقدون المهر، ما يشكون من شي: صحة وعافية، ورضى الدنيا والآخرة، فليش لاحقين هذول المساكين الفقرا اللي يكربون من الفجر إلى ما بعد غياب الشمس؟

حاول الملا حمادي أن يوضح ويبرر

ـ على كيفك حجي، لأن الواحد وهو يسأل حتى يتحضر، فإذا احتاج سيفو، إذا راد فد شي..

ـ خلِ هذي على اليمنى، لا، وأنت قصدك غير شي!

ـ الله يسامحك حجي.

وبعد قليل وبارتباك:

ـ لازم أقوم، حجي، صار وقت المغرب.

ـ على كيفك تدهدى، ملّا، حتى توصل على الوقت!

حتى التعب الذي استنزف عمره يحوّله بعض الذين يدّعون حبه إلى مجرد نقود، وأيضاً يريدون اصطيادها!

لقد وصل في علاقاته مع عدد من الذين حوله إلى نوع من التعايش المر. لا يستطيع أن يتخلى عنهم ولا يمكن أن يكون واحداً منهم، إنه موجود معهم فقط، لكن المسافة التي تفصلهم عنه كبيرة إلى درجة يفضل أن يغرق في الصمت أو أن يسافر بعيداً.

حين أوصلهم أبو منعم إلى شريعة الدملوجي، قبل الغروب، اتفقوا على اللقاء مرة أخرى، وأن يكون معهم ملاّ لطيف. أما حين كان يصعد وبدري نحو محلة الشيخ صندل، فقد أحس أن أضلاعه تؤلمه، ولا يريد أن يتابع إلى البيت، قال في محاولة لإشعار بدري بانتهاء رحلة ذلك اليوم:

ـ أنت هسه رايح تقرا. . .

وبعد قليل وبنبرة سخرية:

ـ وآني لازم أدور وليف. . .

ولم يترك بدري ليسأل، أضاف بنفس النبرة:

ـ أروخ يم الأسطة اسماعيل أو أدهدى على القهوة. . ما تفرق.

رد بدري بتحدٍ ساخر:

ـ لازم تروح يم الملا حمادي، لأن البزون يحب خنّاقه!

ـ مالي غير هذا أو ذاك، مولانا، إحنا ولد محلة ولازم نتصادق!

51

أكد بعض العاملين في السراي أنهم لم يعرفوا بدري لما عاد من الإجازة. كان ناحلاً، تحيط بعينيه هالات زرق لفرط السهر والتعب. أما مشيته القوية الواثقة، وكانت تُعرف من وقعها، فقد خبت، رغم الجهد الذي يبذله لكي يبقى كما كان.

نادر أفندي، بعد أن تصالح معه، ورآه الآن هكذا، فوجىء بمنظره، بل وأنكره خلال اللحظات الأولى. أما حين سأله ما إذا كان مريضاً، أو ألمت به مصيبة، فقد نفى بدري ذلك، بل وحاول أن يضفي المرح على حديثه وتصرفاته، وأشار إلى ضرورة أن يتمتع الإنسان براحة شهرية وسنوية لأن «البني آدم مثل الأرض، فالأرض إذا ما انغسلت، إذا ما استراحت، تصبّخ، تملّح، وينراد لها سنين وأيام حتى تعود مثل ما كانت» حين سمع نادر أفندي ذلك تحسب واعتبر هذا الكلام هذراً، ويخفي شيئاً وراءه.

قال، وهو يقرب رأسه كثيراً من بدري:

ـ الصحة أهم شيء بالدنيا، بدري بك، وبعدها كل شيء يهون!

بلع ريقه باضطراب، وأضاف:

ـ أي نعم، يا بدري بك، الصحة وراحة البال.

ولما أكد له بدري، مجدداً، أن صحته جيدة، ولا يشغله أي هم، فقد راودته شكوك أن تكون هناك مؤامرة من نوع آخر، إذ مثلما يلجأ المتسولون إلى ارتداء الأسمال البالية، أو يُظهرون بعض العاهات بمبالغة مقصودة، كي يستدروا العطف، فإن آخرين يلجؤون إلى وسائل أكثر مكراً، كأن

يمرضوا فعلاً، أو يبالغوا بالشرود والحزن، ليسألهم الناس عما بهم، ومما يشكون أو يعانون، وهناك يكون الفخ منصوباً، ويقع فيه بعض البسطاء وكثير من المغفلين.

وعنّ لنادر أفندي أن يحسب الرواتب والعطايا التي حصل عليها بدري خلال الفترة الأخيرة، وجدها كبيرة؛ قال في نفسه: «ثم انه شاب أعزب، يقضي معظم وقته في السراي، كما أن أسرته لا تحتاج إلى مساعدته، لذلك لا يمكن اعتبار المال ما يقلقه أو يولّد له الهم، هذا عدا ما يحصل عليه من الباشا أو ربما من نساء القصر، دون أن يدري أحد». لما تأكد من ذلك، سأله بما يشبه الهمس:

ـ خاف تكون محتاج فد شي، بدري بك؟

وحين هز بدري رأسه نافياً أية حاجة، وكان يبتسم، تابع نادر أفندي، وخرج صوته من الحنجرة:

ـ الفلوس إذا انّطت لواحد يستاهلها، لواحد بعازتها، حتى يحل مشاكله، وبس تخلص العازة يرجّعها، تصير مثل الصلاة والصوم: مبروكة وتقود للجنة، وما يضيع أجرها لا في الدنيا ولا في الآخرة!

ونفى بدري أية حاجة للفلوس، وكان لا يخفي ابتسامته وهو يتحدث، مما دفع نادر لأن يصرخ:

ـ علوّاه كل الناس مثلك يا بدري بك. . .

وبعد قليل وبحدة، ليعبر عن مرارته وشكواه:

ـ الفلوس أحسن ما تروح للي يسوى وما يسوى، أحسن ما تروح للقحاب والقواويد، ولكل ابن حيض، لازم تنضم ليوم العازة. وأنت، يا بك، الباشا يسمع منك، فلا تتعب وانت تقرا على راسه، أرجوك يا بدري بك، أتوسل إليك!

وكي يبرر مثل هذا الطلب، ولأنه على يقين أن بدري لا يحتاج إلى سلفة أو دين، فقد اندفع بحمية أكبر:

ـ إذا ردت فد شي، بدري بك، بس قول؛ ولازم تعرف: عندك أخ

اسمه أبو يقظان، فلا تدوّر على أحد، ولا تحير أبد، تجي عليّ بحيل صدر وتقول: أريد، هات، وشوف شلون ألبّيك، بدري بك!

وبعد قليل وبهمس:

ـ أكيد ما محتاج فد شي؟

ـ وداعتي، وداعة نادر أفندي، لو ردت، لو محتاج، كان آني بنفسي طلبت!

ـ بارك الله فيك يا ابن الحمولة، يا ابن الأصل!

أما ناطق أفندي، حين رأى بدري، فقد أصيب بالذهول. إذ بعد أن حيّاه بمودة وحرارة، طلب منه أن يقف مجدداً ليتأكد من قيافته، وبعد أن دار حوله، ونظر إليه بعناية، قال بأسى:

ـ شمسوي بروحك؟ ليش مرزّل نفسك هالشكل؟

للحظات لم يدرك بدري مغزى سؤاله. نظر إلى ثيابه العسكرية، ونظر إلى ناطق أفندي مستغرباً، تابع ناطق، وكأنه يحدث نفسه:

ـ معقول انه بشهر زمان الواحد يتغير بهالشكل؟ إلى هذا الحدّ؟

وبعد قليل وهو يهز رأسه بحيرة:

ـ أنت متأكد أن هذي ملابسك؟ ما انبدلت؟ ما تغيرت؟

رد بدري، وقد مازج صوته بعض الحنق:

ـ شبيك، ناطق أفندي؟ شنو صاير بالدنيا؟ ليش تسأل مثل هذا السؤال؟

ـ بدري، عيني، اللي يشوفك بهذه الملابس يقول: بالتأكيد هذي ملابس أبوه، لو لاقيها، أو ناهبها!

وبعد قليل وباستغراب:

ـ ما شايف روحك، ما أحد قبلي قال لك؟

ـ ناطق أفندي.. إما انك متوهم أو تريد تتشاقى!

ـ شوفوا ابن الأوادم شيحچي، شيقول...

وتغيرت النبرة تماماً، أصبحت حازمة أقرب إلى الغضب:

ـ بدري، يا آغاتي، أنت تعرف شقد نحن متشددين مع الغُرب، مع

الناس اللي ما نعرفهم: البسوا هذا ولا تلبسوا ذاك. القيافة هالشكل مو هالشكل. هذا يصير وهذا ما يصير. . .

استراح قليلاً، التقط نفساً وتابع:

ـ إذا كان هالشكل ويّا الغربا، الناس اللي ما إلهم علاقة بالسراي، فشلون تريدنا نتعامل مع أقرب الناس للباشا؟

ـ ما تفهّمني، يرحم والديك، شنو تريده مني؟

هكذا، بغضب، سأل بدري. رد ناطق أفندي، وحاول أن يعطي صوته مدى مسالماً:

ـ هذي الهدوم ما عادت تلوق لك: مهبهبة، عريضة، واللي يشوفك جواها يقول: عبالك عصا ملفوفة بخلقان. . .

وبعد قليل وبرجاء:

ـ لازم نلقى لك ملابس غير هذي؛ ملابس عرضها أقل حتى أنت تملاها مو هي تملاك!

وتغيرت النبرة، أصبحت مرحة:

ـ اللي يروحون يم أهلهم، اللي يرجعون من إجازة، تلقى الواحد منهم مثل الغريري بعد الضرب: مربرب، مدعبل، سمين ووجهه متفتح، إلا أنت، اشو صاير جلد وعظم، شنو قصتك؟ ليس صاير مثل الفتيل؟

وإذ حاول بدري الدفاع عن قيافته وصحته، فقد رد عليه ناطق بود وحزم معاً:

ـ إذا كان جماعة السوق ما يحسون أنهم سمنوا إلا بعد شهور، لأن واحدهم، بالليل والنهار، بالدشداشة والكلاش، فالعسكري يحس ويعرف من اليطق والجزمة، وآني هسّه ما أريد أدخل وياك بإيراد ومصرف، ولكن أريدك تقول لي: شلون حذاءك وشلون حزامك!

لا شعورياً، وقبل أن يكمل ناطق أفندي كلامه، حرّك بدري قدمه في جزمته، فوجد الجزمة فضفاضة، تلقّ، وكأنها لواحد آخر. ابتسم، وقال بنوع من التسليم:

ـ الحق اللي تقوله، ناطق أفندي . . .

وبعد قليل، وقد امتدت يده إلى الحزام تتحسسه، وجد مسافة بينه وبين البطن، قال باستغراب:

ـ ولا انتبهت، ناطق أفندي، ولا تفطنت!

ـ أكيد، لأن اللي يكون عند أهله، وبالدشداشة، وين يدري، شلون يتفطن!

ـ والرأي؟

ـ قوم، آغاتي، خلينا نشوف باللوازم، وين اكو قاط يوالم المرافق الأول للباشا!

خلف الذي كان ذاهباً لمكان ما في السراي، ربما لرؤية نادر أفندي! ما ان لمح بدري بصحبة ناطق أفندي حتى توقف فجأة، وقد تملكه الروع، وكأنه لم يتوقع رؤيته. أقبل عليهما، حيا بدري بمودة، لكن بدا مرتبكاً، أقرب إلى الحيرة. قال لبدري، وخرج صوته مضطرباً:

ـ أريد أشوفك فد دقيقة، بك، لان لي وياك كلام قبل ما تشوف الباشا!

ـ فد دقيقتين، خلف، وامرّ بك.

ـ ضروري. لا تنسى!

وإذا كان نادر أفندي وناطق أفندي قد لاحظا أن شكله تغير، كل لأسبابه ومن الزاوية التي تعنيه، فإن خلف لم يلتفت لهذا الأمر، أو ربما لم يلاحظه، وهذا ما جعل بدري يُسرّ ويتحسب بنفس المقدار، إذ قد يكون التغير، أو اختلاف الهيئة الذي أشار إليه الإثنان من قبل، فيه حد كبير من المبالغة، وقد تكون لدى خلف قضايا أو أسباب أكثر أهمية، بحيث لا يبدو المظهر مهماً إزاءها.

قال لنفسه، وهو يسير نحو قسم اللوازم «السرعة التي تجري بها الأمور في السراي تختلف عن الأماكن الأخرى، ومن الخطأ أن يغيب الإنسان، أو أن يطول غيابه» وقد تأكدت هذه القناعة أكثر وهو يرقب خلف: من ارتباكه أولاً، ثم وهو يوصيه أن يمر عليه قبل أن يرى الباشا!

حين تقابلا في غرفة خلف، والتي لم تكن تبعد كثيراً عن ديوان الباشا، كان الصمت كثيفاً، والخطوات حذرة، وكان بعض الخدم، الذين يقومون بأداء مهمات معينة في الديوان، يمرون كالأطياف: حركاتهم محسوبة، متحفظة، خائفة، ونظراتهم ترى ولا ترى في نفس الوقت، خاصة في الغرف والممرات التي تؤدي إلى ديوان الباشا.

بدري الذي يعرف هذا الجو، يعرف الناس الذين يعملون، ويعرف كيف تجري الأمور. بدا له وكأن أشياء جدّت أثناء غيابه، وأن الحركة تجري بتحفظ أكبر، خاصة بالنسبة له، أو هكذا أحس. أما خلف الذي اقترب منه كثيراً، حتى كاد يلاصقه تماماً على المقعد الذي جلسا عليه، وبعد أن سأله بسرعة عن أحواله، قال له، وكان يبدو خائفاً ومرتبكاً معاً:

- ترى الباشا ماخذ على خاطره..

وبعد قليل، وبلهجة حزينة:

- ويجوز بعده زعلان، فدير بالك، بدري بك!

- ليش يا معوّد؟ شنو اللي صار بغيبتي؟

رد خلف، ولم تخل لهجته من السخرية:

- أنت تسألني لو آني لازم اسألك؟

- خير؟ تكلم، قول!

- كل ما أعرفه، بدري بك، أنه سألني: تعرف وين صاحبك، بدري؟ ولما قلت له ما أعرف، قال: هذا اللي أمنّاه، اللي أعطيناه الثقة: مصبح ممسّي بين القحاب، فالله يستر!

- اي.. وبعد شنو؟

- تعرفه، الكلمة تطلع من حلقه بألف ويلاه...

بدري، وقد سرى إليه الخوف، إذ تصور داود باشا ولقاءه الأخير معه، كيف أبدى رغبته في أن يحسم أمر زواجه ويقرر، كي يشاركه بالفرح، أن يقدم له هدية، سأل بدري بخوف:

- شنو هالسوالف، خلف؟ منو اللي نقل، منو اللي قال؟

ـ علمي علمك، يا بك، وأنت تعرف شقد يطبّ بشر بالسراي، ومنين تجي الأخبار، توصل للباشا ملبلبة حارة، وما يندرى منين!

وبعد قليل، وبحذر شديد:

ـ يرحم والديك، بدري بك. . .

أخذ نفساً عميقاً، وقد جحظت عيناه، وهو يقول ذلك، وأضاف:

ـ وأنت تعرف: لولا معزتك، لولا الخبز والملح، فلا أتكلم ولا أقول، انت أخ، ومثل ما تحفظ الود تعرف شلون تحفظ السر. . .

تلفت إلى أكثر من جهة، وقال بهمس لا يكاد يسمع:

ـ وآني وأنت، غير المرحبا ماكو، ما سمعت مني أي شي أبد، ولا عرفت، فاستر علينا الله يستر عليك!

وبعد قليل، وبطريقة متآمرة:

ـ وإذا شَوْفته اليوم ما لازمة، مو ضرورية، خليها لثاني يوم، لثالث يوم، يمكن الله. . . يكون مرتاح، متونس، وجاييه عقل الرحمان، ونقول له: بدري جا ويريد يسلّم عليك، ونشوف شلون ترهم!

أما فيروز الذي يلازم باب ديوان الباشا كما يلازم الإنسان ظله، والذي يرقب كل شيء بعناية، لكن دون أن يتفوه بكلمة، فقد جاء مصادفة، أو ربما قادته حاسة الشم إلى غرفة خلف. ما كاد يرى بدري حتى قالت عيناه أشياء كثيرة ودفعة واحدة: اللهفة، والاستغراب، المفاجأة، الشعور بالإنكسار والخذلان، وربما غيرها أيضاً!

وإذا كان يعرف كيف يعبر عما يحسه، وعن شعوره تجاه الآخرين من خلال عينيه، فإن طريقته في المصافحة تعطي وضوحاً إضافياً عن هذه المشاعر.

ما كاد يصافح بدري حتى قالت اليد والعينان: الباشا غاضب، وأن أشياء كثيرة نقلت إليه، فاحذر وتوق!

ومثل عادته قفل فيروز بسرعة عائداً إلى باب الديوان، وكأنه يقول دون كلمات: «الزمن هو الذي يحل المشاكل، فانتظر!».

الصفعة الكبرى التي تلقاها بدري ذلك اليوم كانت من سيد عليوي. إذ ما كان يغادر غرفة خلف، عائداً إلى جناح المرافقين والحرس، حتى رأى موكب سيد عليوي: كان في المقدمة، وعلى مسافة خطوتين مرافقه وحرسه الخاص. وإذا كانت عادة عليوي أن ينظر إلى كل شيء بسرعة، وأن لا تستقر عيناه على شيء أو على أحد، نتيجة الثقة الزائدة، أو ربما الخوف فقد انصبّت نظراته هذه المرة على بدري، وكأن لا أحد غيره في الساحة ثم في البهو الذي يفضي إلى ديوان الباشا!

للحظة، وقد كانت تلك اللحظة طويلة مشحونة، لم يعرف بدري كيف يتصرف، هل يتقدم نحوه كي يحيّيه ويقوده إلى غرفة الباشا، كما هي العادة، أم عليه أن يكتفي بأداء التحية العسكرية من بعيد، باعتبار أن هناك من هو مكلف بالاستقبال والمرافقة، خاصة أنه لم يضع نفسه بعد تحت التصرف؟

قرر، بسرعة، الاكتفاء بتحيته من بعيد. لكن سيد عليوي أشار إليه برأسه، ليس رداً على التحية، وإنما يطلب منه أن يتقدم، أن يقترب.

لم يكن أمامه أي خيار، خاصة وأن سيد عليوي أبطأ في سيره، مما جعل المرافق والحرس يقتربون كثيراً، حتى كادوا يلامسونه. اقترب. قال سيد عليوي، وبدت لهجته ساخرة:

- شلونك؟ صار زمان ما شفناك؟

- زين سيدي، شكراً، كنت في إجازة.

- إنشاء الله تنوست بالإجازة؟

- الحمدلله، سيدي.

- إجازتك ما كانت طويلة، مو هالشكل؟

- شهر، سيدي.

- وقدر الباشا تغيب عنه كل هذي المدة؟

- ....

- وخلصت الإجازة لو بعد؟

ـ خلصت، سيدي!

ـ على الخير. . على الخير!

كل ما قاله سيد عليوي لم يعن له الكثير، قدر ما قالت نظراته، وأيضاً تلك الابتسامة المتشفية. ففي السابق لم يتعود أن يسأله، كما أن نظراته إليه كانت مختلفة. قد لا تخلو من ضيق، وبالتأكيد لا تحمل الود، لكنها لم تكن ساخرة، شامتة، كما هي اليوم.

ما كاد سيد عليوي يواصل سيره، حتى تأخر مرافقه، حامد، غمز بعينه وهو ينظر إلى بدري ويبتسم، وقال قبل أن يتجاوزه ليلحق بسيده:

ـ روجينا تسلّم وتسأل!

وبعد لحظة، التفت وأضاف:

ـ وغيرها!

«إذن يعرفون كل شيء» هكذا قال بدري لنفسه، وهو يرى موكب عليوي يتقدم نحو ديوان الباشا. شعر أنه مكشوف إلى درجة العري، وربما يتداول الآخرون قصته بكثير من السخرية والاستهزاء. امتلأ بالغيظ على نفسه وتجاه الآخرين. لماذا كان غراً، أقرب إلى البلاهة، حين ذهب إلى نبع الشر: إلى روجينا؟ ألم يجد طريقة أفضل للوصول إلى نجمة غير هذا الطريق؟ لو أنها ساعدته لشفع لها حتى لو نقلت الخبر، ولوجد عذراً أو سبباً لكي ينظر إليها بطريقة مختلفة، لكن!

إنه الآن يواجه خصوماً كثيرين ودفعة واحدة، وعليه أن يتحمل وأن يحسن التصرف، ليس ذلك فقط، لا أحد يقف إلى جانبه. لا أحد يفهمه أو يتعاطف معه. حتى سيفو، بدا له، في لحظات عديدة، خصماً أو أقرب إلى العدو. كيف تتحجر قلوب الناس، وتصبح غير قادرة على الفهم أو التعاطف؟ وماذا يريد منه الآخرون، ولماذا يتدخلون في أمور لا تعنيهم؟ وإذا حصل هذا الشيء أو لم يحصل، ماذا يستفيدون في الحالتين؟ ولماذا يشعرون بنوع من الغبطة، رغم البراعة في إخفائها، حين يسمعون قصص أو مآسي الآخرين ويعرفون معاناتهم وعذابهم؟

كان يريد أن يسترسل إلى ما لا نهاية، وقد امتلأ بالغيظ والحقد والغضب، ولكن ما فائدة ذلك الآن، بعد أن انكشف وفقد جزءاً كبيراً، إذا لم يكن كل أسلحته؟

لما استسلم لجبروت سيفو، حين أشعره أنه قوي ويمكن أن يفرض ما يريد، ثم تلك الوشوشات، وكانت أقرب إلى تمثيل الأطفال، وقد بدا سيفو خلالها، ولو فترة قصيرة، أنه قادر على توجيه الأوامر؟ حين فعل ذلك وهم يستقلون المركب، فقد بيّت أمراً آخر: سوف يستدعي إلى السراي ثامر المجول، وبعد بضع كلمات، يبلغه بطريقة حازمة أن يُطلق سراح الرهينة، نجمة. قد يحتج، وربما يعاند أو يرفض، لكن سيعرف كيف يتعامل معه، وكيف يجبره على أن يمتثل، بالقوة، بالإغراء، بالتهديد، لا يهمّ، وعند ذاك، وبعد أن يلتقي بنجمة، سوف يحدد نوع العلاقة التي يريد، وسيحيط كل شيء بسرية تامة، ولا بد أن يصل إلى غايته!

أما الآن، وبعد أن انكشف كل شي، فلا يعرف كيف يتصرف، ولا يستطيع أن يقدر قوته، وماذا سيكون رد فعل الآخرين.

حتى خلف بدا خائفاً، بل ويمكن أن يتخلى عنه بإشارة صغيرة من الباشا. وفيروز الذي تلوب عيناه في الوجوه والأماكن، نسي الكلام لفرط الصمت الذي يغرق نفسه فيه، وسوف لن تسعفه الكلمات، حتى لو أراد، أن يلتمس له العفو عند الباشا. لذلك يشعر الآن أنه وحيد إلى درجة لا يعرف كيف يتحمل، أو هل يستطيع هذا المقدار من الوحدة؟

صحيح أن الباشا اختاره من بين العشرات من زملائه، لكن هل معنى هذا الاختيار أن يستولي على عقله وقلبه؟ أن يجعله بلا عواطف، بحيث يحدد له كل شيء في هذه الحياة؟

ومرت في ذاكرته صورة أبيه، هذا الذي منحه الحياة والهيئة والاسم، وقدم له الكثير عبر كل هذي السنين، لم يستطع أن يقف في وجه رغبته حين اختار الجندية. يتذكر أنه قال له، حين وجده مصراً هكذا: «ترى هذه

مو شغلتنا، وإذا الواحد خلص من خطرها ما يخلص من شلعان القلب، وبعدين أولها وتاليها: باب فقر لولد الولد، فالله يهديك اتركها، وتعال وياي على العلوة، وبعد سنة، سنتين، فُكّ علوة إلك وحدك» لم يسمع ما قاله أبوه، واتخذ قراره. ومع ذلك، حين يعود إلى البيت، يحس، بل ويرى بعينيه ويسمع بأذنيه، أن أباه منذ لحظة وصوله يصبح إنساناً آخر مجرد أن يراه: أكثر فرحاً، أكثر شباباً، ولا يتردد في أن يدندن بأجزاء من بعض الأغاني تعبيراً عن النشوة التي تملؤه!

أكثر من ذلك: لو أنه فاتح أباه بشؤون قلبه، وقال له كيف أن هذه الفتاة سبته، شغلت باله في الليل والنهار، ويريدها، فربما أبدى الأب رفضه، وقد يقول كلمات كبيرة لإقناعه بنسيانها، لمنعه من الزواج بها، لكن حين يرى تصميمه سوف ينسحب، ويترك لأمه أن تعالج الأمر. فإذا واصل جنونه، لا بد أن يصلوا إلى حل، قد لا يكون موافقة صريحة، أو إعلاناً مباشراً، ولكن سيكون أقرب إلى التواطؤ: «خذها وابعد عن المحلة، ومع الأيام سوف ينسى الناس، وعندها يمكن أن تعود».

إنه متأكد من ذلك، فالأمهات والآباء لا يتقنون أكثر من العفو ومسامحة أولادهم عن كل الحماقات التي قد يرتكبونها، ويجبرون أنفسهم على نسيانها، بحيث لا تبقى منها إلا الذكريات الجميلة، وذلك المرح الذي يتفجر فجأة حاملاً معه الملامح والشظايا، وحتى رائحة وأطياف الأيام الهنية التي مضت.

أما الرؤساء، أما الذين يحكمون، فإنهم لا يكتفون من مرؤوسيهم بالولاء والطاعة والتضحية فقط، بل ويريدون الاستيلاء على الأجساد والقلوب، وحتى الأرواح، ويجب أن يكون ذلك مستمراً ودائماً. أما الحماقات، أما شؤون القلب، وتلك الزوابع التي قد تهب فجأة، وتغير مسارات الدم، فإنهم لا يعترفون بها، لا يقرونها، بل أكثر من ذلك يعاقبون عليها دون ندم.

وتذكر بدري وجوهاً كثيرة، في بغداد وفي الجبل، ومدى العلاقات

التي تكونت، والأخطار التي واجهته، وعندما هبت رياح من هنا، ورياح من هناك، ووقع الخلاف، سقطت العواطف دفعة واحدة، ونسي الكثيرون الأيام الماضية كلها، وأصبحوا، دون تردد، دون قدرة على المراجعة، أعداء.

الآن لا يعرف كيف سينظر إليه الباشا، كيف سيعامله، قال لنفسه، وهو يهز رأسه غيظاً وحسرة: «بالتأكيد سوف ينسى كل شيء سابق، وسوف يقف، وتطول وقفته، عند اليوم الحالي، عند الأخبار التي وصلته، ولا بد أن تمتزج السخرية بالتقريع، وقد تلحقهما العقوبة أيضاً». وتذكر حجر الصوان، وكيف رفعه الباشا، فأخذ الحجر يلتمع في شمس الشتاء الكابية. كان فرحاً وهو يعرضه، وهو يديره من جهة إلى أخرى. قال لنفسه: «والباشا، كإنسان، ألا يحب؟ ألا يسامح، ثم ألا يحمل في صدره من العواطف والرغبات تجاه زوجاته، تجاه الحريم، وتجاه الأولاد الكثير؟ ألا يتذكر شيئاً من هذا حين يتعامل مع الآخرين؟».

ذهب إلى الجناح. دخل غرفته، وأبقى الباب موارباً، إشعاراً أنه عاد من الإجازة، وأنه في غرفته ومستعد لاستقبال الزملاء والمساعدين، كان يريد أن يرى أكبر مساحة من البهو. كل ذلك لكي يرقب في عيون الذين سيأتون، في عيون الذين سيعبرون، مدى ما يعرفون، وهل وصلتهم الأخبار أو مجرد إشارات، ولا بد أن ينظروا في أعماق عينيه، علّهم يستكملون القصص التي يروق لهم سماعها، ثم ليقوموا بعد ذلك بنشرها!

في اليوم الثالث، وكانت تلك الأيام طويلة مريرة، جاءه خلف كي يبلغه أن الباشا يريده!

خلال المسافة، بين جناح المرافقين والحرس وبين الديوان، والتي لا تزيد على سبعين متراً، كانت أطول رحلة يقوم بها بدري أثناء إقامته في السراي!

إذ رغم المعرفة الأكيدة بكافة التفاصيل، بما في ذلك ديوان الباشا، وطريقته في النظر والكلام والتصرف، فإن الخجل والخوف والتهيب،

ومشاعر أخرى كثيرة، كلها ازدحمت وتكاثفت خلال هذه المسافة، وكأنه يقطعها لأول مرة، وكأنه لم ير الباشا من قبل. ومما زاد في احتقان المشاعر وتوتر الأعصاب، صمت خلف، إذ لو كانت لديه بارقة أمل، احتمال أو توقع رضا الباشا، لتصرف بشكل آخر. لكن الصمت، في أحيان كثيرة، يتحول إلى ضجيج، وهذا الضجيج يزداد ويعنف ما إن تقترب لحظة المواجهة.

سمع الباشا الباب يُفتح. سمع خلف وهو يقول: بدري، سيدي.

ظل الباشا ينظر إلى الحديقة عبر النافذة المفتوحة. لم يلتفت. لم يتكلم. وبدري الذي بقي واقفاً بصمت، لا يعرف كيف يتصرف. مرت دقيقة، بدت دهراً، بدت ثقيلة وقاسية.

قال الباشا، وجاء صوته بعيداً، كأنه يخرج من بئر:

ـ سوف أعطيك فرصة أخرى.

قالها وصمت. وبدري الذي سمع، كان يريد عينين لينظر إليهما، كي يدافع عن نفسه، ليبرر مواقفه وتصرفاته، لكن داود باشا الذي ظل ينظر إلى الحديقة، تابع بعد هذا الصمت:

ـ يمكن أن يغفر الإنسان للشباب نزواتهم، وهذا ما سوف أفعله!

والتفت إليه في تلك اللحظة. شعر بدري أنه يقابل هذا الوجه لأول مرة، كأنه لم يره من قبل. كان قاسياً وشاحباً معاً. أما العينان فكانتا جامدتين لا تقولان شيئاً. تابع الباشا، وكان صوته هذه المرة شبيهاً بصوته القديم:

ـ لن أترك لعليوي ورجاله أن يسخروا مني ومن رجالي، ولن أسمح أن تكون أخبار السراي في دور البغاء، وليس فقط في المقاهي والأسواق...

وتغيرت لهجته تماماً، وهو يضيف:

ـ ولأني أثق بك، وأريدك أن ترتقي في السلك، ولأني اعتبرك عيني وأذني، فسوف أبعث بك إلى كركوك...

وتغيرت اللهجة مرة أخرى:

ـ وأنت تعرف كركوك، وتعرف مشاكلها وناسها، وهذا ما جعلني اختارك لهذا المكان، ليس كعقوبة، وإنما كتجربة جديدة. .

وأضاف وقد تقدم نحوه:

ـ أريد أن أختبر كفاءتك وسلوكك مرة أخرى، وسوف تعود إلينا في وقت غير بعيد.

وابتسم الباشا، أو حاول الابتسام، وكانت كلماته الأخيرة:

ـ هيىء نفسك للسفر خلال يومين أو ثلاثة، وأتوقع أن أسمع أخبارك المرضية، وعزمي أفندي حضّر كل شيء، ويمكن أن تقابله وتتفق معه على التفاصيل!

52

«القائد إذا انتصر يصبح خطراً» هكذا قال داود لنفسه، وهو يراقب بعناية تصرفات سيد عليوي، خلال الفترة التي أعقبت معركة الفرات الأعلى، فإذا كانت النياشين التي عُلقت على الصدور تكفي لإرضاء المنتصرين أثناء المعركة، ثم بعد انتهائها بفترة قصيرة، وقد يتظاهر المنتصرون خلال ذلك بالتواضع، رافضين، أو عازفين، عن المشاركة باقتسام الغنائم، فإن ابتعاد، ثم زوال رائحة البارود، يجعل الكثيرين يتنسمون روائح أخرى ويفكرون بشكل مختلف، إذ لا بد أن يكونوا موجودين وشركاء في السلطة والمال، بعد أن تحملوا الكثير، كما يقولون لأنفسهم ثم للآخرين، في زمن الحرب!

نادر أفندي الذي غضب مرات لا عد لها أثناء معركة الفرات الأعلى، وحاول أن يقنع نفسه بالرضا حين استلم الغنائم، ما لبث أن شعر من جديد بالخدعة، لأن عليوي الذي أصدر أوامره الصارمة بضرورة تسليم كل الغنائم إلى الخزينة، وهدد بإنزال عقوبات قاسية بمن يخالف ذلك، كان يريد أن يقول للباشا، ولكل من أخذ عليه مبالغاته في طلب المال أثناء المعركة، إنّ الحرب بمقدار ما يُنفق عليها، فإنها في النتيجة رابحة، وهذا ما جعله يردد في مجالسه الخاصة، وبعض الأحيان دون سبب واضح: «عوافي لمن يدفع تسعة حتى يأكل العشرة».

حاول نادر أفندي أن يقتنع، رغم أن له طريقة مختلفة في الحساب. فالربح أو الخسارة، بالنسبة له، لا يقاس أي منهما بما أنفق أو ما ردّته

الغنائم، وإنما بما يترتب بعد ذلك. ويتملكه الخوف حين يتذكر الإكراميات التي قدمت ليس أثناء الحرب وإنما بعدها. إذ أنّ ما دفعه داود من العطايا والإكراميات بعد الحرب يفوق كثيراً ما أنفق خلال الحصار، ثم أثناء المناوشات التي دارت حول القلعة.

كان داود، لكي ينتزع الخوف من العقول والقلوب، لا يتردد في الإنفاق، إذ كان يعتبر أن المال يلين قلوب الكثيرين، ومعنى أن يعطي أنه قوي وأنه راضٍ، لأن المال ليس فقط داوء للخائفين، بل إنه أكثر جدوى وتأثيراً بالنسبةِ للمنتظرين والمترددين، ولأولئك الذين لا يعرفون حقيقة مشاعرهم بعد!

الآن، بعد الصخب الذي ترافق مع وصول الغنائم، جاءت مشكلة الرواتب والعطايا لشيوخ العشائر الذين وصلوا بأعداد متزايدة إلى بغداد. كان هؤلاء الشيوخ، بملابسهم الجديدة، وطريقة تصرفهم، يشبهون الأطفال أيام العيد: كثيري الصخب، سريعي الحركة والانتقال من مكان إلى آخر، مع مطالب لا تنتهي لأنفسهم ولرجالهم.

والعاملون في السراي، الذي أولوا الشيوخ اهتماماً وعناية في البداية، ما لبثوا أن تراخوا أو تخلوا عنهم، إما بالتجاهل أو بالابتعاد، نتيجة زيادة المطالب، والفوضى التي أحدثوها في كافة أنحاء السراي. إضافة إلى الإلحاح واللجاجة في طلب مقابلة الباشا وكبار الموظفين من أجل زيادة المخصصات واستبدال البيوت والخيول. وحين لا تستجاب مطالبهم، أو لا يجدون آذاناً صاغية، يلجؤون إلى التهديد أو البحث عمن يلبي هذه المطالب، وهكذا لم يتأخروا في الوصول إلى سيد عليوي!

نادر أفندي الذي وقف بصلابة لا تقهر في وجه المطالب غير المشروعة، كما يُسمي كل ما يتجاوز الراتب، أحس، ثم تيقن، ان ما لا يستطيع الشيوخ انتزاعه منه مباشرة يحصلون عليه عن طريق سيد عليوي. خمّن ذلك في البداية، ثم قاله الشيوخ صراحة، وكانوا يسخرون من بخله وعناده. وقد تأكد لما أخذت تتزايد مطالب سيد عليوي لتخصيص مبالغ

إضافية «لمساعدة مساكين الحرب» كما أطلق على المبالغ الجديدة المطلوبة!

قال نادر لخلف، وهو يلح عليه لتحديد موعد عاجل مع الباشا:

ـ ترى الدنيا هوايه مليوصة يا خلف!

ولما وجد الاهتمام في وجهه، تابع وبحدة:

ـ الماي خاشة من جوّانا ونحن ما ندري، فإذا ما فتّحنا عينا زين راح الأول والتالي!

ـ شلون يا معوّد؟

ـ الآغا ما عنده شغل إلا يصيح وير

وبعد قليل وبحزن:

ـ هذول الشيوخ الهتلية، لما شافوا العين هنا حمرا، وقلنا لهم: ها هي مخصصاتكم، وماكو غيرها، ولازم الواحد يمد رجليه على قد غطاه، راحوا يم الآغا، والآغا مو خسران شي من جيبه: خذوا، حلّت البركة وتستاهلون. وكل يوم والثاني: خرجية جديدة، وفوقها إكرامية: هذا حصان، وذاك فرس، واللي ما يريد حصان أو فرس خذ هذه صرة ذهب، وما ينعرف بعد شنو اللي يصير باچر واللي عقبه.

ـ والباشا يدري؟

ـ على مود هالشي أريد أشوفه. أريد أبرّد فوادي وأقول له شنو اللي صاير بالدنيا!

حين التقى نادر بالباشا، حاول بصعوبة أن يمنع نفسه من البكاء. كان صوته يرتجف ووجهه ممتقعاً، ولا يقوى على إخفاء انفعالاته، ولقد بلغت حداً، في إحدى اللحظات، جعلت الباشا يقول:

ـ على كيفك نادر أفندي. يواش يواش، المال يتعوض، الرجال هم اللي ما يتعوضون...

وبعد قليل:

ـ لو اكو ناس مثلك، بحرصك، كان هسه الدنيا بألف خير، لكن منين

نجيب الرجال؟ نخلقهم؟

وساد صمت، بدا ثقيلاً. كان الباشا يريد أن يتكلم ويفيض، لكن لا يعرف ما إذا كان الوقت مناسباً، ونادر أفندي هو الشخص الذي يمكن أن يفضي إليه أم لا. قال الباشا، كأنه يكلم نفسه:

- ترى البدو دائماً هَمّ: إذا كانوا معك وإذا كانوا عليك!

- وإذا ما منها چاره، ولازم ياخذون، فخلهم ياخذون من إيدك يا باشا مو من إيد غيرك.

- وأنت توافق تنطيهم؟

- أنتْ خليهم عليّ ولا تدير بال، آني أعرف شلون أتعامل معهم!

- هذا اللي خلاهم يدوّرون غيرنا، يا نادر أفندي، هذا اللي خلاهم يروحون يمّ الآغا وغير الآغا!

- سيدي، هذول ما يشبّع عينهم إلا التراب، وما يعرفون غير قولة هات، فإذا ردنا نوافق على كل ما يطلبون راح نصبّح على الحصير!

- لا تخاف يا نادر أفندي، المال يتعوض، مثل ما هو الصوف مخلوف، ومهما ضاقت الدنيا تنفرج!

لم يكن الباشا بحاجة لأن يسمع من نادر، فقد كان يصله من غيره الكثير، حتى أن ما تجمع لديه من المعلومات والوقائع جعله يتحسب، لكن لا يريد أن يتعجل، كما لا يريد لأحد أن يقدر ما سوف يفعله. وحين أمر أن تُلبى طلبات سيد عليوي، كان يعرف أن جزءاً من هذه الأموال يُعطى لشيوخ البدو، ويعطى جزء آخر إلى كبار الضباط، ومع ذلك كان مقتنعاً وراضياً، فقد كان يخشى أن تمتد يد هؤلاء إلى الباليوز، أو تمتد إلى ما وراء الحدود، وعند ذاك يصعب استعادتهم أو الوثوق بهم. أما كلام نادر، وتلك «الثورات» العمياء التي يحدثها في السراي، فكان الباشا يريدها ولا يريدها في نفس الوقت، مما جعله يتسامح بعض الأحيان، ويقسو بعض الأحيان، ويكلف غيره في أحيان كثيرة كي يتعامل معه.

عزرا الذي ظل طوال الفترة الماضية صمام أمان، ويعرف كيف يروض

نادر أفندي، أصبح في الفترة الأخيرة إنساناً لا يطاق: عصبياً، هائجاً أقرب إلى الثورة، فقد أخذت تصله بين فترة وأخرى معلومات أن ساسون شوهد في السوق، أو مرّ على أحد التجار. كما وصلته أخبار أن سلطانة غنت في حفل زواج كان فيه ساسون، لكنه لم يبق طويلاً، إذ غادر دون أن يحس به أحد.

وإذا كانت رغبة الانتقام ومحاولة تصفية الحساب مع ساسون قد شغلته خلال الفترة الأولى، وجهد من أجل الوصول إليه، فإن غياب ساسون الكامل، وعدم تسرب أو وصول إلى أية معلومات عنه، جعله يتناساه أو يبعد صورته عن ذهنه، خاصة وأن عزرا استطاع ترتيب الكثير من الأمور وفق صيغة مرضية حققت له فوائد كبيرة.

الآن فاضت الهواجس والمخاوف من جديد. وإذا كان الباشا قد عرف ببعض محاولات وأساليب عزرا لمتابعة ساسون والقبض عليه، ولم يكن لديه مانع في ذلك، أو كما قال لعزرا ذات مساء، خلال الفترة الأولى، وقد جرى الحديث عن بعض المستندات الضائعة، وقيل إن ساسون، احتفظ بها أو أتلفها، قال له الباشا: «ساسون ينراد له جرة إذن حتى يتأدب ويصير عبرة لغيره، وبعدما يقضي كم شهر جوا، ويذوق مرها مثل ما ذاق حلاوتها، نتواجه... والله كريم». اعتبر عزرا هذا الكلام تخويلاً له كي يفعل ما يشاء.

لكن منذ ذلك الوقت فاض النهر مرتين، وتغيرت أمور كثيرة، حتى كاد ينسى الكثيرون من رجالات سعيد، بمن فيهم ساسون، أو لم يعد الناس يتذكرونهم إلا كما يتذكرون أحداثاً قديمة.

غضب عزرا أفندي أشد الغضب لما رأى السخرية في وجوه الكثيرين. بعث بطلب مراد زكو، صاحب دعوة العرس. أكد له مراد، مع أيمان غليظة، أنه لم يدع ساسون، وقد فوجىء بحضوره، كما فوجىء أغلب المدعوين. أما سلطانة، حين تم استدعاؤها، فقد كان عزرا أفندي معها قاسياً أقرب إلى الغلظة، لأنها لم تبلغه عن حضوره الحفلة التي غنت فيها،

لكنها ردت بحزن:

ـ يجوز تدري.. ويجوز ما تدري، يا أفندينا. مهدي انطاك عمره، مات، وبعده نحن تقرمنا، وآني ما لي درب عليك، فشلون تريدني أوصل وأقول؟

ـ مهدي مات؟

ـ صار له شهور وأيام!

ـ الله يرحمه كان خوش ولد!

وكي يبني جسراً، عله يستطيع أن يصل من جديد إلى ساسون، لجأ إلى مجاملتها. سأل:

ـ لكنه مو كبير بالسن، وكان قوي، فشلون مات؟ مرض؟ توجع؟

ـ أبد يا أفندينا....

أخذت نفساً عميقاً، وبدا صوتها أكثر حزناً وهي تضيف:

ـ تكربس حصانه ووقع، يا أفندينا، وبعد يومين مات الحصان، وهو ما تحمّل الدنيا، بعد موت الحصان ثاني يوم مات!

ـ هالشكل؟ بليا مرض، بليا ما يتوجع؟

ـ أبد، يا أفندينا. ما قال آخ. كان حيله قوي وما اشتكى من فد شي...

وبعد قليل، في محاولة للتدليل على معاناتها، وعدم قدرتها على مواصلة المهمة التي يريدها، قالت بألم:

ـ القهر، يا أفندينا، يدمر أكثر من المرض، والواحد إذا فواده انمرد شيبقى منه؟ الموت أحسن له من قهر الدنيا ورزالاتها!

ترك لفترة الصمت أن تمتد كي تمتص الحزن. قال وهو يحاول أن يضفي على صوته نوعاً من الكرم:

ـ لو تسألين أهله، خاف يكونون محتاجين...

وبعد قليل، كأنه يخاطب نفسه:

ـ وآني راح أشوف مختار الشواكة، ونشوف شنو اللي الله يقدّرنا عليه!

لم يكن يريد تقديم المساعدة عن طريق سلطانة وحدها، إذ ربما اعتُبرت أنها مقدمة منها، فالمهم بالنسبة لعزرا ليس أن يعرف الأهل فقط، فالأكثر أهمية أن يعرف الجوار، وأهل المحلة، لذلك لا بد أن يتم ذلك عن طريق المختار. لما سألها من جديد عن أسرة مهدي، ردت بنزق:

ـ كانوا عايشين من الحصان، والحصان مات، وثاني يوم أبو الحصان مات، وهسه ما ينراد سؤال: الولد ينتظرون، وأهل المروة ما يقصرون!

وقدم إليها عزرا أفندي مبلغاً، وقال بسخرية ممزوجة بالأسف:

ـ لو، الله يرحم، جاني ساعة تكربس بيها الحصان، وقال إن الحصان ماكو منه چاره، خلص، چان أنطيناه حصان مكانه وچان ما مات!

ـ شيفيد، أفندينا، منو يقدر يرد القدر؟ منو اللي يقدر يخلي شمعته مشتعلة طول الليل؟

وانحدرت دمعة على خدها. لم تمنعها ولم تمسحها. قال عزرا لينهي هذا اللقاء، وإلى أن يجد وقتاً أكثر ملاءمة، وصيغة عملية كي تبلّغه ما إذا رأت أهل مهدي:

ـ نحن راح نتلاقى نوبة ثانية، ونشوف شنقدر نسوي!

وإذا اعتبر أن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت مع سلطانة، فقد كلف رجاله أن يزيدوا الرقابة في أحياء اليهود، وأن يحضروا جميع الحفلات والمناسبات التي تقام. وكي يحرض نفسه أخذ يستعيد، من جديد، الوقائع والأسباب التي تدين ساسون، وكيف ساء إليه واضطره إلى الهرب. كما زاد من زياراته لوجهاء الطائفة. زار من جديد موشي طقو في كنيسه، وحضر أيضاً الصلوات، وقد تعمد أن لا يقتصر في صلوات يوم السبت على كنيس بالذات، إذ زار أغلبها، إن لم يكن كلها.

حتى رجال السوق التجاري، خاصة باعة الجملة والصرافين، لفتت أنظارهم الزيارات المتكررة والمتقاربة التي قام بها عزرا. قدر الكثيرون أن وراءها أشغالاً وصفقات هامة، لذلك تبادلوا فيما بينهم الأحاديث والأخبار، قارنوا ودققوا، لكن لم يستطيعوا الوصول إلى نتائج محددة أو

قاطعة.

قال الحاج شبلي في جمع من التجار أصحاب الصنف:

- يا جماعة الخير، عزرا أفندي صار له مدة، كل يوم والثاني مهفي على السوق، فشنو جاي يخمّ؟ ما تقولوا لي؟

- لا تروح زايد حجي، فعزرا إذا ما جا بنفسه اكو له معاميل هوايه بالسوق، وهذول يوصّلون له كل شيء صار.

- زين... على ويش زادت جياته هذي الأيام إذا كان كل شي يوصل له ويعرف كل شي؟

قال نعمان المطيري:

- مولانا، قعدات، السراي تضوّج، وين اكو مثل قعدات السوق؟ الواحد يشوف رزقه بعينه، ويشوف البيع والشرا؛ وأنت، حجي، تعرف مثلي وأحسن مني، يمكن بساعة، بضربة حظ، إن الواحد يكسب ببيعة أو شروة أكثر مما يربح بشهر إذا كان حاضر وقال: بعت أو اشتريت!

رد حسين الملا علي:

- بابا، إحنا فليساتنا على قد حالنا، نبيع ونشتري حتى ندبر خبزتنا، عزرا وأمثاله يبيعون بالبحر، قبل ما توصل البضاعة بشهور، وهناك الربح، هناك تصير الفلوس!

قال الحاج شبلي وقد تخدش صوته:

- زين... زين ما اختلفنا منو يربح أكثر من اللاخ؛ وشلون تصير الأرباح. خلوا هذي على صفحة، السؤال: هذا، عزرا، ما چان ينشاف بالشهر بالشهرين، بهالأيام كل يوم والثاني متخّم، ما تفهموني ليش؟ شنو القصة؟

وجاراه نعمان المطيري في السؤال:

- سؤالك، حجي، على راسي، صدق، هذا ليش كل يوم والثاني خري مري؟

وبعد قليل وبحيرة:

ـ لا بد يكون ورا جياته سالفة!

ـ هذا سؤالنا، مولانا!

هكذا رد الحاج شبلي بانفعال. . . .

وبعد قليل، كأنه يخاطب نفسه:

ـ بالسوق ماكو إلا: بيش؛ شقد؛ مخلص أم بيها إنّ. . .

توقف لحظة، ثم أضاف وقد تغير صوته:

ـ خلنا نروح على قهوة الشط، ونشوف الناس هناك شيقولون!

قال نعمان المطيري، والذي يأخذ على الحاج شبلي الوقت الطويل الذي يقضيه في قهوة الشط:

ـ شكو ورا هذول الحفّاي، حجي؟

ولم يتركه ليجيب، تابع وكان صوته أقرب إلى السخرية:

ـ وبقهوة الشط ناس يتصيدون ذبان، وأفندية يهرجون، وماكو أحد حاسّ بيهم، مثل ضرطة عنز بالجبل، وحدهم يخمسون ويسدسون فخليك ويانا أحسن، حجي، هنا نسولف ونقسّم، ويجوز يطلع ويانا أزيد مما يطلع مع ذوليك الأفندية المضيعين كعابهم، وما عندهم إلا أشعار وأمثال، وقال فلان وفلان من قديم الزمان. . . هذا بالنهار، أما الليل كله فعند ميخا، وماكو إلا: أحسنت؛ أعد؛ يسلم حلق الذهب. وبعدها يفشرون ويبكون إلى أن يجروهم آخر الليل لبيوتهم. . .

وضحك بصخب بعد أن رسم هذه اللوحة، وربما تذكر شيئاً إضافياً، فقال:

ـ وبعدين القعدة وياهم، حجي، مو بس خسارة، بيها دوخة راس وشلعان قلب، إذا مو أكثر.

ـ مولانا. . . هذول الحفاي، اللي ما عاجبينك، الواحد منهم مثل ماء السماء، ولولاهم الدنيا ما تسوي شي!

هكذا رد الحاج شبلي، وهو يستعد للنهوض. قال حسين ملا علي، الذي يوافق على كلام الحاج شبلي، ويريد أن يلفت النظر لشيء آخر:

ـ حتى الباشا. . . بين يوم والثاني داز عليهم: ها. . . شنو رأيكم؟ موافقين لو عندكم رأي ثاني؟

وأضاف، وقد وجد الآخرين يصغون إليه:

ـ ما دام الباشا حاسب لهم حساب، فالحجي مو غلطان إذا قال لازم نسمع شيقولون.

رد نعمان بحسرة:

ـ كل واحد يسمع اللي يريده، اللي يعجبه، لكن، لمعلوماتكم، الدنيا ماشية على غير رأي جماعة قهوة الشط، والباشا يقشمرهم بكلمة، أو عن طريق جماعته، واللي ما يجي بعصا موسى يجي بعصا فرعون!

قال الحاج غفوري الذي ظل طوال الوقت يسمع دون أن يقول كلمة:

ـ صار لكم ساعة تسألون: عزرا رايح جاي على السوق، وما عرفتم الجواب، ولما عجزتم تريدون تكسرون الحِب براس أفندية قهوة الشط، فخلوا هالفقرا وحدهم، خلوهم يحلمون ويقسّمون، وخلوهم يقولون الشي اللي ما نقدر نقوله، لأن الشاعر، يا جماعة الخير، يقول مثل الولد الزّغير، اللي بقلبه، إذا بكى يبكي روحه وروح أمواتنا كلنا، فليش زعلانين؟

ـ ما كوا أحد زعلان، حجي، بس تاهت علينا، وما يندرى شنو صاير بالدنيا!

هكذا علق نعمان، وأضاف حين وجد الذين حوله يصغون ويتابعون:

ـ أهل قهوة الشط شورهم من راسهم، وإحنا شورنا من راس غيرنا، ولذلك راح تنلاص علينا أكثر وأكثر!

قال الحاج غفوري، وكان يمسد لحيته ويتكلم بهدوء:

ـ خلونا من الاكو والماكو يا جماعة الخير. . .

توقف قليلاً:

ـ بغداد ما ينحزر عليها. بغداد ولايات. بغداد قاط فوق قاط، سرداب جو سرداب، وسرها بعيد، سرها غميق. وحتى البني آدم بين يوم والثاني

يتغير. واللي ما يقوله التجار بالسوق يقوله غيرهم بذاك الصوب، فخلنا نسمع، خلنا نفتّح عيوننا زين..

وبعد قليل وبصوت يمازجه الذكرى:

ـ وأهل بغداد من يوم ما خلق الله الدنيا الواحد منهم قبل ما يروح لأهله، لازم يفتر على ربعه، لازم يمر على القهوة، والقهوة مو بس السلام عليكم وشلونكم. القهوة أخبار وأسرار، وغزل بالليل ينفّل بالنهار، وبعد ما يسمع: في أمان الله يا جماعة. فشنو راح يصير بالدنيا إذا الحجي شبلي مر على القهوة، وسمع الأخبار وجانا باچر وقال: ترى صاير كذا وكيت...

والتفت إلى الحاج شبلي، قال له وهو يضحك:

ـ القهوة، حجي، درمان الصدر، هناك السوالف، وأكل اللحم الحي، وهناك تشوف الدنيا مقلوبة، غير شكل، بس ينراد لها طولة بال حتى الواحد يفرز الصدق من الچذب!

رد الحاج شبلي وهو ينهض:

ـ بغداد بليا قهوة، بليا ما يقشب الواحد على الثاني، ما تسوى!

قال الحاج غفوري، وهو يرقب الحاج شبلي حين عبر الطاق:

ـ بغداد قهاوي وسوالف، واللي ما يصير بالنهار يصير بالليل، وابد ما ينحزر عليها، وما ينحزر شنو اللي راح يصير بيها!

53

ومثل كل ليلة: حسون أحد نجوم قهوة الشط. يدخل مخطوفاً: عينان مليئتان بالدهشة، وهو يتلفت، بسرعة، في كل الاتجاهات، كأنه يبحث عن شخص أو عن شيء ضائع؛ شفتاه تتحركان بكلمات سريعة، لكنها غامضة متداخلة، حتى إذا تعالت الأصوات، ومن اتجاهات متعددة، تناديه وتطلب إليه أن يقدم شهادته عن ذاك اليوم، يهز يديه الاثنتين بطريقة عصبية دلالة أنه لا يريد، أو لا يقوى على أن ينقل للناس ما شهده، ما رآه بعينه، في السوق، قرب السراي، في الأماكن التي وصلها ذلك اليوم.

وروّاد قهوة الشط الذين تعودوا منه ذلك، وكي يحملوه على الحديث، لا بد أن يلجؤوا إلى تهدئته، إلى استئناسه، بأن يطلبوا له استكان شاي، وأن يلتفتوا عنه ويتركوه لبعض الوقت، أن يتركوه قليلاً، دون سؤال. فإذا هدأ، إذا استقرت عيناه وشفتاه، وقبل أن يُسأل يضحك بصخب، كأنه تذكر شيئاً طريفاً لا يقوى على كتمانه، ولا بد من إشراك الآخرين. الذين يعرفونه أكثر من غيرهم يلتفتون ولا يلتفتون، يتظاهرون بالإنشغال عنه، وعند ذاك ينفجر:

- . . . الدنيا مقلوبة بذاك الصوب. . .

يسمعون، لكن دون تعليق. يتابع:

- وإذا الباشا اشترى مني لولده فريرات، اصير عزرا هذا الصوب!

ويأتي أكثر من صوت:

- أنت عزرا الصوبين!

ـ وين اكو بالدنيا كلها فريرات مثل فريرات حسون؟
ـ مثلها ماكو لا بالشام ولا باسطنبول!
ويصرخ حسون لوضع حد لهذا الهذر:
ـ ولازم تعرفون، يا أهل هذا الصوب، جا للوالي ابن جديد!
ويدب الهرج من جديد:
ـ ولد لو بنيّة، حسون؟
ـ أشقر لو أسمر، حسون؟
ـ أمه نعرفها، لكن منو هو أبوه؟

ويضجّ الجمع بضحك صاخب. ينظر الأسطة عواد بغضب، وإن لم يسمع ما يدور، لكن يقدر أن الجماعة تجاوزت الحد المعقول، الحد المسموح به. وحسون الذي لا يقيم وزناً لمواقف وعواطف الكثيرين، يتحسب كثيراً إذا غضب الأسطة عواد، لذلك يحاول أن يضع حداً للضحك الصاخب. يصمت قليلاً، يلتفت بحذر إلى كل الاتجاهات، ثم يتابع، لكن بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ مثل المشي بالجنازة: قولوا اللي تريدوه، لكن بسكوت، بليا ما أحد يحس، وإلا اسكت!
ـ دير بالك يا معوّد!
ـ صار لنا ساعات نقول هسه يجي حسون، فعليك الله لا تضم شي!
ـ الأسطة يزعل ويرضى بالعجل، لا تخاف!
ويرد حسون، وقد شعر بالإهانة:
ـ منو اللي يقول حسون يخاف؟
ويضيف، وهو يمد رجليه، وقد تملكه الغيظ:
ـ بالليل، بآخر الليل، أتمشى يم الشيخ معروف، وإذا ما عديت القبور، أصيح أوف يا ليل، فشنو عبالكم حسون؟
وتنهال عليه الأوصاف وهي تثني على شجاعته:
ـ حسون سبع!

ـ حسون يخوّف وأبد ما يخاف!

ـ حسون مخوّف ذاك الصوب كله، واللي ما يصدق يتقدم ويقول!

وبهدوء، أقرب إلى الرجاء، يرد حسون على هذا الثناء:

ـ إذا رايدن مني أحجي فأريد سنطة. موافقين؟

ـ بس انطق، بس قول!

ويخفت حسون صوته إلى أقصى حد:

ـ ورُزق مولانا الوالي بغلام جديد..

وبانفعال يبحث في جيوبه عن شيء، حتى إذا وجده يرفعه في الهواء، يمرره أمام العيون، وهو يتابع:

ـ وهذا النيشان: راحة الحلقوم، فاخرة فاخرة، أول صنف، من اسطنبول!

ويضحك بصخب، ثم يقول محذراً:

ـ وهذي بس الواحد يباوعها من بعيد، لأنها أكل السلاطين!

ويأتيه صوت من بعيد:

ـ خاف يكون، هذا اللازمه، حسون، زب القاضي مو حلقوم اسطنبول!

وحين يضج الجمع بضحك صاخب لا يستطيع الأسطة عواد أن يبقى مراقباً من بعيد، لا بد أن يتدخل. يأتي متمهلاً، لكن بثقة، ويقول لحسون بحزم:

ـ قوم يا ابن الأوادم. تعال وياي، أحس ما تسوي لنا مكسورة!

ويحاول حسون أن يفلت. يتظاهر بالخوف، اعترافاً بالخطأ، لكن الأسطة لا يترك له مجالاً، يقول له كي يطيب خاطره:

ـ مثل ما الأفندية إلهم سهم نحن إلنا بيك سهم، فتعال!

فإذا حاول حسون أن يتأخر أو يتردد تأتيه كلمات الأسطة حازمة:

ـ لك الحامض برد يا ابن الأوادم...

وبعد قليل، وهو يخاطب الجمع بطريقة لا تخلو من تأنيب:

ـ من رخصتكم يا معمري البيوت...

وتتغير اللهجة تصبح ساخرة:

ـ بدل ما تحطوا بجيبه حجر، بدل ما تقولوله هذا يصير وهذا ما يصير، تثوّروه زايد...

وبعد قليل، وبنوع من العتب، وهو يجر حسون:

ـ يخلف عليكم، وكثّر الله من أمثالكم!

الحاج شبلي الذي وصل إلى قهوة الشط بعد العصر وقبل الغروب، لم يكن يريد أن يشهد فصلاً جديداً من فصول حسون، فالأمر، بالنسبة له، أكثر جدية من أن يقتصر، أو أن ينتهي، كما كل ليلة، تقريباً، بتلك المشاهد التي لا يُعرف كيف تصنّف أو كيف توصف. فعزرا الذي أخذ يتردد كثيراً على السوق في الفترة الأخيرة شغله ثم أقلقه. وإذا كان تجار السوق لم يجدوا سبباً أو تفسيراً، فلا بد أن يوجد أحد في قهوة الشط أكثر معرفة ودراية.

سأل الحاج شبلي عبدالمولى حنون، أحد ملاكي بساتين الجعيفر، عن أسعار الأراضي، وعن محصول السنة الحالية والسنة الماضية، وما إذا كان يتوقع تحسناً بأسعار الأراضي والمحاصيل، وهل لا زال الناس يشترون ويبيعون. كان الحاج شبلي يريد أن يقارن، أن يتأكد، مع أن الأمر لا يعنيه مباشرة، لكن مدفوعاً لمعرفة ما آل إليه البستان الذي يملكه عزرا في تلك المنطقة.

قال عبدالمولى حنون بطريقة فخمة، وبعد ان استمع إلى عدد من الأسئلة:

ـ القاع، حجي، تختلف عن شغل السوق. القاع بمكانها، القاع ما تتغير بين يوم والثاني. ومحصول هذه السنة مثل محصول السنة اللي فاتت. القاع ينراد لها ناس غير شكل، ناس يعرفون شلون يقرون الممحي...

ابتسم وصمت. كانت ابتسامته حزينة، أراد لصمته أن يشق طريقاً،

لكن حين وجد الحاج شبلي يراقبه وينتظر، أضاف:

ـ عزرا... وغير عزرا، من أهل السوق، يريدون من القاع الونسة..

وبعد قليل، كأنه يحدث نفسه:

ـ إذا الواحد مو فوق القاع، ويحچي وياها صبح ومسويات، ويعرف شكواها وعذابها، تظل القاع خرسا، تظل تضلع، صحيح أنها تخلّف، لكن شلون خلفة؟ عوجة ومعيوبة؛ وتصير مثل بول البعير: كل يوم لورا.

ـ اللي يسمعك آغاتي تحچى على القاع هالشكل يحسّب إنك تحچى عن البني آدم، عن شي حي!

ـ شعبالك حجي؟ القاع مثل البني آدم: تحس وتتعذب، تحچي وتبكي وتقول: الله أكبر إذا شافت البني آدم ما داير بال!

ضحك بحزن وبعد قليل:

ـ كل بال الناس أن القاع، ما لها روح، ما تحس ولا تتوجع، وبعدين، بعد شهور وسنين، يحسون بالصواب، ويندمون!

ـ وبستان عزرا؟

ـ وبستان عزرا، مولانا، مثل غيره، ما عرف حنّية، وماكو أحد سمع ونينه أو سأله شبيك!

ـ ويزور البستان؟

ـ زيارة القبور، كل سنة نوبة أو ثنتين!

ـ الله أعلم أنه ما عنده وقت!

ـ مولانا... أهل السوق غير الفلح. أهل السوق ما يعرفون القاع إلا نوبة بالسنة، يوم المحصول. أما الفلح فمع القاع كل ساعة وكل يوم، لأن منها عيشتهم، وعليها يعتمدون؛ والنتيجة: يا فالحة يا طايحة.. هذي هي السالفة من الأول للتالي. وهذا اللي ما يعرفه أهل السوق لأن ما عندهم وقت!

ـ وهذا من سنين، ما تغير؟

ـ خلينا من هالسالفة، أبو قدري، الله يخليك، لأن صبر القاع طويل!

ـ وما أقصر صبرك يا بني آدم!

ـ يسلم حلقك، يا ابن الأصل!

وسأل الحاج شبلي آخرين، سأل الذين يتعاملون بالصوف والغنم، وسأل أحد دلالي البيوت، واثنين من الذين يتاجرون بالخيول ولهم علاقة بالقوافل، وسأل صباغاً وصياداً وأحد صناع السروج، سألهم ما إذا كان عزرا، أو أحد رجاله، سأل أو استفسر عن أمر من الأمور التي لهم علاقة بها، وحين نفى هؤلاء، أو هزوا أكتافهم دلالة أنهم لا يعرفون، قال للأسطة عواد الذي كان يجلس إلى جانبه، تعبيراً عن التقدير والاحترام:

ـ ترى عزرا سكين بغمدها، ما تعرف شوكت تنجزّ!

ولم يصل الحاج شبلي إلى نتيجة واضحة خلال ثلاثة أيام، رغم مواظبته على ارتياد قهوة الشط، وسؤاله الكثيرين، وإن يكن بشكل غير مباشر، عن الحماس الذي دب فجأة وجعل عزرا يدور من مكان لآخر كالنحلة.

في اليوم الرابع، أول المساء، ومثل عادته كل مساء، جاء حسون. دخل المقهى وهو يرقص. كان متهللاً منشرحاً أقرب إلى الطرب. لما سألوه، بعد أن انتهت مراسيم استقباله، وبعد أن هدأ، رد بفخامة:

ـ فكوا عني ياقة . . .

وبعد قليل:

ـ خلوني مقندل!

ـ شنو شارب؟ أحد انطاك صوغة؟

ـ راسي متروس مزيقا!

ـ وين؟ شلون؟

ـ من الميدان إلى راس القريّة، كلها مزيقا وطبول وخيول، وتعال تشوف عيونكم!

ـ عرس؟ طهور؟ شنو اللي صاير بالدنيا؟

وقف وهو يخرج من حلقه صوتاً يشبه صوت الطبل، وكان يوقّع

بقدميه، ولما وجد الجميع ينظرون إليه ويتابعونه أضاف:

ـ أكل. . أكل. . أكل، واللحم كومات، كومات، تشبّع أهل بغداد بالصوبين. . ويزيد. .

ـ منو العازم ومنو المعزوم، احچي، برد فوادنا؟

ـ ما أدري، يمكن الوالي، ويجوز الآغا، ما ظل أحد إلا وچيّت، وأهل بغداد كلها هناك مجموعة: رقص وغنا وأكل، شلون اكل: تمّن عنبر ولحم ودهن حر، واللبن داير مندار، وكل واحد وذراعه!

ـ إذا ما عرفت اسم العازم والمعزوم، كل اللي قلته تصفيط، منام من المنامات، وباچر تطلع الشمس على الحرامية، ويبين الصادق من الچذاب!

ـ زين. . زين، لأني فقير ما تصدقوني، لكن باچر تجيكم الأخبار!

في اليوم التالي كان السوق كله يتحدث عن الدعوة التي أقامها مهيوب الچلبي على شرف ساسون!

كانت الدعوة بمثابة أول ظهور علني وكامل لساسون، فقد حضرها عدد من كبار موظفي السراي، وثلاثة من ضباط القلعة، إضافة إلى تجار ورجال دين وبعض الملاكين، وأوفد الباليوز المترجم الأول لحضورها!

الحاج شبلي لم يسمع حسون وهو ينقل ما رأى، أما حين أبلغه الأسطة أن دعوة كبيرة أقيمت في راس القريّة، وحضرها جمع من الوجهاء، فقد أخذ يتذكر الأغنياء الذين يسكنون هناك، ومن يحتمل أن يكون الداعي، ولولا التردد وبعض الخجل، ثم الغضب الذي انتاب حسون، لأنه لم يؤخذ كلامه على محمل الجد، لاستدعاه الحاج شبلي وسأله واستفسر منه. ومع ذلك فقد سيطر عليه هاجس أن يكون للأمر علاقة بعزرا، وكان مقرراً أن يتحرى ويسأل أهل السوق في اليوم التالي، لكن الأخبار سبقته إلى هناك.

حين رآه نعمان المطيري قادماً، وقبل أن يصبّح عليه، بادره ضاحكاً:

ـ ها. . شقلنالك حجي، مو السوق أحسن من قهوة الشط؟

ـ الناس يقولون: صباح الخير، أول نوبة. يقولون يا فتاح يا كريم، فشنو شايف القهوة بمنامك؟

ـ الله يصبحك بألف خير، حجي، لكن بالي ظل يمّك..

وتغيرت اللهجة، كي تبدو خالية من الشماتة:

ـ السوق، حجي، ما يتكلم هوايه، لكن يسمع ويحس، ويلقفها وهيّ طايرة...

وعادت اللهجة إلى التعريض:

ـ يجوز جماعة قهوة الشط يلبلبون الكلام أحسن من غيرهم، لكن المهم مو الكلام، المهم الفعل، النتيجة. صحيح مولانا لو آني غلطان؟

ـ بالمختصر المفيد شتريد تقول؟

ـ جيّات عزرا على السوق، واللي حيرتنا، وراها ساسون!

ـ شلون؟ قول يا معوّد

ـ البارحة السوق انهرج، واسم ساسون أفندي على كل لسان...

وضحك بسخرية وأضاف:

ـ ابن الچلبي سوى له عزيمة ما صارت من قبل، عزيمة ما تتسوى للملوك!

أما حسين ملا علي والحاج غفوري فقد جاءا معاً، وكان حسين يبدو مرحاً، ربما لنكتة قالها الحاج غفوري، أو لفكرة خطرت له أو مثلٍ أعجبه. حين وجدا نعمان يحاصر الحاج شبلي، قال حسين بمرح مخاطباً نعمان:

ـ هذا اليوم اللي چنا نريده: نعمان لازم زياق الحجي، وواقع بيه دق!

قال الكلمة الأخيرة وهو يلتفت نحو الحاج شبلي.

رد نعمان في محاولة ليبرىء نفسه:

ـ قاعدين نسولف، منه سالفة ومني سالفة، وماكو صياد ونوجة!

عقّب حسين بمرح:

ـ بالله، حجي، ما أخذك فلاحة وهو يسولف عن ساسون؟

قال الحاج شبلي، وقد حاول أن يحمّل صوته كل الحياد:

ـ البني آدم، يا جماعة الخير، والشهادة لله، مهما قال أعرف، أدري، فاللي ما يعرفه أكثر، واللي يجهله أكثر وأكثر!

الحاج غفوري، بعد أن أخذ مقداراً من الزعوط، عطس مرات متوالية، ودمعت قليلاً عينه اليسرى، قال بعد أن استراح:

ـ يقولون: الشاطر يلطم ويّا صاحب البيت ويقسم ويّا الحرامي، ونحن تاهت علينا، نباوع لبعيد وما ندري أن الحرامي جو ابطنا. . . .

هزّ رأسه عدة مرات ثم استرسل:

ـ أهل السوق دايخين بيومهم، ينسون شنو اللي صار البارحة، وما يهمهم شنو اللي راح يصير باچر، وعزرا، وقبله ساسون، الواحد منهم ما ينسى البارحة وما يسها عن اليوم اللي عقبه. ونحن إذا شفنا عزرا ننسى ساسون، وإذا جا ساسون غاب عزرا. .

قاطعه نعمان، وكان أقرب إلى السخرية:

ـ خلينا، حجي، من سوالف التاريخ، صار. . وصار، نحن ولد اليوم!

ـ وولد اليوم جايين من زرف الحايط؟

هكذا رد الحاج شبلي بحدة، ربما لخشيته أن يرتد الآخرون عليه لأنه يقضي وقتاً أكثر مما ينبغي في قهوة الشط.

قال الحاج غفوري بأبوّة:

ـ على كيفكم، يا جماعة الخير، والواحد يتعلم حتى آخر يوم من عمره. .

وبعد أن غيّر جلسته قليلاً تغير الصوت:

ـ لما حجيت، قبل سنين، قال لي حاج من الصومال، وكان يوصيني أثقّل على الراس، لأنه شاف قبلي اللي ماتوا من الشمس، اللي ما يتعلم من غيره ما يتعلم أبد!

وعادت النبرة إلى إيقاعها الأول:

ـ ساسون ما ينسى عزرا، وعزرا ما ينسى ساسون، ونحن نشوف الاثنين وما ندري، وما نعرف شنو اللي صاير بالدنيا، وإذا اختلفوا تظل

بينهم، إحنا ما بينا إلا الصايح: يا ناس. . . يا عالم، وبعدها تنلاص!

ظل الحديث في الأسواق يدور حول ساسون وعزرا أياماً عديدة، ومع الأحاديث والإشاعات، وأخبار جديدة كل يوم، لكن ما إن مضت أسابيع حتى عرف الكثيرون أن الباشا استقبل أول الأمر ساسون، وبعد ثلاثة أيام، استقبل ساسون وعزرا معاً. وقيل في هذا اللقاء إن «الصلح سيد الأحكام» فالبساتين في الطارمية وبالقرب من سلمان باك انتقلت إلى عزرا، وان ساسون بقي أهم صراف في بغداد. وإذا اختلف الاثنان فلم يبلغ الاختلاف حد أن يقتل الواحد الآخر.

قال ناطق أفندي لواحد من أصدقائه المقربين:

ـ الفرق بين وصول الواحد والثاني دقيقة، أقل من دقيقة. والقيافة كأنهم عسكر شرف، تقول الواحد الثاني. الفرق أن ساسون چان أسمن، وچان ينظر إلى السقف لما تحدث الباشا، وعزرا چان ينظر إلى الأرض. أما حين نظرا إلى بعضهما، فقد دمعت العيون، وقالا معاً: «عفا الله عما مضى».

أما نادر أفندي الذي كان يحتفظ بالخاتم وأوراق ساسون، وكان يمنع عليه البيع والشراء، بناءً لطلب عزرا، فقد أعاد كل شيء إلى عزرا، وكانت محفوظة في كيس لونه أخضر، وسلمها عزرا لساسون، وقال له: يا رب السماء إحفظنا ونجنا.

قال الحاج شبلي، بعد أن سمع كل هذا، وكان في قهوة الشط، وحوله الكثيرون، وحسون يستعد لتقديم شهادة يوم جديد:

ـ الفرق بين ساسون وحسون، يا جماعة الخير، حرف واحد، فيا رب ارحم، ويا رب استر، ويا رب نجنا من الآتي!

54

مهما بلغ الأولاد من العمر يبقون بنظر الآباء والأمهات، الأمهات بشكل خاص، صغاراً، إذ يحتاجون إلى الرعاية والاهتمام، ويحتاجون أكثر من ذلك إلى الحنان.

وأصغر الأولاد، مهما تقدم بالعمر، يبقى صغيراً دائماً.

بدري أصغر أولاد الحاج صالح العلو. دخل إلى المدرسة العسكرية خلافاً لرأي العائلة، وأبوه الذي بذل جهداً كبيراً لإقناعه بالتخلي عن سلك الجندية لم ينجح، فلجأ إلى أسلوب الإغراء والترغيب، ولم ينجح أيضاً، فعمد إلى الصمت كأسلوب في العقاب، وإلى الاستعانة بأمه، علّها من خلال الحنان والدموع تحمله على التراجع. لكن كل هذه الأساليب جُرّبت واستنفدت دون أن تغيّر قناعة بدري، إلى أن أصبح ضابطاً، ثم في السراي، وأخيراً مرافقاً للباشا!

إذا كانت الاعتراضات في البداية كثيرة، وجاءت من جهات متعددة، فقد تراجعت فترة بعد أخرى، إلى أن أصبح المعترضون أنفسهم ينكرون أنهم اعترضوا في وقت سابق، أو ربما نسوا ذلك! وحلّ بدل الاعتراض نوع من التباهي «لأن لمحلة الشيخ صندل من يمثلها في السراي، وأن بدري يمون على الصغيرة والكبيرة، ويفك من حبل المشنقة».

والحاج صالح العلو الذي لا يعرف رتبة ابنه، أو الموقع الذي يشغله، حين يُسأل عن ذلك، ويكتفي بكلمات عامة، كأن يقول: «بعده ضابط زغيّر؛ وأنه من حراس الوالي» لا يفعل ذلك من قبيل التواضع، أو لرد

الحسد، كما تفعل الأم، وإنما لأنه لا يثق بهذا السلك، ولا يطمئن إليه، إضافة إلى أن هذه الشغلة، مهما طالت، مؤقتة، ولا بد للإنسان أن يعود إلى مهنة العائلة، المهنة التي يتوارثها الآباء عن الأجداد، ويريدونها أن تبقى فيهم، لتورّث إلى الأبناء فالأحفاد.

الأم تفكر بطريقة مختلفة: تريد أن يكون ابنها مرتاحاً، أيّاً كانت المهنة التي يختارها. صحيح أنها لا تعترض على كلام زوجها، لكن لا تتحمس له بنفس المقدار، ولا تنظر إلى المهن الأخرى كما يروق له هو أن ينظر.

أكثر من ذلك، تعتبر أم قدوري أن ابنيها الكبيرين، قدوري ونعيم، يكفيان لأن تستمر المهنة في العائلة، ولأن يساعدا الأب الآن، ثم ليحلا مكانه في وقت لاحق، فلماذا يكون الجميع مثل أبيهم؟

الفترة الصعبة التي عانت خلالها أم قدروي حين كان بدري في المدرسة، لأنها لا تستطيع أن تراه إلا مرة في الشهر، إذ لم يكن يسمح لمنتسبي المدرسة إلاّ بإجازة يومين شهرياً، هذا إذا لم توقّع عليهم عقوبة فردية أو جماعية! في هذه الفترة ندمت أم قدوري أنها لم تبذل جهداً كافياً لحمله على ترك المدرسة. حتى أثناء غيابه، وما تعانيه من وسواس وخوف وقلق، تكون مصممة على أن تحاول في هذه الإجازة ما لم تفعله في إجازات سابقة، لكن فجأة تجد نفسها وقد غرقت في حاجاته العملية، من غسل الملابس وتأمين الطلبات الضرورية، إلى الكي والحلاقة، ثم استقبال بعض الأقارب والأصدقاء. فإذا توفر وقت إضافي فلتسمع خلاله زقزقات الصبايا وهن يتحدثن عن هذا الفارس الذي يختلف عن جميع أولاد محلة الشيخ صندل: بدري. وكيف تحلم كل واحدة منهن بشاب مثله! خاصة وأن الملابس العسكرية تظهر رجولته وجماله، وتجعله متميزاً على الآخرين.

حين تسمع أم قدوري هذا الكلام، الذي يأتي همساً، مواربة، خجولاً، وأغلب الأحيان دون تسميته، لكن كل الإشارات تدل عليه وتشي به، تشعر بالفخر والاعتزاز، وتنسى قلقها السابق، وتصميمها على أن

تبحث الأمر مجدداً مع بدري.

كان ذلك أثناء الدراسة، أما بعد أن تخرّج ضابطاً، وملأ المحلة بحضوره، فقد أصبحت تخشى عليه من العين، ومن أمهات الفتيات اللواتي يزرنها ويتوددن لها، ويحملن معهن، بعض الأحيان، هدايا من أكل أو شراب. كانت أم قدوري تخشى هذه الهدايا، إذ ربما تكون مسحورة بالقراءة عليها، أو بخلطها بمواد رابطة أو فاعلة، وما تكاد الضيفة تغادر حتى تدفع أم قدوري بهذه الهدايا إلى نعيمة وبدرية، البنتين اللتين لم تتزوجا بعد، إذ ربما تساعد، لما فيها من مواد، على تحقيق المراد!

ورغم أن أم قدوري حرصت على اختيار زوجات لابنيها الكبيرين في وقت مبكر، نسبياً، فلم تفعل الشيء ذاته مع بدري، إذ كانت دوماً تراه صغيراً، ويمكن أن ينتظر إلى حين العثور على الفتاة المناسبة. كانت تقول، إذا جرى الحديث عن الموضوع، ودائماً كان يجري:

- لاحقين، بعده زغيّر، على ويش مستعجلين؟

أما إذا جرى تذكيرها أن قدوري ونعيم تزوجا، وكانا أصغر من سن بدري الآن، فكانت تضع يدها على فمها، وتقول، من بين الأصابع، وهي تحاول إخفاء أسنانها الكبيرة، حين تبتسم:

- بدري غير شكل. وبعدين، أولها وتاليها، نصيب!

فإذا تواصل الإلحاح على الأمر أكثر من ذلك، وعليها أن تتدخل لتقول شيئاً، تنزل يدها، تضرب على الساق، وهي تردد بأسى:

- راسه يابس، منو يقدر عليه..

وتضيف، كأنها تكلم نفسها:

- وإذا كان ناقصه فد شي تعلمه من ربعه، من الضباط اللي وياه!

وهكذا يُفهم أن أم قدروي، حين تقول إن الوقت لا يزال مبكراً لزواج بدري، أو أية حجج أخرى، فلأنها لا تستطيع شيئاً، وحين تحاول فإن المحاولة لا تتجاوز الرجاء، والذي يبلغ حد التوسل في أغلب الأحيان!

بعد أن أصبح مرافقاً للوالي، وأصبح غيابه عن البيت يمتد ويطول،

تحول اهتمام أم قدوري إلى الأمور العملية، أن تتوفر له هناك الراحة: «. . . وتنام زين، عيني؟ وعلى نفس القريوله؟ والمخاد نظيفة؟ والأكل زين؟ نظيف؟ واكو هناك مكان تسبحون بيه؟ وتغسل كل يوم؟» فلما تطمئن، أو على الأقل يتراجع خوفها وقلقها، تقول، ويخرج صوتها من الصدر:

ـ ماكو بالدنيا مثل أكل البيت. وما يرتاح الواحد إلا على المخدة اللي تعوّد عليها. . .

وتتغير النبرة، لتصبح نجوى:

ـ وين أكو مثل حنان الأم، مثل قلبها؟ والأم تعرف بلّيا كلام إذا ابنها جاع أو توجع، إذا رايد فد شي! هاي وين تلتقي وين تتحصل؟

وتتغير النبرة وهي تخاطبه:

ـ لا تقول لي سراي وقرابالغ. لا تقول مزيقا وخيل وهرجة، هاي كلها ما تسوى شي إذا البني آدم مو ببيته!

وحين تريد الحديث معه عن الزواج، ولكي يغلق الموضوع بسرعة، يحدثها كيف أن الوالي، داود باشا، تزوج بنت سليمان باشا الكبير، وكان مثله مرافقاً، ثم مرت الأيام وصار والياً.

يقول هذا الكلام مع ابتسامات، أقرب إلى الضحك الصاخب، ويتبعها بغمزات، وبعض الأحيان بمداعبات. كل ذلك ليقنع أمه أن الانتظار في مصلحة الجميع!

تصفن أم قدروي. تتطلع إليه. تسافر في الخيال بعيداً، وقبل أن يستطيع تحويل الكلام إلى اتجاه آخر، تسأل ببراءة:

ـ وهذا الوالي، والينا، اكو عنده بنيّة يريدك تتزوجها؟

يرد بمرح، وبطريقة لا تخلو من عدم اهتمام:

ـ أكو عنده بنات هوايه!

ـ حلوات؟

ـ الواحد بيه خير ويستنقي. . .

وبمرح أكثر، وهو يتلمظ:

ـ واحدة أمها گرجية. واحدة أمها كردية. واحدة أمها من اسطنبول. . .

ـ يعني حلوات؟

ـ حلوات وأزيد. . .

ولا يتركها لتسأله، يتابع:

ـ وبنات الوالي!

ترد أم قدوري، وكأنها تكلم نفسها:

ـ الحلاوة مو كل شي بهذي الدنيا، المهم الأصل. المهم أن الواحد يعرف أمها، لأن البنت لأمها مثل ما يقولون. فإذا الأم بنت أصل، تعرف الحلال والحرام، وبقلبها اكو حنّية، ورضّعت من حليبها، الواحد ما يخاف، يذب روحه وهو ساد عيونه؛ أما إذا كانت الأم لملم، لا رضّعت ولا ربت، فينخاف منها والواحد يتحسب، لأنه ما يدري شنو اللي يصير بعدين. . .

ولئلا يتركها تسترسل، وتذهب بعيداً، يقول بمداعبة:

ـ حتى لو وافقنا آني وأنت، يمه، يبقى، مثل ما يقولون: الوالي وبنته، فخلينا ناصبين النوجة، ونشوف شنو اللي ترميه الريح، وشنو اللي يجي ويّا الماي!

أحست أم قدوري بالخطر، قالت بحدة:

ـ بدري، عيني، مثل ما قال أبوك، ذول الحكام ما يتأمنون. حياتهم كلها قتل ومقتول، وبنت الوالي يجوز أول يوم، ثاني يوم، ترفعك، تغنيك، لكن ما تعرف شنو اللي يصير باليوم التالي. . .

وتتغير النبرة:

ـ زوانّا ولا حنطة الجلب، يا ابني. بناتنا يصبرن على الضيم، يعرفن اللي يصير واللي ما يصير، والوحدة منهن تموت من الجوع ولا تذل نفسها. ما تقبل المو زينة حتى لو شنشلوها بالذهب، لو قالوا لها: نبني لك قصور من فضة وعاج، لأن البني آدم عينه هي التي تاكل، فإذا عينه شبعانة

كل شي يكفيه، كل شي يرضى بيه.

قال لها بدري بمداعبة، لكن لا تخلو من حزم، وفي هذه الحالات يخاطبها بأم قدوري:

ـ أم قدوري، خاتون المحلة...

يضحك قبل أن يضيف:

ـ بدينا بقصة وصرنا بقصة ثانية. سألتِ: بنات الوالي حلوات؟ قلنا: إي، وبعدين تهنا. كل واحد يحچي وحده، كل واحد يغزل ويلبّس...

هز رأسه أكثر من مرة، وبعد قليل:

ـ وأنت يا أم قدوري، رضعتي وربّيتي، وبدري رضع من هذا الصدر!

ودق على صدرها، كي ينهي الموضوع. سقطت دمعة من عينها، مسحتها بطرف الفوطة، وقالت له، كأنها تكلم نفسها:

ـ أجمل بنيّة بالمحلة، بالكرخ، ببغداد كلها، تتمنى واحد مثلك، بس أنت قول وتمنى!

ـ يا أم قدوري. كل شي بوقته زين. وكّلي الله، لا تحسبي هوايه، ولا تخافي!

في الزيارة قبل الأخيرة بدا بدري لكل من رآه إنساناً مختلفاً، وما عدا سيفو الذي عرف بعض ما وقع له، ثم كانت تلك الرحلة المجنونة، فإن الآخرين في المحلة فكروا وقدروا شيئاً آخر.

قالت أمه إن سحراً دخل طعامه، أو انه مشى على مياه مسحورة؛ وربما دخل عليه أحد وهو نائم وقرأ أشياء، أو رمى على ثيابه مسحوقاً من عظام ضبع أو كبد سلحفاة، وهذا ما أثّر عليه. ولقد بذلت جهداً من أجل إبطال السحر. دفعت لقاء ذلك مبالغ كبيرة. ولتأكيد بطلان هذا السحر كتبت له حجاباً وخاطته مع ثيابه، كما قرأت آيات وأوراداً كثيرة، وتأكدت من النتائج في الأيام الأخيرة، حين ظهر بدري معافى، لكن بعد أن ذهب إلى السراي «انتكس». هكذا قالت أم نجم، وأيّدها غفوري الأعور، «لأن السحر مربوط من جوا السراي، ولازم هناك نطشّ ملح مقري عليه مع قرن

غزال ابن شهرين».

أما بعد أن عاد بدري إلى البيت استعداداً للسفر إلى كركوك، فقد قال أبوه، في محاولة لإظهار تفاؤله بأن بدري سيعود إلى مهنة العائلة:

ـ قال لنا أبو منعم، سيد ناجي البكري، قبل أيام في قهوة الشط، وقد قرأ ذلك في كتاب من كتبه الكثيرة، قال: «لا تقرب السلطان، أو الوالي، إلا كما تقرب الأسد، فإن طاوعته أتعبك، وأن خالفته أتعبك».

هز رأسه مرات عديدة، وأضاف، كأنه يحدث نفسه:

ـ رب ضارة نافعة. . .

وبعد قليل:

ـ إذا بيت العلو براسهم خير، واكو بيهم أمل، فلازم السر اللي حصّلوه من الأباء والأجداد يلزموه بأسنانهم؛ أما إذا كل واحد منهم بدا من جديد، وقال: هاي أول الدنيا، فأبد ما راح يصير براسنا خير. نجرب ونبطل، نجرب ونبطل، والعمر يمر، والماي تمشي، وبعد ما تمر سنين وأيام نحسّ بالصواب، ونقول: يا حسافا!

وأم قدوري التي كانت خائفة، ربما لخوف بدري، أو لإحساسه بالغبن والمجهول، وكانت تترجم أحساسيها بأن تراكم الملابس والأغذية، وتكثر من النصائح، وتتساءل ما إذا كان من الضروري أن يرافقه أحد من العائلة، هي أو الأب، أو أحد الأخوة، من أجل أن تطمئن، ومحاولات بدري في أن يبدو عادياً، وأن الأمور شديدة السهولة والبساطة، والحياة ستكون بالنسبة له أكثر راحة، بعد «أن خلصنا من السراي ومشاكله»، فإن هذا المدى الجديد الذي ينفتح لا يُعرف إن كان خيراً أم شراً. إن كان لمصلحة بدري، ثم العائلة بعد ذلك، أم سيكون، مثلما حصل مرات كثيرة، في ظل ولاة آخرين، ولعائلات كثيرة، وكيف تحول الزمن، وتغيرت العلاقات بين يوم وآخر.

قالت له أمه، وهي تحضنه، وتحاول أن تخفي دموعها:

ـ أبد لا تنقهر، عيوني، دير بالك على روحك، نام زين، أكل زين،

وآني وأبوك الشهر اللي ما تجينا به نحن نسيّر عليك . . .
والتفتت إلى زوجها تسأله :
ـ شتقول، حجي؟
ـ المهم، أم قدوري، إنّا خلصنا من السراي، لأن ما ورا السراي إلا شلعان القلب ودوخة الراس، وباچر بدري يتأكد من الأمور بنفسه، ويقول: يخلف على والدينا لأنهم قالوا!
وعادت تسأله من جديد :
ـ والشهر اللي هو ما يجي بيه نسيّر عليه، مو هالشكل، حجي؟
ـ أي نعم، ليش لا . . .
وتغيرت اللهجة قليلاً :
ـ خاصة آني أبعد من بعقوبة ما رايح!
ردت عليه بنوع من الدعابة والعتب :
ـ وعلى الحج آني اللي رحت، مو هالشكل؟
ـ هذي خليها على صفحة، أم قدوري، لو تردين تنغزين وتصچمين؟
قال بدري ليضفي جواً من المرح :
ـ يمه . . روحة الحج خليها عليّ، آني آخذك وأزوّرك، ونروح وحدنا، ما ناخذ الحجي ويانا، شتقولين؟
ـ يابا بدري . . إذا تريد تفرحني، إذا تريدني أرضى عليك، فيوم السعد لما تقول: يمه أريد أتزوج، شوفي لي بنت الحلال. أما الحج . . .
والتفتت إلى زوجها، وهي تضع يداً على فمها، وتشير بالأخرى إليه :
ـ فهذي برقبته دين عليه، لو نسيت؟
ـ إذا وافق بدري على الزواج، فالله كريم، خذي الحج من بطن عيني، ما يخالف!
قال بدري، كأنه يخاطب نفسه :
ـ أعطوني فرصة، يا جماعة الخير، خلوني أشوف وضعي هناك .
ـ وتردّ لنا خبر بأول إجازة، مو هالشكل؟

هكذا سألت الأم، فرد عليها بمرح:

- إذا ما صارت بأول إجازة، بالإجازة الثانية، اللي بعدها...

ولكي يبقي جو المرح تابع:

- نريد نشوف كركوك بحرّها وبردها، حتى نقدّر إذا بنت الحلال تقدر تعيش هناك، توافق، لو تردين تخبنيها خبن: أي مريّة، مهما كان عمرها، شكلها، بس انها ترضى تعيش هناك؟

- آني أمك، وأنت تعرفني، بدري، عيوني...

أخذت نفساً سريعاً وتابعت:

- أريد لكْ أحلى بنت ببغداد. حلوة وبنت أصل!

رد الحاج صالح بدعابة وتعريض:

- والشرط الأول: حلوة!

تطلعت إليه أم قدوري، وهي تجيب بمكر:

- حلوة، وزغيّرة، بيضا وعيون وسيعة، والشعر يتدهدى على الكتاف، وشويونة سمينة، وبطولي أو أزيد مني إصبع أو إصبعتين..

قال الأب، موجهاً الكلام لابنه:

- دير بالك، ابني، عِدّ للألف قبل ما تقول إي، لأن أمك تاه عليها الحساب..

وبمرح مع السخرية:

- تتصور روحها طويلة، حلوة، عيونها عيون غزلان، وشعرها...

ولم تتركه ليتابع:

- كنت تموت بي، ومية نوبة قلت لي: حتى نوم ما أقدر أنام وأنا أحلم وأنتظر يوم السعد و...

ولم يتركها:

- آني؟ أموت بيج؟ على طولك؟ على حسنك؟

وتغيرت النبرة:

- اللي يشوفك يقول: عبالك بطة، وزة. وين راح هذا الحسن

والجمال؟

ـ العمر يا أبو قدوري! العمر يهد الجبال، العمر يغير الأحوال، ومو بس آني، آني وغيري يا أبو قدوري!

قال بدري ليعيد جو المرح:

ـ إذا بعد ثلاثين أربعين سنة تختلفون، فليش تردون تورطوني؟ تكسرون رقبتي؟ أتركوني عصفور طيار، لا دادا ولا ماما، مو أحسن؟

ردت في محاولة لتسيطر على الموقف من جديد:

ـ أبوك يحب الشقا، وصار زمان ما شاقاني، هسه طخت براسه ويريد يتشاقى!

وبعد قليل:

ـ باچر، يا وليدي، تتزوج، تتزوج أحلى بنية بالديرة، ونسوي لك الأفراح والليالي الملاح، وما يحول الحول إلا ويجيك أول ولد، ونفرح بيه، ونسميه على اسم أبوك، صالح، وقبل ما يبلغ السنة، نطهّره، ونسوي له زفة، مزيقا وطبل. وبعد ما يحبي ويمشي، ناخذه للشيخ عبدالقادر وللكاظم ونشعل له شموع، ونفرّق خبز عروق، وبعدما ما ينفطم، وقبل ما يصير ابن سنتين يجي أخوه، ونسميه على اسم أبوي آني و. . .

قال الحاج صالح العلو:

ـ أم قدوري. . . ما دام بدري وافق، أنت بيتي خيرة، ودوّري على كيفچ، يواش يواش، ولما تلقين الله كريم!

لما هزت رأسها موافقة، ولم يعترض بدري، ربما لأن الأمر سابق لأوانه، قال الحاج صالح، كأنه يخاطب نفسه، ويريد لزوجته أن تنتبه جيداً:

ـ إي نعم. . يواش. . يواش، لأن كل شي على الهدا أطيب، أحسن. . .

وانخفض صوته:

ـ الشاي لما يتخدّر على نار هادية يصير أطيب. أم البيت إذا ركّبت من وقت يطلع أكلها أطيب، والزواج . . . نفس الشي.

وسافر بدري في اليوم التالي إلى كركوك!

55

معركة الفرات الأعلى كانت درساً للبدو، مثلما كانت درساً لداود باشا. فبعد المعركة، ولفترة غير قصيرة، ساد الهدوء، وتقاطرت الوفود على بغداد من جميع الأنحاء للتهنئة ولإظهار الطاعة. وبدا للباشا أن الوقت قد حان لكي يجسد الأفكار والأحلام التي راودته طوال الفترات السابقة بمشاريع على الأرض ليراها الناس، ويتغنى بها الشعراء، ولتكون دليلاً واضحاً على أنه يختلف عن الولاة الذين سبقوه.

في كل الليالي، قبل أن يغفو، وهو بين جموح الرغبة وثقل الأعباء، يتخيل الباشا بغداد وقد أصبحت شبيهة باسطنبول سعة وجمالاً، بل ويمكن أن تتفوق على اسطنبول، لما لها من تاريخ عريق يمكّنها أن تنهض من غفوتها، لتتحول إلى أهم المدن وأقواها، خاصة وهو يسمع كيف تنحدر اسطنبول يوماً بعد آخر، نتيجة الهرم، وخلافات المسؤولين ومؤامرات الحريم. كان يقول لنفسه: «يجب أن تكون البداية من السراي، لأن قوة الولاية تتمثل بمقر الحكومة» يهز رأسه عدة مرات وهو يتساءل: «هل يعقل أن يكون الباليوز أجمل من السراي وأوسع؟ وهل يقتنع الناس، إذا لم يروا بأعينهم، أن داود باشا أقوى من ريتش؟».

ورغم التحسينات التي أمر بإجرائها على السراي، وقد أنجزت خلال فترة قصيرة، مما أثار الإعجاب، إلا أن هذا الإجراء كان مؤقتاً ولا يرضيه بما فيه الكفاية. ومع أن ريتش، في زيارته الأولى للسراي بعد الإصلاحات، كان يتلفت ويهز رأسه، تعبيراً عن الدهشة والإعجاب، وبدأ

حديثه مع الباشا بالإشادة بما شاهده، وقد أطرى بشكل خاص البوابة العالية المزخرفة والحدائق، وأكد أنه لم يصدّق عينيه لأول وهلة، بل ظن أنه في مكان جديد! هكذا قال، وأثنى على مهارة البنائين وحسن ذوقهم، ومع أن الباشا جامله، ووافقه على ما قاله، إلا أنه ظل ينظر بتركيز إلى عينيه ليكتشف ما إذا كان يعني الكلمات التي يقولها، أم أنها مجرد مجاملة. وفي نهاية الزيارة كان الباشا أكثر تصميماً على الشروع في بناء السراي الجديدة، قال لنفسه بتحدٍ: «سيرى هذا الثعلب بعينيه من هو داود باشا».

وإذا كان درس الفرات الأعلى بدا مفهوماً لمن تسول له نفسه العصيان أو مناوأة الدولة، إلا أن البدو، بمرور الوقت، ومثل عادتهم دائماً، أخذوا يميلون إلى نسيان ما حصل، وبدأت تراودهم فكرة التمرد من جديد. كما أخذ الآغا يتلقف أية أخبار، مهما كانت تافهة، ويستغلها لتحريض الباشا من أجل تجريد حملات جديدة، خاصة في الجنوب، لتأديب هؤلاء البدو الأشرار. أما الباشا فكان يفكر بالمشاريع التي ينوي القيام بها، ويميل إلى ترك البدو لفترة أخرى، بل كاد يشرع بتنفيذ عدد من المشاريع في وقت واحد، غير أن مطالبات اسطنبول بالأموال، والتأكيد على ضرورة زيادتها، وكان هذا يتكرر في كل رسالة تصل إلى بغداد من هناك، ثم إلحاح الآغا عن طريق ضباطه ورجاله، وأيضاً تغير مزاج، ثم مواقف، عزرا، وهو لا ينفك يؤكد أن الأموال تكاد تنفد، ويصعب تحصيل الضرائب بمقاديرها ومواعيدها... هذه الأسباب جعلت الباشا قلقاً، وبعض الأحيان حائراً متردداً بين الاستجابة لمطالبات اسطنبول، أو الخضوع لرغبات الآغا، فكان يقضي الجزء الأكبر من الليل ساهراً مفكراً فيما يجب اتخاذه من إجراءات لا يندم عليها في وقت لاحق..

الآغا لا يهدأ ولا يتوقف عن التحريض، ويلمح للباشا أن البدو يستعدون، ومثلما حصل في أواخر أيام سعيد، حين جاءت جموعهم، واحتلت كل زاوية في بغداد، وكيف ضجّ الناس بسبب تعدياتهم وما فرضوه من أتاوات، وكان هذا هو السبب في هزيمة سعيد. وهم الآن

يستعدون لتكرار ما فعلوه في وقت سابق، «لذلك قبل ما نحطّ حجر على حجر لازم نخلص منهم، ونكسر روسهم، وهناك، وإلاّ أكلنا أصابعنا ندامة».

الباشا يصغي لما يقوله الآغا، ويحاول التقليل من أهمية الحوادث التي تقع هنا وهناك، وأنها لا تستحق تجريد الحملات من أجل قمعها «لأن البدو، قال ليقنع الآغا، كلمة تاخذهم وكلمة تردهم، فإذا ما لقوا أحد بوجههم تفتر حماستهم، يوم والثاني وبعدها يتعبون، ويصير كل واحد يدوّر المرعى والماء حتى لا يموت من الجوع أو العطش» لكن الآغا يظل يسمع بطريقته، ويشير إلى أن السلب وصل إلى أطراف بغداد.

وما لا يقوله الآغا مباشرة للباشا، يذيعه رجاله بين الناس فينتشر الخوف، ويتسع، ويفتح التجار آذانهم ليعرفوا كيف يجب أن يتصرفوا. وتصل الأخبار إلى الباشا، فيأمر عزرا بالإيعاز للتجار أن لا يقيموا وزناً للإشاعات، وإن أي رفع للأسعار، وأي إخفاء للمواد، سوف يرتب عقوبات عليهم أولاً، ولا بد أن يخسروا بعد ذلك، إذ سيمنعون من البقاء في السوق.

وبكثير من الصبر والهدوء يحاول إقناع الآغا أن العمل العسكري ليس دائماً أفضل الحلول، وحين يلمح عدم الاقتناع في عينيه، وابتسامة صغيرة تطفو على ملامحه، يقول له، وتخرج الكلمات بطيئة، لكن صارمة:

ـ إذا تريد تضرب، يا آغا، فاضرب ووجّع، وبالوقت المناسب، والمكان اللي تختاره أنت...

يأخذ نفساً عميقاً ويضيف:

ـ أما إذا هوّس بدوي بآخر تلفات الدنيا، وأعلنا النفير، فهذا ما يتمناه ابن الشاوي وثامر، حتى تسقط هيبة الدولة، ويصير شغلها الحجز بين مخابيل!

ولكي يطمئن الآغا، الذي يؤثر الصمت، يتابع الباشا بنبرة حازمة:

ـ يجي يومهم، يا آغا، والصبر زين!

ولأن الآغا يتظاهر بالاقتناع، لكنه لم يقتنع، يدفع رجاله للمبالغة بنشر الأخبار، لكن كل شيء يصل للباشا، وعن أكثر من طريق، فيقرر أن يقلّص الأموال الموضوعة تحت تصرف الآغا، وأن يصمّ أذنيه عمّا يردده رجاله، لأن فكرة أساسية لا تغيب عن باله لحظة واحدة، وهي التي تحدد موقفه من الآغا: إذا انتصر في حملة جديدة، فسوف تكون حملته الثالثة على السراي، ولن يقبل إلا أن يكون والياً.

ويتذكر الباشا كلمات كان يرددها سليمان الكبير أمام خلصائه، وكان يتلفت بحذر قبل أن يقول: «مهما بدا القائد مخلصاً للوالي، فإن النصر الأول الذي يحققه يقدمه لواليه فعلاً، أما النصر الثاني الذي يحققه فإنه يتقاسمه مع واليه، والنصر الثالث يكون على الوالي نفسه. فالحذر كل الحذر من النصر الأول. فإذا اضطر الوالي، من جديد، لنفس القائد، فعليه أن يعين إلى جانبه قائداً آخر يشاركه النصر، والأفضل أن لا يعطي له فرصة تحقيق نصرين متواليين». ويخفّض صوته ويتابع «والهزيمة، بعض الأحيان، قد تكون سبباً في تثبيت وضع الولاية، ولذلك يمكن أن نقبل الهزيمة بصمت، دون نواح كثير، ودون إلقاء اللوم على قائد بذاته، لأن القائد المنتصر، والقائد المهزوم، يصبح أي منهما خطراً على الوالي وعلى الولاية».

هذا الكلام الذي سمعه داود منذ وقت مبكر، حين كان حامل الأختام لسليمان الكبير، اعتبره في حينه مسرفاً في سوء الظن والتشاؤم، ويشبه كثيراً نصائح المسنين لأبنائهم وهم يستعدون للسفر، إذ يعتبرون أن من الواجب والعقل أن يقولوا كلاماً مختلفاً عما تعوده الأبناء، وكأنه خلاصة تجربة الحياة، وبرهان على الحكمة أيضاً. وقد ظن داود، في ذلك الوقت، أن ما قاله سليمان الكبير لا يتفق والواقع، لأن الحكمة ورجاحة العقل، وحتى غنى التجربة، لا تقاس دائماً بعدد السنين التي يحملها الإنسان على كتفيه، كما لا تشكل قانوناً واجب الاتباع، أو يطبق في جميع الحالات.

«لكن السنين تعلّم، والهزيمة تذل وتكوي، ولذلك فالحذر من حسن الفطن» هكذا أخذ داود يردد لنفسه، وهو يستعيد سلسلة طويلة من الوجوه والأحداث التي مرت، وهذا ما دفعه لأن يكون شديد الحذر، وأن لا يعطي سره لأحد، حتى لو كان أقرب الناس إليه، «لأن السر إذا تجاوز الاثنين ذاع، ومن يملك سرك يتعِبُك حتى لو كان معك، أما إذا تغيرت الريح فيفرض نفسه شريكاً حتى لو لم يطلق رصاصة واحدة!».

وتمثلت له صورة الآغا: كيف كان في البداية، وكيف هو الآن.

حين التحق الآغا بالجبل أول مرة، كان لا يجرؤ على أن يرفع عينيه، وكان صوته يرتجف. أكثر من ذلك بدا له وكأنه نسي الكلام، أو لا يعرف كيف يعرض أفكاره. ويتذكر الباشا أنه سأل خادمه، فيروز، ذات مرة عن لون عيني الآغا، فارتبك فيروز للسؤال، إذ لا يعرف إن كان الباشا جاداً أو مازحاً، لكن حين كرر عليه السؤال، وكان يبتسم، رد فيروز بدعابة:

ـ كل عين لها لون. . . سيدي!

ولما اتسعت ابتسامة الباشا، تابع فيروز:

ـ وبالليل غير شكل عنها في النهار، سيدي!

هكذا كان الآغا في البداية، لكن بمرور الأيام تبين لداود أن كلمات خادمه كانت من الذكاء والحدس بحيث حزر على الآغا قبل الآخرين، وربما ساعده على ذلك أنه كان يراه في أوضاع وأوقات مختلفة. فهو يراه كيف يتصرف حين يكون في حضرة الباشا، ثم كيف يتغير حين يكون مع أنداده من الضباط. أما وهو يتعامل مع رجاله المقربين، خاصة الذين يخدمونه، فإنه يصبح شخصاً مختلفاً تماماً.

ومع أن للباشا عدداً من العيون على الآغا يحصون كل حركاته وسكناته، وكان منهم من يشاركه الشراب، وينقل هؤلاء لديوان الباشا كل شيء، إلا أن الباشا كان يروق له أن يسمع من فيروز، الذي لا يكتفي بأن يروي ما رأى، وما سمع، إذ يضيف من عنده رأياً أو تفسيراً، وهذا ما يريده الباشا على وجه التحديد.

يسأله في بعض العصاري، والعادة أن يجري الحديث في الحديقة المطلة على النهر، وغالباً يكون فيروز واقفاً، أو مفترشاً العشب كأي قط بين يدي الباشا:

ـ شلون أحوال الأفندي؟

ورغم أن عدداً من معاوني الباشا، وآخرين يعملون في السراي، يحملون اللقب نفسه، إلا أن فيروز، وبطريقة كانت تثير استغراب الباشا، يعرف عن أي الأفندية يسأله، بل أكثر من ذلك، وبمجرد أن يلتفت الباشا إلى هذه الناحية أو إلى تلك، أو من خلال نظرة، يدرك فيروز ما يريد، فيبادر إلى الإجابة أو إلى تلبية ما يطلبه. وهذه الفطنة، إضافة إلى البراعة في إتقان الصمت، جعلاه مقرباً وموثوقاً، بحيث أصبح الباشا لا يستغني عنه.

يرد فيروز على سؤال الباشا باقتضاب، وبطريقة لا تخلو من دعابة، ويعرف أنه يسأله عن الآغا:

ـ زعل على حامد أول البارحة، وخلاه يماعي مثل السخل!

ويروي للباشا كيف أن حامد حين قاطع الآغا، وهو يصحّح اسم أحد الزوار، انفعل الآغا وأمره ان يتحول إلى خروف، أي أن يبقى جالساً على أربع، على يديه ورجليه، وأن يقلد صوت الغنم.

وحين يسأله الباشا:

ـ إذا لوحنا له بجزة برسيم يصير ويانا؟

ويعرف أنه يقصد حامد الذي أهين، فيرد:

ـ تعوّد على اللطمات يا باشا، وما يفيد!

ولأن الآغا بدا ملحاً وهو يطلب سرعة تجريد حملة على الجنوب، وأن تعهد إليه قيادتها، فقد تحسب الباشا أكثر من قبل، وعاودته أقوال سليمان الكبير، حين ينتصر القائد مرتين!

لقد تغير الآغا خلال الفترة الأخيرة، تغير كثيراً، خاصة بعد معركة الفرات الأعلى، أصبح لا يخفي مواقفه؛ وما لا يقوله مباشرة، يتكفل به

رجاله، إذ أخذوا يذيعون أن إرادته لا ترد، وما يرغب فيه يجب أن يتحقق، ووحده الذي يستطيع أن يأمر الباشا، وأن الباشا تحول إلى خاتم في يده.

أما البساطة التي كانت تتبدى في مظهره وسلوكه، وحتى في كلامه، فكانت فخاً أو قناعاً لكي يصل، ولكي يتمكن. وما كان يقال عن شجاعته أصبح بنظر الكثيرين قسوة أقرب إلى الأذى، لأن من يلتقي به إذا لم يتعرض لأذاه، فلا بد أن تصيبه سخريته!

القصص التي تروى عنه كثيرة إلى أقصى حد، ويتم تداولها بسرعة، مع أنه لا يُعرف مدى صحتها، كما لا يقوى أحد على الزعم أنه كان شاهداً عليها.

حتى هو، لفرط ما تكررت القصص، وكانت تصل إليه، أصبح على يقين أنها حصلت، أو حصل ما يماثلها، وانه كان «بطلها». أما حين يُسأل، ولأنه لا يحب الحديث، وربما لا يجيده، فيترك للآخرين أن يقدروا، خاصة وأن ابتساماته، وقد تصل إلى حد القهقهة، إضافة إلى حركات اليدين والجسد، لا تترك مجالاً لاستنتاج واثق وأكيد.

بعد أن زادت زيارات الآغا للباليوز، أخذ الباشا يتحسب. أما حين بعث إليه من يسأله بشكل غير مباشر عن زياراته وعلاقاته، فكان جوابه ساخراً وقاسياً معاً:

ـ آني ما أخاف من شي، ولا أعتبر أي شي ممنوع أو حرام!

وفجأة تستيقظ حواس الريبة لديه، يشعر أنه مراقب، فيضيف بحدة:

ـ حتى القحاب والقواويد لازم أشوفهم، اسمع منهم، وكل واحد يريد عليوي ألف هلا ومرحبا، مو مثل غيري يعلي أسواره ويسد بابه!

كان يعني الباشا قبل أن يعني أيّ إنسان آخر، وانسجاماً مع هذه القناعة، وللتحدي أيضاً، زار محلة أبو سيفين، ومر على زهرة وسلطانة، واستدعى نعيم أبو طوب وگرجي، وقرر أن يدخل إلى مخادع الآخرين من نوافذ غير متوقعة. أما حين علم الآغا بزيارة بدري لروجينا فقد أطلق لسانه في إحدى الليالي أمام عدد من ضباطه:

ـ ما ينعرف: ابن علو جا يمّ روجينا يتونس أو يتجسس؟

ولما لم يجبه أحد، يتابع:

ـ يحسبون أنهم وحدهم اللي يقدرون. . . لكن باچر أو اللي عقبه راح بعيونهم يشوفون!

وفي تلك الليلة، كما في ليالٍ أخرى، قال كلاماً وصل إلى الباشا. قال في هذه الليلة، وردده في ليالٍ تالية:

ـ هذول اللي يلقلقون بالأمثال والأشعار، والواحد منهم ما يخش لسانه بحلقه، وبين كلمة والثانية قال الله وقال الرسول، هذول يخوفون، ولازم الواحد يحسب لهم ألف حساب!

ولأن الذين يسمعون يعرفون عمن يتحدث ولا يعرفون، فإنه يتابع:

ـ الناس اللي شالوا أرواحهم على أيديهم، وقسم منهم راحوا وماتوا، انّسوا، حطوا فوقهم طابوقة ونفضوا أيديهم منهم، وقالوا لأولاد المسعدات تعالوا، احكموا وارسموا، لكن الأيام بينّا!

كان بكلامه يرد على الشعراء الذين قرّبهم داود باشا، وعلى رجال الدين الذين أجزل لهم العطاء؛ وكان يرد على القصائد التي نظموها بعد معركة الفرات الأعلى، وكلها تشيد بقوة وشجاعة الباشا الذي حقق النصر، ولم يرد ذكره إلا كظل باهت، في الوقت الذي كان هو صاحب الفضل في كل ما تحقق. ولأن الذين يسمعون إليه قدروا أنه يعني هؤلاء، وان لم يكونوا متأكدين، فقد اندفع:

ـ ما شالع قلبي إلا هذول الأفندية وأصحاب العمايم. الواحد منهم مگدي وعلجيته قديفة. أيام الحرب والضرب واحدهم لازق بحضن مريّته، وبس يخلص القتل والمقتول تشوفهم من كل فجّ يطلعون، وأصواتهم عالية: يصير وما يصير؛ نقبل وما نقبل؛ قال الشاعر الفلاني والشاعر الفلاني. . لك أولاد القحاب. . وين ضميتو روسكم لما ردنا الرجال؟ حتى العوافي ما قلتم، يا أولاد الحرام!

يقول أحد الحاضرين:

- الحق علينا، سيدي، نحن هدينا الحبل نحن نخينا وقلنا لهم: خيلوا. . . اركبوا!

فيرد الآغا، وتخرج الكلمات من بين أسنانه:

- لكن يخسون، ولازم يوم من الأيام يعرفون: مو كل مدعبل جوز!

ويأتيه صوت حامد، مرافقه:

- بس أنت أؤمر، سيدي، ونحن رجالك، وعلينا الباقي

ويهتز رأس الآغا دلالة التهديد:

- ما يخالف، إن غداً لناظره قريب.

ولا يتأخر الباشا في اتخاذ القرار:

- جاء وقتك يا آغا، وعليك الاعتماد.

يتهلل وجه الآغا، يقترب قليلاً، يجلس على طرف الكرسي، انتظاراً للكلمات التالية:

- ولأنك مجرَّب، واسمك يقرقع بالولاية كلها، ويخوف اللي ما يخاف، ولأن الخطر، هذه المرة، من الشمال، وخاف الجماعة هناك ياخدونا غفل، قررت إيفادك إلى كركوك. . .

تراجع الآغا وارتخى. كان يظن شيئاً ويسمع الآن شيئاً مختلفاً. لاحظ الباشا خيبة أمله، قال، وهو يبتسم:

- اخترت لك مكاناً وسطاً، كركوك، فإذا استقر الوضع في الشمال، وسوف يتحقق ذلك خلال بضعة شهور، وإذا أنجزنا التحضير لحملة الجنوب، فلا غنى عنك، سنبعث وراءك، ونكون كمن يكسب الدنيا والآخرة!

ورغم أن الآغا بذل جهداً خارقاً من أجل صرف النظر عن هذا الإجراء، إذ قلل من أهمية ما يجري في الشمال، والأخطار التي تتهدده، وركّز، مجدداً، على الجنوب، وما يمكن أن يترتب نتيجة عصيان البدو، واحتمال توالي ثوراتهم، إلا أن الباشا قال ليحسم الأمر:

ـ القضايا الكبيرة للرجال الكبار يا آغا، وما اخترت غيرك للشمال لأني أعرف أن الأخطار ستأتي من هذه الجهة . . .

وتغيرت النبرة، أصبحت حزينة:

ـ وتعرف معزتك عندي، وأني لا أطيق فراقك، لكن للضرورة أحكامها حتى لو خالفت رغباتنا وعواطفنا.

لما وجد الآغا أنه غير قادر على مخالفة أمر الباشا، ولا بد من تنفيذ الأمر، قال في محاولة لكسب شيء مقابل هذه الخسارة:

ـ إذا كانت هذه رغبتك يا أفندنيا، ولفترة محدودة، ومن أجل الاستعداد لحملة الجنوب، فأتمنى أن يكون ضباطي معي لوضع الخطط ولاستمرار التدريبات!

ـ لك ما تريد يا آغا، وإذا لديك طلبات أخرى فأنا على أتم الاستعداد لتلبيتها!

وهكذا نُقِلَ الآغا إلى الشمال.